محاضرات رمضانية في تقريب معاني الآيات القرآنية

الجزء الثاني

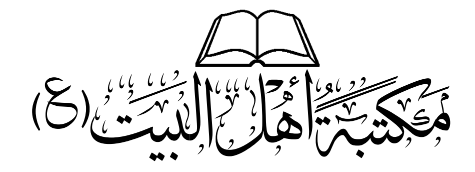
سورة الكهف ـ سورة الناس

تأليف

السيد العلامة المجتهد

محمد بن عبدالله عوض

حفظه الله وأبقاه



صف وتحقيق وإخراج:



اليمن ـ صعدة ـ ت (٥٣١٥٨٠/ ٧١٣٨٤٢٩٨٩)

الطبعة الأولى

١٤٣٨هـ

سورة الكهف

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجَا﴿١﴾﴾ ابتدأ الله سبحانه وتعالىٰ هذه السورة بالحمد والثناء، والشكر له على نعمته هذه، وهي أن أنزل القرآن الذي فيه نعمة عظيمة؛ إذ أنزله على نبيه ﷺ ليبلغ الناس طريق نجاتهم وهدايتهم، وأي نعمة أعظم من هذه النعمة أن يهدينا إلى الطريق الموصلة إلى السعادة الأبدية والدين المستقيم الذي يوافق فطرة العقل.

﴿قَيِّمًا﴾ فهو كتاب حجته قائمة فيه بينة ظاهرة.

﴿لِيُنْذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِنْ لَدُنْهُ﴾ يحتمل أن المنذر هو القرآن، ويحتمل أن يكون النبي ﷺ، فهو ينذر الكافرين والمكذبين بالعذاب الشديد يوم القيامة.

﴿وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا﴿٢﴾ مَاكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا﴿٣﴾﴾ ويبشر المؤمنين أهل الأعمال الصالحة بالثواب العظيم في الجنة خالدين فيها أبداً.

﴿وَيُنْذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا﴿٤﴾﴾ يحذر الله سبحانه وتعالىٰ وينذر هؤلاء الذين يفترون عليه هذه الفرية العظيمة وهو أن معه ولداً تعالىٰ عن ذلك علواً كبيراً.

﴿مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَائِهِمْ﴾ وأخبر أنهم إنما يقولون ذلك من عند أنفسهم لا عن دليل ولا حجة كما يقول آباؤهم، وهؤلاء هم طائفة اليهود عندما قالوا: عزير ابن الله، وكذلك النصارىٰ عندما قالوا: المسيح ابن الله، والمشركون الذين قالوا إن الملائكة بنات الله، تعالىٰ الله عن ذلك علواً كبيراً.

﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا﴿٥﴾﴾ وأخبر أن هذا افتراء عظيم عليه، لأنهم بقولهم هذا حطوه عن مرتبة الإلهية والربوبية؛ لأن التوالد من طبيعة الخلق، والله تعالىٰ ليس من جنس المخلوقين.

﴿إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا۝﴾ ثم أخبر أن قولهم هذا ليس إلا كذباً وافتراءً عليه، ولا دليل لهم عليه ولا حجة.

﴿فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى ءَاثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا۝﴾ يخاطب الله سبحانه وتعالى نبيه صلى الله عليه وآله وسلم معاتباً له على شدة متابعته لقريش ليؤمنوا، وحرصه المتبالغ في متابعتهم وملاحقتهم حتى أجهد نفسه غاية الجهد، وتعاظم حزنه وأسفه على عدم إيمانهم، فرحمه الله وقال له: هون على نفسك ولا تقتلها في متابعة قريش ليؤمنوا، وما عليك إلا البلاغ المبين، فإذا بلغتهم حجة الله عليهم فقد أديت رسالتك.

﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا۝﴾ أخبر الله سبحانه وتعالى أنه خلق الأرض لعباده، وسخر لهم ما عليها من الزينة ليختبرهم ويبتليهم؛ لينظر من يصبر منهم على طاعته، ومن يميل بهواه إلى زينة الحياة الدنيا.

﴿وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا۝﴾ ثم أخبر سبحانه وتعالى أنه سوف يدمر الأرض بعد ذلك، وسيجعلها صعيداً واحداً لا نبات فيها ولا حياة، وذلك يوم القيامة ليحاسب الناس على ظهرها.

﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ ءَايَاتِنَا عَجَبًا۝﴾ أخبر الله سبحانه وتعالى نبيه صلى الله عليه وآله وسلم أن آياته كلها عجيبة، وأن أصحاب الكهف آية من آياته فالمفروض أن لا يتعجب منها وحدها، فليست وحدها التي تبعث على العجب، فآيات الله العجيبة تملأ السماوات والأرض.

والرقيم: لوح من الحجارة رقم عليه قصة أصحاب الكهف، وذلك لأن قصتهم كانت مرقومة على لوح من حجر في باب الكهف فسموا أصحاب الرقيم لذلك.

﴿إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ﴾ قص الله سبحانه وتعالىٰ لنبيه ﷺ شأنهم، وذلك أنهم فتية هربوا بدينهم إلىٰ الكهف من بطش ملكهم الكافر؛ وكانوا قد أعلنوا إيمانهم غير مبالين بظلمه واستكباره.

﴿فَقَالُوا رَبَّنَا ءَاتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا۝١٠﴾ دعوا الله سبحانه وتعالىٰ عند دخولهم إلىٰ الكهف بأن ينزل عليهم رحمة من عنده في كهفهم هذا؛ لئلا يظفر بهم ملكهم فيفتنهم عن دينهم، وأن يحوطهم بعنايته وحفظه، وأن يدبرهم إلىٰ ما فيه رشدهم، ويمهد لهم الطريق التي فيها سدادهم وسلامة دينهم.

﴿فَضَرَبْنَا عَلَى ءَاذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا۝١١﴾ ثم إن الله سبحانه وتعالىٰ استجاب لهم، وأنزل عليهم النوم في هذا الكهف مئات السنين، وحفظهم فيه، وألقىٰ الرعب في قلب كل من اقترب منهم فلا يستطيع أحد أن يصل إليهم، وذلك بأن ألبسهم الله سبحانه وتعالىٰ صوراً تجعل كل من رآها يفر هارباً.

﴿ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَى لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا۝١٢﴾ ثم إن الله سبحانه وتعالىٰ أيقظهم من نومتهم تلك بعد ثلاثمائة سنة وتسع سنين، وذلك لأجل أن يعلموا كم لبثوا ليطلعوا علىٰ كرامة الله سبحانه وتعالىٰ لهم بأنه استجاب لهم، ونجاهم من بطش ملكهم وحفظهم، ويعلموا أنه قد رضي عنهم فتطمئن أنفسهم.

وكانوا قد انقسموا قسمين فقال بعض منهم: قد لبثنا يوماً أو بعض يوم، وقال الباقي: الله سبحانه وتعالىٰ وحده الذي يعلم كم قد لبثنا، ثم إنهم بعد ذلك عرفوا وتحققوا كم لبثوا من السنين، وكل ذلك ليطلعهم الله سبحانه وتعالىٰ علىٰ أنه قد أكرمهم واستجاب دعاءهم ونجاهم، ورضي عنهم، وقد أطلع الناس جميعا علىٰ ما أكرمهم به؛ ليرفع من قدرهم ومنزلتهم.

﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُمْ بِالْحَقِّ﴾ أخبر الله سبحانه وتعالىٰ نبيه ﷺ أنه سوف يقص عليه خبرهم الصحيح، وما كان من شأنهم.

﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى﴿١٣﴾﴾ كان أصحاب الكهف مجموعة من الشبان المؤمنين، وبسبب إيمانهم زادهم الله هدىٰ ونوراً في قلوبهم.

﴿وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَنْ نَدْعُوَ مِنْ دُونِهِ إِلَهًا لَقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا﴿١٤﴾﴾ وقوىٰ الله قلوبهم وشد من عزائمهم عندما قاموا في وجه ملكهم، وأعلنوا أمام الملأ إيمانهم بالله سبحانه وتعالىٰ، واستخفوا بما سواه من الآلهة، غير مبالين بالملك وبطشه، وذلك قبل لجوئهم إلىٰ الكهف.

﴿هَؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ ءَالِهَةً﴾ مستنكرين علىٰ قومهم غير مبالين بهم، وبما يكون من ردة فعلهم بأنهم اتخذوا آلهة يعبدونها من دون الله سبحانه وتعالىٰ.

﴿لَوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِمْ بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴿١٥﴾﴾ مطالبين لهم بأن يأتوا بدليل يشهد لهم علىٰ صدق إلهية ما يدعونه، وأخبروهم أنهم لن يستطيعوا ذلك؛ لأن ادعاءهم ذلك كذب وافتراء، وأنه لا أحد أظلم ممن ادعىٰ آلهة مع الله سبحانه وتعالىٰ كذباً وافتراءً عليه، ولأجل ذلك زادهم الله سبحانه وتعالىٰ بصيرة في قلوبهم، وأيدهم بالحجة التي أسكتوا بها قومهم.

﴿وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيُهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مِرفَقًا﴿١٦﴾﴾ يتشاورون فيما بينهم، بعدما أعلنوا إيمانهم بالله وحده وترك ما سواه، وكان هذا خطاب كبيرهم، فقد أشار عليهم بأن يهربوا إلىٰ الكهف بدينهم، وأخبرهم أنه لم يبق لهم إلا الله سبحانه وتعالىٰ يلجؤون إليه، وأنه سينزل رحمته عليهم في الكهف، وسوف يهيئ لهم مكاناً يلجئون إليه، ويحفظهم فيه من هذا الملك الظالم.

ثم إنهم ذهبوا إلىٰ الكهف الذي أشار عليهم كبيرة بالذهاب إليه والاختباء فيه فدخلوا فيه وناموا.

﴿وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَتْ تَزَاوَرُ عَنْ كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَتْ تَقْرِضُهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ﴾ وأخبره أن الشمس كانت إذا طلعت فإنه يميلها عن كهفهم إلى ناحية اليمين؛ لئلا تحرقهم بشعاعها مع طول الوقت، وعند غروبها تعطيهم من أشعتها شيئاً يسيراً؛ لكي تستفيد منها أجسادهم.

﴿وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِنْهُ﴾ أي في متسع داخل هذا الكهف.

﴿ذَلِكَ مِنْ ءَايَاتِ اللَّهِ﴾ وأن هذا كان من تدبيره تعالى إذ صرف الشمس عنهم حتى لا تصيبهم أشعتها إلا ما تحتاج إليه أجسادهم.

﴿مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِدًا ﴿١٧﴾﴾ وهؤلاء قد هداهم الله سبحانه وتعالى، وقد جعلهم من المهتدين، وأما من ضل عن طريق الحق والهدى فلن يستطيع أحد أن يهديه بعد الله سبحانه وتعالى.

﴿وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ﴾ كانوا في خلال نومتهم تلك فاتحين لأعينهم، وكانوا أيضاً يتقلبون تارة على أيمانهم وتارة أخرى على شمائلهم؛ حفاظاً على أجسادهم من التقرح والتآكل، وكل ذلك بمشيئة الله سبحانه وتعالى.

﴿وَكَلْبُهُمْ بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ﴾ وقد نام كلبهم على باب الكهف باسطاً ذراعيه ماداً لهما، وأدركته رحمة الله تعالى معهم وأحاطت به، وفي ذلك دلالة على أن من صاحب الأخيار فإنه يناله نصيب مما يعطيهم الله سبحانه وتعالى من رحمته.

﴿لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا ﴿١٨﴾﴾ كان النبي ﷺ من أقوى الناس قلباً وأشدهم بأساً، فأخبره الله سبحانه وتعالى أنه لو اطلع عليهم لامتلأ منهم رعباً وفزعاً؛ لما جعل الله عليهم من الصور التي لا تتحمل طبيعة البشر النظر الطويل إليها لما ألبسهم الله من أسباب الفزع وبواعث الرعب وغايته ونهايته.

﴿وَكَذَلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ﴾ أخبر الله سبحانه وتعالىٰ أنه بعثهم من نومهم الطويل ليعلموا أن رحمة الله تعالىٰ قد أدركتهم، وأنهم قد فازوا برضوان الله سبحانه وتعالىٰ وكرامته.

﴿قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ سأل بعضهم بعضاً عند بعثهم من نومهم فقال بعضهم: كم لبثتم في نومتكم هذه؟ فأجابوا: لبثنا يوماً أو بعض يوم، وفي ذلك دلالة على أن أجسادهم كانت على حالها وطبيعتها لم تتغير، وثيابهم لم تبل، وأن أشعارهم وأظافرهم لم تتغير ولم تطل، وأن الله قد أزال أسباب الرعب عن صورهم.

﴿قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ﴾ ثم ردوا أخيراً العلم بمقدار نومهم إلىٰ الله تعالىٰ.

﴿فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ﴾ أمر كبيرهم واحداً منهم أن يذهب لشراء الطعام لهم، ولم يخص واحداً بعينه تأدباً لئلا يحسسهم بأنه متأمر عليهم، وأنه فوقهم.

وفي هذا دلالة على أنه إذا كان مجموعة في سفر أو نحوه فإنهم يُكَبِّرون واحداً منهم ويؤمِّرونه عليهم، ويجعلونه مسؤولاً على احتياجات رحلتهم وحلهم وترحالهم.

وفيه دلالة على أن يتحلى من كان كبيراً منهم بهذه الآداب بأن يظهر لهم التأدب وعدم التعنيف بهم، وأن يشاورهم في جميع أمورهم.

وكانت ورِقهم دراهم من فضة كانت معهم.

﴿فَلْيَنْظُرْ أَيُّهَا أَزْكَى طَعَامًا فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ مِنْهُ﴾ فليذهب أحدكم إلى المدينة لجلب الطعام، وليتخير الطيب منه والحلال.

﴿وَلْيَتَلَطَّفْ﴾ وليتخذ من يذهب منكم الحذر الشديد؛ لئلا ينكشف أمرنا للملك.

﴿وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا ۝١٩﴾ ولا يخبر أحداً بموقعنا كائناً من كان.

﴿إِنَّهُمْ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَنْ تُفْلِحُوا إِذًا أَبَدًا ۝٢٠﴾ إنهم إن عرفوا بأمركم ومكانكم فسوف يأتون لقتلكم أو تعذيبكم إلى

أن ترجعوا إلى دينهم، وأنكم إن فعلتم ذلك وكفرتم فلن تفلحوا بعدها أبداً، وسيعذبكم الله سبحانه وتعالى.

وكان هذا الكهف قريباً من مدينتهم، وكانوا قد اختبئوا فيه تلك الليلة من تعبهم ليستريحوا فيه، ويناموا ليلتهم إلى أن يدبرهم الله سبحانه وتعالى لمخرج وطريق يسلكونه، ومكان يأوون إليه، فأنامهم الله تعالى في ذلك الكهف.

﴿وَكَذَلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا﴾ كشف الله سبحانه وتعالى للناس قصة أهل الكهف وأظهر أمرهم بتدبير منه بالرغم من تخفيهم الشديد، وحرصهم على ألّا يطلع أحد على أمرهم، ولكن حكمته اقتضت أن يظهر أمرهم لجميع الناس، فذاع خبرهم وقصتهم واشتهر بين جميع سكان المدينة، فلحقوا بهم إلى الكهف ليتعرفوا على أخبارهم وشأنهم وقصتهم عن قرب، وقد أخبرهم أهل الكهف بقصتهم وشأنهم، وأخبروهم عن أسمائهم، وظهر لهم كم لبثوا نياماً بداخل الكهف، وكان السر والحكمة في ذلك ليعلم الناس أن وعد الله سبحانه وتعالى حق، وأنه قادر على أن يبعث الناس بعد موتهم، وأنه سيحشرهم يوم القيامة؛ لأنهم إذا رأوا وعرفوا أمر أصحاب الكهف ونومتهم مئات السنين عرفوا أن الله على كل شيء قدير، وأنه قادر على أن يحيي الموتى، ولئلا يكون لهم سبيل بعد ذلك إلى إنكار البعث بعد الموت.

إذاً فهناك حكمتان من بعثهم: الأولى: ليعرفوا كرامة الله سبحانه وتعالى لهم. والثانية: ليطلع الناس على قدرته على البعث والإحياء بعد الموت.

﴿إِذْ يَتَنَازَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِمْ بُنْيَانًا رَبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ﴾ كان الناس قد لحقوا بهم لينظروا شأنهم وقصتهم، وبعد أن عرفوا ما جرى عليهم دخل هؤلاء الفتية الكهف ودعوا الله سبحانه وتعالى أن يميتهم، فأماتهم مكانهم، ثم إن الناس اختلفوا فيما بينهم فبعض منهم أشار بأن يضعوا بناءً عليهم.

﴿قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَى أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَسْجِدًا﴿٢١﴾﴾ وكانت الغلبة والدولة للمؤمنين؛ لأنهم كانوا الكثرة ذلك الوقت فاتفقوا على أن يبنوا عندهم مسجداً؛ ليكون ذلك المكان مقصداً للناس يتعبدون فيه إظهاراً لشرف هؤلاء الفتية، وكرامتهم عند الله سبحانه وتعالى، وللتبرك بالصلاة فيه.

﴿سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ﴾ أخبر الله سبحانه وتعالى نبيه ﷺ أن اليهود مختلفون فيما بينهم حول عدد أصحاب الكهف ففريق منهم قال ثلاثة نفر وكلبهم الرابع، وفريق قال خمسة وكلبهم السادس، وأخبره أن أهل هذين القولين إنما يقولون ذلك لا عن حجة ولا دليل، وأنه قول باطل.

﴿وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾ وأما فريق منهم فإنهم كانوا يقولون إنهم سبعة وكلبهم الثامن، وأخبره أن هذه المقالة هي الصحيحة بدليل أن الله تعالى لم يردها كما رد تلك المقالتين السابقتين.

﴿قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِمْ﴾ وأخبرهم يا محمد أن الله هو العالم بعدتهم، وأنه قد قرر أهل القول الثالث بينما قد كذب المقالتين السابقتين.

﴿مَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ وأنه لم يعلم بأمرهم إلا القليل من الناس، وهم بعض أهل الكتاب أي الذين قالوا بأنهم سبعة وثامنهم كلبهم.

﴿فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَاهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِمْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴿٢٢﴾﴾ نهى الله سبحانه وتعالى نبيه ﷺ أن يجادل أهل الكتاب وأن يكثر معهم في الجدال، وإنما يخبرهم بقصتهم كما أخبره في القرآن، وذلك لأنهم أهل جهل وعناد فلن يقبلوا منه، ونهاه أيضاً أن يسأل أحداً من اليهود عن أخبار أهل الكهف؛ لأنهم لا يعلمون بقصتهم على حقيقتها، وإنما يخبطون في شأنهم وقصتهم لا عن علم ويقين، وإنما يتبعون هواجس وأهواء.

﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا۝٢٣ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ ونهاه الله سبحانه وتعالىٰ أن يعد أحداً بشيء إلا ويعلقه بمشيئته، وذلك أنهم عندما سألوه عن قصة أصحاب الكهف وعدهم بأنه سيخبرهم غداً، فعاتبه الله سبحانه وتعالىٰ علىٰ ذلك ونهاه أن يعد أحداً بشيء إلا إذا كان معه خبر من الله سبحانه وتعالىٰ بأنه سينجزه له فلا بأس بذلك، وقد قيل إنه بسبب ذلك رفع عنه الوحي نحواً من خمسة عشر يوماً.

وأظن أن ذلك ليس بصحيح؛ لأن الله سبحانه وتعالىٰ لطيف بنبيه ورحيم به، ولا يريد أن يحزن نبيه أو يظهره في صورة الكذاب بين الناس، ويعرضه لسبهم ورميهم له الكذب، وإنما كان ذلك تعليماً لنبيه صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ أن لا يقطع في شيء إلا بأمر وإذن منه، وأن لا يعد أحداً بشيء ليس في يده ولا تحت قدرته، كما كان منه في وعده لليهود بأنه سيخبرهم بقصة أهل الكهف مع أن ذلك ليس في يده ولا زال في علم الله سبحانه وتعالىٰ لا يعلم ما مراده فيه، وهل سيخبره بشأنهم أم لا، فنهاه الله سبحانه وتعالىٰ عن ذلك، وأن لا يقطع في شيء إلا وقد أذن له فيه؛ لأن حكمته قد لا تقتضي ذلك الشيء الذي قد وعدهم به.

﴿وَاذْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾ أمره الله سبحانه وتعالىٰ أن يكون ذكره علىٰ قلبه في كل وقت وحين، وأن يتذكر أوامره له وتعاليمه، ويعمل بها.

﴿وَقُلْ عَسَى أَنْ يَهْدِيَنِ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَذَا رَشَدًا۝٢٤﴾ وأمره أن يسأله أن يطلعه علىٰ المزيد من آياته وعجائبه، كقصة أهل الكهف وغيرها من الآيات.

﴿وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا۝٢٥﴾ أمر الله سبحانه وتعالىٰ نبيه صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ بأن يخبرهم بأنه وحده العالم بمدة لبثهم في الكهف، وأنهم قد لبثوا ثلاثمائة وتسع سنين، وأمره بأن لا يعتمد علىٰ أخبار اليهود فهو أعلم منهم، وأن لا يوثق بأخبارهم علىٰ الإطلاق، ولا بما ينقلونه من الوقائع والأحداث، وقد أجمع المسلمون علىٰ أنه لا وثوق بأخبار بني إسرائيل؛ لأن كتبهم قد

أصبحت محرفة، فهو وحده العالم؛ لأنه المختص بعلم غيب السماوات والأرض مستقبلها وماضيها، ولا أحد يشاركه في ذلك.

وقد قيل: إن ثلاثمائة سنة شمسية تساوي ثلاثمائة وتسع سنين قمرية، ويحتمل أنها ثلاثمائة وتسع سنين سواءً شمسية أو قمرية.

﴿قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا لَهُ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ﴾ الله تعالى هو العالم بمدة نوم أهل الكهف دون أهل الكتاب، وهو تعالى المختص بعلم مغيبات السماوات والأرض، لا يغيب عن علمه لفظة لافظ ولا همسة هامس ولا صوت وإن دق، ولا يغيب عن علمه متحرك ولا ساكن، وسع كرسيه السماوات والأرض.

﴿مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا ﴿٢٦﴾﴾ أخبر الله سبحانه وتعالى أنه ليس للمشركين إله يعبد غير الله سبحانه وتعالى، وأنه لا يشرك أحداً في ملكه وتدبيره لأمر السماوات والأرض وما بينهما.

﴿وَاتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ كِتَابِ رَبِّكَ﴾ ثم أمر الله سبحانه وتعالى نبيه صلى الله عليه وآله وسلم بأن يستمر على تلاوة آيات القرآن عليهم، وتبليغهم ما أوحي إليه، وأن لا تفتر عزيمته أو تضعف معنوياته لمصادمتهم له بالتكذيب والاستهزاء، وأن لا يبالي بتكذيبهم واستهزائهم.

﴿لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ﴾ وأخبره بأن النصر سيأتيه وأن دينه سيظهر على جميع الأديان، وأخبره أنه لن يبدل وعده هذا، وحثه على الصبر والاستمرار على تبليغ الحجة.

﴿وَلَنْ تَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا ﴿٢٧﴾﴾ وأخبره أنه لن يجد أحدا يلتجئ إليه أو يسند ظهره عليه إلا الله سبحانه وتعالى.

﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ كان النبي صلى الله عليه وآله وسلم في خلال دعوته إلى الله سبحانه وتعالى وإلى الإسلام قد استجاب له ضعاف الناس

وفقراؤهم، بينما أولئك الأشراف وأهل الغنى والوجاهة قد كذبوا به، فأمره الله سبحانه وتعالى بأن يمكث بين أولئك الضعاف، فهم الذين انقادوا لله سبحانه وتعالى، واستسلموا له خاضعين له بالدعاء والتوسل، وأمره أن يتخذهم جلساء له، وأن لا ينظر إلى غيرهم من أهل الدنيا بل يعرض عنهم كل الإعراض ولا يلتفت إليهم في أي شيء من أمور دنياهم على الإطلاق، ولا ينظر إلى ما هم فيه نظر إعجاب بما أوتوا من الأموال ومن زينة الدنيا والاستعظام لما هم فيه من النعيم والترف فهو حقير عند الله سبحانه وتعالى، وأخبره أن هؤلاء الضعاف أعظم عنده وأرفع قدراً من أولئك المتكبرين، ونهاه أن يميل نظره عنهم أي ميل، أو يرفع نظره عنهم.

﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ﴾ ونهاه أن يستمع إلى أهل الدنيا أو أن يستجيب لهم في أي أمر من أمورهم أو أن يميل إليهم أي ميل؛ لأنهم غافلون كل الغفلة عن الله سبحانه وتعالى فهم عبيد أهوائهم وشهواتهم.

والمراد بـ﴿أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ﴾ هو أن الله سبحانه وتعالى قد أعطاهم الجاه والشرف والعز والأموال والتجارات التي هي أسباب غفلتهم، فنسب الإغفال إليه عندما أعطاهم الأسباب التي غفلوا بسببها.

ألا ترى لو أعطى رجل ولده النقود، ثم إن هذا الولد انحرف بسببها فإن الناس سيقولون: إن أباه هو الذي خذله، وجعله منحرفاً، وسينسبون ذلك إليه، مع أنه لم يفعل إلا السبب فقط، والله سبحانه وتعالى قد نسب الإغفال إليه لفعله ما هو سببه.

ولو كان الأمر كما يزعمه بعضهم لكان ظالماً أن يعذبهم على فعله للغفلة فيهم.

﴿وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا۝٢٨﴾ بعيداً عن الحق. يخاطب الله سبحانه وتعالى نبيه هنا والمراد به أصحابه؛ لأنه بعيد كل البعد عن اتباع أهل الأهواء والشهوات؛ لأنه في الدرجة العليا من الإيمان بالله سبحانه وتعالى، والتنزه عما يفعله المشركون.

﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ وأخبرهم يا محمد أن الحق هو ما قد جاء به ربهم، وأوحى به إلى نبيه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ فقط، وأن غير ذلك ضلال وباطل.

﴿فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ فقد وضح الله سبحانه وتعالى لخلقه الحق وبينه على لسان نبيه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ بالحجج والبراهين القاطعة، وجعل لهم العقول التي يميزون بها بين الحق من الباطل، ثم وكل كل واحد إلى مشيئته واختياره فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر.

﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا﴾ وأخبر أنه قد أعد لمن عصاه وتمرد عليه ناراً محاطاً عليها بسور لا يستطيعون الهروب منها أو الخروج دائماً وأبداً.

والظالم هو الذي يضع الحقوق في غير مواضعها، والمشركون بعبادتهم الأصنام سموا ظالمين؛ لأنهم عبدوا من لا يستحق العبادة.

﴿وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا﴿٢٩﴾﴾ وإذا طلبوا من يغيثهم فإن ملائكة العذاب ستغيثهم بماء من حميم إذا قربوه من وجوههم ليشربوا شواها وأحرقها من شدة غليانه.

والمهل هو النحاس الذي أغلي عليه في النار حتى أذيب من شدة الحرارة، والمراد أن هذا الماء كالمهل في حرارته، فقد ورد أن شرابهم من صديد أهل النار وقيحهم، وهو أقبح الشراب وأشنعه.

وأخبر أيضاً أن لا مكان يرتفقون إليه ويأوون فيه إلا النار، وأن لا مفر لهم ولا مهرب غيرها.

﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴿٣٠﴾ أُولَئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ﴾ ثم أخبر أن من آمن به وامتثل لأوامره واجتنب ما نهاه عنه فإنه لن يضيع عليه شيء من أجور أعماله هذه، وأنه سيثيبهم جنات إقامة دائمة تجري الأنهار في بساتينها لا تنقطع دائماً وأبداً.

﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ﴾ تكون أسورتهم فيها من الذهب يتزينون بها، ويكون لباسهم من السندس والإستبرق والمراد بهما الحرير الغليظ والرقيق، فالسندس هو الرقيق، والإستبرق هو الغليظ.

﴿مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ﴾ يجلسون على الأرائك والسرر مع أصحابهم للراحة وتبادل الحديث فيما بينهم كما كانوا في الدنيا، فلا شغل لهم إلا التنعم والتلذذ فيها فمرة مع الأصحاب والإخوان، ومرة عند الحور ومرة هنا ومرة هناك.

﴿نِعْمَ الثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا ۝٣١﴾ فثوابهم في غاية العظمة والحسن والنعيم، وحسن مرتفقهم فيها ومأواهم الذي يأوون إليه.

﴿وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا رَجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ۝٣٢﴾ أمر الله سبحانه وتعالى نبيه ﷺ بأن يضرب لقريش مثلاً وهو: رجلان جعل الله سبحانه وتعالى لأحدهما بستانين من الأعناب وعلى أطرافه النخل وبين أوساطهما الزرع.

﴿كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِمْ مِنْهُ شَيْئًا﴾ وأن كلاً من هذين البستانين قد أخرج ثماره صالحة كلها، لم ينقص أو يفسد منها شيء.

﴿وَفَجَّرْنَا خِلَالَهُمَا نَهَرًا ۝٣٣﴾ وبين وسط هاتين الجنتين نهر يجري.

﴿وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ﴾ وقد امتلأت مخازن هذا الرجل بالثمار.

﴿فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ﴾ فقال هذا الرجل لصاحبه مفتخراً عليه بما أعطاه الله سبحانه وتعالى من النعيم ومحتقرا له: ﴿أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ۝٣٤﴾ وكذلك يفتخر عليه بأنه من قبيلة كبيرة وقوية.

﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا ۝٣٥ وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلَى رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا ۝٣٦﴾ دخل جنته وهو معجب بكثرة ما معه من الثمار والبساتين، غير شاكر لله سبحانه وتعالى بما أنعم عليه، ناسياً لنعمته عليه.

وأخبر الله تعالىٰ أنه ظلم نفسه بفعله هذا وظنّه أنه لن يزول هذا النعيم الذي هو فيه، وأن الله سبحانه وتعالىٰ لم يعطه هذا النعيم إلا وهو راضٍ عنه، وبطر نعمة الله سبحانه وتعالىٰ عليه حتىٰ كفر بالله سبحانه وتعالىٰ، وأنكر البعث والحساب، وزعم أنه لو فرض وأن الساعة حق فإن الله تعالىٰ سيعطيه خيراً من هذا النعيم؛ لأنه في زعمه أهل لذلك.

يخاطب صاحبه بذلك وهو في غاية التكبر والزهو بنفسه والغرور.

﴿قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلًا ﴿٣٧﴾﴾ تعجب واستنكر الفقير علىٰ صاحبه كيف يكفر بالله سبحانه وتعالىٰ مع أنه عارف بأنه الذي خلقه من التراب، وأوجده من العدم؟!! وأنه كان من المفترض عليه أن يشكر الله علىٰ ما أنعم به عليه، لا أن يقابل نعم الله عليه بالكفران.

﴿لَكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا ﴿٣٨﴾﴾ بعد أن أكمل عتاب صاحبه الكافر استدرك فقال: أما أنا فلن أشرك بالله سبحانه وتعالىٰ مثلك.

﴿وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾ يعظ صاحبه ويذكره بأنه من المفترض أن يذكر الله سبحانه وتعالىٰ عند دخوله إلىٰ جنته، ورؤيته للنعيم الذي هو فيه، وأن يعترف -بدل الجحود- لله تعالىٰ بأنه الذي تفضل عليه، وأن كل ما معه لاحول له فيه ولا قوة، بل هو بحول الله وقوته، وأنه لولا الله سبحانه وتعالىٰ لما استطاع أن يكون في هذا النعيم الذي يتقلب فيه، وأن يتواضع لله سبحانه وتعالىٰ ويتبرىٰ من حول نفسه وقوته، ولكنه أخطأ رشده وأصر علىٰ الجحود وكفران النعمة.

﴿إِنْ تَرَنِ أَنَا أَقَلَّ مِنْكَ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٣٩﴾ فَعَسَى رَبِّي أَنْ يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِنْ جَنَّتِكَ﴾ إن كنت تراني لا مال لي ولا ولد فإن أملي لا زال متعلقاً بالله سبحانه وتعالىٰ وبفضله، ولا زلت واثقاً بأنه سيعطيني أفضل مما عندك.

﴿وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِنَ السَّمَاءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا﴾ وأنه لا يصعب على الله تعالى أن يدمر جنتك هذه في ليلة واحدة فلا يصبح عليها الصباح إلا وقد أصبحت أرضاً جرداء لا حياة ولا خضرة فيها.

وهذا إيذان بأن من لا يشكر نعمة الله سبحانه وتعالى عليه فإنها تكون قريبة الزوال.

﴿أَوْ يُصْبِحَ مَاؤُهَا غَوْرًا فَلَنْ تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا﴾ أو ينزل ماؤها إلى باطن الأرض فلا تستطيع أن تدركه حتى تيبس أشجارك وبساتينك.

﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَى مَا أَنْفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَالَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا﴾ ثم أخبر الله سبحانه وتعالى أنه فعلاً قد أنزل على بساتينه سخطه ودمرها جميعاً، فلما رآها على تلك الحال أخذ ينادي بالويل والثبور، وأصابه الندم الشديد على كفره لنعمة الله سبحانه وتعالى عليه وإشراكه به.

﴿وَلَمْ تَكُنْ لَهُ فِئَةٌ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنْتَصِرًا﴾ وأخبر الله سبحانه وتعالى أنه عند نزول عذابه لم يكن مع هذا الكافر من ينصره أو يدفع عنه عقابه، وأنه لن يستطيع أن ينصر نفسه أو يدفع هذه النازلة التي نزلت به.

﴿هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا﴾ فإذا نزل عذابه وسخطه على أحد فلن يستطيع أحد أن يدفعه؛ لأن الملك ملكه والسلطان سلطانه، ومقاليد السماوات والأرض بيده وحده.

وأخبر أنه إذا أثاب أحداً فإن ثوابه يكون عظيماً، وأنه إذا عاقب أحداً فإن عقابه يكون شديداً، يريد بذلك أن يحذر الناس فيجتنبوا ما يسخطه ويغضبه، وأن يطلبوا رضاه ورحمته بعمل ما يرضيه.

هذا مضمون القصة والمثل الذي أمر الله سبحانه وتعالى نبيه صلى الله عليه وآله وسلم أن يضربه لقريش؛ لينظروا كيف كانت عاقبة من كفر بنعم الله تعالى عليه؟ وكيف تكون عاقبة من آمن بالله تعالى؟ ليحذروا عاقبة كفرهم لنعم الله عليهم وبطرهم

واستهزائهم بالله سبحانه وتعالى وبنبيه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ وبما جاءهم به، وأن لا يجحدوا نعمه العظيمة عليهم إذ جعلهم أهل حرمه، آمنين في جميع بلاد العرب يسيرون أينما شاءوا فيها، لا أحد يعترضهم بمكروه، بينما بقية العرب في خوف وقتل وقتال، وكانوا يسمونهم أهل الله وسكان حرمه، وأيضاً كان الرزق يأتيهم من جميع بقاع الأرض لا تنقطع عنهم، وجعل لهم جاهاً ورفعة وشرفاً في الدنيا على جميع الناس، وكانوا أهل ثراء وتجارات واسعة، فكان من المفترض بدل كفرهم بالله سبحانه وتعالى وبنعمه وإفسادهم في الأرض أن يشكروا نعمه عليهم، ويعترفوا بفضله عليهم، وأن يؤمنوا به وبرسوله، وبما جاءهم به من الدين.

ثم أمر الله سبحانه وتعالى نبيه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ أن يضرب لهم مثلا آخر فقال:

﴿وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ﴾ شبه الله تعالى لهم سرعة زوال هذه الحياة الدنيا، وأنها ليست دار بقاء بماء ينزل من السماء فتنبت به الخضرة والشجر والزرع فلا يلبث في نضارته وخضرته إلا قليلاً، ثم يصير بعد ذلك هشيماً يابساً تطيره الرياح في كل مكان، فحال الدنيا كحال هذا النبات، فما إن تنساق وتعطي زينتها لأحد حتى تذهب ببهجتها وزينتها وكأن شيئا لم يكن.

﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِرًا ﴿٤٥﴾﴾ فهو الذي يأتي بالخضرة ويزيلها، وهو الذي بيده الحياة والموت.

﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ المال والبنون هما مطلب الإنسان وغاية رغبته في هذه الحياة الدنيا.

﴿وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴿٤٦﴾﴾ والباقيات الصالحات هي الأعمال الصالحة من الإيمان بالله سبحانه وتعالى وبرسله وكتبه والامتثال لأوامره ونواهيه، فأخبرنا أن اكتساب الأعمال الصالحة أفضل عند الله سبحانه وتعالى من المال والبنين، وأن عاقبتها عظيمة عنده تعالى وهي الثواب والفوز بالجنة.

ولا مانع أن يكون المرء ذا مال وبنين ولكن لا يكون عبداً لهما حتى يسيطرا عليه، ويضيعا عليه دينه، فلا بأس أن يكون له مال وبنون ولكن ليسخره في طاعة الله سبحانه وتعالى، ويستعمله فيما يرضيه، ويؤدي الحقوق التي تجب عليه في ماله وولده، وأولاده فلا يطيعهم في معصية الله سبحانه وتعالى فيكونوا سبباً في ضياع دينه إما بأن يكتسب المال الحرام من أجلهم، أو يعصي الله تعالى لأجل أن لا يلحقهم مكروه، بل ينبغي أن يجعلهم سبباً وعوناً له في طاعة الله سبحانه وتعالى، فكل امرئ يستطيع أن يجمع بين المال والإيمان.

﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴿٤٧﴾﴾ يذكر الله سبحانه وتعالى عباده بيوم القيامة وبما يحصل فيها من نسف الجبال وتفتيتها حتى تصير الأرض كلها قاعاً مستوية وصعيداً واحداً، ثم يحشر الناس على ظهرها جميعاً حتى يستطيع الرائي أن يراهم جميعاً، وذلك أن الله سبحانه وتعالى سوف يقوي بصر الرائي ليرى أهل الموقف، وكذلك البحار سيذهب ماؤها، وسيسوي باطن الأرض بعاليها، وسيحشر الله سبحانه وتعالى كل حيوان خلقه على وجه الأرض، وكل ذلك ليعلم أولئك المنكرون للبعث صدق ما كانوا يكذبون بوقوعه من البعث بعد الموت، ثم بعد ذلك يدخلهم الله سبحانه وتعالى جهنم، وسيدخل معهم كل تلك الحيوانات التي كانوا يخافونها في الدنيا، وتشمئز منها أنفسهم، وسينعمها الله تعالى بتعذيبهم، وستتلذذ بذلك كما يتلذذ أهل الجنة بنعيمهم.

﴿وَعُرِضُوا عَلَى رَبِّكَ صَفًّا لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ يحشرهم الله سبحانه وتعالى يوم القيامة فيعرضون للحساب ولا شيء معهم كما كانوا عند خروجهم من بطون أمهاتهم، وقد قال بعضهم: إنهم سيكونون عراة وقد اعترض ذلك الهادي عليه السلام بأن ذلك قبيح على الله سبحانه وتعالى، وقال: إن كل إنسان سيحشر في كفنه.

وقد سئل أمير المؤمنين عليه السلام: كيف سيحاسب الله تعالى الناس جميعاً في ساعة واحدة؟ فأجاب: كما أنه يرزقهم جميعاً في ساعة واحدة، فكذلك سيحاسبهم.

فهو قادر على ذلك ولا يعجزه شيء، وقد وصف نفسه بأنه سريع الحساب، وسيكون حسابه دقيقاً مع سرعته، وكذلك سيطلع الناس على أعمالهم وفضائحهم حتى إن صاحب النار لن يدخل النار إلا وقد عرف الناس جميعاً أنه يستحقها، ويشهد على نفسه باستحقاق دخولها، وأن الله سبحانه وتعالى عدل حكيم لا يعذب أحداً إلا بذنبه، وكذلك الأعمال المعنوية التي لا تدرك بالحس والمشاهدة سيجعلها الله سبحانه وتعالى في صورة حسية حتى يستطيع أن يراها جميع الناس.

وأما المؤمن التائب فلن يفضحه الله تعالى ولن يكشف ستره، غير أنه سيطلعه على عظيم رحمته به عندما يريه أعماله وذنوبه ويخبره بأنه قد سترها عليه لأجل توبته ورجوعه، ولن يراها أحد غيره ﴿فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا۝٨﴾ [الانشقاق].

﴿بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّنْ نَجْعَلَ لَكُمْ مَوْعِدًا۝٤٨﴾ وسيخاطب الله سبحانه وتعالى المشركين عندما يرون ذلك بأن هذا الذي كنتم تنكرون حدوثه، وها أنتم اليوم تشاهدون ما أنكرتموه فذوقوا الجزاء على تكذيبكم وكفركم.

﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَاوَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا﴾ وهي الكتب التي أحصيت فيها أعمالهم، فعندما يرى المجرمون ما كتب فيها من أعمالهم القبيحة ويشاهدون فضائحهم سينادون بالويل والثبور مما أحصي عليهم من الأعمال التي عملوها في الدنيا، ولم يَضِعْ منها شيء لا صغيرها ولا كبيرها.

﴿وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا۝٤٩﴾ فإذا وجدوا جميع أعمالهم التي قد عملوها في الدنيا فعندها سيجازيهم الله سبحانه وتعالى على صغيرها وكبيرها حتى أنهم سيحسون بألم عذاب كل معصية عملوها، وسيكون

عذاب كل شخص بمقدار سيئاته، لا يزيد ولا ينقص مما يستحقه شيء.

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا﴾ ثم ذكر الله سبحانه وتعالى لنبيه ﷺ قصة الملائكة مع آدم وما كان من إبليس، وذلك أن الله سبحانه وتعالى خلق آدم من تراب، ثم إنه أمر الملائكة وإبليس معهم بالسجود فامتثلوا لأمره، وتواضعوا لعظمته، واستجابوا وسجدوا.

﴿إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ﴾ إلا إبليس فإنه استكبر عن أمر ربه ورفض أن يسجد لبشر من تراب، وكبر ذلك الأمر في نفسه.

وقد كان إبليس من مؤمني الجن والعُبَّاد لله سبحانه وتعالى فرفعه الله سبحانه وتعالى بين الملائكة؛ لأن بقية الجن كانوا قد خرجوا عن طاعة الله وعصوا أوامره وقد بقي وحده بينهم يعبد الله سبحانه وتعالى فرفعه الله تعالى إلى الملائكة ليتعبد معهم، وعندما خلق الله سبحانه وتعالى آدم أمر ملائكته بالسجود لآدم، وقد شمله أمر الله لكونه بينهم فسجد الملائكة كلهم، وأما هو فقد استكبر عن السجود معهم، وكان من الجن الذين كانت طبيعتهم التكبر والتمرد مثل البشر فكانوا يرفضون الانحناء لله سبحانه وتعالى من شدة الكبر الذي فيهم، والفسق هو التمرد عن أوامر الله سبحانه وتعالى.

﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ﴾ يستنكر الله سبحانه وتعالى على البشر كيف يتخذون الشيطان وذريته أرباباً من دونه مع أنهم يعرفون العداوة التي بينهم على مدى التاريخ، وكيف يطيعون أوامره ويستجيبون لوساوسه ويسيرون في طريقه.

وإبليس هو رئيس الغاوين والداعين إلى الضلال وكبيرهم، وبقية الشياطين تبعاً له ينفذون أوامره فهو الذي يدبرهم ويوزعهم، ويعين لكل واحد منهم عمله؛ لأنه صاحب خبرة وتجربة في إغواء الناس، وعارف لمداخل قلوبهم ومن أي طريق يستطيع الدخول عليهم منها.

﴿بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا﴿٥٠﴾﴾ اختار الظالمون طاعة الشيطان ومتابعته، وتركوا طاعة الله تعالى واتباع أمره، فبئس الاختيار، لقد أخطأوا حظهم ورشدهم.

﴿مَا أَشْهَدْتُهُمْ خَلْقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ وَمَا كُنْتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا﴿٥١﴾﴾ ثم أخبر الله سبحانه وتعالى أنه لم يشهد أحداً خلق السماوات والأرض، لا من الشياطين ولا من المشركين، ولا من غيرهم، وأنه لم يدْعُهُم ولم يستعن بهم عندما أراد خلق السماوات والأرض، وأنه لا ينبغي له أن يتخذ أعواناً من أهل الضلال والجهل والكفر، وما دام الأمر هكذا فلا ينبغي لأحد أن يكون شريكاً له في الربوبية والإلهية، فهو وحده القادر والمسيطر على السماوات والأرض وما بينهما، وأي مسوغ لهم حتى يزعموا أن مع الله سبحانه وتعالى شريكاً في ملكه.

﴿وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا شُرَكَائِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ مَوْبِقًا﴿٥٢﴾﴾ وكذلك يذكر الله سبحانه وتعالى المشركين بأنه يوم القيامة سوف يطلب منهم أن يأتوا بالشركاء الذين كانوا يدعونهم معه، فالذين يدعون المسيح سوف يأمرهم بأن يأتوا به، وكذلك الذين يعبدون عزيراً سوف يأمرهم بالإتيان به، وكذلك الذين يعبدون الملائكة والأصنام، ثم إنهم سينادون عليهم، ولكنهم سيرفضون أن يستجيبوا لهم أو يقبلوا إليهم؛ لأنه سبحانه وتعالى قد جعل بينهم وبين شركائهم حاجزاً يمنعهم من الوصول إليهم.

والموبق: هو المكان الذي لا يستطيع أحد أن ينفذ منه.

﴿وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا﴿٥٣﴾﴾ يرى المجرمون النار ويعلمون أنه لا مفر لهم منها، وأنهم وقودها.

﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْءَانِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا﴿٥٤﴾﴾ أخبر الله سبحانه وتعالى أنه قد نوع لبني آدم الآيات والأمثال في القرآن؛ لأجل أن يؤمنوا، ولكن طبيعتهم هي الجدال بالباطل والتمرد والعصيان.

﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى وَيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ قُبُلًا﴿٥٥﴾﴾ ثم أخبر الله سبحانه وتعالى عن المشركين أنهم قد امتنعوا عن الإيمان وقبول ما جاءهم به محمد ﷺ، وسبب امتناعهم هو عدم نزول العذاب عليهم مثل ما نزل على الأمم السابقة من المكذبين، وأخبر أنهم لن يؤمنوا إلا عند نزول العذاب بهم ومعاينتهم له عندما يكون الأوان قد فات لقبول إيمانهم، وأن حالهم كحال الأمم السابقة سواءً سواءً، فلا تطمع نفسك في إيمانهم يا محمد أو تتعبها في ملاحقتهم، فليس عليك أن تكرههم على الإيمان فقد أديت ما عليك، وحسابهم على الله سبحانه وتعالى.

﴿وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ﴾ أرسل الله تعالى الرسل ليبشروا أهل طاعة الله بالثواب، وأهل معصية الله بالعقاب، فما عليك يا محمد إلا تبليغ الرسالة التي كلفت بتبليغها فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر؛ وكان النبي ﷺ حريصاً على إيمان قريش أشد الحرص، وكاد أن يقتل نفسه من الأسف والحسرة عليهم، وذلك لأنه قد علم أن الله سبحانه وتعالى سيعذبهم إن لم يؤمنوا فأراد ﷺ أن يستنقذهم من عذاب الله سبحانه وتعالى رحمة وشفقة بهم، فأراد الله أن يقطع طمعه في إيمانهم، وأخبره أنهم لن يؤمنوا أبداً مهما حاول فيهم، وأنهم لن يؤمنوا إلا عندما ينزل بهم مثل ما نزل على الأمم السابقة من العذاب.

﴿وَيُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ وَاتَّخَذُوا ءَايَاتِي وَمَا أُنْذِرُوا هُزُوًا﴿٥٦﴾﴾كان المشركون يجادلون النبي ﷺ ويغالطونه ليدحضوا الحق الذي جاءهم به ويدفعوه عن أنفسهم وعن الناس ليمنعوهم من الإيمان، وقد جعلوا آيات الله سبحانه وتعالى وما أنذرهم به محمد ﷺ محل هزؤ وسخرية فيما بينهم.

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ﴾ وأخبر أنه لا أحد أظلم وأمكر من أولئك الذين إذا ذكرهم أحد بآيات الله سبحانه وتعالى أعرضوا عنها، ومع ذلك لا يبالون بالمعاصي التي يفعلونها ولا يحسبون لها أي حساب.

﴿إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَى فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا۝٥٧﴾ فاقطع طمعك يا محمد من إيمانهم فقلوبهم قد غلفت بأغطية لا يستطيع الهدى أن ينفذ إليها أبداً، وهذا مجاز وكناية عن عدم قبولهم الإيمان والهدى، وأخبر أيضاً أن آذانهم مسدودة عن سماع الهدى وهو أيضاً كناية عن عدم قبولهم الحق، يريد الله سبحانه وتعالى أن يحسم طمع نبيه صلى الله عليه وآله وسلم في إيمان قريش، وأن يترك ملاحقتهم بنصيحته وشفقته ودعوته.

﴿وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُمْ بِمَا كَسَبُوا لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَذَابَ﴾ يخاطب الله سبحانه وتعالى نبيه صلى الله عليه وآله وسلم بأن من صفاته تعالى أنه يغفر لمن تاب ورجع إليه، وأنه ذو رحمة واسعة تعم الناس جميعاً حتى الكافرين فهم في رحمته، وأنه لو يؤاخذهم بما عملوا لأنزل بهم عذابه، ولم يمهلهم لحظة واحدة، ولكنه لرحمته بهم قد أمهلهم وأمدهم بنعمه وتركهم يسيحون في الأرض كيفما شاءوا، وذلك لإكمال الحجة عليهم، فلا يقولون يوم القيامة: بأنك لو تركتنا يا رب وأمهلتنا في الدنيا لعرفنا الحق ولاتبعناه.

﴿بَلْ لَهُمْ مَوْعِدٌ لَنْ يَجِدُوا مِنْ دُونِهِ مَوْئِلًا۝٥٨﴾ وأنه أمد لهم في أعمارهم وجعل لهم موعداً لتعذيبهم؛ فإذا حان موعدهم ذلك فلا مفر لهم حينئذ يهربون إليه.

﴿وَتِلْكَ الْقُرَى أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِمْ مَوْعِدًا۝٥٩﴾ أخبر الله سبحانه وتعالى نبيه صلى الله عليه وآله وسلم بأن تلك القرى التي قص عليه أخبارها كقرى قوم لوط وقوم ثمود وقوم صالح قد أهلكها بالعذاب في الدنيا واستأصلهم بسبب ظلمهم وتكذيبهم بآياته واستهزائهم بأنبيائه ورسله، وأخبره أنه جعل لكل قرية من تلك القرى موعداً لإهلاكها وتعذيبها، فانتظر يا محمد واصبر فقد قرب موعد تعذيب قريش وهلاكها.

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ﴾ ثم قص الله سبحانه وتعالى على نبيه صلى الله عليه وآله وسلم ما كان من موسى مع فتاه، وقد قيل إنه يوشع بن نون، وقد كان وصي موسى من بعده

وقد بعثه الله سبحانه وتعالىٰ نبياً بعده، وكان ملازماً لموسىٰ أينما ذهب لخدمته والأخذ عنه.

﴿لَا أَبْرَحُ حَتَّى أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا۝٦٠﴾ أخبر موسىٰ فتاه بأنه سوف يستمر في السفر والطلب حتىٰ يبلغ مكان النبي الخضر ويلاقيه، وأنه سوف يبحث عنه ولو مكث في البحث عنه مئات السنين.

﴿فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا۝٦١﴾ عندما وصل موسىٰ عليه السلام وفتاه مجمع البحرين كان معهما حوت، فنظر الفتىٰ إليه فإذا به قد قفز إلىٰ البحر وقد خد فيه طريقاً بقيت بعده لمدة، وقد جعل الله سبحانه وتعالىٰ ذلك علامة لموسىٰ ليهتدي بها إلىٰ مكان الخضر عليه السلام.

﴿فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَاهُ ءَاتِنَا غَدَاءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا۝٦٢﴾ بعد أن قطعا مسافة في مسيرهما أمر موسىٰ فتاه بأن يحضر لهما الأكل ليستريحا من تعب السفر ويأكلا.

﴿قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنْسَانِيهُ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا۝٦٣﴾ فعندما طلب موسىٰ عليه السلام إحضار الغداء تذكر يوشع الحوت وما كان منه حين قفز في البحر وأخذ يشق طريقاً في البحر عجيبة لم ينقطع أثرها، فأخبر موسىٰ بذلك، واعتذر إليه بأنه قد نسي أن يخبره بذلك لكثرة ما كان يرىٰ من العجائب في مسيره معه، ولكثرتها لم يأخذ بالاً بهذه الحادثة.

﴿قَالَ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ﴾ فأخبره موسىٰ أن ذلك هو الذي كنا نريد، وأن الله سبحانه وتعالىٰ قد جعله علامة لهما ليهتديا بها إلىٰ الخضر عليه السلام من خلال مسير ذلك الحوت.

﴿فَارْتَدَّا عَلَى ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا۝٦٤﴾ ثم إنهما رجعا إلىٰ ذلك المكان الذي فقدا فيه الحوت ليقصا أثر مسير ذلك الحوت.

﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا ءَاتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا﴾ ثم إنهما سارا في تلك الطريق التي شقها الحوت فوجدا من كانا يبحثان عنه وهو الخضر عليه السلام، وكان الخضر من أولي العلم وقد آتاه الله سبحانه وتعالى حظاً وافراً منه، وقد علمه الله سبحانه وتعالى بأشياء لم يكن موسى يعلمها، والرحمة التي أخبر الله سبحانه وتعالى أنه قد آتاه إياها هي النبوة.

﴿قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا﴾ ثم إن موسى طلب منه أن يقبله ليسير معه وأن يخدمه ليتعلم من علمه الذي أعطاه الله سبحانه وتعالى.

﴿قَالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ فأخبره الخضر عليه السلام أنه لن يستطيع أن يصبر على العلم الذي سيعلمه إياه، وذلك لأنه ليس كما عهده من العلم، وأخبر موسى بأن الله سبحانه وتعالى قد عهد إليه علما غير العلم الذي علمه الله إياه، وأنه سوف يستنكر عليه عندما يسايره ولن يصبر عليه، وكان الله سبحانه وتعالى قد اختصه بأشياء من علم الغيب وعلمه إياها.

﴿وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا﴾ استنكر على موسى كيف يستطيع أن يصبر على شيء لم يحط بمعرفته وتأويله، وأخبره أنه لن يتحمل ما سوف يراه من خلال مسايرته له؛ لأنه كان قد عرف أن موسى لن يستطيع أن يصبر ويسكت على ما يراه لما يعمله من الأعمال التي في ظاهرها أنها من المنكرات والكبائر العظيمة.

وكان الله سبحانه وتعالى قد أذن له في تلك الأعمال لحكمة ومصلحة قد أطلعه عليها.

﴿قَالَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا﴾ فرد عليه موسى عليه السلام ووعده بأنه سيحاول أن يصبر على مسايرته وعلى عدم الاعتراض عليه في شيء مما سيعمله.

﴿قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ۝٧٠ فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا ۝٧١﴾ فكان بداية مسيرهما هو أن ركبا سفينة فلما مشت السفينة قليلاً أحدث الخضر فيها خرقاً فتسرب منه الماء حتى كاد أن يتسبب في غرقها، فاستنكر موسى عمله هذا، ولم يستطع أن يسكت على هذا المنكر لفظاعته.

﴿قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ۝٧٢﴾ فأجاب عليه الخضر عليه السلام بأنه قد أخبره من قبل بأنه لن يستطيع أن يصبر أو يسكت.

﴿قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا ۝٧٣﴾ فاعتذر موسى إليه وأخبره بأنه قد نسي ما كان وعده به، وأنه لم يستطع أن يتحمل ما رأى، وتوسل إليه أن يقبل عذره هذا.

﴿فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا ۝٧٤﴾ ولم يستطع أن يتحمل رؤيته للخضر وهو يقتل هذا الطفل البريء فصاح عليه وأنكر أشد الإنكار، ولم يستطع أن يسكت على هذه الجريمة المنكرة في الظاهر.

﴿قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ۝٧٥﴾ فرد عليه الخضر بأنه قد أخبره من قبل أنه لن يستطع صبراً على مسايرته.

﴿قَالَ إِنْ سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْرًا ۝٧٦﴾ فاعتذر إليه وطلب منه أن يسامحه، ووعده أنه إذا حصل منه شيء مرة أخرى فليتركه، ولا يقبل منه أي عذر بعدها.

﴿فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَّ فَأَقَامَهُ﴾ كان قد أخذ منهما الجوع كل مأخذ، وعندما وصلا إلى إحدى القرى طلبا من أهلها أن يطعموهما، ولكنهم رفضوا إطعامهما، وخلال ذلك وجدا جداراً في إحدى أبنيتها قد أوشك على السقوط فقام الخضر ليصلحه من جديد ويرده على ما كان.

﴿قَالَ لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا۝٧٧﴾ فاستنكر موسى عليه كيف يصلح جدارهم وقد رفضوا إطعامهما ما يسد جوعتهما، وأنه كان من المفترض به أن يشرط عليهم الطعام مقابل بنائه لهذا الجدار.

﴿قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا۝٧٨﴾ فأجاب عليه الخضر عليه السلام بأنه قد حان وقت الافتراق، وأنه سيخبره بسبب أفعاله تلك التي استنكرها عليه، وما هو الذي دعاه إلى فعلها وبين له وجه الحكمة فيها.

﴿أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا۝٧٩﴾ أما السفينة فسبب خرقي لها أنها كانت مسافرة في طريق غير آمن، وأنه كان أمامهم في هذه الطريق ملك ينهب كل سفينة تمر من عنده، فإذا رآها ذلك الملك معيبة والماء يتدفق بداخلها فإنه سيتركها ولن يمسها بسوء.

وكانت هذه السفينة لمجموعة من المساكين والفقراء اشتركوا فيها، وكانوا لا يملكون أي شيء في الدنيا يستعينون به على أمور معايشهم غيرها، فأراد الله سبحانه وتعالى أن يحفظ عليهم سفينتهم هذه من ذلك الملك الظالم.

﴿وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَنْ يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا۝٨٠﴾ وأما الغلام فقد علم الله سبحانه وتعالى أنه إذا كبر يكون رجلاً فاجراً وعاصياً، وأنه سيكون فتنة لأبويه الصالحين وسبباً في كفرهما وهلاكهما.

﴿فَأَرَدْنَا أَنْ يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا۝٨١﴾ وأخبره أن الله سبحانه وتعالى قد أراد أن يأخذ هذا الولد الفاجر ويعوضهما بولد صالح زكي طاهر لا يعمل الخبائث والمنكرات، وكذلك فيه مصلحة له بأن يموت وهو لا زال طفلاً ليكون مقبولاً عند الله سبحانه وتعالى خير له من أن يموت كبيراً على الكفر، وكذلك ما يكون من المصلحة لأبويه وهي الثواب لصبرهما على مصيبتهما هذه.

﴿وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ﴾ وأما الجدار الذي أوشك على السقوط فقد كان لطفلين يتيمين وكان تحته كنز قد وضعه أبوهما، فأراد الله سبحانه وتعالى لهذا الجدار أن يبنى ليحفظ المال الذي تحته إلى أن يبلغا أشدهما ويستخرجاه بأيديهما، وأخبره أيضاً أن الله سبحانه وتعالى قد حفظ هذين الغلامين وكنزهما بسبب صلاح أبيهما.

﴿وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا﴿٨٢﴾﴾ وأخبر الخضر موسى عليه السلام أنه لم يفعل من تلك الأشياء شيئاً إلا بأمر من عند الله سبحانه وتعالى، وأنه لم يفعل شيئا من تلقاء نفسه، وأن هذا تأويل تلك الأشياء التي لم يستطع أن يسكت عليها.

قص الله سبحانه وتعالى علينا هذه الأخبار لنعلم أن كل ما يفعله الله بعباده من المكاره فإنما يفعله فإنه لحكمة ومصلحة لنا يعلمها هو تعالى، وأنها لو كانت مكروهة لنا فإن لها فوائد ومصالح راجعة إلينا لا نعلمها، وكذلك لنعلم أن الله سبحانه وتعالى يحفظ الابن بسبب صلاح أبيه، ويبارك له في دنياه ويصلح له أمور دينه.

﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنْ ذِي الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْرًا﴿٨٣﴾﴾ ثم انتقل الله سبحانه وتعالى إلى ذكر ذي القرنين وقصته، وما كان من شأنه فأخبر نبيه صلى الله عليه وآله وسلم بأنه إذا سئل عن ذي القرنين فإنه يجيبهم بأنه سيقص عليهم أمره ونبأه، وما كان من شأنه.

وقد قيل إنه إسكندر المقدوني، وقد قال بعض المؤرخين اليمنيين إنه أسعد الكامل «أسعد تبع»، واستدلوا على ذلك بتسميته بـ«ذو القرنين» ولا تأتي هذه التسمية إلا في لغة أهل اليمن، وأنه لا يسمي بهذه الأسماء غيرهم.

والذين ملكوا الدنيا أربعة ملوك هم: أسعد تبع، وذو القرنين، ونبي الله سليمان عليه السلام، وهناك أيضا ملك رابع، فهؤلاء هم الذين غزوا مشارق الأرض ومغاربها وملكوها.

وكان ذو القرنين ملكاً صالحاً يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر.

﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَءَاتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا﴿٨٤﴾﴾ أخبر الله سبحانه وتعالى أنه قد هيأ له أسباب الملك والسلطان من المال والسلاح والرجال والقوة وكل ما يمكنه من الزاد والعدة من الرجال والدواب في سيره إلى غزو أطراف الأرض.

﴿فَأَتْبَعَ سَبَبًا﴿٨٥﴾ حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ﴾ سار متوجهاً ناحية الغرب حتى وصل طنجة ناحية المغرب.

﴿وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِنْدَهَا قَوْمًا﴾ وذلك أنه وجدها تغرب وراء البحر وهي لا زالت حارة مما يدل على أنها لا تغرق في البحر كما يزعم بعضهم.

﴿قُلْنَا يَاذَا الْقَرْنَيْنِ إِمَّا أَنْ تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَنْ تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا﴿٨٦﴾﴾ استسلم هؤلاء القوم لذي القرنين، وأصبحوا في قبضته يتصرف فيهم كيفما شاء إما أن يعذبهم وإما أن يعفو عنهم، وكان ذو القرنين قد علم حكم الله سبحانه وتعالى بمن ظفر به من الكافرين من القتل أو التعذيب.

﴿قَالَ أَمَّا مَنْ ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَى رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُكْرًا﴿٨٧﴾﴾ كان ذو القرنين مؤمناً آمراً بالمعروف وناهياً عن المنكر، فحكم عليهم بأن من كان مصراً على الذنوب والمعاصي رافضاً للتوبة فإنه سوف يقتله، وبعد ذلك سوف يرد إلى ربه يوم القيامة فيعذبه في نار جهنم.

﴿وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءً الْحُسْنَى وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا﴿٨٨﴾﴾ وأما من تاب وأقلع عن المعاصي ورجع إلى الله سبحانه وتعالى فإن الله تعالى يجازيه بالجنة، وسنعامله في الدنيا بالمعاملة الحسنة ونحفظ له أمواله وأهله.

﴿ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا﴿٨٩﴾ حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ﴾ ثم إنه بعد ذلك توجه في مسيره إلى ناحية مشرق الشمس نحو الصين.

﴿وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَى قَوْمٍ لَمْ نَجْعَل لَّهُمْ مِنْ دُونِهَا سِتْرًا﴿٩٠﴾﴾ وجد في بلاد مشرق الأرض قوماً لا بيوت لهم ولا مأوى يؤويهم، ولا شيء يكنهم من حر الشمس أو المطر، فالأرض فراشهم والسماء سقفهم، لم يكونوا قد اهتدوا إلى بناء المساكن والبيوت.

﴿كَذَلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا﴿٩١﴾﴾ ثم أخبر الله سبحانه وتعالى بأنه قد أحاط بذي القرنين وجيوشه وقد أحصى عددهم وعدتهم، وأنهم تحت قبضته وسيطرته، فلا يسيرون إلا بأمره وقدرته.

﴿ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا﴿٩٢﴾ حَتَّى إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِنْ دُونِهِمَا قَوْمًا لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا﴿٩٣﴾﴾ بعد أن قهر تلك الأمم في مشرق والأرض ومغربها توجه سائراً ناحية الشمال ووصل إلى بلد كان أهلها يتخذون السدود والحواجز المائية وكان قبل أن يصل إلى تلك الأماكن من ناحية الجنوب قد وجد قوماً لم يستطع أحد أن يعرف لغتهم وحديثهم وهي بلاد الترك التي تشمل الآن دول تركيا والاتحاد السوفيتي (أوروبا الشرقية وبعض دول آسيا كأفغانستان وما حولها).

وذلك أنه كان قد أعد في غزواته المترجمين لجميع لغات أهل الدنيا، فلما أن وصل إلى هؤلاء القوم لم يستطع أحد أن يعرف لغتهم، ولم يجد لهم مترجما إلا بعد بحث وتعب شديد.

﴿قَالُوا يَاذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَى أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا﴿٩٤﴾﴾ شكا أهل تلك البلاد عند ذي القرنين ما يلاقونه من أولئك القوم من السلب والنهب في كل وقت وأنهم قد تسلطوا عليهم، وأنهم يغزونهم فينهبون ويسرقون ثم يفرون هاربين لا يستطيع أحد أن يلحق بهم؛ لأنهم قوم لا بيوت لهم أو مكان ليلحقوا بهم إليه، وإنما يفرون متفرقين في الصحاري.

ويبدوا من وصف هؤلاء القوم ليأجوج ومأجوج بهذا الوصف أنهم قوم لفيف قد اجتمعوا من كل مكان، وكانوا من أهل الصحاري التي في تلك البلاد واسمها الآن صحراء سيبيريا، وكانوا يأتونهم من بين جبلين، فطلبوا منه أن يقيم لهم حاجزاً بين هذين الجبلين حتى لا يستطيعوا أن يصلوا إليهم، وأخبروه أنه إن جعل هذا الحاجز فلن يستطيعوا أن يغزوهم من الجبال، وأخبروه أيضاً بأنهم سوف يعطونه أجرة على ذلك.

والأقوال التي تقول إن ذا القرنين قد عزل ياجوج وماجوج عن العالم بهذا السد، وإنه في آخر الزمان سوف ينفتح هذا السد ويخرجون إلى الناس فلا صحة لها، وذلك لأن سياق الآية يدل على أنه قد جعل هذا السد بين هذين الجبلين ليمنع عن أهل تلك البلاد فقط شرهم.

﴿قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا﴿٩٥﴾﴾ فأجابهم بأن ما قد أعطاه الله سبحانه وتعالى من القوة والجاه والمال خير مما عرضوه عليه من الأجرة، وطلب منهم أن يعينوه على ذلك بأيديهم.

﴿ءَاتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ حَتَّى إِذَا سَاوَى بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انْفُخُوا حَتَّى إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ ءَاتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا﴿٩٦﴾﴾ ثم طلب منهم أن يأتوه بما يكفي من قطع الحديد لإقامة هذا الحاجز إلى أن يساوي الجبلين، وأمرهم بعد ذلك أن يوقدوا على هذه الصفائح حتى تصبح ناراً، ثم يأتوه بالنحاس المذاب، فإذا صبوه على صفائح الحديد فإنها ستلتصق ببعضها البعض وتلتحم.

﴿فَمَا اسْطَاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا﴿٩٧﴾﴾ فلم يستطع أحد بعد ذلك أن يخرب ذلك البناء أو يخترقه.

وفي ذلك دلالة على أن الصناعة في ذلك الوقت كانت متطورة وإلا فمن أين لهم بالمنافيخ الضخمة التي تستطيع أن توقد لهم كتل الحديد تلك.

﴿قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي﴾ وعندما انتهى ذو القرنين من بناء السد حمد الله تعالى وأثنى عليه على ما مكنه من القوة والسلطان، واعترف بأن كل ما معه من فضل الله عليه، وأنه بتدبيره وتهيئته وحوله وقوته، فلم يأخذه العجب والفخر ولم يتكبر على الله سبحانه وتعالى بقوته تلك التي أعطاه الله سبحانه وتعالى.

﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا۝٩٨﴾ هذا من كلام ذي القرنين بأن وعد الله إذا حصل وهو يوم القيامة فسيدمر الدنيا وما عليها، وأنه لا خلف لما وعد به ولا تبديل، ويحتمل أن يكون المراد بوعد الله سبحانه وتعالى هو إرادته لتخريب ذلك السد، وأنه متى أراد أن يخربه فعل.

﴿وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ﴾ وذلك قبيل يوم القيامة ستحصل فوضى عظيمة وهرج ومرج في الأرض وقتل وقتال وفتن كثيرة، وسيكثر القتل بين الناس حتى إنه قيل بأنه سيقتل من كل مائة تسعة وتسعون، وأظن أن ما يحصل في كثير من البلاد اليوم هو بداية ذلك.

﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا۝٩٩﴾ ولن يخلف ذلك إلا قيام الساعة وحشر الناس جميعاً إلى ساحة المحشر للحساب والجزاء.

﴿وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِلْكَافِرِينَ عَرْضًا۝١٠٠ الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَنْ ذِكْرِي وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا۝١٠١﴾ ويوم القيامة ستعرض النار أمام الكافرين وسيشاهدونها، ثم أخبر عن صفة الكافرين هؤلاء بأنهم الذين لا يصدقون بالبعث والجزاء، وكانت قلوبهم مغطاة لا تبصر الحق والهدى، ولا تستبصر بما جاءها من عند الله سبحانه وتعالى، وقد أعمتهم الدنيا وشهواتها وغرقوا في المعاصي والمنكرات.

﴿أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِنْ دُونِي أَوْلِيَاءَ﴾ هل يظنون أن الله سبحانه وتعالى الذي خلقهم وصورهم ورزقهم سيتركهم من غير حساب أو جزاء على ما اتخذوه من الآلهة دونه، فلا بد أن نحاسبهم ونجازيهم على كفرهم وعبادتهم واتخاذهم لآلهة غير الله.

﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلًا﴿١٠٢﴾﴾ ثم أخبر سبحانه وتعالى أنه قد أعد جهنم لهؤلاء الكافرين ضيافة لهم ينزلون فيها وبئست الضيافة.

﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا﴿١٠٣﴾ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴿١٠٤﴾﴾ بلغهم يا محمد أن أخسر الناس صفقة وأضلهم في أعماله هو الذي يسير في غير الطريق ظناً منه أنه في عين الطريق وأنه على الحق والهدى وهو في الباطل والضلال.

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا﴿١٠٥﴾ ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا ءَايَاتِي وَرُسُلِي هُزُوًا﴿١٠٦﴾﴾ ثم ذكر صفة أولئك الأخسرين أعمالاً بأنهم الذين كفروا بالله سبحانه وتعالى وأنكروا البعث بعد الموت، وأخبر أن ما عملوا من أعمال البر محبطة مع كفرهم وتكذيبهم.

﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا﴿١٠٧﴾ خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا﴿١٠٨﴾﴾ ثم أخبر عن مصير المؤمنين به والمصدقين بآياته ورسله الذين عملوا مع ذلك الأعمال الصالحة بأنه قد أعدلهم جنات الفردوس ينزلهم فيها، وأنهم خالدون فيها لا يملون ما هم فيه من النعيم أو تصيبهم السآمة والضجر ولا يتمنون أن يتحولوا عنها، وذلك لأن الإنسان في الدنيا يصيبه الملل حتى من الراحة والنعيم، فإذا استمر في ذلك فترة فإنه يحب أن تتغير حالته تلك حتى ولو إلى أسوأ أما جنات الفردوس فلا يلحقهم فيها ملل ولا سآمة.

﴿قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا﴿١٠٩﴾﴾ يطلعنا الله سبحانه وتعالى على مدى علمه وإحاطته، وأن البحار لو كانت مداداً وحبراً فيكتب الكتبة بهذا المداد حتى يستنفدوا ذلك المداد فإنهم لن يستطيعوا أن يحصوا المعلومات التي يعلمها الله سبحانه وتعالى،

وأنهم لو زادوا على تلك البحار مثلها مداداً لما أحصوا ذلك، ولنفدت البحار قبل أن تنفد كلمات الله ومعلوماته، وكذلك لو أن كل ما في الأرض من شجر أقلام لنفدت تلك الأقلام قبل أن يحصوا ذلك، يخبرنا الله سبحانه وتعالى بذلك لنعلم أنه من المستحيل أن يدخل علمه تحت العد والحصر.

﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴿١١٠﴾﴾ عندما ادعى محمد ﷺ النبوة، وأنه نبي مرسل من عند الله سبحانه وتعالى أنكرت قريش ذلك وادعت أنه من المستحيل أن يكون نبياً من البشر، وأنه لا بد أن يكون في زعمهم جنساً من غير جنسهم، فأمره الله سبحانه وتعالى أن يخبرهم بأنه نبي وأنه بشر مثلهم قد أوحى الله تعالى إليه أن يخبرهم أنه لا إله في السماوات والأرض إلا إله واحد وهو الذي خلق السماوات والأرض وما بينهما، ويخبرهم بأن من أراد أن يفوز برضوانه ورحمته فليطعه، وليعمل الأعمال الصالحة ولا يعصي أوامره وأن لا يتخذ له إلهاً غير الله سبحانه وتعالى.



سورة مريم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿كهيعص۝١ ذِكْرُ رَحْمَةِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا۝٢ إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا۝٣﴾ تبدأ هذه السورة بحكاية قصة زكريا عليه السلام وما كان من دعائه لله سبحانه وتعالى بأن يرزقه الولد الصالح، وكيف استجاب الله له ورزقه بالولد؛ ليطلعنا الله سبحانه وتعالى على مدى قدرته وأنه لا يعجزه شيء.

وكان زكريا قد دعا ربه بذلك الدعاء سراً مما يدل على أن دعاء السر أدعى للإجابة، وأقرب إلى الإخلاص لله سبحانه وتعالى.

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا۝٤﴾ هذا هو الدعاء الذي دعا به زكريا عليه السلام ربه، وهو أنه شكا عليه ضعفه ووهن عظامه وهزالها، وأنه قد صار كبير السن، وتمنى على الله سبحانه وتعالى أن لا يرد دعاءه الذي يدعوه به، فقد عوده أن لا يرد له سؤالاً، فقال في دعائه: ﴿وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا۝٥ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا۝٦﴾ دعا الله سبحانه وتعالى أن يرزقه بالولد الصالح ليرثه ويرث العلم الذي تركه آل يعقوب الذي هو علم الكتاب والحكمة، وأن يكون من أهل رضوان الله سبحانه وتعالى.

وكان قد خاف أن يرثه أقاربه فيضيعوا دين الله سبحانه وتعالى ويحملوا ميراث النبوة فيغيروا ويبدلوا في دين الله تعالى إذا مات، فكان ذلك هو الذي بعثه على الإلحاح على الله سبحانه وتعالى في الدعاء.

﴿يَازَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَى لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا۝٧﴾ فاستجاب الله سبحانه وتعالى دعاءه وبشره بغلام، وأخبره بأنه قد اختار له اسماً من عنده تكرمة له، فسماه يحي، وأخبره بأن هذا الاسم جديد لم يتسم به أحد قبله.

﴿قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا﴿٨﴾﴾ فاستبعد وتعجب أن يولد له ولد على كبر سنه، وتجاوز امرأته سن الحمل والولادة؟ وهذا مع أنه عالم في نفسه أن الله على كل شيء قدير، وتعجبه ذلك لم يكن إلا من قدرة الله سبحانه وتعالى العظيمة، وإرادة منه أن يعلم كيف سيتم ذلك في امرأة عاقر وزوج جاوز تسعين سنة.

﴿قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا﴿٩﴾﴾ فأجابه الله سبحانه وتعالى أنه لا يصعب عليه شيء فهو على كل شيء قدير، وأخبره أنه كما خلقه قبل ذلك وأوجده بعد أن لم يكن شيئاً فهو قادر على أن يخلق ولداً في بطن زوجته العاقر.

﴿قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي ءَايَةً﴾ فطلب زكريا عليه السلام عند ذلك من الله سبحانه وتعالى أن يجعل له دلالة عند حمل امرأته.

﴿قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا﴿١٠﴾﴾ فجعل الله سبحانه وتعالى علامة ذلك أن يمسك لسانه عن الكلام، وأخبره أنه لن يستطيع أن يتكلم مدة ثلاثة أيام.

﴿فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴿١١﴾﴾ فكان في مدة سكوته عن الكلام يخرج على قومه فيعظهم ويذكرهم بتسبيح الله تعالى وذكره بالإشارة فقط، وكان مدة سكوته ثلاثة أيام.

﴿يَايَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَءَاتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا﴿١٢﴾﴾ أعطى الله تعالى يحيى العلم والحكمة في حال صباه، وبعد أن كبر أوحى إليه بأن يأخذ توراة موسى ويجدد الدعوة والتبليغ لبني إسرائيل بما أنزل الله سبحانه وتعالى فيها من الأحكام، وذلك لأن بني إسرائيل كانوا قد حرفوها وغيروها وبدلوها، فأوحى الله إليه بأن ينفذ أحكامها، وأن يعمل بما فيها، ويعلمها الناس بحزم وعزيمة.

﴿وَحَنَانًا مِنْ لَدُنَّا وَزَكَاةً وَكَانَ تَقِيًّا ۝١٣ وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُنْ جَبَّارًا عَصِيًّا ۝١٤﴾ أخبر الله سبحانه وتعالىٰ أنه وهب لزكريا ولداً اسمه يحيى رحمة منه لزكريا، وأخبره أيضاً بأنه قد طهره من الذنوب والآثام، وأنه يحمل نفساً زكية وطاهرة من دنس الذنوب والآثام، ولا تحمل شيئاً من الخبائث، وأنه من أهل البر والطاعة للوالدين.

﴿وَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا ۝١٥﴾ وأخبره أنه قد أحاطه بعنايته وحفظه من الشياطين ومن الخبائث، من ولادته إلىٰ حين وفاته، وأنه سيبعث كذلك يوم القيامة.

﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ۝١٦﴾ ثم أمر الله سبحانه وتعالىٰ نبيه ﷺ أن يقرأ علىٰ قومه قصة مريم وما كان من أمرها، وذلك أنها خرجت من بين أهلها إلىٰ مكان منعزل في جهة الشرق من قرية أهلها لتتعبد الله سبحانه وتعالىٰ فيه.

﴿فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا﴾ جعلت لها بناءً يحجبها عن قومها وقد أحكمت غلقه كي لا تراهم أو يرونها.

﴿فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ۝١٧﴾ ثم إن الله سبحانه وتعالىٰ أرسل إليها جبريل عليه السلام في هيئة البشر.

﴿قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا ۝١٨ قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا ۝١٩﴾ فلما رأته ورأت عليه هيئة الصالحين وسمة المتقين قالت له: إني أستجير بالرحمن وألوذ به من أذاك إن كنت تتقي الرحمن وتخاف منه، فأجابها بأنه رسول من عند الله أرسله إليها، وأراها ما يدل علىٰ صدقه فأيقنت أنه مرسل من عند الله.

هذا وقد كان الله سبحانه وتعالىٰ قادر علىٰ أن يحدث الحمل في بطنها من دون واسطة شيء، ولكن حكمته اقتضت أن يُعْلِمَهَا بذلك قبل وقوعه؛ لتستعد

لذلك الحمل؛ لأنها لو تفاجأت بذلك وحصل في بطنها عن غير علم منها لكبر ذلك عليها ولعظم في نفسها، فأرسل جبريل أولاً إليها ليطمئنها، ويخبرها أن الله سبحانه وتعالى قد اصطفاها على نساء العالمين، وأنه قد رضي عنها، وأنها ستحمل روح الله الذي سيكون آخر أنبياء بني إسرائيل، وأن الله سبحانه وتعالى قد جعله آية للعالمين.

﴿قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا﴿٢٠﴾﴾ تعجبت من ذلك كيف يمكن أن يكون في بطنها غلام مع أنه لم يمسسها أي بشر.

﴿قَالَ كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ ءَايَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَقْضِيًّا﴿٢١﴾﴾ فأجابها جبريل عليه السلام بأن الخبر الذي أخبرها به هو ما أراده الله سبحانه وتعالى، وأمره بتبليغها إياه، وأنه أمر هين وبسيط عليه فهو على كل شيء قدير ولا يعجزه شيء، وليكون ذلك آية دالة على عظيم قدرته لمن نظر وتفكر فيها، وأخبرها بأنه رحمة من الله سبحانه وتعالى لبني إسرائيل، وأن هذا أمر قد قضاه وقدره فلا مخرج لها منه ولا بد أن يقع.

﴿فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا﴿٢٢﴾﴾ وعندما حملت به انعزلت بحملها هذا عن الناس فراراً منهم لئلا يلحقوها بالكلام الفاحش والبذيء، أو يمسوها بسوء أو مكروه.

﴿فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَالَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسْيًا مَنْسِيًّا﴿٢٣﴾﴾ وعندما حان موعد ولادتها كانت حينها بجانب جذع نخلة تندب حظها، وتفكر كيف ستتخلص من أذية قومها، وبماذا ستجيبهم عند عودتها إليهم وهي تحمل بين يديها طفلاً، وكل ذلك ليس منها أنها قد فقدت ثقتها بالله سبحانه وتعالى فهي لا تزال في أشد الثقة به، وإيمانها بالله سبحانه وتعالى لا زال قوياً، غير أن ذلك شأن كل من يقبل على أمر ذي شأن عظيم، ولا بأس على المؤمن أن يتمنى الموت ولا ضرر في ذلك.

أما ما ورد من الأثر: ((لا يتمنى أحدكم الموت لضر نزل به)) لأجل مصيبة أو ضرر نزل به؛ فلأنه في هذه الحالة لم يرض بقضاء الله وما قدره عليه.

ومريم تمنت الموت لأجل أن لا تواجه ما سيرميها به قومها من الكلام الفاحش والبذيء، ولئلا تسمع ما سيقولونه فيها.

﴿فَنَادَاهَا مِنْ تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا﴿٢٤﴾﴾ والذي ناداها هو ابنها، وقد قيل إنه جبريل عليه السلام.

﴿وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا﴿٢٥﴾﴾ وأمرها بأن تأكل من ثمار هذه النخلة، وأن تشرب من هذا النهر الذي يجري عندها، والسري: هو النهر الصغير، وقد قيل: إن هذه النخلة كانت يابسة لا خضرة فيها، وقد جعل الله سبحانه وتعالى الثمر فيها كرامة لمريم عليها السلام.

﴿فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا﴿٢٦﴾﴾ يطمئنها بأن تهدأ ولا تلقي لأحد بالاً، وأن تكل أمرها إلى الله سبحانه وتعالى، ولقنها ماذا تفعل عندما تواجه قومها؛ فلا تجيبهم بشيء عندما يسألونها، وتخبرهم بأنها قد نذرت للرحمن صوماً وأنها لن تكلم أحداً منهم؛ فقد كان السكوت في شريعتهم عبادة يتعبدون لله تعالى به.

﴿فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ قَالُوا يَامَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا﴿٢٧﴾ يَاأُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا﴿٢٨﴾﴾ أمرها جبريل عليه السلام بأن تذهب به إلى قومها، ولما رأوها صاحوا في وجهها: ما هذا الذي جئت به؟ فرموها بالفاحشة والزنا، وسألوها كيف تفعل هذا الفعل الذي لم يأت بمثله أحد من أهلها وليس ذلك عادة أحد منهم؟

﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا﴿٢٩﴾﴾ ولم تجبهم مريم عليها السلام بشيء بل أشارت إلى ولدها ليسألوه؛ فتعجبوا من فعلها هذا، فكيف يكلمون صبياً في مهده؟!!

﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ ءَاتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا۝٣٠ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا۝٣١ وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا۝٣٢ وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا۝٣٣﴾ فعندها تكلم ذلك الصبي في مهده فاندهشوا من كلامه ذلك وحسن الجواب الذي أجابهم به وفصاحته.

وقوله: جعلني مباركاً: أي كثير النفع للناس.

﴿ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ۝٣٤﴾ فأخبر الله سبحانه وتعالى نبيه ﷺ: بأن ذلك المولود الذي جعله على تلك الصفات، وآتاه النبوة والكتاب هو عيسى ابن مريم، وليس كما يقولون فيه بأنه رب، وأن الله سبحانه وتعالى أبوه قد اتحد به وتجسد فيه فصار إياه، يريدون بذلك أن روح الله سبحانه وتعالى قد حلت فيه فتجسد فيه فأصبح عيسى هو الله، تعالى عن ذلك علواً كبيراً، وأخبره بأنهم قد زادوا فيه وغلوا، وأنه ليس كما يقولون، وأن هذا الذي أوحينا إليك فيه هو القول الحق.

﴿مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ۝٣٥﴾ وأنه لا ينبغي لله تعالى أن يكون له ولد؛ لعظمته وجلاله وتقدسه عن اتخاذ الولد، وقد تعالى عن صفات المخلوقين من التوارث والتوالد.

وأخبر أنه ليس غريب في قدرته أن يخلق ولداً من غير أب فهو على كل شيء قدير، وإذا أراد شيئاً كان.

﴿وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ۝٣٦﴾ يخاطب نبي الله عيسى عليه السلام بني إسرائيل ويدعوهم إلى عبادة الله سبحانه وتعالى الذي خلقه وخلقهم، وكذلك يدلهم على الطريق الذي فيه نجاتهم.

﴿فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ مَشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ۝٣٧﴾ ثم أخبر الله سبحانه وتعالى أن بني إسرائيل اختلفوا فيما بينهم في أمر عيسى، وبدأ اختلافهم هذا وهو لا يزال حياً؛ فقال ناس منهم: إنه ولد زنا،

وإنه ساحر وكذاب، وقال ناس منهم: إنه ابن الله، وإنه رب؛ فناس غلوا فيه إلى أن أخرجوه من حدود البشرية إلى مقام الربوبية، وناس حطوه إلى أدنى مراتب البشر وأرذلها، وأخبره أن أهل هذين القولين قد كفروا جميعاً، وأنه سيعذبهم جزاءً على ذلك.

﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا لَكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴿٣٨﴾﴾ وأخبره أنهم يوم القيامة سيكونون من أشد الناس سماعاً للحق وأبصرهم للهدى، ولكن حين لا ينفعهم ذلك، وأما في الدنيا فقد رفضوا الحق والهدى الذي جاءهم مع أنهم قد علموا صدق ذلك، وتيقنوا حقيقته وأنه من عند الله سبحانه وتعالى فكفروا وضلوا.

﴿وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴿٣٩﴾﴾ أمر الله سبحانه وتعالى نبيه صلى الله عليه وآله وسلم أن ينذر قريشاً ويحذرهم يوم القيامة حين لا ينفعهم الندم ذلك اليوم، ولم يبق أمامهم إلا العذاب ينتظرهم فلا مفر لهم منه ولا مهرب.

وأخبرهم أنهم في غفلة شديدة عن أمر ذلك اليوم، ولكنهم لن يؤمنوا ولن يصدقوا ما تنذرهم به يا محمد، فقد بلغتهم وأديت ما عليك، ومن أعذر فقد أنذر.

﴿إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ﴿٤٠﴾﴾ ثم أخبر الله سبحانه وتعالى أنه سيميت جميع من على وجه الأرض، وأنه سيرثها من بعدهم، وكل من كان في يده شيء في الدنيا فليس إلا عارية عنده، وسيرجع الناس جميعاً إليه للحساب والجزاء.

﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ﴾ أمر الله سبحانه وتعالى نبيه صلى الله عليه وآله وسلم أن يتلو في القرآن قصة إبراهيم عليه السلام، وذلك لأن الله سبحانه وتعالى قد أراد أن يشتهر ذكره، ويذيع صيته بين جميع الأمم ويرفع ذكره ويعلي شأنه، وهذا من ثواب الله سبحانه وتعالى لإبراهيم في الدنيا.

﴿إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا﴿٤١﴾﴾ كثير التصديق بالله سبحانه وتعالىٰ وقوي الإيمان.

﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَاأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا﴿٤٢﴾﴾ يعظ إبراهيم عليه السلام أباه لأنه كان من أهل الشرك بالله تعالىٰ وأهل عبادة الأصنام، وقد استنكر عليه فعله ذلك فكيف يعبد شيئاً لا يسمع ولا يبصر، ولا ينفع أي نفع، أو يفعل أي مصلحة، أو يدفع أي ضرر.

﴿يَاأَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا﴿٤٣﴾﴾ ونصح أباه بأن يتبعه ليدله علىٰ طريق الهدىٰ والصواب وإلىٰ ما فيه نجاته، بعد أن أخبره أن الله قد اصطفاه وقد اختاره لحمل رسالته وجعله نبياً.

﴿يَاأَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا﴿٤٤﴾﴾ ثم نصح أباه بترك طاعة الشيطان، وأن لا يستمع لوساوسه؛ لأنه من العاصين والمتمردين علىٰ الله تعالىٰ.

﴿يَاأَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا﴿٤٥﴾﴾ وأنك إن بقيت علىٰ كفرك وعلىٰ عبادة الأصنام فسيخزيك الله تعالىٰ في الدنيا، وستكون من أنصار الشيطان وأتباعه.

﴿قَالَ أَرَاغِبٌ أَنْتَ عَنْ ءَالِهَتِي يَاإِبْرَاهِيمُ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا﴿٤٦﴾﴾ استنكر علىٰ إبراهيم نصائحه، ووبخه علىٰ تركه لعبادة الأصنام وتنفيره عنها، وهدده أنه إن لم يقلع عن عداوته لها فسيلحق به الأذىٰ والتعذيب، وأمر إبراهيم أن يهجره فترة ليراجع نفسه.

﴿قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا﴿٤٧﴾﴾ فرد عليه إبراهيم بالرد الجميل والقول الحسن، وأمنه بالسلامة من ناحيته وطمأنه بأنه لن يلحقه أي أذىٰ من جانبه أو أي سوء أو مكروه، ووعده بأنه سيطلب من الله تعالىٰ أن يغفر له، وأخبره بأنه قد وعده أن يلبي له جميع ما طلب منه ويستجيب ما دعاه به، وكان ذلك شفقة منه علىٰ أبيه ورحمة به.

﴿وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُو رَبِّي عَسَى أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا﴿٤٨﴾﴾ ووعد أباه أيضاً بأنه سيعتزلهم، وسيعتزل أصنامهم، وأخبرهم بأنه سيتوجه إلى الله سبحانه وتعالى وإلى عبادته، والدعاء له راجياً منه القبول والدخول في رحمته ومغفرته فعسى أن لا يردني خائباً.

﴿فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ ثم ذهب إلى بلاد الشام، وذلك أن الله سبحانه وتعالى بعثه إلى أهل بابل في العراق فدعاهم إلى الله تعالى وإلى عبادته، وحذرهم وأنذرهم عذابه وسخطه، وعندما لم يستجيبوا له ولم يؤمنوا وهددوه- أمره الله سبحانه وتعالى بالهجرة إلى بلاد الشام.

﴿وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا﴿٤٩﴾﴾ أخبر الله سبحانه وتعالى أنه وهب لإبراهيم عليه السلام بعد أن هاجر من أرض العراق إلى الشام إسحاق بن إبراهيم ويعقوب بن إسحاق بن إبراهيم وجعلهما نبيين.

﴿وَوَهَبْنَا لَهُمْ مِنْ رَحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا﴿٥٠﴾﴾ ثم أخبر الله سبحانه وتعالى أنه قد بارك في ذرية نبيه إبراهيم وجعل فيهم الأنبياء، وكان كل أنبياء بني إسرائيل من ذرية يعقوب ابن إسحاق كسليمان وداوود وزكريا ويحيى وموسى وهارون وغيرهم كثيرون، كذلك قد جعل لهم ذكراً حسناً بين الناس، وصيتاً واسعاً فلا تأتي أمة من الأمم إلا وتأتي على ذكرهم والثناء عليهم.

﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَى إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا﴿٥١﴾﴾ ثم انتقل الله تعالى إلى ذكر موسى ومكانته العظيمة عنده، وأن الشيطان لم يكن له فيه أي نصيب، والهوى لم يكن له في قلبه أي مكان، فهو من أهل الإخلاص لله تعالى وليس للدنيا فيه أي نصيب، وكان كذلك قبل أن يختاره الله تعالى للنبوة، وأخبر أنه اصطفاه للنبوة ولحمل الرسالة.

﴿وَنَادَيْنَاهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا﴿٥٢﴾﴾ ذكر الله تعالى هنا ما اختص به نبيه موسى عليه السلام من الكرامة العظيمة والشرف الرفيع من بين الأنبياء عليهم السلام،

فذكر تعالىٰ أنه ناداه وكلمه تكليماً عند الجانب الأيمن من جبل الطور الواقع بأرض سيناء، وقربه إليه ليسمع كلامه تعالىٰ ومناجاته له.

وهذا الشرف العظيم لم يكن إلا لموسىٰ عليه السلام.

﴿وَوَهَبْنَا لَهُ مِنْ رَحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا۝٥٣﴾ وأيده الله سبحانه وتعالىٰ وشد من أزره بأخيه هارون، فقد بعثه الله نبياً لأجل أن يعين موسىٰ في تبليغ دعوته إلىٰ فرعون وملئه، واستنقاذ بني إسرائيل من بطشه وظلمه وجبروته.

﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا۝٥٤ وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا۝٥٥﴾ ثم ذكر الله نبيه إسماعيل عليه السلام ونوه بذكره وبما كان عليه من صفات الكمال البشري فذكر تعالىٰ:

- أنه عليه السلام كان صادق الوعد.
- وأنه كان رسولاً من عند الله تعالىٰ برسالة إلىٰ الناس.
- وأنه كان نبياً يأتيه جبريل عليه السلام بالوحي من عند الله، وهذا الوحي هو غير الرسالة التي يأتيه بها جبريل عليه السلام ليبلغها للناس.
- وأنه كان يأمر أهله بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وبأداء ما افترضه الله تعالىٰ من الفرائض، وإنما خص الصلاة والزكاة بالذكر لأنهما كالعنوان لما سواهما من الفرائض.
- وأنه عليه السلام كان مرضياً عند الله لما كان عليه من المعرفة بالله والخشية له وامتثال أمره واجتناب نهيه.

﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا۝٥٦ وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا۝٥٧﴾ بعث الله تعالىٰ نبيه إدريس عليه السلام في الوقت الواقع بين آدم ونوح عليهما السلام، وقد ذكره الله تعالىٰ هنا لينوه بذكره ولينشر فضله ويرفع منزلته ويعلن بعظيم مكانته، وهذا من ثواب الله في الدنيا وكرامته لأوليائه، وهكذا كل رسل الله وأنبيائه صلوات الله عليهم الذين ذكرهم الله تعالىٰ في القرآن وأثنىٰ عليهم.

وقد قال بعضهم : إن الله تعالىٰ رفعه إلىٰ السماء، وأظن أن هذه الرواية غير صحيحة، وأن المراد بذلك هو أن الله سبحانه وتعالىٰ رفع ذكره وشأنه، وجعل له مكانة ومنزلة عظيمة عند بقية أنبيائه، وكان ذكره ذائعاً بين أهل جميع الأديان والأمم، وكان كل نبي يذكره في الكتاب الذي أنزل عليه، ويشيد بذكره ورفع منزلته.

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِنْ ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا﴾ ثم أخبر الله تعالىٰ بأن هؤلاء الذين تقدم ذكرهم هم الذين اختارهم الله لنبوته واصطفاهم لتبليغ رسالاته، وأن بعضهم من ذرية آدم، وبعضهم من ذرية من نجا مع نوح (وهم بعض أولاده)؛ لأنه لم يبق في الأرض إلا نوح ومن آمن به، ولم يؤمن به إلا أولاده، وأن بعضهم من ذرية إبراهيم، وبعضهم من ذرية إسرائيل الذي هو يعقوب، وقد أراد بالذين من ذرية إبراهيم إسماعيل، وأن بعضهم من ذرية من قد هداهم الله سبحانه وتعالىٰ واجتباهم.

﴿إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ ءَايَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا۝٥٨﴾ وكانوا إذا سمعوا آيات الله سبحانه وتعالىٰ وبيناته وحججه خروا علىٰ وجوههم خوفاً وخشية من الله سبحانه وتعالىٰ.

﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا۝٥٩﴾ ثم حكىٰ الله تعالىٰ أنه قد خرج من ذراري هؤلاء الأنبياء أمم أضاعوا كتاب الله تعالىٰ وكذبوا بأنبيائه ورسله وأطاعوا إبليس واتبعوا شهواتهم ورغباتهم، وأخبر أنهم بسبب عصيانهم لله واتباعهم لشهواتهم وإضاعتهم للصلاة سيلقون جزاء أعمالهم.

والغي هو العذاب، ويقال: «غوي الفصيل» إذا شرب ثم مات من ذلك.

﴿إِلَّا مَنْ تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْئًا۝٦٠﴾ وأن من تاب من هؤلاء ورجع إلىٰ الله تعالىٰ وآمن به وفعل ما أوجب

الله عليه فإنه سيتوب عليه ولو كان قد عمل المنكرات وارتكب الفواحش، وأنه ما دام قد رجع إلىٰ الله سبحانه وتعالىٰ فسيدخله الجنة ولا ينقص من أجره شيئاً.

يرغب الله تعالىٰ بذلك أهل مكة وغيرهم ممن عمل المعاصي بأن باب التوبة مفتوح لمن أراده.

﴿جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمَنُ عِبَادَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًّا﴿٦١﴾﴾ وهذه الجنة التي يدخلها التائبون هي جنات إقامة دائمة لا ينقطع نعيمها، وقد وعد بها عباده الذين آمنوا وصدقوا بها حال كونها غائبة عنهم ولم يكونوا رأوها، وذلك لأن الذي لا يؤمن بها إلا عند رؤيتها ومشاهدتها لا تقبل توبتهم؛ لأن التكليف يكون قد ارتفع.

﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَامًا وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴿٦٢﴾﴾ وأنهم فيها لا يسمعون الكلام الفاحش والباطل، وليس فيها من ذلك اللغو شيء إلا الأمن والأمان والراحة، ولن يرىٰ أحد فيها ما ينكد عليه عيشه أو ينغص معيشته، فهم في جميع أوقاتهم يتقلبون في نعيم الجنة وخيراتها في سلام وسرور وراحة.

﴿تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ تَقِيًّا﴿٦٣﴾﴾ أخبر الله تعالىٰ أن تلك الجنة التي ذكرها سيورثها عباده أهل التقوىٰ والخوف منه ومن اقتراف معاصيه دون غيرهم من العصاة والمصرين علىٰ الكبائر.

﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴿٦٤﴾﴾ عاتب النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ في أمر تأخره عن النزول إليه، وطلب منه أن يكثر التردد والنزول عليه، فأجابه جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ بأنهم لا يتنزلون إلا متىٰ أراد الله تعالىٰ، وأن ذلك ليس تحت أيديهم وإرادتهم، وأخبره أنه ليس لهم أي تصرف في ذلك لأن الله تعالىٰ هو مالك أمرهم وتصرفهم فلا يستطيعون أن يفعلوا شيئا إلا بأمر منه، وأخبره أن تأخر نزوله ليس عن نسيان

من الله تعالىٰ لنبيه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ فالله تعالىٰ لا ينسىٰ، وأنه ينزلهم متىٰ دعت إليه الحكمة والمصلحة، فمتىٰ اقتضت حكمته أ ن ينزلنا فإنه يأمرنا بذلك.

﴿رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴿٦٥﴾﴾ هذا من كلام جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ مخاطباً لمحمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ أنه لا ينزل إلا بأمر من الله تعالىٰ الذي هو رب السماوات والأرض وما بينهما، ثم أمره بأن يستقيم علىٰ عبادته والدعوة إليه، وأن يستمر علىٰ ما مضىٰ فيه من الدعوة والتبليغ، وأن يصبر علىٰ ذلك أشد الصبر لأن الله وحده هو أهل للعبادة، وتلك الأصنام التي يعبدونها من دونه ليست إلا زوراً وبهتاناً.

﴿وَيَقُولُ الْإِنْسَانُ أَئِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا﴿٦٦﴾﴾ ثم أخبر الله سبحانه وتعالىٰ عن حال المشركين بأنهم يستنكرون علىٰ من يقول بالبعث بعد الموت، وكيف يصح لمن صار تراباً أن يرجع حيواناً كما كان من قبل؟

﴿أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا﴿٦٧﴾﴾ ألم تعلموا أيها المنكرون للبعث بعد الموت أن الذي خلقكم وسواكم قادر علىٰ إعادة خلقكم بعد الموت، ولو رجعتم إلىٰ عقولكم لما أنكرتم ذلك.

﴿فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا﴿٦٨﴾﴾ يخاطب الله تعالىٰ نبيه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ بأنه سيحشر أولئك المكذبين مع الشياطين يوم القيامة ثم يحضرهم حول جهنم جاثين علىٰ ركبهم فلا يستطيعون القيام من شدة هول ما يرون.

﴿ثُمَّ لَنَنْزِعَنَّ مِنْ كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ عِتِيًّا﴿٦٩﴾﴾ ثم إنه سيأخذ من كل فرقة من فرق المشركين والمكذبين كبيرها وأشدها عداوة لله تعالىٰ ولدينه ليزيد في حسابهم وجزائهم بسبب ضلالهم وإضلالهم غيرهم.

﴿ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَى بِهَا صِلِيًّا﴿٧٠﴾﴾ وأخبر أنه عالم بالمكذبين الذين يستحقون دخول النار، وأنه لن يستطيع أحد أن يغالطه أو يموه عليه.

﴿وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا﴿٧١﴾﴾ أراد بذلك المشركين والمكذبين بالبعث، وأن دخولهم النار وعد حتم واجب ومقطوع به لا خلف فيه ولا تبديل.

﴿ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا﴿٧٢﴾﴾ وأما المتقون فأخبر الله تعالى عنهم بأنهم لن يحضروا حول جهنم ولن يروها أو يشاهدوها، ولن يروا ما يسوؤهم أو يفزعهم من ساعة مماتهم إلى أن يدخلوا الجنة، وذلك بخلاف ما عليه غيرهم من المكذبين والظالمين، و«ثم» هاهنا معناها بعد حال أهل الجنة عن حال أهل النار.

﴿وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا﴿٧٣﴾﴾ كانت قريش إذا تلا عليهم النبي صلى الله عليه وآله وسلم القرآن سألوه: مَن الأفضل نحن أم أنتم يا محمد؟ وأيهما أحسن نادينا أم ناديكم؟ ومن أحسن مقاماً في مكة نحن أم أنتم يا محمد؟

لأن النبي صلى الله عليه وآله وسلم والمسلمين كانوا في مكة في ضعف وفقر وشدة، بخلاف المشركين لكانوا في عزة وكثرة وغنى ووجاهة، ونواديهم كانت مزينة بالثياب الفاخرة والمناظر البهية والجذابة، مما جعلهم يغترون بما هم فيه من النعيم في الدنيا، وجعلهم ذلك يظنون أنهم أحسن من المسلمين وأفضل منهم، وأنهم لو لم يكونوا كذلك لما أعطاهم الله في الدنيا ما أعطاهم من متاع الدنيا.

﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَاثًا وَرِئْيًا﴿٧٤﴾﴾ ثم أجاب الله تعالى عليهم على لسان نبيه صلى الله عليه وآله وسلم بأن الله قد أهلك قبلكم يا قريش كثيراً من الأمم الذين كانوا أحسن مقاماً وأكثر مالاً وأبهى جمالاً منكم يا قريش، وقد أهلكهم الله تعالى بسبب تكذيبهم وتمردهم على أنبيائهم، وسيعذبكم الله تعالى على ذنوبكم كما عذب من كان قبلكم من الأمم.

﴿قُلْ مَنْ كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدًّا﴾ ثم أوحىٰ الله سبحانه وتعالىٰ إلىٰ نبيه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ بأن من كان من أهل الضلال فإن الله سبحانه وتعالىٰ سيزيده في الدنيا وسيمتعه فيها وسينعمه، ولكنه لن يزداد بذلك إلا مضاعفة في العذاب بسبب زيادة ما يقترفه من المعاصي والتكذيب والاستهزاء، وذلك مما يجعله يستوجب عذاباً أكثر وأعظم.

﴿حَتَّى إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ إِمَّا الْعَذَابَ وَإِمَّا السَّاعَةَ﴾ وأنهم لا يزالون في زيادة الذنوب والاستكثار منها حتىٰ ينزل الله تعالىٰ عليهم عذابه أو حتىٰ تقوم الساعة.

﴿فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضْعَفُ جُنْدًا ﴿٧٥﴾﴾ وعند حلول ما يوعدون سيعلمون من هو خير مقاماً ومن هو الأحسن ندياً هم أم النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ وأصحابه؟

﴿وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَرَدًّا ﴿٧٦﴾﴾ وأما المؤمنون وإن سلبتهم الدنيا زينتها وجمالها فإن لهم عند الله منازل رفيعة وشرفاً عالياً ويمدهم الله تعالىٰ بأنوار الهدىٰ.

ثم أخبر الله سبحانه وتعالىٰ أن الأعمال الصالحة التي يكتسبها المؤمنون أفضل عنده مما ترون في أيدي الكفار والمشركين من متاع الدنيا وزينتها، وأن عاقبتها في الآخرة أفضل.

﴿أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٧٧﴾﴾ قيل إن قائل ذلك هو الوليد بن المغيرة، فقد كان له من الأولاد سبعة عشر ولداً، وكان من كبار التجار في قريش، وكان يحلف أن الله تعالىٰ سيزيده من الأموال والأولاد ويقطع بذلك ويحدث به بين الناس، فأوحىٰ الله تعالىٰ إلىٰ نبيه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ ليعجبه من مقالة ذلك الفاجر المعجب بنفسه وبما هو فيه من زينة الحياة الدنيا حتىٰ زينت له نفسه ودعاه غروره إلىٰ اعتقاده عظمة نفسه، واستحقاقه إلىٰ أن يعطيه الله ما يريد من المال والبنين حتىٰ أقسم إنه ليؤتين مالاً وأولاداً فوق ما عنده.

﴿أَطَّلَعَ الْغَيْبَ أَمِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا﴿٧٨﴾﴾ فهل اطلع على علم الغيب حتى عرف أن الله تعالى سوف يعطيه ذلك، أم أن الله عهد إليه بكتاب كتبه إليه فيما يدعي ويزعم؟

﴿قُلْ مَنْ كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدًّا﴾ هذا رد من الله سبحانه وتعالى لمقالته تلك، وأنها مقالة كاذبة، وأنه لن يعطيه ما يدعيه من زيادة الأموال والأولاد، وأخبره الله تعالى بأنه سوف يجازيه على مقالته هذه، وأنه سوف ينال من العذاب زيادة على غيره لخبثه ومكره، وذلك أنه كان يسمى حكيم قريش لما يتمتع به من الذكاء والخبث والدهاء، وكانوا يرجعون إليه في الرأي والتدبير والمشورة ضد النبي صلى الله عليه وآله وسلم.

﴿حَتَّى إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ إِمَّا الْعَذَابَ وَإِمَّا السَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضْعَفُ جُنْدًا﴿٧٥﴾ وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَرَدًّا﴿٧٦﴾ أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا﴿٧٧﴾ أَطَّلَعَ الْغَيْبَ أَمِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا﴿٧٨﴾ كَلَّا سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا﴿٧٩﴾﴾.

﴿وَنَرِثُهُ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا﴿٨٠﴾﴾ وكذلك سنرث ماله وأولاده بعد موته، وسيأتينا يوم القيامة لا يملك شيئاً.

﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ ءَالِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا﴿٨١﴾﴾

ثم أخبر الله سبحانه وتعالى عن قريش بأنهم اتخذوا لهم آلهة يعبدونها من دون الله لتكون لهم عزاً ولينتصروا بها ولتدفع عنهم الشر والمكروه.

﴿كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴿٨٢﴾﴾ رد الله تعالى عليهم زعمهم ذلك، وأن الأمر ليس كما يزعمون ويظنون فلن تستطيع آلهتهم هذه أن تعزهم أو تدفع عنهم، وأخبرهم أنهم لن ينالوا من عبادتهم لها إلا الذل والخزي والهوان.

ثم أخبر الله سبحانه وتعالى عن حال معبوداتهم تلك يوم القيامة وما سيكون منهم لمن يدعي إلهيتهم، فأخبر أنهم سيكفرون بعبادتهم وسينكرون عليهم عبادتهم لهم، وأنهم لم يأمروهم بذلك وإنما كانوا يتبعون الشياطين وما زينوه لهم.

وذلك لأن الأصنام التي ينحتونها إنما يصورونها على هيئة وصورة من يدعون ربوبيته إما من الملائكة أو من المخلوقين كالمسيح وعزير، فأخبر الله تعالى أنه إذا أتى يوم القيامة فإن الملائكة ستأتي يوم القيامة منكرة على أولئك الذين كانوا يعبدونهم، وتشهد عليهم بأنهم كانوا كافرين متبعين لأهوائهم وشهواتهم.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا﴿٨٣﴾﴾ ثم أخبر الله تعالى نبيه ﷺ بأنه خلى بين الشياطين وأتباعهم في الدنيا؛ ليتم التكليف وليختبر المكلفين أيهم يتبع الشيطان، وأيهم يتبع طاعة الرحمن فمن أطاع الرحمن أمده الله تعالى بالألطاف والتنوير وزيادة الهدى والتوفيق، ومن أطاع الشيطان تركه الله من ألطافه ونور هدايته وتوفيقه، وذهبت به الشياطين إلى طرق الغواية وسلكت به سبل الضلال، وتقحمت به في ارتكاب العظائم والجرائم.

وليس هناك أمر من الله للشياطين بإضلال الكافرين، وإنما المقصود أنهم عندما كفروا بالله سبحانه وتعالى سلبهم ألطافه وحفظه وتركهم عرضة للشياطين تسوقهم وتسيرهم كيفما شاءت وتضلهم عن الطريق وتدخلهم في المهالك.

﴿فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا﴿٨٤﴾﴾ فلا تستعجل نزول العذاب بهم يا محمد فإنا سنأخذهم عند حلول وقته، وإن لهم آجالاً لا بد أن يبلغوها، ومتى بلغوها حل بهم وعد الله، وإن لهم ساعات معلومة فمتى استتموا عددها حل بهم العذاب.

﴿يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْدًا﴿٨٥﴾﴾ يذكر الله سبحانه وتعالى كيف يحشر عباده المتقين، فأخبر أنه سيجعل لهم المواكب التي ترافقهم يوم الحشر ويحفهم بملائكة المكرمين، ويلبسهم أثواب الكرامة والعظمة.

﴿وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَى جَهَنَّمَ وِرْدًا﴿٨٦﴾ لَا يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا﴿٨٧﴾﴾ وأما المجرمون فسيحشرون إلى الله سبحانه وتعالى وهم في غاية الذلة والمهانة كما تساق الحيوانات إلى وردها ليس لهم من يشفع لهم أو يتوسط لهم عند الله سبحانه وتعالى، ولم يبق لهم إلا جهنم ولا محيص لهم عنها، ثم استثنى الله سبحانه وتعالى أولئك الذين يعملون الأعمال الصالحة بأن شفاعته سوف تكون لهم خاصة.

﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا﴿٨٨﴾ لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا﴿٨٩﴾ تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا﴿٩٠﴾﴾ كان مشركو قريش يقولون إن الملائكة بنات الله، وكذلك النصارى كانوا يقولون إن عيسى ابن الله، واليهود كانوا يقولون: عزير ابن الله، فرد الله سبحانه وتعالى عليهم ادعاءهم ذلك بأنهم قد افتروا عليه وادعوا عليه منكراً في غاية القبح وأشنعه، حتى أن السماء تكاد أن تتصدع من فحشه وقبحه، وأن الأرض تكاد أن تتشقق وتنهد الجبال من شناعة ما يقولونه ويفترونه على الله سبحانه وتعالى.

﴿أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا﴿٩١﴾ وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا﴿٩٢﴾﴾ لأجل مقالتهم هذه وادعائهم على الله تعالى التوالد؛ لأنهم بهذا القول حطوه عن منزلة الإلهية إلى منزلة المخلوقين تعالى عما يقولون علواً كبيراً، وأخبر أنه ليس من شأنه تعالى أن يتخذ الأولاد، وأن يوصف بذلك فليس من جنس ما يتوالد.

﴿إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا ءَاتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا﴿٩٣﴾﴾ ما دام أن كل من في السماوات والأرض ملكه وعبيده فلا يصح أن يكون له فيهم أولاد للتنافي بين العبودية والبنوة.

﴿لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا﴿٩٥﴾﴾ أحصاهم في علمه بعددهم وأعمالهم، وسيحشرون إليه يوم القيامة فيحاسب كل امرئ بما عمل ولن يشفع له عند الله تعالى إلا عمله فقط فلا قرابة أو وساطة.

﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا﴿٩٦﴾﴾ كانت الأرض قد ضاقت على النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ وأصحابه، وذلك أنهم كانوا قلة قليلة وكانوا منبوذين عند جميع الناس قبل الهجرة، فأنزل الله سبحانه وتعالى على نبيه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ هذه الآية يعده بأنه سوف يجعل لهم وداً ومحبة في قلوب الناس بعد مدة من الزمان وما عليهم الآن إلا الصبر؛ يخفف الله سبحانه وتعالى على نبيه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ والمؤمنين ما هم فيه من الشدة والمحنة، ويحثهم على زيادة الصبر.

﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنْذِرَ بِهِ قَوْمًا لُدًّا﴿٩٧﴾﴾ أوحى الله سبحانه وتعالى إلى نبيه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ بأنه أنزل القرآن عليه، وأنه يسر قراءته له ليبشر به المتقين بالثواب والجزاء، ولينذر به مشركي قريش؛ لأنهم كانوا أشد الناس خصومة ومجادلة للنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ وأشدهم إنكاراً وإصراراً على التمرد وعدم قبول الحق والهدى.

﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُمْ مِنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا﴿٩٨﴾﴾ وأخبره بأنه كم من أمة أهلكها قبلهم بسبب تكذيبهم وتمردهم فلم يبق لهم أي أثر أو حس، والركز: هو الصوت الخفي، أو المشي الخفيف الذي لا يسمعه أحد.



سورة طه

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿طه۝١ مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْءَانَ لِتَشْقَى۝٢﴾ يحتمل أن يكون اسماً للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، ويحتمل أن يكون من الحروف المقطعة التي يبتدئ بها السور كـ(الم ـ والـــر).

أخبر الله سبحانه وتعالى نبيه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ أنه لم ينزل عليه القرآن ليتعب نفسه ويجهدها في ملاحقة قريش ليؤمنوا؛ وقد كاد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ أن يهلك نفسه حزناً وحسرة وتعباً في ملاحقة قريش؛ شفقة عليهم أن يلحقهم عذاب الله تعالى وسخطه، فأراد الله سبحانه وتعالى أن يخفف على نبيه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ تعبه ذلك رحمة به وشفقة عليه.

﴿إِلَّا تَذْكِرَةً لِمَنْ يَخْشَى۝٣﴾ وأخبره أنه لم ينزله عليه إلا ليذكرهم به فقط، فإذا علموه فمن أراد أن يؤمن فقد أنقذ نفسه، ومن أبى فقد أدى ما عليه من التبليغ والحجة، وحسابهم على الله سبحانه وتعالى.

﴿تَنْزِيلًا مِمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَوَاتِ الْعُلَا۝٤ الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى۝٥﴾ وأن هذا القرآن منزل من عند خالق السماوات والأرض المستولي عليهما وعلى ما فيهما، والمسيطر عليهما بقدرته وسلطانه وتدبيره.

والعرش هو الملك، وإنزال الله تعالى للقرآن هو من جملة تدبيره في مملكته، وقد أنزله إلى أمة محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ رحمة بهم.

وما يقولونه بأن هناك كرسياً، وأن الله تعالى قد استوى فوقه جالساً؛ فالجواب عليه: أن ذلك منافٍ للسياق الذي ورد فيه من التمدح وإظهار العظمة والكبرياء بأن هذا القرآن تنزيل من خالق السماوات والأرض والمدبر لأمرهما ولما فيهما والمستولي على جميع ما فيهما.

ولو كان الأمر كما يقولون بأن هناك سريراً، وأن الله سبحانه وتعالى قد استوى عليه جالساً لكان في إقحامه في هذا السياق غاية القبح وأسمجه، يعرف ذلك من له أدنى مسكة في كلام العرب ومخاطباتهم ومحاوراتهم.

وإنما المراد بذلك أنه خلق السماوات والأرض ثم استولى على ملكهما، وسيطر عليهما بقدرته وإرادته وتصرفه وتدبيره، من الخلق والرزق والموت والحياة، وما أشبه ذلك.

﴿لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى﴿٦﴾﴾ ثم أكد على ذلك مبيناً لاستوائه على العرش بأنه الذي يملك السماوات والأرض وما فيهما، وأنهما تحت قدرته وقبضته وسيطرته.

﴿وَإِنْ تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى﴿٧﴾﴾ ثم خاطب الله سبحانه وتعالى نبيه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ بأنه سواء عليك يا محمد أجهرت بكلامك أم أخفيته في نفسك، فهو عالم بما في نفسك ومطلع عليه. والسر: هو ما يكون بين اثنين من الهمس فلا يسمعهما من بجوارهما، والذي هو أخفى منه: هو ما كان في القلب من الكلام، ولم يخرج من اللسان.

﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴿٨﴾﴾ فلا إله في السماوات والأرض إلا الله تعالى، وهو وحده الذي يختص بالأسماء الحسنى، ويستحق الصفات العليا من العظمة والكبرياء، وأنه الرب والرحمن والرحيم ومالك الملك، ونحوها من صفات المدح والثناء، وليس للأصنام حظ ولا نصيب في شيء من الأسماء الحسنى.

فما ذكر من قوله: ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾......إلى قوله: ﴿لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴿٨﴾﴾، فهو تفسير لقوله: ﴿عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴿٥﴾﴾.

﴿وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى﴿٩﴾ إِذْ رَأَى نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي ءَانَسْتُ نَارًا لَعَلِّي ءَاتِيكُمْ مِنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى﴿١٠﴾﴾ هل علمت يا محمد ما كان من قصة موسى وأمره عندما رأى ناراً وهو في طريق سفره عائداً من عند نبي الله شعيب عَلَيْهِ السَّلَامُ مع امرأته ليلاً؟

وذلك أنه خلال مسيره كانت الظلمة شديدة، والليلة باردة، فرأىٰ ناراً علىٰ مسافة؛ فأمر امرأته بأن تنتظر ليذهب إلىٰ تلك النار فيأتيهم بها يستضيئون به ويستدفئون، أو يجد عندها من يدلهم علىٰ الطريق؛ لأنهم كانوا قد ضلوا طريقهم.

﴿فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَامُوسَىٰ۝١١ إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى۝١٢﴾ فلما وصل عند النار سمع منادياً يناديه باسمه، ويأمره بأن يخلع نعليه لأن المكان الذي يطؤه مقدس، ولا يليق أن يدوسه بنعاله، وكان اسم ذلك المكان «طوىٰ»، والذي ناداه هو الله سبحانه وتعالىٰ.

﴿وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰ۝١٣﴾ وهذا من كلام الله سبحانه وتعالىٰ لموسىٰ عليه السلام بأنه قد اختاره لحمل رسالته وتبليغها.

﴿إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي۝١٤﴾ وأمره بأن يخصه بعبادته، وأن يستمر علىٰ إقامة الصلاة ليبقىٰ علىٰ تواصل مع الله سبحانه وتعالىٰ، ويبقىٰ ذكره في قلبه حتىٰ لا ينساه؛ وذلك أن طبيعة الإنسان النسيان والصلاة ستذكره بالله تعالىٰ؛ لأنه إذا أقام صلاة الصبح فإنه سيشتغل بعد ذلك بأمور معيشته وبدنياه، مما يتسبب ذلك في نسيانه لله تعالىٰ، فإذا كان وقت الظهر فإنه سيعود إلىٰ ذكر الله سبحانه وتعالىٰ، وهكذا إلىٰ المغرب؛ فلا ينقطع عن ذكر الله بذلك في جميع أوقاته.

﴿إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَىٰ۝١٥﴾ هذا أيضاً من كلام الله سبحانه وتعالىٰ لنبيه موسىٰ عليه السلام بأن الساعة وموعد القيامة آت لا محالة، وذلك لينال فيها كل امرئ جزاء ما عمل، وأخبره أنه لا يعلم موعدها إلا هو.

وقوله: ﴿أَكَادُ أُخْفِيهَا﴾ أراد بذلك أنه كان قد أوشك علىٰ أن يخفي علىٰ خلقه أمر الساعة فلا يعلموا بها رأساً ولكن حكمته اقتضت أن يخبرهم بأمرها ليستعدوا لها، وللقاء الله سبحانه وتعالىٰ وجزائه.

﴿فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَى﴿١٦﴾﴾ وأمره أن لا يصدق من أخبره بأن لا حقيقة لها، وأنه إن صدق هؤلاء الذين يتبعون أهواءهم وشهواتهم فسيقع في الخسارة والهلاك.

﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَامُوسَى﴿١٧﴾ قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى﴿١٨﴾﴾ ثم سأل الله سبحانه وتعالى نبيه موسى عليه السلام عن العصا التي يحملها في يده ما هي وما أمرها؟ فأجابه بأنها عصاه التي يستعين بها في مسيره، ويضرب بها أغصان الشجر لتأكل غنمه، وأن له فيها مصالح ومنافع أخرى، أراد الله سبحانه وتعالى بسؤال موسى ذلك السؤال تمهيداً لإخباره بأنه سيجعل له فيها آية ومعجزة.

﴿قَالَ أَلْقِهَا يَامُوسَى﴿١٩﴾ فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى﴿٢٠﴾ قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَى﴿٢١﴾﴾ أمره بذلك ليطلعه على الآية التي جعلها له في هذه العصا للدلالة على نبوته.

﴿وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ ءَايَةً أُخْرَى﴿٢٢﴾﴾ وأمره بأن يدخل يده في جيبه ليطلعه على آية أخرى ومعجزة تدل على صدق نبوته، وكانت تخرج بيضاء ناصعة البياض من غير برص أو أي سوء، وكان من رآها ينبهر بما يراه، ويعلم أن ذلك شيء من عند الله سبحانه وتعالى.

﴿لِنُرِيَكَ مِنْ ءَايَاتِنَا الْكُبْرَى﴿٢٣﴾﴾ وأخبره أن ذلك الذي أعطاه من الآيات والمعجزات الخارقة للعادة التي لا تدخل تحت قدرة البشر.

﴿اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى﴿٢٤﴾﴾ ثم أمره أن يذهب إلى فرعون ليريه هذه الآيات ويخبره أنه مرسل إليه من عند الله سبحانه وتعالى؛ لأنه قد تجاوز الحد في الظلم والطغيان، وأن يأمره بأن يرجع إلى الله تعالى وترك ما هو فيه.

﴿قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي﴿٢٥﴾ وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي﴿٢٦﴾﴾ عند ذلك دعا الله سبحانه وتعالى بأن يعينه على هذا التكليف الذي كلفه به؛ وذلك أنه كان يشكوا من عدم التحمل والتسرع في أكثر الأمور وعدم الصبر عليها، يظهر ذلك مما كان

منه في الرجل الذي وكزه فقتله عندما رآه يتخاصم مع رجل من قومه، وتسرعه في ذلك وعدم التروي والنظر فيما بينهما.

وكذلك دعا الله سبحانه وتعالى أن يسهل له هذه الطريق والسبيل التي أمره أن يمضي فيها التي هي تبليغ رسالته.

﴿وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي۝٢٧ يَفْقَهُوا قَوْلِي۝٢٨﴾ وكان يشكوا من انحباس في الكلام، وكان إذا تكلم بكلام فإنه يقطع كلامه ذلك لآفة تمنعه عن الاستمرار في مواصلة الكلام.

﴿وَاجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِنْ أَهْلِي۝٢٩ هَارُونَ أَخِي۝٣٠ اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي۝٣١ وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي۝٣٢﴾ ودعا الله سبحانه وتعالى أن يجعل له من يعينه في مهمته هذه وتكليفه هذا، وأن يكون هذا المساند أخاه هارون، وأن يجعله نبياً.

﴿كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا۝٣٣ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا۝٣٤ إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيرًا۝٣٥﴾ فأنت يا رب بصير بنا وعالم بأحوالنا، ولم نعهد منك إلا الخير.

﴿قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَامُوسَى۝٣٦﴾ فأخبره الله تعالى بأنه قد سمع نداءه وأنه قد استجاب له ولما يطلبه.

﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَى۝٣٧﴾ وأخبره الله سبحانه وتعالى بأنه قد امتن عليه بنعمة أخرى غير نعمة النبوة وهي:

﴿إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّكَ مَا يُوحَى۝٣٨ أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِي وَعَدُوٌّ لَهُ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي۝٣٩﴾ يذكره الله تعالى بنعمته عليه عند ولادته إذ أوحى إلى أمه وألهمها بأن تضعه في تابوت وتغلق عليه وتلقيه في البحر، وأوحى إليها بأن هذا التابوت يحمله الماء ثم يدفعه إلى الساحل، وأن فرعون سيأخذه وسيربيه، وأخبره بأن ذلك كان بتدبير منه، وأنه ألقى في قلب فرعون محبته والشفقة عليه، وأنه الذي سخر لتربيته أشد الناس عداوة له، يحوطونه بعنايتهم ورعايتهم، وأنه مع ذلك تحت حراسة الله تعالى وحفظه.

﴿إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى مَنْ يَكْفُلُهُ فَرَجَعْنَاكَ إِلَى أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ﴾ وكذلك يذكره بنعمته عليه عندما ذهبت أخته لتسأل وتتحسس من الذي أخذ التابوت، وأنها عرفت أنه في بيت آل فرعون، وكانوا خلال ذلك يبحثون له عن مرضعة ترضعه، وكلما وصلت مرضعة فإنه يرفض أن يرضع منها، حتى وصلت أخته ورأت ما رأت فأخبرتهم بأنها ستدلهم على مرضعة ترضعه.

وأخبره أن كل ذلك بتدبير منه تعالى ليرجع إلى أمه رحمة منه تعالى لها؛ ليخفف عنها ما هي فيه من الحزن والشدة، مع أن آل فرعون لا زالوا حريصين عليه أشد الحرص أن لا يلحقه أي سوء أو مكروه، وكانوا يعطونها مع ذلك أجرة إرضاعه، وأخبره أن ذلك بتدبيره.

﴿وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ﴾ ويذكره أيضاً بنعمته عليه عندما وكز ذلك الرجل من آل فرعون فقتله، ثم إنه نجاه وخلصه من آل فرعون لئلا يظفروا به فيقتلوه جزاءً على ما قتل منهم، ونجاه من غم طلبهم له إذ دله على طريق ساقته إلى نبي الله شعيب عليه السلام في بلد لا سلطان لفرعون فيها، فمكث عنده هارباً عشر سنين، وأخبره أنه الذي قد هيأ له ذلك، وأن كل ذلك بتدبير منه.

ومعنى ﴿فَتَنَّاكَ فُتُونًا﴾: أن الله قد رباك تربية حسنة حتى صرت مخلصاً له لا مكان لإبليس ولا للهوى في قلبك، يقال: فتن الذهب إذا أخرجوا خبثه.

﴿ثُمَّ جِئْتَ عَلَى قَدَرٍ يَامُوسَى﴿٤٠﴾﴾ وأخبره الله تعالى أنه الذي قدر له كل ذلك وهيأه له، وأنه الذي ساقه إلى جبل الطور في خلال سفره عائداً من عند نبي الله شعيب لملاقاة ربه وتكليمه، وأن ذلك لم يكن مصادفة فهو الذي قد كتب هذا الميعاد وقضاه وقدره.

﴿وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي﴿٤١﴾﴾ وأخبره أنه قد شمله بعنايته ورعايته؛ لأجل أن يتخذه رسولاً ويبلغ رسالته؛ والله سبحانه وتعالى لا يختص بنبوته ورسالته إلا من كان خالصاً له جل وعلا لا نصيب فيه للهوى ولا للشيطان.

﴿اذْهَبْ أَنْتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي وَلَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي﴿٤٢﴾ اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى﴿٤٤﴾﴾ ثم أمره بأن يأخذ آياته ويذهب بها مع أخيه هارون إلى فرعون فيبلغاه رسالة الله، وأن لا يأخذهما الفتور والتواني، وكان فرعون قد طغى في الأرض وتجبر فيها، ولا بد أن يدعواه إلى ترك ظلمه وجبروته، ويحذراه عذاب الله وبأسه إن لم يستجب لداعي ربه، وأمرهما أن يلينا له في ذلك؛ لأن اللين يكون أدعى إلى القبول.

﴿قَالَا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَنْ يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَى﴿٤٥﴾﴾ خافا على نفسيهما من فرعون ومن بطشه وجبروته، وشكوا إلى الله سبحانه وتعالى بأنهما إن بلغاه آياته فسيبادر بقتلهما والفتك بهما، ولن يرده عن ذلك شيء لشدة جبروته وكبره.

﴿قَالَ لَا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى﴿٤٦﴾﴾ فطمأنهما الله سبحانه وتعالى بأنه معهما وأنه سيعصمهما منه.

﴿فَأْتِيَاهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ﴾ يلقنهما الله سبحانه وتعالى الكلام الذي أرسلهما به إليه، وهو أن يخبراه بأنهما مرسلان من عند ربه وخالقه ليستنقذا بني إسرائيل من قبضته وظلمه وجبروته.

وقوله: ﴿مِنْ رَبِّكَ﴾ لينبهاه على أنه ليس إلا عبد مربوب، ومن الجدير بالعبد أن يطيع ربه.

﴿قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكَ وَالسَّلَامُ عَلَى مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَى﴿٤٧﴾ إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَى مَنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى﴿٤٨﴾﴾ وأخبراه أن الله سبحانه وتعالى قد أيدهما بالآيات الدالة على صدقهما، وأن يخبراه بأن الله سوف يعذبه إن أبى وتمرد وسينتقم منه أشد الانتقام، وأما إن استجاب وآمن فإن الله تعالى سيسلمه من عذابه وسخطه.

﴿قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَامُوسَى﴿٤٩﴾﴾ بعد أن بلغاه رسالة الله إليه سألهما فرعون من ربكما هذا الذي أرسلكما؟!! استخفافاً منه بهما وبمن أرسلهما.

﴿قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴿٥٠﴾﴾ فاستغلا سؤاله هذا إذ فتح لهما طريقاً إلى أن يصفا له الله تعالى، ويذكرا له الآيات الدالة عليه من الخلق والرزق والتدبير، فقالا له: ربنا هو الذي خلق الناس وأعطاهم كل متاع الحياة الدنيا ومنافعها وزينتها وهداهم إلى كيفية الانتفاع بما أعطاهم في الأرض من المنافع.

﴿قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَى﴿٥١﴾﴾ فرد عليهما فرعون وسألهما عن أحوال الأمم السابقة، وهل أرسل الله تعالى إليها الرسل؟ وهل آمنوا أم كذبوا؟

وكان سؤاله هذا لأنه تفاجأ بموسى وتعجب مما جاء به إليه، وأنه رسول الله إليه ليأمره بالإيمان، وتهديده له بأنه إن لم يؤمن فإن الله سيعذبه مما دفعه ذلك لأن يسأل عن حال الأمم السابقة هل جاءهم ما جاءه، وكذلك ليغالط موسى ويخرجه عن موضوع ما جاء به من الدعوة إلى الله سبحانه وتعالى وإلى الإيمان به، وهروباً من محاجته له أمام الملأ لئلا يفتضح أمره بينهم.

﴿قَالَ عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنْسَى﴿٥٢﴾﴾ قال موسى عليه السلام: أخبار القرون السالفة عند ربي لا علم لي بها، وستلقى تلك القرون جزاءها يوم القيامة على كل صغير وكبير، قد أحصى الله أعمالها فلا يخفى عليه منها شيء.

﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا﴾ ثم عقب ذلك بوصف ربه بأنه الذي هيأ لكم هذه الأرض ومهدها لتسكنوا وتعيشوا على ظهرها، وشق لكم فيها الطرق التي تتنقلون من خلالها لحاجاتكم ومصالحكم في جميع نواحي الأرض، وليسهل لكم التواصل مع بعضكم البعض.

﴿وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْ نَبَاتٍ شَتَّى﴿٥٣﴾ كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِأُولِي النُّهَى﴿٥٤﴾﴾ وأخبره بأنه الذي سخر لهم

السحاب الذي ينزل منه المطر، فينبت به جميع أصناف النبات الذي يأكلونه ويتنعمون فيه ودوابهم وأنعامهم.

وصف موسى عليه السلام لفرعون ربه بما ظهر من أفعاله وآياته لينبهه هو وملأه على النظر والتفكر؛ لعلهم يستيقظون من غفلتهم، ويفكرون بعقولهم ليتوصلوا إلى معرفة الله سبحانه وتعالى.

﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى﴿٥٥﴾﴾ يذكر موسى عليه السلام فرعون بأصله وأنه بعيد عن مقام الربوبية، إذ هو عبد مملوك ومخلوق من التراب كسائر بني آدم، وأن مرده إليه، وأخبره بأن الله سبحانه وتعالى سيعيد خلقهم مرة أخرى للحساب والجزاء.

﴿وَلَقَدْ أَرَيْنَاهُ ءَايَاتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَى﴿٥٦﴾﴾ ثم أخبر الله سبحانه وتعالى بأنه قد أرى فرعون آياته الدالة على صحة نبوة موسى وصدق دعوته وما جاء به، وأنه نبي من عند الله تعالى، ولكنه كذب وامتنع عن الإيمان غاية الامتناع، واستكبر عن قبول الحق والهدى.

﴿قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَامُوسَى﴿٥٧﴾ فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِثْلِهِ﴾ أجاب فرعون على موسى بهذا الجواب، وأنه لم يأت إلا بالسحر لقصد الاحتلال لأرضهم والسيطرة عليها، وتهدده وتوعده بأنه سيأتيه بسحر يغلب سحره هذا.

وهو بكلامه هذا يغالط قومه خوفاً من أن يؤمنوا بموسى فأوهمهم أن الذي جاء به موسى ليس إلا سحراً لئلا يصدقوه ويتبعوه، وأما في الحقيقة فقد عرف صدق موسى وعرف صحة ما جاء به من الآيات، وأنه نبي من عند الله.

﴿فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَا نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنْتَ مَكَانًا سُوًى﴿٥٨﴾ قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ وَأَنْ يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى﴿٥٩﴾﴾ وطلب من موسى عليه السلام أن يحدد موعداً ليجتمع فيه مع السحرة ليباريهم أمام الملأ، وكان السحر في ذلك

الوقت قد راج، وصار في أوج ازدهاره وتطوره، وصاروا يتفننون فيه ويتنافسون في ميدانه، وكانوا قد بلغوا الغاية في علمه.

وقد أجاب موسى عليه السلام بأن موعد ذلك هو يوم عيدهم، وكان قد اقترب موعد ذلك اليوم وكان الناس يجتمعون فيه جميعاً للاحتفال والفرح، فاستغل موسى تلك المناسبة وجعل موعد ذلك ضحى ذلك اليوم.

﴿فَتَوَلَّى فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَى﴿٦٠﴾﴾ فأمر فرعون بمن ينادي في سحرة أرض مصر ليجتمعوا ويوافوا ذلك اليوم فحضر السحرة واجتمعوا.

﴿قَالَ لَهُمْ مُوسَى وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُمْ بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَى﴿٦١﴾﴾ فعندما اجتمعوا وعظهم موسى وذكرهم بالله سبحانه وتعالى وأن يرجعوا إليه وأن يكونوا صادقين معه، وإلا فإنهم سيعرضون أنفسهم لسخط الله سبحانه وتعالى وعذابه، وأخبرهم أن سحرهم هذا ليس إلا كذباً وافتراءً على الله تعالى، وأنهم بفعلهم هذا يغالبون الله تعالى، ولن يستطيعوا أن يغلبوه.

﴿فَتَنَازَعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّوا النَّجْوَى﴿٦٢﴾﴾ ثم إن السحرة عندما سمعوا مقالة موسى اختلفوا فيما بينهم فاجتمعوا وتشاوروا، فمن قائل يقول: إن مقالة موسى هذه مقالة عجيبة، وإن الكلام الذي قاله ليس كلام ساحر؛ ومن قائل: إنه ساحر قد أبدع في سحره غاية الإبداع.

﴿قَالُوا إِنْ هَذَانِ لَسَاحِرَانِ يُرِيدَانِ أَنْ يُخْرِجَاكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَى﴿٦٣﴾﴾ وكان القائلون من جانب الفراعنة ومن حولهم، فقالوا إن ما جاء به موسى وهارون ليس إلا سحر يريدون أن يحتلوا عليكم أرضكم، ويضيعوا عليكم دينكم الذي هو أمثل دين وأحسنه، ويبدلوه بدين غير دينكم.

﴿فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ ائْتُوا صَفًّا وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعْلَى﴿٦٤﴾﴾ يتشاور

سحرة مصر فيما بينهم ويشجع بعضهم بعضاً بأن يجتمعوا على كلمة واحدة ثم يقبلوا على موسى بجميعهم صفاً واحداً ليسهل قضاؤهم عليه ليحرزوا الفوز والظفر ورضا فرعون عنهم.

﴿قَالُوا يَامُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَى﴿٦٥﴾﴾ ثم نادى السحرة على موسى بعد أن اجتمعوا وخططوا وطلبوا منه أن يختار أن يبدأ هو، أو يبدؤوا هم، وفي سؤالهم له هذا السؤال دلالة على أنهم كانوا واثقين كل الثقة بأنفسهم وظفرهم بموسى عليه السلام سواء كان البادئ أو هم.

﴿قَالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى﴿٦٦﴾﴾ فرد عليهم موسى بأن يبدؤوا، فملأوا الساحة بعصيهم وحبالهم المسحورة كأنها ثعابين تسير وسط الميدان.

﴿فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى﴿٦٧﴾ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى﴿٦٨﴾﴾ عندما رأى موسى ذلك خاف في نفسه، فأوحى الله سبحانه وتعالى إليه أن لا يخاف وطمأنه بأنه سينصره على سحرهم.

﴿وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى﴿٦٩﴾﴾ ثم أمره بأن يلقي عصاه لتأكل ما رموا به من الحبال والعصي المسحورة، وأخبره أنه لا حقيقة لما يراه وإنما هو كيد وسحر وأنها لن تستطيع أن تلحق بأحد أي ضرر أو مكروه، فألقى عصاه فإذا هي حية عظيمة فأخذت تلتهم ما ألقوه من الحبال والعصي حتى أتت على كل ذلك.

﴿فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوا ءَامَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى﴿٧٠﴾﴾ عندما ألقى موسى عصاه ورأوها تلتهم ما جاءوا به من السحر عرفوا أن ما جاء به ليس من السحر في شيء، وأن هذه العصا قد انقلبت حية حقيقية، وأنها آية من آيات الله سبحانه وتعالى، عندها خروا سجداً على وجوههم سجداً لله تعالى وآمنوا وصدقوا بأن موسى نبي مرسل من عند الله تعالى.

﴿قَالَ ءَامَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ﴾ عندما رأى فرعون ذلك منهم غضب عليهم غضباً شديداً واستنكر فعلتهم تلك، وإيمانهم بموسى قبل أن يأذن لهم، وصاح عليهم بأن موسى ليس إلا ساحراً بل إنه كبير السحرة، وأنه الذي علمهم السحر؛ قال ذلك لأنه خاف من أهل مصر أن يؤمنوا بموسى عندما رأوا ذلك المشهد، فغالطهم ولبس عليهم بإعلانه للتهمة للسحرة بأنهم متآمرون هم وموسى وأنه هو الذي علمهم السحر.

﴿فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى۝٧١﴾ «في» هنا بمعنى «على» أي: على جذوع النخل، ثم إن فرعون هددهم وتوعدهم، وأراد بقوله: ﴿مِنْ خِلَافٍ﴾ هو أن يقطع اليد اليمنى والرجل اليسرى، فتوعدهم بأن سيصلبهم أحياءً بعد أن يقطع أيديهم وأرجلهم ليكونوا عبرة للمعتبرين، وليرهب الحشد المحتشد في ذلك اليوم ليخافوا من أتباع موسى وليحذروا الإيمان به.

﴿قَالُوا لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا﴾ فرد السحرة على فرعون غير خائفين من تهديده ووعيده لهم، وأخبروه بأنهم لن يؤثروا طاعته على طاعة الله تعالى والإيمان به، وخاصة بعد ما رأوا ما رأوا من الآيات والبينات الدالة على صدق موسى ونبوته.

﴿فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا۝٧٢﴾ كان الإيمان قد استحكم في قلوبهم، وأيقنوا أنهم سيلاقون الله تعالى؛ فلم يبالوا بما هددهم وتوعدهم به، وأخبروه بأنه لا يستطيع أن يسيطر عليهم مهما فعل، وأنه إن تمكن منهم في الدنيا فسيردون إلى الله سبحانه وتعالى فيثيبهم وينتصف لهم منه ومن ظلمه لهم.

﴿إِنَّا ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى۝٧٣﴾ أجابوا فرعون بهذا الجواب على الرغم من معرفتهم أن عاقبة

أمرهم القتل والصلب من فرعون، ولكنهم آثروا الله تعالىٰ وطاعته علىٰ طاعة فرعون؛ لأنهم قد تيقنوا أن ما عند الله سبحانه وتعالىٰ هو خير لهم وأبقىٰ مما سيعطيهم فرعون من متاع الدنيا الفانية.

والسبب من استحكام الإيمان واليقين في قلوبهم هو ما كان من أمر عصا موسىٰ من انقلابها حية حقيقية التهمت ما جاءوا به من السحر، فعرفوا أنها ليست بسحر وأنها آية عظيمة من آيات الله التي لا تستطيعها السحرة، وما سمعوا من كلام موسىٰ عليه السلام ووعظه لهم.

﴿إِنَّهُ مَنْ يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَا ﴿٧٤﴾ وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَا ﴿٧٥﴾ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ مَنْ تَزَكَّى ﴿٧٦﴾﴾ يحتمل أن هذا من كلام السحرة في جوابهم علىٰ فرعون، ويحتمل أنه من كلام الله سبحانه وتعالىٰ، وهو أن من لقي الله تعالىٰ مصراً علىٰ المعاصي غير تائب منها فإن مصيره إلىٰ جهنم خالداً فيها مخلداً، وأما من لقي الله تعالىٰ وهو مصدق به وبما جاء به، وعمل مع ذلك الأعمال الصالحة فإن جزاءه المنازل الرفيعة والدرجات العليا من الجنة خالداً فيها أبداً، وأنها جزاء من طهر نفسه من الذنوب والآثام والمعاصي والشرك.

﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لَا تَخَافُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَى ﴿٧٧﴾﴾ بعد أن مكث موسىٰ عليه السلام في مصر يدعوا آل فرعون وينذرهم نحواً من أربعين سنة أوحىٰ الله سبحانه وتعالىٰ إليه أن يجمع بني إسرائيل ويخرج بهم ليلاً بعيداً عن أعين فرعون وجواسيسه - وكان فرعون قد استعبد بني إسرائيل، ولا يريد أن يخرجوا من بلاده- ثم يسافر بهم موسىٰ عليه السلام إلىٰ الشام، وكان الله سبحانه وتعالىٰ قد حدد لهم طريقاً يسيرون فيها، فأمرهم أن يسيروا فلا يتوقفوا إلا عند البحر، ثم أمره أن يضرب بعصاه البحر ليشق لهم طريقاً من بين وسطه يسيرون فيها حتىٰ لا يدركهم فرعون وجنوده.

﴿فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ فَغَشِيَهُمْ مِنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ۝٧٨ وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَى۝٧٩﴾ وكان فرعون قد علم بأمر هروبهم فجمع جيشه ولحق بهم يريد أن يفتك بهم ويقتلهم، وعندما رآهم يسيرون في البحر لحق بهم فلما خرج موسى ببني إسرائيل من البحر انطبق على فرعون وجنوده فغرقوا عن آخرهم جزاءً على كفرهم بالله تعالى واتباعهم لفرعون وضلاله.

﴿يَابَنِي إِسْرَائِيلَ قَدْ أَنْجَيْنَاكُمْ مِنْ عَدُوِّكُمْ﴾ يخاطب الله سبحانه وتعالى اليهود الذين كانوا في زمان النبي صلى الله عليه وآله وسلم كبني قريظة والنضير وقينقاع ويهود خيبر، وكل من كان في المدينة من اليهود، ويذكرهم بأنه قد أنعم عليهم إذ نجى آباءهم من فرعون وبطشه وظلمه، وذلك لأن نعمته على آبائهم نعمة عليهم.

﴿وَوَاعَدْنَاكُمْ جَانِبَ الطُّورِ الْأَيْمَنَ﴾ وذكرهم أيضاً بنعمته عليهم إذ اختص آباءهم بأن يسمعوا كلام الله سبحانه وتعالى وكتابة التوراة.

﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى۝٨٠﴾ وكذلك نعمته عليهم عندما كانوا في التيه أربعين سنة فكان ينزل عليهم المن والسلوى من السماء، والمن اسم طير كان الله تعالى ينزله عليهم من السماء مع الشراب الذي هو السلوى وهو يشبه العسل.

﴿كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ واشكروا نعمة الله سبحانه وتعالى عليكم، ولا تكذبوا نبيه محمدا صلى الله عليه وآله وسلم، وكانوا قد قابلوا النبي صلى الله عليه وآله وسلم بالتكذيب والاستهزاء، وكانوا يرمونه بالسحر ويحذرون الناس منه بأنه كذاب وليس ذلك النبي الذي وعد الله سبحانه وتعالى به في التوراة.

﴿وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي وَمَنْ يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَى۝٨١﴾ وحذرهم الله تعالى من الخروج من حدوده وتعاليمه، وأن تكون النعم التي أنعم بها عليهم سبباً في طغيانهم وضلالهم، وأخبرهم أنه سينزل عليهم غضبه وعذابه إن لم يشكروا نعمه عليهم.

﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى۝٨٢﴾ يرغب الله تعالى

بني إسرائيل في التوبة والرجوع إليه، وأنه سيقبلهم مهما كانت الذنوب التي عملوها، ما داموا قد رجعوا إليه.

والغفار هو كثير الغفران أو هو مبالغة في غفران الذنوب الكثيرة مهما كانت لمن تاب وآمن بالله تعالى وبما جاء به وعمل الأعمال الصالحة وسار في طريق الحق والهدى.

﴿وَمَا أَعْجَلَكَ عَنْ قَوْمِكَ يَامُوسَى۝٨٣﴾ كان موسى عليه السلام قد سبق السبعين الذين اختارهم من قومه ليذهبوا معه إلى الطور لكتابة التوراة، وكان قد وصل قبلهم فعاتبه الله سبحانه وتعالى على ذلك، وأنه كان من المفترض به أن يصلوا سواء، فاعتذر موسى عليه السلام إلى الله سبحانه وتعالى وقال: ﴿قَالَ هُمْ أُولَاءِ عَلَى أَثَرِي وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى۝٨٤﴾ وأن ذلك لم يكن منه إلا أن الشوق دفعه للقاء الله تعالى، ولينال رضوانه.

﴿قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ۝٨٥﴾ فأخبره الله تعالى بأن قومه الذين تركهم مع هارون قد افتتنوا بالعجل وقد فتنهم السامري إذ صنع لهم عجلاً وأمرهم أن يعبدوه، وقال إنه إلههم الذي ذهب موسى ليبحث عنه.

ومعنى ﴿فَتَنَّا قَوْمَكَ﴾: اختبرنا إيمانهم بالعجل، وكان السامري رجلاً ذا عقل ودهاء وحنكة.

﴿فَرَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا﴾ وبعد أربعين يوماً من مدة غيابه عن قومه، وبعد أن انتهى من كتابة التوراة عند الطور- رجع إلى قومه وقد امتلأ غضباً وغيضاً وأسفاً عليهم من فعلتهم تلك التي فعلوها، وعبادتهم للعجل.

﴿قَالَ يَاقَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ﴾ يعاتب قومه لعبادتهم للعجل وتركهم لعبادة الله سبحانه وتعالى، ويستنكر عليهم لماذا تركوا عبادة الله وقد وعدهم بأنه سيعزهم وسيرفع قدرهم في الدنيا،

وأنه سيجعلهم خلفاء الأرض المسيطرين عليها بعد خلاصهم من فرعون وبطشه، وأنه سيوسع عليهم في الرزق والنعم؟ وسألهم مستنكراً: هل طال عليكم الزمان حتى نسيتم وعد الله لكم؟ أو هل شككتم في الله تعالى أنه سيكذب عليكم؟ فهذه أرجلكم خضراء لم تجف بعد من ماء البحر الذي فلقه الله سبحانه وتعالى لكم ومشاهدتكم لآيته العظيمة.

﴿أَمْ أَرَدْتُمْ أَنْ يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ أم أنكم بفعلكم هذا تبحثون عما يغضب ربكم ويوجب عليكم سخطه؟

﴿فَأَخْلَفْتُمْ مَوْعِدِي۝٨٦﴾ وكان قد أخذ عليهم العهود والمواثيق بأن يطيعوا هارون في مدة غيبته، وأن يقيموا حدود الله سبحانه وتعالى وما أمرهم به.

﴿قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا وَلَكِنَّا حُمِّلْنَا أَوْزَارًا مِنْ زِينَةِ الْقَوْمِ﴾ فأجابوا عليه بأن عبادتهم للعجل لم يكن بإرادتهم واختيارهم، وإنما السامري أغواهم وأعمى أبصارهم وأضلهم؛ واعتذروا له بأنه هو السبب في ذلك.

﴿فَقَذَفْنَاهَا فَكَذَلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ۝٨٧﴾ وأنهم كانوا قد عادوا من مصر بحلي معهم كانوا يلبسونها فأخذ السامري هذه الحلي وألقاها في النار ليصيغها لنا على شكل عجل، وبحسب صنعته جعل لهذا العجل صوتاً وخواراً، وأخبرنا بأن هذا العجل هو إلهنا الذي ذهب موسى ليبحث عنه عند الطور فصدقناه.

﴿فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُوَارٌ فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى فَنَسِيَ۝٨٨﴾ وأخبرنا أنك يا موسى نسيت أن ربك هاهنا حتى ذهبت تبحث عنه في ذلك المكان.

﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا۝٨٩﴾ استنكر عليهم لماذا لم يفكروا بعقولهم وينظروا في هذا الذي يعبدونه كيف لا يستطيع أن يرد عليهم أو يجيبهم إن تكلموا معه، أو ينفعهم إن طلبوا منه، فهل يستحق من كان كذلك أن يكون إلهاً يعبد؟

﴿وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِنْ قَبْلُ يَاقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ﴾ أخبر الله سبحانه وتعالىٰ أن هارون كان قد وعظهم قبل أن يرجع موسىٰ، وكان يحذرهم من اتباع السامري ويخبرهم أنه إنما يريد أن يضلهم ويغويهم.

﴿وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي۝٩٠﴾ هذا من كلام هارون عليه السلام ووعظه لهم أن الذي أنعم عليهم بالخلق والعقل والرزق هو ربهم الذي يستحق العبادة وليس هذا العجل.

﴿قَالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَى۝٩١﴾ولكنهم عصوا هارون وتمردوا عليه، وأخبروه أنهم لن يتركوا عبادة العجل هذا حتىٰ يرجع موسىٰ، ثم يكون لنا معه كلام، وذلك أن موسىٰ كان مهاباً عندهم، وكان صاحب شخصية قوية بين قومه، وكانوا يخافونه.

وفعلا فما إن رجع موسىٰ حتىٰ نسف هذا العجل وأحرقه ولم يستطيعوا أن ينبسوا ببنت شفة أو يتكلموا بكلمة أمامه، وانزجروا لزجره وتركوا عبادة العجل خوفاً منه ومن غضبه عليهم، وكم وعظهم هارون وحذرهم ولكن دون جدوىٰ، حتىٰ لقد هددوه بالقتل.

﴿قَالَ يَاهَارُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا۝٩٢ أَلَّا تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي۝٩٣﴾ ثم رجع موسىٰ بالكلام علىٰ أخيه هارون معاتباً له لماذا لم يتركهم ويلحق به عندما رأىٰ منهم ما رأىٰ من الكفر.

﴿قَالَ يَاابْنَ أُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي۝٩٤﴾ كأن موسىٰ من شدة غضبه كان قد أخذ برأس أخيه ولحيته وهو يعنف به، وكان هارون خلال ذلك يتودد إليه ويبرر موقفه بأنه لم يترك اللحاق به إلا خشية أن يتهمه بأن تركه لهم كان السبب في ضلالهم، وأنه لم يبال به ولا بوصيته له من البقاء بينهم وإصلاح أمرهم.

﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَاسَامِرِيُّ﴿٩٥﴾﴾ ثم تحول بخطابه إلى السامري يسأله عن قصته وخبره وما كان منه حتى أنه فعل فعلته هذه المنكرة.

﴿قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ﴾ فأجابه بأنه توصل بذكائه وبصيرته إلى صناعة محكمة لم يعلمها بنو إسرائيل فأردت أن أظهرها لهم.

﴿فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي﴿٩٦﴾﴾ وهي أنه قبض قبضة من تلك الحلي فرمى بها بين النار ليصيغ لهم هذا العجل الذي يصدر خواراً وصوتاً، وأخبر موسى بأن نفسه هي التي زينت له هذا العمل وحسنته له، وأن إبليس أغواه وأضله.

والرواية التي تقول إنه قبض قبضة من أثر حافر جبريل فألقاها في ذلك العجل فبدأ بالخوار فلا صحة لها في ظني، فليس لجبريل عليه السلام فرس، فملائكة الله تطير بأجنحة مثنى وثلاث ورباع.

﴿قَالَ فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَنْ تَقُولَ لَا مِسَاسَ﴾ فعندها طرده موسى عليه السلام وأخبره بأن الله سبحانه وتعالى قد عاقبه بأن لا يستطيع أن يجلس مع أحد، والنفرة من كل من قرب منه، وعدم استطاعته أن يمس أحداً من البشر ليكون منبوذاً وبعيداً عن الناس بقية حياته.

﴿وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَنْ تُخْلَفَهُ﴾ وأخبره بأن له موعداً مع الله تعالى ليجازيه على عمله هذا.

﴿وَانْظُرْ إِلَى إِلَهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنْسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا﴿٩٧﴾﴾ إلهك هذا الذي أنت عاكف على عبادته سوف نحرقه أمام عينيك، ثم ننسف رماده ونذروها في البحر ليعلم أولئك الذين أضللتهم وغررت بهم كذبك وافترائك.

وسبب اتباعهم له هو أنه بعمله هذا ذكرهم بذلك الإلف المألوف والعهد المعهود الذي كانوا عليه في مصر من عبادة البقر وما أشبهها فحنت قلوبهم إلى

ذلك ورجعوا إليه.

﴿إِنَّمَا إِلَٰهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴿٩٨﴾﴾ وأخبرهم أنه لا إله لهم إلا الله وحده الذي أحاط علمه بكل شيء.

﴿كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِنْ لَدُنَّا ذِكْرًا ﴿٩٩﴾ مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وِزْرًا ﴿١٠٠﴾﴾ يخاطب الله سبحانه وتعالى نبيه محمداً ﷺ مخبراً له بأن هذه التي قصها عليه من أخبار الأمم السابقة لما فيها من العظمة والعبرة وإيقاظ الفكرة.

والذكر هو القرآن، وأن من أعرض عنه وجعله وراء ظهره فإنه سيحمل وزره على ظهره يوم القيامة.

﴿خَالِدِينَ فِيهِ وَسَاءَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حِمْلًا ﴿١٠١﴾﴾ وأنهم سيخلدون في جزاء ذنوبهم وهو النار، مجاز من تسمية السبب باسم المسبب.

﴿يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا ﴿١٠٢﴾﴾ ثم أخبر عن يوم القيامة الذي سينالون فيه جزاء ذنوبهم بأنه يوم ينفخ في الصور فيبعث الله سبحانه وتعالى جميع الناس إليه، وأن المجرمين سيكونون فيه سود الوجوه في ذلك اليوم، وأراد بقوله: ﴿زُرْقًا﴾ هو السواد المائل إلى الزرقة.

﴿يَتَخَافَتُونَ بَيْنَهُمْ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا ﴿١٠٣﴾﴾ وأن المجرمين يتخافتون فيما بينهم في يوم القيامة عن مدة لبثهم في الدنيا وقصرها، وأخبر الله تعالى أن المكثر منهم يقول: إن مدة لبثهم عشرة أيام.

﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا ﴿١٠٤﴾﴾ أخبر الله سبحانه وتعالى أنه وحده العالم بماذا يتخافتون به فيما بينهم، وأن أمثلهم وأحسنهم يقول: لم نلبث على ظهر الدنيا إلا يوماً واحداً، متقاصرين لأعمارهم في الدنيا.

﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا ﴿١٠٥﴾ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٠٦﴾ لَا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا ﴿١٠٧﴾﴾ ثم أوحى الله سبحانه وتعالى إلى نبيه ﷺ بأن هناك من سيسألك يا محمد عن الجبال، وما سيكون من حالها يوم القيامة، وأخبره بأن يجيب عليهم بأن الله سبحانه وتعالى سيفتتها في وقت واحد وسيحولها إلى غبار متطاير، وأن الأرض ستصبح مستوية وسيسوى عاليها بواطيها فتصير صعيداً واحداً؛ وذلك لأنهم تعجبوا من حال الجبال كيف ستكون يوم القيامة وهي على هذه الحال من القوة والصلابة والعظم، وكأنهم استبعدوا أن يفنيها الله سبحانه وتعالى.

﴿يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُ وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا ﴿١٠٨﴾﴾ عندما تصير الأرض قاعاً مستوية وصعيداً واحداً فإن الناس سيبعثون جميعاً مستجيبين لداعي الله سبحانه وتعالى وندائه لهم إلى المحشر والحساب والجزاء، وأنه لن يتخلف أحد منهم، وأن السكون والصمت سيخيم عليهم من شدة ذهولهم ودهشتهم، فلا يسمع إلا وقع أقدامهم نحو النداء الذي يناديهم، وأن المجرمين يومئذ سيعلمون صدق ما كان يخبرهم به أنبياؤهم.

﴿يَوْمَئِذٍ لَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا ﴿١٠٩﴾﴾ ولم يبق لهم إلا ما قد عملوه في الدنيا فلا شفيع ولا صديق يستطيع أن ينفعهم بشيء إلا من أذن الله سبحانه وتعالى بشفاعته كالنبي ﷺ، ولن تكون شفاعته إلا للمؤمنين وأما غيرهم فلا حظ لهم ولا نصيب في شفاعة النبي ﷺ، وإنما سيكون شاهداً عليهم بتكذيبهم وتمردهم.

﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا ﴿١١٠﴾﴾ أخبر الله سبحانه وتعالى أنه عالم بهم، ومطلع على خفاياهم وأسرارهم، لا يخفى عليه شيء منهم، وسيجازيهم على أعمالهم صغيرها وكبيرها، ولا يحيطون بشيء من علمه.

﴿وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ﴾ وذلك يوم القيامة. ستخضع جميع الخلائق

لله تعالىٰ الذي هو قائم علىٰ حسابهم وجزائهم.

﴿وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا﴿١١١﴾﴾ وقد خسر من لقي الله تعالىٰ وهو محمل بالذنوب والأوزار.

﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا﴿١١٢﴾﴾ وأما الذين يعملون الأعمال الصالحة مع تصديقهم بالله سبحانه وتعالىٰ وإيمانهم به -لأن الإيمان والتصديق بلا عمل كلا شيء وكذلك العكس- فسيوفيهم الله تعالىٰ أجورهم ولن يهضمهم أو ينقص من أجورهم شيئاً.

﴿وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا﴿١١٣﴾﴾ أوحىٰ الله سبحانه وتعالىٰ إلىٰ نبيه ﷺ بأنه نزل عليه القرآن بلغة قومه ولسانهم، وأنه قد نوع لهم الآيات وصرفها لهم لعلهم ينتفعون بها فيخافون الله سبحانه وتعالىٰ ويحذرون غضبه وعقابه ويتذكرون لقاءه.

﴿فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ﴾ أخبر الله سبحانه وتعالىٰ أنه تعالىٰ عن الشريك والمثيل، فليس له شركاء كما يدعي المشركون بأن آلهتهم التي يعبدونها شركاء لله تعالىٰ الله عن ذلك علواً كبيراً.

﴿وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْءَانِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴿١١٤﴾﴾ كان جبريل عليه السلام يتلوا القرآن علىٰ النبي ﷺ فكان النبي ﷺ خلال ذلك يردد ما تلاه عليه قبل أن يكمل جبريل من تلاوته، وليس ذلك من النبي ﷺ إلا حرصاً علىٰ حفظه، فنهاه الله سبحانه وتعالىٰ عن ذلك وأمره أن يتأنىٰ وينتظر إلىٰ أن يكمل جبريل قراءته عليه، وأمره بأن يدعو الله تعالىٰ أن يزيده من العلم، وأن الوحي من العلم الذي سيزيده الله منه.

﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى ءَادَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ﴾ أخبر الله سبحانه وتعالىٰ نبيه ﷺ بأنه عهد إلىٰ آدم وأخذ عليه أن لا يطيع إبليس أو يتبعه، وحذره من ذلك وأنه سيغويه ويدعوه إلىٰ الأكل من تلك الشجرة، ولكنه نسي ما عهده الله إليه.

﴿وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا ﴿١١٥﴾﴾ لم نجد له عزماً على فعل المعصية وإنما أكل من الشجرة ليتقرب إلى الله سبحانه وتعالى بذلك بسبب اغتراره بوسوسة الشيطان له ولزوجته التي حكاها الله تعالى بقوله: ﴿مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ ﴿٢٠﴾﴾ [الأعراف:٢٠].

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى ﴿١١٦﴾﴾ أوحى الله سبحانه وتعالى إلى نبيه صلى الله عليه وآله وسلم أن يذكر قصة آدم وأَمْرَ الملائكةِ بالسجود له فامتثلوا طائعين إلا إبليس فإنه أبى واستكبر.

﴿فَقُلْنَا يَاآدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى ﴿١١٧﴾﴾ يحذر الله سبحانه وتعالى آدم من إبليس وكيده، وأخبره أنه إن أطاعه فإنه سيخرجه من الجنة والنعيم ورغد العيش إلى العناء والتعب والمشقة في تحصيل أمور المعيشة، وكانت جنة آدم هذه في الهند فكان يأكل منها من دون أي تعب أو مشقة.

﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَضْحَى ﴿١١٩﴾﴾ وأخبره بأنه في جنته هذه التي خلقه الله تعالى فيها سيجد كل ما يحتاجه من متطلبات الحياة من المأكل والمشرب والملبس، ولن يصيبه حر الشمس أو يؤلمه، وأنه إذا خرج منها فلن يحصل على ذلك إلا بتعب ومشقة.

﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَاآدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَا يَبْلَى ﴿١٢٠﴾﴾ ثم إن إبليس حسد آدم على ما هو فيه من الكرامة فبدأ يدبر الحيل والمكايد فوسوس إليه بأنه سيدله على الشجرة التي إن أكل منها فإنه لن يموت أبداً، فدخل ذلك في نفسه وفكر في الأكل منها ليستغل بقاءه في طاعة الله سبحانه وتعالى وعبادته والتقرب إليه.

﴿فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا﴾ فما إن أكل منها حتى تذكر ما كان قد أوصاه الله تعالى به، وانتبه من غفلته وظهر له خطؤه، وعرف أن ذلك من كيد

إبليس ووساوسه، وبدأ له سوء صنيعه، فعرف أن الله سبحانه وتعالى سيخرجه منها، وهذا هو معنى ذلك كما ذهب إليه الإمام الهادي عليه السلام، وقال: إنه قبيح على الله تعالى أن يكون قد سلبهما ما يستر عورتهما كما يفسره بعضهم.

﴿وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَى ءَادَمُ رَبَّهُ فَغَوَى﴿١٢١﴾﴾ فأخذا يبحثان لهما عما يحميهما من حر الشمس ولهبها؛ لأنه قد عرف أنه قد عصا الله تعالى وأنه سيخرجه من الجنة جزاءً على ذلك.

﴿ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى﴿١٢٢﴾﴾ ثم إن آدم عليه السلام تاب إلى الله سبحانه وتعالى وندم على معصيته تلك فقبل الله توبته واختاره للنبوة.

﴿قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ وأمرهم الله سبحانه وتعالى عندها أن يخرجوا من الجنة مع إبليس، وحذرهما وذريتهما من عداوة الشيطان ومكائده.

﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى﴿١٢٣﴾﴾ وأخبرهم بأنه إذا أرسل إليهم رسولاً فمن اتبعه فسينال رضا الله سبحانه وتعالى وثوابه.

﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى﴿١٢٤﴾﴾ وأن من امتنع عن قبول دعوته فإنه سيعيش حياته في الدنيا في نكد وشقاء وقلق واضطراب، ويوم القيامة سيكون أعمى عن رؤية ثواب الله تعالى ونعيمه.

﴿قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ ءَايَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى﴿١٢٦﴾﴾ يقول المعرض عن ذكر الله يوم القيامة: لم حشرتني أعمى يا ربي وقد كنت بصيراً في الدنيا؟ فيقول الله تعالى: السبب في حشرك أعمى هو إعراضك عن ذكر الله وتركك لآيات الله، وتكذيبك بها.

﴿وَكَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِآيَاتِ رَبِّهِ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى﴿١٢٧﴾﴾ وأخبر أن هذا هو جزاء جميع المسرفين والمكذبين وهو المعيشة الضنك في الحياة الدنيا والعذاب الشديد في الآخرة.

﴿أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِأُولِي النُّهَى﴿١٢٨﴾﴾ ألم يكن لقريش عظة وعبرة بما جرى على الأمم السابقة الذين أهلكهم الله سبحانه وتعالى واستأصلهم بسبب تكذيبهم وتمردهم على أنبيائهم؟ فلماذا لم تعتبروا بهم يا قريش وقد عرفتم قصصهم ومررتم على ديارهم ومساكنهم وكيف أصبحت؟ وقد عرفتم ما هو السبب في هلاكهم؟

وأخبرهم أن في قصصهم عبراً وعظات لأهل العقول ليحذروا أن يقعوا فيما وقع فيه أولئك.

﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُسَمًّى﴿١٢٩﴾﴾ ثم أخبر الله سبحانه وتعالى بأنه لولا أنه قد حتم وقضى بتأخير عذابهم إلى يوم القيامة لكان قد أنزل بهم عذابه وقت تكذيبهم، ولكنه سبق في علمه واقتضت حكمته ورحمته أن يؤخر تعذيبهم إلى يوم القيامة.

﴿فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ﴾ اصبر يا محمد على تكذيبهم إلى أن يحين وقت تعذيبهم.

﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ ءَانَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَى﴿١٣٠﴾﴾ وأمره مع الصبر بأن يحافظ على إقامة الصلاة في أوقاتها، فالفجر وقته قبل طلوع الشمس، والظهر والعصر قبل غروبها، والمغرب والعشاء في أوقات الليل، وقوله: ﴿وَأَطْرَافَ النَّهَارِ﴾ تكرير لصلاة الفجر والعصر تأكيداً على زيادة فضيلتهما، وأخبره أن إقامة الصلاة ستعينه على الصبر وسينشرح بها صدره؛ وكان ﷺ قد ضاق من تكذيبهم وتمردهم وأذيتهم له وتمنى على الله تعالى أن يعجل بانتقامه منهم، وقد روي أن النبي ﷺ كان إذا حزبه أمر لجأ إلى الصلاة، مما يدل على أنه يحصل بها طمأنينة وانشراح في القلب وجلاء الحزن والضيق.

﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴿١٣١﴾﴾ نهى الله سبحانه وتعالى نبيه ﷺ

أن ينظر إلى ما في أيدي المشركين من متاع الدنيا الفانية والثراء الذي هم فيه والأموال والأولاد والرئاسة والسلطة، وأخبره أنه لم يعطهم ذلك إلا ليفتنهم ويختبرهم، وأنها ليست إلا سبباً في عذابهم؛ لأنهم سيتكبرون بها ويتمادون في معصية الله سبحانه وتعالى وستسوقهم إلى جهنم، وأخبره أن الرزق الذي يعطيه أفضل له مما في أيديهم وأن ثوابه أبقى.

﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾ بعد أن أمر الله سبحانه وتعالى نبيه ﷺ بإقامة الصلاة والصبر وعدم النظر إلى ما في أيدي المشركين، أمره أيضاً بأن يأمر أهله بإقامتها والمداومة عليها.

﴿لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى﴿١٣٢﴾﴾ ولا نريد منك شيئاً من الرزق، ونحن سنرزقك يا محمد فاصبر على أذى المشركين وعلى مواصلة الدعوة وعلى الصلاة، فلا تشغل نفسك في طلب الرزق فقد تكفلنا به يا محمد، وأخبره أن العاقبة الحسنة لأهل التقوى، وأنه في آخر الأمر سيؤيدهم وسينصرهم على عدوهم وسيظهر دينهم.

﴿وَقَالُوا لَوْلَا يَأْتِينَا بِآيَةٍ مِنْ رَبِّهِ﴾ القائلون هم المشركون يسألون النبي ﷺ أن يأتيهم بآية من عند الله تكون شاهدة له ليؤمنوا به ويصدقوه؛ تكذيباً منهم لما جاءهم به من الآيات الدالة على نبوته وصدقه في دعوى الرسالة.

﴿أَوَلَمْ تَأْتِهِمْ بَيِّنَةُ مَا فِي الصُّحُفِ الْأُولَى﴿١٣٣﴾﴾ فأجابهم الله سبحانه وتعالى بأنه قد بلغتهم الحجة في التوراة والإنجيل، وقد أخبرتهم علماء اليهود والنصارى بأوصافه وأن هذا هو النبي الموعود وزمانه.

﴿وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِنْ قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَاتِكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَذِلَّ وَنَخْزَى﴿١٣٤﴾﴾ أخبر الله تعالى أنه لو أهلك المشركين قبل أن يرسل إليهم رسولا لكان ذلك عذراً لهم وحجة يحتجون بها يوم القيامة فيقولون لو أرسلت إلينا رسولاً قبل ذلك لاتبعناه ولآمنا به وصدقناه.

﴿قُلْ كُلٌّ مُتَرَبِّصٌ فَتَرَبَّصُوا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَابُ الصِّرَاطِ السَّوِيِّ وَمَنِ اهْتَدَى﴿١٣٥﴾﴾ بعد مدة من دعاء النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ للمشركين إلى الإسلام كان المشركون يتهامسون فيما بينهم ويصبر بعضهم بعضاً بأن ينتظروا فلن تطول مدة دعائه لنا، وليست إلا أياماً وسيهلك وتنتهي دعوته ودينه، وأنها ليست إلا رياحاً عابرة وستخمد وتزول، فأوحى الله سبحانه وتعالى إلى نبيه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ أن يخبرهم بأنه منتظر لهلاكهم كما أنهم منتظرون لهلاكه، وأنهم سوف يعلمون عند نزول عذاب الله وسخطه بهم من الذي كان على الهدى ومن الذي كان في الضلال؛ وكانوا يظنون أنهم على الحق والهدى وأن غيرهم في ضلال مبين.



سورة الأنبياء

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ﴿١﴾﴾ أول حساب الإنسان وبدايته من ساعة موته بل قبل أن تخرج نفسه وهو على فراش الموت إذ تحضر الملائكة إما أن تبشره بثواب الله سبحانه وتعالى، وإما أن تريه مكانه في النار وتبشره بالخزي والذل والعذاب، والأهوال والأفزاع والخلود في النار، وبالنسبة للمؤمن فإن يوم موته أسعد يوم يمر عليه في حياته؛ فأخبر الله تعالى في هذه الآية أن الإنسان قادم على هذه الأهوال العظيمة التي ينبغي لكل عاقل أن يحذرها ويخافها، وأن يعد لها العدة والزاد، ولكنه على العكس من ذلك فهو في غفلة عظيمة وإعراض مستمر.

وقد استنكر الله سبحانه وتعالى هنا على المشركين عندما كان النبي صلى الله عليه وآله وسلم يحذرهم عذاب الله وسخطه والأهوال التي هم قادمون عليها والتي قد اقترب موعدهم فيها ولكنهم في غفلة عن ذلك كله منغمسون في أهوائهم وشهواتهم.

﴿مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحْدَثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴿٢﴾﴾ وأنهم كل ما أنزل الله سبحانه وتعالى عليهم آية وقرأها عليهم النبي صلى الله عليه وآله وسلم استهزؤوا بها، واستخفوا بقارئها.

﴿لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ﴾ فهم في لهو ولعب وغفلة عن تذكير الله تعالى لهم، وعن كل ما يحذرهم به النبي صلى الله عليه وآله وسلم.

﴿وَأَسَرُّوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ﴾ وكان كلما أنزل الله سبحانه وتعالى لهم آية قاموا يتغامزون فيما بينهم ويهمس بعضهم لبعض أن محمداً ليس إلا كذاباً أو ساحراً، وليس إلا بشراً مثلكم فكيف يكون نبياً؛ وكانوا يزعمون أنه لا يصح أن يكون نبي من البشر ولا بد أن يكون من غير جنسهم.

﴿أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ۝٣﴾ ينصح بعضهم بعضا، ويكلم بعضهم الآخر: كيف تصدقونه وتصدقون سحره هذا، وأنتم من أهل البصائر والعقول الراجحة.

﴿قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ۝٤﴾ أمر الله سبحانه وتعالى نبيه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ بأن يخبرهم أن الله عالم بما في سرائرهم وبما يتناجون به فيما بينهم من عدم تصديق النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ ورميهم له بالسحر، وصدهم للناس عن النبي وعن الإيمان به، وأخبرهم أنه سيجازيهم على كل ذلك فهو يسمع كل قول ويعلم كل فعل ولا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء.

﴿بَلْ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ﴾ وأخبر أن بعضهم يقول: إن ما يأتينا به محمد ويدعيه علينا من النبوة ليس إلا خليطاً من الأحلام يقصها عليكم، وأن الحساب والقيامة والجنة والنار ليس إلا أحلاماً يقصها، أما النبوة فهو بعيد عنها كل البعد.

﴿بَلِ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ۝٥﴾ وبعضهم يقول: إنما ادعاها وافتراها من تلقاء نفسه؛ فهم يتخذون كل الوسائل في إبطال دعوته والصد عنها، ثم ادعوا عليه أنه إن كان نبياً صادقاً فليأتهم بآية مثل تلك الآيات التي جاء بها الأنبياء السابقون قبله كناقة صالح ونحوها، مع أنه قد جاءهم بالآيات لكنهم كذبوا بها، ولم يعتدوا بها تمرداً وعناداً.

﴿مَا ءَامَنَتْ قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ۝٦﴾ ثم رد الله سبحانه وتعالى عليهم وأخبر نبيه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ أن جميع المكذبين بأنبيائهم على سنة وطريقة واحدة من التكذيب وعدم الإيمان بأنبيائهم، وأخبره بأن أمته لن تكون بدعاً منهم، فحالها كحالهم سواء فلا يتوقع منهم الإيمان.

وفي ذلك تسلية منه تعالى لنبيه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ ليخفف عنه من حزنه وأسفه على ما لاقاه من قومه من التكذيب والاستهزاء، وأن حاله كحال من سبقه من الأنبياء؛

لأنه إذا عرف ما قد لاقاه من سبقه هانت عليه مصيبته.

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴿٧﴾﴾ كانت قريش تزعم أنه لا يصح أن يكون نبي من البشر، ولا بد أن يكون ملكاً أو من جنس غير جنسهم، فأوحى الله سبحانه وتعالى إلى نبيه ﷺ أن يخبرهم بأنه لم يرسل إلى الأمم السابقة إلا رجالاً، وأنهم إن لم يصدقوا ذلك فليذهبوا إلى علماء اليهود والنصارى فيسألونهم عن ذلك وسيخبرونهم بالحقيقة.

﴿وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا لَا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ﴿٨﴾﴾ وأن يخبرهم أنهم من جنس البشر يأكلون مثلهم ويشربون مثلهم ويسيرون ويذهبون وينكحون النساء وينامون وفي نهاية الأمر يموتون.

﴿ثُمَّ صَدَقْنَاهُمُ الْوَعْدَ فَأَنْجَيْنَاهُمْ وَمَنْ نَشَاءُ وَأَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ﴿٩﴾﴾ ثم إن الله سبحانه وتعالى كان يعد أنبياءه بالنصر والظفر وأن العاقبة ستكون لهم؛ فيحقق الله وعده لأنبيائه فينجيهم ويهلك أعداءهم، فثق يا محمد بالنصر والظفر على المشركين وأن العاقبة ستكون لك، واصبر إلى أن يأتيك الله سبحانه وتعالى بالنصر، واعلم أن لهم أجلاً قد كتبناه لهم، ولا بد أن يبلغوه.

﴿لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴿١٠﴾﴾ يخاطب الله سبحانه وتعالى المشركين الذين تصدوا لدعوة النبي ﷺ وواجهوه بالتكذيب، وأما بقية العرب فقد كانوا ينظرون إلى قريش وما سيكون منهم ليفعلوا مثل فعلهم، فأخبرهم الله سبحانه وتعالى بأنه قد أنزل إليهم القرآن وأن فيه شرفهم وعزهم ورفعتهم في الدنيا إن هم قبلوه وعملوا بما فيه.

وأخبرهم أن من شأن كل عاقل إذا عرض عليه أحد مثل هذا العرض أن يقبله بدون أي تردد، ولكنهم لحمقهم وجهالتهم رفضوا وتمردوا واستكبروا.

﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنْشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ﴿١١﴾﴾ وكذلك يحذرهم الله سبحانه وتعالى بأسه ونقمته، وأن يحل بهم ما حل بالأمم

السابقة من عذابه وسخطه، وكم من القرى وكم من الأمم أهلكهم بسبب تكذيبهم وتمردهم على أنبيائهم، وأنشأ بعد ذلك قوماً غيرهم يعمرون الأرض ويعيشون عليها.

﴿فَلَمَّا أَحَسُّوا بَأْسَنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَرْكُضُونَ﴿١٢﴾﴾ وكان أهل القرى عندما يرون نزول العذاب بهم يهربون جرياً على أقدامهم ليسلموا من العذاب النازل بهم: ﴿لَا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَى مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَاكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ﴿١٣﴾﴾فابقوا مكانكم فلن ينفعكم الهرب وسيلحق بكم أينما ذهبتم.

﴿قَالُوا يَاوَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴿١٤﴾ فَمَا زَالَتْ تِلْكَ دَعْوَاهُمْ حَتَّى جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا خَامِدِينَ﴿١٥﴾﴾ وحين أدركهم العذاب نادوا بالويل والثبور وندموا على ما كانوا فيه من الكفر والضلال، وهم كذلك في الولولة والتحسر حتى أبادهم الله بعذابه.

وقد قيل إن هؤلاء القوم الذين ركضوا هرباً من العذاب هم أهل حضور وأهل الحيمة من قبائل اليمن وذلك حين بعث الله سبحانه وتعالى إليهم شعيب بن ذو مدين نبياً فكذبوا به وتمردوا عليه؛ ومكانهم معروف فلا تزال القرية تسمى باسم نبيهم هذا (ذو مدين) وقبره في رأس جبل فوق هذه القرية ويسمى جبل النبي شعيب، وهو نبي اسمه شعيب، وليس بالنبي شعيب المذكور في القرآن.

﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ﴿١٦﴾﴾ أخبر الله سبحانه وتعالى المشركين أنه لم يخلق السماء والأرض وما بينهما عبثا وباطلا لا لغرض، وأنه قد خلقهما لغرض وحكمة عظيمة وهي ما يترتب عليها من الدار الآخرة والحساب والجزاء، وإلا لكان عبثاً ولعباً أن يخلق هذا الإنسان ويعمره ستين سنة وهذا يعمره عشر سنوات وهذا عشرين ثم يميتهم وينتهي كل شيء، وأن يجعل هذا قوياً وذاك ضعيفاً ثم يسلط القوي على الضعيف ويخلي بينهما ثم يميتهم جميعاً ولم ينتصف لبعضهم من بعض، وكذلك تسليط الحيوانات بعضهم على بعض وأكل القوي للضعيف، وكذلك ما قد أعطى الله من تمكين بني آدم على

بعض الحيوانات بالذبح والركوب والاستنفاع بها، وعدم رؤيتنا في الدنيا للعوض الذي يفترض أن يعطيهم الله تعالىٰ، فلو لم يكن دارٌ غير هذه الدار لكان الله تعالىٰ ظالماً بما مكن ذلك وسلب الآخر التمكين، فعرفنا أنه لا بد من دار ينال فيها كل امرئ جزاء ما عمل.

﴿لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهْوًا لَاتَّخَذْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا إِنْ كُنَّا فَاعِلِينَ﴿١٧﴾﴾ كذلك يجيب الله سبحانه وتعالىٰ على المشركين الذين ينسبون الولد إليه بأنه لو كان له ولد لاتخذه من عنده لا من البشر، ولكن ذلك لا يليق بجلاله وعظمته وكبريائه أن يحتاج إلىٰ الولد، وأنه ليس من شأن ذي الإلهية والجلال التوالد والتناسل.

﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾ وأخبر أنه قد أنزل القرآن وقذف به في دماغ الباطل فقتله وأزاله، وهذا وعد من الله تعالىٰ بأنه سيزيل الباطل والشرك من نسبة الولد إليه وعبادة الأصنام وغيرها، وأن دينه سيظهر علىٰ جميع الأديان، وأن العاقبة ستكون للحق وأهله.

﴿وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ﴿١٨﴾﴾ يهدد الله سبحانه وتعالىٰ المشركين الذين يقولون إن الملائكة بنات الله سبحانه وتعالىٰ عما يقولون علواً كبيراً، والذين اتخذوا آلهة فعبدوها من دون الله، وأنهم بسبب ذلك سينالهم العذاب الشديد.

﴿وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ وأنه وحده مالك من في السماوات والأرض فلا ولد ولا زوجة ولا شريك بل كلهم عبيد له وتحت قبضته وسيطرته. يجيب الله سبحانه وتعالىٰ بذلك علىٰ من ادعىٰ عليه اتخاذ الولد والشريك.

﴿وَمَنْ عِنْدَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ﴾ والملائكة عبيده عاكفون علىٰ عبادته متواضعون لعظمته.

﴿وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ﴿١٩﴾ يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴿٢٠﴾﴾ لا يفترون أو يتكاسلون عن عبادته، أو يصيبهم التعب والإرهاق، بل عاكفون علىٰ عبادته في كل الأوقات، وهم مع ذلك ينزهونه ويقدسونه عن اتخاذ الولد وعن الشبيه والمثيل ولا يشركون معه أحدا في صفات الربوبية والكمال والعظمة والجلال.

﴿أَمِ اتَّخَذُوا ءَالِهَةً مِنَ الْأَرْضِ هُمْ يُنْشِرُونَ﴿٢١﴾﴾ يستنكر الله سبحانه وتعالى على المشركين عندما صنعوا لهم آلهة من الأحجار وغيرها من الأرض ثم عبدوها من دونه، فهل هذه الآلهة التي اتخذوها تنشر الموتى وتحييها؟ فحتما سيكون جوابهم بالنفي، وليس لهم حجة على ذلك إلا قولهم وجدنا آباءنا كذلك يفعلون.

﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا ءَالِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴿٢٢﴾﴾ وأخبرهم أنه لو كان هناك آلهة غيره لفسد أمر السماوات والأرض ولاختل نظامهما، ولحصل التنازع والاختلاف بين هذه الآلهة، ولكن عندما لم نر شيئا من ذلك، ورأينا النظام والتناسق العجيب والدقيق وتوجههما إلى هدف واحد وصبهما في مصلحة واحدة علمنا أنه لا إله إلا إله واحد وهو الذي خلق السماوات والأرض وما بينهما وجعلهما تحت قدرته وقبضته وسيطرته وتدبيره، وقد تعالى وتقدس عن قولهم وافترائهم عليه.

﴿لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴿٢٣﴾﴾ ولا أحد يستطيع أن يعترض عليه في شيء من أفعاله، أو يعقب عليه فيها لعظمته وجلاله وكبريائه فلن يستطيع أحد أن يناله، وأما هو فله الحق أن يسألهم ويحاسبهم لأنهم عبيد له وفي ملكه يتصرف فيهم كيفما شاء.

﴿أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ ءَالِهَةً﴾ بل قد اتخذ المشركون آلهة غيره وعبدوها من دونه.

﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ﴾ ثم أمر الله سبحانه وتعالى نبيه ﷺ أن يطلب منهم الدليل على صحة دعواهم ربوبيتها، إما حسياً بأن يرينا قدرته وخلقه أو أي صفة من صفات الإلهية، أو نقلياً من كتاب جاءوا به أو نبي أرسلوه، ولكنهم لن يجدوا أي دليل أو برهان على ذلك، ولم يجدوا جواباً إلا قولهم: ﴿إِنَّا وَجَدْنَا ءَابَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى ءَاثَارِهِمْ مُهْتَدُونَ﴿٢٢﴾﴾ [الزخرف]، وأما صفات الإلهية فهم يعترفون أنها لا تسمع ولا تبصر ولا تقدر ولا تعلم ولا تملك من صفات الإله شيئاً.

﴿هَذَا ذِكْرُ مَنْ مَعِيَ وَذِكْرُ مَنْ قَبْلِي بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُمْ مُعْرِضُونَ﴿٢٤﴾﴾ ثم أمر الله سبحانه وتعالىٰ نبيه ﷺ أن يخبر المشركين بأن هذا القرآن هو الذكر الذي جاءهم به، وأنه لم يأت بشيء يخالف الكتب التي أتت قبله كالتوراة والإنجيل، فهو مصدق لها، وأن ذلك مما يدل على أنه من عند الله سبحانه وتعالىٰ لو أنهم نظروا وتفكروا فيه لعلموا ذلك، ولكنهم معرضون عن الحق وعن معرفته وقبوله، وإعراضهم ذلك إنما هو لعنادهم وتمردهم لا لخفاء الحق فهو واضح وضوح الشمس.

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴿٢٥﴾﴾ أخبر الله سبحانه وتعالىٰ أنه يرسل رسله، وأنه لا يرسلهم إلا عندما ينطمس الدين والهدىٰ ويتغير ويتبدل ويحل مكانه الشرك وعبادة غير الله تعالىٰ، فعند ذلك يرسل رسله لتنهاهم عن شركهم وضلالهم وتدعوهم إلىٰ عبادة الله الذي لا إله إلا هو، وأن هذا حال كل نبي يرسله.

﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا﴾ وهؤلاء هم المشركون فقالوا إن الملائكة بنات الله، وكذلك اليهود قالوا عزير ابن الله، وكذلك النصارىٰ قالوا المسيح ابن الله؛ فاستنكر الله سبحانه وتعالىٰ عليهم مقالتهم هذه.

﴿سُبْحَانَهُ﴾ وأنه قد تقدس وتعالىٰ عن اتخاذ الولد؛ لأن التوالد من شأن المخلوقات، فلو صح له الولد لخرج عن كونه خالقاً ولصار من جنس المخلوقين.

﴿بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ﴿٢٦﴾﴾ يجيب الله سبحانه وتعالىٰ على المشركين بأن الملائكة من عباده المنزهين عن معصيته، وقد كرمهم وشرفهم بعبادته وطاعته في جميع ما أمرهم به، وليسوا بناته كما يقولون.

﴿لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ﴿٢٧﴾﴾ فلا يخالفونه في شيء مما أمرهم به، وإنما عملهم الطاعة لأوامر الله سبحانه وتعالىٰ وتنفيذها من دون أي مناقشة أو تعقيب، فقد سخروا أنفسهم وذللوها لطاعة الله تعالىٰ مجردة عن أي شيء غير ذلك، وذلك من شدة تعظيمهم لله سبحانه وتعالىٰ وخضوعهم له غاية الخضوع.

ومن ذلك يؤخذ أنه يجب التأدب غاية الأدب عند رسول الله ﷺ وكذلك العلماء في كل زمان، والانتظار إلى أن يبدأ في الكلام، وأنه ينبغي التعظيم لهم والامتثال لأوامرهم، وعدم إبداء أي رأي أو اقتراح أو فتوى قبل أن يتكلموا، وإذا صدر منهم أمر أو نحوه فينبغي الامتثال من دون أي تعقيب عليهم ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ [الحجرات:١].

﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ ثم أخبر أنه عالم بما بين أيديهم، وهو: ما يعملونه في الوقت الحاضر، وما خلفهم، وهو: ما سيعملونه في مستقبلهم وما عملوه في ماضيهم.

﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى﴾ وأخبر أنهم لا يشفعون لأحد إلا لمن أذن الله سبحانه وتعالى لهم بالشفاعة له وهم أهل الرضوان.

﴿وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ﴿٢٨﴾﴾ فهم خائفون من عظمة الله وجلاله وكبريائه.

﴿وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِنْ دُونِهِ فَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴿٢٩﴾﴾ وهذا على سبيل الفرض والتقدير وإلا فإنه مستبعد منهم ذلك وغير متوقع، وهو أنه لو ادعى أحد منهم الإلهية لعذبه الله سبحانه وتعالى مثل ما يعذب غيره من الظالمين.

يصف الله سبحانه وتعالى في هذه الآيات ملائكته جواباً على المشركين عندما ادعوا أنهم بنات الله تعالى عما يقولون علواً كبيراً.

﴿أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴿٣٠﴾﴾ يستنكر الله سبحانه وتعالى على المشركين لماذا لا يتفكرون في خلق السماوات والأرض، ويخبرهم أنهم لو تفكروا فيهما وفي خلقهما لعرفوا عظمة الله سبحانه وتعالى وجلاله ووحدانيته ولآمنوا به.

وقد فسرت هذه الآية بتفسيرين: أحدهما: ما ذكره أولئك العلماء السابقون: أن السماء كانت رتقاً لا يأتي منها المطر، ثم إن هذا الرتق انفتق بالمطر، وكذلك الأرض كانت رتقاً وحين نزل المطر عليها تشققت بالنبات وأخرجته.

والثاني: هو ما يذكره علماء العصر الحديث: أنه ثبت عند علماء الكون والفلك صحة النظرية التي تقول: إن السماوات والأرض كانت ملتصقة ببعضها البعض، وكانت كتلة واحدة، ثم إنها تفرقت وانقسمت وتبددت إلى هذه النجوم والكواكب التي نراها أمامنا والأرض من جملتها، وهذا التفسير حسن.

وقد حث الله سبحانه وتعالى المشركين أن ينظروا ويتفكروا في هذه الآية فمن الذي أنزل المطر وأخرج به أنواع الشجر والثمر، وأن يتفكروا في الماء الذي هو من أكبر النعم عليهم، والذي به قوام حياتهم كيف لو انقطع عليهم ولو مدة قصيرة كيف سيكون حالهم؟ وكيف سيستطيعون العيش من دونه؟ فمن الذي أوجده لهم وخلقه لأجلهم وللحفاظ على حياتهم، وأنه لولا هو لماتوا ولهلكوا.

﴿وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ﴾ وكذلك حثهم أن ينظروا في الجبال التي خلقها الله سبحانه وتعالى لهم لتحفظ للأرض توازنها من الاختلال والتمايل فيستطيعوا أن يعيشوا ويستقروا على ظهرها.

﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴿٣١﴾﴾ والفجاج هي الطرق التي جعلها الله سبحانه وتعالى بين الجبال ليستطيعوا التنقل من خلالها في أنحاء الأرض، وكذلك جعلها الله سبحانه وتعالى علامات يحددون بها المناطق والجهات التي يريدونها.

فإذا عرفوا أنه سخر لهم الجبال لهذه المنافع التي تصب جميعها في مصلحتهم، وأنه خلقها لأجلهم فعسى أن يكون ذلك داعياً لهم إلى الرجوع إليه، والإقلاع عما هم فيه من الشرك والضلال، ويكون إتماماً للحجة عليهم فلا يكون لهم يوم القيامة أي عذر يعتذرون به.

﴿وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ ءَايَاتِهَا مُعْرِضُونَ﴿٣٢﴾﴾ السماء سقف محفوظ فلا تستطيع الشياطين أن تنفذها لتسترق السمع، وتتجسس على الملائكة، وما يكون عندهم من الأخبار، ولكن المشركين معرضون عن هذه الآيات وعن التفكر والنظر فيها.

﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴿٣٣﴾﴾ وأن كل واحد من الشمس والقمر والأرض له طريق محدودة يسير فيها ومنازل معلومة لا تتغير أو تتبدل على مدى الزمان.

يستنكر الله تعالى على المشركين عندما يذهبون إلى عبادة تلك الأصنام ويتركون الذي خلق كل تلك الأشياء وسخرها لهم.

﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِنْ مِتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ﴿٣٤﴾﴾ ثم أخبر الله تعالى نبيه ﷺ أنه سيموت مثل ما عليه بقية البشر ومثل بقية الأنبياء السابقين، وكذلك المشركون كانوا يقولون بأنهم سينتظرون محمداً إلى أن يموت وسينتهي كل شيء، فأوحى الله سبحانه وتعالى إلى نبيه ﷺ ليخبرهم بأنهم أيضاً سيموتون فلا يظنوا أنهم سيخلدون بعد موتك.

﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴿٣٥﴾﴾ فكل ذي نفس منفوسة سيموت، ولن يبقى إلا الله سبحانه وتعالى، ثم أخبر الله سبحانه وتعالى نبيه ﷺ بأنه في الدنيا يختبر عباده، ويمتحنهم بالشر من الأمراض والكوارث، والجدب والمرض، وبالخير من الرخاء والسعة في الأرزاق والبركة في الثمار والصحة والعافية، وأن ذلك ليتبين الخبيث من الطيب، والمصلح من المفسد، ومن سيصبر ومن سيشكر، ومن سيكفر، ثم يجازي كلاً منهم بعد ذلك ففريق في الجنة وفريق في السعير.

﴿وَإِذَا رَآكَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا﴾ أوحى الله سبحانه وتعالى إلى نبيه ﷺ أن المشركين إذا سمعوه يقرأ عليهم القرآن أو يدعوهم إلى عبادة الله تعالى وحده فإنهم لن يقبلوا منه وسيستهزئون به ويسخرون منه.

﴿أَهَذَا الَّذِي يَذْكُرُ ءَالِهَتَكُمْ﴾ وأنهم إذا رأوه فإنهم سينظرون إليه نظر استحقار واستهانة واستنقاص، ويستصغرونه إلى أدنى المراتب وأرذلها.

﴿وَهُمْ بِذِكْرِ الرَّحْمَنِ هُمْ كَافِرُونَ۝٣٦﴾ ومع ذلك فهم يكفرون بالذي أنعم عليهم بجميع النعم الظاهرة والخفية، وينكرون الحقائق الظاهرة والمكشوفة، فكان من المفترض أن يكونوا هم محل السخرية والاستهزاء لكفرهم بالذي نعمه ظاهرة ومكشوفة، لا يستطيعون أن ينكروها.

﴿خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ سَأُرِيكُمْ ءَايَاتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ۝٣٧﴾ كان المشركون يستعجلون من النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ أن يدعوا الله سبحانه وتعالى ليعجل بنزول عذابه وسخطه الذي يتوعدهم به، فأوحى الله سبحانه وتعالى إلى نبيه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ أن يخبرهم بأن لا يستعجلوا نزوله بهم، وأنهم لا بد أن يروا نزوله بهم، فلماذا العجلة ما دامت هذه عاقبتهم.

وقوله: ﴿مِنْ عَجَلٍ﴾ جعل الإنسان كأنه مخلوق من العجلة مبالغة في استعجاله في أكثر أموره.

﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ۝٣٨﴾ يسخرون من النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ ويرمونه بالكذب، فكانوا يقولون: إن كنت صادقاً يا محمد فأخبرنا بموعد نزول عذاب الله وسخطه بنا!! فأوحى الله سبحانه وتعالى إلى نبيه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ أن يجيبهم بهذا الجواب:

﴿لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَنْ وُجُوهِهِمُ النَّارَ وَلَا عَنْ ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ۝٣٩﴾ أجابهم بهذا الجواب لأنه لم يكن يريد أن يطلع أحداً من خلقه على موعد الساعة والقيامة، وليعلموا أن ذلك من الأشياء التي اختص بعلمها وحده.

وأخبرهم بأنهم سيعلمون ذلك عندما يرون حلوله بهم، وأنهم لو كانوا يعلمون ما هو الذي ينتظرهم من الأهوال والشدائد التي لا يستطيع أن يتحملها أو يتصور فضاعتها أحد منهم لما سألوا النبي ذلك السؤال، ولما استعجلوا العذاب ذلك الاستعجال.

﴿بَلْ تَأْتِيهِمْ بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ﴾ ثم أمر نبيه ﷺ أن يخبرهم أنه لا يعلم موعدها ولكنها ستأتيهم بغتة وفجأة على غير انتظار منهم أو استعداد، فيصيبهم الذهول، وتخرس ألسنتهم من هول ما يرون.

﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ۝٤٠﴾ ولن يكون لهم عند ذلك أي مفر أو مخرج، ولن يقبل منهم بعد ذلك أي عمل أو توبة.

﴿وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ۝٤١﴾ يخفف الله سبحانه وتعالى على نبيه ﷺ من أثر الصدمات التي واجهه بها المشركون من التكذيب والاستهزاء والاحتقار حتى ضعفت معنوياته وضاقت نفسه وقل نشاطه فأخبره تعالى بما لقي المرسلون من قبله من التكذيب والاستهزاء وعظيم الأذى، وبما حل بالمستهزئين من عذاب الله الذي أحاط بهم واستأصلهم بسبب استهزائهم بأنبيائهم وتكذيبهم لهم، وذلك أنه إذا عرف ما لاقاه من سبقه من الأنبياء من أقوامهم هان عليه ما هو فيه، وأخبره بأن أعمالهم سوف تحيط بهم وسوف يحيق بهم عذابه وسخطه بسبب ذلك فما عليه إلا أن يصبر.

﴿قُلْ مَنْ يَكْلَؤُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَنِ بَلْ هُمْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِمْ مُعْرِضُونَ۝٤٢﴾ ثم أمر الله سبحانه وتعالى نبيه ﷺ أن يسأل المشركين: من الذي يحرسهم ويحميهم من الله تعالى إذا أراد أن يحل بهم عذابه وسخطه؟

فلن يجدوا جواباً مقنعاً؛ فإن قالوا: الأصنام، فهم يعلمون أنها لن تستطيع أن تحميهم، أو أن تدفع عنهم شيئاً، وسيسخر منهم كل عاقل إن أجابوا بهذا الجواب.

ثم أخبر عنهم أن ابتعادهم عن الدين الحق ليس إلا لشدة عنادهم وتمردهم وإعراضهم عن الله تعالى وعن نبيه واستكبارهم عليه.

﴿أَمْ لَهُمْ ءَالِهَةٌ تَمْنَعُهُمْ مِنْ دُونِنَا﴾ أم أن تلك الأصنام التي يعبدونها هي التي ستحفظهم وتحميهم من عذاب الله وسخطه حتى تمردوا على الله هذا التمرد.

﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنْفُسِهِمْ﴾ ثم أجاب الله عن ذلك: بأن آلهتهم تلك لا تستطيع أن تحمي حتى أنفسها فضلاً عن أن تحرس غيرها.

﴿وَلَا هُمْ مِنَّا يُصْحَبُونَ﴿٤٣﴾﴾ وليس لهذه الآلهة من عند الله ما يكسبها القوة حتى تستطيع حماية نفسها.

﴿بَلْ مَتَّعْنَا هَؤُلَاءِ وَءَابَاءَهُمْ﴾ ثم أخبر الله سبحانه وتعالى أنه قد متع المشركين بالأعمار الطويلة والصحة والعافية في الدنيا، وأسبغ عليهم النعم، وزادهم في القوة والتمكن في الأرض.

﴿حَتَّى طَالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ﴾ ثم إنهم نسوا الله تعالى ونعمه عليهم بسبب انغماسهم في الشهوات واتباع الأهواء، وما قلبهم فيه من النعم التي لا تعد ولا تحصى.

﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ﴿٤٤﴾﴾ يستنكر الله سبحانه وتعالى عليهم غفلتهم وشدة إعراضهم عنه مع ما يرونه من توسع رقعة الإسلام وانتشاره في أقطار الأرض وتضاؤل الشرك واضمحلاله؛ أليس في هذا آية لكم أيها المشركون تعتبرون بها؟ وما ترونه من غلبة الإسلام لأكثر البلدان أفتظنون أنكم غالبون ولن يستطيع أحد أن يغلبكم؟ ومن أنتم حتى تظنوا هذا الظن وتغتروا ذلك الغرور؟

﴿قُلْ إِنَّمَا أُنْذِرُكُمْ بِالْوَحْيِ وَلَا يَسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعَاءَ إِذَا مَا يُنْذَرُونَ﴿٤٥﴾﴾ ثم أمر الله سبحانه وتعالى نبيه صلى الله عليه وآله وسلم أن يخبر المشركين بأن الله تعالى قد كلفه أن ينذرهم بالوحي، وأن يبلغهم ما أوحي به إليه، وأن يخبرهم بأن تبليغ رسالة الله تعالى هو مهمته التي كلفه الله بها، فليس عليه أن يدخلهم في الهدى أو يرغمهم عليه، وليس عليه أن يحاسبهم أيضاً، وأن دخولهم في الهدى وعدم دخولهم ليس من مسؤوليته.

وأقنع الله نبيه صلى الله عليه وآله وسلم من الطمع في إيمان قومه فلا يتعب نفسه في ملاحقتهم.

﴿وَلَئِنْ مَسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَاوَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴿٤٦﴾﴾ وأخبر الله تعالى نبيه ﷺ أنهم لن يعترفوا بالحق ولا يؤمنون به إلا عند رؤيتهم لعذاب الله وهو نازل بهم فساعتها سيتذكرون وسينادون بالويل والثبور والندم على ما كانوا فيه من الضلال والغفلة، وأما ما داموا لم يروا شيئاً فلن يسمعوا لك يا محمد أو يستجيبوا لدعوتك أبداً.

﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ﴿٤٧﴾﴾ ثم أخبر الله سبحانه وتعالى أنه سيحاسب الناس حساباً دقيقاً، ولن يظلم أحداً أو ينقص أهل الحسنات من حسناتهم شيئاً، أو يزيد في عقاب أحد فوق ما يستحق، وأنه سيجازيهم حتى على مثقال الذرة من الأعمال.

والموازين كناية عن عدل الله سبحانه وتعالى ودقة حسابه، وعدم ضياع شيء عنده أو نسيانه لأي شيء من أعمالهم.

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءً وَذِكْرًا لِلْمُتَّقِينَ﴿٤٨﴾﴾ أوحى الله سبحانه وتعالى إلى نبيه ﷺ بأنه قد أنزل على موسى وهارون التوراة التي فيها التمييز بين الحق والباطل، وتبصير الناس طريق هداهم، وفيها أيضاً تذكيرهم بآياته وعظاته وما يعتبرون به.

﴿الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ﴾ ولكنه لا يتذكر بها ويتعظ إلا المتقون الذين يخشون الله سبحانه وتعالى ويخافونه.

﴿وَهُمْ مِنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ﴿٤٩﴾﴾ وهم أيضاً خائفون من القيامة؛ لأنهم قد تيقنوا بوقوعها، فهؤلاء هم الذين سينتفعون بما أنزله لهم في التوراة، ثم عقب ذلك بقوله في القرآن:

﴿وَهَذَا ذِكْرٌ مُبَارَكٌ أَنْزَلْنَاهُ﴾ وهو القرآن الذي فيه المنافع الكثيرة للناس لدينهم ودنياهم، وقد أنزله على نبيه محمد ﷺ.

﴿أَفَأَنْتُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ۝٥٠﴾ استنكر الله تعالىٰ علىٰ المشركين تكذيبهم بالقرآن وإنكارهم له مع وضوح آياته وظهور صدقه.

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ۝٥١﴾ ثم أخبر الله سبحانه وتعالىٰ نبيه ﷺ بأنه قد زكىٰ عقل إبراهيم وفطرته بحيث علم الحق وعرفه وعلم أن عبادة تلك الأصنام التي يعبدها قومه باطلة؛ لأنه قد علم أنه أهل لأن يزكي عقله وفطرته ويبصره طريق الحق والرشاد.

﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ۝٥٢﴾ وهذه هي علامة رشده وزكاء عقله وفطرته، وذلك عندما استنكر علىٰ قومه كيف يعبدون تلك التماثيل التي ليست إلا أحجاراً يصنعونها بأيديهم؟! فما هي حتىٰ تعبدونها؟

﴿قَالُوا وَجَدْنَا ءَابَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ۝٥٣﴾ ولم يستطيعوا أن يأتوا بجواب مقنع يدل علىٰ صحة ربوبيتها، وأنها تستحق العبادة، ولم يجدوا جواباً إلا أنها عادة آباءهم، وأنهم يقتفون آثارهم، ويقتدون بهم.

﴿قَالَ لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَءَابَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ۝٥٤﴾ فرد عليهم مبكتاً لهم ومتحسراً علىٰ أعمالهم هذه مع علمهم وتيقنهم أنهم في جهل وضلال واضح.

﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنْتَ مِنَ اللَّاعِبِينَ۝٥٥ قَالَ بَل رَبُّكُمْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَى ذَلِكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ۝٥٦﴾ وأنها لا تملك من صفات الإلهية شيئاً، فلا إله لهم إلا إله واحد وهو الذي خلق السماوات والأرض وخلق هذه الأحجار التي تعبدونها وهو ربكم، وأنا أشهدكم أني كافر بأصنامكم هذه، وأن لا رب يستحق العبادة إلا رب السماوات والأرض.

﴿وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ۝٥٧﴾ وتهددهم بأنه سيكسر أصنامهم هذه عندما يجد الفرصة المناسبة لذلك.

﴿فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا إِلَّا كَبِيرًا لَهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ۝٥٨﴾ وفعلاً فقد نكس أصنامهم وكسرها، ولم يبق علىٰ شيء منها إلا الصنم الأكبر منها، وقد ألهمه

الله سبحانه وتعالىٰ إلىٰ ذلك بتدبيره لحكمة يعلمها في ذلك، وكان إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ قوياً جداً يدل علىٰ ذلك قوله تعالىٰ: ﴿فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ ۝٩٣﴾ [الصافات]، أراد بالقوة التي أعطاه الله تعالىٰ.

﴿قَالُوا مَنْ فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ ۝٥٩ قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ ۝٦٠﴾ وعندما عادوا ورأوا أصنامهم علىٰ تلك الحال تملكهم الغضب الشديد وأقسموا أنهم سوف يبحثون عن الذي فعل تلك الفعلة حتىٰ يجدوه فيقتلوه، وكان أناس منهم قد سمع إبراهيم وهو يتهددهم ويتوعدهم بكسر أصنامهم وتحطيمها فأخبروهم بأنه الفاعل.

﴿قَالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلَى أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ۝٦١﴾ ثم جمعوا الناس، وأحضروا إبراهيم ليشهدوا عليه عند إدانته.

﴿قَالُوا ءَأَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَاإِبْرَاهِيمُ ۝٦٢﴾ يستنطقونه ليعترف أمام الملأ، ولكنه أجاب بغير ما يتوقعون فقال:

﴿قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ ۝٦٣﴾ فأجابهم بأن الفاعل هو كبير الأصنام ذلك، وكان قد تركه سالماً ووضع المعول والفأس فوق جنبه، وكان الله سبحانه وتعالىٰ قد ألهمه لهذه الحيلة حتىٰ يستطيع أن يقنعهم بأن الأصنام لا تستطيع أن تنفع أو تضر أو تفعل أي فعل، وليكون ذلك حجة عليهم.

وقد يقال: إن إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ قد كذب هنا؛ لأنه نسب الفعل إلىٰ غير فاعله.

فالجواب عليه: إن هذا ليس من الكذب في شيء لأن الكذب هو الذي يروج له صاحبه حتىٰ يجعل له سبيلاً إلىٰ القبول، وهنا قد نسب الفعل إلىٰ شيء لن يستطيع أحد أن يصدق ذلك، بل سيعلمون من كلامه هذا أنه إنما يريد أن يلزمهم ويلجئهم إلىٰ معرفة بطلان عبادتهم لها.

﴿فَرَجَعُوا إِلَى أَنْفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ ۝٦٤﴾ وفعلاً فقد استيقظوا من غفلتهم، وانتبهوا من رقدتهم، واعترفوا بخطئهم وضلالتهم،

وبدأوا يتساءلون في أنفسهم: كيف يعبدون أحجاراً لا تستطيع أن تضر أو تنفع أو حتى تحمي نفسها؟!! وعرفوا أن إبراهيم على حق فيما ينسبه إلى معبوداتهم تلك من بطلان إلهيتها.

﴿ثُمَّ نُكِسُوا عَلَى رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ۝٦٥﴾ ولكنهم لم يلبثوا أن تراجعوا عن اعترافهم وإقرارهم ذلك، وما كانوا أقروا به من الضلال، وصاحوا بإبراهيم: كيف نسأل هذه الأصنام، وأنت تعلم أنها لن تستطيع أن تنطق؟

﴿قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ۝٦٦ أُفٍّ لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ۝٦٧﴾ فاستنكر عليهم إبراهيم وقال لهم: فكيف تعبدون من دون الله ما لا يستطيع أن ينفعكم أو يضركم أو ينفع نفسه أو يدفع عنها ضرراً أو مكروهاً، وتأفف من عملهم واستقذرهم واستخف بهم وبآلهتهم، وكيف تسمح لهم عقولهم أن يعبدوا أحجاراً لا تضرهم ولا تنفعهم.

﴿قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانْصُرُوا ءَالِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ۝٦٨﴾ عندما أسكتهم إبراهيم بحجته، ولم يستطيعوا حجة ولا جواباً، ولم يروا جواباً إلا أن يرموا به في النار استكباراً منهم وتجبراً وعلواً؛ ليكون عبرة لكل من سولت له نفسه أن يمس دينهم بسوء.

﴿قُلْنَا يَانَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ۝٦٩﴾ ولكن الله سبحانه وتعالى قد انتصر لنبيه ولدينه وحفظه من شرهم ومكرهم، وكانوا قد وضعوه في المنجنيق ليلقوا به من بُعْدٍ؛ لكثرة ما كانوا قد أضرموا من النيران حتى أن أحداً لم يستطع القرب منها لعظمها وشدة حرارتها.

﴿وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ۝٧٠﴾ وكان مكر الله فوق مكرهم وكيده فوق كيدهم، وقد خيب آمالهم وهزمهم أمام الناس جميعاً، وقد روي أن جبريل قد نزل على إبراهيم وهو في الهواء عندما قذفوا به فسأله: هل لك من

حاجة يا إبراهيم؟ فأجابه: أما إليك فلا؛ وكان أمله في الله سبحانه وتعالىٰ بالرغم من بارقة الأمل التي أعطاه جبريل عليه السلام، وهكذا أنبياء الله، والله أعلم حيث يجعل رسالاته.

﴿وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ﴿٧١﴾﴾ بعد أن خرج إبراهيم عليه السلام سالماً من النار، حاول قومه اللحاق به ليقتلوه، ولكن الله تعالىٰ نجاه منهم، ففر من بين أيديهم ومعه لوط عليه السلام إلىٰ أرض الشام، ووصفها بهذا الوصف يدل علىٰ أنه قد بارك فيها، ومنافع الدنيا والآخرة بأن جعلها مهبط الرسالات، ومهد الأنبياء والمرسلين ومستودع الأديان، وأما بركتها في الدنيا فلما تتمتع به من خصوبة أرضها وتنوع ثمارها ووفرة أمطارها وغزارة أنهارها.

﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً وَكُلًّا جَعَلْنَا صَالِحِينَ﴿٧٢﴾﴾ أخبر الله سبحانه وتعالىٰ أنه أعطىٰ إبراهيم عليه السلام أجره في الدنيا فوهب له إسحاق نبياً وبعده يعقوب نبياً، والنافلة هو ولد الولد؛ وقد جعل الله سبحانه وتعالىٰ النبوة في ذرية يعقوب عليه السلام.

﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا﴾ وجعل الله تعالىٰ إبراهيم وإسحاق ويعقوب أئمة للناس يهتدون بهديهم، ويقتفون آثارهم، وأعطاهم الكتاب والحكمة.

﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ﴿٧٣﴾﴾ أوحىٰ الله سبحانه وتعالىٰ إلىٰ إبراهيم وإسحاق ويعقوب عليهم السلام الأمر بفعل الخيرات، والمحافظة علىٰ إقامة الصلوات وإيتاء الزكوات، وقد أثنىٰ الله عليهم صلوات الله عليهم بأنهم كانوا عابدين لله وحده ومنقطعين إليه.

﴿وَلُوطًا آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ ثم أخبر الله سبحانه وتعالىٰ نبيه صلى الله عليه وآله وسلم أنه أعطىٰ لوطاً عليه السلام النبوة وجعله من أهل العلم والحكمة.

﴿وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ تَعْمَلُ الْخَبَائِثَ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَاسِقِينَ﴿٧٤﴾﴾ وأنه نجاه مع أهله، وذلك عندما أنزل العذاب بقومه فأهلكهم

ودمر مساكنهم وقراهم بسبب عمل الخبائث والإقامة على فعل المنكرات وفسوقهم عن أمر الله.

﴿وَأَدْخَلْنَاهُ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ۝٧٥﴾ نجاه الله سبحانه وتعالى في الدنيا من العذاب وحفظه، وفي الآخرة سيكون في أعلى عليين في جنات النعيم.

﴿وَنُوحًا إِذْ نَادَى مِنْ قَبْلُ﴾ ثم أوحى الله سبحانه وتعالى إلى نبيه ﷺ خبر نوح عليه السلام وشأنه، فأخبر أنه أرسله من قبل إبراهيم وإسحاق ولوط، وأنه دعا الله سبحانه وتعالى بأن يستأصل قومه بالهلاك والعذاب.

﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ۝٧٦﴾ نادى الله سبحانه وتعالى ودعاه عندما علم باقتراب موعد نزول عذاب الله بقومه فاستجاب له وأمره بأن يصنع السفينة فنجاه فيها هو وأهله وأغرق قومه بالطوفان وأبادهم واستأصلهم جميعاً، حتى كل حيوانات الأرض بعد أن حمل فيها من كل زوجين اثنين، وذلك لشؤم شركهم وضلالهم وتكذيبهم بنبيهم فكانوا السبب في هلاك كل ما على وجه الأرض، وقد سماه الله سبحانه وتعالى الكرب العظيم لأنه تعالى استأصلهم بعذاب عظيم.

﴿وَنَصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ۝٧٧﴾ وكانت العاقبة الحسنة لنوح عليه السلام هو ومن آمن معه؛ يقص الله سبحانه وتعالى قصصه هذه ليعتبر المشركون وغيرهم بما قد حل بأولئك القوم عندما كذبوا بأنبيائهم وتمردوا عليهم، وليتعظوا بهم فلا يفعلوا مثل أفعالهم ويكذبوا بنبيهم محمد ﷺ، وكذلك فيها عبرة لنبيه ﷺ ليعرف ما لا قاه الأنبياء السابقون قبله من أقوامهم، وما عانوه من المتاعب في تبليغ رسالاتهم فتهون عليه مصيبته وما يلاقيه من قومه، وليعلم أن العاقبة ستكون له، وأن الله سبحانه وتعالى سوف ينتصر لدينه، ويظهره على الدين كله ولو كره المشركون.

﴿وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ﴿٧٨﴾﴾ وكذلك يذكر الله سبحانه وتعالىٰ نبيه ﷺ بقصة داوود وسليمان وما حكما به في الحرث الذي أفسدته الغنم، وذلك أن غنماً لأناس دخلت بين زرع فأتلفته فاحتكم أهل الزرع وأهل الغنم إلىٰ نبي الله داوود، فحكم بينهما بحكم، ثم عقب سليمان بحكم آخر كان أرفق من حكم أبيه وأصلح للشأن، وكان الله سبحانه وتعالىٰ قد ألهمه إياه لحكمة منه ومصلحة وتمهيداً لشيء يريده من التهيئة للنبوة والملك بعد أبيه داوود عليه السلام،فلا يموت إلا وقد أصبح محط أنظار الناس ومحل ثقتهم؛ وكان حكم سليمان أن أرباب الزرع يأخذون غنم أولئك القوم فيستنفعون بها وبلبنها ودرها، وأرباب الغنم يستلمون البستان ليصلحوه إلىٰ أن يرجع إلىٰ عادته فيردوه لأهله ويأخذوا غنمهم.

﴿فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ وهذا يدل علىٰ أن داوود لم يكن أخطأ في حكمه، وأنهما قد حكما بالحق جميعاً، غير أن حكم سليمان كان أصوب لما ذكرنا من الحكمة التي أرادها الله سبحانه وتعالىٰ.

﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ﴿٧٩﴾﴾ يبين الله سبحانه وتعالىٰ فضيلة داوود عليه السلام، وأنه اصطفاه وأيده بآيات تنصره فكان إذا سبح الله تعالىٰ وذكره سبحت معه الجبال والطير كرامة منه لنبيه وتأييداً له.

﴿وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ لِتُحْصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ﴿٨٠﴾﴾ وعلمه الله سبحانه وتعالىٰ كيف يصنع الدروع التي يلبسها المحاربون لتحميهم من ضرب السيوف، وأخبرهم أن هذه نعمة أنعم بها عليهم إذ هيأ لهم ما يحمون به أنفسهم من القتل فالمفترض بهم أن يشكروا الله عليها، ويلتزموا بأوامره.

﴿وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَالِمِينَ﴿٨١﴾﴾ فضل الله تعالىٰ نبيه سليمان عليه السلام بكرامته هذه بأن سخر

له الريح تأتمر بأمره وتحمله أينما أراد، وذلك أنه سخر له الجن والشياطين يتولون صناعة ما يطير عليه بما مكنهم الله تعالىٰ في ذلك الوقت، كالطوائر في زماننا هذا، وذلك لأن الشياطين أجسام نارية فهي تستطيع أن تأتي بالوقود النفاث الذي يستطيع أن يدفع الهواء بشدة ويولد ريحاً قوية تحرك الأجسام التي يحملها الهواء، وأيضاً فقد صنعوا له الصناعات العجيبة من المباني والمنحوتات والزخارف وغير ذلك.

ثم أخبر الله سبحانه وتعالىٰ أن ذلك بعلمه وقدرته وتمكينه بما مكنهم في الأرض من القوة والعدة وأسباب الطيران.

﴿وَمِنَ الشَّيَاطِينِ مَنْ يَغُوصُونَ لَهُ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَلِكَ وَكُنَّا لَهُمْ حَافِظِينَ﴿٨٢﴾﴾ وأخبر أيضاً أنه سخر لسليمان الشياطين لخدمته من استخراج اللآلئ وما أشبهها من أعماق البحار مع غير ذلك من أعمال البناء والحفر والصناعات والأعمال الحرفية ونحو ذلك، وكانت الصناعة في عهده قد تطورت وازدهرت بسبب تسخيرهم ذلك، فكان من خرج عليه أو تمرد عن طاعته عذبه الله سبحانه وتعالىٰ وأحرقه بالنار حتىٰ صاروا لا يجرؤون علىٰ مخالفة أي أمر من أوامره، وهذا من فضل الله سبحانه وتعالىٰ عليه فقد أعطاه من الملك ما لم يعطه أحداً من العالمين ولن يعطيه أحداً بعده من العالمين.

﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴿٨٣﴾﴾ ثم ذكر بعد ذلك قصة أيوب عليه السلام وما كان من شأنه، فأخبر أنه من أنبيائه الذين اصطفاهم وفضلهم علىٰ العالمين، فقد ابتلاه بأعظم البلاوي وأشدها حتىٰ صار الناس يعافونه ويستقذرونه، ويهربون منه ومن الجلوس عنده، وصار منبوذاً من بينهم وحيداً في مكان منعزل عنهم، وبالرغم من كل ذلك كان صابراً علىٰ بلواه راضياً بما قسمه الله سبحانه وتعالىٰ له، ولم ينقطع عن ذكره وتسبيحه والثناء عليه، وهذا هو السبب في اصطفاء الله سبحانه وتعالىٰ له.

بينما كان سليمان عليه السلام على النقيض منه تماماً فقد أنعم الله سبحانه وتعالى عليه بأكبر النعم وآتاه الملك والحكمة، فأيوب صبر على ما ابتلاه الله سبحانه وتعالى به، وسليمان شكر الله تعالى على ما أنعم به عليه، وكل هذا اختبار منه لهما، فهو تعالى يبتلي عباده بالخير والشر.

وقد قيل: إنه لم يشك إلى الله سبحانه وتعالى ما أصابه من الضر إلا عندما وصلت الآكلة عند لسانه وعرف أن ذلك سيمنعه من مواصلة ذكر الله والثناء عليه فعندها بث شكواه إلى الله سبحانه وتعالى، وأما قبل ذلك فكان ساكتاً صابراً راضياً بما قسمه الله تعالى له من البلاء.

﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ وَءَاتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَذِكْرَى لِلْعَابِدِينَ﴿٨٤﴾﴾ استجاب الله سبحانه وتعالى دعاءه وعافاه ورفع عنه بلواه، وأنعم عليه بالصحة، ورد إليه أهله الذين كانوا قد نفروا عنه، وزاد له مثلهم معهم.

وبالنسبة لبلواه ففيها عظة وعبرة للناس عظيمة ومصلحة كبيرة عائدة عليهم، وذلك أن من أصابه مرض أو ابتلي ببلاء إذا تذكر ما صار إليه نبي الله أيوب عليه السلام هان عليه ما هو فيه من الشدة، وكان دافعاً له إلى الصبر على ذلك.

﴿وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِنَ الصَّابِرِينَ﴿٨٥﴾﴾ ينوه الله سبحانه وتعالى بذكر أنبيائه في القرآن وذكر صبرهم على ما ابتلاهم به وعلى طاعته؛ لأن ذلك من الثواب الذي جعله لهم في الدنيا، وأي تشريف وأي تعظيم أكبر من هذا عندما يمدحهم الله سبحانه وتعالى ويثني عليهم عند بقية الأمم، فلا تخلوا أمة من الأمم إلا وقد مدحهم الله سبحانه وتعالى فيما أنزله عليهم من الكتب.

وقد قيل: إن ذا الكفل هو إلياس، ومعناه: صاحب الحظ العظيم أو نحوه.

﴿وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُمْ مِنَ الصَّالِحِينَ﴿٨٦﴾﴾ وأدخلهم الله في رحمته بسبب أعمالهم الصالحة.

﴿وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا﴾ ثم ذكر الله سبحانه وتعالىٰ قصة يونس عليه السلام، ومعنىٰ ذي النون: صاحب الحوت، وذلك أنه كان قد أنذر قومه، وبلغهم حجج الله سبحانه وتعالىٰ وآياته، ودعاهم إلىٰ طاعة الله تعالىٰ- فرفضوا ذلك والانقياد له واتباعه، فغضب منهم غضباً شديداً، وخرج من بينهم وتركهم قبل أن يأذن الله سبحانه وتعالىٰ له بذلك.

﴿فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ﴾ وقد ظن أن الله سبحانه وتعالىٰ لن يؤاخذه علىٰ خروجه من دينهم؛ لأنه قد أدىٰ ما عليه من تبليغهم رسالة ربه، ولكنه أخطأ في ظنه ذلك؛ لأن الله سبحانه وتعالىٰ لم يكن قد أذن له فعاقبه تعالىٰ بأن سجنه في بطن الحوت، وذلك أنه ركب في سفينة مع مجموعة وعندما توسطوا البحر كادت السفينة أن تغرق، فاضطروا إلىٰ أن يلقوا مِنْ علىٰ ظهرها واحداً منهم ليسلم الباقون، وإلا فإنهم سيغرقون جميعاً، فاقترعوا فيما بينهم فخرج السهم علىٰ يونس، وكرروا ذلك مرات عدة، وكان في كل منها يخرج السهم عليه، فعند ذلك رمىٰ بنفسه من ظهرها وحصل ما حصل.

﴿فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٨٧﴾﴾ عرف خطأه وأنه خالف ما أمره الله سبحانه وتعالىٰ به فتاب إليه وندم علىٰ ما كان منه، وكان ذلك عند الاقتراع وفي بطن الحوت، وأما معصيته تلك فلم تكن عن عمد منه؛ لأن ذلك لا يكون من الأنبياء والمرسلين، وعقابهم إنما هو لقربهم الشديد من الله سبحانه وتعالىٰ فهو يحب منهم أن لا يصدر منهم أي عصيان ولو عن طريق الخطأ والله أعلم.

﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾﴾ أوحىٰ الله سبحانه وتعالىٰ إليه أنه قد استجاب له، وأخرجه من بطن الحوت، وأخبر أن هذا هو سنته في عباده المؤمنين إذا لجئوا وتضرعوا إليه، يكشف ما أنزله بهم من البلاء والشدة.

﴿وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَى رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ﴿٨٩﴾﴾ ثم ذكر نبيه زكريا عليه السلام وقصته عندما دعا الله أن يرزقه بالذرية الصالحة على الرغم من كبره هو وزوجته وتجاوزهما حد الإنجاب، وذلك منه لأنه كان خاف أن يموت فلا يكون هناك من يقوم مقامه في إكمال ومواصلة تبليغ الناس ما تركه آل يعقوب من العلم والحكمة التي كانوا يتوارثونها إلى أن وصلت إليه.

﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَى وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ﴾ ولكن الله سبحانه وتعالى قد استجاب دعاءه وتوسله إليه عندما عرف صدق نيته وعزيمته فحملت امرأته -بعد أن كانت قد طعنت في السن وكانت عقيماً- وولدت له يحيى عليه السلام، وكان نبياً.

﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ﴾ وأخبر عنهم بأنهم من أهل المسارعة في طاعة الله سبحانه وتعالى، والمبادرة إليها، وعلى ما أوجبه الله سبحانه وتعالى وافترضه عليهم؛ وقوله: ﴿يُسَارِعُونَ﴾ فيه دلالة على مبادرتهم وسبقهم إلى ما أمرهم الله سبحانه وتعالى من دون تردد أو توان أو كسل.

﴿وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا﴾ وأنهم يتضرعون إليه راغبين فيما عنده من الثواب، وراهبين وخائفين لعقابه وغضبه، وهذا هو المفروض الذي ينبغي أن يكون عليه كل مؤمن فيكون بين الخوف والرجاء.

فمن المفروض أن يتوجه المؤمن بالعبادة إلى الله؛ لأنه يستحق العبادة وأهل لأن يعبد ويحمد ويشكر على ما أنعم به عليه من النعم الظاهرة والباطنة من دون نظر إلى جنة أو نار، ألا ترى أن من أحسن إليك في الدنيا وتتابع معروفه عندك كيف تكون المكانة التي سيتركها في قلبك؟ وكيف ستكون ردة فعلك تجاهه؟ وهل ستعصيه أو تفكر في معصيته؟ أم أنك ستحاول إرضاءه بكل ما تستطيع وتملك وتحرص على أن لا يلحقه من قبلك أي سوء أو مكروه؟

﴿وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾ وأنهم كانوا متواضعين منقادين لله سبحانه وتعالى ولما أمرهم به، مهما كلفهم ذلك من الخسارة حتى ولو أدى إلى تلف أبدانهم أو ضحوا بأموالهم وأولادهم في سبيل إرضائه فقد باعوا أنفسهم من الله سبحانه وتعالى واستسلموا له غاية الاستسلام، فهذا هو معنى التواضع، بعكس المتكبر فهو الذي لا يمتثل لما أمره الله سبحانه وتعالى به، فهذا هو المتكبر ولو كان يمشي مشي المتواضعين.

هذا، وطاعة أولياء الله من العلماء المبلغين عن الله سبحانه وتعالى الآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر من هذا الباب؛ لأن من أطاعهم فقد أطاع الله، ومن عصاهم فقد عصى الله تعالى؛ لأنهم يمثلون الأنبياء الذين كانوا يبلغون عن الله سبحانه وتعالى بعد موتهم، فقد أصبحوا يبلغون عنهم ويحلون مكانهم، وطاعتهم واجبة على كل مكلف، لا يعذر أحد في تركها مهما كانوا وكيفما كانوا ولو كانوا من أوضع الناس وأدناهم مرتبة مهما كانوا آمرين بتقوى الله وطاعته.

﴿وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا ءَايَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ يذكر الله سبحانه وتعالى قصة مريم، وما كان من شأنها- بين ذكر أنبيائه، وصفّها في مصافهم، تنويهاً بشرفها وعلو منزلتها عند الله سبحانه وتعالى، ولم يصل من النساء هذه المنزلة الرفيعة إلا قلة قليلة منهن، ومريم واحدة منهن.

فأخبر أنه قد نفخ في بطنها الولد، وأنها حملت به من غير زوج تنبيهاً على طهارتها وعفتها، وليكون ذلك آية من آياته الجلية المكشوفة الدالة على قدرته وعظمته، وما جعل لعيسى من المعجزات كإحياء الموتى، وإبراء الأكمه والأبرص.

﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾ ثم وجه الله تعالى خطابه إلى أهل الإسلام من أمة محمد صلى الله عليه وآله وسلم، فأخبرهم أن الملة واحدة، وأن الدين واحد، وأمرهم أن يدخلوا فيه جميعاً، وأخبرهم أنه لا دين غير هذا الدين الذي جاء به محمد صلى الله عليه وآله وسلم.

﴿وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ﴾ ولكنهم بعد ذلك وبعد أن دعاهم الله تعالىٰ إلىٰ اتباع هذا الدين الواحد تفرقوا واختلفوا إلىٰ مذاهب شتىٰ وفرق مختلفة فمنهم يهود، ومنهم نصارىٰ، ومنهم مشركون، ومنهم من يعبد البقر، ومنهم من يعبد الجن، ومنهم من يعبد البشر.

﴿كُلٌّ إِلَيْنَا رَاجِعُونَ۝﴾ وكل هؤلاء مرجعهم إلينا يوم القيامة وسوف يحاسب كل من خالف هذا الدين الذي جاء به محمد صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ ثم يدخله جهنم، ولن يدخل الجنة إلا من تمسك بالحق واتبع دين الله سبحانه وتعالىٰ الذي جاء به علىٰ لسان نبيه صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ.

﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ وَإِنَّا لَهُ كَاتِبُونَ۝﴾ وأن من يعملون الأعمال الصالحة مع الإيمان والتصديق بالله تعالىٰ فهؤلاء لن يضيع الله من أعمالهم شيئاً، وسيوفيهم أجورهم وثوابهم دون أن ينقص عليهم شيئاً حتىٰ مثقال الذرة فهو مكتوب عنده وسيرىٰ جزاءها.

فإن قيل: فكيف بمن لم تبلغه دعوة النبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ؟

فالجواب عليه: أن الله سبحانه وتعالىٰ سيثيبه علىٰ قدر ما يمليه عقله عليه، وذلك أن الله سبحانه وتعالىٰ قد خلق العقل وجعل فيه القدرة التي تمكنه من الوصول إلىٰ معرفته والعلم بوجوده، فمن استجاب لداعي العقل والفطرة هذه وآمن بالله سبحانه وتعالىٰ فسيدخله الجنة حتىٰ ولو لم تبلغه دعوة نبينا محمد صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ.

وبالنسبة لزماننا هذا فقد اختلف الوضع، وأصبحت وسائل المعرفة موجودة وفي متناول الجميع في شتىٰ بقاع الأرض، وبسهولة وتيسير، وما علىٰ المكلف إلا أن يفتح الإنترنت وسيتوصل إلىٰ ما أراد، وعلىٰ الجملة فلن يعذب الله سبحانه وتعالىٰ إلا من بلغته الحجة، وعرف الحق ثم أعرض عنه.

﴿وَحَرَامٌ عَلَى قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ۝﴾ فلا يعذب أحداً أو ينزل عذابه بأهل قرية أو بلاد إلا بعد أن تبلغهم حججه، وبعد أن يظهر تمردهم

والقطع بعدم استجابتهم وإيمانهم.

﴿حَتَّى إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ۝٩٦ وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أخبر الله سبحانه وتعالى هنا عن علامات الساعة، وهي أن سكان الأرض سيختلط بعضهم ببعض ويموج بعضهم في بعض فيقتل بعضهم بعضاً، وسيعم القتل جميع أقطار الأرض وسكانها؛ وقد قيل: إن يأجوج ومأجوج قوم من الترك يسكنون صحراء سيبيريا والتتر قوم منهم، ومعنى يأجوج ومأجوج خليط من البشر قطاع الطرق قد اجتمعوا في ذلك المكان فسموا بهذا الاسم؛ فإذا كان آخر الزمان فإن الله سبحانه وتعالى سيسلط بعض الناس على بعض، وسيترك بعضهم يقتل بعضاً جزاء على خروجهم العام عن طاعته، وإجماعهم على التمرد عليه وتوغلهم في معاصيه، وأخبر أن هذا سوف يكون في آخر الزمان، وأنه من علامات الساعة.

وأما بالنسبة للمهدي المنتظر فسيبعثه الله تعالى عندما تتهاوى عروش الظالمين، وتتحطم أسلحتهم وحضارتهم، وعندما ينسف كل ما على وجه الأرض من الحضارات والتطور والتقدم الصناعي، وعندما يطحن جميع جبابرة الأرض فعند ذلك سيكون للإسلام دولة بقيادة آخر أئمة أهل البيت عليهم السلام، ولا يخلف ذلك إلا حلول الساعة والقيامة والبعث والنشور والحساب والجزاء.

﴿يَاوَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا﴾ وأن أبصار الذين كفروا عند ذلك ستكون شاخصة إلى السماء من هول ما يرون من العذاب الذي تيقنوا بحلوله عليهم، وسيظهر عليهم الندم الشديد عند ذلك على ما أسلفوا.

﴿بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ۝٩٧ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ۝٩٨﴾ يخاطب الله سبحانه وتعالى الكافرين مهدداً لهم بأنه سيدخلهم جهنم مع آلهتهم التي يعبدونها من دونه.

﴿لَوْ كَانَ هَؤُلَاءِ ءَالِهَةً مَا وَرَدُوهَا وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ۝٩٩﴾ وأخبرهم أن هؤلاء الذين يعبدونهم من دونه لو كانوا يستحقون الإلهية والعبودية لما أدخلهم جهنم وعذبهم، وأخبر أيضاً أنه سيخلد العابد والمعبود في نار جهنم.

﴿لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ۝١٠٠﴾ من شدة العذاب يجرون أنفاسهم حتى يسمع صفيرها من قوة الجر، وكذلك ستنسد آذانهم من شدة الألم حتى لا يستطيعون سماع شيء.

﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَى أُولَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ۝١٠١﴾ ثم انتقل إلى ذكر الذين قد سبق لهم من الله الوعد الحسن والعاقبة الحسنة مثل عيسى وعزير والملائكة فأخبر أنه قد أخرجهم من بين تلك المعبودات التي سيدخلها النار مع عابديها؛ لأنهم لم يدعوا الإلهية، ولم يدعوا الناس إلى عبادتهم.

﴿لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنْفُسُهُمْ خَالِدُونَ۝١٠٢﴾ لا يدخل الله تعالى عيسى وعزير والملائكة نار جهنم ولا يسمعون أصواتها المخيفة وهم في نعيم الجنة وثوابها خالدون.

﴿لَا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ هَذَا يَوْمُكُمُ الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ۝١٠٣﴾ وكذلك لا تلحقهم أهوال القيامة ومخاوفها، فهم في أمن وأمان من وقت أن يبعثهم الله سبحانه وتعالى، تبشرهم بذلك الملائكة.

﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ۝١٠٤﴾ يخبر الله سبحانه وتعالى عن حال يوم القيامة بأنه سيخرب الكون جميعاً ويهدمه، وأن السماء التي نراها أمامنا سوف يطويها مع كواكبها، ويلفها كما تلف الورقة، حتى لا يبقى منها شيء، ثم بعد ذلك سيعيد خلق البشر وسيبعثهم من جديد، وأخبر أن هذا وعد منه واجب وقوعه لا محالة.

﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ۝١٠٥﴾ أخبر الله سبحانه وتعالى أنه قد كتب ووعد في الزبور أن الأرض سيسيطر عليها

الصالحون من عباده بعد أن يهلك ويدمر المفسدين الذين ملأوها ظلماً وبهتاناً.

﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ۝١٠٧﴾ أخبر الله سبحانه وتعالى أنه لم يرسل محمداً صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ إلا ليستنقذ الناس من جهالات الشرك والضلال، ويدخلهم في سعادة الدنيا وسعادة الآخرة.

﴿قُلْ إِنَّمَا يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ۝١٠٨﴾ أمر الله سبحانه وتعالى في هذه الآية نبيه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ أن يخبر المشركين بأنه لا ينزل عليه من الوحي إلا ما يأمرهم بعبادة الله وحده لا شريك له، وأن يخبرهم بأن الأصنام التي يعبدونها من دونه زعماً منهم أنها بنات الله لا تملك من صفات الإلهية شيئاً، وأن يتركوها ويسلموا وينقادوا إلى هذا الدين.

وكان عند الكعبة من أصنامهم هذه ثلاثمائة وستون صنماً، وكان لكل صنم منها اسم يعرف به.

﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا﴾ فإن رفضوا دعوتك يا محمد وأعرضوا عنها ﴿فَقُلْ ءَاذَنْتُكُمْ عَلَى سَوَاءٍ﴾ هذا إعلان منه للبراء، كقول القائل: «الوجه من الوجه أبيض»، فقد أخبرتكم وحذرتكم وتركت لكم حرية الاختيار فاختاروا ما شئتم.

﴿وَإِنْ أَدْرِي أَقَرِيبٌ أَمْ بَعِيدٌ مَا تُوعَدُونَ۝١٠٩﴾ ثم أمره الله سبحانه وتعالى أن يخبرهم بأنه لا يعلم متى سيحل بهم ما وعدهم الله تعالى من عذابه وسخطه إن لم يؤمنوا، وهل قرب وقته أم أنه لا يزال بعيداً، فهو في علم الله وحده.

﴿إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ۝١١٠﴾ فعلم ذلك عند الله وحده فهو العالم بكل شيء، والمطلع على كل شيء حتى ما تضمرونه في صدوركم، ولم تفصح عنه ألسنتكم.

﴿وَإِنْ أَدْرِي لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَكُمْ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ۝١١١﴾ وأن يخبر المشركين أنه لا يدري متى سيكون حلوله بكم، وأن تأخيره قد يكون فتنة واختباراً لكم في الدنيا فيترككم تتمتعون وتأكلون فترة حتى يحين موعد ذلك بكم.

﴿قَالَ رَبِّ احْكُمْ بِالْحَقِّ﴾ القائل هو النبي ﷺ دعا الله سبحانه وتعالى أن يحكم بينه وبين قومه بأن ينصر المحق على المبطل.

﴿وَرَبُّنَا الرَّحْمَنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ﴿١١٢﴾﴾ يخاطب بذلك قريشاً بعد أن دعا الله سبحانه وتعالى أن يحكم بينه وبينهم أخبرهم بأنه سيستعين على كفرهم وحربهم له بالرحمن الذي نعمه ورحمته ظاهرة ومكشوفة لجميع خلقه، وأنه هو الذي سيعينه على القضاء على آلهتهم هذه التي يعبدونها من دونه.



□

سورة الحج

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿يَاأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ﴾ اتقوا عذابه وأن يحل بكم غضبه وسخطه، وتقواه لا تكون إلا بفعل ما يرضيه من الطاعات واجتناب ما يسخطه ويغضبه.

﴿إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ۝١﴾.

﴿يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا﴾ تذهل المرضعة عن رضيعها، وتضع الحامل ما في بطنها من هول ما يكون من أمر الساعة وشدة ما يراه الراؤون ويسمعه السامعون من أهوالها ومخاوفها العظيمة وشدائدها المخيفة.

﴿وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى﴾ قد اختلطت عقولهم، وفقدوا صوابهم من هول ما يرون.

﴿وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ۝٢﴾ يذكر الله سبحانه وتعالى أن السبب في ذهاب العقول وذهولها وعظيم خوفها هو ما يرى من أهوال العذاب وشدته.

هذا، وما أخبرنا الله سبحانه وتعالى به من أمر الساعة من شأنه أن يكون كذلك لو كان هناك من يرى ذلك، وذلك لنتصور شدتها وهولها وإلا فقد قال تعالى: ﴿وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً۝١٤﴾ [الحاقة]، يعني أنه سيفني الكون بما فيه في لحظة واحدة وانفجار واحد بحيث لا يبقى أحد ليرى ذلك؛ لأن كل الكون بما فيه الكائنات سيفنى في لمح البصر.

وأما ما يكون من الهول الشديد عند البعث فهو خاص للكفار والفساق، وأما بالنسبة للمؤمنين فسيؤمنهم الله سبحانه وتعالى من المخاوف والأفزاع والأهوال.

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَرِيدٍ۝٣﴾ كان المشركون يكثرون الجدال على النبي صلى الله عليه وآله وسلم، وكانوا من ألد الخصام له، مع أنهم لم يكونوا من أهل العلم، وليس لهم كتاب يعتمدون عليه في دينهم،

وليس لديهم حجة من عقل أو نقل، وإنما يجادلون بالباطل عن أحجار لا تضر ولا تنفع، متبعين لأهوائهم وشياطينهم.

﴿كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَنْ تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ﴿٤﴾﴾ فمن اتبع الشياطين وسار في قيادتهم فإنهم سيضلونه عن الهدى وعن طريق الحق ويدفعونهم إلى أودية الضلال والهلاك التي تؤدي بهم إلى نار جهنم وبئس المصير.

﴿يَاأَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ﴾ يخاطبهم الله سبحانه وتعالى بأنه إن خالجهم الشك أو دخل في قلوبهم الريبة في إعادة خلقهم وبعثهم بعد موتهم، وبعد أن تصير عظامهم رميماً فلينظروا إلى بداية خلقهم أول مرة من العدم، وسيعلمون العلم اليقين أن الله سبحانه وتعالى قادر على إعادتهم وبعثهم بعد موتهم، وأن الله على كل شيء قدير.

﴿فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ﴾ وهو بداية خلقهم عندما خلق آدم وحواء من التراب.

﴿ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ﴾ ثم بعد أن خلق آدم وحواء الذي هو الخلق الأول، جعل الله خلقكم من النطفة التي يلقيها الرجل في الرحم، ثم إن هذه النطفة تتحول إلى قطعة دم متجمدة.

﴿ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ﴾ ثم إن هذه العلقة تتحول إلى قطعة لحم، وأن قطعة اللحم هذه يكون بعضها قد ظهرت فيها أثر الخلقة، وبعضها لم يكن قد ظهر عليها أي أثر ثم تتخلق من بعد.

﴿لِنُبَيِّنَ لَكُمْ﴾ أخبرنا الله سبحانه وتعالى أنه خلق الإنسان على هذا الترتيب وعلى هذه المراحل ليبين لهم قدرته البالغة وعظمته اللامتناهية.

﴿وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى﴾ وأنه يثبت بعض هذه الأشياء ويحفظها في الأرحام إلى أن يحين وقت ولادتها، بينما يسقط البعض الآخر قبل ذلك، وأن كل ذلك بمشيئته وإرادته.

﴿ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ﴾ وهذه هي بداية مراحل حياة الدنيا، فيلد طفلاً لا حول له ولا قوة فيحوطه بعنايته ورعايته إلىٰ أن يكبر ويصل أوان رشده، ويكتمل عقله وقوته، وكل ذلك تحت إرادته ورعايته.

﴿وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ﴾ وأن منهم من يموت قبل أن يستوفي عمره الطبيعي، وبعضهم يبلغ أوان الشيخوخة ونهاية العمر.

﴿لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا﴾ فيعمره الله سبحانه وتعالىٰ إلىٰ أن تنتهي مداركه وينتهي عقله وسمعه وبصره فلا يستطيع أن يميز.

﴿وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ۝٥﴾ وهذا مثال ثان ليصور لمنكر البعث بعد الموت إمكان ذلك، وهو أن ينظر إلىٰ الأرض حال يباسها وجفافها، وما أن ينزل عليها المطر فإذا بك تراها ترجع إلىٰ الحياة من جديد، وتكتسي بالخضرة والأشجار والثمار مرة أخرىٰ، فما دام قد قدر علىٰ إحياء الأرض الميتة فقطعاً سيقدر علىٰ أن يحيي الموتىٰ فلا فرق بينهما في قدرته تعالىٰ.

﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ﴾ بعد أن أثبت للكافرين قدرته علىٰ الإحياء بعد الموت أخبرهم بأنه هو الإله الحق الذي يستحق العبادة والتوجه إليه بالطاعة؛ لأنه وحده الإله الحق الذي هو جدير بأن يعبد دون تلك الأصنام التي يعبدونها من دونه، والتي لا تقدر علىٰ أي نفع أو ضرر.

﴿وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَى﴾ وأنه قادر علىٰ إحياء الموتىٰ، يشهد له بذلك ما أثبته من القدرة بالبراهين والأمثال الحسية التي ضربها للناس.

﴿وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝٦﴾ فما دام قد قدر علىٰ خلق الإنسان من التراب أولاً ثم من النطفة ثم من العلقة، وهكذا إلىٰ أن يصير إنساناً سوياً سميعاً وبصيراً فهو بلا شك قادر علىٰ أن يحييهم بعد موتهم.

﴿وَأَنَّ السَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ۝٧﴾ وأيضاً ففيما ذكر من الإحياء والبعث بعد الموت دلالة على وقوع الساعة والبعث والحساب.

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ۝٨﴾ وهم قريش كانوا يكثرون على النبي صلى الله عليه وآله وسلم من الجدال عن غير علم أو كتاب يستندون إليه أو حجة أو برهان وإنما يجادلون عن جهل وهوى، وكانوا يكذبونه فيما أخبرهم به، ويستهزؤون به، ويتحينون كل فرصة ليدخلوا عليه منها لإبطال دينه ودعوته، ولا زالوا كذلك إلى أن قهرهم الإسلام ودخل عليهم المسلمون فأكرهوهم على الإسلام تحت حر السيوف، وقد تبعهم على ذلك بقية كفار جزيرة العرب؛ لأن قريشا كانت قبلة العرب لما يتمتعون به من المكانة الرفيعة والشرف والعز والهيبة.

﴿ثَانِيَ عِطْفِهِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ ومع جدالهم ذلك يشمخون بآنافهم استكباراً على النبي صلى الله عليه وآله وسلم، واستعلاءً عليه، فكان النبي صلى الله عليه وآله وسلم إذا تكلم عندهم بكلمة حق فإنهم يلوون ظهورهم عنه من شدة الكبر والغرور.

﴿لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ قاصدين بذلك أن يوهموا الناس أن ما جاء به النبي صلى الله عليه وآله وسلم ليس إلا جهالة وضلالة وليس أهلاً لأن يستمعوا إلى كلامه.

﴿لَهُ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَنُذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَذَابَ الْحَرِيقِ۝٩﴾ هذا جزاء من يعمل هذه الأعمال من الجدال عن غير علم، والتكبر عن قبول الحق مع معرفتهم له بالحجج والبراهين الواضحة.

يتهدد الله سبحانه وتعالى في هذه الآية أحد كبار قريش وأظنه الوليد بن المغيرة.

﴿ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ﴾ وأن الله سبحانه وتعالى عند تعذيبه يوم القيامة يخبره أن ذلك بسبب ما جنته يداه في الدنيا من الصد عن سبيله والجدال بالباطل.

﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ۝١٠﴾ فإدخالهم جهنم ليس ظلماً منه جل وعلا لهم؛ لأنهم هم الذين جنوا على أنفسهم، وتسببوا في عذابها بكفرهم وتكذيبهم.

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ﴾ ثم أخبر الله سبحانه وتعالى عن حال ضعاف الإيمان، فشبههم بمن هو قائم على طرف شيء قد أوشك على التهاوي والسقوط.

﴿فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ﴾ لأن الإيمان لم يكن قد استحكم في قلبه وأدنى شيء سيجره إلى الكفر، وسيبيع دينه بأرخص الأثمان.

﴿خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ ﴿١١﴾﴾ وأن هذا حال ضعاف الإيمان فإذا حصلت له شدائد مع النبي صلى الله عليه وآله وسلم أو مع أحد الأئمة من الجهاد ونحوه فإنهم لا يصبرون على ذلك ويختلقون الأعذار والحيل للفرار والهرب.

﴿يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُ وَمَا لَا يَنْفَعُهُ﴾ يعني بهم أهل الشرك فهم يعبدون آلهة غير الله سبحانه وتعالى لا تضرهم ولا تستطيع أن تنفعهم بشيء.

﴿ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ ﴿١٢﴾﴾ فهم بفعلهم هذا في غاية البعد عن الحق؛ لأنهم بأفعالهم هذه يتركون ما تدعوهم إليه فطر عقولهم، ويركضون وراء شهواتهم وأهوائهم، وما داموا كذلك فلن يتوفقوا إلى الحق والهدى أبداً.

﴿يَدْعُو لَمَنْ ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِنْ نَفْعِهِ﴾ يذهب إلى عبادة هذه الآلهة مع أنه لا يحصل من وراء عبادتها إلا الأضرار، ولا يجني من ورائها أي فائدة أو مصلحة.

﴿لَبِئْسَ الْمَوْلَى وَلَبِئْسَ الْعَشِيرُ ﴿١٣﴾﴾ وهذا من خفة عقولهم وسخافتها عندما يعبدون من لا ينصرهم، ويتركون عبادة الذي بيده عزهم وشرفهم ورفعتهم في الدنيا والآخرة، والعشير هو الجليس؛ لأنهم كانوا يعكفون عندها ويجالسونها، وأي خير أو نفع يرجى من إنسان يتخذ عشيراً أو ناصراً لا ينفعه.

وهنا دلالة على قبح مجالسة رفقاء السوء أو مخالطتهم أو مصاحبتهم أو الركون إليهم في شيء.

﴿إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴿١٤﴾﴾ أما المؤمنون الذين آمنوا وصدقوا بالله سبحانه وتعالى، وعملوا مع ذلك الأعمال الصالحة فإن الله تعالى سيثيبهم جنات تجري من تحتها الأنهار.

﴿مَنْ كَانَ يَظُنُّ أَنْ لَنْ يَنْصُرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ لِيَقْطَعْ فَلْيَنْظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ مَا يَغِيظُ﴿١٥﴾﴾ كان اليأس قد تسرب إلى قلوب بعض ضعفة الإيمان من عدم نزول نصر الله سبحانه وتعالى لهم وطال عليهم البلاء، وطال انتظارهم لما وعدوا به من النصر والظفر، واشتد عليهم البلاء ومضايقة قريش لهم، وقد عانوا منهم عناءً شديداً مما أفقدهم صبرهم مع طول المدة حتى خالطهم اليأس من النصر الذي وعدهم رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ فقال الله تعالى: من انقطع أمله في نزول النصر من الله كرسوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ والمؤمنين، واعتقد أن الله لن ينصر رسوله والمؤمنين، ويئس من ذلك ولم يبق له رجاء في النصر والخروج من الشدائد والبلاء فليبحث عن مخرج ويطلب لنفسه باب فرج، ولن يجد لنفسه مخرجاً ولا باب فرج إلا قتل نفسه، فيأخذ حبلاً ويربطه في سقف بيته ثم يخنق نفسه، ولينظر هل ذلك سيزيل ما في قلبه من الضيق والمرض.

﴿وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ ءَايَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾ أوحى الله سبحانه وتعالى إلى نبيه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ بأنه أنزل القرآن عليه وفيه الآيات الواضحات الدالة على صدقه وصدق ما فيه، وأن حجته جلية ومكشوفة لمن سمع آياته، وأن من سمعه فإنه يحصل له اليقين القاطع بصدقه، وكان يؤمن به كل من سمعه ممن ليس للهوى مكان في قلبه، فيؤمن به من دون أي تردد أو شك في عدم مصداقيته؛ غير أن المشركين كانوا يصدون الناس عن الذهاب إلى النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ أو الاستماع إليه، وكانوا يترصدون لهم في الطرق ليحذروهم منه، وكان من دخل إلى مكة حاجاً أو معتمراً فإنهم يحذرونه من محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ ومن سحره، فلا يتركونه يدخل إلا وقد امتلأ قلبه

خوفاً من النبي ﷺ ومن ملاقاته أو مواجهته.

وهؤلاء الذين وقفوا في وجه دعوة النبي ﷺ هم كبار قريش، فكانوا يمنعون قبائلهم ونساءهم وأولادهم وعبيدهم وخدمهم، وكل من لهم يد عليهم من ملاقاة النبي ﷺ أو الاستماع إليه، وكان من لقيه منهم صدفة أو سمع منه القرآن فإنه يؤمن به لقوة حجته، ووضوح دلالاته وآياته التي تدخل إلى الصميم مباشرة، حتى كبار قريش قد آمنوا به، وعرفوا حجته وصدق دلالته غير أن الكبر والعناد والتمرد منعهم من اتباعه والعمل بأحكامه، ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ۝٣٣﴾ [الأنعام]، فحجتك واضحة يا محمد فلا تطلب من الله سبحانه وتعالى أن يأتيك بآية كما يطلبون منك، فقد عرفوا الحق، واستيقنته أنفسهم، غير أنهم جحدوه، واستكبروا عن اتباعه.

﴿وَأَنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يُرِيدُ۝١٦﴾ فلا تطمع يا محمد في إيمان أولئك المكذبين والمستهزئين فالله سبحانه وتعالى لا يهدي لدينه ولا يعطي ألطافه إلا لمن كان أهلاً للهدى، وقبل الحق وتواضع له واستجاب له فإن الله ينور قلبه ويزيده من الهدى.

﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ۝١٧﴾ فهو عالم بأعمال أهل كل ملة ومحص ما أسروه منها وما أضمروه، وما أعلنوه وما أخفوه، وهو حاضر عند كل عمل يعملونه صغيراً كان أو كبيراً، فأخبر أنه يوم القيامة سيحكم بين أهل الملل والأديان بالحق، فيدخل أهل الحق الجنة، وأهل الباطل النار.

والصابئون هم قوم كانوا أهل كتاب وقد أرسل الله سبحانه وتعالى لهم نبياً ولكنهم مالوا عن دينهم ونبيهم، واختلقوا لهم ديناً غير الدين الذي جاءهم به نبيهم.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَنْ يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ۝١٨﴾ يحث الله سبحانه

وتعالى نبيه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ وسائر المكلفين أن ينظر في آيات السموات والأرض وما فيهما، وأخبر أن من ينظر فيها فسيرى آثار استجابة تلك الأشياء جميعها لله تعالى، وانقيادها وخضوعها لربها، وأنها سائرة بإرادته لا تتخلف عن ذلك أو تتغير عما هي عليه، فالشمس والقمر كل واحد منهما في مسار واحد على مدى الدهور والأزمان ويسيران في منازل معلومة ومحدودة، لا تتغير أو تتبدل، والليل والنهار يتعاقبان كذلك منذ أن خلق الله السماوات والأرض فكلها منقادة لله تعالى وتحت إرادته وتصرفه، وكذلك الشجر والدواب فلا ترى شجرة تتمرد أو تماطل في إخراج ثمرها أو ورقها والدواب كذلك، وكذلك النجوم في منازلها وبروجها لا تتخلف عن إرادة الله تعالى، وكلها مسخرة في طاعته والانقياد له، وكذلك البحار والرياح والسحاب.

ومعنى السجود هنا هو: الانقياد والطاعة لله تعالى ولما أراد، وقوله: ﴿وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ﴾ [الحج:١٨]، دلالة على أن الإنسان قد خرج من بين تلك الأشياء كلها عما يريده الله منه فلم ينقد لله تعالى إلا البعض منهم، وأما الآخرون فقد تكبروا على الله تعالى، وتمردوا عليه على الرغم من أنه تعالى قد أكرمهم وفضلهم على سائر المخلوقات، وجعلها مسخرة في مصالحهم وحاجتهم، وقد هيأها لخدمتهم، وأنهم بتمردهم قد استحقوا غضب الله وسخطه والإهانة والذل والخزي، وسينتقم الله منهم ويعذبهم؛ لأنهم قد استحقوا عذابه وسخطه.

﴿هَذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ﴾ نزلت هذه الآية في أول معركة كانت للإسلام مع الشرك وهي غزوة بدر، عندما برز ثلاثة من المسلمين في بداية المعركة وهم حمزة وعلي وعبيدة بن الحارث لثلاثة من المشركين وهم عتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة والوليد بن عتبة، وهم من أشراف قريش وكبرائهم، وذلك أنه برز هؤلاء الثلاثة وصاحوا بالنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ أن يخرج لهم ثلاثة من

أكفائهم فدعا علياً وحمزة وعبيدة، فقتل حمزة الوليد، وعلياً قتل عتبة أو العكس، واختلفت ضربتا عبيدة وشيبة فقتل كل منهما صاحبه.

﴿فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِنْ نَارٍ يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ ۝١٩ يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ ۝٢٠ وَلَهُمْ مَقَامِعُ مِنْ حَدِيدٍ ۝٢١﴾ ثم أخبر الله سبحانه وتعالى عن مصير الثلاثة الذين قتلوا من جانب المشركين بأنه قد أعد لهم ثياباً من نار يلبسونها، ثم يصب من فوق رؤوسهم ماء الحميم حتى يذوب منه ما في بطونهم وأحشائهم، وجلودهم تتفسخ وتذوب، ومع ذلك يضربون بمقامع من حديد.

﴿كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ۝٢٢﴾ فهم يعذبون فيها دائماً وابداً، ولا أمل لهم في الخروج أو الهرب منها.

﴿إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ۝٢٣﴾ ثم أخبر الله سبحانه وتعالى عن مصير الذين خرجوا من جانب النبي صلى الله عليه وآله وسلم، فبشرهم بأنه سيثيبهم جزاءً على بذلهم لأنفسهم لنصر دين الله وإعلاء كلمة الله جنات تجري من تحتها الأنهار ينعمون فيها بأصناف النعيم.

﴿وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ﴾ وأنه قد هداهم ووفقهم إلى القول الحق من شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله، وتصديقهم بالقرآن وبالبعث واليوم الآخر.

﴿وَهُدُوا إِلَى صِرَاطِ الْحَمِيدِ ۝٢٤﴾ وهداهم الله إلى الدين الحق والطريق المستقيم.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ ثم رجع إلى ذكر المشركين الذين يصدون عن دعوة النبي صلى الله عليه وآله وسلم وعن الإيمان به.

﴿وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ﴾ وكذلك يصدون الناس عن الحج والعمرة إلى بيته الحرام وكأنه حق لهم وحدهم يمنعون عنه من شاءوا.

وقد يكون المراد به الحرم المحرم فقد جعله الله سبحانه وتعالىٰ وقفاً لجميع الناس، لا يحق لأحد أن يتملك من أرضه شيئاً، فكيف يكون حال من صد عن ما قد وقفه الله سبحانه وتعالىٰ وأراده لجميع الناس؟ وكيف سيكون جزاؤه عند الله سبحانه وتعالىٰ؟

﴿سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ﴾ فالناس جميعاً سواء فيه، أهله وساكنوه والذين هم خارجه، لا فضل لأحد علىٰ أحد، وقد أمر علي بن أبي طالب كرم الله وجهه في الجنة عامله علىٰ مكة أن يفتح أهل مكة في أيام الحج أبواب بيوتهم ويتوسعوا للوافدين إليهم؛ لأنه ليس لهم فيها إلا حق السكنىٰ فقط بقية العام، فلا يحل لأحد أن يمنع أحداً منها، أو يتحجر فيها شيئاً.

﴿وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ۝٢٥﴾ فقد جعله الله سبحانه وتعالىٰ حرماً آمناً وتهدد من ظلم أو تعدىٰ فيه أو تجبر إما بالمنع عنه، أو بإخافة أحد فيه، أو أذية أحد، أو بأي وجه من أوجه الظلم.

﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَنْ لَا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا﴾ إن الله سبحانه وتعالىٰ هو الذي دل إبراهيم علىٰ مكان البيت، وأمره أن يطوف عليه، وذلك أنه أمره أن يهاجر إليه من بلاد الشام فدخل مكة ولم يكن أحد قد سكن فيها، وعندما أخبره بمكان البيت أمره أن يعبد الله سبحانه وتعالىٰ وحده حوله، وأن يحج إليه ويطوف به.

﴿وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ۝٢٦﴾ وأمره بأن ينزه بيته هذا من الأقذار والنجاسات، ومن الشرك والضلال والباطل، ومن كل ما يمنع من الصلاة فيه.

﴿وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ﴾ ثم أمره أن يعلن في الناس وينادي في كل القبائل بأداء فريضة الحج.

﴿يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾ وأخبره أنهم سيقبلون إليه عند مناداتهم، وسيستجيبون لندائه من كل بلاد.

﴿لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ﴾ شرع الله سبحانه وتعالى فريضة الحج لأجل ما يحصل للناس فيه من المنافع؛ لأنهم إذا أقبلوا إليه فسيجلبون لأنفسهم منافع الدين والدنيا، ففي الدين بأن يرتبطوا بإبراهيم وبدينه فيعلمهم شرائع دينهم وأحكامه، وما يكون من التعارف والتآلف بينهم عندما يجتمعون عنده في ذلك المكان.

وأما منافع الدنيا فما سيكون في اجتماعهم من تبادل التجارات والسلع والبضائع التي يجلبها أهل كل بلاد، وما يكون من البيع والشراء والأرباح.

﴿وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ﴾ وأيضاً فقد شرع الله سبحانه وتعالى فريضة الحج لأجل أن يذكروا الله تعالى في هذه الأيام، والأيام المعلومات هي أيام منى التي هي يوم العيد وثانيه وثالثه ورابعه، وليثنوا عليه ويرفعوا ذكره.

﴿عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ﴾ ويشكروا الله سبحانه وتعالى على ما أحل لهم من الأنعام ومن الطيبات.

﴿فَكُلُوا مِنْهَا﴾ أباح الله سبحانه وتعالى للحجاج أن يأكلوا من الهدايا التي يهدونها إلى البيت، والتي ينحرونها لله تعالى.

﴿وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ﴾ وأمرهم أيضاً بأن يتصدقوا من هداياهم على الفقراء.

﴿ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾ أراد به الحلق والتقصير ونتف الإبط، والتفث المراد به الأوساخ، أمرهم الله سبحانه وتعالى بإزالتها، وذلك يوم العيد بعد الفراغ من الرجم، ثم النحر بعد الحلق والتقصير، ثم بعد ذلك طواف الزيارة، وأظن أن الواو في قوله: ﴿وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ﴾ [الحج:٢٩] ليست للترتيب، وأن الذبح وقته قبل الحلق أو التقصير، ويدل على ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّى يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحِلَّهُ﴾ [البقرة:١٩٦].

﴿ذَلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ﴾ وهي شعائر الله التي أمر بتعظيمها من البيت الحرام والطواف به، ومراعاة حرمة الحرم المحرم، وتعظيم أيام منى بذكر الله سبحانه وتعالى فيها والثناء عليه، وكذلك يوم عرفة، فمن عظمها فإن الله تعالى سيجزل له الثواب والعطاء في الدنيا والآخرة.

﴿عِنْدَ رَبِّهِ وَأُحِلَّتْ لَكُمُ الْأَنْعَامُ﴾ وهي الثمانية الأصناف التي أحلها الله سبحانه وتعالى، «من البقر اثنين»، و«من الغنم اثنين»، و«من المعز اثنين»، و«من الإبل اثنين».

﴿إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ﴾ مما حرمه الله سبحانه وتعالى في القرآن كالميتة والدم ولحم الخنزير والنطيحة وما أكل السبع وما أهل لغير الله به.

﴿فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ﴾ اجتنبوا الأوثان فليست إلا رجساً ونجاسة فلا تذبحوا لها أو تعبدوها، أو تتقربوا لها بالذبائح وغيرها.

﴿وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ ۝٣٠﴾ اجتنبوا الكلام الباطل، وذلك كقولهم: إن الصنم إله، وإن الميتة حلال ونحو ذلك؛ لأن المشركين كانوا يحللون لحم الميتة، وأما ما ذبحه الإنسان فهو حرام عندهم، كذباً وافتراءً على الله سبحانه وتعالى.

﴿حُنَفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ﴾ أي مائلين إلى الله سبحانه وتعالى وإلى عبادته تاركين لعبادة ما سواه.

﴿وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ ۝٣١﴾ من يتخذ إلهاً غير الله سبحانه وتعالى فمثله كمثل الذي يسقط من السماء فتتلقاه الطير في الهواء وتنهش لحمه، أو كمثل الذي قذفت به الرياح في أحد الشعوب أو الأودية؛ أراد الله سبحانه وتعالى أن من عبد غير الله فهو في ضياع وهلاك، ولن يجني من عبادة الأصنام إلا الخسارة والندم.

﴿ذَلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ ۝٣٢﴾ من يعظم معالم دينه التي هي معالم الحج كالوقوف بعرفة، والمفترض أن يكون المرء في حال

تأدية أي منسك من مناسك الحج ومن أعظمها الوقوف بعرفة فيقف بها وهو في غاية الخضوع والتذلل والانقياد لله ولما أمره به، ثم الدفع منها على هذه الصفة بعد الغروب قصداً لثواب الله سبحانه وتعالى وابتغاء مرضاته، فإن ذلك علامة التقوى والإيمان، وكذلك الهدايا فهي من شعائر الله كالإبل المهداة إلى البيت، وهي التي قد جعل فيها علامة للفقراء بأنها مهداة لهم، وسميت شعائر لأنه وضع عليها شعار بالسكين كعلامة لهم، فيفرحون بها إذا رأوها وهكذا سائر مناسك الحج.

وشعائر الله كلمة عامة، والمراد بها: معالم دينه، ومنها الذي ذكرناه من الإبل المعلمة.

﴿لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى﴾ هذه الهدايا إلى البيت الحرام أخبر الله سبحانه وتعالى عنها بأن لنا أن نستنفع بها من الشد والتحميل فوقها والحلب والصوف وغير ذلك، وقد أباح لنا ذلك إلى أن يوضع عليها الشعار والعلامة بأنها لله تعالى وهدية إلى البيت، وبعد ذلك لا يحل فيها أي شيء من الاستنفاع؛ تعظيماً لما عظمه الله، وإشعارها يكون في الميقات عند الإحرام.

﴿ثُمَّ مَحِلُّهَا إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ۝٣٣﴾ ثم بعد إشعارها تساق معظَّمة إلى البيت الحرام فلا تُرْكب ولا تُحْلب، ولا يُسْتنفع بها أي منفعة، ومحل نحرها في منى أيام النحر ليأكل منها الناس.

﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا لِيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا﴾ أخبر الله سبحانه وتعالى أنه قد جعل لكل أمة من الأمم كاليهود والنصارى وغيرهم متعبداً يتقربون إلى الله تعالى به ويذبحون نسائكهم له فيه، وأن حالهم كحالنا عندما جعل لنا البيت الحرام متعبداً نتقرب إليه فيه بالقرب المقربة إليه من الذبح وكل ما يقربنا إليه، وأخبر أيضاً أن جميع أهل الملل المختلفة إلههم واحد فيجب عليهم أن يستسلموا وينقادوا له.

﴿وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ﴿٣٤﴾﴾ ثم أمر الله سبحانه وتعالى نبيه ﷺ أن يبشر المخبتين بالثواب والنعيم الدائم، ثم عرف المخبتين مَنْ هُمْ؟ فقال:

﴿الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ فإذا ذكرهم أحد بالله خافوا منه وتركوا معصيته، أو ذكرهم أحد بالله وهم في غفلة ونسيان عن طاعة خافوا ورجعوا إليه بالعمل.

﴿وَالصَّابِرِينَ عَلَى مَا أَصَابَهُمْ﴾ وكذلك إذا أصابتهم مصيبة من بلاء أو مرض أو شدة صبروا على بلواهم تلك، وحمدوا الله تعالى على ما ابتلاهم به، ورضوا عن الله ولم يسخطوا ما قضاه الله.

﴿وَالْمُقِيمِي الصَّلَاةِ﴾ وهم المحافظون على إقامة الصلوات الدائمون على تأديتها بشروطها وفروضها.

﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴿٣٥﴾﴾ يخرجون زكاة أموالهم إلى الفقراء، فهذه هي حقيقة المخبتين الذين أمر الله سبحانه وتعالى نبيه ﷺ بتبشيرهم.

﴿وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُمْ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ﴾ وهي الإبل جعلها الله سبحانه وتعالى من الشعائر التي تجعلونها هدايا للبيت، والتي ينبغي أن تعظموا الله سبحانه وتعالى بها وتتقربوا بها إليه.

﴿لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ﴾ وأن لكم فيها منافع قبل أن تجعلوها من شعائر الله وبعد أن تجعلوها شعائر.

﴿فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافَّ﴾ عند تقديمها للنحر فاذكروا اسم الله عند نحرها.

﴿فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ﴾ إذا سقطت وماتت فقد أباح الله سبحانه وتعالى لكم أن تأكلوا من لحمها، وتطعموا منها من سأل من الفقراء، ومن لم يسأل منهم.

﴿كَذَٰلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴿٣٦﴾﴾ فقد سخرها الله سبحانه وتعالىٰ لنا علىٰ كبرها وعظم أجسامها نعمة منه علينا ينبغي أن نشكره عليها.

﴿لَنْ يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَٰكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَىٰ مِنْكُمْ﴾ فهذه الدماء واللحوم التي تتقربون بها إلىٰ الله سبحانه وتعالىٰ لا يصل إليه منها شيء، وإنما يصل إليه ثواب قربتكم وطاعتكم وامتثالكم لما أمركم به، وعملكم بأحكام دينه، فهو غني عن لحومها، وغير محتاج إليها، ومنافعها لكم.

﴿كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ﴾ قد سخرها الله وذللها لكم لتتقربوا بقرابينكم إليه، ولتشكروه علىٰ هدايته إياكم إلىٰ الحق وإلىٰ دينه القويم وصراطه المستقيم، واستنقاذكم من ظلمات الجهل والضلال وعبادة الأصنام والتقرب إليها.

﴿وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ﴿٣٧﴾﴾ وهم الذين يعملون الأعمال الصالحة ويجتنبون معصية الله.

﴿إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ﴿٣٨﴾﴾ فهو الذي يدفع عنهم أذىٰ المشركين ومكايدهم وحيلهم، وأما الذين عصوا ربهم واتبعوا أهواءهم وشهواتهم، ولم يوفوا بعهودهم التي أخذها الله سبحانه وتعالىٰ عليهم، وكفروا بنعمه عليهم- فهو بريئ منهم، وقد وكلهم إلىٰ أنفسهم.

﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴿٣٩﴾﴾ أمر الله سبحانه وتعالىٰ المؤمنين في أول الإسلام أن يكفوا أيديهم عن قتال المشركين، وأن يتحملوا أذاهم، وأن يصبروا عليهم، ويقابلوا السيئة بالحسنة، أمرهم بذلك إلىٰ حين يأذن لهم؛ لأنهم كانوا في قلة وضعف شديد، فإذا قاتلوهم في هذه الحال فإنهم سيستأصلونهم وسيقضون بذلك علىٰ الإسلام، فلما هاجر النبي ﷺ إلىٰ المدينة كثر المسلمون وكثر عددهم، وصار لهم كيان ودولة، وأصبحوا في عز وقوة فعندها أذن الله سبحانه وتعالىٰ لهم بالقتال، ودفع أذىٰ المشركين وظلمهم، ووعدهم بالنصر والظفر عليهم.

﴿الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ﴾ هؤلاء هم النبي ﷺ والذين هاجروا معه من مكة هرباً من قتل المشركين لهم وتعذيبهم، ولم يكن ذنبهم إلا أنهم آمنوا بالله سبحانه وتعالىٰ وصدقوا نبيه ﷺ واتبعوه ورفعوا كلمة الله، ورفضوا عبادة الأصنام، فهؤلاء هم الذين وعدهم الله سبحانه وتعالىٰ بالنصر وأذن لهم في القتال.

هذا، ولم يشرع الله سبحانه وتعالىٰ الجهاد إلا لإزالة العقبات التي تقف في وجه الدعوة إلىٰ الله سبحانه وتعالىٰ، وتعليم الناس معالم دينهم، وأما ما دامت الطريق مفتوحة أمام نشرها فلا يجوز أن نفتح باب الجهاد، نحو أن يكون لنا نظام سياسي أو لنتدخل في السياسة، ولا يريد منا ذلك ولا يسوغ الجهاد في الإسلام إلا لإظهار حجج الله علىٰ خلقه وتبليغهم معالم دينهم.

والجهاد ليس إلا آلة ووسيلة لنشر الدعوة، وما دام إرشاد الناس وتعليمهم ممكناً بغير القتل والقتال فلا يجوز؛ لأن الله سبحانه وتعالىٰ لا يحب القتل والفساد في الأرض حتىٰ قتل المشركين فهو لا يريده، إلا بعد الإعذار والإنذار، وبعد وقوفهم في طريق الحق وصدهم عن سبيل الله.

هذا، وقد ذم الله سبحانه وتعالىٰ بني إسرائيل عندما كتموا العلم ولم يبلغوه الناس قال تعالىٰ: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ ﴿١٨٧﴾﴾ [آل عمران].

﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا﴾ أخبر الله سبحانه وتعالىٰ أنه لولا أنه سبحانه وتعالىٰ يدفع شر الناس، ويسلط الأشرار بعضهم علىٰ بعض لحصل فساد كبير في الأرض، ولتهدمت دور العبادة، ولما قامت للدين قائمة علىٰ وجه الأرض.

﴿وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾﴾ وعد من الله سبحانه وتعالىٰ بأن من انتصر لدينه ودافع عنه فإنه سينصره ويدافع عنه.

﴿الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَءَاتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ فهؤلاء هم الذين وعدهم الله سبحانه وتعالىٰ بالنصر.

﴿وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ ﴿٤١﴾﴾ العاقبة الحسنة ستكون لأوليائه، ولو كان يحصل لهم في أول الأمر إحباط وشدة وخوف وهزيمة، وهذا هو ما حصل لمحمد ﷺ وأصحابه في آخر الأمر فقد أعزهم الله سبحانه وتعالىٰ بعد الذلة ومكنهم علىٰ ألد أعدائهم من قريش حتىٰ دخلوا عليهم في عقر دورهم، وقهروهم حتىٰ دخلوا في الإسلام مكرهين خوفاً من حد السيوف.

﴿وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ﴾ يا محمد ولم يستجيبوا لك، ورفضوا دعوتك ﴿فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ ﴿٤٢﴾ وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ ﴿٤٣﴾ وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ وَكُذِّبَ مُوسَىٰ﴾ فلست أول رسول كذبه قومه، فقد لاقىٰ الأنبياء من قبلك مثل ما تلقاه من قومك من التكذيب والاستهزاء، فحالك كحالهم.

﴿فَأَمْلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ﴾ وكل الكافرين والمكذبين بأنبيائهم فإن الله سبحانه وتعالىٰ يمهلهم ويمد لهم في أعمارهم ويزيدهم من نعمه، ويمتعهم بالصحة في حياتهم، ولا يأخذهم بعذابه ساعة تكذيبهم برسلهم؛ لعلهم ينتبهون من غفلتهم يوماً، وأيضاً إتماماً للحجة عليهم يوم القيامة فلا يكون لهم أي عذر عند الله سبحانه وتعالىٰ.

﴿ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٤﴾﴾ يعظم الله تعالىٰ ويهوِّل أخذه وعذابه الذي أنزله بقوم نوح وعاد وثمود وقوم إبراهيم وقوم لوط، وانظر إلىٰ عذابه الذي أنزله علىٰ قوم نوح عليه السلام عندما أغرقهم بالطوفان الذي دمرهم واستأصلهم ودمر مساكنهم ومزارعهم، وعطل الحياة كلها علىٰ وجه الأرض بما فيها من الحيوانات والطير والوحوش، ولم ينج إلا من كان في السفينة مع نوح، وعلىٰ هذا المنوال ما أنزله الله سبحانه وتعالىٰ علىٰ بقية الأمم من العذاب.

﴿فَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَشِيدٍ﴿٤٥﴾﴾ أي كثير من القرى أهلكها الله سبحانه وتعالى ودمرها بسبب ظلم أهلها من الكفر والتكذيب، وخرب دورها ومساكنها، وكم من بئر أصبحت خالية من أهلها بعد أن كانوا يزدحمون حولها ويستقون من مائها هم ومواشيهم ودوابهم، وتلك القصور الناظرة والفاخرة التي كانت عامرة بأهلها فذهبوا وتركوها خالية، وكأن أحداً لم يسكنها، فقد أبادهم الله سبحانه وتعالى بسبب تكذيبهم.

﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ﴾ يستنكر الله سبحانه وتعالى على المشركين، ويعجبنا من حالهم كيف يرون ما قد حل بأولئك القوم المكذبين بسبب تكذيبهم بأنبيائهم، ولم يتعظوا ولم يتركوا التكذيب والكفر وقد كانوا يمرون على تلك القرى في طريق أسفارهم وتنقلاتهم، ويشاهدون مساكنهم وقراهم وما حل عليها، وكيف أبادها الله سبحانه وتعالى ودمرها واستأصلها، فلماذا لا يعتبرون بها وبما حل على أهلها؛ وأنه كان من المفترض بهم عندما يرون ذلك أن يحذروا من أن يقعوا في مثل ما حل بتلك الأمم، شأن كل عاقل إذا رأى مثل ذلك.

﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴿٤٦﴾﴾ فقد رأوا القصور المشيدة والآبار المعطلة، ورأوا ما حل بأهلها غير أن قلوبهم عميت عن الحق فلم تبصر الهدى ولم تعتبر.

﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ﴾ أخبر الله سبحانه وتعالى نبيه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ أن قريشاً يطلبون منه أن يعجل بإنزال ما يتوعدهم به من عذاب الله سبحانه وتعالى وسخطه، وما يهددهم به من أنه سيحل بهم مثل ما حل بتلك الأمم المكذبة.

﴿وَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ﴾ فأخبره الله تعالى بأنه سيعذبهم لا محالة، غير أن لذلك أجلاً لا بد أن يحين وقته.

﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ۝٤٧﴾ يريد بذلك أن الله سبحانه وتعالى لا يعجل كما هو شأن بني آدم، وأن الزمن قصير عنده، فما دام العباد في قبضته وتحت قدرته، وهو متمكن منهم متى شاء فلا داعي لأن يستعجل عليهم.

﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا﴾ فكم من القرى أمهل الله سبحانه وتعالى أهلها، ولم يعجل بنزول العذاب عليهم، بل تركهم يجيئون ويذهبون، ومتعهم بالصحة والعافية، وقلبهم بين نعمه، ولكنه في الأخير يعذبهم جزاءً على ظلمهم وكفرهم وتكذيبهم؛ فلا تستبعد قريش عندما ترى ما هي عليه من الجاه والسلطان والقوة والعزة أن يأخذهم الله بعذابه، فشأنهم كشأن تلك الأمم سواء.

﴿وَإِلَيَّ الْمَصِيرُ۝٤٨﴾ حتى ولو لم يأخذهم الله سبحانه وتعالى في الدنيا فمرجعهم إليه يوم القيامة وسيحاسبهم ثم يعذبهم في نار جهنم، وكفى بها جزاءً.

﴿قُلْ يَاأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ۝٤٩﴾ أخبرهم يا محمد أن الله سبحانه وتعالى لم يرسلك إلا لتنذرهم بالآيات الواضحات، والحجج القاطعة، والمعجزات الدالة على صدق ما جئت به، وأخبرهم أن تعذيبهم ليس بيدك، وأنك لن تستطيع أن تدخلهم في الإيمان، أو أن تحاسبهم؛ فأمر ذلك إلى الله سبحانه وتعالى، فلا تهتم بما يطلبونه منك يا محمد.

﴿فَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ۝٥٠﴾ وأخبرهم بأن من آمن وعمل الأعمال الصالحة فسيغفر الله سبحانه وتعالى لهم ذنوبهم، وسيجازيهم في دار النعيم في الجنة.

﴿وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي ءَايَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ۝٥١﴾ وأما من سعوا في إبطال ما جئت به، وجهدوا جهدهم في طمس آيات الله سبحانه وتعالى وتكذيبها وردها، ويظنون مع ذلك أنهم سيعجزون الله تعالى، ويتغلبون عليه؛ فهؤلاء هم أصحاب النار خالدين فيها أبداً.

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ ءَايَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴿٥٢﴾﴾ ثم أخبر الله سبحانه وتعالىٰ نبيه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ بأنه إذا أرسل نبياً إلىٰ أمة ثم تلا عليهم آيات الله فإن الشيطان يدخل بوساوسه في قلوبهم محاولاً إدخال الريب والشك عليهم، ويدخل بوساوسه مع هذه الآيات ليلبس عليهم في صحتها وصدقها، حتىٰ ولو كان ذلك مؤمناً فإن إبليس لا بد أن يوسوس إليه، ويدخل الشك في قلبه، ولكن الله سبحانه وتعالىٰ ينسخ ما يلقي الشيطان في قلوب المؤمنين من الوساوس والشبهات بالأدلة التي تدفع ذلك، ويثبت آياته ويحكمها في قلوبهم فلا يبقىٰ للشيطان محل فيها.

﴿لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴿٥٣﴾﴾ والسبب في التخلية من الله تعالىٰ بين إبليس وبني آدم هو ما أراده من التكليف، وكذلك لأجل الفتنة والاختبار لضعاف الإيمان، فيتميز صادق الإيمان من الذي ليس كذلك، إذ سرعان ما ينكشف أمر هؤلاء الذين خلطوا إيمانهم بالأعمال السيئة والمعاصي فتكون وسوسة الشيطان في قلوب المنافقين وضعاف الإيمان سبباً لابتعادهم عن الإيمان، ودخولهم في عبادة الشيطان.

﴿وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ﴾ أما المؤمنون الصادقون في إيمانهم فلا يقعون في تلك الفتن والوساوس التي يلقيها الشيطان، وإذا وقعت فتنة فإنهم ينظرون فيها، ويتأملون حتىٰ يحصل لهم العلم بأن ذلك من مكائد إبليس وفتنه، وأيضاً قلوبهم خاضعة للحق ومتقبلة ومنقادة، وعندهم معرفة تامة بآيات الله ودلائل جلاله وعظمته فلا يلتفتون إلىٰ وساوس الشيطان ومكائده، ولا تزيغ قلوبهم عن الإيمان بما جاء به النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ من القرآن وشرائع الإسلام.

﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ٥٤﴾ فهو يثبت المؤمنين وينور قلوبهم للحق والهدى، ويزيدهم من الهدى فلا يتمكن إبليس ووساوسه من قلوبهم؛ أما الذين في قلوبهم مرض فقد اطمأنوا إلى وساوسه وركنوا إليها، وقد حلت في قلوبهم وتمكنت منها.

﴿وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ﴾ فهم في شك وريبة دائمة من القرآن الذي تتلوه عليهم يا محمد، ولن ينفكوا منها.

﴿حَتَّى تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ ٥٥﴾ فاحسم طمعك من إيمانهم فقد استولى عليهم الشيطان، ولن يؤمنوا بك أبداً.

وهؤلاء هم أهل مكة، حتى يوم الفتح عندما آمنوا فلم يكن إيمانهم إيماناً صادقاً، وإنما كان خوفاً على أنفسهم من القتل.

﴿الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ﴾ يعني يوم القيامة فالله سبحانه وتعالى هو وحده الذي سيحكم بين هؤلاء الذين في قلوبهم مرض والقاسية قلوبهم وبين المؤمنين؛ لأن كلاً منهم في الدنيا يدعي أنه الذي على الحق، وأن غيره في ضلال.

ثم فصل حكمه بينهم بقوله: ﴿فَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ٥٦ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ ٥٧﴾ فهذا هو حكم الله سبحانه وتعالى بينهم يوم القيامة فيدخل أهل الحق الجنة وأهل الباطل النار.

﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ مَاتُوا لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ٥٨﴾ وعد الله تعالى المهاجرين الذين لا غرض لهم في الهجرة من مكة إلى المدينة إلا طاعة الله تعالى وطاعة رسوله ﷺ وإعلاء كلمة الله وإعزاز دينه بالوعد الحسن في الدنيا والآخرة.

يخاطب الله سبحانه وتعالى بالقرآن أولئك الموجودين في عصر النبي ﷺ من المشركين والمؤمنين واليهود والنصارى وغيرهم، ويلحق بهم كل من بلغه القرآن إلى يوم القيامة قال تعالى: ﴿لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ﴾ [الأنعام:١٩]، فكل خطاب وكل تكليف أو أمر أو نهي موجه للأولين فهو موجه للآخرين أيضاً.

وقوله ﷺ: ((لا هجرة بعد الفتح)) المراد به من مكة إلى المدينة، فقد أصبحت مكة دار إسلام، وأما الهجرة فهي واجبة من دار الكفر إلى دار الإيمان ما دام متمكناً منها.

﴿لَيُدْخِلَنَّهُمْ مُدْخَلًا يَرْضَوْنَهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ۝٥٩﴾ أقسم الله سبحانه وتعالى أنه سوف يثيبهم في الدنيا بأن يعوضهم بدل ديارهم التي تركوها لأجله ولأجل دينه دياراً خيراً منها، وسيسبغ عليهم نعمه، ويرزقهم الأمن والأمان، وكذلك في الآخرة يثيبهم بالنعيم الدائم في جنات النعيم.

﴿ذَلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنْصُرَنَّهُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ۝٦٠﴾ فمن اقتص من غريمه بمثل ما ألحقه به من جراحة أو غيرها، ثم أراد الغريم أن ينتقم بسبب اقتصاصه منه فإن الله سبحانه وتعالى سينصره عليه ويمنعه منه، وعد منه تعالى بانتصاره للمظلوم كيفما كان، ولكن لا بد في ذلك من اليقين، والتحقق من جناية الجاني إما بالرؤية أو التواتر أو بشهادة الشهود، فلا يجوز له أن يأخذ على الظن والتهمة.

﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ۝٦١﴾ ثم انتقل الله سبحانه وتعالى إلى تبيين قدرته، فذكر ما يبينها بما نراه ونشاهده من الآثار الدالة على ذلك من إدخال الليل في النهار، وكذلك العكس، فتارة يكون النهار أطول من الليل، ثم إنه يتناقص بعد ذلك وتدخل بعض ساعاته في الليل، وهذه من الآيات المشاهدة عياناً فلا تحتاج إلى كثرة التدبر والتأمل لمعرفة ذلك.

والسميع هو الذي يعلم جميع المسموعات فلا يخفى عليه شيء منها أو يغيب عن علمه شيء منها، والبصير هو الذي لا يخفى عليه شيء من المبصرات أو يغيب عن علمه شيء منها.

﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ﴾ فعندما نرى آثار قدرته سنعرف أنه الإله الحق الذي يستحق العبودية وحده.

﴿وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ﴾ وأن تلك الآلهة التي يعبدونها من دونه لا حظ لها ولا نصيب في شيء من صفات الإلهية فلا قدرة ولا علم ولا حياة ولا سمع ولا بصر فعبادتها باطلة وعبادها مبطلون.

﴿وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ۝﴾ وأنه وحده الإله الذي تعالى عن مشابهة المخلوقين، فلا قدرة أو عظمة أو سلطان فوق قدرته وقوته وعظمته وسلطانه وليس له مماثل ولا مشابه.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ ألم تنظر وتشاهد أيها المخاطب أو أيها النبي آثار قدرة الله تعالى من إنزال المطر من السحاب الذي يتكون ويجتمع أمام عينيك بعد أن لم يكن، فلا بد أن يكون هناك من أوجده وهيأه على هذه الصفة، ولا بد أن يكون قادراً وعالماً وحكيماً وإلا لما استطاع أن يوجده على ذلك القدر الذي لا يزيد ولا ينقص عما يحتاجه الخلق، إذ لو زاد لفسدت الحياة وغرقت الأرض بما فيها، وكذلك لو نقص.

﴿فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً﴾ وأنه ينبت به أنواع الثمار والفواكه والحبوب وجميع ما يحتاجه الخلق بعد أن كانت يباساً لا أثر لشيء من ذلك عليها، فهذه آية محسوسة ومشاهدة تدل على أن هناك مدبراً دبرها، وموجداً أوجدها، ولا بد أن يكون قادراً حكيماً إذ أوجدها على هذه الصفة من الدقة والإحكام.

﴿إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ۝﴾ فهو لطيف بعلمه، ومعناه أنه يداخل بعلمه كل شيء ويخترق بواطن الأشياء، فهو يعلم بما في تخوم الأرض وطبقاتها، ويخترق الصخرة الصماء، ويخترق ظلمات الليل وظلمات البحار، وعالم بما خفي ودق من أسرار مخلوقاته وتراكيبها، صغيرها وكبيرها، فعلمه يتغلغل في داخل الأشياء التي لا يستطيع شيء أن ينفذها أو يدخل فيها ويعلم بما في داخلها، والأستار والحجب مكشوفة أمامه.

والخبير أيضاً هو العالم بكل شيء ومحيط بتفاصيل كل شيء فلا يشغله علمه بشيء عن علمه بالشيء الآخر فعلمه بالأشياء على سواء، وكلها تحت قدرته وقبضته، ولا يشغله شيء عن شيء.

﴿لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ فهو المالك لما فيهما والمدبر لجميع ما فيهما، والمتصرف في كل ذلك.

﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ۝٦٤﴾ فهو غني عن كل شيء غير محتاج إلى شيء من خلقه، إذا فهذا الذي هذه صفاته هو الذي ينبغي أن نتوجه بعبادتنا إليه، وهو وحده الذي يستحق الخضوع والانقياد والاستسلام، وهو الذي ينبغي أن نعترف له بذلك وبأنه المنعم والمتفضل علينا بكل شيء، لا أن نتوجه بعبادتنا إلى غيره ممن لا يستحق أي شيء من صفات الإلهية.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ﴾ يبين الله تعالى لنا آثار قدرته وعظمته وجلاله لأجل أن نتوجه بعبادتنا إليه ولا نتخذ إلهاً سواه، فأخبر أن كل ما في الأرض قد سخره لنا من الحيوانات والنبات والبحار، وأن كلها تصب في مصالحنا، وهي تحت سيطرتنا، نتصرف فيها كيفما نشاء.

﴿وَالْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ﴾ وأيضاً سخر لنا السفن التي تحملنا وتسير بنا في البحار بأمره وتدبيره وقدرته.

﴿وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ وكذلك هو الذي أمسك السماء أن تسقط على الأرض، وأمسك النجوم بقدرته عن الوقوع على الأرض.

﴿إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ۝٦٥﴾ فهو يرأف بعباده فلا يؤاخذهم بسبب عصيانهم له ولا يمنع عنهم خيره، بل لا يزال ينعم عليهم وينزل عليهم بركات السماء ويخرج لهم خيرات الأرض، وسخر لهم كل ما في الأرض مع عصيانهم وتمردهم عن طاعته.

﴿وَهُوَ الَّذِي أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ فهو الذي أحياكم من العدم وهو الذي سيميتكم، ثم بعد ذلك يبعثكم بعد موتكم، فتوجهوا إليه بالعبادة، واحذروا من الغفلة عنه وعن طاعته.

﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ ﴿٦٦﴾﴾ بعد أن عدد الله نعمه العظيمة على الإنسان أخبر أن الإنسان بطبيعته شديد الكفران بنعمة ربه لا يعترف لله بنعمة ولا يقر له بمنة.

﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ فَلَا يُنَازِعُنَّكَ فِي الْأَمْرِ وَادْعُ إِلَى رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلَى هُدًى مُسْتَقِيمٍ ﴿٦٧﴾﴾ ثم أخبر الله سبحانه وتعالى أنه جعل لكل أمة متعبداً يتعبدهم به، وشريعة يعبدونه بها، فلا تأبه يا محمد لليهود أو النصارى إن أتوك قائلين بأنك لست على الحق، وأنه ينبغي لك أن تعود إلى ملتهم، فاعلم أنك مبعوث إلى أمتك بشريعة جديدة يتعبدون لله سبحانه وتعالى بها كما هو شأن كل رسول بعثه الله سبحانه وتعالى إلى أمة بشريعة جديدة.

ثم أمره الله تعالى بعد ذلك أن يستمر على دعوة الناس إلى الدين الذي جاءهم به والذي هو الدين الحق والطريق المستقيم.

﴿وَإِنْ جَادَلُوكَ فَقُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٦٨﴾﴾ إذا أتوك ليجادلوك عن دينهم فأخبرهم بأن الله سبحانه وتعالى مطلع على أعمالهم من تحريف كتبهم، وكتمانهم لما أنزله الله سبحانه وتعالى في كتبهم من أمر النبي ﷺ وأوصافه وما أشبه ذلك.

﴿اللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٦٩﴾﴾ وأخبرهم أن الله تعالى سيحكم بين جميع أهل الملل والأديان المختلفة فيجازي كلاً منهم بما يستحق؛ لأن كل فرقة منهم كانت تدعي بأنها التي على الحق وحدها وأن غيرها في ضلال.

﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٧٠﴾﴾ ألم تعلم يا محمد؟ أو ألم تعلم أيها الإنسان أن الله أحاط علماً بكل ما في السماوات وما في الأرض لا يخفى عليه مثقال ذرة ولا حركة متحرك ولا سكونه؟ عبر الله سبحانه وتعالى بالكتب ليصور ويمثل لخلقه بما يفهمونه

ويتخيلونه ويتعاملون به فيما بينهم، فإن الإنسان إذا أراد حفظ شيء حتى لا ينساه فإنه يسجله في كتاب، فعبر الله سبحانه وتعالى عن عدم نسيانه بذلك الذي نفهمه، وإلا فهو سبحانه لا يحتاج إلى شيء من ذلك فلا يجوز عليه النسيان؛ لأنه ليس من الجنس الذي يجوز عليهم النسيان من المخلوقين، وإحصاؤه لجميع أعمال بني آدم ومحاسبتهم على كل صغير وكبير أمر سهل عليه ويسير.

﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَا لَيْسَ لَهُمْ بِهِ عِلْمٌ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ﴿٧١﴾﴾ بعد أن عدد الله سبحانه وتعالى آياته التي بثها لخلقه في السماوات والأرض والتي تدل على قدرته وعظمته وإلهيته أعرضوا عنها ولم يلتفتوا إليها أو يلقوا لها بالاً، وذهبوا إلى عبادة تلك الآلهة التي لا تملك من صفات الإلهية شيئاً، ولا يملكون أي دليل أو حجة على إلهيتها، فعبادتهم لها ليس إلا اتباعاً للهوى والشهوات، وما يكون من اجتماعهم حولها من الرقص والغناء مع القيان والغلمان.

ثم أخبر الله سبحانه وتعالى أنه إذا كان يوم القيامة فلن يجد هؤلاء لهم أي نصير ينصرهم من هذه الآلهة أو يدفع عنهم شيئاً من عذاب الله سبحانه وتعالى.

﴿وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَاتٍ﴾ إذا تلا النبي صلى الله عليه وآله وسلم أو المؤمنون شيئاً من القرآن على المشركين.

﴿تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنْكَرَ﴾ تتغير وجوه المشركين ويستشيطون غضباً وغيضاً عند سماع تلاوة النبي صلى الله عليه وآله وسلم.

﴿يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ ءَايَاتِنَا﴾ ويشتد بهم الغضب إلى أن يهموا بالسطو على الذين يتلون عليهم آيات الله.

﴿قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكُمُ النَّارُ وَعَدَهَا اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴿٧٢﴾﴾ ثم أمر الله سبحانه وتعالى نبيه صلى الله عليه وآله وسلم أن يخبر المشركين بأنهم إن كانوا يظنون أن هذا القرآن شر فليعلموا أن أشر منه النار التي سيعذبكم الله

فيها، فالمفروض أن تنفروا منها ومما يسوقكم إليها، لا أن تنفروا من الحق وتهربوا منه.

﴿يَاأَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ﴾ أخبرهم الله سبحانه وتعالىٰ أنه قد ضرب لهم هذا المثل لعلهم ينتفعون به إذا سمعوه، فيرجعون إلىٰ صوابهم ورشدهم ويتركون غيهم وضلالهم.

﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ﴾ ينبههم الله سبحانه وتعالىٰ أن ينظروا إلىٰ حقارة آلهتهم هذه التي يعبدونها وعلىٰ مدىٰ ضعفها، فلا تقدر أن تخلق حتىٰ ولو مثل أضعف مخلوقاته، وهيهات أن تستطيع ذلك ولو اجتمعت المعبودات جميعاً.

﴿وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ﴾ حتىٰ المدافعة عن نفسها ولو من أضعف المخلوقات فهي لا تستطيع ذلك، وكانوا يتقربون إلىٰ الأصنام بالهدايا والنذر من الذبائح والعسل والسمن ونحو ذلك، فتحداهم الله سبحانه وتعالىٰ بتلك الذبابة التي تقع فوقها وتأكل من هداياها أن يستردوا شيئاً مما تسلبه الذبابة منها.

﴿ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ﴿٧٣﴾﴾ المطلوب هو الذبابة، والطالب هي الآلهة، فهم جميعاً في غاية الضعف والوضاعة.

فقد ضرب الله سبحانه وتعالىٰ لهم هذا المثل لعلهم يرجعون إلىٰ عبادته؛ لأنه القادر علىٰ كل شيء والمتحكم في كل شيء.

﴿مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴿٧٤﴾﴾ لم يعظم المشركون الله سبحانه وتعالىٰ ولم يروا له ما يستحقه من العظمة والكبرياء عندما اتخذوا معه شركاء لا تكافئه أو تماثله في شيء من صفاته، فكان ينبغي أن يعظموه حق عظمته ويخافوا نقمته ويتوجهوا إليه؛ لأن الخير والشر كله بيده، فليحذروا ضره وليرجوا ما عنده من النفع إن كانوا من أهل العقول كما يزعمون، ولكن أعمتهم الدنيا وملذاتها، وركضوا وراء شهواتهم وأهوائهم.

﴿اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴿٧٥﴾﴾ ثم أخبر سبحانه وتعالى أنه يختار من الملائكة رسلاً يتحملون تبليغ رسالاته إلى أنبيائه، كما أنه يختار من البشر من يتحمل أمر تبليغ رسالاته إلى الناس، وكان جبريل هو الذي يرسله الله بتبليغ الوحي إلى الأنبياء، وأما النبوة فلا يختار لها إلا من علم أنه أهل لحمل رسالته.

﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴿٧٦﴾﴾ فهو عالم بجميع أحوال الناس والملائكة، لا يخفى عليه منها شيء لا الراهنة ولا المستقبلة ولا الماضية فهو يعلمها جميعاً على سواء، وسيحاسبهم على صغيرها وكبيرها يوم القيامة.

﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا﴾ ثم التفت الله سبحانه وتعالى بخطابه إلى المؤمنين خاصة فأمرهم بالصلاة له، وقد خص الركوع والسجود بالذكر لينبه على أهميتهما وليحثهم على زيادة الاهتمام بهما أكثر من بقية أركانها؛ لأنها التي تدل على الخضوع لله تعالى والتواضع؛ فانحناء الظهر في الركوع فيه تعبير عن غاية التعظيم لله سبحانه وتعالى، وأما السجود فهو تعبير عن شدة التواضع له تعالى.

﴿وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ﴾ أي امتثلوا لأوامره.

﴿وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴿٧٧﴾﴾ بادروا إلى الإكثار من أعمال الخير لتكسبوا زيادة الثواب وتفوزوا برضوان الله سبحانه وتعالى، وقد عرفه بلام الجنس ليعم أعمال الخير جميعها التي يدل عليها العقل وتنجذب إليها فطرة العقل.

﴿وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ﴾ اسعوا جهدكم في إرضاء الله سبحانه وتعالى، وفعل ما يرضيه من الطاعات، وضحوا بما تستطيعون في سبيل دينه وإعلاء كلمته.

﴿هُوَ اجْتَبَاكُمْ﴾ اختاركم أيها المسلمون من أمة محمد صلى الله عليه وآله وسلم واصطفاكم على سائر الأمم، وجعلكم أهلاً لتبليغ رسالة نبيكم في حياته وبعد موته، وقد أراد بهم العرب خاصة.

﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ فقد أتاكم بالدين السهل والتكاليف اليسيرة، ولم يحملكم التكاليف الثقيلة التي تكسر ظهوركم.

﴿مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ﴾ دين أبيكم إبراهيم، فقد بعث الله سبحانه وتعالى نبيه محمداً صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ بدين إبراهيم.

وهذه السورة قد خاطب الله سبحانه وتعالى بها أهل مكة والمدينة جميعاً، وقوله: ﴿مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ﴾ دلالة على أن ذراري عدنان وقحطان من سلالة إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ، وليس كما يقوله بعض المؤرخين اليمنيين من أن قحطان من ذرية نبي الله هود عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ لأن ما ذكرنا هو الذي يطابق ما أتى في القرآن، والعرب الحقيقيون هم عدنان وقحطان، وأما البقية فيسمون العرب المستعربة.

وأيضاً يؤيد ما ذكرنا سابقاً: أن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ مر على أناس من بني سلمة يتناظلون ويتسابقون في الرماية فصاح عليهم قائلا: ارموا يا بني سلمة فإن أباكم كان رامياً؛ يعني به نبي الله إسماعيل عَلَيْهِ السَّلَامُ، وبنو سلمة هؤلاء من ذرية قحطان من قبائل الأوس والخزرج.

﴿هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ﴾ فقد سمى نبي الله إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ ذريته باسم المسلمين، وذلك فيما حكاه الله سبحانه وتعالى من دعوة إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ﴾ [البقرة:١٢٨]، وهم أمة محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ.

﴿وَفِي هَذَا﴾ وأيضاً في القرآن فقد سماكم الله سبحانه وتعالى المسلمين.

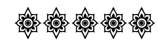
ثم ذكر السبب في اختياره واصطفائه لأمة محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ في حمل رسالته فقال:

﴿لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ فهذا هو السبب فإذا كان يوم القيامة فإن الرسول سيأتي ليشهد على من أنكر أن الحجة لم تبلغه وأن أحداً لم يحذره أو ينذره؛ وكذلك أنتم أيها المؤمنون إذا أنكرت أمة من الأمم أن الحجج لم تصل إليهم، وأن دعوة محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ لم تصلهم فعندها سيقوم هؤلاء الذين اختارهم الله سبحانه وتعالى لتبليغ دعوة نبيه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ من الأئمة والعلماء فيشهدون عليهم بأنهم قد بلغوهم، ولكنهم رفضوا وكذبوا وتمردوا.

﴿فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَءَاتُوا الزَّكَاةَ﴾ فاشكروا الله سبحانه وتعالى على ما اختاركم واصطفاكم أيها العرب على بقية الأمم، واختاركم لحمل رسالته وتبليغها، وتوجهوا إليه بالعبادة والمداومة على الصلوات وأخرجوا زكاة أموالكم.

﴿وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ﴾ تمسكوا بدينه من غير ميل أو انحراف إلى شيء من حبائل الشيطان.

﴿هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴿٧٨﴾﴾ فهو ناصركم ومعينكم، وهو خير من ينصر ويعين، فلا تبتغوا ناصراً سواه.



سورة المؤمنون

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ۝١﴾ قد فاز المؤمنون وظفروا برضوان الله وثوابه الذي أعده لهم في جنات الفردوس وهم الموصوفون بهذه الصفات التي وصفهم الله بها في قوله:

﴿الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ۝٢﴾ خاضعون لله سبحانه وتعالىٰ ومتذللون له في صلاتهم، ساكنة أعضاؤهم وجوارحهم فيها، وذلك أن القلب إذا خشع وامتلأ خوفاً وتعظيماً لله تعالىٰ هدأت أطرافه وسكنت جوارحه، فينبغي عند ابتداء شروعه فيها أن يستحضر الوقوف بين يدي الله سبحانه وتعالىٰ وتأدية ما أوجبه عليه خالصاً.

﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ۝٣﴾ وكذلك مِنْ صفتهم أنهم قد طهروا أنفسهم وابتعدوا عن الرذائل، وعن باطل الكلام من الكذب واللغو والزور والبهتان، ونزهوا أنفسهم عن كل ما فيه معصية الله سبحانه وتعالىٰ، سواء كان صغيراً أم كبيراً.

﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ۝٤﴾ وكذلك من صفتهم أنهم يؤدون ما فرض الله عليهم في أموالهم من الصدقات إلىٰ من أمرهم بوضعها فيهم.

﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ۝٥ إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ۝٦﴾ الذين حفظوا فروجهم عن الحرام من الزنا والفواحش، فهذه صفات المؤمنين الذين وعدهم الله سبحانه وتعالىٰ بالفوز برضوانه ورحمته.

﴿فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ۝٧﴾ من وضع فرجه في الحرام من الزنا ونحوه فقد اعتدىٰ حدود الله تعالىٰ، وتجاوز ما أحل له، وقد استحق بذلك غضب الله وسخطه.

﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ۝٨﴾ وهذه من صفات المؤمنين أيضاً وهي أنهم حافظون لعهودهم ومواثيقهم وأماناتهم، ويدخل في ذلك جميع التكاليف التي كلفنا الله سبحانه وتعالى بها؛ لأن ذلك عهد عاهدنا الله على الوفاء به وهو قولنا (آمنا بالله)، فهو يعني أننا قد التزمنا له، وقطعنا له عهداً على العمل والالتزام بشرائع الإسلام.

﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ۝٩﴾ بدأ في ذكر صفات المؤمنين بالصلاة، وختمها بالصلاة دلالة على أهميتها ومكانتها عند الله تعالى.

﴿أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ۝١٠ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ۝١١﴾ فهؤلاء الذين هذه صفاتهم هم الذين سيورثهم الله سبحانه وتعالى الفردوس الذي هو أعلى مكان في الجنة.

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ۝١٢﴾ ثم انتقل بعد ذلك إلى ذكر آيات قدرته وعلمه وحكمته ما يبين قدرته، فذكر كيفية بداية خلق الإنسان، فأخبر أنه استله ونقاه من الطين الخالص والصافي، وهذا عند بداية خلق آدم عليه السلام.

﴿ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ۝١٣﴾ ثم بعد ذلك يخلقه الله سبحانه وتعالى من النطفة التي ينقلها من أصلاب الرجال إلى أرحام النساء.

والقرار المكين هو رحم المرأة الذي هيأه وأعده لحفظ تلك النطفة.

﴿ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً﴾ ثم إن النطفة في رحم المرأة يحولها الله سبحانه وتعالى بقدرته إلى قطعة دم متجمدة.

﴿فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا﴾ ثم إن قطعة اللحم هذه يحولها الله سبحانه وتعالى إلى العظام الذي يكسوه اللحم بعد ذلك.

﴿ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا ءَاخَرَ﴾ بعد أن يكسو الله سبحانه وتعالى العظام ينتقل الإنسان بقدرة الله إلى مرحلة أخرى، فينفخ فيه الروح التي تجعله يتحرك ويحس ويتألم، وقبل ذلك حياته إنما تكون حياته مثل حياة النبات، وينموا مثل نموه.

﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ۝١٤﴾ كثر نفعه لعباده، وكثرت نعمه عليهم، ومن نعمه عليهم نعمة الخلق التي هي من أعظم النعم.

﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ۝١٥﴾ وأخبر أن خلقهم ذلك وإحياءهم إنما هو لحكمة ومصلحة في ذلك، وأنه قد خلقهم للموت ولما بعده.

﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ۝١٦﴾ فخلقكم وموتكم إنما هو لما يترتب عليه من البعث والحساب والجزاء.

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ۝١٧﴾ ثم أخبر سبحانه وتعالى أنه خلق خلقاً أعظم من خلقكم، وذلك هو السماوات السبع، ومع ذلك ليس غافلاً عنكم، فهو المتصرف فيكم، والمدبر لأمور معايشكم، وأنتم تحت قدرته وقبضته، وكذلك ليس غافلاً عن أعمالكم فهو محصي لجميعها صغيرها وكبيرها.

﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ﴾ ثم انتقل إلى تذكيرهم بآية أخرى من آياته الدالة عليه وعلى قدرته ورحمته، فأخبر أنه الذي ينزل لهم المطر بمقدار معلوم وميزان مخصوص على حسب ما تقتضيه حاجتهم فلا يزيد عن ذلك ولا ينقص.

﴿فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّا عَلَى ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ۝١٨﴾ وأخبرهم تعالى أنه مثل ما قدر على إنزال الماء وإسكانه في الأرض فهو قادر على سلبه عنهم حتى يموتوا عطشاً.

﴿فَأَنْشَأْنَا لَكُمْ بِهِ جَنَّاتٍ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ لَكُمْ فِيهَا فَوَاكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ۝١٩﴾ أخرجنا لكم من ذلك الماء أنواع الفواكه والثمار والزروع التي بها قوام حياتكم.

يذكرهم الله سبحانه وتعالى بنعمه عليهم وفضله العظيم عليهم لعلهم يرجعون إلى عبادته ويتركون ما هم فيه من الشرك والضلال.

﴿وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِنْ طُورِ سَيْنَاءَ تَنْبُتُ بِالدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِلْآكِلِينَ۝٢٠﴾ وأخرج لهم بالماء شجرة الزيتون التي تنبت في بلاد الشام، وهي شجرة يخرج من ثمرها زيت يسمى (زيت الزيتون)، ينتفعون به في دهن أشعارهم وأبشارهم ويأكلون به طعامهم.

وطور سيناء هو المكان الذي كلم الله تعالى موسى بجانبه.

﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً﴾ ثم انتقل إلى تذكير عباده بنعمة أخرى من النعم التي أنعم بها عليهم، وفيها آية عظيمة تدل على عظيم قدرة الله.

والأنعام هي الإبل والبقر والغنم، فأخبرهم أنها آية من آياته الدالة عليه، وحثهم على التفكر والنظر فيها، وكيف سخرها لهم.

﴿نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهَا﴾ وهو اللبن الذي يخرجه لنا من بطونها شراباً صافياً سائغاً للشاربين.

﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ۝٢١﴾ من الركوب والتحميل على ظهورها، وحرث الأرض، والاستفادة من أصوافها وأوبارها وأشعارها وجلودها، وكذلك لحومها، وقوله: ﴿مِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ أراد الله تعالى لا من غيرها تأكلون، فلا مصدر لأكلكم إلا منها، وذلك أن الخطاب موجه إلى العرب خاصة؛ لأن أرضهم كانت غير زراعية، وكانوا يعتمدون عليها في معيشتهم من الأكل والشرب وغير ذلك، فلذلك تمنن الله سبحانه وتعالى عليهم بهذه النعمة العظيمة ليؤدوا شكرها.

﴿وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ۝٢٢﴾ وسخرها للركوب على ظهورها في أسفارهم وتنقلاتهم، مثل ما سخر لهم السفن تسير على ظهر البحر.

وقد ذكر الله سبحانه وتعالى كل ذلك ليحثهم على النظر فيها لعلهم يستيقظون من غفلتهم فيرجعون إليه، ويتركون تلك الآلهة التي لا تقدر على نفع ولا ضر.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا﴾ ثم أوحى الله سبحانه وتعالى إلى نبيه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ خبر نوح وما جرى له؛ ليقصه على قريش لعلهم يعتبرون بهم إذا عرفوا ما نزل عليهم من عذاب الله وسخطه، جزاءً على كفرهم وتكذيبهم بنبيهم.

﴿إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَاقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ أرسل الله سبحانه وتعالى نوحاً إلى قومه ليدعوهم إلى عبادته وحده؛ لأنه وحده الذي يستحق ذلك.

﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴿٢٣﴾﴾ أما آن لكم أن تتركوا عبادة الأصنام، وتتقوا عذاب الله وسخطه أن ينزل بكم إن بقيتم على ما أنتم عليه من التكذيب والكفر، ولم يطلب منهم أن يتقوا الله إلا بعد أن حذرهم عذاب الله وسخطه، وبعد أن عرفوه وعرفوا أنه الرب والمالك لأمرهم والقادر عليهم.

﴿فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ﴾ فقال أشراف قومه وزعماؤهم وأهل الوجاهة والغنى، الذين نصبوا انفسهم للتصدي لدعوته ومجادلته، وهذه هي حال المكذبين في كل زمان يكون الأمر بيد كبار القوم، والبقية يكونون تبعاً لهم.

﴿مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ﴾ يقولون لأتباعهم ليس نوح نبياً وإنما هو بشر مثلكم؛ ليصدوهم ويمنعوهم عن اتباعه، وعن الاستماع إليه؛ لأنهم يزعمون أنه لا يصح أن يكون نبي من البشر.

﴿يُرِيدُ أَنْ يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ﴾ وأخبروهم أن ادعاءه للنبوة ليس إلا وسيلة يتوسل بها للسيطرة عليكم، وليكون فوقكم وتكونون تبعاً له، يقولون ذلك لقومهم وقد عرفوا في الحقيقة أن ما جاء به هو الحق، وأنه رسول من عند الله سبحانه وتعالى.

﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً﴾ هذا أيضاً من كلام الملأ من قوم نوح يخاطبون بقية قومهم بأن الله لو شاء أن يرسل رسولاً لأرسله من الملائكة لا من البشر.

﴿مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي ءَابَائِنَا الْأَوَّلِينَ﴿٢٤﴾﴾ فلم يسبق وأن ادعى النبوة أحد من البشر قبله فلا تصدقوا ما يقوله لكم.

﴿إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ﴾ واعلموا أيها القوم أن الجنون قد أصاب هذا الرجل وإلا لما ادعى النبوة.

﴿فَتَرَبَّصُوا بِهِ حَتَّى حِينٍ﴿٢٥﴾﴾ انتظروا واصبروا فعما قريب ستنزل به نازلة من نوازل الزمان فيموت وتسلمون من شره.

﴿قَالَ رَبِّ انْصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ﴿٢٦﴾﴾ فعندما سمع نوح عليه السلام ما سمع من التكذيب والاستهزاء وأصابه اليأس من إيمانهم دعا الله سبحانه وتعالى أن ينصره عليهم.

﴿فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنِ اصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا﴾ فاستجاب الله سبحانه وتعالى دعاء نبيه، وأمره أن يصنع سفينة وأنه سيحرسه فلا يستطيعون أن يلحقوا به أي أذى أو مكروه، وأخبره أيضاً أنه سوف يوحي إليه كيفية صناعتها.

﴿فَإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ﴾ وأخبر الله تعالى نوحاً عليه السلام أن فوران التنور بالماء وتفجره منها علامة لنزول العذاب بقومه.

﴿فَاسْلُكْ فِيهَا مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ﴾ وأمره إذا رأى فوران الماء من التنور بأن يحمل في السفينة زوجاً من كل نوع من أنواع حيوانات الأرض، وأمره أيضاً بأن يحمل أهله فيها.

﴿إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ﴾ إلا من سبق في علم الله سبحانه أنه من أهل العذاب لتمردهم على الله وعصيانهم له، وأنهم لن يؤمنوا، وهم زوجته وأحد أبنائه.

﴿وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ﴿٢٧﴾﴾ ونهاه أن يراجعه في شأن قومه فقد حق عليهم العذاب، وهو نازل بهم لا محالة ولا مجال للتراجع عن ذلك، وذلك لأن نوحاً عليه السلام كان حريصاً كل الحرص على استنقاذهم من عذاب الله، وإدخالهم في رحمته، وكان مشفقاً عليهم أن يصيبهم أي أذى أو مكروه،

وكل أنبياء الله تعالىٰ علىٰ هذه الطبيعة يكونون من أرحم الناس وأشفقهم.

﴿فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنْتَ وَمَنْ مَعَكَ عَلَى الْفُلْكِ فَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي نَجَّانَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ۝٢٨﴾ إذا ركبتم علىٰ ظهر السفينة فاشكروا الله سبحانه وتعالىٰ علىٰ ما أنعم به عليكم من النصر والظفر علىٰ أعدائكم، وأن لا ينسوا نعمه عليهم دائماً، فهو يحب أن يقابله عباده بالشكر والثناء علىٰ نعمه عليهم، وأمره أن يقول: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي نَجَّانَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ۝٢٨﴾.

﴿وَقُلْ رَبِّ أَنْزِلْنِي مُنْزَلًا مُبَارَكًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ۝٢٩﴾ حملتهم السفينة علىٰ ظهر الطوفان العظيم، وسارت بهم في موج كالجبال، وعندما حان وقت إرسائها أمره الله تعالىٰ أن يدعوه بأن ينزله في أرض كثيرة الخير والمنافع ليسكنوا فيها.

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ وَإِنْ كُنَّا لَمُبْتَلِينَ۝٣٠﴾ أخبر الله سبحانه وتعالىٰ نبيه ﷺ أن فيما قصه عليه من خبر نوح وما جرىٰ له مع قومه من التكذيب والاستهزاء لعظة وعبرة للمكذبين به من قريش وغيرهم، فعسىٰ إذا عرفوا ذلك أن يرجعوا عن كفرهم وتمردهم؛ لأن شأن كل عاقل أن يتجنب أسباب الهلاك وكل ما يسخط الله تعالىٰ.

﴿ثُمَّ أَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ۝٣١ فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ﴾ ثم أخبر الله سبحانه وتعالىٰ أنه بعد أن أهلك قوم نوح بالطوفان تكاثر الناس في الأرض، وضاع الدين مع مرور الزمان، وكثرت فيهم المعاصي؛ فأرسل الله إليهم رسولاً منهم، وهو هود عليه السلام.

﴿أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ۝٣٢﴾ فأمرهم بعبادة الله وحده وترك عبادة الأصنام، وحذرهم من عذاب الله إن هم لم يقلعوا عن الشرك.

﴿وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِلِقَاءِ الْآخِرَةِ وَأَتْرَفْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ وهذه عادة كل الأمم، وهي أن يكون الواقفون في وجه دعوة أنبيائهم كبار القوم ووجهاؤهم وأشرافهم وأهل الرئاسة منهم، وأما بقية الناس فيكونون تبعاً لهم ولما قالوه.

وكان قوم عاد هؤلاء أهل ترف وبذخ وثراء واسع.

﴿مَا هَٰذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ﴾ فقال أهل الترف والرئاسة: كيف يصح أن يكون نبي من البشر، فلا تصدقوا ما يقوله لكم هود فليس إلا بشراً مثلكم.

﴿يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ﴿٣٣﴾﴾ ينفرون الناس عنه ويحاولون إبعادهم عنه بكل وسيلة، فقالوا: إنه بشر يأكل ويشرب.

﴿وَلَئِنْ أَطَعْتُمْ بَشَرًا مِثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَخَاسِرُونَ﴿٣٤﴾﴾ فاتركوه إذا أردتم الفلاح فهو لا يريد لكم أي خير كما يزعم.

﴿أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنْتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا أَنَّكُمْ مُخْرَجُونَ﴿٣٥﴾﴾ يستدل كبار القوم على كذب هود عليه السلام بأنه يقول: إنكم إذا متم وصرتم تراباً وعظاماً أنكم ستعودون إلى الحياة مرة أخرى.

﴿هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ﴿٣٦﴾﴾ فمن البعيد والمستحيل أن يكون هناك حياة بعد الموت كما يزعم هود.

﴿إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴿٣٧﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ فما يحذركم وينذركم به ليس إلا كذباً وزوراً وبهتاناً، وليس نبياً كما يدعي، وإنما هو رجل كذاب.

﴿وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ﴿٣٨﴾﴾ ولن نصدقه أبداً، فهذه هي نصائح كبارهم وزعمائهم لقومهم.

﴿قَالَ رَبِّ انْصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ﴿٣٩﴾﴾ ثم إن هوداً عليه السلام لما انقطع رجاؤه في إيمانهم، واشتدت أذيتهم له- دعا الله سبحانه وتعالى أن ينصره عليهم، وأن يكفيه شرهم.

﴿قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَيُصْبِحُنَّ نَادِمِينَ﴿٤٠﴾﴾ أخبره الله سبحانه وتعالى انه قد اقترب موعد نزول العذاب بهم، وسيندمون عند معاينته.

﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ بِالْحَقِّ فَجَعَلْنَاهُمْ غُثَاءً﴾ استجاب الله سبحانه وتعالىٰ لنبيه عليه السلام، وأنزل عليهم عذابه، واستأصلهم وأبادهم جميعاً هم وذراريهم وأهاليهم ودوابهم، وكل أملاكهم.

والغثاء هو ما يجرفه السيل من بقايا الأشياء، ويرمي بها في جانب من الأرض.

﴿فَبُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴿٤١﴾﴾ فقد استحقوا العذاب لظلمهم وكفرهم.

﴿ثُمَّ أَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قُرُونًا ءَاخَرِينَ﴿٤٢﴾﴾ بعد أن أهلك الله تعالىٰ قوم عاد أنشأ بعدهم أمماً بعد أمم وأجيالاً بعد أجيال.

﴿مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ﴿٤٣﴾﴾ يرسل الله تعالىٰ إلىٰ كل أمة من تلك الأمم رسولاً يحذرهم وينذرهم، ولكنهم جميعاً كذبوا بأنبيائهم وتمردوا عليهم، وصدوا عن دعوتهم فعذبهم الله بسبب ذلك، وأخبر أنه لا ينزل عذابه بأحد إلا في الموعد الذي حدده لذلك علىٰ حسب ما تقتضيه الحكمة والمصلحة من دون تقديم أو تأخير.

أخبر الله سبحانه وتعالىٰ نبيه صلى الله عليه وآله وسلم بذلك وما جرىٰ علىٰ من سبقه ليصبره علىٰ ما يلحقه من أذىٰ قريش وتكذيبهم واستهزائهم، وأن شأن قومه كشأن من سبقهم سواء فقد جعل لهم موعداً لا يستقدمون عنه ساعة ولا يستأخرون.

﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَى﴾ يرسل الله سبحانه وتعالىٰ رسله إلىٰ تلك الأمم رسولاً بعد رسول.

﴿كُلَّ مَا جَاءَ أُمَّةً رَسُولُهَا كَذَّبُوهُ﴾ وأن كل رسول يرسله الله تعالىٰ يلاقي مثل ما لاقيت يا محمد من التكذيب والاستهزاء.

﴿فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُمْ بَعْضًا وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ﴾ فأهلك الله تلك الأمم أمة بعد أمة ولم يبق إلا ذكرهم وأخبارهم.

﴿فَبُعْدًا لِقَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ﴿٤٤﴾﴾ فقد استحقوا عذاب الاستئصال لكفرهم.

﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَى وَأَخَاهُ هَارُونَ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ۝٤٥ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ﴾ بعد تلك الأمم التي استأصلها الله سبحانه وتعالىٰ أخبر أنه أرسل في آخر الزمان موسىٰ وأخاه هارون وأيدهما بآياته ومعجزاته كالعصا التي آمن السحرة جميعاً عند مشاهدتهم لها غير مبالين بفرعون وبطشه وجبروته.

وقد أرسلهما الله سبحانه وتعالىٰ إلىٰ فرعون وأشراف قومه ورجال دولته؛ ليدعواهم إلىٰ الإيمان بالله سبحانه وتعالىٰ؛ لأنهم إذا آمنوا واستجابوا فبقية قومهم سيؤمنون تبعاً لهم، وأيضاً ليستنقذا بني إسرائيل من ظلمهم وجبروتهم.

﴿فَاسْتَكْبَرُوا﴾ ولكنهم رفضوا قبول الحق استكباراً علىٰ الله تعالىٰ وإعراضاً عنه.

﴿وَكَانُوا قَوْمًا عَالِينَ۝٤٦﴾ يعني أنهم كانوا مترفعين في الدنيا قد أخذهم الكبر والجبروت.

﴿فَقَالُوا أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَابِدُونَ۝٤٧﴾ استنكروا دعوتهما لهم، وكيف يستجيبون لمن هم أدنىٰ رتبة منهم، واستبعدوا أن يكون ذلك وأن يأخذ السيد أوامره من عبيده في زعمهم؛ وذلك أن آل فرعون كانوا قد استعبدوا بني إسرائيل وسخروهم في طاعتهم والقيام بأعمالهم، وجعلوهم أذلاء مهانين.

﴿فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا مِنَ الْمُهْلَكِينَ۝٤٨﴾ فأهلك الله فرعون وقومه لكفرهم وتكذيبهم لموسىٰ وهارون عليهما السلام.

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ۝٤٩﴾ أرسل الله سبحانه وتعالىٰ موسىٰ بالتوراة التي فيها الهدىٰ والنور لبني إسرائيل، والعظات والعبر وتفصيل أحكامهم ودينهم؛ فقد أعطاهم الله تعالىٰ التوراة لأجل أن يهتدوا بأنوارها ويستضيئوا بهديها ويعملوا بأحكامها وشرائعها.

هذا، وقد أنزل الله سبحانه وتعالىٰ التوراة علىٰ موسىٰ بعد أن استنقذ بني إسرائيل من يد فرعون وبطشه.

﴿وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ ءَايَةً﴾ يقص الله تعالىٰ لنبيه ﷺ أيضاً ما كان من شأن عيسىٰ عليه السلام وأمه، وأنه جعلهما علامة وآية دالة علىٰ عظمته وقدرته وجلاله، وذلك أنه خلقه من غير أب، وكان يحيي الموتىٰ، ويشفي المرضىٰ، ويبرئ الأكمه والأبرص، ويخبرهم بأخبار من علم الغيب، وكل ذلك بإذن الله وقدرته وأمره.

وأيضاً جعل في ذلك آية وعلامة دالة علىٰ البعث بعد الموت؛ لأنهم عندما يرون عيسىٰ يحيي الموتىٰ بعد أن صاروا تراباً فإنهم يعلمون ويستيقنون أن الله علىٰ كل شيء قدير، وأنه قادر علىٰ إحيائهم بعد الموت فلا يكون لهم سبيل إلىٰ إنكار ذلك.

﴿وَءَاوَيْنَاهُمَا إِلَى رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ۝٥٠﴾ وأخبر أنه أنزل عيسىٰ وأمه في مكان مرتفع صالح للسكنىٰ في أرض الشام، وذلك أن عيسىٰ عليه السلام كان قد لاقىٰ من يهود بني إسرائيل الأذىٰ والتكذيب، وكانوا يتحينون الفرص لقتله، فهداه الله سبحانه وتعالىٰ إلىٰ ذلك المكان الذي فيه ما يحتاجان إليه من الماء والغذاء والسكنىٰ.

﴿يَاأَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ۝٥١﴾ يريد الله سبحانه وتعالىٰ لعباده أن يتنعموا بما أخرج لهم في الأرض من الطيبات، ولكنه شرط عليهم أن يؤدوا شكر ذلك بطاعته وامتثال أوامره، وأعلمهم أنه مطلع علىٰ أعمالهم لا يخفىٰ عليه منها شيء فليحذروا مخالفته ومعصيته.

﴿وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ ثم خاطب الله سبحانه وتعالىٰ الناس جميعاً، وأخبرهم أن الإسلام دينهم وملتهم جميعاً، فلا دين حق غير ما جاءهم به محمد ﷺ، ولا دين غير الإسلام.

﴿وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ ۝٥٢﴾ ولا إله لكم غير الله سبحانه وتعالىٰ، فلا عيسىٰ ولا عزير ولا الملائكة، فلا تعبدوا غيري فيحل بكم عذابي وسخطي.

﴿فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ زُبُرًا﴾ ولكنهم بالرغم من ذلك، ومعرفتهم بمحمد ﷺ، وبصدق ما جاءهم به تفرقوا واختلفوا إلى ملل شتى وأديان متعددة من يهود ونصارى ومجوس وغير ذلك، ورفضوا الدخول في الحق والهدى والإسلام، وتكبروا على الله سبحانه وتعالى.

﴿كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴿٥٣﴾﴾ وكل حزب يدعي أنه الذي على الحق والهدى، وأنه الذي على الطريق المستقيم، وأن غيره في ضلال.

﴿فَذَرْهُمْ فِي غَمْرَتِهِمْ حَتَّى حِينٍ﴿٥٤﴾﴾ اتركهم يا محمد في غيهم وضلالهم، ودعهم يتمتعون ويأكلون في الدنيا، فإن لم يأخذهم الله بالعذاب في الدنيا فسيعذبهم في الآخرة لا محالة، فلا تهتم يا محمد بأمرهم ولا يحزنك عدم قبولهم لدعوتك، وعدم دخولهم في الإسلام، فعمر الدنيا قصير ومرجعهم إلى الله.

﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مَالٍ وَبَنِينَ﴿٥٥﴾ نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَل لَا يَشْعُرُونَ﴿٥٦﴾﴾ أيظنون عندما متعناهم في الدنيا بالأموال والأولاد والصحة والعافية والأمن أنهم في مأمن، وأنا قد رضينا عنهم؟ إنما ذلك استدراجٌ لهم ليزدادوا إثماً وكفراً، ويزداد عذابهم ويتضاعف، وكذلك إتمامٌ للحجة عليهم.

﴿إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ﴿٥٧﴾ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ﴿٥٨﴾ وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ﴿٥٩﴾﴾ ثم انتقل الله سبحانه وتعالى إلى ذكر المؤمنين فذكر من صفتهم أنهم في خوف دائم من الله تعالى؛ لأنهم عرفوه حق معرفته، فعظم في قلوبهم، وازداد إيمانهم به حتى تيقنوا كل اليقين بوعده ووعيده، وأنه سيعذب المجرمين ويثيب المؤمنين فخافوا من عذابه وسخطه، ووصفهم أيضاً بأنهم إذا سمعوا آية من آيات الله سبحانه وتعالى، أو تلا عليهم النبي ﷺ آية صدقوا بها، وعملوا بأحكامها، وقد أخلصوا أنفسهم لله تعالى وحده، ولم يتركوا مجالاً لإبليس والهوى في قلوبهم.

﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا ءَاتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ۝﴾ وأنهم إذا أعطوا عطية لوجه الله سبحانه وتعالى، أو أخرجوا شيئا من أموالهم في سبيل الله- تصدقوا بذلك وقلوبهم خائفة منه أن لا يقبلها منهم، وذلك أنهم تيقنوا أنهم راجعون إليه، وأنه عالم بما في ضمائرهم وقلوبهم وسيحاسبهم عليها.

﴿أُولَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ۝﴾ فهؤلاء الذين على هذه الصفات إذا أمرهم الله سبحانه وتعالى بعمل بر أو طاعة بادروا إليه مسرعين حرصاً منهم أن ينالوا رضاه تعالى عنهم.

﴿وَلَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ فلا يحمِّل الله سبحانه وتعالى أحداً أو يكلفه إلا بما يطيقه ويستطيعه، فهو تعالى عالم بطبيعة الإنسان، وأنه تأتي منه الزلات والأخطاء غير أن المؤمن إذا عمل معصية أو زلت به قدمه زلة تراجع عنها، وندم وتاب إلى الله سبحانه وتعالى منها.

﴿وَلَدَيْنَا كِتَابٌ يَنْطِقُ بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ۝﴾ وأخبر سبحانه وتعالى أن أعمال بني آدم جميعها صغيرها وكبيرها مسجلة عنده، ولن يضيع عنده شيء منها حتى ولو كان ذلك مثقال ذرة فإنهم سيرون ذلك سواءً كان خيراً أم شراً، وأن كل امرئ سيرى أعماله تلك عندما يأخذ صحيفة أعماله ليقرأها يوم القيامة.

﴿بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِنْ هَذَا﴾ وأما المشركون فقلوبهم مغطاة في غمرة الجهل والضلال والهوى والشهوات، وقد غرقوا فيها حتى لم يستطع أن ينفذ إليها شيء من معرفة الله سبحانه وتعالى أو خشيته أو الخوف منه، ولم يستطيعوا أن يسمعوا داعي الله لهم، أو يبصروا نور الهدى الذي يأتيهم.

﴿وَلَهُمْ أَعْمَالٌ مِنْ دُونِ ذَلِكَ هُمْ لَهَا عَامِلُونَ۝﴾ ولهم أعمال إجرام أخرى يعملونها غير كفرهم وتكذيبهم، ولو لم تكن تعلمها يا محمد فنحن نعلمها، وسيلقون جزاءها.

﴿حَتَّى إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِمْ بِالْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْأَرُونَ﴿٦٤﴾﴾ عندما رأى كبار قريش وزعماؤهم العذاب نازلاً بهم يوم بدر، ورأوا أن الموت نازل بهم لا محالة إذا هم يصيحون، ويصرخون من هول ما رأوا من عذاب الله تعالى.

﴿لَا تَجْأَرُوا الْيَوْمَ إِنَّكُمْ مِنَّا لَا تُنْصَرُونَ﴿٦٥﴾﴾ ثم رد الله سبحانه وتعالى عليهم بأنه لن ينفعهم صياحهم واستغاثتهم، وأن أحداً لن يستطيع أن يدفع عنهم العذاب الذي هو نازل بهم.

﴿قَدْ كَانَتْ ءَايَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ تَنْكِصُونَ﴿٦٦﴾﴾ ثم ذكر السبب في ذلك وهو أنهم كانوا إذا سمعوا آيات الله يتلوها عليهم النبي صلى الله عليه وآله وسلم أعرضوا عن سماعه وصرفوا وجوههم عنه.

﴿مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سَامِرًا تَهْجُرُونَ﴿٦٧﴾﴾ وأيضاً بسبب استكبارهم عن سماع الحق وما يتلوه عليهم النبي صلى الله عليه وآله وسلم، وجعلهم الاستهزاء به والصد عنه والسخرية منه حديث مجالسهم.

﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُمْ مَا لَمْ يَأْتِ ءَابَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ﴿٦٨﴾﴾ ما هو الذي منعهم من الإيمان ودين الإسلام؟ هل هو لأجل أنهم لم يتدبروا فيما أنزله الله من القرآن؟ أم لأن ما جاءهم به شيء غريب لم يعرفوه لا هم ولا آباؤهم من قبلهم؟

﴿أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ﴿٦٩﴾﴾ أم أنه ردهم عن اتباع النبي صلى الله عليه وآله وسلم والاستجابة لدعوته أنهم لم يعرفوه أو يسمعوا به، ثم رد الله سبحانه وتعالى على ذلك فقال: بلى، قد عرفوا صدقه وأمانته، وأنه نبي مرسل من عند الله.

﴿أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ﴾ أم ظنوا أنه مجنون حتى لم يستجيبوا له، ولم يستمعوا لما جاء به.

﴿بَلْ جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ﴾ فأجاب الله سبحانه وتعالى عليهم مبكتاً لهم: أنهم قد سمعوا ما جاءهم به، وعرفوا أن ما جاء به هو الحق والصدق، وأنه نبي صادق.

﴿وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ﴿٧٠﴾﴾ غير أنهم كرهوا الحق وثقل عليهم اتباعه؛ لأنهم إذا اتبعوه سيضطرون إلى ترك شهواتهم وأهوائهم من الرقص حول

القيان، واللعب مع الصبيان، والتعري والطرب حول الأصنام والتعالي في الأرض والإفساد فيها.

﴿وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ﴾ لو سار النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ على حسب أهوائهم ومذاهبهم لفسد أمر السماوات والأرض، ولعمت الفوضى فيهما، ولحصل التنازع والاختلاف بين تلك الآلهة التي يزعمون ولاختل نظام السماوات والأرض بسبب ذلك.

﴿بَلْ أَتَيْنَاهُمْ بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَنْ ذِكْرِهِمْ مُعْرِضُونَ﴿٧١﴾﴾ ثم أخبر قريشاً أنه لم يأت إلا بما فيه عزهم وشرفهم في الدنيا والآخرة لو أنهم آمنوا وتركوا ما هم فيه من الضلال والجهل والضياع واستجابوا لدعوة نبيهم وما جاءهم به.

﴿أَمْ تَسْأَلُهُمْ خَرْجًا فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴿٧٢﴾﴾ ثم رجع إلى سؤالهم عن السبب في عدم استجابتهم لنبيهم: هل لأنه طلب منهم الأجرة مقابل تبليغهم حتى ينفروا عنه ويبتعدوا هرباً من دفع الأجرة؟

أراد الله سبحانه وتعالى أن يبين لنبيه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ أن لا علة لهم ولا سبب يمنعهم من الاستجابة لدعوته، وإنما منعهم الكبر والعناد والتمرد.

﴿وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴿٧٣﴾ وَإِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ لَنَاكِبُونَ﴿٧٤﴾﴾ ثم أوحى الله سبحانه وتعالى إلى نبيه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ مطمئناً له بأنه قد أدَّى ما أوجب الله سبحانه وتعالى عليه من تبليغهم الحق والهدى، وأنه لم يمنعهم من اتباعك إلا أنهم أرادوا أن يسلكوا طريقاً غير الطريق التي تدعوهم إليها والتي فيها هداهم ونجاتهم، وقد عرفوا الحق ولكنهم تنكبوه تمرداً واستكباراً، وكل ذلك ليطمئن نبيه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ ويهدئ من روعه وحزنه عندما لم يستجيبوا لدعوته، وعندما لم يؤثر فيهم على الرغم من طول مدة دعائه لهم، ويهدئ من خوفه أن يكون قد حصل منه أي تقصير في تبليغ دعوته لهم، أو أن الله سبحانه وتعالى لم ينزل عليه الآيات التي يحصل لهم اليقين منها في قلوبهم، أو أن الله سبحانه وتعالى غير راضٍ عنه أو ما أشبه ذلك.

﴿وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِمْ مِنْ ضُرٍّ لَلَجُّوا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴿٧٥﴾﴾ عندما كذبت قريش النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، ورفضت دعوته أخذهم الله سبحانه وتعالى بالشدائد والمصائب والمحن؛ لعلهم ينتبهون من غفلتهم، ويستيقظون من رقدتهم.

﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ﴿٧٦﴾﴾ ولكن بالرغم من كل ما ابتلاهم به من الشدائد والمحن والمصائب لم تؤثر فيهم، ولم يتواضعوا لله تعالى أو يتضرعوا إليه ليرفع عنهم ما هم فيه من البلاء استكباراً عليه وعلى نبيه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ.

﴿حَتَّى إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ﴿٧٧﴾﴾ وقد أصروا على كفرهم وتكذيبهم وتمردهم وكبرهم إلى أن أنزل الله بهم بأسه وغضبه، وعندما نزل بهم ذلك اندهشوا وتحيروا، وتيقنوا عند ذلك أن بأس الله وعذابه قد نزل بهم جزاءً على ما فرط منهم، وندموا على ذلك ولكن حين لا ينفع الندم.

﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ﴿٧٨﴾﴾ يتمدح الله سبحانه وتعالى لعباده ليعرفهم أنه وحده الذي يستحق العبادة دون تلك الأصنام، فأخبر قريشاً أنه الذي خلقهم وجعل لهم الوسائل التي يستطيعون أن يعرفوه من خلالها ويؤدوا حق شكره بها، وهي: الأسماع التي تمكنهم من سماع آياته، والأبصار التي يرون من خلالها عجائب مخلوقاته، والعقول التي يميزون بها بين الحق والباطل، ولكنهم بالرغم من كل ذلك أصروا على كفرهم وتكذيبهم واستهزائهم.

﴿وَهُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴿٧٩﴾﴾ هو وحده الذي يتوفاكم ويستوفي أعماركم ثم يحشركم إليه يوم القيامة ليحاسبكم، فالمفروض أن تتوجهوا إليه بعبادتكم ما دام كذلك، لا إلى تلك الأصنام التي لا تملك لكم شيئاً.

﴿وَهُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ وهو وحده الذي بيده أيضاً حياتكم وموتكم، لا تلك الآلهة التي تعبدونها من دونه.

﴿وَلَهُ اخْتِلَافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ وهو وحده الذي يخالف بين الليل والنهار بقدرته، فأين عقولكم عن كل هذا أيها المشركون؟ فشأن كل عاقل إذا عرف ذلك أن يتوجه إلى ذلك الذي بيده كل ذلك، لا إلى الذي ليس في يده أي شيء من ذلك.

﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴿٨٠﴾﴾ أليس لكم عقول تعقل ما يتلى عليكم من حجج الله وبيناته؟

﴿بَلْ قَالُوا مِثْلَ مَا قَالَ الْأَوَّلُونَ﴿٨١﴾ قَالُوا أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴿٨٢﴾﴾ بعد أن عرفوا آيات الله سبحانه وتعالى وتيقنوها، وعرفوا الله تعالى، وأنه الذي بيده كل أمورهم أصروا على كفرهم وتكذيبهم، وأنكروا البعث بعد الموت زاعمين أنه لا يصح ولا يمكن أن يرجع الجسم إلى الحياة بعد أن قد صار ترابا، وأن ذلك من المستحيل.

﴿لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَءَابَاؤُنَا هَذَا مِنْ قَبْلُ﴾ هذا من كلامهم للنبي صلى الله عليه وآله وسلم يؤكدون له عدم صحة ما يدعيه عليهم من البعث بعد الموت بأن آباءهم قد وعدوا من قبلهم بذلك، وقالوا: إننا لم نر شيئا مما وعدوا به، وأنه لو كان حقاً لرأيناهم يبعثون.

﴿إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴿٨٣﴾﴾ فليس ذلك إلا خرافات وحكايات من قصص الأولين التي كانوا يتداولونها فيما بينهم، ويقصونها للأجيال التي بعدهم.

﴿قُلْ لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴿٨٥﴾﴾ أمر الله سبحانه وتعالى نبيه صلى الله عليه وآله وسلم أن يجادل المشركين من قريش ويسألهم بهذه الأسئلة، ولن يجدوا بداً من الاعتراف له بحقيقة جوابها فهم يعلمون أن الأرض ومن فيها لله رب العالمين.

﴿قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ﴾ ولن يجدوا جواباً إلا أن يعترفوا بأن الله تعالى وحده الذي خلقها، وبيده تدبير أمرها وشأنها وأنه رب السماوات ورب العرش العظيم.

﴿قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ۝٨٧﴾ فما دمتم معترفين له فلماذا تذهبون إلى عبادة غيره؟ أما كان من المفترض بكم أن تخافوه وتخافوا بأسه وعذابه.

﴿قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ ثم أمره الله سبحانه وتعالى أن يسأل المشركين: من هو الذي في قبضته وتحت سيطرته كل شيء.

﴿وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ﴾ وأن يسألهم من هو الذي في قدرته أن يؤمن من استجار به ولا يجير منه أحد؟

﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِ﴾ ولن يجدوا بُدّاً من أن يجيبوا أن لا أحد بيده كل ذلك سوى الله سبحانه وتعالى.

﴿قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ۝٨٩﴾ فما دمتم معترفين فلماذا تتهمونني بالسحر؟ وتقولون إن ما جئتكم به ليس إلا سحراً؟ فكيف يكون ذلك سحراً وأنتم معترفون بأنه حق؟! أليس ذلك مناقضة منكم؟ وذلك مما لا يقبله عاقل.

﴿بَلْ أَتَيْنَاهُمْ بِالْحَقِّ﴾ ثم أخبر قريشاً بأنه لم يأتهم إلا بالدين الحق والواضح، وقد عرفوا ذلك، وعرفوا أنه حق، وأن ما جاء به هو الدين الحق.

﴿وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ۝٩٠﴾ وهم يعرفون أيضاً أنهم كاذبون في دينهم، وأنهم ليسوا على الحق، وقد أكد ذلك بالقسم وإن واللام مما يدل على زيادة تحقق ذلك.

﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ﴾ كما يقوله المشركون من أن الملائكة بنات الله تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.

﴿وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ﴾ وليس له شريك كما يزعمون.

﴿إِذًا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ﴾ ولو كان كما يزعمون لاستقل كل إله بخلقه واستبد به، ولأخذ هذا شمسه، وهذا أخذ نجومه، ولأخذ الآخر بحاره، ولتعددت الممالك، وحصلت الفوضى والنزاع.

﴿وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ ولرأينا بعضهم ينتصر على بعض، فلا بد أن يكون هناك تنافس بين هذه الآلهة، ويكون هناك غالب ومغلوب.

﴿سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴿٩١﴾﴾ تعالى الله وتقدس عن كل ما ينسبونه إليه من مقولاتهم تلك الباطلة.

﴿عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾ ثم ذكر أنه وحده الذي يعلم الغيب وما خفي من الأمور المستقبلة، وعالم بما تعملونه الآن مما خفي وظهر، وما كان وما سيكون.

يخبرهم الله تعالى بأن الذي يحمل هذه الصفات فهو الذي يستحق العبادة والربوبية، لا تلك الأصنام التي لا تحمل من صفات الإلهية شيئاً.

﴿فَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴿٩٢﴾﴾ تنزه وتقدس عن اتخاذ الشريك والولد.

﴿قُلْ رَبِّ إِمَّا تُرِيَنِّي مَا يُوعَدُونَ﴿٩٣﴾ رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴿٩٤﴾﴾ ثم أمر الله سبحانه وتعالى نبيه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ أن يدعوه بهذا الدعاء، وهو أن ينجيه من عذابه إذا أنزله على المكذبين بدعوته.

﴿وَإِنَّا عَلَى أَنْ نُرِيَكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَادِرُونَ﴿٩٥﴾﴾ ثم أخبره الله سبحانه وتعالى أنه قادر على أن يريه ما وعدهم من العذاب، ولكن ذلك لن يأتيهم إلا في الوقت الذي قضت به الحكمة.

أراد الله تعالى من إخبار نبيه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ بذلك أن يصبر على أذاهم وتكذيبهم، ويجتهد في مواصلة دعوته، ومواصلة تبليغهم حتى يحين ذلك الموعد.

﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ﴿٩٦﴾﴾ وأمره أن يصبر عليهم، وأن يتحمل ما يلحقه من أذاهم، ويقابل ذلك بأحسن رد، وذلك لأجل مصلحة الدعوة لعل ذلك أن يقربهم إليه؛ لأن علاقته بهم إذا توترت وساءت كان ذلك سبباً في النفرة منه، وعدم التقبل منه، فلا يستطيع أن يسمعهم، أو أن يسمعوا منه؛ فإذا خفت عداوتهم له كان ذلك أقرب إلى الاستماع والقبول منه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ.

وأما ما بدر منهم من أذى أو مكروه فإن الله سبحانه وتعالى سيجازيهم على ذلك، وسينتصف له منهم.

﴿وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ ﴿٩٧﴾ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِ ﴿٩٨﴾﴾ وأمره أن يستعين بالله تعالىٰ في مدافعة غضبه إذا سمع منهم ما يغضبه ويثيره، وأن يدعوه أن يزيل عنه وساوس إبليس، وذلك أنه إذا رد عليهم رداً عنيفاً كان ذلك سبباً في نفرتهم عنه وابتعادهم عنه، وإثارة العداوات والحروب، مما يعود بالضرر علىٰ الإسلام والمسلمين.

والهمزات هي الوساوس التي يغرسها إبليس في القلب فتثيره وتهيجه.

وزماننا هذا هو أقرب شيء إلىٰ ذلك الزمان لقلة أهل الإيمان وضعفهم؛ فينبغي أن نسير علىٰ هذا المنهج، وأن نحرص علىٰ كل ما يصرف عنا أعداء الإسلام المتربصين به من كل مكان.

﴿حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ﴾ لا يزال المشركون علىٰ التكذيب والكفر وعلىٰ أذاهم للنبي ﷺ والمؤمنين، ومحاولة إلحاق الضرر بهم بكل ما يملكون من الوسائل، وأخبر الله تعالىٰ أنهم سيستمرون علىٰ ذلك حتىٰ الموت فإذا حضر الموت سألوا الرجوع إلىٰ الحياة الدنيا ليعملوا الأعمال الصالحة، فاصبروا علىٰ أذاهم وقابلوا السيئة بالحسنة واستعينوا بالله سبحانه وتعالىٰ علىٰ الصبر، ففي الأخير سيندمون علىٰ ذلك أشد الندم، وسيتمنون أن يعودوا إلىٰ الدنيا لينصروا النبي ﷺ ويستجيبوا له، ولكن ذلك حين لا ينفعهم الندم.

﴿كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا﴾ سيسألون الرجعة إلىٰ الدنيا ولكنهم لا يجابون.

﴿وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٠٠﴾﴾ وأخبر أن هناك محبساً لهم ما بين الحياة الدنيا، والحياة الأخرىٰ، وهي حياة البرزخ، وهي الفاصل بين الدنيا والآخرة للمؤمنين والكافرين جميعاً.

وحياة البرزخ هذه هي روحية فقط، وأما الأجسام فلا تحس شيئاً، والروح هي التي تتنعم أو تتعذب، وذلك كما يرىٰ النائم في المنام، فالكافر يرىٰ الأهوال

والمخاوف والأفزاع، ويرى منزلته في النار، ويرى الجنة ونعيمها ويعلم أنه لا مكان له فيها بسبب ما كان منه في الدنيا فيصيبه الحزن والندم الشديد، وكفى بهذا عذاباً، وأما المؤمن فهو على العكس من ذلك فهو في فرح شديد لما يرى من النعيم الذي أعد له، فالروح هي التي تتنعم بما يعرض عليها، وإنما نسب ذلك إلى القبر لأن آخر عهدنا بالميت يكون في القبر، فلا عذاب أو نعيم في ذلك القبر، وإنما الروح هي التي تتعذب أو تتنعم، وما نراه في بعض القبور من آثار التعذيب إنما جعله الله سبحانه وتعالى عبرة لنا فلا نعمل مثل عمله، وليكون دافعاً لنا إلى الخوف من الله سبحانه وتعالى، والسعي في طاعته ومرضاته.

﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ﴿١٠١﴾﴾ وذلك حين مبعثهم من قبورهم إلى الحساب والجزاء، فعند ذلك لا قرابة أو رحامية بين الناس أو أي صلة تربط بينهم، وكل امرئ سيكون منشغلاً بنفسه فلن ينفعه أحد أو ينظر إليه، كما أنه كذلك لن ينفع أحداً أو ينظر إليه.

﴿فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴿١٠٢﴾﴾ ولم يبق للمرء إلا عمله، فمن عمل الأعمال الصالحة وكان ميزانه ثقيلاً بالحسنات فقد فاز وظفر برضوان الله تعالى وثوابه.

﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ﴿١٠٣﴾﴾ وصاحب الأعمال السيئة والمعاصي الذي خف ميزانه من الحسنات وثقل بالسيئات فهذا هو الذي قد خسر نفسه في نار جهنم خالداً فيها مخلداً.

﴿تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ﴿١٠٤﴾﴾ تضرب وجوههم بلهبها فتسود وتشتوي.

﴿أَلَمْ تَكُنْ ءَايَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ﴿١٠٥﴾﴾ هذا رد من الله تعالى على المكذبين الذين ماتوا مصرين على الكفر والمعاصي عندما يسألونه الرجوع إلى الدنيا لتدارك ما فاتهم، فيجيبونه بـ: نعم قد كان كل ذلك،

﴿قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ۝١٠٦﴾ فقد غلب علينا الشقاء والدبور، وكنا غارقين في اللهو واللعب والضلال.

﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ۝١٠٧﴾ فيدعون الله سبحانه وتعالىٰ – بعد أن يعترفوا له بأنهم قد استحقوا ما هم فيه من العذاب– أن يعيدهم إلىٰ الدنيا ليعملوا الأعمال الصالحة، ويعاهدونه علىٰ عدم العودة إلىٰ أعمال الكفر والتكذيب.

﴿قَالَ اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ۝١٠٨﴾ فيجيب الله سبحانه وتعالىٰ عليهم: أنه لا رجوع لهم، ولا عودة إلىٰ الدنيا، ولن ينفعهم الصياح والعويل والندم، بعد أن أعذر إليهم وأنذرهم في الدنيا، وأرسل إليهم رسله وآياته، ودلهم علىٰ طريق الحق والهدىٰ، ثم تكبروا عليه وعلىٰ أنبيائه، ورفضوا قبول آياته وبيناته، وجعلوها تحت أرجلهم؛ استكباراً واستخفافاً به وبرسله وآياته.

﴿إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا ءَامَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ۝١٠٩﴾ ثم قال لهم الله: إنه كان في الدنيا فريق من المؤمنين يتضرعون إلىٰ الله ويتذللون له غاية التذلل ويتوسلون أن يقبلهم بسبب إيمانهم به، واستجابتهم لدعوة أنبيائه ورسله، وإيمانهم بكتبه وباليوم الآخر، ويرجونه أن يقبل منهم ما توسلوا به إليه، ويدخلهم في رحمته، ويغفر لهم ما سلف من ذنوبهم، ويمحوها من صحائف سيئاتهم.

والرحمة هنا عامة لرحمة الدنيا من الخير والصحة والعافية والأمن والأمان والبركة في الأموال والأولاد، ورحمة الآخرة بالثواب والفوز بالجنة والنجاة من النار.

﴿فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا﴾ ثم خاطب المشركين بأنهم جعلوا أولئك المؤمنين محل سخريتهم واستهزائهم.

﴿حَتَّى أَنْسَوْكُمْ ذِكْرِي﴾ حتىٰ شغلكم استهزاؤكم وسخريتكم بهم عن الإيمان بالله والتعظيم له وتذكر جلاله وكبريائه وسلطانه.

﴿وَكُنْتُمْ مِنْهُمْ تَضْحَكُونَ۝١١٠﴾ وكنتم تضحكون منهم ضحك استهزاء

وسخرية من دعائهم لربهم وتوسلهم إليه بإيمانهم وأعمالهم الصالحة.

﴿إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ﴿١١١﴾﴾ وأخبرهم أنه قد جعل جزاء صبرهم على سخريتكم واستهزائكم بهم وجزاء محاولتكم لزحزحتهم عن إيمانهم بالقتل والتعذيب والطرد الفوز بالنعيم الدائم في الجنة.

﴿قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ﴿١١٢﴾ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَاسْأَلِ الْعَادِّينَ﴿١١٣﴾﴾ أخبرهم الله تعالى بأنه سوف يسأل المشركين والمكذبين يوم القيامة عن مدة لبثهم في الدنيا فيجيبونه بيوم أو بعضه، استقصاراً لمدة لبثهم في الدنيا بسبب ما يرونه من طول ذلك اليوم الذي يحاسبهم الله سبحانه وتعالى فيه حتى أن أعمارهم وسنينهم الطويلة التي أمضوها في الدنيا قد أصبحت كلا شيء بالنسبة لذلك اليوم.

﴿قَالَ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا لَوْ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴿١١٤﴾﴾ فيجيبهم الله تعالى بأنه صحيح أن أيامهم في الدنيا ليست إلا مدة قصيرة لو أنهم اغتنموا تلك المدة القصيرة وسخروها في طاعته ونيل رضاه وفعل ما ينقذهم من عذابه.

﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴿١١٥﴾﴾ إن الله تعالى حكيم عليم غني حميد، وأفعاله كلها مبنية على الحكمة، فلا يفعل العبث والباطل لذلك استنكر الله تعالى على المشركين حين أنكروا البعث والجزاء، وذلك أنه لو لم يكن بعث وجزاء لكان خلق الناس وخلق السماوات والأرض عبثاً باطلاً لا فائدة فيه ولا مصلحة، وخالياً عن الحكمة والله تعالى منزه عن فعل الباطل والعبث؛ لأنه حكيم عليم غني حميد.

إذاً فلا بد أن يكون هناك حياة أخرى مترتبة على هذه الحياة الدنيا يجازي فيها المحسن على إحسانه والمسيء على إساءته؛ لأن ذلك هو ما تدعوا إليه الحكمة والمصلحة، فلذلك استنكر الله سبحانه وتعالى على المشركين عندما أنكروا الحياة والبعث بعد الموت أشد الاستنكار؛ لأنهم نسبوا إليه ما لا يليق به من الظلم والعبث.

﴿فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ﴾ فقد تعالى عن العبث وعن فعل القبيح وعما ينسبون إليه.

وقد حكي أن أحد أولاد عبد المطلب أو هاشم وذلك قبل مبعث النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ- كان يقول: لن يموت المظلوم حتى يرى ما ينصفه ممن ظلمه، فقالوا له: إن فلاناً قد مات قبل أن ينتصف له ممن ظلمه، فنظر هذا الرجل إلى الأرض ملياً، وأخذ ينكت بيده فيها مفكراً، ثم صاح: بأنه لا بد أن يكون هناك دار غير هذه الدار يحصل فيها التناصف؛ فعرف بعقله أن هناك داراً غير هذه الدار، مما يدل على أن معرفة ذلك من الأمور العقلية.

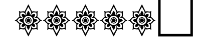
﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ﴿١١٦﴾﴾ فلا إله غيره، فهو وحده مالك السماوات والأرض. والكريم معناه كثير النفع لخلقه، وقوله: ﴿الْعَرْشِ الْكَرِيمِ﴿١١٦﴾﴾: الملك الذي فيه المنافع الكثيرة لكم.

﴿وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ﴾ من يعبد إلهاً غير الله سبحانه وتعالى عن غير دليل ولا حجة.

﴿فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ﴾ فهو الذي سيحاسبه وسيجازيه، وفي هذا تهديد للمشركين الذين يعبدون غيره بأنه الذي سيتولى أمر حسابهم وتعذيبهم، مما يدل على شدة ذلك وبلوغه الغاية القصوى في الشدة والفظاعة.

﴿إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴿١١٧﴾﴾ فهم خاسرون، ولا حظ لهم ولا نصيب في رحمة الله سبحانه وتعالى وثوابه.

﴿وَقُلْ رَبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ﴿١١٨﴾﴾ ثم أمر الله سبحانه وتعالى نبيه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ أن يدعوه بهذا الدعاء، ونحن نتأسى به في جميع أفعاله، وفي ذلك دليل على فضل هذا الدعاء عند الله سبحانه وتعالى، وكثرة ثوابه في الدنيا والآخرة.



سورة النور

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿سُورَةٌ أَنْزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنْزَلْنَا فِيهَا ءَايَاتٍ بَيِّنَاتٍ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ۝١﴾ يخاطب الله سبحانه وتعالى المؤمنين بأن هذه السورة التي سيتلوها عليهم نبيه ﷺ قد فرض عليهم فيها بعض أحكامه وشرائعه التي سيبينها لهم من أحكام الزنا والقذف، وأحكام الاستئذان، وغير ذلك، وأخبر أنه أنزل عليهم هذه الآيات ليعملوا بأحكامها، وما جاء فيها.

﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ﴾ ومما فرضه الله تعالى وأوجبه في هذه السورة عليكم هو أن من ارتكب فاحشة الزنا فاجلدوه مائة جلدة.

﴿وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ﴾ وأقيموا عليهم هذا الحد، ولا يمنعكم عنه أي مانع من رحمة أو شفقة أو قرابة، أو نحو ذلك.

وقد عبر بقوله فاجلدوهم: اشتقاقاً من جلد الأنسان الذي أمر بضربه، وفيه أيضاً إشارة إلى أنه لا يتجاوزه إلى كسر عظم، أو إحداث جروح أو نحوه.

﴿إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ فامتثلوا لما أمركم الله سبحانه وتعالى به، فمن أخل بشيء من ذلك فقد أخل بحقيقة الإيمان.

﴿وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ۝٢﴾ ولتكون إقامة الحدود على مرأى من الناس، وفي محضرهم يشاهدونه، فلا يصح إقامة ذلك سراً، وذلك لأن الحكمة في الحدود هي الزجر والردع والاعتبار، فإذا رأى الناس ذلك وما يلحق المحدود من الخزي والهوان ارتدعوا وحذروا أن يقعوا في مثل ذلك.

ومن شرط ذلك أن يكون هناك إمام حق يقيم الحدود وليس إلى الرعية.

﴿الزَّانِي لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ۝٣﴾ فلا يجوز للمؤمن أن يتزوج بزانية، وكذلك العكس.

﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً﴾ من رمى امرأة عفيفة واتهمها بفاحشة الزنا ولم يأت بالشهود على ذلك فالواجب على ولي أمر المسلمين أن يجلده ثمانين جلدة، وهذا يسمى حد القذف، وهذا إذا رافعته إلى حاكم المسلمين.

﴿وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا﴾ ولا تقبل شهادة القاذف المحدود.

﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴿٤﴾﴾ وهم عند الله تعالى من الفاسقين الخارجين عن حدوده.

﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴿٥﴾﴾ يخبر الله تعالى أن باب التوبة مفتوح لكل هؤلاء، وقد قالوا: إن التائب يُخْتَبَر بعد توبته سنة ثم يصير له حكم المؤمنين من تصديق خبره.

وفريضة الرجم قد ثبتت بالسنة، فقد رجم النبي صلى الله عليه وآله وسلم الزاني المحصن، وقد جلد أمير المؤمنين عليه السلام امرأة محصنة، ثم رجمها في اليوم الثاني، فقال: (جلدتها بكتاب الله تعالى، ورجمتها بسنة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم)، وأيضاً قد أجمع المسلون جميعاً على أن الزاني المحصن يرجم.

﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ﴾ يخبر الله سبحانه وتعالى عن حكم من رمى زوجته بفاحشة الزنا، ولم يأت بالشهود على ذلك، فقال: ﴿فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ﴿٦﴾﴾ أراد الله سبحانه وتعالى أن ولي أمر المسلمين يحضر المرأة والرجل على الملأ من الناس فيبدأ أولاً بالرجل فيحلفه على المنبر أربع مرات يقول فيها: «أشهد بالله الذي لا إله إلا هو أني صادق فيما رميت به هذه المرأة من الزنا»، يقول ذلك أربع مرات.

﴿وَالْخَامِسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴿٧﴾﴾ فيقول بعد تلك الأيمان الأربع: «لعنة الله عليَّ إن كنت كذبت فيما رميتها به».

﴿وَيَدْرَأُ عَنْهَا الْعَذَابَ أَنْ تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ﴿٨﴾﴾ ثم أخبر الله سبحانه وتعالى أن لهذه المرأة أن تدرأ عن نفسها الحد، فتقول بعد أن يحلف عليها الرجل: «أشهد بالله الذي لا إله إلا هو أنه من الكاذبين فيما رماني به من الزنا»، تقول ذلك أربع مرات.

﴿وَالْخَامِسَةَ أَنَّ غَضَبَ اللَّهِ عَلَيْهَا إِنْ كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴿٩﴾﴾ ثم بعد أن تحلف أربع مرات تقول في الخامسة: «لعنة الله عليَّ إن كان صادقاً فيما يدعيه علي من الفاحشة».

﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ﴿١٠﴾﴾ أخبر الله تعالى أن هذه الأيمان التي فرضها في هذه الحالة رحمة منه وشفقة بعباده وتخفيفاً منه عليهم.

هذا، وأما إذا لم تدرأ المرأة التهمة بالأيمان، فيجب عليها الحد، وبعد اللعان يفرق بينهما فلا يجتمعان بعد ذلك أبداً.

وهذا الحكم إذا رفع أمرهما إلى الأمام أو من يلي من جهته كالحاكم، وأما قبل ذلك فإن الواجب الستر عليهما ولا يلزمهما إلا التوبة فقط.

﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ مَا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴿١١﴾﴾ كان النبي صلى الله عليه وآله وسلم في سفر، وكانت عائشة معه، وقد جعل لها هودجاً يحملها، وعندما هموا بالمسير بعد أن كانوا قد ارتاحوا في بعض الطريق انكشف بعد ذلك أن عائشة لم تكن راكبة بداخل ذلك الهودج، وذلك أنها كانت قد ذهبت لبعض حاجاتها فلم تعد إلا وقد مشت القافلة فاضطرها ذلك إلى أن تركب مع رجل من أهل المدينة لتلحق بهم، فرأى بعض المنافقين ذلك الرجل وهي راكبة بعيره فاستغلوا هذه الفرصة ليلطخوا عرض النبي صلى الله عليه وآله وسلم، وينفروا الناس عنه، فنشروا الشائعات بين الناس بأن عائشة قد ارتكبت فاحشة الزنا مع ذلك الرجل فأنزل الله سبحانه وتعالى هذه الآية.

ثم أخبر الله سبحانه وتعالى أن هذه الحادثة التي نزل في شأنها القرآن لا تخلوا من الفائدة للناس، ولو كانت قد أوجعت نبيه ﷺ وآلمته، وذلك ليعرف المنافق من المؤمن.

وأما الذي تولى حَبْكَ هذه المؤامرة فقد أعد الله سبحانه وتعالى له العذاب العظيم وهو عبد الله بن أبي رأس المنافقين، وأما الذين تولوا نشر هذا الخبر فهم: حسان بن ثابت، ومسطح غلام أبي بكر، وحمنة بنت جحش زوجة طلحة بن عبيدالله، وقد جلد النبي ﷺ هؤلاء الثلاثة حد القذف.

وفائدة هذه الحادثة أيضاً هي أن يعرف الناس عظم هذه الفرية عنده، وعاقبة من فعل مثل ذلك فيرتدعوا عن فعلها، وليعرفوا حرمة أعراض الناس وأنها ليست بالسهلة فلا يقعوا فيها، وليبرئ الله سبحانه وتعالى نبيه ﷺ ويطهره عن مثل هذه الأقذار التي لطخوا بها عرضه.

﴿لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُبِينٌ﴿١٢﴾﴾ ثم أخبر الله سبحانه وتعالى بأنه كان من المفترض بكم أيها المؤمنون عندما تسمعون مثل هذا الكلام أن تحسنوا الظن بالنبي ﷺ وأزواجه، وأن لا تصدقوا فيهم أي كلام، أو تظنوا بهم أي سوء أو فاحشة، وأن تردعوا كل من يفتري مثل هذه الافتراءات بما أمكن.

﴿لَوْلَا جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ﴾ ولو فرض وأن ما يفترونه كان حقيقة فلماذا لا يأتون على ذلك بأربعة شهداء.

﴿فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُولَئِكَ عِنْدَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ﴿١٣﴾﴾ فإن لم يأتوا بالشهود على ذلك فاعلموا أنهم كاذبون فيما ينسبونه من التهم والافتراءات.

وأيضاً فإن الله سبحانه وتعالى يسميهم كاذبين ولو رأوا ذلك بأعينهم ما داموا لم يأتوا بالشهود؛ فإذا لم يأتوا بالشهود فإن الإمام أو من يليه يقيم عليهم الحد.

﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴿١٤﴾﴾ ثم أخبر الله تعالى أنه لولا رحمته بهم لأخذهم على ذلك بالعذاب العظيم؛ لأن ما فعلوه جريمة عظيمة وكبيرة من الكبائر.

فانظر إلى مدى رحمة الله تعالى بعباده إذ تعرضوا لعرض أفضل خلقه، ولطخوا أزكى البشر وأحبهم لديه، ثم لا ينكل بهم أشد التنكيل.

﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ﴾ فما إن سمعتم هذا الخبر حتى بدأتم في نشره وإذاعته غير مبالين بمن تتكلمون عنه، ومع ذلك تتكلمون بكلام لا علم لكم بصدقه وحقيقته.

﴿وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ﴿١٥﴾﴾ وتتهاونون بإذاعة هذا الخبر ونشره متساهلين لعواقبه وما يؤدي إليه، مع أنه جريمة عظيمة عند الله سبحانه وتعالى وعواقبه وخيمة عنده.

﴿وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ﴿١٦﴾﴾ وكان من المفترض بكم عندما تسمعوا مثل هذا الكلام أن تقولوا: لا ينبغي لأحد أن يتكلم بمثل هذا الخبر، وأن تتعجبوا وتستنكروا على من أذاع مثل هذا الخبر الذي هو زور وبهتان، فلا ينبغي أن يصدر مثل هذا الخبر ممن يتسمى باسم الإيمان.

﴿يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴿١٧﴾﴾ أراد الله تعالى النهي لمن يدعي أنه مؤمن عن فعل مثل هذه الفعلة المستنكرة.

وفي هذه الآية رائحة التهديد بأن من فعل ذلك فقد خرج عن حقيقة الإيمان فلا يسمى مؤمناً.

﴿وَيُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴿١٨﴾﴾ يبين الله سبحانه وتعالى لعباده هذه الأحكام لما قد علم من المصلحة العائدة عليهم في اجتنابها، وما تؤدي إليه من المفاسد بين الناس في الدنيا والآخرة.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ ءَامَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ۝١٩﴾ يهدد الله سبحانه وتعالىٰ أولئك الذين يلطخون أعراض المؤمنين بما ينشرونه عنهم من الأخبار التي فيها تنقيص لهم وحط من قدرهم.

﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ۝٢٠﴾ أخبر الله تعالىٰ أنه لولا رحمته لعباده لأخذهم وعذبهم بذلك، غير أن عفوه سبق سخطه فعدل إلىٰ وعظهم ونهيهم عن ذلك، وإخبارهم بما يستوجبه ذلك.

﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ﴾ نهى الله سبحانه وتعالىٰ عباده أن يصدقوا وساوس الشياطين، وكذلك تصديق كلام أولئك الذين يتكلمون باسم الشياطين كالمنافقين والفساق، وكذلك الاستجابة لدعوتهم، وترك دعوة الله ورسوله.

يحث الله سبحانه وتعالىٰ عباده بذلك وأن يتأدبوا بآداب الله تعالىٰ ويمشوا علىٰ ضوء نهجه وتعاليمه.

﴿وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾ وأخبر أن الشيطان لا يدعوا إلا إلىٰ عمل الفواحش والمنكرات.

﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ۝٢١﴾ وأنه لولا ما تفضل الله به عليكم بإرسال النبي محمد صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ ونعمة الإسلام ما اهتدى أحد من خلقه إلىٰ طريق الحق والرشاد، ولما ميز أحد بين المحق والمبطل والحق والباطل.

وقوله: ﴿يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ﴾ أي يهدي من أراد الاهتداء، وقد بعث الله سبحانه وتعالىٰ نبيه صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ ليستنقذ عباده من أوحال الضلال، ويخرجهم من الظلمات إلىٰ النور، ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ ءَايَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ [الجمعة:٢]، فلولا أن الله سبحانه وتعالىٰ

هدانا بنبيه ﷺ يزكينا ويهدينا لما استطعنا أن نزكي أنفسنا بتجنيبها ما يخلصها من شوائب الضلال والمعاصي.

﴿وَلَا يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَى وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا﴾ حلف بعض الأغنياء على أن يقطعوا الصلات والعطايا عن الذين قذفوا عائشة، فنهاهم الله تعالى عن الحلف وأمرهم بالعفو والصفح عن قذفتها، وكان بعض قذفتها من المهاجرين الفقراء، وبعضهم من أهل المدينة.

﴿أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴿٢٢﴾﴾ فتصدقوا عليهم وأعطوهم ولا تمنعوهم، فسيغفر الله لكم ويجعلها كفارة لذنوبكم، وأيضاً سيغفر الله لهم إن هم تابوا ورجعوا إلى الله سبحانه وتعالى.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴿٢٣﴾﴾ ثم أخبر الله تعالى عن أولئك الذين يرمون النساء العفيفات الطاهرات اللاتي هن بعيدات كل البعد عن مثل تلك الفواحش بأنه سيخزيهم ويطردهم من رحمته في الدنيا والآخرة ويعذبهم عذاباً عظيماً في نار جهنم.

﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴿٢٤﴾﴾ وإذا أنكروا يوم القيامة فستشهد عليهم ألسنتهم بما تكلموا به، وكذلك أيديهم وأرجلهم.

﴿يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ﴾ وأن الله تعالى يوم القيامة سوف يوفيهم جزاءهم بالحق فلا يزيد على ما يستحقون ولا ينقصهم شيئاً.

﴿وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ﴿٢٥﴾﴾ وسوف يعلمون هنالك أن الله تعالى هو الإله الحق الذي تحق له العبادة والطاعة، وأن حكمه الحكم الحق والصدق، وأن وعده حق وجزاءه حق.

وهؤلاء الذين نزلت فيهم هذه الآية كانوا من المنافقين، وذلك أن شأن المؤمن أن لا يمس عرض النبي ﷺ أو يلحقه بسوء، وهم وإن أظهروا

التوبة من ذلك فتوبتهم تلك لم تكن من داخل قلوبهم، ولو كانوا مؤمنين لما أخبر الله سبحانه وتعالىٰ عنهم بأنهم لن يعرفوا ويتيقنوا إلا يوم القيامة أنه حق مبين مما يدل علىٰ أنهم كانوا منافقين.

﴿الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ﴾ يعني الكلمات الخبيثات المفترض أن تكون للخبيثين فقط، فلا ينبغي أن يتكلم أحد بالكلمة الخبيثة إلا في عرض الرجل الخبيث أو المرأة الخبيثة.

﴿وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ﴾ والخبيثون عديمو الإيمان هم الذين يصدر عنهم الكلام الفاحش والخبيث.

﴿وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ﴾ الكلمات الطيبات لا يقولها إلا الرجال الطيبون.

﴿وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ﴾ وكذلك الرجال الطيبون هم أهل الكلمات الطيبات.

﴿أُولَئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ﴾ وهم الطيبون والطيبات فهم بريئون مما يقوله المنافقون ويرمونهم به.

فمن هتك ستر نفسه وجاهر بالمعاصي فلا حرج علىٰ من تكلم فيه، وذكره بالسوء والمكروه، ولذا ورد في الحديث: ((من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يقفن مواقف التهم))، فمن وقف مواقف التهم فلا يلومن إلا نفسه إن تكلم أحد في عرضه بشيء.

﴿لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٢٦﴾﴾ وهم الطيبون والطيبات.

﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾﴾ ثم أخذ الله سبحانه وتعالىٰ في تعليم عباده كيف يسدون منافذ الفتن ومداخلها، فنهىٰ أولاً عن دخول الرجل بيت أحد حتىٰ يستأذن علىٰ أهل ذلك البيت، ثم إن عرف بوجودهم فينبغي أن يسلم عليهم ليشعرهم بوجوده فلا يفاجئهم بالدخول، فإن أذنوا له بالدخول دخل وإلا فلا؛ ثم أخبر الله سبحانه وتعالىٰ أن ذلك هو

الأفضل والأحسن فيقع نظره على محاسن امرأة فيجد الشيطان بسبب ذلك على الرجل مدخلاً لإيقاعه في الفتنة، ولما في ذلك من الابتعاد عن مواضع التهم.

﴿فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّى يُؤْذَنَ لَكُمْ﴾ ثم أرشد الله تعالى عباده إلى ترك الدخول إن استأذن فلم يجبه أحد فينتظر إلى أن يحصل له الأذن بالدخول.

﴿وَإِنْ قِيلَ لَكُمُ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَى لَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ۝٢٨﴾ وإن لم يؤذن لكم أو قالوا لكم ارجعوا، فلا تدخلوا وارجعوا وراءكم، فالرجوع أقرب إلى العفة وطهارة النفس، وقد شرع الله تعالى لنا هذه الآداب الرفيعة لعلمه تعالى بما يصلح عباده، وبما يفسدها.

﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَاعٌ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ۝٢٩﴾ ثم أخبر الله سبحانه وتعالى أنه قد رفع الحرج والاستئذان في البيوت العامة كالفنادق، وما أشبهها فلا حرج في الدخول من غير استئذان.

وقد أراد الله سبحانه وتعالى بالمتاع المنافع الموجودة فيها كاستئجار السكن وشراء الأكل ونحو ذلك.

ثم أخبر الله سبحانه وتعالى أنه مطلع على ما في نفوس عباده وعلى ما في ضمائرهم، وعالم بأهل النيات الحسنة والخبيثة، وسيجازي كلاً على حسب ما يستحق.

﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ﴾ ثم شرع الله تعالى في تعليم عباده وإرشادهم إلى شيء آخر مما يسد منافذ الشيطان ومداخل الزنا وسد أبوابه، فأمرهم بغض أبصارهم عن النظر في محاسن النساء؛ لأن النظر هو أول مدخل للشيطان يدخل منه لإغراء الرجل بالمعصية ودعوته إلى فعلها.

﴿وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ۝٣٠﴾ وأمرهم أيضاً أن يحفظوا فروجهم فلا يضعوها في الحرام.

﴿وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ﴾ وكذلك المؤمنات الواجب عليهن غض أبصارهن عن النظر إلى الرجال حفاظاً على حشمتهن ودينهن.

﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾ ولا يظهرن محاسنهن للرجال إلا ما ظهر وهو الوجه والكفان، فيجب عليها أن تستتر فلا تكشف زينتها حيث يراها الرجال، ثم استثنى الله سبحانه وتعالى من ذلك الشيء الذي لا بد لها من كشفه كالوجه والكفين للحاجة إلى كشفهما في مزاولة أعمالها من تجهيز الحطب والماء فلا يجب عليها تغطيتها، ولكن يجب على الرجال غض الأبصار، والواجب عليها مع ذلك أن لا تخرج لغير حاجتها، أو تسير إلى غير حاجتها، وأن تتجنب مقابلة الرجال، وتغض بصرها عن النظر إليهم.

وقد أمرهن الله تعالى في آية أخرى بالاستتار في البيوت فقال تعالى: ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ﴾ [الأحزاب:٣٣]، لما في ذلك من الحفاظ على حشمتهن وعدم تعرضهن للفتنة، وقد قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم لأزواجه: ((هذه ثم الحُصُر))، وذلك عندما حج بهن أمرهن بعد تحجيجهن أن يلزمن حصير بيوتهن فلا يخرجن منها.

﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ﴾ وعلى المرأة أن تستر صدرها وثدييها وعنقها ولا يجوز لها كشف ذلك، وقد أمرهن الله تعالى في هذه الآية بأن يسترن صدورهن بطرف خمار الرأس.

﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ ءَابَائِهِنَّ أَوْ ءَابَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ﴾ لا يجوز للمرأة أن تبدي شيئاً من زينتها كشعر الرأس والعنق ونحو ذلك لأحد إلا لهؤلاء الذين استثناهم الله سبحانه وتعالى في الآية.

والمراد بنسائهن: المؤمنات منهن، مما يدل على أنه لا يجوز لها أن تبدي

محاسنها عند غير المسلمات، ولا حرج على المسلمة في إظهار زينتها لأمتها، ولا يجوز أن تظهرها لعبدها.

والتابعون هم البلهاء الذين لا حاجة لهم إلى النساء ولا داعي في نفوسهم إليهن، وكذلك الأطفال لأنهم لا يلتفتون إلى النظر إلى عورة المرأة وزينتها ولا يفكرون في ذلك.

﴿وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ﴾ يرشد الله سبحانه وتعالى المرأة هنا أنها إذا خرجت تمشي بين الناس فينبغي لها أن لا تضرب بقدميها بقوة على الأرض حتى يسمع الرجال صوت ما تلبسه من الذهب والفضة وما أشبههما، وكذلك العطور التي تنفح منها الروائح القوية والجذابة؛ لما في ذلك من لفت أنظار الرجال إليهن، وبعث دواعي الشهوة.

﴿وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣١﴾﴾ أمر الله سبحانه وتعالى عباده بأن يتداركوا ما فرط منهم فيما مضى بالتوبة والرجوع إليه.

﴿وَأَنْكِحُوا الْأَيَامَى مِنْكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ﴾ ثم شرع الله سبحانه وتعالى في إرشاد الناس إلى الباب الثالث مما يسد منافذ الزنا والفتنة ومداخل الشيطان، فأمر الله تعالى أولياء الأمور بأن يسارعوا في تزويج من بلغت سن الزواج فلا يمسكوهن فيصبحن عرضة للفتنة وفاحشة الزنا، وكذلك ما ملكتم من العبيد والإماء فينبغي أن تزوجوا كل من استطاع منهم القيام بالحقوق الزوجية؛ لأن إمساكهم يؤدي إلى انتشار فاحشة الزنا في صفوف المؤمنين، ونشر الفساد بينهم.

﴿إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٢﴾﴾ فزوجوا نساءكم ولو كان الزوج فقيراً فليس ذلك عيباً أو نقصاً، وسوف يغنيهم الله تعالى من فضله؛ وكذلك الرجل لا ينبغي له أن يترك الزواج خوفاً من الفقر والحاجة فليس الفقر مانعاً، وسوف يغنيه الله تعالى من فضله، فهذا وعد من الله سبحانه

وتعالى بأن من كان فقيراً فسوف يغنيه، ولن ينقص ذلك من ملكه شيئاً، فلا ينبغي أن يكون الفقر مانعاً من الزواج لا للرجال ولا للنساء.

﴿وَلْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّى يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ ثم أمر الله سبحانه وتعالى الفقراء الذين لا يستطيعون الزواج أن يلزموا العفة والصبر حتى ييسر الله تعالى عليهم، أراد الله سبحانه وتعالى منهم أن يتكلفوا العفة والصبر ويبالغوا في ذلك.

﴿وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا وَءَاتُوهُمْ مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي ءَاتَاكُمْ﴾ ثم أمر الله تعالى الذين يملكون العبيد بأن لا يمنعوا من أراد من عبيدهم أن يشتري نفسه، ويسمى ذلك المكاتبة وهو أن يطلب العبد من سيده ويتفق معه أن يكاتبه على عتق نفسه على أن يسلم له مال الكتابة على دفعات يتفقون على تحديدها، ولكن بشرط أن يعلم السيد بأنه من أهل الوفاء والقدرة على أداء مال الكتابة من حرفة يمتهنها أو نحو ذلك، وإلا فلا يلزمهم إجابتهم.

وأيضاً ينبغي أن يعينوهم على أداء مال الكتابة من الزكاة.

﴿وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ كان المنافقون في المدينة الذين يملكون الإماء يكرهونهن على الزنا وتأجير أنفسهن ليجلبن لهم الفلوس، وإن لم يفعلن ذلك عذبوهن حتى تضطر إلى أن تذهب للبحث مكرهة عمن تؤجر نفسها منه.

﴿وَمَنْ يُكْرِهْهُنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٣٣﴾﴾ فمن تاب بعد نزول هذه التعاليم فإن الله سبحانه وتعالى سوف يتوب عليه.

وقد نزلت هذه الآية في عبدا لله بن أُبَيّ كما قيل فقد كان يملك الكثير من الإماء، وكان يكرههن على الزنا ويضطرهن إليه، وكن يردن العفة، وكان من المفترض أن يكون هو الذي يريد لهن العفة لا هن.

﴿وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ ءَايَاتٍ مُبَيِّنَاتٍ وَمَثَلًا مِنَ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ ثم أخبر الله تعالى بأن هذه التعاليم والإرشادات أنزلها على عباده رحمة بهم وفي مصلحتهم ومنفعة دينهم ودنياهم.

﴿وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ۝٣٤﴾ وأن هذه الآيات والأمثال لن ينتفع بها ويقبلها إلا المتقون فقط، وأما غيرهم فإنهم سيعرضون عنها أشد الإعراض.

﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ ثم أخبر الله سبحانه وتعالى بأنه قد أنار السماوات والأرض بالحق والهدى والآيات البينات، حتى صار الحق مكشوفاً وجلياً لمن أراده وقصده، وذلك بإرسال محمد ﷺ، وما أنزله عليكم من القرآن، بعد أن كانت السماوات والأرض مغطاة بظلمات الجهل والشرك والكفر فقشع تلك الظلمات بنور الإسلام.

﴿مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ﴾ كان العرب في لغتهم يعتمدون في وصف الأشياء على المجازات والأمثال والتشبيهات فخاطبهم الله سبحانه وتعالى على عادتهم وافتنانهم- في إنزال القرآن، فأخبر أن نوره ذلك كمصباح قد وضع في كوة، وذلك المصباح يضيء داخل زجاجة، وتلك الزجاجة في صفائها كالكوكب الدري الوهاج.

﴿يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ﴾ وأن الوقود الذي يشعل ذلك المصباح مستخرج من شجرة الزيتون التي زيتها في غاية الصفاء حتى أنك تستطيع أن ترى الأشياء من خلاله بوضوح من شدة صفائه.

﴿لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ﴾ ثم وصف الله سبحانه وتعالى هذه الزيتونة بأنها مغروسة في أصلح الأماكن التي تخرج أزكى الثمار وأشرفها كالتي في أعالي الجبال التي تستمد غذاءها الصافي من الشمس والريح النقية، فلا تستطيع الطفيليات أن تصل إليها بسبب أشعة الشمس تلك التي تدافعها، ولما فيها من الغذاء والفيتامينات التي تزيد من قوتها.

﴿يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ﴾ أراد أنه من شدة صفاء زيت هذه الشجرة كأنه يضيء.

﴿نُورٌ عَلَى نُورٍ﴾ وأن هذه الأشياء التي هي المصباح والزجاجة وزيت الزيتون عندما اجتمعت زاد نورها وتضاعف؛ وهذا تشبيه وتمثيل لنور الله سبحانه وتعالى الذي هو الهدى بأنه قد بلغ من الصفاء والوضوح لعباده، وقد أصبح جلياً واضحاً يستضيء به كل من أراده وطلبه.

﴿يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ ثم أخبر الله سبحانه وتعالى أنه يهتدي بنوره هذا أولئك الذين يخافونه ويمتثلون لأوامره، ويقفون عند نواهيه.

﴿وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣٥﴾﴾ يصور الله سبحانه وتعالى ذلك للناس ويضرب لهم الأمثال والأوصاف؛ ليزيد من إفهامهم، وليرغبهم في طاعته لما علم من المصلحة لهم في ذلك.

﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ﴾ وأن ذلك المصباح والزجاجة يضيء في بيت من بيوت الله سبحانه وتعالى لتعظيمها بذكره وعبادته.

أراد الله سبحانه وتعالى أن تلك المشكاة التي يضيء فيها المصباح في بيت من بيوته فإن ذلك يزيد من بهائها وجمالها ويكون ذلك أوقع في النفس مما لو كانت في غيرها.

وأراد بقوله: ﴿أَنْ تُرْفَعَ﴾: يعني تنزه من الأقذار والنجاسات وعدم اللعب فيها والاستهانة بحرمتها.

﴿يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ﴿٣٦﴾ رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ﴾ وأن هذه المساجد معمورة بذكر الله تعالى في جميع الأوقات، والغدو هو الصباح، والآصال هو آخر اليوم؛ وأن هؤلاء الرجال قد أخلصوا نفوسهم لله تعالى، وقد تجردوا من جميع ملذات الدنيا وشهواتها ومطالبها، فلا يدعون دنياهم تلهيهم عن أداء ما افترض الله عليهم.

﴿يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ ﴿٣٧﴾﴾ وصفة هؤلاء الرجال

أنهم خائفون من الله تعالىٰ وخائفون من عذابه وسخطه، مما يجعلهم يبادرون إلىٰ طاعته وامتثال أوامره.

﴿لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴿٣٨﴾﴾ وأنهم يفعلون ذلك طمعاً فيما وعدهم الله سبحانه وتعالىٰ من الثواب الذي يتفضل به عليهم زيادة علىٰ ما يستحقون.

يذكر الله سبحانه وتعالىٰ هنا حال المؤمنين وصفتهم، ثم شرع في ذكر حال الذين كفروا فقال:

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا﴾ فمثل أعمال البر التي يعملها الكفار في الدنيا كمثل السراب في عدم الانتفاع بها، فهم يعملون أعمال البر وهم يظنون أنها مقبولة، وأنهم سينالون جزاءها، غير أنه سيكون خلاف ما يتوقعون فعندما يحين موعد الحساب والجزاء سيكتشفون أنهم لم يحصلوا علىٰ شيء من ثواب تلك الأعمال لأنهم أحبطوها بأعمال الكفر التي يعملونها، وأن حالهم كحال العاطش الذي يتراءىٰ له الماء علىٰ مسافة منه، فإذا وصل إليه انكشف له عدم ذلك، وأنه ليس إلا خيالاً كاذباً.

وأما أعمال البر التي كان يعملها المشركون فذلك أنهم كانوا يتسابقون ويتنافسون في أعمال الخير والبر من إكرام الضيف، وإغاثة الملهوف، ونصرة المظلوم، وحماية الجار، وغير ذلك من الصفات الحميدة التي كانوا يتصفون بها؛ فأخبرهم الله سبحانه وتعالىٰ أن حال أعمالهم هذه كحال ذلك السراب.

هذا، وأما إذا أسلم الكافر بعد ذلك فإن ما قدمه من أعمال البر حال كفره سوف ينفعه، وسوف ينال ثوابه، وذلك لما روي أن جبير بن مطعم سأل النبي صلى الله عليه وآله وسلم عن أعمال بر كان يعملها في جاهليته وكان يتحنث بها في خلال شركه، فأجابه النبي صلى الله عليه وآله وسلم: ((بأنك أسلمت علىٰ ما أسلفت يا جبير))، أو ما في معنىٰ الحديث،

أراد النبي ﷺ أن من أسلم فله ما أسلف من أعمال البر ويكتب له ثوابها، ويؤخذ من هذا أن من تاب رجعت له الأعمال التي أحبطتها المعاصي.

﴿وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ۝٣٩﴾ وسوف يحاسبهم الله تعالى على أعمال الكفر والمعاصي، وسيجازيهم عليها جزاءً كاملاً.

﴿أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ﴾ ثم شبه الله تعالى أعمال المشركين تشبيهاً آخر، فشبه أعمال الخير والبر التي كانوا يعملونها في جاهليتهم وشركهم بحال من هو في ليلة مظلمة في عمق بحر، وفوقه موج، وفوق ذلك الموج موج آخر، من فوق ذلك الموج سحاب قد غطى الدنيا بظلمته.

﴿ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ﴾ وأن أعمالهم ظلمات بعضها فوق بعض فكما لا يستطيع المرء أن ينتفع في هذه الظلمات بشيء فكذلك المشركون حال شركهم وضلالهم لا ينتفعون بشيء من الأعمال، لما هم فيه من ظلمات الشرك والجهل والتكذيب والفسوق والعصيان.

﴿إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا﴾ من شدة الظلام المطبق والمتراكم.

﴿وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ۝٤٠﴾ فلم تنفعهم أعمالهم هذه؛ لأنهم لم يهتدوا بهدى الله تعالى، ولم يستضيئوا بنوره، واختاروا ظلمات الجهل على نور الإسلام.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ۝٤١﴾ ألم تعلم يا محمد أو أيها المخاطب أن كل شيء مما خلقه الله تعالى يسبح الله تعالى وينزهه بما أبدع فيه من عجيب صنعه وقدرته وينطق بأنه الإله الذي يستحق العبودية وحده ويستحق الحمد والثناء وأن ينقاد كل شيء لعظمته وكبريائه؛ إذاً فتسبيحها هو دلالتها على خالقها ومدبرها بما أبدع من عجيب صنعه فيها.

وخص ذكر الطير لما في النظر والتأمل فيها من البعث على العجب والتساؤل عما يمسكها في السماء ويمنعها من السقوط، وما هو الذي يسيرها في الهواء؟ فلا بد أن يعترف الناظر بأن قادراً أمسكها، ومدبراً أوجدها على هذه الصفة العجيبة، ولا بد أن يوحد الله تعالى كل من نظر إليها وينزهه عن الشركاء؛ فهذا هو المراد بتسبيحها.

وإسناد التسبيح إلى هذه الأشياء من الإسناد المجازي والمراد أنها سبب في تسبيح الله سبحانه وتعالى لكل من نظر وتفكر فيها.

وأيضاً لسان حالها ينطق بأن الله تعالى هو المتفرد بخلقها وإبداعها، وأما قوله تعالى: ﴿الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ۝٥ وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ۝٦﴾، فالمراد أنها منقادة لله تعالى غير خارجة عن ذلك الميزان الذي قدره لها، ولا متخلفة عما أراده الله منها.

﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ۝٤٢﴾ الله وحده هو الذي بيده ملك السماوات والأرض فتوجهوا إليه بعبادتكم، واتركوا ما تدعونه من الشركاء والأنداد، فما دام مصيركم إليه فتوجهوا إليه واستسلموا له وانقادوا.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا﴾ يحث الله سبحانه وتعالى عباده ثانية على النظر في السحاب، وفي عجيب صنعه وتأليفه وكيف يسوقه تعالى سوقاً خفيفاً، ويسيره في السماء بقدرته وتدبيره.

﴿ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا﴾ ثم يجمع بين قطع السحاب المتناثرة في السماء فما تلبث أن ترى هذا السحاب قد تكاثف واجتمع وأصبح كتلة واحدة، فمن الذي ألفه وجمع أجزاءه؟

﴿فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ﴾ ثم ترى قطرات المطر تخرج من بين السحاب.

﴿وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ﴾ وينزل الله سبحانه وتعالى بقدرته البرد والثلوج من ذلك السحاب، ويحصل ذلك بريح باردة تضربه بإذن الله فتتجمد ذرات المطر هذه حتى تصبح كالجبال من الثلج فينزلها قليلاً قليلاً بقدرته وتدبيره.

﴿فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَنْ مَنْ يَشَاءُ﴾ فيصيب الله تعالى به بعض البلدان التي أراد أن يسقيها، ويصرفه عن أخرى بقدرته وتدبيره على حسب مقتضى علمه وحكمته.

﴿يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ﴿٤٣﴾﴾ وللمعان برقه قوة قوية يكاد أن يذهب بالأبصار ويأخذها من شدة توهجه ولمعانه.

﴿يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِأُولِي الْأَبْصَارِ﴿٤٤﴾﴾ ثم حث الله تعالى على التفكر والنظر في آية أخرى من آياته الدالة على إلهيته وقدرته ووحدانيته، وهي آية الليل والنهار وتعاقبهما لمن أراد أن يعتبر بهما.

ثم أخبر أنه لن ينتفع بآياته هذه إلا الذين سلمت عقولهم من أمراض الكفر والنفاق والكبر وسلمت عيون فطرهم من غشاوات الكبر والإثم والتمرد.

﴿وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَاءٍ﴾ والله وحده هو الذي خلق جميع الحيوانات التي تدب على الأرض بمشيئته وقدرته، وأوجدها من تلك النطفة التي تضعها الذكور في الأرحام، فيكونها بحكمته وقدرته وتدبيره.

﴿فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ﴾ ثم قسم الله سبحانه وتعالى بقدرته هذه الدواب فجعل منها ما يمشي على بطنه، ومنها ما يمشي على رجلين، ومنها ما يمشي على أربع أرجل.

﴿يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴿٤٥﴾﴾ وفي ذلك دلالة واضحة على قدرة الله تعالى على إحياء الموتى وبعثهم للحساب والجزاء.

﴿لَقَدْ أَنْزَلْنَا ءَايَاتٍ مُبَيِّنَاتٍ﴾ ثم أقسم الله سبحانه وتعالىٰ هنا بأنه قد أنزل لعباده الآيات الواضحة التي تسوقهم إلىٰ معرفته ومعرفة وحدانيته، وأنه وحده الذي يستحق العبادة، والتي تقطع الأعذار علىٰ أولئك الذين يعبدون غيره ويتخذون إلهاً غيره.

﴿وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴿٤٦﴾﴾ ثم أخبر أنه يهتدي بآياته هذه عباده الذين استجابوا لدعوة نبيه ﷺ وآمنوا به وصدقوه، فهؤلاء هم الذين قد شاء أن يهديهم ويزيدهم من النور والهدىٰ، وأما أولئك الذين رفضوا دعوة محمد ﷺ عندما جاءتهم فقد سلبهم الله سبحانه وتعالىٰ ألطافه وتوفيقه ولن يوفقوا إلىٰ توبة أبداً ما داموا مصرين علىٰ ما هم عليه من الكبر والكفر والتكذيب والتمرد.

﴿وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا﴾ امتلأت المدينة بالمنافقين، وأصبحوا الكثرة الكاثرة، وكانوا يدعون الإيمان بالله ورسوله ﷺ بألسنتهم فقط وأما قلوبهم فكانت مليئة بالكفر.

﴿ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ﴿٤٧﴾﴾ فبعد إيمانهم بالله تعالىٰ ورسوله ومبايعتهم علىٰ السمع والطاعة لله ورسوله يذهبون إلىٰ فعل خلاف ما عاهدوا وبايعوا عليه؛ لأنهم لا زالوا كفاراً في الأصل والحقيقة.

﴿وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ مُعْرِضُونَ﴿٤٨﴾﴾ ثم وصفهم الله تعالىٰ بأنهم إذا اختصموا مع أحد ثم دعاهم إلىٰ حكم الله ورسوله رفضوا ذلك وأعرضوا عنه، وذلك لأنهم في الحقيقة لا زالوا علىٰ الكفر والشرك؛ وقد جعل الله سبحانه وتعالىٰ ذلك علامة لهم يعرفون بها بين الناس.

﴿وَإِنْ يَكُنْ لَهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ﴿٤٩﴾﴾ وأما إذا عرفوا أن الحق لهم عند أحد فإنهم يقبلون إلىٰ النبي ﷺ مسرعين ليحكم لهم.

﴿أَفِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَمِ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَنْ يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ﴾ ما السبب في رفضهم المحاكمة إلى الله تعالى ورسوله، هل هو لأجل أن قلوبهم لا زالت مليئة بالكفر؟ أم لريبتهم في النبي صلى الله عليه وآله وسلم بأنه لن يحكم بالحق؟ أم كانوا خائفين أن يجور عليهم النبي صلى الله عليه وآله وسلم فلا ينتصف لهم؟

والحيف هو الميل.

﴿بَلْ أُولَئِكَ هُمَ الظَّالِمُونَ﴿٥٠﴾﴾ فليس هذا ولا ذاك، بل لا زالوا على الكفر والضلال ولم يؤمنوا بالله ورسوله صلى الله عليه وآله وسلم.

﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ ثم أخبر الله سبحانه وتعالى أن من شأن المؤمنين إذا دعاهم أحد إلى التحاكم إلى الله تعالى ورسوله أن يجيبوا بالسمع والطاعة.

﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴿٥١﴾﴾ يبشرهم الله سبحانه وتعالى بأنهم هم الذين سيظفرون بثواب الله تعالى ورضاه.

﴿وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ﴿٥٢﴾﴾ فمن يتبع أوامر الله سبحانه وتعالى ويستجب لرسوله صلى الله عليه وآله وسلم ويتق عصيان الله تعالى ورسوله فهؤلاء هم الذين سيفوزون برضاء الله سبحانه وتعالى وثوابه في الدنيا والآخرة.

﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ﴾ أخبر الله سبحانه وتعالى عن شأن المنافقين بأنهم كانوا يحلفون للنبي صلى الله عليه وآله وسلم بأبلغ الأيمان وأغلظها بأنه إن أمرهم بالخروج للجهاد معه ليخرجن.

﴿قُلْ لَا تُقْسِمُوا طَاعَةٌ مَعْرُوفَةٌ﴾ فأمر الله سبحانه وتعالى نبيه صلى الله عليه وآله وسلم أن يرد عليهم بأن لا يحلفوا فهم معروفون وكيفية طاعتهم معروفة.

﴿إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴿٥٣﴾﴾ وأن يخبرهم بأنهم مهما حلفوا وأقسموا من الأيمان فإن الله سبحانه وتعالى عالم بأعمالهم ومطلع عليها وعلى نياتهم القبيحة والمكائد التي يكيدونها لنبيه صلى الله عليه وآله وسلم وللإسلام في الخفاء.

﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا﴾ ثم أمر الله سبحانه وتعالى نبيه ﷺ بأن يبلغ الناس ويأمرهم بطاعة الله تعالى وطاعة رسوله، وأنهم إن تمردوا عن قبول ذلك ورفضوا دعوتك يا محمد وردوها واستهزئوا بها: ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ﴾ فما على الرسول إلا أداء ما حمله الله تعالى وكلفه من تبليغ رسالات الله قبلوا أم لم يقبلوا، وليس مكلفاً بدخولهم في الإسلام.

﴿وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ﴾ وأنتم أيها الناس عليكم ما حملكم نبيكم من الشرائع والأحكام، وقد لزمتكم الحجة، فإن أطعتم فسيثيبكم الله تعالى، وإن تمردتم فوزر تمردكم على ظهوركم.

﴿وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴿٥٤﴾﴾ ينصحهم الله تعالى بأنهم إن أطاعوا الله ورسوله فقد أجابوا إلى ما فيه هداهم ونجاتهم، وأما النبي ﷺ فقد أدى ما لزمه من التبليغ وإلزام الحجة، وأما دخولكم في الهدى وقبولكم فأمر ذلك راجع إليكم، وهذا كما ذكرنا من أن النبي ﷺ كان يتألم الألم الشديد وكاد أن يقتله الأسى والحزن على عدم إيمان قومه وعدم قبولهم دعوته، وما كان من حرصه الشديد على دخولهم في الهدى واستنقاذهم من عذاب الله تعالى وسخطه رحمة وشفقة بهم، فأنزل الله تعالى هذه الآية ليؤذنه بأنه قد أدى ما عليه.

﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ أبطأ نزول النصر على المؤمنين، وطال انتظارهم له، وطال عليهم البلاء والشدة من المشركين وأذاهم، فأخبرهم الله سبحانه وتعالى بأنه قد وعدهم بأنه سيقهر المشركين، وسيذلهم ويكسر شوكتهم، ويقطع دابرهم إما باستئصالهم بعذابه أو بخزي الدنيا، وأنهم بعد ذلك سيكونون المسيطرين في الأرض وأصحاب القهر والغلبة والسلطان، وأن دينهم سيعلو على دين المشركين وعلى بقية الأديان، أراد الله سبحانه وتعالى بذلك أن يشجعهم على الصبر على دينهم، وعلى ما يلحقهم من المشركين.

ثم أخبر أن حالهم كحال أتباع الأنبياء السابقين وهو أن النصر والغلبة والسيطرة في النهاية لهم.

﴿وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ﴾ ووعدهم بأنه أيضاً سيقهر جميع الأديان، وسيصبح دين الإسلام هو المسيطر في الأرض فوق جميع الأديان.

﴿وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا﴾ ووعدهم أيضاً بأنه سيبدلهم الأمن والأمان والرخاء والسيطرة بعد ذلك الخوف والأذى الذي يلحقهم من المشركين.

﴿يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا﴾ وستكون كلمة الله هي العليا، وستكون عبادته هي السائدة والظاهرة في جميع أقطار البلاد بعد أن كانت عبادة الأصنام هي الدين السائد.

﴿وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٥٥﴾﴾ فبعد أن يمكن الله سبحانه وتعالى دينه في الأرض فإن من تراجع عنه فقد حكم الله تعالى عليه بالخروج عن الإيمان واستوجب سخط الله تعالى وعذابه.

﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾ ثم أمر الله سبحانه وتعالى عباده المؤمنين بأن يداوموا على أداء ما افترض عليهم من الصلوات بشرائطها من الوضوء والطهارة والنية واستيفاء أذكارها وأركانها، وكذلك إخراج ما أوجب عليهم في أموالهم إلى فقرائهم، وأن لا يخلوا بشيء من ذلك.

﴿وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٥٦﴾﴾ والتزموا ما يأمركم به نبيكم ﷺ لتدخلوا في سلك رحمة الله تعالى وثوابه في الدنيا والآخرة.

﴿لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَلَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿٥٧﴾﴾ ثم وجه الله سبحانه وتعالى خطابه إلى نبيه ﷺ والمقصود به المؤمنون جميعاً، وذلك لكونه الكبير والقائد، فأخبرهم الله تعالى بأن لا يظنوا أن الله تعالى عاجز عن أخذ الكافرين بعذابه وما هم فيه من الأمن والرخاء والسعة والجاه والسلطان ليس إلا لإكمال الحجة عليهم والقطع لأعذارهم يوم القيامة

وسيأخذهم بعد ذلك، فهم تحت قبضته وسيطرته، وفي الأخير سيعذبهم في نار جهنم وبئس المصير.

﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ ثم رجع الله تعالىٰ إلىٰ تلقين عباده الآداب التي ينبغي أن يتأدبوا بها ويلتزموا بها في حياتهم الدنيا.

﴿لِيَسْتَأْذِنْكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنْكُمْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ مِنْ قَبْلِ صَلَاةِ الْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُمْ مِنَ الظَّهِيرَةِ وَمِنْ بَعْدِ صَلَاةِ الْعِشَاءِ﴾ أمر الله سبحانه وتعالىٰ عباده بتأديب أولادهم وعبيدهم بهذه الآداب وهي تعليمهم متىٰ يستأذنون عند دخولهم عليهم، وخاصة في هذه الثلاثة الأوقات التي هي قبل صلاة الفجر؛ لأنهم كانوا في العادة يجلسون مع زوجاتهم في ذلك الوقت، وكذلك وقت الظهيرة وبعد صلاة العشاء؛ لأن الغالب في هذه الأوقات أن يكون الرجل مع امرأته، فأمرهم بذلك لأجل أن لا يصادف دخولهم ذلك فيطلعوا منهم علىٰ ما يكرهون، وخاصة في ذلك الزمان لقلة الإمكانيات من عدم وجود الأبواب ونحوها، وأما اليوم فقد تغير الوضع بالنسبة لذلك الزمان.

والمراد بثلاث مرات: مرة في كل وقت من هذه الأوقات.

﴿ثَلَاثُ عَوْرَاتٍ لَكُمْ﴾ وأن هذه الأوقات المفترض بكم أن تعلموهم الاستئذان فيها لئلا يطلعوا علىٰ عوراتكم وما لا تحبون أن يطلع عليه أحد من أسراركم.

﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ﴾ فقد رفع الله تعالىٰ الجناح والحرج في غير هذه الثلاثة الأوقات وقد أباح لهم أن يدخلوا عليكم بدون أخذ الإذن.

﴿طَوَّافُونَ عَلَيْكُمْ بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ يؤكد الله سبحانه وتعالىٰ بذلك رفع الجناح.

وأما بالنسبة للمرحلة التي ينبغي أن تعلموا فيها صبيانكم فهي تكون من بداية تمييزه بين الأشياء، ومن حين يعقل التأديب.

هذا، وتأديب الأولاد وتعليمهم آداب الإسلام بجميع أشكالها واجب على الأولياء كالطهارة، وحسن الكلام، وحسن الأكل، وحسن المعاملة، وغير ذلك من الآداب التي يكثر تعدادها ((كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته...)) الحديث.

﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ۝٥٨﴾ يبين الله سبحانه وتعالى لعباده أحكام دينه في هذه السورة من أحكام الزنا والقذف وغير ذلك مما تقدم ذكره؛ لما علم من المصلحة والحكمة في ذلك، وما علم من المنفعة التي تعود عليهم في الدين والدنيا.

﴿وَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنْكُمُ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَأْذِنُوا كَمَا اسْتَأْذَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ ثم انتقل الله سبحانه وتعالى إلى ذكر ما ينبغي أن يتعلمه الأطفال بعد بلوغهم فأخبر أنه يجب تعليمهم الاستئذان في جميع أوقات الليل والنهار.

﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ ءَايَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ۝٥٩﴾ لما علم من الحكمة والمصلحة في تعليمهم ذلك.

﴿وَالْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاءِ اللَّاتِي لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَنْ يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ وَأَنْ يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَهُنَّ﴾ ثم ذكر الله سبحانه وتعالى حكم النساء اللاتي قد قعدن عن الحيض والولد وقد تقدمن في السن وانقطع طمع الرجال فيهن، فأخبر أنه لا جناح ولا حرج عليهن أن يخرجن بين الناس، وذلك لأن مظنة الفتنة قد ارتفعت، ولكن لا يلبسن الزينة التي تبعث على الشهوة؛ لأن الحكمة من تحريم النظر والتبرج هو سد منافذ الفتنة وأبواب الشيطان، وهذه قد أصبحت في مرحلة لا يفتتن بها أحد.

ثم أرشدهن الله سبحانه وتعالى إلى الأحسن والأفضل لهن وهو أن يستعففن ويستترن في بيوتهن فلا يخرجن إلا لحاجتهن.

﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ۝٦٠﴾ فاحذروا أن تقعوا فيما يسخط الله تعالى فهو عالم بما في ضمائركم ونياتكم وسيجازيكم عليها، فينبغي أن يصلح كل امرئ نيته

ويحفظ فرجه ولسانه.

﴿لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ﴾ كان الأعمى قبل أن تنزل هذه الآية يتحرز عن مؤاكلة الأصحاء ويتجنب الأكل معهم خوفاً أن يقع فيما لا ينبغي، وكذلك الأعرج لكونه يحتاج إلى أن يشغل مكان غيره، وكذلك المريض خوفا أن يتسبب في أذية أحد أو سد نفس أحد، فأنزل الله تعالى هذه الآية يخبرهم بأنه لا حرج عليهم في فعل ما تحرجوا عنه.

﴿وَلَا عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَنْ تَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ ءَابَائِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَانِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَامِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَالِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَالَاتِكُمْ﴾ رفع الله تعالى الحرج عن المؤمنين وأباح لهم مؤاكلة هؤلاء ومخالطتهم، وذلك أن الله تعالى عندما أنزل: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا﴾ [النساء:١٠]، ونحوها من الآيات أصبحوا يتحرجون ويتشككون في مؤاكلة هؤلاء ومخالطتهم خوفاً أن يأكل أحدهم شيئاً من نصيب صاحبه.

﴿أَوْ مَا مَلَكْتُمْ مَفَاتِحَهُ أَوْ صَدِيقِكُمْ﴾ وكذلك لا جناح على الرجل أن يأكل من مكان أباح أهله له الأكل منه وأعطوه مفاتحه، وكذلك أصدقاؤكم لا جناح عليكم أن تأكلوا من بيوتهم لجري العرف والعادة بالتسامح في ذلك.

﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَأْكُلُوا جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا﴾ رفع الله تعالى الجناح في الأكل مع من ذكر مجتمعين أم متفرقين.

﴿فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُبَارَكَةً طَيِّبَةً﴾ أراد الله سبحانه وتعالى بذلك الاستئذان عند الدخول وهو أن يقول من أراد الدخول على أحد: السلام عليكم، فإن سمع أحداً يرد عليه ويسمح له بالدخول- فلا بأس، وإلا فليرجع.

وقوله ﴿عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ﴾ أراد الله تعالى إخوانكم من المؤمنين، وذلك أن المؤمنين كالنفس الواحدة.

وقد شرع الله تعالى السلام تحية بين عباده فيما بينهم؛ لأن التحية كانت من قبل فيما بينهم: عِمْ صباحاً، وعمت مساءً، وما أشبه ذلك؛ فأرشدهم الله تعالى إلى تحية الإسلام، ووصفها بأنه جعلها كثيرة النفع والبركة لعباده.

ومعنى طيبة: تستلذ بها النفوس وترتاح إليها.

﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٦١﴾﴾ وهي الأحكام التي فيها تفصيل شرائعه وآدابه يبينها لعباده؛ لكي ينتفعوا بها ويعملوا بأحكامها.

﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَىٰ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا حَتَّىٰ يَسْتَأْذِنُوهُ﴾ ثم أخبر الله تعالى أنه لا يستحق أن يسمى مؤمناً، ولن ينال حقيقة الإيمان إلا أهل هذه الصفة، وهم الذين صدقوا بالله تعالى ووحدانيته، وصدقوا ما جاءهم به أنبياؤه ورسله وأطاعوا النبي ﷺ فيما كلفهم به، ولم يتهربوا من طاعته كما يتهرب المنافقون.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمُ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٢﴾﴾ وأخبر الله سبحانه وتعالى نبيه ﷺ أنه لن يستأذنه إلا المؤمنون، وأن من استأذنه منهم فإن له أن يأذن لمن شاء منهم، ممن لا يكون له إليهم حاجة أو ضرورة، وأن يطلب لهم المغفرة لأجل استئذانهم ذلك.

﴿لَّا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُم بَعْضًا﴾ يدل على أن إجابة دعاء النبي ﷺ واجبة، وأن تنفيذ مطالبه واجبة كيفما كانت الظروف، وأن شأنه ليس كشأن بقية الناس.

﴿قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾﴾ ثم أخبر الله سبحانه وتعالى

بأنه عالم بأولئك الذين يلوذ بعضهم في بعض يتحينون الفرص للتسلل خلسة من مجلس النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ بدون أي استئذان، وهذا تهديد من الله سبحانه وتعالى لهم بأنه سيجازيهم على أعمالهم تلك.

وأيضاً يحذرهم الله تعالى أن يتعرضوا لمثل هذه الأعمال التي توقعهم في الفتنة كما حصل مع أولئك المتمردين من بني إسرائيل عندما ابتلاهم الله تعالى بالسمك كانت تأتيهم يوم سبتهم ظاهرة على الماء سهلة المنال، وكان الصيد محرماً عليهم في ذلك اليوم، فكانوا يتحيلون لصيدها رغم ذلك، وما ذلك الابتلاء والاختبار إلا لأجل فسقهم وتمردهم عن طاعة الله تعالى وتجاوزهم لحدوده، فحذر الله تعالى هؤلاء عن مخالفة النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ وعدم إجابته أن ينالهم مثل ما نال أولئك المتمردين من بني إسرائيل من الفتنة.

وأما المؤمنون فإن الله تعالى يحوطهم بلطفه وشفقته فلا يعرضهم لمثل تلك الفتن التي تقربهم إلى معصيته والخروج عن حدوده.

﴿أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ فهو المالك والمتصرف في كل ما في السماوات والأرض.

﴿قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ﴾ فهو عالم بما في نياتكم وضمائركم، وعالم بأهل النيات الخبيثة والنيات الحسنة.

﴿وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٦٤﴾﴾ وسوف يرى كل امرئ يوم القيامة ما عمله في السر والعلن حتى مثقال الذرة فهي مسجلة عند الله تعالى وقد أحصاها كتابه، وسيجازيهم على هذه الأعمال، وكذلك ما قد أضمروه في نياتهم وسرائرهم سيجازيهم على كل ذلك.



سورة الفرقان

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يفتتح الله سبحانه وتعالى كل سورة بذكر ثلاثة أسماء من أسمائه وهي الله الرحمن الرحيم إشارة منه تعالى إلى أنه أنزل القرآن رحمة بعباده لأجل أن يستنقذهم به من ظلمات الجهل والضلال والهلاك، ويدلهم به إلى سعادة الدنيا وسعادة الآخرة، وأنه لم ينزله علينا لأجل أن يثقل علينا بتكاليفه وأحكامه.

﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا①﴾ يعني أن الله سبحانه وتعالى قد تكاثر خيره وتكاثرت نعمه وإحسانه على عباده، وعبر عن ذلك بتبارك؛ لأن من المعروف أنهم يعبرون عن كل شيء يتكاثر وينمو بالبركة؛ ومن جملة منافعه ونعمه الكبيرة علينا إنزال القرآن على النبي ﷺ، وسمي الفرقان بهذا الاسم؛ لأنه يفرق بين الحق والباطل بآياته وأحكامه ويضيء لهم طريق الحق والهدى، ويدلهم عليها، فيجب أن نتلقى نعمته العظيمة هذه بالشكر، وتأدية ما فرض وأوجب وأمر.

﴿الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ ثم وصف نفسه بأنه الإله الذي له ملك السماوات والأرض وما فيهما، وهو وحده المسيطر على ذلك الملك بقدرته وعلمه وتدبيره.

﴿وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا﴾ كما يقول اليهود والنصارى والمشركون.

﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ﴾ كان المشركون يعبدون الأصنام ويقولون إنها شركاء مع الله سبحانه وتعالى في الإلهية، فأجاب الله سبحانه وتعالى عليهم بأنه ليس كما يزعمون فهو وحده الذي له ملك السماوات والأرض لا يشاركه في ذلك أحد.

﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ وهو وحده الذي تفرد بخلق كل شيء، وأما تلك التي تعبدونها فليست إلا أحجاراً منحوتة ومخلوقة.

﴿فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا۝٢﴾ خلق كل شيء على حسب ما تقتضيه الحكمة والمصلحة، وعلى قدر ما تدعوا إليه الحاجة من دون أي زيادة أو نقصان، فالشمس والقمر والنجوم والبحار وكل شيء في هذا الكون خلقه الله، وجعله على قدر معلوم وميزان موزون، على حسب ما يلائم استقامة الحياة، بحيث أن شيئاً من ذلك لو زاد أو نقص لاختل توازن الحياة ولفسدت.

﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ ءَالِهَةً لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا﴾ نزلت هذه السورة في مكة وأهلها يعبدون الأصنام، فاستنكر الله سبحانه وتعالى عليهم ذلك، وأنهم لا يعبدون إلا أحجاراً ينحتونها بأيديهم، فلماذا لا يتوجهون بعبادتهم إلى الله الذي نزل الفرقان والذي له ملك السماوات والأرض، والذي بيده خلق كل شيء؟ فهو أهل لأن يعبد دون تلك التي لا تملك أي شيء ولا تستطيع أن تخلق شيئاً، ولا تحمل أي صفة من صفات الإلهية.

﴿وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ يعبدون هذه الآلهة مع أنها مخلوقة مثلهم.

﴿وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾ وليس في مقدورها أن تنفع حتى ولو أنفسها فضلا عن غيرها، وكذلك لا تستطيع أن تضر أنفسها بشيء.

﴿وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا۝٣﴾ فالموت والحياة والبعث والنشور بيد الله سبحانه وتعالى وحده، أما تلك الآلهة التي يعبدونها فهي بعيدة كل البعد عن أي شيء من ذلك.

يطلعنا الله سبحانه وتعالى هنا على سخافة عقول المشركين عندما يعبدون هذه الآلهة التي تحمل صفات النفي هذه.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا۝٤﴾ عندما بعث الله سبحانه وتعالى نبيه محمداً ﷺ وأنزل عليه القرآن يدعوهم إلى عبادة الله وحده وترك الأصنام قال مشركو أهل مكة: ليس هذا الكلام الذي جاء به محمد إلا كذباً وافتراءً من عند نفسه وليس

من كلام الله كما يزعم، وليس نبياً كما يدعي، وقد ساعده على ترويج كذبته هذه بعض سفهاء القوم وعبيدهم؛ ثم أجاب الله سبحانه وتعالى عليهم بأنهم قد ظلموا النبي صَلَّىٰاللهُعَلَيْهِوَآلِهِوَسَلَّمَ بادعائهم عليه هذه الادعاءات الباطلة ونسبتهم إليه هذه التهم الباطلة.

﴿وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا۝٥﴾ وكذلك قالوا عن محمد صَلَّىٰاللهُعَلَيْهِوَآلِهِوَسَلَّمَ وعما جاءهم به من القرآن ليس إلا قصصاً من تلك التي سطرها الأولون في بطون الأوراق عما جرى عليهم من الأحداث، وقد استأجر من يكتبها له من المؤرخين وعلماء التاريخ، ثم نسب ذلك إلى أنه من عند الله.

﴿قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا۝٦﴾ ثم أمر نبيه صَلَّىٰاللهُعَلَيْهِوَآلِهِوَسَلَّمَ أن يجيب عليهم بأن الأمر ليس كما يزعمون، وإنما هو منزل من عند الله سبحانه وتعالى الذي يعلم كل ما دق وخفي من أمور السماوات والأرض، وأن ما جاء به هو كلام الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وأن يخبرهم بأن الله سبحانه وتعالى قد رحمهم عندما لم يؤاخذهم بسبب تكذيبهم ونسبتهم له إلى الكذب والافتراء بعد أن كان من المفترض أن ينزل بهم عقابه بسبب ذلك، فأمهلهم وتأنى بهم؛ لأن العفو والرحمة من صفاته.

﴿وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا۝٧﴾ ثم لجأوا إلى وسيلة أخرى في محاولة الصد عن دعوة النبي صَلَّىٰاللهُعَلَيْهِوَآلِهِوَسَلَّمَ فقالوا: بأنه لو كان نبياً كما يزعم لما أكل الطعام ومشى في الأسواق، ولكان من جنس غير جنس البشر، أو على الأقل يستصحب معه ملكاً من ملائكة السماء يشهد له بالنبوة والرسالة.

﴿أَوْ يُلْقَى إِلَيْهِ كَنْزٌ﴾ أو يلقي إليه ربه كنزاً من الذهب والفضة.

﴿أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا﴾ أو يرزقه الله بستاناً كبيراً يأكل منه وينفق، أما أن يدعي النبوة وهو فقير معدم فذلك ما لا يكون.

﴿وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا۝٨﴾ ولا زال مشركو قريش يحاولون إفساد دعوة النبي ﷺ، وكلما ورد ذم في القرآن للمشركين فالمراد بهم مشركو مكة؛ لأنهم الذين وقفوا في وجه دعوته ﷺ من حين مبعثه إلى أن مات.

وهم هنا يعيرون من آمن بالنبي ﷺ بأنهم لم يتبعوا إلا رجلاً قد أثر فيه السحر وتمكن فيه، حتى صار يهذي ويهلوس بكلام يدعي أنه كلام الله، وفي الحقيقة ليس ذلك إلا من تأثير السحر، وليس إلا كذاباً.

﴿انْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا۝٩﴾ ثم أمر الله سبحانه وتعالى نبيه ﷺ بأن ينظر إلى شأن المشركين وما ضربوا له من الأوصاف فتارة يقولون: أساطير الأولين اكتتبها، وتارة يقولون: إنه افتراه من عند نفسه، وتارة يقولون: إنه إذا كان نبياً فلماذا يأكل الطعام، وتارة يقولون: مسحور؛ وكل أقوالهم هذه لا شيء منها أثر في طمس دعوته، ولم يستطع أي عاقل أن يقبلها أو يستسيغها، وكل السبل لم تفلح في الوقوف في وجه ما جاء به.

﴿تَبَارَكَ الَّذِي إِنْ شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِنْ ذَلِكَ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَيَجْعَلْ لَكَ قُصُورًا۝١٠﴾ ثم أوحى الله سبحانه وتعالى إلى نبيه ﷺ بأن لا يجد في نفسه من اقتراحاتهم ولا يكبر عليه ما قالوا، وأخبره أنه تعالى تكاثر خيره وبيده خزائن السماوات والأرض، ولو أراد لجعل له خيراً وأفضل مما قالوا من الكنوز والجنات والقصور، ولكن الله عليم حكيم لم تقتض الحكمة أن يكون له ذلك، وذلك أن الناس لو رأوا معه ذلك لسعوا إليه واتبعوه طمعاً فيما عنده من الكنوز والأموال، لا لما جاءهم به من الدين، وقد أراد أن يكون فقيراً لا يملك شيئاً من متاع الدنيا حتى لا يأتي إليه إلا من أراد الإيمان عن قناعة خالصة، وإيمانه يكون خالصاً لله تعالى لا طمعاً في جاه أو مال أو دنيا.

﴿بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنَا لِمَنْ كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا﴾ وأخبر أن المشركين لو كانوا مؤمنين بالبعث بعد الموت لصدقوا ما جاءهم به محمد ﷺ خوفاً من غضب الله سبحانه وتعالىٰ وسخطه أن يلحق بهم.

﴿إِذَا رَأَتْهُمْ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا﴾ ثم وصف الله سبحانه وتعالىٰ جهنم التي أعدها للمكذبين بأنها أوقد عليها حتىٰ صار لها صوت شديد يسمع شدة وقيدها من بعد.

﴿وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُقَرَّنِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا﴾ ثم أخبر الله سبحانه وتعالىٰ عن حالهم عندما تلقي بهم زبانية العذاب في جهنم، فأخبر أن ملائكة العذاب ستقرن كل مجموعة منهم في قيد واحد، ثم يلقون بهم فيها، فعند ذلك ينادون بالويل والثبور.

ويقال: إن العرب كانت عادتهم إذا وقع أحدهم في شدة أو مهلكة يصيح: وا ثبوراه ويا ويلاه، فهذا هو معنىٰ الثبور.

﴿لَا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا﴾ وعند صراخهم سيقول الله سبحانه وتعالىٰ لهم: إنكم ستمكثون هكذا تنادون بالويل والثبور دائماً وأبداً.

﴿قُلْ أَذَلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ كَانَتْ لَهُمْ جَزَاءً وَمَصِيرًا﴾ بعد أن وصف الله تعالىٰ النار التي أعدها للمكذبين بالساعة بأنهم يسمعون حسيسها من مكان بعيد، وبعد أن وصف حال أهلها عندما يلقون فيها، أمر الله سبحانه وتعالىٰ نبيه ﷺ أن يسأل المشركين أيهما أفضل: حالة أهل النار أم حالة أهل الجنة التي وعدها المتقون؟

فسيكون جوابهم حتماً بأن الجنة أفضل؛ لأن العاقل لا يختار الشر حتماً؛ فلماذا اختار المشركون طريق الشر وساروا فيها، وتركوا الطريق التي دعاهم إليها النبي ﷺ، والتي فيها نجاتهم وفوزهم وفلاحهم، مما يدل علىٰ خفة عقولهم وسخافتها.

ثم وصف الله سبحانه وتعالىٰ الجنة التي وعدها المتقون فقال: ﴿لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ خَالِدِينَ﴾ فكل ما يتمناه أهلها من النعيم يعطيهم الله تعالىٰ فيها، وهم يتقلبون في النعيم دائماً وأبداً من دون أي كلل أو ملل جزاءً علىٰ إيمانهم وأعمالهم الصالحة، وسيكون مصيرهم في آخر الأمر إلىٰ ذلك النعيم.

﴿كَانَ عَلَى رَبِّكَ وَعْدًا مَسْئُولًا۝١٦﴾ فهذا وعد وعدهم الله سبحانه وتعالىٰ به ولا بد أن يوفيهم به، وكذلك العذاب في النار فهو وعد من الله تعالىٰ عنه لا بد من وقوعه.

وقوله: «مَسْئُولًا» يعني أن الله سبحانه وتعالىٰ قد نزله علىٰ نفسه منزلة الواجب المحتوم الذي لا بد أن يوفي به، وكمنزلة ما إذا وعد الرجل بوعد وكان هناك من يطالبه بالوفاء به، وهذا تصوير لنفهم المعنىٰ المقصود.

﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ ثم أمر الله سبحانه وتعالىٰ نبيه ﷺ أن يذكر المشركين بيوم القيامة يوم يحشرهم الله تعالىٰ هم وآلهتهم التي كانوا يعبدونها من دونه فيجمعهم ﴿فَيَقُولُ ءَأَنْتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِي هَؤُلَاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ۝١٧﴾ هل أنتم الذين دعوتموهم إلىٰ عبادتكم؟ أم عبدوكم من تلقاء أنفسهم؟

﴿قَالُوا سُبْحَانَكَ مَا كَانَ يَنْبَغِي لَنَا أَنْ نَتَّخِذَ مِنْ دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ﴾ فتجيب هذه المعبودات: بأننا ننزهك يا الله عن ذلك الذي ينسبونه إلينا، وليس ينبغي لنا ذلك ونحن لم نأمرهم إلا بعبادتك وحدك، فهذا هو جواب تلك المعبودات كعيسىٰ وعزير والملائكة ونحوهم.

﴿وَلَكِنْ مَتَّعْتَهُمْ وَءَابَاءَهُمْ حَتَّى نَسُوا الذِّكْرَ﴾ وهذا من كلامهم أيضاً: بأنك يا الله قد متعتهم بالنعم وقلبتهم فيها وأمهلتهم هم وآباؤهم حتىٰ ألهتهم الدنيا وشهواتها عما جاءهم من الهدىٰ علىٰ ألسنة أنبيائهم.

﴿وَكَانُوا قَوْمًا بُورًا﴿١٨﴾﴾ فهم فاسدون من أصلهم، وهم أهل باطل وضلال وخذلان، وهم الذين اختاروا طريق الضلال من تلقاء أنفسهم وبمحض اختيارهم وإرادتهم، فاتخذوا لهم آلهة وعبدوها لم يأمرهم بذلك أحد سوى الشيطان وهوى أنفسهم.

﴿فَقَدْ كَذَّبُوكُمْ بِمَا تَقُولُونَ﴾ ثم يوجه الله سبحانه وتعالى خطابه إلى المشركين فيقول: إذاً فما بالكم تعبدونهم ولم يدعوكم إلى ذلك، وها أنتم تسمعون إنكارهم وتكذيبهم لكم.

﴿فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا﴾ بعد أن تغلبهم الحجج وتسكتهم يبحثون عمن ينصرهم أو يدفع عنهم عذاب الله تعالى فلا يجدون لهم مصرفاً أو مهرباً يهربون إليه من عذاب الله الذي ينتظرهم، ولم يبق لهم إلا النار يدفعون لهيبها ويتقونه بوجوههم.

﴿وَمَنْ يَظْلِمْ مِنْكُمْ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا﴿١٩﴾﴾ لا زال الله تعالى يخاطب مشركي مكة، ويتهددهم لعلهم يرجعون إلى عبادته ويتركون عبادة الأصنام التي بعبادتها لا يظلمون إلا أنفسهم.

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ﴾ كان المشركون يستنكرون على النبي صلى الله عليه وآله وسلم كيف يصح أن يكون نبياً وهو يأكل الطعام ويمشي في الأسواق كشأن البشر، فأخبر الله سبحانه وتعالى نبيه صلى الله عليه وآله وسلم أنه لم يرسل نبياً قبله إلا على هذه الصفة، وأن الأنبياء جميعاً من عهد آدم إلى آخر الأنبياء يأكلون الطعام ويمشون في الأسواق.

﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا﴿٢٠﴾﴾ ثم أوحى الله سبحانه وتعالى إلى نبيه صلى الله عليه وآله وسلم أنه قد كلف بعض البشر بتحمل رسالته وتبليغها، وكلف بعضهم بالإيمان بهم والاتباع لهم اختباراً للمرسل والمرسل إليه، هل سيطيعونه ويتحملون ما كلفهم به؟ وكذلك ما جعل بين الناس من

التفاوت، ورفع بعضهم فوق بعض، وتفضيل بعضهم على بعض كل ذلك فتنة واختبارٌ لهم من سيصبر منهم ومن سيشكر؟ وكل ذلك جعله الله سبحانه وتعالى لحكمة ومصلحة يعلمها لهم، وكذلك جعل أنبياءه من البشر فيه حكمة ومصلحة لا تحصل إلا إذا كان الرسول من البشر.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ أَوْ نَرَى رَبَّنَا﴾ وهم المشركون المنكرون للبعث بعد الموت والحساب، كانوا يحتجون على الله تعالى لماذا لا يرسل أنبياءه من الملائكة أو يجعلهم يشاهدون ربهم عياناً فيخبرهم بصدق ذلك الذي أرسله إليهم حتى يكونوا على يقين من أمرهم.

﴿لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا﴿٢١﴾﴾ فأجاب الله سبحانه وتعالى عليهم بأن الذي منعهم من الإيمان إنما هو الكبر؛ لأنهم قد علموا أن ما جاءهم به محمد ﷺ هو الحق، وأنه نبي صادق مرسل من عند الله، فرفضوا اتباعه والاستجابة له استكباراً منهم وعناداً، وطلبوا ذلك المطلب المستحيل، وذلك أن المتكبر هو الذي لا يقبل الحق بعد معرفته، ولو كان يمشي في الأرض على وجهه من شدة التواضع.

والعتو معناه تجاوز الحد في الكبر.

﴿يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ لَا بُشْرَى يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَحْجُورًا﴿٢٢﴾﴾ اقتضت حكمة الله سبحانه وتعالى أن الإنسان لا يرى الملائكة إلا عند مشارفة الموت، فأخبر تعالى أنه من ساعة أن يرى المرء الملائكة فقد انقطع التكليف، ولم يبق له إلا ما قدمه من الأعمال؛ وأخبر أن المجرمين عندما يرون ملائكة الموت فقد حان وقت تعذيبهم، وأنهم سيعلمون حينئذ أن لا مفر لهم ولا مهرب منه فيتعوذون عند ذلك منهم، وقد كان العرب قديماً إذا لقي أحدهم عدواً له صاح به: (حجراً محجوراً) أي: لا تقربني ولا أقربك، والحجر هو السد والحاجز.

﴿وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا﴿٢٣﴾﴾ كان المشركون يعملون الأعمال الصالحة مع شركهم من مكارم الأخلاق كإكرام الضيف وإغاثة الملهوف وإطعام الطعام ونحو ذلك، فأخبرهم الله سبحانه وتعالى أنها لن تنفعهم تلك الأعمال مع شركهم وكفرهم، وأنها مع الشرك كأن لم تكن.

﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴿٢٤﴾﴾ فمقيل ومستقر أهل الأعمال الصالحة والإيمان بالله تعالى يوم القيامة أحسن من مقيل المشركين ومستقرهم فهم في الجنة يتقلبون في نعيمها الدائم.

﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ وَنُزِّلَ الْمَلَائِكَةُ تَنْزِيلًا﴿٢٥﴾ الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَنِ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا﴿٢٦﴾﴾ يصف الله سبحانه وتعالى يوم القيامة بأن السماء ستتهاوى أجرامها وتتساقط أجسامها، وتتشقق وتتفطر وسينزل الملائكة إلى الأرض، وذلك لأنها ستكون مكان الحشر والبعث وسيتساوى عاليها بواطيها حتى تكون قاعاً واحدة فلا جبال ولا بحار، ﴿لَا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا﴿١٠٧﴾﴾ [طه]، فعندها سيكون الملك لله تعالى وحده، وهو الذي سيحكم بين الناس محسنهم ومسيئهم.

ووصفه لنفسه بالرحمن هنا دون غيره من الأسماء ليفيد أن من رحمته بعباده أنه لن يعذب إلا من جنى على نفسه وظلمها بما عمل من السيئات، وأنه سيتجاوز عن الكثير ما دام هناك أعمال صالحة يعملونها، وأنه سيجازي على الحسنة الصغيرة أحسن الجزاء، وكل هذا من رحمته العظيمة الواسعة على عباده، وأنه لن يعذب إلا الأشقياء المتمردين عليه والمتجرئين المتجاوزين لحدوده ومحارمه.

﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَالَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا﴿٢٧﴾﴾ وأن الظالم في ذلك اليوم سوف يعض يديه من شدة الندم والتحسر على تكذيبه بالنبي صلى الله عليه وآله وسلم وعدم اتباعه ولكن حين لا ينفعه الندم.

﴿يَاوَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا﴾ ﴿٢٨﴾ وينادي على نفسه بالويل متندماً على اتخاذه ندماء السوء ومصاحبته لهم؛ لأن أكثر ما يؤثر على المرء هو الصديق والجليس، ولذا نهى الإسلام عن جلساء السوء وصحبتهم، وحثنا على اتخاذ الجلساء الصالحين.

﴿لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي﴾ فقد عرف الحق وعرف النبي صلى الله عليه وآله وسلم وصدق ما جاء به غير أن جليسه هو الذي منعه من اتباعه وأغواه عن طريق الحق، وأنه لا زال يطن في أذنيه بأنه ليس إلا كذاباً وليس إلا ساحراً حتى أخرجه عن طريق الحق وأضله عنها.

﴿وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا﴾ ﴿٢٩﴾ وأخبر الله تعالى أن الشيطان الذي اتبعوه لن ينفعهم وقت شدتهم ووقت حاجتهم إليه، فإذا جاء وقت الصدق فسيخذلهم ولن يروا منه أي نصر أو دفاع بل سيضيع عنهم.

﴿وَقَالَ الرَّسُولُ يَارَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْءَانَ مَهْجُورًا﴾ ﴿٣٠﴾ أخبر الله سبحانه وتعالى أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم سيشكو يوم القيامة قومه عند الله تعالى بأنه قد بلغهم القرآن وتلا عليهم آياته فرفضوا الاستماع إليه، وهجروا العمل بأحكامه وشرائعه؛ لأن المقصود بالقرآن هو العمل بأحكامه وما شرع فيه لا تلاوته فقط، ولو كان في تلاوته عبادة لله تعالى، ولكن الذي يتلوه ولا يعمل بأحكامه وشرائعه ليس له من الثواب شيء، وأما من يعمل بأحكامه فسيرى ثواب عمله ذلك ولو كان مقصراً في تلاوته.

﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ وَكَفَى بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا﴾ ﴿٣١﴾ يسلي الله تعالى نبيه صلى الله عليه وآله وسلم في هذه الآية ليخفف عنه ما كان يلاقيه من قومه من الأذى والشدة والتكذيب، فأخبره أن كل الأنبياء قبله قد لاقوا مثل ما لاقاه، وقد عانوا من أممهم أشد المعاناة.

ومعنى الجعل في الآية هو التخلية من الله تعالى بينهم وبين أنبيائهم.

وأخبره أنه يكفيه أن يكون الله تعالىٰ معه بنصره وتأييده؛ لأن النبي ﷺ كان يتمنىٰ أن يرىٰ المؤمنين في كثرة وقوة ليدفع بهم الشرك ويقاتل بهم المشركين، ولأن المدة كانت قد طالت عليه وقد طال انتظاره حتىٰ كاد أن يصيبه اليأس والملل، فقد مكث في مكة نحواً من عشر سنين يدعوا المشركين وهم في كثرة وعدة وعدد كبير وغناء وثراء، بينما كان هو ومن معه من الموالي كعمار وأبي ذر وبلال وصهيب ونحوهم في قلة، ومستضعفين طوال تلك المدة، ومنتظراً لأن يؤيده الله تعالىٰ بقبيلة من العرب ينتصر بها علىٰ المشركين، ويستقوي بها الإسلام والمسلمين؛ فلم يحصل له شيء من ذلك.

وقد خرج إلىٰ الطائف عله يجد فيها الناصر والمعين، ولكنهم قابلوه بالأذىٰ وسلطوا صبيانهم عليه يرجمونه بالحجارة حتىٰ أدموا أعقاب رجليه، فعاد وهو في حزن وأسىٰ شديدين، وخلال عودته كان خائفاً علىٰ نفسه من قريش فلا ناصر له أو معين في مكة بعد موت عمه أبي طالب، ولم يدخل إليها إلا في جوار مطعم بن عدي، فكبر في نفسه هذا الذي يلاقيه وأصابه الحزن الشديد وكاد اليأس أن يتمكن منه، فقوىٰ الله عزيمته بما أنزله إليه من القرآن.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَاحِدَةً﴾ استنكر المشركون علىٰ النبي ﷺ لماذا ينزل إليه القرآن مفرقاً، وعلىٰ التدريج سورة سورة، وآية آية؟ ولماذا لا ينزل عليه جملة واحدة مثل التوراة والإنجيل عندما نزلا دفعة واحدة؟ فأجاب الله تعالىٰ عن السبب في ذلك فقال:

﴿كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ﴾ الضمير في «به» للتفريق المفهوم من سؤال المشركين، أخبر الله تعالىٰ عن السبب في ذلك وهو لأجل أن تتمكن من حفظه يا محمد في قلبك، وذلك أن النبي ﷺ كان لا يقرأ ولا يكتب لا هو ولا أصحابه، فقد كانت مصاحفهم صدورهم فلم تكن الكتابة آنذاك مشهورة عند العرب ومنتشرة بصفة رسمية، ولو كان هناك أناس قليلون منهم يقرءون

ويكتبون، وكانوا يعتمدون على صدورهم في حفظ الأشياء.

﴿وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا﴿٣٢﴾﴾ وأنه قد فرقه تفريقاً، ونزله على هذه الصفة لهذا الغرض الذي ذكرناه.

﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴿٣٣﴾﴾ ثم أخبر الله سبحانه وتعالى أن المشركين لن يأتوه بأي اقتراح، أو يفترضون عليه أي رأي إلا وسيوحي إليه بالجواب الذي سيقنعهم ويسكتهم.

﴿الَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَى وُجُوهِهِمْ إِلَى جَهَنَّمَ أُولَئِكَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴿٣٤﴾﴾ ثم أخبر نبيه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ بأنه لن يدخل جهنم إلا شرار الناس، وقد نسب الشر إلى مكانهم هنا مبالغة في تناهيهم في الشر والضلال.

يقارن الله سبحانه وتعالى هنا بين المؤمنين والمشركين بأن المشركين أهل ضلال وأهل شر بأعمالهم التي يعملونها من عبادة الأحجار التي ينحتونها بأيديهم، بينما المؤمنون يعبدون الله الذي خلق كل شيء وقدره تقديراً.

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ﴾ ثم عقب الله سبحانه وتعالى ذلك بذكر ما جرى على أنبيائه ليسلي على نبيه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ بذكر ما جرى عليهم من التكذيب والرد لرسالته والأذى لتهون عليه مصيبته، فبدأ بذكر موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ وأخيه هارون.

﴿وَجَعَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هَارُونَ وَزِيرًا﴿٣٥﴾﴾ وأخبر أنه قد أرسل معه أخاه هارون ليكون ظهيراً له يعينه في تحمل عبء الرسالة وتكاليفها.

﴿فَقُلْنَا اذْهَبَا إِلَى الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ وأخبره بأنه أرسلهما إلى فرعون وقومه؛ لأنهم كانوا قد بلغوا الغاية في الظلم والطغيان والتعدي لحدود الله ومحارمه.

﴿فَدَمَّرْنَاهُمْ تَدْمِيرًا﴿٣٦﴾﴾ ثم إن الله سبحانه وتعالى أخذهم بسبب تكذيبهم بموسى وهارون، وأنزل عليهم عذابه وسخطه، وأنت يا محمد فاصبر على قومك وأذاهم فسوف يلحقهم مثل ما لحق آل فرعون من الهلاك والدمار.

﴿وَقَوْمَ نُوحٍ لَمَّا كَذَّبُوا الرُّسُلَ أَغْرَقْنَاهُمْ وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ ءَايَةً﴾ ثم عقب ذلك بذكر قصة نوح وما جرى عليه من قومه من التكذيب، وكيف كانت عاقبتهم أن أهلكهم الله سبحانه وتعالى وأغرقهم جميعاً؛ ليكونوا لمن خلفهم آية يعتبرون بهم.

﴿وَأَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا﴿٣٧﴾﴾ فاصبر يا محمد على أذى قومك فعما قريب سيحل بهم العذاب الأليم، فقد أعد الله عذاب قومك.

﴿وَعَادًا وَثَمُودَ وَأَصْحَابَ الرَّسِّ وَقُرُونًا بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيرًا﴿٣٨﴾﴾ وكذلك ما جرى على قبائل عاد وثمود وأصحاب الرس وغيرهم كثير من الأمم والأجيال قد أهلكناهم ودمرناهم بسبب تكذيبهم بأنبيائهم.

وأصحاب الرس هم أهل مدين.

﴿وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ الْأَمْثَالَ﴾ وأخبر الله سبحانه وتعالى نبيه ﷺ بأن هذه الأمم المكذبة بأنبيائها كل أمة قد قصصنا عليها مثل ما قصصنا عليك من أخبار الأمم التي سبقتها، وما جرى عليهم بسبب تكذيبهم، وكيف كانت عاقبتهم، ولكنهم جميعاً لم يعتبروا فعذبناهم جزاءً على ذلك.

﴿وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا﴿٣٩﴾﴾ أهلكناهم جميعاً وعذبناهم واستأصلناهم، فأنت يا محمد فاصبر فعما قريب سيحل بقريش مثل ما حل بمن سبقهم من الأمم؛ لأنه كما قلنا قد طال زمان انتظاره للفرج من عند الله، وقد مكث على تلك الحال من الشدة والضعف هو وأصحابه نحواً من عشر سنين، بينما كان يرى المشركين خلال ذلك في زيادة وكثرة وقوة يزدادون مع مرور الزمان.

﴿وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أُمْطِرَتْ مَطَرَ السَّوْءِ أَفَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَهَا بَلْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ نُشُورًا﴿٤٠﴾﴾ ثم أخبر الله سبحانه وتعالى نبيه ﷺ أن قريشا كانوا يمرون في طريق أسفارهم إلى بلاد الشام على تلك القرية التي أمطرها الله بعذابه وهي قرى قوم لوط، فاستنكر الله سبحانه وتعالى عليهم لماذا لا يعتبرون

بما رأوا، وما حل بأهل تلك القرى التي أمطرت مطر السوء، والذي جرأهم على التكذيب وعدم الاعتبار هو أنهم لا يؤمنون بيوم الحساب.

﴿وَإِذَا رَأَوْكَ إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا﴾ وأخبره أن قريشاً إذا نظرت إليك يا محمد فإنما ينظرون إليك نظر استهزاء واحتقار، ويجعلونك محل سخريتهم واستهزائهم.

﴿أَهَذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا﴿٤١﴾﴾ هذا تفسير الهزؤ الذي يستهزئون به والاحتقار الذي يحتقرونه به، فذكر أنهم كانوا يقولون: أهذا الفقير يتيم أبي طالب هو الذي يدعي أنه نبي مبعوث من عند الله؟! ألم ير الله تعالى إلا هذا ليجعله محل نبوته ورسالته؟! يتضاحكون بذلك.

﴿إِنْ كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا لَوْلَا أَنْ صَبَرْنَا عَلَيْهَا﴾ وكانوا يقولون: إن محمداً قد أوشك أن يدخلنا في ضلاله وسحره، لولا زكاء عقولنا، وقوة إيماننا بآلهتنا، وتمسكنا بديننا.

﴿وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ الْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴿٤٢﴾﴾ فرد الله سبحانه وتعالى عليهم بأنهم عما قريب سيعلمون من هو الذي في طريق الحق، ومن هو الذي في طريق الضلال.

﴿أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا﴿٤٣﴾﴾ أخبرني يا محمد عن ذلك الذي يتبع هوى نفسه، ويميل معها حيثما مالت به، هل تستطيع أن تمنعه عن ذلك أو أن تحاسبه؟ وهل تستطيع أن تدخله في الهدى والإيمان؟

فاتركه يختار الطريق التي أراد فمرجعه إلينا وسنحاسبه ونجازيه، أما أنت فقد أديت ما عليك من التبليغ.

﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ﴾ أم تظن يا محمد أنهم يسمعون الهدى الذي تأتيهم به أو يتفكرون في الآيات التي تتلوها عليهم.

﴿إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ﴾ فما حالهم إلا كحال البهائم لا يفقهون شيئاً مما تقول، ﴿بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴿٤٤﴾﴾ بل إن الأنعام أفضل حالاً منهم.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ﴾ ألم تنظر إلى آيات ربك التي جعلها لعباده في الأرض دالة على عظمته وجلاله وقدرته، فلماذا لا تنظرون وتتفكرون فيها؟

ثم أخبرهم كيف يتفكرون فأمرهم أن ينظروا إلى ظل الأشياء كيف تكون في أول النهار ممدودة ثم تبدأ في التناقص إلى أن تنتهي، ثم تزيد وهكذا.

﴿وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا﴾ وأنه لو شاء لأمسك الشمس مكانها فلا يتحرك ذلك الظل أو يزيد أو ينقص.

﴿ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا﴿٤٥﴾﴾ وأن الظل هذا الذي ترونه يأتي بسبب الشمس ويسير بسيرها.

﴿ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا﴿٤٦﴾﴾ وذلك أنه عند شروق الشمس يكون ممتداً ثم يأخذ في التناهي والتناقص شيئاً فشيئاً إلى أن ينتهي، وذلك هو المراد بقوله قبضناه، فكل ذلك بأمر الله سبحانه وتعالى وإرادته.

فالشمس هذه آية من آيات الله الدالة عليه فالمفروض أن ينظروا فيها ويتفكروا في عجائبها ليعرفوا قوة من أبدعها وأوجدها، وأنه وحده الذي يستحق العبادة دون تلك الأصنام التي يعبدونها والتي لا تملك شيئاً أو تستطيع فعل أي شيء.

﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِبَاسًا وَالنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُورًا﴿٤٧﴾﴾ ثم أمرهم أن يتفكروا في آية الليل والنهار، فأمرهم أن ينظروا كيف جعل لهم الليل ستراً يسترهم من عدوهم ويسيرون آمنين تحت ظلامه؛ لأن العرب كانوا في خوف وثأرات وقتل وقتال، وكانوا يستعينون بظلام الليل في التخفي من أعدائهم تحت أستاره، فأمرهم الله سبحانه وتعالى أن ينظروا في هذه الآية، ويتفكروا من الذي سخرها لهم، ومدى قدرته وعلمه؟

وكذلك ما جعل لكم في النوم من الراحة والهدوء لأجسامكم، وإزالة ما تلاقونه من الجهد والتعب في نهاركم، فلا تستيقظون صباحاً إلا وقد استعادت أجسامكم نشاطها، وعادت إليها حيويتها، فكيف يكون حالكم لو سلب الله تعالى عليكم هذه النعمة العظيمة التي أنعم بها عليكم؟

وأيضاً أمرهم أن ينظروا كيف أضاء لهم النهار وجعله مبصراً ليستطيعوا أن ينظروا إلى أمور معايشهم ويهتدوا إلى أرزاقهم، ويتنقلوا في الأرض ليبتغوا من فضل ربهم وما جعل لهم من الرزق فيها، فكيف يكون حالهم لو سلب الله تعالى عنهم هذه النعمة العظيمة، فكيف سيهتدون إلى أرزاقهم ومعايشهم.

يحثهم الله سبحانه وتعالى أن ينظروا في آياته هذه ليرجعوا إليه ويتوجهوا بعبادتهم إليه وحده ويتركوا عبادة الأصنام التي لا تملك شيئاً أو تهتدي إلى شيء.

﴿وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ﴾ وأخبرهم أنه هو الذي يرسل الرياح لا الأصنام التي يعبدونها.

﴿بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ﴾ وأنه يرسلها لتبشر الناس بنزول المطر، وهو المراد برحمته، وبين يدي رحمته يعني قبيل نزول المطر.

﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا۝٤٨﴾ وأنه هو الذي ينزل لكم من جهة السماء الماء الطهور الذي تشربونه وتسقون منه أشجاركم وأنعامكم ودوابكم.

﴿لِنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا﴾ وأنه ينزله لأجل أن يحيي به البلاد التي ماتت من الجدب.

﴿وَنُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَامًا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرًا۝٤٩﴾ ولأجل أن نسقي به الأنعام والناس، يعدد الله سبحانه وتعالى عليهم آياته هذه أيضاً ويذكرهم بها لعلهم يرجعون إليه ويتوجهون بعبادتهم إليه؛ لأنه وحده الذي يستحق العبادة دون تلك الأصنام التي يعبدونها.

﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا۝٥٠﴾ ثم أخبر الله سبحانه وتعالى أنه قد نوع لهؤلاء المشركين المعاندين آياته، ليتمكنوا من فهمها والتدبر والتفكر فيها، ولكنهم امتنعوا ورفضوا أن يعتبروا بها أو يتفكروا فيها.

﴿وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَذِيرًا﴿٥١﴾﴾ وأخبر أنه لو شاء أن يبعث في كل قرية نبياً يدعوهم - لَفَعَل، غير أن حكمته اقتضت أن يرسل نبياً واحداً إلى الناس جميعاً.

﴿فَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ﴾ ثم نهى الله سبحانه وتعالى نبيه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ أن يسمع للكافرين أو يستجيب لما يطلبون منه؛ لأنهم كانوا يريدون منه أن يترك دعوتهم وتبليغهم رسالة ربه.

﴿وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا﴿٥٢﴾﴾ وأمره أن يجاهد المشركين بالقرآن والدعوة، وأن يبالغ في ذلك في كل الأوقات، متجاوزاً لكل العوائق والعقبات من كثرة المكذبين، وعدم الاستجابة والاستهزاء والاستحقار.

﴿وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَحْجُورًا﴿٥٣﴾﴾ ثم رجع إلى تذكيرهم بقدرته وتمكنه في كل شيء، فأخبر أنه الذي بقدرته خلط هذا البحر المالح بالبحر العذب، فجعل أحدهما يشق طريقه من بين وسط الآخر من دون أن يمتزج به أو يخالط أجزاءه، ثم في الأخير ينفصل كل منهما عن الآخر ويسير كل منهما في جهة، وكان المسافرون في البحر يستطيعون الشرب من تلك المياه العذبة في وسطه على الرغم من الأمواج الهائلة وهيجان مياه البحر؛ لأن قدرة الله سبحانه وتعالى قد منعت من اختلاط تلك المياه وامتزاجها.

﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا﴾ وهي تلك النطفة الحقيرة التي يلقيها الرجل في رحم المرأة فإن الله سبحانه وتعالى هو الذي يجعلها من بعد ذلك إنساناً سوياً، لا تلك الأصنام التي يعبدونها من دونه.

﴿فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا﴾ ثم أخبر أنه قد جعل هذا البشر المخلوق من الماء على قسمين نسباً وهم الذكور، وصهراً وهم الإناث.

﴿وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا﴿٥٤﴾﴾ وهو وحده القادر على ذلك وعلى كل شيء.

﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ﴾ فبالرغم من كل الآيات التي رآها المشركون، والتي قد استيقنوا عندها أن الله تعالىٰ هو الذي أوجدها، وأنه المتصرف في جميعها بقدرته وقوته، فلم يعتبروا بها أو يتعظوا، ولا زالوا في ظلمات الجهل والضلال يتخبطون، وعلىٰ الكفر والتكذيب والإعراض متمسكون، ذاهبين إلىٰ عبادة تلك الأصنام التي لا تنفعهم بشيء أو تضرهم.

﴿وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَى رَبِّهِ ظَهِيرًا﴿٥٥﴾﴾ وكانت طبيعة الكفار والمشركين مناصرة أعداء الله ضد أنبيائه ورسله، ومظاهرتهم وتعاونهم علىٰ حرب رسله وأنبيائه.

﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴿٥٦﴾﴾ ثم أوحىٰ الله سبحانه وتعالىٰ إلىٰ نبيه ﷺ أنه لم يرسله إلىٰ المشركين ليدخلهم في الإسلام كرهاً، فليست هذه مهمته وإنما مهمته التبليغ، وأن يبشرهم وينذرهم بما أعد الله لهم من الثواب والعقاب، وأما أمر حسابهم وجزائهم فهو إلىٰ الله سبحانه وتعالىٰ وحده.

وكان قد كبر في نفس النبي ﷺ عندما لم ير فيهم أي تأثر بدعوته ولم يلق منهم أي استجابة، فخاف أن يكون ذلك عن تقصير منه فيما كلفه ربه، فطمأنه الله سبحانه وتعالىٰ في هذه الآية أنه قد أدىٰ مهمته علىٰ أكمل وجه.

﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾ وأمره أن يخبر المشركين أنه لم يطلب منهم أجراً مقابل تبليغهم حتىٰ يمتنعوا عن الاستماع له واتباعه خوفاً علىٰ أموالهم أن يهدروها في ذلك.

﴿إِلَّا مَنْ شَاءَ أَنْ يَتَّخِذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلًا﴿٥٧﴾﴾ الاستثناء هنا بمعنىٰ لكن، والمعنىٰ لا أسألكم أي أجر علىٰ تبليغي لكم ولكن من أراد أن يدخل في الإيمان والهدىٰ فليدخل من دون أي مقابل.

﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ﴾ وأمره أن يمضي في مواصلة دعوته متوكلاً عليه، وأخبره أن لا يهمه ما يوجهونه إليه من التهديدات والوعود فلن يستطيعوا أن يمسوه بأي أذىٰ أو مكروه ما دام الله معه.

﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ﴾ ونزه الله تعالى من الشريك والمثيل، واحمده على كل ما أنعم به عليك، ومن وحد الله سبحانه وتعالى ونفى كل معبود سواه فقد سبحه. وحمدُ الله تعالى: هو الاعتراف بأن كل نعمة منه لا من غيره.

﴿وَكَفَى بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا﴿٥٨﴾﴾ ويكفيك أن يكون الله هو الذي سينتقم من كل المكذبين بدعوتك، وأنه الذي سيحاسبهم ويعذبهم؛ لأنه وحده المطلع على أسرار عباده والمحصي لجميع أعمالهم وسيجازيهم على صغيرها وكبيرها لا يضيع عنده شيء.

﴿الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ ثم وصف الله تعالى لنبيه ﷺ نفسه بأنه الذي خلق السماوات والأرض وما بينهما والمسيطر عليهما بقدرته وجبروته.

﴿فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ وأخبره أن مدة خلقهما كان في ستة أيام، ﴿ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾ وبعد أن خلق السماوات والأرض وما بينهما أخبره بأنه قد استولى وسيطر عليها بقوته وقدرته وعلمه وتدبيره، والعرش المراد به ملك السماوات والأرض وما فيهما.

﴿الرَّحْمَنُ فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيرًا﴿٥٩﴾﴾ ووصف نفسه بالرحمن دون غيره من الأسماء ليفيد بأنه الذي أنعم بكل تلك النعم الظاهرة المشاهدة المعلومة، وإذا سألت فاسأل الرحمن فإنه المحيط خبراً بكل شيء، لا تخفى عليه خافية في السماوات والأرض.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ﴾ يتكلم الله سبحانه وتعالى هنا عن المشركين بأن أحداً إذا أمرهم أن يسجدوا لذلك الذي وصف نفسه بأنه الرحمن: ﴿قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا﴾ أجابوا مستنكرين عليه: ما هو هذا الرحمن الذي تسألنا السجود له؟ ومن هو حتى نسجد له؟

﴿وَزَادَهُمْ نُفُورًا﴿٦٠﴾﴾ ثم أخبر الله تعالى أن هذا القول لا يزيدهم إلا نفوراً وبعداً عن الحق، أراد الله تعالى أن دعوة النبي ﷺ لم تنفع فيهم أي نفع أو تؤثر فيهم أي تأثير، وأنه كلما دعاهم ازدادوا بعداً عن الحق والهدى وازدادوا عتواً واستكباراً.

﴿تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُنِيرًا﴿٦١﴾﴾ ومعنى تبارك: تكاثرت نعمه ومنافعه وآياته للناس، ومن نعمه وآياته هذه ما ذكره من المسارات والطرق التي جعلها في السماء للنجوم وللشمس والقمر والأفلاك التي تدور فيها، وبعضهم قال: إن البروج هي النجوم الكبيرة التي تضيء.

والسراج المراد به الشمس التي هي من نعمه العظيمة للناس والتي يستفيدون منها في الكثير من أمور معايشهم كالضياء والنور والتدفئة وإصلاح الشجر والنبات ونضج الثمر، وكذلك ما تسببه من نزول الأمطار وغير ذلك من المنافع التي يكثر تعدادها، وكذلك ما جعله من المنافع الكثيرة في القمر.

﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً﴾ ثم أخبر المشركين أنه وحده الذي خلق الليل والنهار، وجعل كل واحد منهما يخلف الآخر ويعقبه على ميزان واحد ونمط واحد بقدرته وتدبيره، لا تلك الأصنام التي يدعونها من دونه.

﴿لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴿٦٢﴾﴾ وأنه جعل الحياة على هذا النمط من التعاقب فمن عصى الله سبحانه وتعالى هذا اليوم استطاع أن يستدرك ذلك ويتوب في اليوم التالي، ومن عصى في النهار رجع إلى الله بتوبته في الليل، ومن فاتته طاعة في النهار أمكنه استدراكها في الليل أو في اليوم التالي، وكذلك ليكون هناك متسعاً من الوقت لمن أراد أن يذكر الله تعالى.

إذاً فحكمة الليل والنهار هي تحديد الأوقات والمواعيد.

﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا﴾ ثم انتقل إلى وصف عباده الذين يستحقون أن يكونوا عباداً له على الحقيقة فأخبر أنهم الذين يمشون على الأرض مشي المتواضعين ومشي المساكين، لا مشية المتكبرين الشامخين بأنوفهم ورؤوسهم، فهم خاضعون لله ومنقادون لأوامره وللحق أينما كان ومع من كان.

﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴿٦٣﴾﴾ ومن صفتهم أيضاً أن أحداً إذا جرحهم بالكلام، أو وجه إليهم كلاماً فاحشاً وبذيئاً فلا يردون عليهم إلا بالكلام اللين الذي لا يلحقهم بسببه أي تبعات، أو يتسبب في أي تنفير أو عداوة.

ابتدأ الله سبحانه وتعالىٰ بهذه الصفة دلالة علىٰ أهميتها، وأنها الركيزة الأولىٰ التي يقوم عليها الدين، والتي لا بد أن يتحلىٰ بها كل مؤمن، وأنها الوسيلة الأساسية في الدعوة إلىٰ الله فلا يصح إيمان امرئ إلا بالتواضع؛ لأنه لن يستجيب لله ورسوله ويخضع لأوامره إلا من كان متواضعاً.

﴿وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا﴿٦٤﴾﴾ وكذلك من صفتهم أنهم يحافظون علىٰ أداء ما افترض الله سبحانه وتعالىٰ عليهم من واجب الصلوات، وقد أراد بذلك هنا صلاة المغرب والعشاء.

﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا﴿٦٥﴾ إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴿٦٦﴾﴾ وكذلك من صفتهم أنهم في خوف دائم من الله تعالىٰ ومن غضبه وسخطه إن هم عصوه، فهم يدعون الله تعالىٰ مع ذلك أن يصرف عنهم عذاب جهنم الذي لا ينقطع دائماً وأبداً، وذلك بتوفيقهم إلىٰ أداء ما افترض عليهم من الطاعات، واجتناب ما نهاهم عنه من المحرمات، والغرام: هو الدائم الذي لا ينقطع.

﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا﴿٦٧﴾﴾ ومن صفتهم أيضاً أنهم معتدلون في الإنفاق فلا ينفقون أموالهم في الحرام والباطل، ولا يبخلون بها عن أي حق من الحقوق التي افترضها عليهم، فهم في طريق الوسط ما بين الإسراف والإقتار.

﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا ءَاخَرَ﴾ ومن صفتهم أيضاً أنهم قد أخلصوا عبادتهم لله سبحانه وتعالىٰ وحده، وجردوا أنفسهم لله وحده لا يعبدون معه غيره.

﴿وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ ومن صفتهم أيضاً أنهم لا يقتلون النفس التي حرم الله قتلها إلا إذا استحق القتل.

﴿وَلَا يَزْنُونَ﴾ وأيضاً قد طهروا فروجهم من اقتراف معصية الزنا.

﴿وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا﴾ وتهدد الله وحذر من يقترف واحدة من هذه الثلاث التي هي: الشرك بالله، وقتل النفس، والزنا؛ فسوف يجازيه على ذلك ويعذبه في نار جهنم، وذلك لأنها من كبائر الذنوب.

﴿يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا﴾ وأنه يوم القيامة من أهل عذاب الله، وسيضاعف له العذاب في نار جهنم خالداً فيها مخلداً.

﴿إِلَّا مَنْ تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا﴾ إلا من ندم على معصيته وتاب منها، ومع ذلك يخلص إيمانه لله سبحانه وتعالى ورسوله ويعمل الأعمال الصالحة ويستقيم على طاعة ربه.

﴿فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ فإذا تاب العاصي إلى الله تعالى محا عنه السيئات التي كتبها في صحيفته وكتب مكانها الحسنات؛ وقد اختلفوا في معنى التبديل إلى مذاهب عدة.

﴿وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا﴾ وأخبر سبحانه وتعالى أن من تاب عن المعاصي وندم فقد رجع إلى الله تعالى، وأصبح ممن شملهم عفو الله تعالى ومغفرته.

﴿وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ﴾ ومن صفاتهم أيضاً أنهم لا يحضرون المجالس التي يعصى الله سبحانه وتعالى فيها.

﴿وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا﴾ وإذا مروا على هذه المجالس التي يعصى الله سبحانه وتعالى فيها مروا عليها مرور الكرام من دون أن يلطخوا أعراضهم بشيء مما يفعله أولئك القوم، وذلك أنه يظهر من حالهم عند مرورهم أنهم معرضون عن تلك الأعمال أشد الإعراض، ويظهر إنكارهم لذلك من خلال كيفية مرورهم.

﴿وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا﴾ ومن صفاتهم أيضاً أنه إذا ذكرهم أحد بآيات الله تعالى أو وعظهم أحد اتعظوا، وانتفعوا بذلك التذكير والوعظ، وأنهم إذا كانوا في معصية ونبههم أحد انتبهوا وأقلعوا عنها خوفاً من الله تعالى.

﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴿٧٤﴾﴾ وهذه آخر صفاتهم وهي أنهم يدعون الله تعالى أن يرزقهم الزوجات الصالحات والذرية الصالحة؛ وذلك أن الرجل إذا نظر إلى أولاده فرآهم مقبلين على طاعة الله تعالى، وشاغلين أوقاتهم فيما يرضي الله تعالى ورسوله قرت عينه، ودخله الفرح والسرور.

وكذلك يسألون الله تعالى أن يجعلهم من الذين يقتدى بهم في الدين، وممن يهتدي الناس بهديهم ويسيرون على نهجهم.

﴿أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَامًا ﴿٧٥﴾﴾ أشار الله تعالى إلى أهل تلك الصفات بأنه سيجازيهم بأعلى الجنان وأرفع المنازل فيها، وأنه سيسلم عليهم، وستحَيِّيهم الملائكة وتبارك لهم.

﴿خَالِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٧٦﴾﴾ وأنهم في ذلك النعيم مخلدون دائماً وأبداً.

﴿قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي﴾ ثم أمر الله سبحانه وتعالى نبيه صلى الله عليه وآله وسلم أن يخبر المشركين ألّا يظنوا أنهم قد نالوا المنازل الرفيعة عنده، وأنهم من أهل الكرامة لديه عندما لم يعجل بتعذيبهم والانتقام منهم، فهو غير مبال بهم.

﴿لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ﴾ وأن إبقاءه لكم في الدنيا وإمهاله إنما هو لإكمال الحجة عليكم، بدعوته لكم على ألسنة رسله عليهم السلام.

﴿فَقَدْ كَذَّبْتُمْ﴾ فقد استوجبتم عذابه وسخطه.

﴿فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا ﴿٧٧﴾﴾ وأن العذاب نازل بكم لا محالة أيها المشركون، ولا بد أن يعذبكم الله تعالى.



سورة الشعراء

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿طسم۝١ تِلْكَ ءَايَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ۝٢﴾ الطاء والسين والميم: حروف من حروف المعجم، وقد ابتدأ الله سبحانه وتعالى بعض سور القرآن بهذه الحروف المقطعة لأن المشركين كانوا معرضين عن سماع النبي صلى الله عليه وآله وسلم أشد الإعراض، فإذا سمعوا النبي صلى الله عليه وآله وسلم يفتتح تلاوته بهذه الحروف دعاهم ذلك إلى الالتفات بأذهانهم إليه متعجبين من سماع هذا الكلام الغريب الذي لم يعتادوه في مخاطباتهم ومحاوراتهم، متسائلين عن هذا الأسلوب الجديد في الكلام، فأداهم ذلك إلى الإصغاء للنبي صلى الله عليه وآله وسلم وإلى ما يقوله.

ثم أخبرهم بعد ذلك أن الآيات التي سيتلوها عليهم هي آيات الكتاب الذي قد وضحت وبانت حججه في كلماته.

والمبين: هو المفصح عن الحجة، وأنهم سيعرفون حجيته وصدقه، وأنه من عند الله سبحانه وتعالى- عندما يسمعونه، وسيحكمون على ذلك بأنفسهم.

﴿لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ۝٣﴾ ثم خاطب الله تعالى نبيه صلى الله عليه وآله وسلم قائلاً: لقد كدت أن تقتل نفسك يا محمد من الأسى والحزن لعدم إيمان قومك.

أراد الله سبحانه وتعالى أن يخبر نبيه صلى الله عليه وآله وسلم أنه ما دام قد بلغهم آياته وأحكامه فلا يهمه أمرهم سواء آمنوا أم لم يؤمنوا، وذلك لأن الله تعالى أشفق على نبيه صلى الله عليه وآله وسلم للحالة التي أصبح عليها، فأراد بذلك أن يخفف عليه.

﴿إِنْ نَشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ ءَايَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ۝٤﴾ وأخبره الله تعالى أنه لو أراد أن يلجئهم إلى الإيمان، ويكرههم عليه لفعل، ولأنزل عليهم آية من آياته التي تجعلهم يدخلون في الإيمان رغماً عنهم، غير أنه أراد أن يكون إيمانهم بمحض إرادتهم واختيارهم؛ لما يترتب عليه من الثواب والجزاء، ولما تدعوا إليه حكمة التكليف، ولو كان على خلاف ذلك لبطل التكليف ولبطل الثواب والعقاب.

﴿وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنَ الرَّحْمَنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ ۝٥﴾ يخبر الله تعالى عن شأن المشركين بأنهم في نهاية التمرد عليه وعلى نبيه ﷺ، وأنه كلما نزل عليهم آية أعرضوا عنها وجعلوها وراء ظهورهم، فلم تنفع فيهم آياته وحججه التي صرفها لهم.

﴿فَقَدْ كَذَّبُوا فَسَيَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ۝٦﴾ ثم أخبر نبيه ﷺ بأن قومه قد كذبوا وقد استحقوا العذاب، وعما قريب سيأتيهم ذلك العذاب الذي كانوا يستهزئون به يا محمد عندما كنت تخبرهم وتتوعدهم به إن استمروا على كفرهم وتكذيبهم.

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَمْ أَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ۝٧﴾ يستنكر الله سبحانه وتعالى عليهم إعراضهم عن آياته التي ينزلها لهم، وهنا استنكر عليهم لماذا لا ينظرون إلى الأرض من الذي يخرج لهم منها أنواع النباتات والفواكه والثمار؟ وهل تخرج من تلقاء أنفسها؟ أم أنه لا بد من موجد أوجدها، ومخالف يخالف بين أشكالها وألوانها؟

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ۝٨﴾ ففي الأرض آية لهم تدلهم على خالقها ومدبرها، لو أنهم نظروا فيها وتفكروا بعقولهم في تلك الأشياء التي جعلها الله لهم في الأرض، والمنافع التي بثها لهم فيها من الأشجار والثمار وغير ذلك، ولكنهم لم يتفكروا ولم ينظروا ولم يعتبروا، وذهبوا إلى عبادة تلك الأصنام التي لم تفعل لهم شيئاً، وتركوا ذلك الذي هيأ لهم الأرض تخرج لهم خيراتها ومنافعها بقدرته وتدبيره وأمره، وأخبر الله سبحانه وتعالى نبيه ﷺ أنهم لن يؤمنوا على الإطلاق.

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ۝٩﴾ وأخبره أنه ليس محتاجاً لهم ولإيمانهم فهو القوي والغالب، ومع ذلك فهو رحيم بهم إذ لم يعجل بعقوبتهم بل تأنى بهم وأمد لهم في أعمارهم، وأغدق عليهم الأرزاق، ومتعهم بالصحة والعافية

والأمن والأمان؛ لعلهم يتوبون ويرجعون إليه، وليكون ذلك أبلغ في الحجة عليهم يوم القيامة فلا يكون لهم أي عذر عند الله سبحانه وتعالى.

﴿وَإِذْ نَادَى رَبُّكَ مُوسَى أَنِ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ۝١٠ قَوْمَ فِرْعَوْنَ أَلَا يَتَّقُونَ۝١١﴾ ثم ذكر الله سبحانه وتعالى لنبيه صلى الله عليه وآله وسلم قصة موسى عندما أرسله إلى فرعون، وما لاقاه من عناء تكذيبهم وتمردهم، ليهون عليه المصيبة التي هو فيها من أذى قومه وتكذيبهم وتمردهم واستهزائهم؛ لأنه إذا عرف ما لاقاه موسى هانت عليه مصيبته.

وقد أرسل الله تعالى موسى إلى فرعون ليدعوهم إلى الإيمان بالله تعالى، ولاستنقاذ بني إسرائيل من تحت قبضته وسيطرته.

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ۝١٢﴾ عندما أمره الله بذلك خاف من عدم تصديقهم له.

﴿وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنْطَلِقُ لِسَانِي﴾ وكان موسى يعاني من انحباس في الكلام إذا غضب من شيء أو حصل له نحو من ذلك.

﴿فَأَرْسِلْ إِلَى هَارُونَ۝١٣﴾ فطلب من الله تعالى أن يؤيده بأخيه هارون فيجعله نبياً؛ ليعينه على تبليغ حجته ورسالته إلى فرعون وقومه.

﴿وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنْبٌ فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ۝١٤﴾ وتعلل أيضاً بأنه مدين لهم بدم رجل من آل فرعون كان قد قتله، وأنه خائف إن هم رأوه أن يأخذوا بثأرهم منه.

﴿قَالَ كَلَّا﴾ فأجاب الله سبحانه وتعالى عليه بأنه لن يحصل له أي شيء من ذلك، وأنه لن يصيبه أي أذى منهم.

﴿فَاذْهَبَا بِآيَاتِنَا إِنَّا مَعَكُمْ مُسْتَمِعُونَ۝١٥﴾ وأمره أن يذهب إلى فرعون مؤيداً بأخيه هارون يعينه على ذلك، وطمأنه بأنه لن يلحقهما أي سوء أو مكروه فهما تحت حراسته.

والآيات هي العصا واليد.

﴿فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴿١٦﴾﴾ وأمرهما عند وصولهما إليه أن يبلغاه بأنهما مرسلان إليه من عند الله تعالى.

﴿أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ﴿١٧﴾﴾ هذه هي الرسالة التي كلفهما الله سبحانه وتعالى بها إلى فرعون، وهي أن الله تعالى يأمره بأن يسلم بني إسرائيل إلى موسى وهارون وبأن يترك تعذيبهم.

﴿قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ﴿١٨﴾﴾ استنكر فرعون على موسى طلبه هذا، والأوامر التي يوجهها إليه مع أنه ولي نعمته والذي رباه في رغد العيش وأحسنه من صغره إلى أن صار رجلاً كاملاً، وأنه كان من المفروض أن يقبل عليه بالشكر والامتنان، والخضوع والانقياد، لا أن يقابل ذلك بالكفر والجحود، ونكران الجميل.

﴿وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴿١٩﴾﴾ وكذلك تأتي إلينا بهذه الأوامر بالرغم من الدم الذي تحمله في رقبتك لآل فرعون، وهروبك بجريمتك.

﴿قَالَ فَعَلْتُهَا إِذًا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ﴿٢٠﴾﴾ فأجاب موسى عليه بأنه حين قتل القبطي كان آنذاك من الضالين عن الهدى، ومن الجاهلين، وأما الآن فقد هداني الله سبحانه وتعالى، وعلمني شرائعه وأحكامه، وقد جعلني نبياً وأرسلني إليك.

﴿فَفَرَرْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴿٢١﴾﴾ وفعلاً قد فررت منكم حين قتلت القبطي إلى مدين، ولكن خلال تلك الفترة وهبني ربي العلم والحكمة وجعلني نبياً مرسلاً.

﴿وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدْتَ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴿٢٢﴾﴾ كان فرعون يتمنن على موسى بتربيته وحضانته، فأجابه موسى عليه السلام بأنك يا فرعون قد أنعمت علي إلا أنها نعمة لا تستحق الذكر؛ لأنك سخرت بني إسرائيل في أعمالك واتخذتهم عبيداً ممتهنين في طاعتك.

﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ﴿٢٣﴾﴾ عندما أخبره موسى عليه السلام أنه مرسل إليه

من عند رب العالمين سأله فرعون: ما هو رب العالمين هذا الذي تأمرنا بعبادته؟

﴿قَالَ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ۝٢٤﴾ فأجابه موسىٰ بآثاره الدالة عليه وعلىٰ ربوبيته.

﴿قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْتَمِعُونَ۝٢٥﴾ التفت إلىٰ قومه ليُعَجِّبهم من مقالته هذه؛ إذ يدعي لهم إلهاً غيره.

﴿قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ۝٢٦﴾ أجاب موسىٰ مرة ثانية: بأن رب العالمين هو ربكم ورب آبائكم الأولين.

﴿قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ۝٢٧﴾ يخاطب فرعون قومه لأنه خاف أن يكونوا قد اقتنعوا بكلامه فقال لهم: إن موسىٰ مجنون يتكلم بكلام المجانين فلا تصدقوه.

﴿قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ۝٢٨﴾ فيجيب موسىٰ مرة ثالثة معرِّفاً لله تعالىٰ بآياته الدالة عليه، والتي يَعْرِفها كل من نظر وتفكر بعقله فيها.

﴿قَالَ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ۝٢٩﴾ فعند ذلك تهدده فرعون بالسجن والقتل إن لم يقلع عن ادعاءاته هذه، ويرجع إلىٰ عبادته.

﴿قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُبِينٍ۝٣٠﴾ فأجاب موسىٰ: فهل ستصدقونني إن جئتكم بدليل وحجة واضحة تدل علىٰ صدقي ونبوتي.

﴿قَالَ فَأْتِ بِهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ۝٣١﴾ ولم يجد فرعون بداً من أن يطلب من موسىٰ الدليل علىٰ صدق نبوته، لأجل أن لا يظهر أمام ملئه بمظهر المغلوب المبطل.

﴿فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ۝٣٢ وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ۝٣٣ قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ۝٣٤ يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ﴾ فعندما رأوا آياته استكبر فرعون عند ذلك، ولجأ إلىٰ التحيل والمراوغة أمام قومه، وتضليلهم بأنه ليس إلا ساحراً ماهراً في سحره يريد أن يغلبكم ويسيطر علىٰ خيرات بلادكم، ويستولي عليها.

﴿فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴿٣٥﴾﴾ وبدأ بمشاورة قومه في شأن موسى وهارون، وكيف العمل معهما.

﴿قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَابْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ﴿٣٦﴾﴾ فأجابوا عليه بأن يجعل لهما ميعاداً يجتمعون فيه مع سحرة مصر فننظر لمن تكون الغلبة.

﴿فَجُمِعَ السَّحَرَةُ لِمِيقَاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ﴿٣٨﴾ وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنْتُمْ مُجْتَمِعُونَ﴿٣٩﴾﴾ فجمع فرعون سحرة مصر وجمع الناس جميعاً في ساحة واحدة.

﴿لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ السَّحَرَةَ إِنْ كَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ﴿٤٠﴾﴾ هذا من كلام فرعون يقول لملئه: إنه سيتبع السحرة إذا غلبوا موسى، وإن لم يغلبوه فسيتركهم ولا يتبعهم ويعدل إلى اتباع موسى إذا كان هو الغالب ليموه على الناس أنه منصف وأن موسى ساحر، وقد علم أن موسى ليس بساحر وأنه نبي من عند الله وأن ما جاء به آيات حق من عند الله.

﴿فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالُوا لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ﴿٤١﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴿٤٢﴾﴾ وعدهم فرعون بأنه سيقربهم إليه، وسيجعلهم من حاشيته وأتباعه إن هم غلبوا موسى وسحره.

﴿قَالَ لَهُمْ مُوسَى أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ﴿٤٣﴾ فَأَلْقَوْا حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ﴿٤٤﴾﴾ بعد أن اجتمعوا أمرهم موسى بأن يبدؤوا، فألقوا ما أجلبوا به من السحر واثقين بالنصر والظفر على موسى وعصاه، مستعينين على ذلك بعزة فرعون الذي هو ربهم، وذلك كما يقول المسلم: «بحول الله وقوته».

﴿فَأَلْقَى مُوسَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ﴿٤٥﴾﴾ فألقى موسى عصاه فالتهمت جميع ما ألقوا به في الساحة من السحر.

﴿فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ﴿٤٦﴾ قَالُوا ءَامَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴿٤٧﴾ رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ﴿٤٨﴾﴾ اندهش السحرة مما رأوا، واستيقنوا أن ما جاء به موسى ليس من

السحر في شيء، وأنها آية من آيات الله تعالىٰ ومعجزاته الخارجة عن حد قوىٰ البشر؛ لأنهم عالمون بالسحر وكيفيته وعمله، فتيقنوا أن ما جاء به هو من عند الله تعالىٰ فآمنوا به من فورهم وساعتهم.

﴿قَالَ ءَامَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ﴾ فصاح بهم فرعون مستنكراً عليهم كيف يؤمنون به قبل أن يأذن لهم بذلك.

﴿إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ﴾ واتهمهم بأن ما فعلوه مؤامرة دبروها هم وموسىٰ قبل خروجهم ليضللوا علىٰ الناس ويلبسوا عليهم ويخرجوهم عن دينهم، وهذا لم يكن من فرعون إلا مراوغة وليموه علىٰ الناس بهذا الكلام، وأما في الحقيقة فقد عرف صدق آيته هذه، وعرف أنه لم يكن بينه وبينهم أي علاقة من قبل.

﴿فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ﴿٤٩﴾﴾ وتهددهم بأنه سوف يقتلهم ويعذبهم ويصلبهم جزاءً علىٰ ما دبروه هم وموسىٰ من السحر.

﴿قَالُوا لَا ضَيْرَ إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ﴿٥٠﴾﴾ لم يبالوا بتهديد فرعون ووعيده لهم؛ لأنهم قد أيقنوا بالله تعالىٰ وعرفوه حق معرفته، وقد استحكم الإيمان في قلوبهم، وأنهم سيرجعون إلىٰ الله تعالىٰ.

﴿إِنَّا نَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَانَا أَنْ كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ﴿٥١﴾﴾ وأنهم طامعون في الله تعالىٰ وفي رحمته بأنه سيغفر لهم ما قد سلف من ذنوبهم بسبب إيمانهم أول الناس بموسىٰ، ثم إن فرعون قتلهم بعد ذلك وصلبهم، رحمة الله عليهم ورضوانه.

﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي﴾ ثم إن الله تعالىٰ بعد ذلك أوحىٰ إلىٰ موسىٰ أن يجمع بني إسرائيل جميعاً خفية، ويهرب بهم ليلاً بعيداً عن عيون فرعون وحراس دولته.

﴿إِنَّكُمْ مُتَّبَعُونَ﴿٥٢﴾﴾ وأخبره بأن فرعون سيلحق بهم بجنوده.

﴿فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ﴿٥٤﴾ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ﴿٥٥﴾ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَاذِرُونَ﴿٥٦﴾﴾ بعد أن علم فرعون بهروب موسى وقومه أمر بمن ينادي في جنوده ليجتمعوا عنده، فأخبرهم بأن هؤلاء الفارين ليسوا إلا قلة مستضعفين متمردين على آلهتهم، ولكن السياسة والحذر تقتضي أن نجمع لهم الجموع ونعد لهم العدة؛ لأن ذلك أقرب إلى السلامة، قال لهم فرعون ذلك لأجل ألا يقول القائل: كيف يجمع فرعون هذه الجموع لهذه القلة القليلة.

﴿فَأَخْرَجْنَاهُمْ مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴿٥٧﴾ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ﴿٥٨﴾﴾ لما تجاوز فرعون وقومه الحد في الظلم والطغيان وعندما أعيت فيهم الحجج أخبر الله تعالى أنه قد أخرجهم من النعيم الذي هم فيه ورغد العيش الذي يتقلبون فيه، وذلك عند لحوقهم بموسى وقومه، وحصول ما حصل عليهم من الغرق في البحر، والمراد أن ذنوبهم هي التي أحاطت بهم حتى جعلتهم يخرجون للحاق بموسى وبني إسرائيل، ثم يغرقون في البحر.

﴿كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ﴿٥٩﴾ فَأَتْبَعُوهُمْ مُشْرِقِينَ﴿٦٠﴾﴾ وقد أورث بني إسرائيل تلك الأرض، ثم أخبر الله تعالى عن جنود فرعون بأنهم قد لحقوا بهم متوجهين إلى جهة المشرق، وذلك أن موسى هرب متوجهاً إلى بلاد الشام.

﴿فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرَكُونَ﴿٦١﴾﴾ فلما لحق فرعون وأصحابه بموسى وأصحابه وقربوا منه- قال أصحاب موسى: لا مفر لنا من الهلاك فهذا فرعون وجنوده قد لحقوا بنا، فهذا البحر في وجهنا وذاك فرعون وجنوده خلفنا.

﴿قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴿٦٢﴾﴾ أجابهم موسى بأن الله معه وأنه سيهديه إلى طريق النجاة من فرعون وجنوده؛ لأنه متوكل على الله حق توكله وعنده ثقة ويقين بأن الله تعالى سيمنعه وقومه من فرعون وجنوده.

﴿فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ﴿٦٣﴾﴾ فضرب بعصاه البحر فانفرجت لهم طريق في وسطه هو وقومه، وقد جعل لهم اثني عشر طريقاً في البحر على عدد قبائل بني إسرائيل تسير كل قبيلة في طريق وذلك درءاً للاختلاف والتنازع فيما بينهم؛ لأن طبيعتهم كانت المعاندة والاختلاف.

﴿وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الْآخَرِينَ﴿٦٤﴾﴾ ثم أدخل الله تعالى فرعون وقومه في تلك الطرق بعدما خرج موسى وبنو إسرائيل.

﴿وَأَنْجَيْنَا مُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ﴿٦٥﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ﴿٦٦﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ﴿٦٧﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴿٦٨﴾﴾ عبر موسى بقومه البحر وخرجوا منه سالمين، ثم دخل فرعون وجنوده البحر من حيث دخل موسى وبنو إسرائيل فلما توسطوا في البحر أطبق الله عليهم البحر وأغرقهم جميعاً.

أخبر الله نبيه ﷺ أن في قصة موسى وفرعون آية لقريش، وعبرة لهم وعظة؛ لعلهم يحذرون أن يلحقهم مثل ما لحق فرعون وجنوده من بأس الله ونكاله، ولكنهم قوم متكبرون لا تنفع فيهم العبر والمواعظ، ولا تزجرهم الزواجر، فاقطع طمع نفسك يا رسول الله من إيمانهم ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الأليم.

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴿٦٨﴾﴾ فهو غني عنهم غير محتاج لطاعة أحد من خلقه.

﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ﴿٦٩﴾﴾ ثم أمر الله نبيه أن يقص على قومه خبر إبراهيم وقصته ، وفيما يقصه الله تعالى فائدتان إحداهما له، وذلك ليخفف عن نبيه ﷺ مما لحقه من الأسى والحزن مما يلاقيه من قومه ، والثانية للمشركين ليعتبروا بمن سبقهم.

﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ ۝٧٠ قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ ۝٧١﴾ وكان قومه يعبدون الأصنام، فاستنكر عليهم إبراهيم كيف يعبدونها وليست إلا أحجاراً ينحتونها بأيديهم.

﴿قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ۝٧٢ أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ۝٧٣﴾ يحاجج إبراهيم عليه السلام قومه لعلهم يرجعون إلى عقولهم، ويعرفون ما هم فيه من الجهل والضلال؛ إذ كيف يعبدون صنماً لا يسمع إذا دعوه، ولا يستطيع أن ينفعهم ولا أن يضرهم.

﴿قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ ۝٧٤﴾ ولم يجدوا جواباً على حجة إبراهيم، إلا أنهم رأوا آباءهم يعبدونها، ففعلوا مثل فعلهم.

﴿قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ ۝٧٥ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الْأَقْدَمُونَ ۝٧٦ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ ۝٧٧﴾ فأجابهم إبراهيم بأنهم ما داموا لم يستطيعوا أن يأتوا بحجة أو دليل على إلهيتها واستحقاقها العبادة فأنه بريء منها ومن عبادتها، وناصب لها العداوة، وأخبرهم أنه لا اله إلا الله رب العالمين.

﴿الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ ۝٧٨ وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ ۝٧٩ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ۝٨٠ وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ ۝٨١ وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ ۝٨٢﴾ ثم وصف لهم رب العالمين فأخبرهم بأنه يعبده لأنه الذي خلقه وهداه إلى ما يرشده، والذي بيده رزقه وشفاؤه، وبيده حياته وموته، فهو الذي يستحق العبادة دون تلك الأصنام التي ليس بيدها أي شيء.

﴿رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ۝٨٣﴾ ثم توجه إبراهيم عليه السلام إلى الله سبحانه وتعالى داعياً له أن يرزقه العلم والحكمة، وأن يفرق بينه وبين قومه، ويلحقه بأنبيائه الصالحين.

﴿وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ ۝٨٤﴾ ودعا الله سبحانه وتعالى بأن يجعل له ذكراً حسناً في أمة محمد صلى الله عليه وآله وسلم، وثناءً حسناً فيهم؛ وفعلاً فأمة محمد صلى الله عليه وآله وسلم

تثني عليه وتذكره في جميع الأوقات، فقد أمر الله سبحانه وتعالىٰ بالصلاة عليه في جميع الفرائض المكتوبة، ويكفيه هذا شرفاً وفضلاً أن يقرن مع محمد ﷺ في أثناء كل صلاة: «اللهم صل علىٰ محمد وعلىٰ آل محمد، وبارك علىٰ محمد وعلىٰ آل محمد، كما صليت وباركت علىٰ إبراهيم وعلىٰ آل إبراهيم إنك حميد مجيد».

﴿وَاجْعَلْنِي مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ ۝٨٥ وَاغْفِرْ لِأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ ۝٨٦﴾ ودعا الله سبحانه وتعالىٰ أن يجعله من أهل الجنة والنعيم الدائم، ودعا لأبيه بالمغفرة والرحمة والهداية؛ ودعاؤه لأبيه ذلك الدعاء إنما كان لأنه وعده بأنه سيؤمن: ﴿وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ﴾ [التوبة:١١٤].

﴿وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ ۝٨٧ يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ۝٨٨﴾ لا تفضحني يوم العرض والحساب الذي لا ينفع فيه لا مال ولا بنون، ولا جاه ولا سلطان.

﴿إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ۝٨٩﴾ إلا من أتىٰ الله تعالىٰ بقلب سليم من الشرك، خالص له تعالىٰ وحده.

﴿وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ ۝٩٠﴾ قربت أمام أهل المحشر ﴿وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ ۝٩١﴾ يرون النار التي أعدت لهم أمام أعينهم وقت الحساب.

﴿وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ ۝٩٢ مِنْ دُونِ اللَّهِ هَلْ يَنْصُرُونَكُمْ أَوْ يَنْتَصِرُونَ ۝٩٣﴾ سيسأل الله تعالىٰ المشركين تهكماً بهم: أين تلك الآلهة التي كنتم تعبدونها؟ لينصروكم هذا اليوم، ويدفعوا عنكم العذاب الذي ينتظركم!! فأنتم اليوم أحوج ما تكونون إليهم، أو حتىٰ ينتصروا لأنفسهم، ويحتمل أن يكون السائل لهم الملائكة.

﴿فَكُبْكِبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ ۝٩٤ وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ ۝٩٥﴾ يركمهم الله سبحانه وتعالىٰ في جهنم هم ومن أغواهم إبليس وجنوده من الجن والإنس.

﴿قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ﴿٩٦﴾﴾ يتقاولون فيما بينهم، ويرد كل منهم اللوم على الآخر: ﴿تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴿٩٨﴾﴾ هذا كلام المشركين للآلهة التي كانوا يعبدونها ويطيعونها من دون الله، يتحسرون ويتندمون على عبادتهم لها، حيث سووها برب العالمين.

﴿وَمَا أَضَلَّنَا إِلَّا الْمُجْرِمُونَ﴿٩٩﴾﴾ وأنا لو تركنا وشأننا لما أشركنا بالله سبحانه وتعالى، غير أن المجرمين استغوونا وأضلونا فكانوا السبب فيما نحن فيه.

﴿فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ﴿١٠٠﴾ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ﴿١٠١﴾﴾ واليوم فلا شفيع أو صديق يستطيع أن يدفع عنا أو يحمينا.

﴿فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴿١٠٢﴾﴾ فليت لنا كرة ورجعة إلى الدنيا لنستصلح ما أفسدْنا، ونستدرك ما فاتنا.

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ﴿١٠٣﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴿١٠٤﴾﴾ ثم أخبر الله تعالى أن فيما ذكره من قصة إبراهيم وشأنه عظة وعبرة لمن أراد أن يعتبر، غير أن قومك يا محمد لن تنفع فيهم هذه الآيات والعبر، ولن يزالوا على كفرهم وتكذيبهم إلى أن يموتوا.

﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ﴿١٠٥﴾﴾ ثم بدأ الله يقص لنبيه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ شأن نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ في قومه، وأنهم كقومك يا محمد في التمرد والتكذيب.

﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ﴿١٠٦﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴿١٠٧﴾﴾ وذلك حين دعاهم نبي الله نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ إلى ترك ما هم فيه من الضلال والرجوع إلى عبادة الله وحده.

﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴿١٠٨﴾﴾ أخبرهم نوح بأنه نبي صادق مرسل من عند الله تعالى، أرسله ليأمرهم بطاعته فيما يأمرهم به، وأن يتقوا عذابه وسخطه أن يحل بهم.

﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ﴿١٠٩﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴿١١٠﴾﴾ وأخبرهم أنه لم يطالبهم بأجرة اتباعه حتى يتثاقلوا ذلك، ولا زال يكرر دعاءه لهم، متخذاً لكل الوسائل، وفي جميع الأوقات.

﴿قَالُوا أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ﴿١١١﴾﴾ ولكن شيئاً من ذلك لم ينفع أو يؤثر فيهم؛ لأنهم كانوا أهل كبر وعناد، فكيف يصطفون في زعمهم مع أراذل الناس وسفهائهم الذين آمنوا بنوح عليه السلام، مستنكرين لذلك أشد الاستنكار، ومستبعدين لذلك أشد الاستبعاد، ومتعجبين من طلبه لهم أن يكونوا مساوين للأراذل الذين اتبعوا نوحاً عليه السلام وهم ذوو الشأن الرفيع والمقامات العالية، وقد شرطوا عليه أن يطردهم إن أراد أن يحضروا مجلسه ويستمعوا إليه، وإلا فلن يؤمنوا له أبداً.

﴿قَالَ وَمَا عِلْمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴿١١٢﴾﴾ أجاب عليهم نبي الله نوح عليه السلام بأنه لا يعلم بشيء يدينهم به حتى يطردهم عن مجلسه، ولا يوجد أي حجة أو مبرر يستوجب ذلك.

﴿إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَى رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ﴿١١٣﴾﴾ وحتى إن كانوا يعملون شيئاً من أعمال الخسة والدناءة فالله سبحانه وتعالى هو الذي سيتولى حسابهم، وأما أن أجازيهم بالطرد من دون أي مبرر فذلك لا يجوز ولا يحق لي.

ثم أخبرهم بأنهم غير مصدقين بالبعث والحساب، وإلا لما طلبوا منه هذا المطلب.

﴿وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ﴿١١٤﴾﴾ وأقنعهم بأنه لن يطرد من قد آمن به أبداً.

﴿إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ﴿١١٥﴾﴾ وأخبرهم أنه ليس مكلفاً إلا بإعذارهم وإنذارهم عذاب الله سبحانه وتعالى، وما تبقى من أمر التعذيب والحساب والجزاء فهو على الله تعالى.

﴿قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَانُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ﴿١١٦﴾﴾ ثم هددوه بأنه إن لم يقلع عما هو عليه فإنهم سيقتلونه شر قتلة، وقوله: ﴿مِنَ الْمَرْجُومِينَ﴾ كناية عن ذلك.

﴿قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ﴿١١٧﴾ فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِي وَمَنْ مَعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴿١١٨﴾﴾ وفي آخر الأمر بعد أن أعيته فيهم جميع الحيل سأل الله سبحانه وتعالى أن يحكم بينه وبين قومه بالحق.

﴿فَأَنْجَيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ۝١١٩ ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ الْبَاقِينَ۝١٢٠﴾ استجاب الله سبحانه وتعالىٰ دعاء نبيه، وأمره بصنع سفينة له ولمن آمن معه، وأن يحمل فيها أيضاً زوجاً من كل صنف من أصناف الحيوانات، ثم أغرق كل من بقي على الأرض من المكذبين واستأصلهم، ولم يبق من البشر أحد إلا من ركب في السفينة وهم نوح وأبناؤه.

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ۝١٢١ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ۝١٢٢﴾ وأخبر الله سبحانه وتعالىٰ نبيه ﷺ بأن في هذه القصة عبرة لمن أراد أن يحذر بأس الله تعالىٰ وسخطه إن وقع في معصيته.

وقد مكث نوح عليه السلام في إنذار قومه مدة ألف سنة إلا خمسين عاماً يدعوهم طوال هذه المدة ليلاً ونهاراً وسراً وعلانية وجماعة وفرادىٰ لا يفتر لحظة واحدة، ولكن دعاءه لهم لم يزدهم إلا كفراً وطغياناً وعناداً.

﴿كَذَّبَتْ عَادٌ الْمُرْسَلِينَ۝١٢٣﴾ وهم قوم هود عليه السلام وكانوا بالأحقاف من بلاد حضرموت، والأحقاف: هي كثبان الرمال.

﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ۝١٢٤ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ۝١٢٥ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ۝١٢٦﴾ يقص الله سبحانه وتعالىٰ على نبيه ﷺ قصة هود عليه السلام وما جرىٰ له مع قومه، فأخبر أنه أرسله إليهم يدعوهم إلىٰ عبادته وحده وترك عبادة الأصنام.

﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ۝١٢٧﴾ فلم أطلب منكم الأجرة علىٰ تعليمكم وهدايتكم حتىٰ تمتنعوا هذا الامتناع.

﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ۝١٢٨﴾ كانوا يبنون في رؤوس الجبال المباني التي لا فائدة لهم منها فاستنكر عليهم هود عليه السلام البناء علىٰ رؤوس الجبال لغير فائدة.

﴿وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ۝١٢٩﴾ وكانوا ينقبون خزانات للماء في الجبال، فزجرهم هود عن ذلك، وعن إضاعة أوقاتهم وأعمارهم في هذه الأعمال التي لا حاجة لهم بها، وكأنهم بأعمالهم هذه سيخلدون علىٰ الدنيا.

﴿وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ۝١٣٠﴾ كانوا أهل قتل وتسلط وتجبر في الأرض.

﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ۝١٣١﴾ اتركوا ما انتم عليه من هذه الأعمال، واحذروا سخط الله سبحانه وتعالى وغضبه أن يحل بكم بسببها.

﴿وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ۝١٣٢﴾ ثم كرر عليهم الدعاء إلى تقوى الله وطاعته مذكراً لهم بنعمه عليهم؛ لأنهم إذا عرفوا أن هذا الذي يأمرهم بعبادته هو المتفضل عليهم بجميع ما هم فيه من النعم فلعلهم يستيقظون من غفلتهم، وينتبهوا من رقدتهم.

﴿أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ۝١٣٣ وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ۝١٣٤﴾ كانوا أهل ثراء وتجارة وبساتين وأنهار يتقلبون في رغد العيش من دون أي تعب أو مشقة.

﴿إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ۝١٣٥﴾ فإني خائف عليكم أن يحل بكم غضب الله وسخطه عندما تقابلون ما أنتم فيه من النعيم بالكفر والجحود.

﴿قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْوَاعِظِينَ۝١٣٦﴾ ولكنهم على الرغم من كل ذلك لم يتزحزحوا عن كفرهم وضلالهم، وأقنعوه أنهم لن يقلعوا عما هم عليه مهما حاول، فلا يتعب نفسه في ملاحقتهم ووعظهم.

﴿إِنْ هَذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ۝١٣٧ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ۝١٣٨﴾ وأخبروه بأن هذا شأن الحياة، وأنها طبيعة واحدة في السابقين واللاحقين حياة تنتهي بالموت، وينتهي عند ذلك كل شيء فلا بعث ولا نشور، ولا حساب ولا عقاب كما تدعي، ولو كان شيئا من ذلك لرأيناه فيمن سبق من الأمم.

﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ۝١٣٩ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ۝١٤٠﴾ عندما أصروا على كفرهم وتكذيبهم بنبيهم أهلكهم الله سبحانه وتعالى واستأصلهم بعذابه.

ثم أخبر الله تعالى نبيه محمداً صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ أن قومه لن يعتبروا ولن يؤمنوا أبداً، ولن تنفع فيهم هذه العبر.

﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٤١﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٤٢﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٤٣﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٤٤﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٤٥﴾﴾ ثمود هم قوم نبي الله صالح عليه السلام، وكانوا يسكنون ما بين المدينة وتبوك، ولا زال اسم بلادهم إلى اليوم مدائن صالح، ولا زالت آثارهم باقية إلى اليوم، وقد بعث الله سبحانه وتعالى إليهم نبياً منهم الذي هو صالح عليه السلام.

فدعاهم إلى عبادة الله وحده وترك عبادة الأصنام، وأمرهم أن يتقوا الله وأن يحذروا عذابه وسخطه أن يحل بهم.

﴿أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَاهُنَا آمِنِينَ ﴿١٤٦﴾ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٤٧﴾ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ﴿١٤٨﴾﴾ أتظنون أن الله سبحانه وتعالى سيترككم على ما أنتم عليه من الأمن والأمان والسعة في الرزق، وحالكم أنكم كافرون بنعمه ومنغمسون في المعاصي والشهوات والغفلة عن شكر ما أنعم به عليكم.

﴿وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ ﴿١٤٩﴾﴾ وكانوا ينحتون بيوتاً في الجبال وهم غير محتاجين إليها، يريد الله سبحانه وتعالى أن يخبر بأنه أغدق عليهم نعمه حتى بطروا وأفسدوا، وسخروا ذلك في غير طاعته.

﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٥٠﴾﴾ وطلب منهم أن يتركوا ما هم فيه، ويرجعوا إلى الله تعالى والعمل بما يرضيه، واجتناب ما يسخطه.

﴿وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ ﴿١٥١﴾ الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿١٥٢﴾﴾ ونهاهم عن السماع لكبار قومهم؛ لأنهم الذين يغوونهم ويضلونهم عن الحق، ويمنعونهم عن السير في طريق الهدى.

ثم وصف هؤلاء المسرفين بأنهم الذين يفسدون في الأرض بالقتل والظلم وسفك الدماء وإهلاك الحرث والنسل ويصدون عن الهدى، ولا يصدر منهم صلاح في الدنيا بل أعمالهم كلها فساد.

﴿قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ ﴿١٥٣﴾﴾ وبعد أن نصحهم أجابوا عليه بأنه ساحر وقد أصابه المس والجنون، وأن ما أتى به لا يقول به إلا المجانين.

﴿مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا﴾ ورموه بالكذب والافتراء؛ لأنه بشر مثلهم، والنبي لا يكون من البشر.

﴿فَأْتِ بِآيَةٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١٥٤﴾﴾ وطلبوا منه أن يأتيهم بآية تدل على صدق ما يدعي.

﴿قَالَ هَذِهِ نَاقَةٌ لَهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَعْلُومٍ ﴿١٥٥﴾ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥٦﴾﴾ ثم إن الله سبحانه وتعالى أخرج لهم ناقة من عرض الجبل، ورأوها وهي تخرج أمام أعينهم آية دالة على صدق نبوته، وقال لهم: إن الماء قسمة بينهم وبينها لكل منهما يوم يرد فيه، مما يدل على كبر هذه الناقة وعظمها؛ إذ جعل لها حصة مثل حصتهم جميعاً.

وبعد أن أخرج لهم هذه الناقة حذرهم أن يمسوها بسوء فإن الله سبحانه وتعالى سينزل علهم عذابه وسخطه إن هم فعلوا ذلك.

﴿فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا نَادِمِينَ ﴿١٥٧﴾ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ﴾ ولكنهم لم يبالوا بما حذرهم نبيهم وقتلوا الناقة، فأنزل الله سبحانه وتعالى عليهم عذابه وسخطه جزاءً على عملهم هذا.

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٥٨﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٥٩﴾﴾ أخبر الله سبحانه وتعالى نبيه صلى الله عليه وآله وسلم أن فيما قصه من خبر صالح مع قومه آية لمن أراد أن يعتبر بها من مكذبي قريش، فيتركوا تكذيب النبي صلى الله عليه وآله وسلم ليسلموا عذاب الله وسخطه الذي نزل على أولئك المكذبين من قبلهم.

﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٦٠﴾﴾ ثم قص الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وآله وسلم قصة قوم لوط مع نبيهم.

﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ۝١٦١ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ۝١٦٢ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ۝١٦٣ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ۝١٦٤﴾ بعث الله تعالىٰ إليهم لوطاً عليه السلام ليدعوهم إلىٰ عبادة الله تعالىٰ، وترك ما هم فيه من العصيان والتمرد علىٰ الله تعالىٰ.

﴿أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ۝١٦٥﴾ استنكر لوط عليه السلام عليهم هذه الفاحشة التي اختصوا بها من بين سائر الناس، وهي فاحشة اللواط التي هي قذارة ودناءة، والتي تحط مرتكبها عن مرتبة الإنسانية إلىٰ مرتبة البهيمية.

﴿وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ۝١٦٦﴾ وتتركون الذي أحله الله سبحانه وتعالىٰ لكم من أزواجكم، فقد تجاوزتم الحدود التي رسمها الله سبحانه وتعالىٰ للناس جميعاً، والقوانين التي مشوا عليها، عادلين بذلك إلىٰ إتيان الرجل الرجل.

﴿قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَالُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ۝١٦٧﴾ ولكنهم تثاقلوا نصحه لهم، وهددوه بالطرد والنفي من بلادهم إن لم يسكت عن ذلك، وذلك أن لوطاً عليه السلام كان أصله من العراق، وإنما هاجر إليهم بأمر من الله سبحانه وتعالىٰ.

﴿قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُمْ مِنَ الْقَالِينَ۝١٦٨﴾ يخاطب لوط عليه السلام قومه بأنه بريء من أعمالهم هذه، وأنه كاره لها أشد الكره.

﴿رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ۝١٦٩﴾ ودعا الله سبحانه وتعالىٰ أن ينجيه من العذاب الذي هو نازل بهم بسبب كفرهم وعصيانهم وارتكابهم الفواحش.

﴿فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ۝١٧٠﴾ ثم إن الله تعالىٰ أنزل عذابه بهم فاستأصلهم جميعاً بما في ذلك مساكنهم وما يملكون، وكانوا يسكنون سبع قرىٰ.

﴿إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ۝١٧١ ثُمَّ دَمَّرْنَا الْآخَرِينَ۝١٧٢﴾ إلا امرأة لوط عليه السلام أهلكها الله مع قومه لأنها كانت كافرة.

﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ۝١٧٣﴾ وهذا هو العذاب الذي أنزله الله سبحانه وتعالى بهم، وهو أنه قلب قراهم فجعل عاليها سافلها، وأما من بقي منهم خارج هذه القرى فقد أمطر الله سبحانه وتعالى عليهم بحجارة من السماء حتى أبادتهم جميعاً.

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ۝١٧٤ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ۝١٧٥ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ۝١٧٦ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ۝١٧٧ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ۝١٧٨﴾ ثم انتقل الله سبحانه وتعالى إلى ذكر قصة أصحاب الأيكة لنبيه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ.

والأيكة: هي الأشجار الملتفة بعضها ببعض، وقد أرسل الله تعالى إليهم شعيباً عَلَيْهِ السَّلَامُ.

﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ۝١٧٩ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ۝١٨٠ أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ۝١٨١ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ۝١٨٢﴾ وأمرهم شعيب عَلَيْهِ السَّلَامُ بأن يطيعوا الله تعالى، ويتركوا ما هم فيه من الضلال والعصيان وعبادة غير الله سبحانه وتعالى، وكانوا أهل تجارة وبيع وشراء، وذلك أن بلاد الشام كانت مزدهرة بالتجارة يقصد إليها التجار من جميع البلدان لجلب البضائع، فأمرهم بأن يتركوا الغش والخديعة في البيع والشراء، وأن يوفوا الكيل والميزان. والقسطاس: هو الميزان.

﴿وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ۝١٨٣﴾ ونهاهم عن البخس الذي هو النقص في حقوق الناس، ونهاهم عن الفساد في الأرض بجميع أشكاله من القتل والظلم وغير ذلك مما يندرج تحت معنى الفساد.

﴿وَاتَّقُوا الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالْجِبِلَّةَ الْأَوَّلِينَ۝١٨٤﴾ ثم بدأ يعرفهم بالإله الذي تجب عليهم طاعته وتقواه، بذكر آثاره التي تدل عليه، فأخبرهم بأنه الذي خلقهم وخلق جميع الأمم التي كانت قبلهم، فإنهم إذا نظروا في عجيب خلقهم

وكيفية ابتداء منشئهم فإن ذلك سيوصلهم إلى أنه لا بد من قادر حكيم عالم بخفايا الأمور وهو الله تعالى.

﴿قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ ۝١٨٥﴾ فأغلظوا في الرد عليه، واتهموه بالمس والجنون والهذيان.

﴿وَمَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَإِنْ نَظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ ۝١٨٦﴾ يزعمون أنه لا يصح أن يكون نبيٌ من البشر، ولا بد أن يكون من جنس غير جنسهم، وزعموا أن الله تعالى لو أراد أن يرسل رسولاً لاتخذ له رسولاً من الملائكة أو نحوهم.

﴿فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِنَ السَّمَاءِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ۝١٨٧﴾ وطلبوا منه أن يسقط عليهم قطعاً من السماء إن كان صادقاً فيما يزعم، مما يدل على شدة عنادهم وتمردهم وكبرهم حين يطلبون منه هذا المطلب.

﴿قَالَ رَبِّي أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ۝١٨٨ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ۝١٨٩ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ۝١٩٠﴾ فأجاب عليهم بأن الله تعالى يسمعهم ويسمع ما يطلبون، ويعلم بجميع أعمالهم وسيجازيهم، ثم إن الله سبحانه وتعالى أهلكهم بعذابه، وكان ذلك العذاب في سحابة أظلتهم فأخذهم ذلك العذاب واستأصلهم.

ثم أخبر الله سبحانه وتعالى أن فيما قصه آية وعبرة لكم يا قريش إن أردتم أن تعتبروا، ولكنهم لم يؤمنوا ولن يؤمنوا بالرغم من كثرة العبر والآيات التي ننزلها عليهم فلا تنتظر إيمانهم يا محمد فلن يؤمنوا أبداً، وما كان من الآيات والعبر التي قصها لهم إنما هي إتمام للحجة عليهم وقطع لأعذارهم فلا يكون لهم يوم القيامة عذر عند الله سبحانه وتعالى.

﴿وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝١٩٢﴾ ثم أخبر الله سبحانه وتعالى نبيه صلى الله عليه وآله وسلم بأن يخبر المشركين أن هذا القرآن كلام الله تعالى الذي أنزله على نبيه صلى الله عليه وآله وسلم، لا كما يقوله المشركون أنه ليس إلا سحراً مفترى وأساطير الأولين.

﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ ﴿١٩٤﴾﴾ هو جبريل عليه السلام نزل بالقرآن على محمد صلى الله عليه وآله وسلم لينذر به المشركين.

﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ ﴿١٩٥﴾﴾ وقد نزل بلغتهم التي هي لغة العرب، فلا عذر لهم أو حجة في عدم فهمهم آياته ومعانيه.

﴿وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ ﴿١٩٦﴾﴾ ثم أخبر الله سبحانه وتعالى نبيه صلى الله عليه وآله وسلم بأن القرآن قد جاء ذكره في الكتب التي سبقته كالتوراة والإنجيل والزبور.

﴿أَوَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ ءَايَةً أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿١٩٧﴾﴾ ثم استنكر على قريش عندما كانوا يسمعون علماء اليهود يذكرون ما جاء في كتبهم من نعت محمد صلى الله عليه وآله وسلم وأوصافه والقرآن، ثم لا يؤمنون به مع ما قد حصل لهم من اليقين في صدقه.

﴿وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَى بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ ﴿١٩٨﴾ فَقَرَأَهُ عَلَيْهِمْ مَا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ ﴿١٩٩﴾﴾ أخبر الله تعالى أنه لو نزل القرآن على بعض الأعاجم لما فهموا معانيه وما المقصود منه، أما وقد نزل على لغة العرب وبلسانهم فلم يبق لهم أي حجة أو عذر في عدم إيمانهم به، وذلك هو المراد بقوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ سَلَكْنَاهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ ﴿٢٠٠﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿٢٠١﴾﴾ وقد علموه وعرفوا معانيه وما المراد منه لكنهم رفضوا الإيمان به والعمل بما فيه؛ عناداً وكفراً وتمرداً على الله تعالى، ولن يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم.

﴿فَيَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٠٢﴾ فَيَقُولُوا هَلْ نَحْنُ مُنْظَرُونَ ﴿٢٠٣﴾﴾ وأخبر أنهم لن يؤمنوا به وسيضلون على كفرهم وعنادهم إلى أن يروا نزول العذاب بهم فعندها سيتفاجؤون عند رؤيته فيطلبون الغوث، ويترجون من الله سبحانه وتعالى أن يمهلهم حتى يستدركوا ما فاتهم.

﴿أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿٢٠٤﴾﴾ كانوا يطلبون من النبي صلى الله عليه وآله وسلم أن يعجل عليهم بالعذاب الذي يتوعدهم به، فرد الله سبحانه وتعالى عليهم: لماذا يستعجلون نزوله؟ وأي راحة لكم فيه حتى تستعجلوه؟ وكيف تستعجلون الشيء المكروه؟

﴿أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ۝٢٠٥ ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ۝٢٠٦ مَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يُمَتَّعُونَ۝٢٠٧﴾ أخبرني يا محمد إن أمهلناهم عدة سنوات ثم نزل عليهم العذاب فماذا يستفيدون من إمهالهم ذلك؟

﴿وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنْذِرُونَ۝٢٠٨ ذِكْرَى وَمَا كُنَّا ظَالِمِينَ۝٢٠٩﴾ ثم أخبر الله سبحانه وتعالى أنه لا يستأصل أمة أو أهل قرية، وينزل بهم عذابه إلا بعد أن يبلغهم الحجة، ويرسل إليهم رسله ينذرونهم ويحذرونهم، فإن قبلوا وإلا عذبهم الله تعالى لأنهم قد استحقوا ذلك بسبب ما جنوا على أنفسهم، ولأنه لو أخذهم قبل ذلك لكان عذراً لهم عند الله سبحانه وتعالى بأن حججه لم تصل إليهم.

﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ۝٢١٠ وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ۝٢١١﴾ ثم رجع الله سبحانه وتعالى إلى ذكر وصف القرآن فأخبر تعالى بأن جبريل هو الذي أنزله إلى محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ وليست الشياطين، وأن ذلك ليس في قدرة الشياطين ولا استطاعتهم، وأيضاً لا ينبغي أن ينزله الله تعالى على أيديهم.

﴿إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ۝٢١٢﴾ ثم ذكر الله سبحانه وتعالى السبب في ذلك بأن الشياطين معزولون عن وحي الله تعالى فلا يستطيعون أن ينفذوا إلى أقطار السماء.

﴿فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا ءَاخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ۝٢١٣﴾ ثم نهى الله تعالى نبيه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ أن يتخذ إلهاً آخر مع الله تعالى فيأخذه بالعذاب.

بدأ الله تعالى في تعليم نبيه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ بدين التوحيد الذي هو معرفته ثم بعد ذلك قال: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ۝٢١٤﴾ ثم أمره أن يدعوا أقاربه وأرحامه قبل الناس جميعاً.

﴿وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ۝٢١٥﴾ وأمره بالتواضع، مما يدل على أهمية ذلك، وأنه الركيزة الأساسية في الدين، والوسيلة الناجحة في الدعوة إلى الله تعالى، ومن أكبر أسباب القبول.

﴿فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ۝٢١٦﴾ فإن رفضوا القبول

والإذعان فأخبرهم بأنك غير راضٍ عن شركهم وكفرهم، وتبرأ منهم.

﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ﴿٢١٧﴾﴾ واستمر في مواصلة التبليغ والدعوة، ولا تخف من أحد فالله تعالى ناصرك ومعينك، وسيكفيك شرهم وأذاهم.

﴿الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ﴿٢١٨﴾ وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ﴿٢١٩﴾ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴿٢٢٠﴾﴾ ثم وصف تعالى نفسه بأنه يرى قيامك في عبادة الليل وتفقدك لأحوال المؤمنين فهو المطلع على كل أعمالكم ما خفي منها وما ظهر.

﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَى مَنْ تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ﴿٢٢١﴾ تَنَزَّلُ عَلَى كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ﴿٢٢٢﴾ يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ﴿٢٢٣﴾﴾ وأن الشياطين لا تذهب إلا إلى أولئك الأفاكين والكذابين فتنقل لهم ما استرقته من السمع، وتزيد على ذلك الكذب والافتراءات والأخبار التي تختلقها من عند أنفسها.

﴿وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ﴿٢٢٤﴾﴾ وأما أنت يا محمد فأتباعك هم المؤمنون وأهل الهدى، وكان المشركون يقولون: إن محمداً ﷺ شاعر، وتارة يقولون: ساحر، وتارة أخرى: مجنون.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ﴿٢٢٥﴾﴾ ألم تعلم أن الشعراء عادتهم التقلب والتحول، فمرة يمدحون ومرة يذمون، ومرة يهجون و...إلخ، فالشاعر الواحد ترى أشعاره متناقضة ينقض بعضها بعضاً، بينما القرآن على نمط واحد وأسلوب دقيق، سالم عن الاختلاف والتناقض.

﴿وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ﴿٢٢٦﴾﴾ وكذلك طبيعتهم الكذب والإكثار منه.

﴿إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ﴿٢٢٧﴾﴾ ثم استثنى الله سبحانه وتعالى القليل منهم وهم الذين آمنوا بدعوتك يا محمد وعملوا الأعمال الصالحة وانتصروا للنبي ﷺ في أشعارهم واستغلوها في رد هجاء المشركين للنبي ﷺ، ثم أخبر الله سبحانه وتعالى بأنهم عما قريب سيرون المصير الذي أعده لهم، وأين ستكون نهاية أمرهم.

سورة النمل

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿طس تِلْكَ ءَايَاتُ الْقُرْءَانِ وَكِتَابٍ مُبِينٍ۝١﴾ في الإشارة تفخيم لشأن هذه السورة التي وَضُحَتْ حججها ودلالاتها لمن استمع إليها وتدبر معانيها، غير أن المشركين كانوا معرضين عنه أشد الإعراض، فكلما قرأ النبي ﷺ عليهم القرآن أخذوا برفع أصواتهم بالضجيج والضحك حتى لا يسمعوه وهو يقرأ.

﴿هُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ۝٢﴾ وأن آيات القرآن يهتدي بها المؤمنون، وفيها تبشيرهم بالثواب العظيم والأجر الجزيل في الآخرة والحياة الهنيئة والسعيدة في الدنيا.

﴿الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ۝٣﴾ ثم وصف الله سبحانه وتعالى المؤمنين الذين يهتدون بهديه وينتفعون بآياته بأنهم الذين يقيمون الصلاة، ويخرجون زكاة أموالهم، ويصدقون بالبعث والحساب، فهؤلاء هم الذين يتدبرون آياته، وينتفعون بهديها، وأما أولئك الكافرون المتكبرون فلا حظ لهم في فهمه وتدبر ما فيه.

﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ﴾ زين الله تعالى للكافرين دين الإسلام وسبل السلام وما أعده من النعيم لأهل طاعته فأعرضوا وكذبوا واستكبروا وأصروا على البقاء في ظلام الكفر وأودية الضلال.

﴿فَهُمْ يَعْمَهُونَ۝٤﴾ فهم يسيرون على غير هدى.

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ لَهُمْ سُوءُ الْعَذَابِ وَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْأَخْسَرُونَ۝٥﴾ وهؤلاء الذين هذه صفتهم هم أهل عذاب الله تعالى وسخطه، وهم الذين سيكون نصيبهم الخسران والهلاك في الآخرة.

﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى الْقُرْءَانَ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ۝٦﴾ ثم خاطب الله تعالى نبيه ﷺ بأنه يتلقى القرآن ويأخذه من عند حكيم عليم، لا كما يقوله المشركون بأنه ليس إلا كلام السحر والشعوذة والجنون.

﴿إِذْ قَالَ مُوسَى لِأَهْلِهِ إِنِّي ءَانَسْتُ نَارًا سَآتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ ءَاتِيكُمْ بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ۝٧﴾ ثم ذكر الله سبحانه وتعالى لنبيه ﷺ قصة موسى عندما أوحى إليه واصطفاه للنبوة والرسالة، فبعد أن أكمل السنين التي استأجره نبي الله شعيب عليه السلام -وهي ثمان سنوات أو عشر إن تطوع موسى بإتمامها- أخذ امرأته وسافر بها، ثم إن الليل أظلم عليه وهو في الطريق، وأصابهم البرد الشديد، وأيضاً أضاعوا الطريق بسبب الظلمة الشديدة، فرأى موسى ناراً على مسافة منهم فأمر أهله بأن ينتظروا حتى يذهب ليبحث لهم عن دليل يخبرهم بالطريق، وليأتي لهم بنار يستدفئون بها.

﴿فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِيَ أَنْ بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ فلما وصل موسى عند النار سمع صوتاً يناديه بأن هذه النار مباركة، وما فيها من النداء مبارك والبقعة مباركة، وأنت يا موسى مبارك.

﴿وَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ۝٨﴾ وتقدس وتنزه أن يكون حول هذه النار أو فيها؛ لأن ذلك يستلزم التجسيم والحلول، والله سبحانه وتعالى يتعالى عن الحلول والمكان.

﴿يَامُوسَى إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ۝٩﴾ يخبره الله تعالى بأنه هو الذي يناديه، وذلك أنه تعالى خلق كلاماً في ذلك المكان بقدرته كلم به موسى عليه السلام بغير آلة فهو تعالى يتكلم بغير لسان وحنك وشفتين، ويرى بغير عين، ويسمع بغير أذن، ويخلق مخلوقاته بغير يدين وبغير آلة عمل.

﴿وَأَلْقِ عَصَاكَ﴾ وأمره الله سبحانه وتعالى عند ذلك أن يرمي بعصاه من يده.

﴿فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَامُوسَى لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ۝١٠﴾ عندما ألقاها رآها تتحرك كالثعبان فخاف من ذلك المنظر وهرب لا يلتفت على شيء من شدة الخوف والفزع، فسمع منادياً يصيح به: أن لا تخف فأنت نبي مرسل، والمرسلون لا يخافون.

﴿إِلَّا مَنْ ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًا بَعْدَ سُوءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ﴿١١﴾﴾ والمفروض أن لا يخاف إلا من عصا الله تعالىٰ، ولكن من عصا الله تعالىٰ ثم تاب إليه فإن الله سيتوب عليه.

﴿وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ﴾ والجيب هو الذي نسميه فِقْرَة القميص، أمره الله سبحانه وتعالىٰ أن يدخل يده فيها فإنه سيخرجها بيضاء ناصعة البياض لا عن مرض أو علة، وإنما آية من آيات الله سبحانه وتعالىٰ بياض يخطف الأبصار بجماله.

﴿فِي تِسْعِ ءَايَاتٍ إِلَى فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴿١٢﴾﴾ وأمره بأن يذهب إلىٰ فرعون وقومه مؤيداً بتسع آيات تشهد بصدقه؛ وكانوا قد تجاوزوا الحد في الظلم والطغيان والتجبر في الأرض.

﴿فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ ءَايَاتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ﴿١٣﴾﴾ فعندما أراهم موسىٰ آياته ومعجزاته التي أيده الله سبحانه وتعالىٰ بها رموه بالسحر، وأما في حقيقة الأمر فقد أيقنوا أن ما جاء به هو الحق والصدق وأنها آيات الله الدالة علىٰ صدقه ونبوته.

﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ وقد عرفوا وتيقنوا بقلوبهم أنها حق وصدق، ولكنهم كفروا بها بألسنتهم استكباراً عن قبول الحق والإذعان له.

﴿فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴿١٤﴾﴾ انظر يا محمد وأخبر قومك كيف كانت عاقبة هؤلاء عندما كذبوا بآيات الله وعصوا رسله.

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا﴾ ثم شرع الله سبحانه وتعالىٰ في ذكر قصة داوود وسليمان عليهما السلام، فأخبر أنه قد أعطاهما العلم والحكمة واصطفاهما للنبوة والرسالة.

﴿وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ﴿١٥﴾﴾ توجه داود وسليمان عليهما السلام إلى الله تعالى بالاعتراف له بعظيم النعمة عليهما وما أولاهما من نعمة العلم والحكمة، وتوجها إليه بالشكر والثناء.

﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ﴾ كان داوود عليه السلام نبياً، وبعد أن مات ورث النبوة من بعده ولده سليمان، وورث أيضاً ملكه؛ لأنه كان ملكاً في بلاد الشام.

﴿وَقَالَ يَاأَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ﴾ وأخبر سليمان قومه بأن الله سبحانه وتعالى قد علمه لغة الطير، ومكنه من جميع أسباب الملك وهيأ له ذلك.

﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ﴿١٦﴾﴾ وقال: إن هذا فضل عظيم تفضل الله به عليه من غير حول منه ولا قوة.

﴿وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ وَالطَّيْرِ﴾ ثم إن نبي الله سليمان عليه السلام جمع جنوده ذات مرة متجهاً جهة الجنوب إلى بلاد اليمن مريداً للغزو، وقد جند لذلك الخروج الجن والإنس والطير.

﴿فَهُمْ يُوزَعُونَ﴿١٧﴾﴾ فحبس أولها على آخرها حتى اجتمعت وتلاحقت ثم سار بهم إلى اليمن.

﴿حَتَّى إِذَا أَتَوْا عَلَى وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَاأَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ﴾ وفي طريقه وعند مروره بوادي النمل صادف أن سمع نملة تصيح بصويحباتها من النمل: بأن يحموا أنفسهم ويحترسوا أن يدوسهم سليمان وجنوده؛ وكانت هذه النملة هي راعيتهم، مما يدل على أن كبير القوم يكون مسئولاً عن رعيته، وحريصاً على سلامتهم، ومتحرياً لتجنيبهم أسباب المهالك.

﴿لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴿١٨﴾﴾ كأنها عرفت بعدل سليمان ورحمته، وأنه لن يتعمد قتلهم أو أذيتهم إلا عن غير شعور وقصد.

﴿فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِنْ قَوْلِهَا﴾ يعني فهم سليمان عليه السلام ما قالت، وذلك أن الله تعالىٰ مكنه من سماع صوتها وفهم منطقها.

﴿وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ ﴿١٩﴾﴾ استشعر سليمان في نفسه نعمة الله عليه فشكرها، وتواضع لله تعالىٰ ولم يأخذه العجب والبطر حيال ذلك؛ مما يدل علىٰ أن المرء إذا تذكر نعمة الله تعالىٰ عليه فعليه أن يقابلها بالشكر لله تعالىٰ وإخلاص العبادة له، وهكذا في مقابل كل نعمة.

وقوله: «تبسم ضاحكا» أراد الله تعالىٰ أنه عليه السلام استر عندما رأىٰ تتابع نعم الله عليه، فطلب من الله تعالىٰ أن يعينه علىٰ شكر ما أنعم به عليه، وأيضاً شكر ما قد أنعم به علىٰ والديه، وذلك أن ما كان أنعم الله تعالىٰ به علىٰ داوود من الملك قد ورثه عنه وصار إليه.

﴿وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ﴾ لأنها كانت من الجنود التي حشرها سليمان عليه السلام.

﴿فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ ﴿٢٠﴾ لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ ﴿٢١﴾﴾ وكان الهدهد من بين جنوده فطلبه فلم يجده بينهم، فأقسم أنه إن لم يأت بحجة وعذر يبرر غيابه ليعذبنه جزاءً علىٰ ذلك؛ مما يدل علىٰ إحاطته بجنوده فرداً فرداً، وتفقده لأحوال رعيته، وأيضاً فيه إشارة علىٰ أنه ينبغي أن يكون القائد ملماً بجنوده، عالماً بأحوالهم وتحركاتهم.

﴿فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴿٢٢﴾﴾ فما لبث أن عاد الهدهد مقبلاً بأخبار مملكة سبأ وملكتهم، وكان سليمان عليه السلام قد قرب من صنعاء، وقد جاءته أخبار سبأ وهو هنالك.

﴿إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾﴾ وهذا هو النبأ الذي جاء به الهدهد مخبراً لسليمان بما تهيأ لها من أسباب الملك العظيم، وما آتاها الله سبحانه وتعالىٰ من القوة والنفوذ والسلطان، وكان اسمها بلقيس.

﴿وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ﴿٢٤﴾﴾ وكانوا قد اتخذوا الشمس إلهاً يعبدونه من دون الله، ظناً منهم أنهم في خير العمل، وأنهم على سواء الطريق بسبب تزيين الشيطان لهم ذلك.

﴿أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ وأنهم لا يسجدون لله تعالى الذي بيده القدرة على إخراج النبات المخبوء في الأرض، وكذلك إخراج ما قد خبئ في السماء من المطر والخير والشر والوحي والعذاب وما أشبه ذلك.

﴿وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴿٢٥﴾﴾ وكذلك الذي علمه محيط بكل شيء ما خفي وما علن وما ظهر وما بطن.

﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴿٢٦﴾﴾ فلماذا لا يعبدون الله الذي هو ربهم ورب الشمس ورب السماوات والأرض وما بينهما.

﴿قَالَ سَنَنْظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴿٢٧﴾﴾ فرد عليه سليمان عليه السلام بأنه سيتحقق، وسينظر في صحة هذا الخبر الذي جاء به.

﴿اذْهَبْ بِكِتَابِي هَذَا فَأَلْقِهِ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانْظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ﴿٢٨﴾﴾ وبعد أن تلقي لهم بالكتاب اتخذ مكاناً قريباً منهم حتى تسمع ما سيكون من ردة فعلهم، وماذا سيقولون، ثم ارجع إلي بخبرهم.

﴿قَالَتْ يَاأَيُّهَا الْمَلَأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ﴿٢٩﴾ إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ﴾ جمعت الملكة بعدما قرأت الكتاب أشراف قومها وأهل المشورة والرأي منهم وأخبرتهم بما جاءها من كتاب سليمان عليه السلام، وأنها لم تر في كتابه هذا إلا ما فيه نفعهم وصلاحهم وصلاح مملكتهم؛ كأنها أرادت لقومها أن يسلموا ويدخلوا في دين سليمان عليه السلام، مما يدل على رجاحة عقلها وحسن تدبيرها.

﴿وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ۝٣٠ أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ۝٣١﴾ هذا هو نص الكتاب الذي أرسله سليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ، وهو تحذيرهم من التكبر والتعالي على نبي الله سليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ، وأن يقبلوا إليه مسلمين.

﴿قَالَتْ يَاأَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي﴾ وطلبت من قومها أن يشوروا عليها بماذا ترد على هذا الكتاب.

﴿مَا كُنْتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّى تَشْهَدُونِ۝٣٢﴾ وأخبرتهم أنها لن تقطع في أي أمر، أو تبت في قضية إلا في محضرهم ومشورتهم.

﴿قَالُوا نَحْنُ أُولُو قُوَّةٍ وَأُولُو بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾ فأشاروا عليها بعدم طاعة سليمان أو الدخول تحت رايته، وقد ركنوا على ما هم فيه من القوة والعدة والعدد، وأشاروا عليها بمواجهة سليمان وحربه.

﴿وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانْظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ۝٣٣﴾ وأخبروها أن ما أشاروا به هو رأيهم، وإن أرادت غير ذلك فهم تحت أمرها، فهي ملكتهم وهم طوع أمرها.

﴿قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا﴾ وأشارت عليهم بأن الحرب ليست هي الحل؛ لأن عواقبها ستكون وخيمة، وأخبرتهم أن الدائرة إن كانت عليهم فسيعيثون الفساد في البلاد.

﴿وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ۝٣٤﴾ وأن هذه عادة الملوك إذا دخلوا بلاداً منتصرين؛ فقد أرادت بذلك أن تجنب قومها المهالك والمصائب والذلة، وأخبرتهم أنها ستدفع شر سليمان بأسلوب آخر غير الحرب والقتال، مما يدل على سياستها وحسن تدبيرها وبُعْد نظرتها لعواقب الأمور.

﴿وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ۝٣٥﴾ وأخبرت قومها بأنها ستجرب سليمان وتختبره من خلال هدية سترسلها إليه؛ لتنظر كيف ستكون ردة فعله، وبعد ذلك ستتخذ القرار تجاهه.

﴿فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَانَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَا ءَاتَانِيَ اللَّهُ خَيْرٌ مِمَّا ءَاتَاكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ۝٣٦﴾ فلما وصل رسولها بالهدية، تعجب من فعل هذه الملكة وكأنها تريد أن تستدرجه بفعلها ذلك، وأمر الرسول أن يخبرها بأن ما آتاه الله من المال والملك أكثر مما آتاها، بالرغم من أن دولة سبأ كانت غنية جداً بما تملكه من مناجم الذهب، وأمره أن يخبرها بأنه ليس من النوع الذي يسكته المال.

﴿ارْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ بِجُنُودٍ لَا قِبَلَ لَهُمْ بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُمْ مِنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ۝٣٧﴾ وأمر رسولها أن يرجع إلى قومه فيخبرهم بأنهم إن لم يستسلموا ويدخلوا في طاعته فسيقبل عليهم بجيش لا يستطيع شيء أن يرده أو يقف في وجهه.

﴿قَالَ يَاأَيُّهَا الْمَلَأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ۝٣٨﴾ وكان قد عرف بما قد أطلعه الله تعالى عليه من العلم أنهم سوف يقبلون إليه مسلمين، فأراد أن يأتي بعرشها قبل أن تصل إليه، والسر في ذلك أنه يريد أن يختبر ذكاءها وفطنتها.

﴿قَالَ عِفْرِيتٌ مِنَ الْجِنِّ أَنَا ءَاتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ۝٣٩﴾ كان سليمان يقف للناس في حوائجهم من أول ساعات النهار إلى وقت الظهيرة، وعندما سأل هذا السؤال أجاب هذا العفريت بأنه لن يحين وقت قيامه من مقامه إلا والعرش بين يديه.

﴿قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ أَنَا ءَاتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾ وهو جبريل عليه السلام أخبره بأنه سيأتيه بعرشها خلال طرفة عين، وهو رمشتها، فلا يفتح عينيه ويغمضها إلا وهو بين يديه.

﴿فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ﴾ عندما رأى العرش بين يديه حمد الله تعالى على هذه النعمة العظيمة، وأن الله سبحانه وتعالى لم يعطه هذه النعمة إلا ليختبره هل سيشكر أم سيكفر هذه النعمة.

﴿وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ۝٤٠﴾ وأن من شكر الله تعالى فإنما ينفع نفسه، وثواب شكره عائد عليه، وأما من كفر بنعمة الله تعالى عليه فإن الله ليس محتاجاً له وضرر ذلك عائد عليه.

﴿قَالَ نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا نَنْظُرْ أَتَهْتَدِي أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ﴿٤١﴾﴾ وأمر من حوله أن يغيروا في هذا العرش وتفاصيله وهيئته؛ أراد بذلك أن يختبر عقلها وحكمتها وذكاءها.

﴿فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ أَهَكَذَا عَرْشُكِ قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ﴾ عندما أقبلت إلى سليمان وسألها: هل صفة عرشك مثل صفة هذا العرش؟ كان من المفروض أن يكون جوابها بـ: نعم، أو لا، ولكنها أجابت بجواب مخلص مما يدل على فطنتها وحكمتها وذكائها، فقالت: كأنه هو.

﴿وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ﴿٤٢﴾﴾ عندما سمع سليمان جوابها هذا علم بذكائها وفطنتها، ولكنها لم تبلغ من الذكاء والحكمة ما قد بلغ فهو أعلم منها، وزيادة على ذلك فضل النبوة والإسلام لله سبحانه وتعالى.

﴿وَصَدَّهَا مَا كَانَتْ تَعْبُدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ كَافِرِينَ﴿٤٣﴾﴾ ومع عقلها وفطنتها لماذا لم تسلم؟ فأخبر أنه قد صدها ومنعها عن الإسلام أنها نشأت بين قوم يعبدون الشمس فعبدتها مثلهم، ولولا ذلك لهداها عقلها إلى عبادة الله سبحانه وتعالى.

﴿قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ﴾ ثم أشار سليمان عليه السلام إلى حجرة وأمرها أن تدخلها ﴿فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَنْ سَاقَيْهَا﴾ وعند مسيرها كشفت عن ساقيها لئلا يصيبهما البلل خلال مرورها من بين ذلك الماء الذي يعترض طريقها.

﴿قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُمَرَّدٌ مِنْ قَوَارِيرَ﴾ فأخبرها أن ذلك الماء يمر من تحت حاجز مصنوع من الزجاج.

﴿قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴿٤٤﴾﴾ وعند ذلك عرفت أنه نبي مرسل من عند الله سبحانه وتعالى، لما رأت من التمكين الذي مكنه الله تعالى، وما يملك من الأمور الخارجة عن قوى البشر وقدرهم.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا﴾ ثم أوحى الله سبحانه وتعالى إلى

نبيه ﷺ قصة قبيلة ثمود مع نبيهم صالح عليه السلام وكيف كانت عاقبتهم، لعل قريشاً تعتبر بما جرى عليهم جزاءً على تكذيبهم بنبيهم.

﴿أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ﴾ فأخبر أنه أرسل إليهم رجلاً منهم اسمه صالح فدعاهم إلى عبادة الله سبحانه وتعالى وترك ما هم فيه من الكفر والطغيان وعبادة الأصنام.

﴿فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ﴿٤٥﴾﴾ فانقسموا إلى قسمين فمنهم من آمن ومنهم من كفر، وقد كان الكافرون هم الكثرة.

﴿قَالَ يَاقَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ﴾ استنكر عليهم نبيهم كيف يستعجلون نزول الشر عليهم؟ وأي راحة لهم فيه حتى يستعجلوا نزوله؟

وذلك أنهم كانوا يسألونه أن يدعوا الله سبحانه وتعالى بتعجيل نزول عذابه بهم إن كان صادقاً فيما يتوعدهم به من العذاب.

﴿لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴿٤٦﴾﴾ فلو أنكم بدل ذلك تستغفرون الله سبحانه وتعالى وترجعون إليه ليدخلكم في رحمته وتسلموا عذابه وسخطه؛ لأن شأن العاقل أن لا يطلب إلا الخير، ويتجنب ما فيه ضرر أو أذى بنفسه.

﴿قَالُوا اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَنْ مَعَكَ قَالَ طَائِرُكُمْ عِنْدَ اللَّهِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ﴿٤٧﴾﴾ فأجابوه بأنهم قد تشاءموا به، وأخبروه بأنهم لم يروا خيراً من حين أقبل إليهم ودعاهم؛ فأجاب عليهم صالح بأن ما هم فيه من الجدب وقلة الأمطار والثمار إنما هو عقاب لهم من الله تعالى بسبب عصيانهم وتمردهم، وأخبرهم بأن الله تعالى يقلب أحوالهم فتارة يحولهم إلى خير، وتارة يحولهم إلى شر اختباراً منه وامتحاناً لهم.

﴿وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ﴿٤٨﴾﴾ ثم أخبر الله سبحانه وتعالى أن من بين أهل مدينة ثمود تسعة أنفار قد عاثوا الفساد في البلاد.

﴿قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ۝٤٩﴾ وقد تآمر هؤلاء الأشخاص وتعاهدوا على قتل نبي الله صالح وأهل بيته جميعاً خفية تحت ظلمة الليل، بعيداً عن أنظار الناس، وبعد ذلك سيحلفون لأولياء دمه وقبيلته بأنهم بريئون من ذلك، وأنهم لا يعلمون له قاتلاً.

﴿وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ۝٥٠﴾ دبروا هذا التدبير وحاكوا هذه المؤامرة وهم لا يعلمون أن مكر الله سبحانه وتعالى فوق مكرهم، وأنه محيط بهم وعالم بما يدبرونه.

ومكر الله هنا مجاز من باب المشاكلة في القول، والمراد أنه قد أحبط مؤامرتهم هذه.

﴿فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ۝٥١﴾ وذلك أن الله تعالى دمر هؤلاء التسعة وقومهم جميعاً، وأبادهم واستأصلهم قبل أن يصلوا إلى صالح وأهله.

﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ۝٥٢﴾ يخبر الله تعالى قريشاً أن بيوتهم لا زالت قائمة قد تخاوت سقوفها وتساقطت، عبرة قائمة أمام عيون مشركي قريش إن أرادوا أن يعتبروا بأهلها، إن كانوا من أهل العقول.

﴿وَأَنْجَيْنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ۝٥٣﴾ نجا الله سبحانه وتعالى المؤمنين الذين آمنوا بصالح وصدقوا دعوته فلم يلحقهم أي أذى أو مكروه من ذلك العذاب الذي نزل بقومهم.

﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ۝٥٤ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ۝٥٥﴾ أرسل الله سبحانه وتعالى لوطاً إلى قومه يدعوهم إلى عبادة الله تعالى، وترك ما هم فيه من المعاصي وعمل الفواحش، وكانوا قد اشتهروا بفاحشة اللواط، يجاهرون بذلك من دون أي حياء أو تستر.

﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوا ءَالَ لُوطٍ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ۝٥٦﴾ عندما استنكر عليهم نبيهم عليه السلام ودعاهم إلى عبادة الله تعالى وترك ما هم فيه لم يجدوا جواباً عليه إلا أن هموا بطرده هو وأهله من بينهم؛ لأنهم استثقلوهم بسبب تنزههم وتطهرهم عن المعاصي التي كانوا يعملونها.

﴿فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَاهَا مِنَ الْغَابِرِينَ۝٥٧﴾ فأهلكهم الله سبحانه وتعالى، وأنزل بهم عذابه وسخطه بعد أن أمر لوطاً وأهله بالخروج من بينهم ليلاً إلا امرأته فقد حكم الله سبحانه وتعالى عليها بالعذاب والهلاك مع قومها.

﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ۝٥٨﴾ وقد أهلكهم الله تعالى بحجارة أمطرها عليهم من السماء فأبادت من بقي منهم.

﴿قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى﴾ ثم انتقل الله سبحانه وتعالى إلى خطاب نبيه صلى الله عليه وآله وسلم بأن يقوم خطيباً في قريش فيبتدئ بحمد الله والثناء عليه، ثم الدعاء لمن اصطفاهم الله تعالى من الأنبياء والمرسلين.

﴿آللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ۝٥٩﴾ ثم بعد حمد الله تعالى والدعاء لعباده المرسلين أمره أن يسأل قريشاً: أيهما أفضل وأجدر بالإلهية والعبادة هل الله تعالى أم الأصنام التي يعبدونها من دونه؟

﴿أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا أَئِلَهٌ مَعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ۝٦٠﴾ وأن يسألهم أيهما أفضل هل الذي خلق السماوات والأرض وما فيهما، وأنزل المطر وأخرج به أنواع النبات والزروع والأشجار والثمار، أم تلك الأصنام التي تعبدونها من دونه لا تستطيع فعل شيء؟

ثم أخبر الله تعالى عن قريش بأن قريشاً قد مالوا عن طريق الحق وعدلوا عنها استكباراً وعناداً وتمرداً على الله وعلى رسوله صلى الله عليه وآله وسلم.

﴿أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أَئِلَٰهٌ مَعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴿٦١﴾﴾ ثم يسألهم أيضاً أيهما أفضل هل هو الذي هيأ الأرض للحياة والاستقرار على ظهرها بما أوجده من كل مقومات الحياة من الماء والجبال، ومنع البحر العذب من الاختلاط بالمالح؟ أم تلك الأصنام التي تعبدونها من دونه؟

غير أن قريشاً قد علمت أن الله تعالى هو الذي بيده كل ذلك، ولكنها تعامت عن تلك الحقيقة، وذهبت إلى عبادة تلك الأصنام التي ليس بيدها أي شيء.

﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ﴾ وأن يسألهم أيهم أفضل هل أصنامكم؟ أم ذلك الإله الذي يجيب دعوة المضطر إذا دعاه؟

وكانوا إذا وقع أحدهم في مصيبة أو شدة تذكر الله تعالى ولجأ إليه بالدعاء والتضرع لينقذه من مصيبته وشدته، ناسين لتلك الأصنام التي يعبدونها، فأمر الله تعالى نبيه صلى الله عليه وآله وسلم أن يسألهم عن ذلك الواقع الذي لا يستطيعون إنكاره.

﴿وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ﴾ تخلفون من قبلكم على الأرض، وتعمرونها بعد تلك الأمم التي قد ذهبت وانقرضت.

﴿أَئِلَٰهٌ مَعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ﴿٦٢﴾﴾ يذكرهم الله تعالى بآياته وحججه وبيناته، ولكنهم لا ينتفعون بتذكيره.

﴿أَمَّنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ وأيهما أفضل هل أصنامكم التي تعبدونها من دون الله سبحانه وتعالى؟ أم الله تعالى الذي سهل لكم الوسائل التي تهتدون بها إلى سلوك الطريق التي تريدونها؛ أراد بذلك النجوم التي يحددون بها اتجاهاتهم وطرقهم.

﴿وَمَنْ يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ أَئِلَٰهٌ مَعَ اللَّهِ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴿٦٣﴾﴾ وأن يسألهم من هو الذي يأتي بالرياح قبل المطر فتسوقه من مكان إلى آخر؟ هل هو الله تعالى أم أصنامكم التي تعبدونها من دونه؟

﴿أَمَّنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ ومن هو الذي بيده بداية خلقكم وإعادتكم للبعث والحساب يوم القيامة؟

﴿وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَئِلَهٌ مَعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ۝٦٤﴾ ومن الذي ينزل المطر ويخرج لكم به الشجر والثمر؟ فإن كانت الأصنام فهاتوا الدليل على ذلك ولن تستطيعوا ذلك أبداً؟

كل هذه التساؤلات ليضطرهم إلى الاعتراف بأن الله سبحانه وتعالى هو وحده المتفرد بكل ما ذكر فلا يكون لهم عذر عند الله تعالى.

﴿قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ﴾ وأخبرهم يا محمد أن الله سبحانه وتعالى هو المختص بعلم الغيب وحده لا يشاركه في ذلك أحد.

﴿وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ۝٦٥﴾ وأخبرهم يا محمد أن هذه الآلهة التي يعبدونها لا تعرف من علم الغيب شيئاً، ولا يعلمون متى سيكون حشرهم ومبعثهم.

﴿بَلِ ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْهَا بَلْ هُمْ مِنْهَا عَمُونَ۝٦٦﴾ ثم أخبر الله تعالى أن المشركين قد عرفوا بأمر الآخرة والبعث والحساب وقد استحكم علمهم في ذلك، غير أنهم بعد ذلك يشككون على أنفسهم في أمرها عناداً وجحوداً وتكذيباً وتعامياً عن الحق، وذلك بما يدخلون من التلبيسات على أنفسهم والشبه، بعد أن علموا وتيقنوا ذلك بما جاءهم من الأدلة والحجج الواضحة.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَئِذَا كُنَّا تُرَابًا وَءَابَاؤُنَا أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ۝٦٧﴾ استنكر المشركون مبعثهم بعد الموت وبعد أن يصيروا تراباً، واستبعدوا كيف يصح ذلك.

﴿لَقَدْ وُعِدْنَا هَذَا نَحْنُ وَءَابَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ۝٦٨﴾ وقد جاءتنا أخبار البعث والحساب، وكذلك آباؤنا من قبلنا، ولم نر نحن ولا هم شيئاً من ذلك الذي توعدنا به يا محمد، مما يدل على أنها ليست إلا خرافات وأكاذيب.

﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ۝٦٩﴾ ثم أمر الله تعالى نبيه ﷺ بأن يأمرهم بأن يسيروا في الأرض وسوف يرون كيف كانت

عاقبة تلك الأمم التي كذبت أنبياءها عندما يمرون على قراهم ومساكنهم التي كانوا يعمرونها وقد أصبحت خراباً، وأن يحذروا أن تصير حالهم كحال تلك الأمم إن استمروا على تكذيبهم وتمردهم.

﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ۝٧٠﴾ ثم أوحى الله تعالى إلى نبيه صلى الله عليه وآله وسلم بأن لا يحزن على عدم إيمان قومه؛ لأنه كان قد دخل عليه الحزن الشديد والضيق لما رأى من تكذيب قومه.

وكذلك أوحى الله تعالى إليه أن لا يبالي بما يكيدونه ويحيكونه نحوه من المؤامرات لقتله أو أذيته، وطمأنه بأنهم لن يستطيعوا أن يلحقوا به أي ضرر أو مكروه، فهو حافظه من كيدهم ومكرهم.

﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ۝٧١﴾ كان المشركون يسألون النبي صلى الله عليه وآله وسلم أن يخبرهم بموعد العذاب هذا الذي يحذرهم منه وينذرهم بنزوله بهم، وأنه إن كان صادقاً فليحدد موعد نزوله.

﴿قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ رَدِفَ لَكُمْ بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ۝٧٢﴾ فأمر الله سبحانه وتعالى نبيه صلى الله عليه وآله وسلم أن يجيبهم بأنه قد أوشك أن يحل بهم بعض ذلك العذاب الذي يستعجلونه وقد اقترب موعده.

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ۝٧٣﴾ وأمره أن يخبرهم بأن الله سبحانه وتعالى قد تفضل عليهم عندما أمهلهم وتأنى بهم وأغدق عليهم نعمه، وأمد لهم في أعمارهم، وبارك لهم في أرزاقهم وأولادهم كل ذلك لعلهم يرجعون إليه، وأن ذلك من عظيم رحمته بهم، فكان من المفروض أن يشكروه مقابل ذلك.

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ۝٧٤﴾ ثم أخبر الله سبحانه وتعالى نبيه صلى الله عليه وآله وسلم بأنه ليس غافلاً عن أولئك العصاة والمتمردين فهو عالم بما يسرونه وما يعلنونه، وسوف يجازيهم على كل ذلك.

﴿وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ۝٧٥﴾ وكل شيء خفي وغاب عن الأعين في السماء أو في الأرض فالله مطلع عليه وعالم به.

﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ۝٧٦﴾ اختلفت بنو إسرائيل في أحكام التوراة على فرق ومذاهب شتى، ثم أتى القرآن يخبرهم ويبين لهم الحق الذي اختلفوا فيه.

﴿وَإِنَّهُ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ۝٧٧﴾ ثم أخبر الله تعالى أن هذا القرآن نعمة عظيمة قد أنعم بها على عباده؛ لأن فيه نجاتهم وهداهم وخير دينهم ودنياهم إلا أنه لا ينتفع به إلا المؤمنون.

﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ بِحُكْمِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ۝٧٨﴾ عندما اختلف علماء بني إسرائيل في أحكام التوراة أخبر الله تعالى أنه سوف يقضي بينهم يوم القيامة فيما اختلفوا فيه، وحكمه هو أن يعذب المبطل منهم ويثيب المحق.

﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ۝٧٩﴾ عندما رفض المشركون دعوة النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأصروا على عنادهم وكفرهم، وعندما هددوه بالقتل والطرد إن لم يقلع عما هو عليه- أمره الله سبحانه وتعالى بأن يتوكل عليه، ويستمر في مواصلة دعوته والمضي في تبليغ ما أمره ربه، وسيكفيه شرهم وأذاهم، وأنه على الحق ولو لم يتبعه أحد منهم.

﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَى وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ۝٨٠﴾ شبه الله سبحانه وتعالى المشركين بالموتى في عدم الاستجابة والسماع مبالغة في استحالة إيمانهم مهما سمعوا من المواعظ والعبر والآيات، وكذلك بمن في أذنيه صمم وقد ولى بظهره فلا يستطيع أن يسمع شيئاً مهما حاولت في إسماعه.

﴿وَمَا أَنْتَ بِهَادِي الْعُمْيِ عَنْ ضَلَالَتِهِمْ﴾ ولن تستطيع يا محمد أن تهدي هؤلاء الذين قد ضلوا، شبههم الله تعالى بالعمي الذين مهما وصفت لهم الطريق فلن يستطيعوا أن يهتدوا إليها مهما حاولت، فكيف تستطيع أن تدلهم على شيء لا يستطيعون أن يروه أو يسيروا إليه.

﴿إِنْ تُسْمِعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ﴿٨١﴾﴾ واعلم أنه لن يقبل منك ويسمعك يا محمد إلا من استحكم الإيمان في قلبه، وصار من المستسلمين لله تعالى والمنقادين له.

﴿وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ﴿٨٢﴾﴾ ثم أخبر الله تعالى بأنه إذا وقع العذاب على المشركين وهو يوم القيامة فإنه سيخرج لهم دابة تشهد عليهم بأنهم كانوا من المكذبين والمعرضين عن آيات الله تعالى وعن أنبيائه ورسله.

﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِمَّنْ يُكَذِّبُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ﴿٨٣﴾﴾ ثم أخبر الله سبحانه وتعالى أنه في يوم القيامة سيحشر من كل أمة فريقاً منهم وهم زعماؤهم وكبارهم الذين كانوا يضلون الناس ويغوونهم، ثم إنه سيجمعهم في مكان للسؤال والجواب.

﴿حَتَّى إِذَا جَاءُوا قَالَ أَكَذَّبْتُمْ بِآيَاتِي وَلَمْ تُحِيطُوا بِهَا عِلْمًا أَمْ مَاذَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴿٨٤﴾﴾ فإذا اجتمع هؤلاء سألهم الله تعالى: ماذا كنتم تفعلون في الدنيا، وقد كذبتم بآياتي ولم تعملوا بما جاءتكم به الأنبياء والرسل؟ فعند ذلك لا يستطيعون ولا يهتدون إلى جواب يخلصون به أنفسهم عند الله سبحانه وتعالى وذلك قوله تعالى:

﴿وَوَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ بِمَا ظَلَمُوا فَهُمْ لَا يَنْطِقُونَ﴿٨٥﴾﴾ فلم يحيروا جواباً، ولم يجدوا ما يجيبون به سؤال ربهم وحق عليهم العذاب بسبب كفرهم.

﴿أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا اللَّيْلَ لِيَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴿٨٦﴾﴾ ألم ينظر المشركون إلى صنيع الله سبحانه وتعالى بهم ورحمته بهم إذ جعل لهم الليل ليسكنوا فيه من تعب ما لحقهم في النهار، وجعل لهم النهار يسعون فيه إلى مصالحهم ومعايشهم وأرزاقهم؟ فإن في ذلك آية لهم لو كانوا يعقلون.

ثم أخبر الله تعالى عن واقع حال المكذبين بأنهم لن ينتفعوا بذلك، وأنه لا ينتفع بآياته إلا المؤمنون.

﴿وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ﴿٨٧﴾﴾ يذكرهم الله سبحانه وتعالى بيوم الحشر والنشر وهو يوم النفخ في الأموات وإعادة الأرواح إلى الأجساد، فأخبر أنه سيحيي كل من خلق في السماوات والأرض.

ويحتمل أن يكون أراد بذلك النفخة الأولى عندما يميت الله تعالى كل من في السماوات والأرض إلا من شاء الله تعالى عدم موته من الملائكة، وذلك أن الله تعالى سوف ينفخ نفختين: الأولى لإماتتهم، والثانية لحشرهم ونشرهم، وأن كل من في السماوات والأرض سوف يأتونه صاغرين مستسلمين ومنقادين.

﴿وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ﴿٨٨﴾﴾ أخبر الله تعالى أنه جعل الجبال آية من آياته الدالة على عجيب صنعه وقدرته، وذلك أن الرائي له يحسبها جامدة وثابتة في مكانها بينما هي تمشي وتجري في سرعة مذهلة، يخبر الله تعالى عن حالها في الدنيا.

﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا وَهُمْ مِنْ فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ﴿٨٩﴾﴾ من عمل الأعمال الصالحة في الدنيا فسيجازيه الله تعالى أضعافاً مضاعفة يوم القيامة، وأن أهل الأعمال الصالحة هؤلاء سوف ينجيهم الله تعالى من أهوال يوم القيامة وأفزاعها، وهم في أمن وأمان وطمأنينة.

﴿وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴿٩٠﴾﴾ وأما من عمل الأعمال السيئة والمعاصي في الدنيا فسوف يكبهم الله تعالى على وجوههم في النار جزاءً على ما عملوه من التكذيب والكفر والتمرد والفسوق والعصيان.

﴿إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلْدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا﴾ هذا من كلام النبي ﷺ، أمره الله تعالى أن يقول للمشركين هذا الكلام، وأن الله تعالى لم يأمرني بعبادة الأصنام.

والبلدة التي حرمها هي مكة التي جعلها حرماً آمناً.

﴿وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ﴾ وأن يخبر المشركين بأن كل ما في السموات والأرض فهو لله تعالى وحده.

﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ۝٩١﴾ وأن يخبرهم بأن الله تعالى قد أمره أن يكون من المنقادين له والمطيعين له.

﴿وَأَنْ أَتْلُوَ الْقُرْءَانَ﴾ ويخبرهم أيضاً بأن الله تعالى قد أمره أن يتلوا عليهم القرآن إن أرادوا أن يهتدوا بهديه، ويعملوا بأحكامه، ويرتدعوا عن الشرك والمعاصي التي هم فيها.

﴿فَمَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ﴾ فمن اهتدى بهدي القرآن واستجاب لآياته فلن ينفع بذلك إلا نفسه.

﴿وَمَنْ ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنْذِرِينَ۝٩٢﴾ وأما من بقي على كفره وضلاله، ورفض الاستماع لآياته، فأخبرهم يا محمد أنك لست إلا مبلغاً، وأخبرهم أنك لست مكلفاً بإدخالهم في الهدى، فوبال ضلالهم راجع عليهم.

﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ وأمره الله سبحانه وتعالى بأن يحمد الله تعالى على إتمام تبليغه حججه وآياته.

﴿سَيُرِيكُمْ ءَايَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ۝٩٣﴾ وأن يخبر المشركين بأن الله تعالى سيريهم بيناته وحججه وأنهم سيعرفونها غير أنهم سيعرضون عن قبولها وعن الاستماع إليها، ولكن الله تعالى سيجازيهم على ذلك فهو مطلع على جميع أعمالهم ما ظهر منها وما خفي، وما صغر وما كبر لا يخفى عليه خافية.

❁❁❁❁❁

سورة القصص

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿طسم۝١ تِلْكَ ءَايَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ۝٢﴾ أشار الله سبحانه وتعالى إلى أن آيات هذه السورة هي من آيات الكتاب الواضحة حججه، والمنيرة بيناته فلا إلباس أو إشكال في مصداقية آياته يعرف ذلك كل من قرأه أو سمعه.

﴿نَتْلُوا عَلَيْكَ مِنْ نَبَإِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ۝٣﴾ أخبر الله سبحانه وتعالى نبيه صلى الله عليه وآله وسلم بأنه في هذه السورة سيقص عليه حقيقة ما جرى من قصة موسى مع فرعون بالتفصيل من دون أي زيادة أو نقص، ولن يصدق ذلك إلا المؤمنون فقط، ثم بدأ الله تعالى في القصة فقال:

﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ﴾ تكبر في الأرض ومشى في رعيته بالظلم والجبروت والطغيان وسفك الدماء، والأرض هي أرض مصر.

﴿وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا﴾ وقسم رعيته إلى فرق وأحزاب، وزرع العداوة بينهم ليستطيع بذلك أن يسيطر عليهم؛ لأنهم إن اجتمعوا فلن يتمكن من السيطرة عليهم، مما اضطره ذلك إلى زرع التفرقة بينهم، وقد اتبع في ذلك سياسة «فرق تسد».

﴿يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ﴾ وكان هناك طائفة في شعب مصر قد قهرها وأذلها واستضعفها، وهم بنو إسرائيل، وكان من ولد له مولود ذكر منهم ذبحه من دون أي رحمة أو شفقة.

﴿إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ۝٤﴾ وكان من الساعين بالفساد في الأرض بجميع أشكاله، وأما السبب في ذبحه مواليد بني إسرائيل فهو أن الكهنة كانوا قد أخبروه بأنه سيولد من بني إسرائيل مولود تكون نهاية دولته على يديه.

﴿وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ۝٥﴾ ولكن إرادة الله تعالى كانت فوق إرادة فرعون، فقد أراد تعالى أن يستنقذ بني إسرائيل من ظلمه وجبروته، وأن يكونوا قادة يهتدي الناس بهديهم، وأن يهلك فرعون وقومه ويخلف بني إسرائيل بعده.

﴿وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ وأن يجعل الله تعالى لهم سلطاناً في الأرض ودولة.

﴿وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ ۝٦﴾ وقد أراد الله تعالى أن يري فرعون أنه لن يستطيع أن يهرب من إرادة الله تعالى وما كتبه عليه من الهلاك، ولن يستطيع أحد أن يرد أمراً قد قضاه الله تعالى وكتبه.

وقد عاش هذا المولود على الرغم من ملاحقته لكل مولود يلد من بني إسرائيل بالذبح.

﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ﴾ عندما ولدت أم موسى خافت على وليدها من أن يقتله آل فرعون؛ فأوحى الله تعالى إليها أن ترضعه، ثم تضعه بداخل تابوت، وترمي به في نهر النيل.

﴿وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ﴾ وأخبرها بأنه تحت رعايته وعنايته وفي ضمانته، يطمئنها الله تعالى بذلك لأنها إذا علمت بأن الله سيرده إليها زال خوفها وحزنها على فراقه.

﴿وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ۝٧﴾ يبشرها الله سبحانه وتعالى بذلك ليخفف عنها أيضاً من حزنها وخوفها.

﴿فَالْتَقَطَهُ ءَالُ فِرْعَوْنَ﴾ فرمت به في النهر فساق الله تعالى التابوت الذي يحمله الماء إلى قرب قصر فرعون فأخذه آل فرعون إلى قصرهم.

﴿لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾ أخبر الله سبحانه وتعالى أنه ألقى في قلب فرعون وأهله الرحمة والشفقة وحب هذا الصبي فأخذوه وتبنوه، وكان عاقبة التقاطهم له هو ما كان يحذر فرعون ويخاف من الوقوع فيه وفي ذلك الكلام الذي أخبرته به الكهنة من أمر المولود الذي سيولد من بني إسرائيل تكون نهايته على يديه؛ فهذا تدبير الله تعالى أن يجعله الذي يربي هذا الولد ويتبناه في بيته، ويحوطه بعنايته ورعايته ثم يكون هلاكه وهلاك ملكه على يديه.

﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ ۝٨﴾ وكان ما حصل بتدبير الله

تعالى عقاباً لفرعون ودولته؛ لأنهم لم يهتدوا إلى طريق صلاحهم، وما فيه نجاتهم.

﴿وَقَالَتِ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ قُرَّةُ عَيْنٍ لِي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا﴾ كان فرعون قد هم بقتل هذا المولود خوفاً منه أن يكون ذلك المولود الذي يبحث عنه، فاستوهبته امرأته منه وترجت إليه أن يتخذه ولداً، وأن يجعل تربيته على يديه فيكون ولداً له، وذلك أنه لم يكن أنجب مما جعله يقبل طلبها هذا.

﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ۝٩﴾ هذا من كلام امرأة فرعون لزوجها تخبره بأن أهل هذا المولود لن يعلموا بأن هذا ولدهم ولن يستطيعوا أن يتعرفوا عليه، ولا يشعروا بأنه ولدهم.

﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى فَارِغًا﴾ عندما رأت أم موسى ما رأت بعد إلقائها له في البحر ورأته متوجهاً نحو بيت فرعون وأخذهم له، عند ذلك أصابها اليأس من ولدها، وظنت أنهم سوف يقتلونه، وقد أصبح قلبها فارغاً من كل شيء إلا من ولدها، وهذا كناية عن شدة جزعها.

﴿إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَنْ رَبَطْنَا عَلَى قَلْبِهَا﴾ وقد أوشكت أن تذهب إليهم ويفتضح أمرها لولا إيمانها الذي هو سبب في أن عصمها الله تعالى وشد من عزمها، وأعانها على صبرها وسكوتها.

﴿لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ۝١٠﴾ لأنها من المصدقين بوعد الله سبحانه وتعالى، وقد وعدها بأنه سيرده إليها، فكان إيمانها ذلك سبباً في صبرها وانتظارها لرؤية ولدها كما وعدها الله تعالى.

﴿وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ﴾ أمرت ابنتها بأن تذهب في أثره لتنظر ماذا فعلوا به، وهل قتلوه أم أبقوا عليه؟

﴿فَبَصُرَتْ بِهِ عَنْ جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ۝١١﴾ أخبر الله تعالى أن أخته عندما ذهبت رأته، وأن رؤيتها له كانت من ناحية تجعلهم لا يحسون بأنها تبحث عنه أو تتتبع أخباره.

﴿وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلُ﴾ عندما التقطه آل فرعون من البحر طلبوا له المراضع إلا أنه أبى قبول الرضاعة من أي امرأة.

﴿فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ﴿١٢﴾﴾ عندما رأت أخته ما رأت من عدم قبوله للمرضعات- أشارت عليهم بأنها تعلم بمرضعة من المرضعات إن أرادوا أن يعرضوه عليها؛ لعله يقبل منها.

﴿فَرَدَدْنَاهُ إِلَى أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ﴾ وكان هذا تدبير من الله سبحانه وتعالى لترى ما وعدها ربها به من أنه سيرده إليها.

﴿وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴿١٣﴾﴾ وأيضاً رده الله سبحانه وتعالى إليها لتعلم بصدق ما وعدها، فقد كانت مؤمنة بالله تعالى وبصدق وعده.

﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى ءَاتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ عندما بلغ مبالغ الرجال واستكمل قواه أعطاه الله تعالى النبوة.

﴿وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴿١٤﴾﴾ أعطاه العلم والحكمة جزاءً على ما كان من إحسانه وصلاحه وحسن نشأته، ونعني به أن الله تعالى قد علم بأنه أهل لحمل النبوة والرسالة؛ لأنه لا يعطي نبوته ورسالته إلا من علم أن أعماله كلها حسنة، وعلم أنه أهل لحمل الرسالة.

﴿وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَى حِينِ غَفْلَةٍ مِنْ أَهْلِهَا﴾ رجع الله تعالى يحكي ما كان من أمر موسى عليه السلام قبل مبعثه ونبوته فأخبر أنه دخل يوماً مدينة مصر وقد كانت خالية من الناس.

﴿فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَذَا مِنْ شِيعَتِهِ وَهَذَا مِنْ عَدُوِّهِ﴾ وحين دخوله رأى رجلين يقتتلان فيما بينهما، أحدهما من بني إسرائيل، والآخر من القبط.

﴿فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ﴾ فاستنجد الإسرائيلي بموسى وطلب الغوث والنصرة منه، فمال موسى عليه السلام

على القطبي بوكزة فقتله، وكان فرعون وقومه قد استضعفوا بني إسرائيل وامتهنوهم واستعبدوهم وظلموهم أشد الظلم.

﴿قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ۝١٥ قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ۝١٦﴾ ندم موسى على ما فعل، وطلب التوبة والمغفرة من الله تعالى، فقبل توبته، وغفر له.

﴿قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِلْمُجْرِمِينَ۝١٧﴾ وكان ذلك الذي حصل سبباً في قطعه العهد مع الله تعالى بأنه لن يستعمل ما أعطاه من القوة والبسطة إلا فيما يرضيه لا فيما يسخطه.

﴿فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ﴾ بعدما حصل منه من القتل أخذ يتحسس الأخبار، وينظر ما كان من أمر هذا المقتول، وهل عرفوا قاتله؟

﴿فَإِذَا الَّذِي اسْتَنْصَرَهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ﴾ وبينما هو على هذه الحالة إذا بذلك الرجل الذي نصره بالأمس يقتتل مع رجل آخر، ويصيح بموسى مستصرخاً ومستنجداً.

﴿قَالَ لَهُ مُوسَى إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُبِينٌ۝١٨﴾ فرد عليه موسى بأنك كثير الخصومة والاعتداء على الناس.

﴿فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَنْ يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَهُمَا قَالَ يَامُوسَى أَتُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ إِنْ تُرِيدُ إِلَّا أَنْ تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ۝١٩﴾ فلما أقبل موسى عليه السلام على القبطي خاف الإسرائيلي وظن أن موسى عليه السلام يريده فقال: يا موسى أتريد قتلي كما قتلت رجلاً بالأمس، فسمع الناس ذلك وعرفوا أن موسى هو الذي قتل البطي في اليوم الأول.

﴿وَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَى قَالَ يَامُوسَى إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ۝٢٠﴾ وعندما افتضح أمر موسى وعرفوا أنه هو الجاني أجمع كبار دولة فرعون وملئه على قتله وأخذهم بثأر صاحبهم منه،

فجاء رجل من آل فرعون كان قد آمن فأسرع إلى موسى يخبره بما قد عزموا عليه من قتله، ونصحه بالهروب من مصر والنجاة بنفسه.

﴿فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴿٢١﴾﴾ خرج موسى من أرض مصر في خوف وحذر شديدين داعياً لله تعالى أن لا يمكنهم من رؤيته والظفر به.

﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَى رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ﴿٢٢﴾﴾ وقد توجه إلى ناحية شرق مصر ماشياً في غير هدى أو معرفة بالطريق الصحيح، ودعا الله أن يهديه إلى طريق نجاته، وفعلاً فقد هداه الله سبحانه وتعالى إلى الطريق الصحيح، سار إلى أن وصل مدين، والتي تقع في الجانب الشرقي من خليج العقبة.

﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ﴾ عندما وصل إلى البئر التي ترد عليها قبائل مدين ليستقوا منها ويسقوا أنعامهم ودوابهم، وقد صادف وصوله وقت ورودهم على الماء وازدحامهم عليه، وقد رأى من بين أولئك القوم امرأتين قد انحازتا في ناحية عنهم.

﴿قَالَ مَا خَطْبُكُمَا﴾ فسألهما عن حالهما، ولماذا لا تستقيان مع بقية القوم؟

﴿قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ﴿٢٣﴾ فَسَقَى لَهُمَا﴾ فأجابتاه بأنهما مضطرتان إلى الوقوف والانتظار حتى يفرغ القوم، فهما ضعيفتان ولا رجل لهما يعينهما على ذلك إلا أبوهما وقد طعن في السن، ولا نريد مزاحمة الرجال فسقى غنمهما.

﴿ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴿٢٤﴾﴾ بعد أن سقى لهما توجه إلى ظل شجرة ليرتاح من تعب السفر وعنائه، وقد أخذ منه الجوع كل مأخذ فلجأ إلى التضرع إلى الله تعالى بأن يسهل له ما يسد به جوعته، ولم يكن ذاق زاداً قط من ساعة خروجه من أرض مصر، وقد روي أن بطنه قد صار أخضر اللون من كثرة ما أكل من ورق الشجر الذي لم يكن يجد في طريق سفره غيره، ومعنى دعائه ذلك أنه فقير لأي خير ينزله الله تعالى إليه يسد به جوعته.

﴿فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا﴾ وقد أجاب الله تعالى دعاءه فأقبلت إليه إحدى البنتين اللتين سقى لهما بدعوة من أبيها إليه.

﴿فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴿٢٥﴾﴾ فأقبل موسى على والد تينك البنتين، فحكى له قصته وما هو السبب الذي جاء به، فطمأنه بأنه قد وصل مأمنه من آل فرعون؛ وصار في بلاد خارجة عن سيطرة فرعون، ولا سلطان له على أهلها.

﴿قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَاأَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ﴿٢٦﴾﴾ فطلبت إحدى هاتين البنتين من أبيها أن يستأجره على رعي الغنم والقيام عليها بدلهما، وأخبرته بعظم أمانته وشدة قوته، وأنه لن يجد رجلاً أفضل منه، وقد عرفت هذه المرأة قوته من خلال مزاحمته لأولئك القوم لسقي الغنم، وأما أمانته فقد عرفتها عندما أتت إليه بدعوة أبيها فلم تره يرفع بصره إليها طول الطريق.

﴿قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنْكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِكَ﴾ فعرض عليه شعيب أن يزوجه إحدى هاتين البنتين بشرط أن يرعى الغنم مدة ثماني سنوات مهراً لها، وأنه إن أراد أن يتطوع بسنتين من عنده ويوفيها عشراً فهذا من معروفه وإحسانه.

﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ﴿٢٧﴾﴾ وأخبره أن هذه المدة ليست مما يشق عليه أو يثقل كاهله، وأن بوسعه أن يوفيه بها، ووعده بأنه من ناحيته لن يلحق به أي ضرر أو مكروه في خلال مدة خدمته هذه، وأنه سيوفيه بما قد أعطاه من الوعود.

﴿قَالَ ذَلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ وَاللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴿٢٨﴾﴾ فقبل موسى هذا الشرط، ووعده بأنه سيقضي أي الأجلين أراد، فإذا انقضت هذه المدة فقد صار بريئاً من كل شيء يتعلق به، وأشهدا الله تعالى على

ذلك الذي وقع بينهما؛ لأنه لم يكن عندهما أي شهود عند أبرام هذا العقد.

﴿فَلَمَّا قَضَى مُوسَى الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ﴾ انتهت مدة الإجارة، وقد روي أنه سئل النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ عن أي الأجلين قضى موسى؟ فأجاب بأنه قد قضى بأوفاهما وهي العشر السنوات.

فخرج موسى بأهله وما أصبح يملكه من الأغنام بحثاً عن مأوى ومكان يسكنه هو وأهله.

﴿ءَانَسَ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ نَارًا﴾ وخلال مسيره ومروره بجنب جبل الطور رأى ناراً على مسافة قريبة منهم.

﴿قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي ءَانَسْتُ نَارًا لَعَلِّي ءَاتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴿٢٩﴾﴾ كان البرد شديداً والظلام قد أطبق عليهم وقد ضلوا عن طريقهم، فعندما رأى موسى النار أمر أهله أن ينتظروا حتى يذهب إلى أهل تلك النار فيأتيهم بما يدفئهم، ويسألهم عن الطريق.

﴿فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِنْ شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَنْ يَامُوسَى إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴿٣٠﴾﴾ كانت هذه النار قد وضعها الله سبحانه وتعالى لموسى، وعندما سار إليها سمع صوتاً يناديه من شجرة كانت بقرب النار، وكان الذي يناديه هو الله تعالى، وقد خلق ذلك الصوت في الشجرة تلك.

﴿وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَامُوسَى أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ﴿٣١﴾﴾ وأمره بأن يلقي العصا التي يحملها في يده فلما ألقاها انقلبت ثعباناً عظيماً فخاف مما رأى، وولى هارباً غير ناظر وراءه من شدة سرعته وخوفه، فناداه الله تعالى وطمأنه بأن ذلك ليس إلا آية من آياته.

﴿اسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ﴾ ثم ناداه ثانية وأمره بأن يدخل يده في جيبه ثم يخرجها فإذا هي بيضاء تبهر الأبصار آية من آياته.

﴿وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ﴾ وأخبره أنه إذا حصل له خوف من أي شيء فما عليه إلا أن يضع يده في صدره وسيزول ذلك الخوف عنه بأمر الله تعالى.

﴿فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِنْ رَبِّكَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ﴾ وأخبره أن هاتين آيتان من آيات الله تعالى قد جعلهما له دلالة على نبوته، وأمره أن يذهب بهما إلى فرعون وملئه، ويريه إياهما ليعرف صدق نبوته ورسالته.

﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴿٣٢﴾﴾ وأخبره بأنه أرسله إلى فرعون وملئه؛ لأنهم قد طغوا وتمردوا على الله تعالى وتجاوزوا حدوده.

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ﴿٣٣﴾﴾ اعتذر موسى عليه السلام إلى الله تعالى بهذا العذر، وهو أنهم سيقتلونه قبل أن يبلغهم.

﴿وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ﴿٣٤﴾﴾ وطلب من الله سبحانه وتعالى أن يبعث معه أخاه هارون إلى تبليغ فرعون لكونه أفصح منه.

والردء: هو السند والعضد، ومعنى يصدقني: أي يتكلم باسمي، ويفصح لهم عن حجتي، وذلك أن موسى كان إذا غضب وفار دمه من شيء فإنه يصيبه انحباس في الكلام.

﴿قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِآيَاتِنَا﴾ لبى الله سبحانه وتعالى لموسى طلبه هذا، وأخبره بأنه قد أيدهما بالحجة القاهرة، وجعل لهما تسلطاً عليهم بحيث لا يستطيعون أن يلحقوا بهما أي سوء أو مكروه.

﴿أَنْتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ﴿٣٥﴾﴾ وأخبرهما بأن الغلبة سوف تكون لهما على فرعون وقومه، وسوف يقهرونهم بالآيات التي أعطاها موسى عليه السلام.

﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ مُوسَى بِآيَاتِنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُفْتَرًى وَمَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ﴿٣٦﴾﴾ عندما أتاهم موسى بالآيات وأراهم إياها، والتي قد أيقنوا عندها أنها من عند الله تعالى، غير أنهم استكبروا عن اتباعه

ورموه بالسحر والافتراء، وتهربوا من اتباعه باختلاق الافتراءات وزعموا أنهم لم يسمعوا بمثل ما جاءهم به من قبل، وأن ما جاء به شيء غريب لم يأت به أحد قبله فكيف يتبعونه.

﴿وَقَالَ مُوسَى رَبِّي أَعْلَمُ بِمَنْ جَاءَ بِالْهُدَى مِنْ عِنْدِهِ وَمَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ۝٣٧﴾ فأجابهم موسى عليه السلام بأن الله تعالى عالم بأن ما جاءهم به هو الهدى، وأنه من عنده، وليس من السحر في شيء، وهو عالم أيضاً لمن ستكون العاقبة الحسنة، وهل ستكون لفرعون أم لموسى وهارون؟ وأخبرهم أن عاقبة الظالم سيئة في الدنيا بالهلاك والدمار، وفي الآخرة بالعذاب والنكال.

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَاأَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي﴾ فتوجه فرعون إلى قومه يخبرهم بأنه لا يعلم إلهاً لهم غيره.

﴿فَأَوْقِدْ لِي يَاهَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَلْ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ۝٣٨﴾ وأمر هامان أن يبني له بناءً شاهقاً يصل إلى السماء، وقد أراد بذلك أن يوهم شعب مصر بأنه قد صعد على هذا البناء لينظر في حقيقة ما جاء به موسى، وهل هناك إله كما يزعم؟ فيعود إليهم بعد ذلك بخبره، فيخبرهم بأنه لم ير شيئاً مما يدعي موسى، وأنه ليس إلا كذباً وافتراءً على الله.

وذلك أنه خاف على شعبه أن يتبعوا موسى، ويدخلوا في دينه، فيفسدوا عليه ملكه وعرشه؛ فاحتال عليهم بهذه الحيلة والخديعة ليدخل على قلوبهم الوهم والشك في حقيقة موسى وما جاء به، وأما في الحقيقة فقد عرف في نفسه صدق ما جاء به موسى، وأنه لن يستطيع الصعود إلى السماء.

﴿وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ۝٣٩﴾ استكبروا عن قبول الحق ورفضوا دعوة موسى عليه السلام؛ وذلك أن المتكبر هو الذي لا يقبل الحق بعد معرفته له.

﴿فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ﴾ ثم إن الله سبحانه وتعالىٰ أهلك فرعون وجنوده في البحر بسبب كفرهم وتكذيبهم.

﴿فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ ۝٤٠﴾ انظر يا محمد كيف كانت عاقبة هؤلاء القوم عندما كذبوا وتمردوا علىٰ نبيهم.

وجه الخطاب إلىٰ محمد ﷺ والمقصود به غيره؛ لينظروا في قصة فرعون وقومه وما جرىٰ عليهم؛ ليعتبروا بهم، ويحذروا أن يقعوا في مثل ما وقع فيه أولئك القوم.

﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُنْصَرُونَ ۝٤١﴾ كان فرعون وقومه دعاة للناس إلىٰ الكفر بالله تعالىٰ وإلىٰ الضلال وعبادة الأصنام، ودعاؤهم إلىٰ النار في الآية مجاز عن ذلك من تسمية السبب باسم المسبب.

﴿وَأَتْبَعْنَاهُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُمْ مِنَ الْمَقْبُوحِينَ ۝٤٢﴾ وهو إهلاكهم واستئصالهم بالغرق، وأما يوم القيامة فهم من أهل لعنة الله تعالىٰ وسخطه وعذابه.

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَى﴾ وهو التوراة أنزلها الله سبحانه وتعالىٰ علىٰ موسىٰ عليه السلام بعد أن أهلك تلك الأمم التي كذبت بأنبيائها.

﴿بَصَائِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ۝٤٣﴾ وأنه أنزلها علىٰ موسىٰ رحمة للناس ليستنقذهم به من الهلاك والضياع إلىٰ نور الحق والهدىٰ.

﴿وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَى مُوسَى الْأَمْرَ وَمَا كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ ۝٤٤﴾ ثم توجه الله سبحانه وتعالىٰ إلىٰ خطاب نبيه محمد ﷺ بأنه لم يكن حاضراً وقت كتابة موسىٰ للتوراة بجانب الطور؛ لأن الله سبحانه وتعالىٰ أوحىٰ إليه بالتوراة في ذلك المكان.

وفي قص الله تعالى على محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ خبر موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ وقصته بدقتها وتفاصيلها دلالة واضحة على صدق نبوته ورسالته، وذلك لكونه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ تربى وترعرع في مكة ولم يخرج منها أو يخالط أحداً من علماء بني إسرائيل ورهبانهم، أو أحداً من النصارى ورهبانهم، ولم يخالط أحداً من أهل الكتب السماوية، وقريش تعلم بذلك، فإذا لم يكن تعلمه من عند الله سبحانه وتعالى فمن أين تعلمه؟ مما يدل ذلك على أنه نبي صادق مرسل من عند الله تعالى.

﴿وَلَكِنَّا أَنْشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ﴾ ثم أخبره الله تعالى بأنه قد طال الزمان، وتكاثرت الأمم، مما استدعى ذلك الأمر إلى إرسالك إليهم؛ لأن الله تعالى لا يبعث نبياً إلا حين يعلم أن الشرائع قد اندرست، وقد أصبح الناس في غفلة وضياع، فعندها تستدعي الحكمة أن يبعث الله تعالى أنبياءه ورسله.

يخبر الله تعالى نبيه بأنه قد أرسله وقت حاجة الناس إلى رسول يستنقذهم من ظلمات الشرك والضلال، ويوقظهم من الغفلة والضياع.

﴿وَمَا كُنْتَ ثَاوِيًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُو عَلَيْهِمْ ءَايَاتِنَا وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴿٤٥﴾﴾ وما كنت حاصلاً في ذلك الزمان بين أهل مدين -لأن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ قص على قريش أخبار موسى عندما كان في مدين، عندما سقى للبنتين واستأجره نبي الله شعيب وزوجه إحدى ابنتيه- فتخبر قريشا بقصته وشأنه وما حصل له، وأن ذلك مما يدل على أنه أخبرهم بذلك بوحي من الله تعالى.

﴿وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَكِنْ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ لِتُنْذِرَ قَوْمًا مَا أَتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴿٤٦﴾﴾ وأيضاً لم تكن حاصلاً في ذلك الزمان عندما نادينا موسى من الشجرة بجانب الطور، ولكن الله تعالى أوحى إليك بذلك، وابتعثك نبياً رحمة منه لك ولأمتك؛ لتنذرهم وتنور لهم طريق الحق والهدى، ولتطاول الزمان الذي لم يروا فيه نبياً بعثناك إليهم.

﴿وَلَوْلَا أَنْ تُصِيبَهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَاتِكَ وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴿٤٧﴾﴾ يخاطب الله سبحانه وتعالى نبيه محمداً ﷺ فقال: إن قومك يا محمد قد استحقوا أن يحل بهم العذاب، وأن نستأصلهم بسبب ما ارتكبوا من الذنوب والمعاصي والإعراض عن الحق والهدى، وانغماسهم في ظلمات الشرك والضلال، وتركنا تعذيبهم على الرغم من أنهم قد استحقوا ذلك لأجل أن لا يأتي يوم القيامة فيقولوا: لو أرسلت إلينا رسولا لآمنا به ولصدقنا ما جاءنا به.

﴿فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا لَوْلَا أُوتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَى﴾ ثم لما أرسل الله تعالى إلى قريش محمداً ﷺ كفروا به وكذبوه واعتذروا بأنه لم يأتهم بآيات تقنعهم كالآيات التي جاء بها موسى، وأنه لو أتاهم بمثل ما جاء به موسى لآمنوا به.

والله سبحانه وتعالى عليم حكيم فهو يرسل آياته لكل أمة على حسب ما تقتضيه الحكمة والمصلحة، وعلى حسب ما يناسب أهل ذلك الزمان، كعيسى قد أعطاه الله تعالى إحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص، وموسى أعطاه العصا، وصالح أعطاه الناقة وهكذا، ومحمداً ﷺ قد أعطاه القرآن الذي أنزل على لغتهم بما فيه من الفصاحة والبلاغة التي كانوا أربابها، وكانوا يتنافسون في ميادينها، ويجعلون على ذلك مباريات فيما بينهم، حتى غلب القرآن فصاحتهم وقهر بلاغتهم، وأيقنوا عند ذلك أن هذا ليس من كلام البشر وأنه من عند الله سبحانه وتعالى لكونهم من أهل ذلك الميدان.

﴿أَوَلَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ﴾ وأن المشركين على طبيعة واحدة فأولئك الذين كفروا بموسى هم من نفس جنس هؤلاء الذين كفروا بمحمد ﷺ، وأنه لو جاءهم بتلك الآيات لكفروا بها أيضاً مثل ما كفر بها أولئك القوم.

﴿قَالُوا سِحْرَانِ تَظَاهَرَا وَقَالُوا إِنَّا بِكُلٍّ كَافِرُونَ﴿٤٨﴾﴾ وهم أولئك الكفار

السابقون فرعون وقومه اتهموا موسى وهارون بأنهما قد تعاونا على اختلاق السحر الذي جاءا به، وقد كفروا بموسى وهارون وكذبوا بهما وبما جاءا به.

﴿قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَى مِنْهُمَا أَتَّبِعْهُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ۝٤٩﴾ ثم أمر الله سبحانه وتعالى نبيه ﷺ بأن يقول للمشركين هذا الكلام، وهو أن يطلب منهم أن يأتوا بكتاب يكون أهدى من القرآن وأدل على الحق منه، وسوف يتبعهم إن حققوا طلبه هذا.

﴿فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ﴾ فإن رفضوا أن يؤمنوا بك يا محمد أو يقبلوا عنك فاعلم أنهم إنما يميلون مع هوى أنفسهم ويتبعون ما تدعوا إليه شهواتهم، وليس ذلك منهم أنك لم تأتهم بالآيات الواضحة التي يعرفون عندها الحق، فقد جئتهم بما قد استيقنوا عنده أن ما جئتهم به هو الحق وأنه من عند الله سبحانه وتعالى.

﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ۝٥٠﴾ ثم أخبر الله سبحانه وتعالى أنه لا أحد أضل وأظلم من ذلك الذي يتبع شهوته وهوى نفسه.

﴿وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ۝٥١﴾ أخبر الله سبحانه وتعالى نبيه ﷺ بأنه قد أرسل لهم الآيات والحجج آية بعد آية وحجة بعد حجة، وأعطاهم البرهان بعد البرهان عسى أن ينفع فيهم شيء من ذلك، ولكنهم لم ينتفعوا بشيء من ذلك، وأنهم لن يزالوا متمردين ولو جئتهم بكل الآيات والحجج؛ لأنهم قوم طبيعتهم الاستكبار والتعالي عن قبول الحق.

﴿الَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ۝٥٢ وَإِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ قَالُوا ءَامَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ۝٥٣﴾ وهناك طائفة من اليهود والنصارى الذين قد آمنوا بما جاءهم من الكتب قبل القرآن سيؤمنون بالقرآن عندما يسمعون آياته تتلى عليهم.

وهؤلاء الذين حكىٰ الله تعالىٰ عنهم وأثنىٰ عليهم هنا هم قلة قليلة من اليهود والنصارىٰ.

﴿أُولَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا﴾ ثم مدحهم الله تعالىٰ وأثنىٰ عليهم بأنه سيضاعف لهم أجرهم بسبب إيمانهم مرتين بالتوراة والإنجيل أولاً ثم بالقرآن عندما نزل.

﴿وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ۝٥٤﴾ وأن من صفاتهم أنهم يقابلون الإساءة الموجهة إليهم بالإحسان، ومن صفتهم أيضاً أنهم يخرجون ما أوجب الله تعالىٰ في أموالهم إلىٰ فقرائهم.

﴿وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ۝٥٥﴾ ومن صفتهم أيضاً أنهم إذا سمعوا الكلام الباطل أعرضوا عنه وسكتوا، فلا يجادلون أهل الباطل، ويكون جوابهم بأن كلاً في عمله فيعمل ما أراد، فاذهبوا في سلام عن الخصام والجدال فلا نريد مجادلة أهل الجهالة والضلال.

ثم وجه الله سبحانه وتعالىٰ الخطاب إلىٰ نبيه ﷺ فقال: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ۝٥٦﴾ كان النبي ﷺ حريصاً علىٰ قريش أن يدخلوا في الهدىٰ والإيمان رحمة بهم وشفقة عليهم أن يلحقهم العذاب، وكان يتعب نفسه في ملاحقتهم ولكنهم كانوا يرفضون ولا يزيدهم ذلك إلا بعداً عن الحق وتمرداً؛ فأخبره الله سبحانه وتعالىٰ بأنه لن يستطيع أن يهدي من أحب؛ لأن الله تعالىٰ لا يهدي إلا أولئك المتواضعين للحق، وأما قومك يا محمد فقد ملئت قلوبهم كبراً وكفراً، وأخبره أنه عالم بمن سيستجيب للحق ويقبله، وأنه لن يقبله إلا أولئك المتواضعون له.

﴿وَقَالُوا إِنْ نَتَّبِعِ الْهُدَى مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا﴾ وزعمت قريش للنبي ﷺ بأنهم إن آمنوا بمحمد ﷺ فإن العرب كلهم سوف يحملون

لهم الحقد والعداء، وسوف يعلنون الحرب عليهم فيتخطفونهم من كل مكان، فاتركنا يا محمد على ديننا هذا، يختلقون الأعذار بذلك للنبي ﷺ، وفي الحقيقة إنما خافوا على مناصبهم ومراكزهم.

﴿أَوَلَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا﴾ فرد الله سبحانه وتعالى عليهم مستنكراً عليهم بأنه قد حفظهم بما جعل لهم من الحرمة في حرمه المحرم، وأن الناس جميعاً عالمون بحرمة حرمهم هذا، ولن يعتدوا عليهم أو يحاربوهم فيه، فما دام قد جعل لكم هذه الحرمة وأنتم كفار فهو قادر على أن يحفظ لكم هذه الحرمة بعد إسلامكم بل إن ذلك أولى.

﴿يُجْبَى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقًا مِنْ لَدُنَّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ۝٥٧﴾ وأنه قد سخر لهذا الحرم جميع خيرات الدنيا من الفواكه والثمار تقبل عليهم من جميع أطراف الدنيا، وقد أوسع عليهم في الرزق ببركة حرمهم هذا.

﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَنْ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ۝٥٨﴾ وأخبرهم بأنه كم من أهل قرية ومدينة قد عذبهم الله تعالى وأهلكهم بسبب كفرهم بنعمه وعدم شكرهم لها، فلتحذر قريش أن يهلكها الله تعالى مثل ما أهلك تلك الأمم، وأمرهم بأن ينظروا في قراهم ومساكنهم التي كانوا يسكنونها إن أرادوا أن يعتبروا بهم.

﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْهِمْ ءَايَاتِنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَى إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ۝٥٩﴾ ثم أخبر الله سبحانه وتعالى أنها قد اقتضت حكمته أن لا يعذب أحداً إلا بعد أن يبعث رسولاً ينذرهم ويحذرهم، وأيضاً لا يهلك أهل قرية إلا بعد أن يعلم أنه لن ينفع في أهلها أي آية أو بينة.

﴿وَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزِينَتُهَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى أَفَلَا تَعْقِلُونَ۝٦٠﴾ فما أوتيتم أيها الناس في الدنيا من أسباب الترف

والرفاهية ورغد العيش فليس إلا متاعاً زائلاً كمتاع المسافر سرعان ما يذهب وينفد وينتهي، وأن ما عند الله تعالىٰ من الثواب هو أفضل لهم وأبقىٰ إن كانوا من أهل العقول، وأن من شأن العاقل أن يختار الأفضل والأبقىٰ علىٰ ذلك الذي يزول ويفنىٰ.

﴿أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَنْ مَتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ﴿٦١﴾﴾ أراد الله سبحانه وتعالىٰ أيهما أفضل أهذا الذي وعده الله بالثواب والدرجات الرفيعة في الجنة أم ذلك الذي يركض وراء شهوات الدنيا وهوىٰ نفسه غير مبال بما نهاه الله سبحانه وتعالىٰ عنه؟ فكل قصده أن يشبع رغبات نفسه من دون مبالاة بعواقب ذلك في الآخرة، وبما سيناله من العقاب علىٰ ذلك؟ فأيهما أفضل إن كنتم من أهل العقول؟ فحتماً فإن كل عاقل سيختار الثواب الدائم ووعد الله تعالىٰ علىٰ ذلك المتاع القليل الزائل.

﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ﴿٦٢﴾﴾ يذكر الله سبحانه وتعالىٰ المشركين بيوم القيامة عندما يناديهم فيقول لهم: أين تلك الآلهة التي كنتم تجعلونها شركاء في الإلهية والعبادة؟ فأين هي كي تنفعكم الآن؟

﴿قَالَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنَا أَغْوَيْنَاهُمْ كَمَا غَوَيْنَا﴾ فيجيب أولئك الذين قد حق عليهم العذاب وقد استوجبوا حلوله بهم وهم كبار القوم والزعماء وأصحاب الكلمة النافذة، فيجيبون الله سبحانه وتعالىٰ بأن هؤلاء هم الذين أغويناهم يا رب كما غوينا من قبلهم.

﴿تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ﴿٦٣﴾﴾ ونحن بريئون من دعائهم إلىٰ عبادتنا واتخاذهم لنا آلهة، فلسنا ندعي الإلهية وإنما أغويناهم فقط كما قد غوينا من قبلهم.

﴿وَقِيلَ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ﴾ فيأمرهم الله سبحانه وتعالىٰ بأن يدعوا شركاءهم أولئك الذين كانوا يعبدونهم من دون الله تعالىٰ.

﴿فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ﴾ وفعلاً يدعون آلهتهم تلك، كفرعون وإبليس وغيرهم من الجبابرة والمتكبرين، ولكنهم منشغلون بأنفسهم وقتها فلا يستطيعون أن يجيبوهم.

﴿وَرَأَوُا الْعَذَابَ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ﴿٦٤﴾﴾ وأيقنوا عند ذلك أنهم قد استحقوا العذاب، وكل ذلك يحسرهم الله تعالىٰ ويندمهم بأنهم لو كانوا من الذين استجابوا للحق والهدىٰ لما وصلوا إلىٰ ما هم فيه الآن.

﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ﴿٦٥﴾﴾ ثم ينادي الله تعالىٰ المشركين أيضاً، ويسألهم ماذا فعلتم مع الرسل الذين أرسلناهم إليكم؟ وكيف كان جوابكم عليهم عندما كانوا يدعونكم إلىٰ عبادة الله تعالىٰ؟

﴿فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الْأَنْبَاءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَاءَلُونَ﴿٦٦﴾﴾ فعند ذلك تنعقد ألسنتهم فلا يحيرون جواباً من هول ما يرون وفضاعته.

﴿فَأَمَّا مَنْ تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَعَسَى أَنْ يَكُونَ مِنَ الْمُفْلِحِينَ﴿٦٧﴾﴾ يرغب الله تعالىٰ عباده في التوبة، وأن بابها مفتوح لمن أراده كائناً من كان، فمن تاب وأخلص توبته لله سبحانه وتعالىٰ وأخلص إيمانه بالله تعالىٰ فإنه سيقبله، وسيكون من الفائزين بثواب الله تعالىٰ. و«عسىٰ» من الله تعالىٰ: وعد بالقبول.

﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴿٦٨﴾﴾ كان المشركون يعترضون علىٰ إرادة الله سبحانه وتعالىٰ في بعثه محمداً صلى الله عليه وآله وسلم للنبوة والرسالة، وقد استنكروا عليه لماذا جعلها في محمد ذلك الرجل الفقير اليتيم؟ ألم ير غيره يجعلها فيه؟ ولماذا لم يبعث فلاناً أو فلاناً وعددوا رجالاً من كبارات قريش؟

فأجاب الله سبحانه وتعالىٰ عليهم بأن أمر الاختيار إليه، وأنه الذي يختار من أراد فليس ذلك إليهم سواء عليهم قبلوا أم لم يقبلوا.

﴿وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ۝٦٩﴾ كان النبي ﷺ والمؤمنون قد استبطأوا نزول العذاب بقريش لما كانوا ينزلونه بهم من الأذى والعذاب في مكة، وقد طال انتظارهم لنزول نصر الله سبحانه وتعالى وخروجهم من الذل والقهر الذي كان المشركون يلحقونه بهم، فأنزل الله تعالى هذه الآية على النبي ﷺ يسليه ويخبره بأن ما قد وعدهم به قريب فما عليهم إلا الصبر، فهو عالم بجميع أعمال المشركين سرها وعلانيتها، وسيجازيهم عليها، فما عليكم إلا الصبر وسترون وعد الله تعالى عما قريب.

﴿وَهُوَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَى وَالْآخِرَةِ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ۝٧٠﴾ ثم رد الله تعالى على المشركين فأخبرهم أنه لا معبود في هذا الكون إلا هو فلا شريك له في استحقاق الإلهية والعبادة كما يزعم المشركون؛ لأنه وحده الذي يستحق الحمد والثناء على النعم التي يعطيها عباده لأنه وحده الذي ينعم عليهم، وأما تلك التي يعبدونها فلا تستطيع شيئاً من ذلك.

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ۝٧١﴾ يذكر الله تعالى المشركين بآياته لينتبهوا من غفلتهم إن أرادوا، ويرجعوا إليه ويتركوا ما هم فيه من عبادة الأصنام، فأمر نبيه ﷺ أن يسألهم: كيف لو أن الله جعل الليل ممتداً إلى يوم القيامة فهل ستستطيع الأصنام أن تأتيكم بنهار تستضيئون بنوره؟ فحتماً سيكون جوابهم بالنفي، وأنها لا تستطيع ذلك.

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ۝٧٢﴾ وأيضاً كيف لو جعل الله تعالى جميع الوقت نهاراً دائماً فهل تستطيع الأصنام أن تأتيكم بليل تهدؤون فيه من تعب النهار؟ فحتماً سيكون جوابهم أيضاً بالنفي.

﴿وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ﴾ ثم أمر الله سبحانه وتعالى نبيه صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ أن يذكر المشركين بنعمه عليهم ورحمته بهم إذ جعل لهم الليل ليسكنوا فيه ويرتاحوا مما لحقهم من التعب في السعي وراء أرزاقهم في نهارهم، وأيضاً جعل لهم النهار ليسعوا في أمور معايشهم وطلب أرزاقهم، وأنه جعل لهم هذه النعمة ليشكروه عليها ويؤدوا حقها من الطاعة والعبادة لله تعالى، غير أنهم رفضوا واستكبروا مع معرفتهم اليقينية بأن أصنامهم هذه التي يعبدونها لا تفعل لهم شيئا.

﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ ۝٧٤﴾ وذلك يوم القيامة سينادي الله تعالى المشركين بأن يخبروه أين تلك الآلهة التي كنتم تعبدونها من دونه، فنادوها لعلها تجيبكم أو تنفعكم؛ يبكتهم الله سبحانه وتعالى، ويندمهم على أعمالهم التي كانوا يعملونها في الدنيا.

﴿وَنَزَعْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ۝٧٥﴾ الشهداء هم الأنبياء والأوصياء والأئمة ومن يقوم مقامهم بواجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وتبليغ الناس شرائع وأحكام دينهم، فأخبر الله تعالى أنه سيحضر هؤلاء الشهود ليشهدوا على أممهم عند الله تعالى يوم القيامة بأنهم قد بلغوهم وأعذروا إليهم وأنذروهم؛ لأن المكذبين سيقولون يوم القيامة ما جاءنا من بشير ولا نذير فعندها يحضر الله تعالى هؤلاء الشهود يشهدون عليهم؛ ثم بعد شهادة الشهود يسأل المشركين والمكذبين بأن يأتوا ببراهينهم وحججهم لعلهم يجدون مخرجاً، ولكنهم لا يجدون أي مخرج أو طريق فيضطرون إلى الاعتراف بما شهد عليهم أولئك الشهود، وأما تلك الآلهة التي كانوا يعبدونها، ويدعون أنها سوف تنفعهم فقد ضاعت عنهم يوم القيامة.

﴿إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَءَاتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ﴾ ثم انتقل الله سبحانه وتعالىٰ إلىٰ ذكر قصة قارون لما فيها من العظات والعبر للمعتبرين، فأخبر تعالىٰ أنه كان رجلاً من بني إسرائيل مكنه الله في الأرض، وأعطاه من الكنوز والأموال الكثيرة، وقد عبر عن كثرتها بأن مفاتيح خزائنه من كثرتها كانت تثقل مجموعة من الرجال الأقوياء، فبسبب ما مكنه الله تعالىٰ طغىٰ علىٰ موسىٰ وخرج عليه ووقف في وجه دعوته، وكل ذلك بدل أن يشكر الله تعالىٰ علىٰ ما أعطاه من النعم.

﴿إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ۝٧٦﴾ وكان قومه ينصحونه بترك البطر والتبذر بما أنعم الله تعالىٰ عليه، والفرح الذي نهاه قومه عنه هو الذي يؤدي إلىٰ نسيان نعمة الله تعالىٰ عليه، ويرىٰ نفسه بسبب فرحه وبطره عظيماً وذا شأن كبير، ويتكبر بما أنعم الله تعالىٰ عليه ويتعالىٰ علىٰ الناس بما آتاه الله تعالىٰ؛ وأما فرح السرور مع عدم نسيان نعم الله تعالىٰ وأداء حق شكرها فذلك محمود.

﴿وَابْتَغِ فِيمَا ءَاتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا﴾ ونصحوه بأن ينتفع بما آتاه الله من الأموال، ويطلب بها وجه الله تعالىٰ والدار الآخرة، وذلك بإنفاقها في سبيل الله وعلىٰ الفقراء والمساكين وصلة الأرحام ونحو ذلك من أوجه البر التي يكثر تعدادها، وفي ذلك دليل علىٰ أنه لا حرج في أن يتمتع الإنسان بما أنعم الله سبحانه وتعالىٰ عليه ما دام يؤدي ما يجب عليه من الحقوق في أمواله.

﴿وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾ يعني قابل إحسان الله إليك بالإحسان في أموالك وذلك بتأدية ما أوجب الله فيها من الحقوق ويشكر الله والاعتراف له بالمنة.

﴿وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ۝٧٧﴾ ولا تجعل ما وهبك الله تعالىٰ من الأموال وسيلة إلىٰ السعي بالفساد بين الناس والإفساد في الأرض.

﴿قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي﴾ عندما وعظه أصحابه وبعض قومه،

وبذلوا له تلك النصائح أجاب عليهم جواب المستكبرين، ونسي أن الله سبحانه وتعالىٰ هو الذي أنعم عليه، وأعطاه ورزقه، فقال: إن ما عنده من الأموال إنما اكتسبها بما عنده من الخبرة والبصيرة في كسب الأموال وتجميعها، وأنه لولا ذلك وما عنده من العلم لما كان عنده شيء، فكفر بالله تعالىٰ وكفر بنعمه عليه.

﴿أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلَا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ﴿٧٨﴾﴾ بلىٰ قد علم أن الله قد أهلك من هو أقوىٰ منه وأكثر أموالاً؛ يستنكر الله تعالىٰ عليه لماذا لا يعتبر بمن أهلكهم ممن سبقوه علىٰ الرغم من القوة التي كانوا عليها، وكثرة أموالهم وكنوزهم؟ فقد أهلكهم الله تعالىٰ بسبب كفرهم.

﴿فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ﴾ ثم إنه خرج ذات يوم في كامل زينته متبختراً بينهم، وتظهر عليه أمارات العلو والفخر والكبر.

﴿قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَالَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴿٧٩﴾﴾ عندما رآه ضعاف الإيمان اغتروا وعظم ذلك في أنفسهم وما رأوا عليه من الهيئة والهيبة وتمنوا أنهم لو كانوا مكانه، وقد نسوا الله تعالىٰ وما عنده.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا﴾ فوبخهم المؤمنون علىٰ ذلك الكلام وذكروهم بالله سبحانه وتعالىٰ وما عنده من الثواب، وألّا يغتروا بما هو عليه من متاع الدنيا الفانية، فإن ما عند الله من الثواب أفضل وأعظم مما هو عليه.

﴿وَلَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ﴿٨٠﴾﴾ وهي هذه الكلمة التي نطق بها هؤلاء المؤمنون؛ لأنه لا يتذكر ما عند الله سبحانه وتعالىٰ من الخير والثواب في مثل هذه المواطن إلا أهل هذه الصفة؛ لأن أكثر الناس عندما يرون زينة الدنيا وزخارفها ومتاعها فإنهم يفتتنون وينسون ثواب الله والدار الآخرة.

﴿فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنْتَصِرِينَ۝٨١﴾ ثم إن الله سبحانه وتعالى أهلكه وخسف به وبما معه من الأموال والأملاك وابتلعتها الأرض، ولم يستطع أحد أن يدفع عنه ذلك الذي أنزله الله سبحانه وتعالى عليه، أو أن يدفع عن نفسه.

﴿وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْلَا أَنْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيْكَأَنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ۝٨٢﴾ أولئك الذين كانوا يتمنون أن يكونوا مكانه بعدما رأوا كيف كانت عاقبته، عندها عرفوا أن الله تعالى لا يعطي أحداً أو ينعم عليه إلا فتنة واختباراً، وحمدوا الله تعالى أن جعل حالهم بخلاف حالته، وحمدوه أيضاً على أن منَّ عليهم بأن لم يعطهم ما تمنوا بالأمس، وتذكروا الله تعالى وعرفوا كيف تكون عاقبة الكافرين بنعم الله سبحانه وتعالى.

﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ۝٨٣﴾ ثم أخبر الله سبحانه وتعالى أن الجنة وما فيها من النعيم قد أعدها لأولئك المتواضعين لأوامره والخاضعين له، والذين يمشون في الأرض مشي المتواضعين المستقيمين على طاعة الله تعالى وما أمرهم به.

﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ۝٨٤﴾ فمن عمل الأعمال الصالحة فسيجازيه أضعافها، وأما من عمل السيئات فسيجازي كلاً على قدر عمله.

﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْءَانَ لَرَادُّكَ إِلَى مَعَادٍ﴾ يخاطب الله سبحانه وتعالى نبيه صلى الله عليه وآله وسلم ويخبره بأن الذي فرض عليه تبليغ القرآن وآياته وأحكامه وشرائعه سيرده إلى داره في مكة، وذلك لأن قومه كانوا قد طردوه من مكة وأخرجوه منها، فطمأنه الله تعالى بأنه سيرده إليها منتصراً.

أو يكون المعنى لرادك إلى يوم القيامة ليجازيك على أجر تبليغك آياته وأحكامه وشرائعه.

﴿قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ مَنْ جَاءَ بِالْهُدَى وَمَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴿٨٥﴾﴾ كان المشركون يتهمون النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ بالضلال والخروج عن دين آبائه وأجداده، فأمره الله سبحانه وتعالى بأن يجيبهم بهذا الجواب ويقتصر عليه: وهو أن الله سبحانه وتعالى عالم بمن هو الذي على الهدى ومن هو الذي على الضلال، وسيجازي كل امرئ على حسب عمله.

﴿وَمَا كُنْتَ تَرْجُو أَنْ يُلْقَى إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ﴾ ثم أخبر الله سبحانه وتعالى نبيه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ بأنه لم يكن لديه أي طمع أو أمل في النبوة قبل مبعثه، وإنما بعثك الله سبحانه وتعالى للنبوة واختارك من بين سائر الناس من دون أن يكون لك أي طمع فيها أو سعي وراءها، وأنه تفضل بها عليك رحمة منه لك.

﴿فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِلْكَافِرِينَ﴿٨٦﴾﴾ فاحذر أن تكون نصيراً ومعاضداً للكافرين على كفرهم، أو أن تعينهم في شيء من أعمالهم.

﴿وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ ءَايَاتِ اللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنْزِلَتْ إِلَيْكَ وَادْعُ إِلَى رَبِّكَ﴾ واحذر أن يصدك المشركون عن تبليغ آيات الله سبحانه وتعالى وشرائعه، أو تتهاون في ذلك لأجلهم، فأعرض عنهم كل الإعراض، ولا تبال بهم أو باستهزائهم.

﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴿٨٧﴾﴾ واحذر أن تعمل مثل أعمالهم فتكون منهم.

﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا ءَاخَرَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴿٨٨﴾﴾ واحذر أن تتخذ إلهاً غير الله سبحانه وتعالى؛ لأنه لا إله يستحق العبادة إلا هو، فكل شيء سيفنى ولن يبقى إلا هو، وهو وحده الذي يرجع إليه الناس وهو الذي سيحاسبهم ويحكم بينهم يوم القيامة.

❁❁❁❁❁

سورة العنكبوت

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الم۝١ أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ۝٢﴾ أيظن المسلمون أنه يكفيهم الإيمان بألسنتهم فقط، فلا بد أن يختبرهم الله تعالى ويمتحن إيمانهم ذلك ليتميز صادق الإيمان ممن هو على خلافه، فيمتحنهم بالتكاليف ليظهر حالهم أمام الناس هل آمنوا حقاً أم لا، وأما هو تعالى فهو عالم بصادق الإيمان وضعيف الإيمان فلا يحتاج إلى اختباره وامتحانه، ولكنه تعالى أراد أن يظهر للناس صادق الإيمان من كاذبه، وكان السبب في ذلك هو كثرة الذين يدخلون في الإسلام فبعضهم كان لا يدخل إلا لخوف أو لأجل مصلحة دنيوية أو نحو ذلك، فاختبرهم الله سبحانه وتعالى بالتكاليف ليتبين الصادق من الكاذب، وقد اختبرهم الله سبحانه وتعالى في أول الإسلام بالحروب والجهاد كيوم أحد ويوم حنين ونحوهما، فكان لا يثبت إلا أولئك الذين أخلصوا في إيمانهم وهم القلة القليلة، وأما الباقون فكانوا يهربون ويفرون خوفاً على أنفسهم من الموت والقتل.

﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ أخبر الله سبحانه وتعالى أن الاختبار والابتلاء سنته في الأولين والآخرين، يختبر أتباع الأنبياء لينكشف ويتميز صادق الإيمان من غيره.

﴿فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ۝٣﴾ يعني بذلك أنه أراد أن يكشف للناس أمر الصادقين وأمر الكاذبين، وأن تظهر حقيقة كل واحد على الساحة أمام الناس جميعاً.

﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَنْ يَسْبِقُونَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ۝٤﴾ فلا يظن أولئك الذين يعملون المعاصي والمنكرات أن الله تعالى لن يستطيع أن يلحقهم أو ينالهم، أو أنهم سيهربون من قبضته وقدرته، فلن يفوتوه وسيلحق بهم وسيجازيهم.

﴿مَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ۝﴾ وأن من كان يؤمن بالله واليوم الآخر وبالبعث والحساب فسيلقى جزاءه يوم القيامة، وسيوفيه حسابه، وسيجازي كل امرئ على جميع أقواله وأفعاله صغيرها وكبيرها ظاهرها وباطنها.

﴿وَمَنْ جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ۝﴾ فالله سبحانه وتعالى غير محتاج لعباده ولجهادهم عن دينه، وإنما ينفعون بذلك أنفسهم، وتكليفهم بالجهاد إنما هو فتنة واختبار لإيمانهم، وتعريض لهم على الدرجات الرفيعة في الجنة.

﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ۝﴾ هذا وعد من الله سبحانه وتعالى للذي آمنوا به وبرسوله وعملوا الأعمال الصالحة وما كلفوا به، وعدهم الله بأنه سيمحوا أعمالهم السيئة التي كانوا يعملونها وسيجازيهم بأجزل الثواب وأفضله.

﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا﴾ ثم انتقل الله سبحانه وتعالى إلى تفصيل حق الوالدين لما لهما من المنزلة العظيمة والحقوق على الولد، فأمر وحتم وألزم الولد بالإحسان إلى والديه ولو كانا كافرين.

﴿وَإِنْ جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا﴾ فأمر بطاعتهما في كل شيء، واستثنى من ذلك معصية الله تعالى والشرك به، فلا طاعة لهما في معصية الخالق.

﴿إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ۝﴾ والولد والوالد مرجعهم جميعاً إلى الله تعالى وسيقفون بين يديه فيجازي كل واحد منهم على ما عمل من عمل.

﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ۝﴾ فأهل الإيمان والأعمال الصالحة سيلحقهم الله تعالى بعباده الصالحين من الأنبياء والمرسلين، وسيدخلهم معهم في رحمته وثوابه.

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللَّهِ﴾ يخبر الله سبحانه وتعالى نبيه ﷺ بأن بعضهم يأتي إليه يدعي أنه مؤمن بالله وبنبيه بلسانه فقط، وأما قلبه فلا زال على الكفر والنفاق.

﴿فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ﴾ كانت قريش إذا آمن أحد من أولادهم أو عبيدهم يحبسونه ويضربونه ويعذبونه حتى يرجع إلى الكفر، فحثهم الله سبحانه وتعالى في هذه الآية على الصبر على الإيمان وتحمل الأذى فعذاب الدنيا أهون من عذاب الآخرة، وأنه لا يصح لهم أن يرجعوا إلى الكفر لأجل ما يلحقهم من العذاب، وأن الأولى بهم أن يتحملوا ما يلحقهم من عذاب الناس بدل أن يعرضوا أنفسهم لعذاب الله تعالى.

﴿وَلَئِنْ جَاءَ نَصْرٌ مِنْ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ﴾ هؤلاء الذين هم ضعاف الإيمان أخبر الله سبحانه وتعالى عنهم بأنه إذا حصل نصر للنبي ﷺ وغنائم فإنهم يقبلون إليه يطلبون نصيبهم وحصتهم منها بدعوى أنهم مؤمنون وأنهم مع النبي ﷺ، وأما في الحقيقة فهم ليسوا كذلك فقد ارتدوا عن الإيمان وأصبحوا منافقين.

﴿أَوَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ ۝١٠﴾ فهو سبحانه وتعالى مطلع على قلب كل إنسان، وعالم بما استكن في داخله من الإيمان والكفر.

﴿وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ ۝١١﴾ أكد الله سبحانه وتعالى على أنه لا بد أن يكشف أمر المؤمن وأمر المنافق بحيث تظهر حقيقة كل واحد أمام الناس جميعاً، وذلك بما يفتنهم ويختبرهم من التكاليف التي تظهر كل واحد على حقيقته.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ وَمَا هُمْ بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَاهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ۝١٢﴾ كان أناس من المشركين يرغبون أناساً من المؤمنين في الكفر مقابل أن يتحملوا عنهم وزر كفرهم، فأنزل

الله سبحانه وتعالى على نبيه ﷺ هذه الآية ليخبرهم بأنه لن يحمل أحد ذنب أحد، وأن كل امرئ مسؤول عن عمله لا يحمله عنه أحد.

﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَعَ أَثْقَالِهِمْ﴾ سيحملون وزر أعمالهم وكفرهم وسيتحملون ذنوب وأوزار أولئك الذين كانوا يضلونهم ويصدونهم عن الإيمان من غير أن ينقص من أوزارهم شيء.

﴿وَلَيُسْأَلُنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ۝١٣﴾ وسيحاسبهم الله سبحانه وتعالى يوم القيامة ويسألهم عن افترائهم الكذب على الله تعالى ونسبة الشركاء إليه.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ۝١٤﴾ أمر الله سبحانه وتعالى نبيه ﷺ أن يصبر على أذى قريش وتكذيبهم وكفرهم وعدم استجابتهم، وأن ينظر إلى من سبقه من الأنبياء وما لاقوا من أقوامهم، فقد لبث نوح عليه السلام يدعوا قومه تسعمائة وخمسين عاماً، ومع ذلك فلم يؤمن به أحد من قومه، فعذبهم الله تعالى بالطوفان وأغرقهم جزاءً على تكذيبهم وتمردهم.

﴿فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ﴾ قبل أن ينزل الله سبحانه وتعالى عذابه بقوم نوح أمر نوحاً عليه السلام أن يصنع سفينة له ولمن آمن معه؛ لينجوا فيها من العذاب النازل بقومه.

﴿وَجَعَلْنَاهَا ءَايَةً لِلْعَالَمِينَ۝١٥﴾ وقد مكثت هذه السفينة بعد الطوفان قروناً عدة، تركها الله سبحانه وتعالى آية لمن أراد أن يعتبر من الأمم بعدهم، ولينظروا كيف كان مصير الذين كذبوا وتمردوا على أنبيائهم؛ وقد قيل إن بقايا سفينة نوح عليه السلام لا زالت قائمة إلى اليوم والله أعلم بصحة ذلك.

﴿وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ۝١٦﴾ وكذلك قص الله سبحانه وتعالى لنبيه ﷺ قصة إبراهيم عليه السلام ودعوته لقومه إلى عبادة الله سبحانه وتعالى وحده وترك عبادة الأصنام، وأن

يحذروا أن ينزل بهم سخط الله وعذابه كما نزل بقوم إبراهيم، وأن يعتبروا بهم إن كانوا من أهل العقول.

﴿إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا﴾ يحاججهم إبراهيم عليه السلام ويوقظ عقولهم بأن ينظروا بها إلى حقيقة ما يعبدون، فليست إلا أحجاراً ينحتونها بأيديهم، فكيف ينسبون إليها الربوبية والإلهية وهم يعلمون أنها بعيدة عن ذلك كل البعد.

﴿إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا﴾ وأن ينظروا إلى هذه التي يعبدونها من دون الله هل تستطيع أن تجلب لهم الرزق؟

﴿فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١٧﴾﴾ فالحق أن تعبدوا الله سبحانه وتعالى وحده دون الحجارة، وتطلبوا منه الرزق فهو وحده الذي بيده ذلك، وأن تشكروه على نعمه عليكم فمرجعكم إليه وهو الذي سيجازيكم على أعمالكم.

﴿وَإِنْ تُكَذِّبُوا فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ فانظروا إلى تلك الأمم كيف كان مصيرها عندما كفرت وكذبت بأنبيائها، وكيف أهلكهم الله سبحانه وتعالى بسبب ذلك، وأنتم إن كذبتم فسيحل بكم مثل ما حل بهم.

﴿وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿١٨﴾﴾ وأخبرهم الله أن نبيه صلى الله عليه وآله وسلم قد فعل ما يجب عليه من تبليغهم وإعذارهم وإنذارهم، وأما أمر حسابهم وجزائهم فهو على الله سبحانه وتعالى وهو الذي سيتولى ذلك.

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١٩﴾﴾ ثم وجه الله سبحانه وتعالى الخطاب إلى مشركي قريش؛ لأنهم كانوا ينكرون البعث والحساب، ويزعمون أن من مات فقد انتهى بموته كل شيء، فكيف يستطيع الله تعالى أن يحيي العظام وقد صارت تراباً؟ فأمرهم الله سبحانه وتعالى أن ينظروا ويتفكروا في بداية خلقهم كيف خلقهم وأوجدهم من العدم؟ فإن

فطر عقولهم ستذعن إلى أن الذي قدر على خلقهم وإيجادهم من العدم قادر على أن يعيد خلقهم مرة أخرى.

﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ﴾ ثم أمر الله سبحانه وتعالى نبيه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ أن يأمر قومه أن يسيروا في الأرض فينظروا في مخلوقاته كيف أوجدها واخترعها من العدم بقدرته.

﴿ثُمَّ اللَّهُ يُنْشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝٢٠﴾ فمن ابتدأ خلقها فهو قادر لا محالة على أن يعيد خلقها مرة أخرى، يعلم ذلك كل عاقل إذا نظر وتفكر.

﴿يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَنْ يَشَاءُ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ ۝٢١﴾ وهو لا يعذب إلا من استحق العذاب، وأما المؤمنون فهم في رحمته وثوابه، ويوم القيامة سوف يرجع جميع الناس إليه للحساب والجزاء.

﴿وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ۝٢٢﴾ أنتم أيها الكفار لستم معجزين لله تعالى فأنتم تحت قبضته وسيطرته، ولا مفر ولا مهرب لكم من قبضته، فلا تظنوا أنكم تستطيعون الهروب والفرار من الله تعالى ومن حسابه وجزائه، ولن تجدوا لكم حينها من ينصركم أو يدفع عنكم العذاب، فلا صاحب ولا قريب.

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَلِقَائِهِ أُولَئِكَ يَئِسُوا مِنْ رَحْمَتِي وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝٢٣﴾ تهديد من الله سبحانه وتعالى للمكذبين بآياته وبأنبيائه ورسله والمنكرين للبعث والحساب، فأخبرهم أن لا حظ ولا نصيب لهم في شيء من رحمته وثوابه.

﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنْجَاهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ۝٢٤﴾ فعندما دعاهم إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ إلى الله تعالى وإلى عبادته وترك عبادة الأصنام كان جوابهم عليه أن أضرموا له النار ليلقوه فيها ويستريحوا منه،

ولكن الله سبحانه وتعالى جعلها برداً وسلاماً عليه فخرج من وسطها أمام أعينهم جميعاً سالماً إن أرادوا أن يتعظوا ويعتبروا، ويعلموا أنهم في ضلال.

﴿وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ يخاطب إبراهيم عليه السلام قومه بأنكم لم تتخذوا هذه الأصنام وتعبدوها إلا لأجل أهواء أنفسكم، وإشباع شهواتكم ورغباتكم، وذلك لما يحصل من اجتماعهم عندها من اختلاط الرجال بالنساء، والرقص والغناء، واللهو واللعب، ونحو ذلك.

﴿ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُمْ بَعْضًا﴾ ويوم القيامة لن تجتمعوا كما كنتم تجتمعون في الدنيا حول أصنامكم هذه بل كل واحد سيلعن صاحبه، ويتهم كل واحد منكم الآخر بأنه السبب في ضلاله وإغوائه وكفره، ولن ينفع أحد الآخر كما هو شأنكم في الدنيا من الاجتماع والتآلف على المعاصي والشهوات.

﴿وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَاصِرِينَ﴿٢٥﴾﴾ ومرجعكم جميعاً إلى جهنم، وعذابها ولن تجدوا من يدفع عنكم عذابها.

﴿فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ﴾ أخبر الله سبحانه وتعالى أنه لم يؤمن لإبراهيم عليه السلام من قومه (أهل بابل) إلا لوط عليه السلام.

﴿وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴿٢٦﴾﴾ بعد أن دعا إبراهيم قومه أمره الله سبحانه وتعالى أن يهاجر إلى أرض الشام، وقد لحق به لوط، ثم إن الله تعالى أنزل عذابه بأهل بابل، وأبادهم واستأصلهم بالزلازل التي ضربتهم حتى تهدمت عليهم سقوف منازلهم، وقتلتهم جميعاً.

﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ﴾ وبعد أن هاجر رزقه الله سبحانه وتعالى بالأولاد فولد له إسحاق وكان نبياً، وولد لإسحاق يعقوب وكان نبياً أيضاً، وبارك الله تعالى في ذريته فجعل النبوة في عقبه.

﴿وَءَاتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا﴾ وهو ما رزقه من الذرية المباركة والصالحة وما خرج من الأنبياء من عقبه، وما رزقه من الذكر الحسن إلى يوم القيامة فما من أمة إلا وقد أمرت بالصلاة عليه والثناء والمدح له.

﴿وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴿٢٧﴾﴾ ولم ينقص ثوابه في الدنيا شيئاً مما أعده الله له من الثواب في الآخرة، وسيثيبه الله سبحانه وتعالى ثواب الأنبياء.

﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ﴿٢٨﴾﴾ ثم إن الله سبحانه وتعالى أوحى إلى لوط عليه السلام بالنبوة وأرسله إلى أهل قرى من قرى الشام، وكان أهلها يعملون المنكرات والفواحش من اللواط، وقطع الطريق والنهب، والاعتداء على الناس، وكانوا يجاهرون بالمعاصي والمنكرات على مرأى أعين الناس من دون أي خوف أو حياء فكان الرجل ينكح الرجل جهرة أمام الملأ، فبعثه الله سبحانه وتعالى إليهم ينهاهم عن ذلك ويدعوهم إلى عبادة الله تعالى وحده وترك عبادة الأصنام والمعاصي والمنكرات والفواحش.

﴿أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنْكَرَ﴾ واستنكر عليهم ما كانوا يأتونه من المعاصي من إتيان الرجال بعضهم بعضاً علناً، وقطع الطريق على الناس ونهبهم وأكل أموالهم، وفعل المنكرات والفواحش في النوادي التي جعلوها لذلك علناً أمام مرأى ومسمع جميع الناس.

﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا ائْتِنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴿٢٩﴾﴾ فهذا هو جوابهم على نبيهم استهزاءً به وبما جاء به، فكانوا يقولون له إن كنت صادقاً كما تزعم فعجل بنزول عذاب الله علينا الذي تتوعدنا به.

﴿قَالَ رَبِّ انْصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ﴿٣٠﴾﴾ وعندما رأى منهم ما رأى من التكذيب والاستهزاء، وعند سماعه لجوابهم هذا دعا الله سبحانه وتعالى أن يعجل بنصره وينزل عليهم عذابه.

﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُو أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ۝٣١﴾ وهؤلاء الرسل الذين دخلوا على إبراهيم عليه السلام هم الذين نزلوا بالعذاب على قوم لوط، فقد استجاب الله سبحانه وتعالى دعوته، فدخلوا أولا على إبراهيم يبشرونه بمولود سيولد له، وأخبروه بأنهم قد نزلوا بالعذاب على قوم لوط، وقد حان موعد إهلاكهم؛ لأنهم قد استوجبوا ذلك.

﴿قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنْ فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ۝٣٢﴾ فخاف إبراهيم على لوط عليه السلام وأخبر الملائكة بأنه لا زال في القرية، فأجابوه بأنهم يعلمون ذلك، وأنهم سينجونه وأهله إلا امرأته فقد استحقت العذاب مع قومها. والغابرين: يعني به الهالكين.

﴿وَلَمَّا أَنْ جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا﴾ وبعد أن خرجوا من عند نبي الله إبراهيم عليه السلام ذهبوا إلى لوط، وعندما رآهم ضاق بهم ذرعاً، واستاء بوجودهم خوفاً عليهم من قومه أن يفعلوا فيهم الفاحشة.

﴿وَقَالُوا لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا امْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ۝٣٣ إِنَّا مُنْزِلُونَ عَلَى أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ۝٣٤﴾ فطمأنوه بأن لا يخاف عليهم فلن يستطيعوا أن يلحقوا بهم أي سوء أو مكروه، وأخبروه بأنهم رسل الله قد نزلوا بالعذاب على قومه لإهلاكهم واستئصالهم.

﴿وَلَقَدْ تَرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ۝٣٥﴾ ثم أخبر الله سبحانه وتعالى أن آثار قراهم لا زالت قائمة لمن أراد أن يذهب لينظر إليها ويتفكر فيها، ويعتبر بما حل بأهلها من العذاب، ويحذر أن يفعل مثل فعالهم فيحل به مثل ما حل بهم.

﴿وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَاقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَارْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ۝٣٦﴾ ثم أخبر الله سبحانه وتعالى نبيه صلى الله عليه وآله وسلم عن قصة أهل مدين مع نبيهم شعيب عليه السلام، فأخبر أنه قد أرسل إليهم نبياً منهم يدعوهم إلى عبادة الله تعالى وحده وترك عبادة الأصنام، وأن يؤمنوا بالبعث

والمعاد بعد الموت والحساب والجزاء، ونهاهم عن الفساد في الأرض من قطع الطريق ونهب الأموال، وأكل أموال الناس بالباطل.

﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ۝٣٧﴾ ولكنهم رفضوا دعوته وتمردوا عليه فعاقبهم الله تعالى ليلاً بالرجفة، فزلزل عليهم الأرض، ولم يصبح على أحد منهم.

﴿وَعَادًا وَثَمُودَ﴾ وأخبر نبيه ﷺ بأنه أرسل إلى قبائل عاد وثمود رسله، وعاد كانت في حضرموت، وأما ثمود فكانت تسكن ما بين تبوك والمدينة، فكذبوا بأنبيائهم فأهلكهم الله ودمرهم جزاءً على ذلك.

﴿وَقَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ مِنْ مَسَاكِنِهِمْ﴾ يخاطب الله سبحانه وتعالى المشركين بأنهم يمرون على مساكنهم في أسفارهم إلى الشام، ويرون آثار الدمار والعذاب على مساكنهم.

﴿وَزَيَّنَ لَهُمَ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ﴾ وأن الشيطان قد حسن لأولئك القوم أعمالهم حتى صاروا يظنون أنهم في خير العمل وعلى سواء الطريق.

﴿فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ۝٣٨﴾ بسبب تزيينه لهم أعمالهم صدهم عن الإيمان بالله وبأنبيائه ورسله، على الرغم من أنهم كانوا من أهل العقول والبصيرة غير أن الشيطان قد تغلب عليهم وصدهم عن اتباع الأنبياء والرسل.

﴿وَقَارُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَامَانَ﴾ ثم أوحى الله سبحانه وتعالى إلى نبيه ﷺ خبر فرعون وهامان وقارون، وكانوا من كبار مصر وزعمائها فأرسل إليهم رسوله ولكنهم رفضوا دعوته واستكبروا وتمردوا.

﴿وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ وقد أرسل الله تعالى إليهم موسى بالآيات الواضحة والحجج المنيرة التي لا يبقى عندها أي شك أو شبهة، ولكنهم رفضوا واستكبروا.

﴿وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ۝٣٩﴾ فأخبر الله سبحانه وتعالىٰ أنهم ما استطاعوا أن يفروا من قبضته أو يهربوا من قدرته.

﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا﴾ كل أمة من تلك الأمم المكذبة بأنبيائها كعاد وثمود وفرعون وهامان وقارون وغيرهم، قد أهلكهم الله تعالىٰ، فبعضهم أرسل عليه حاصباً حصبهم، وبعضهم أهلكهم بالصيحة كثمود، وبعضهم أهلكه الله تعالىٰ بالخسف وهو قارون، وبعضهم أهلكه الله تعالىٰ بالغرق وهم فرعون وهامان وقومهما.

﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ۝٤٠﴾ فلم يظلمهم الله تعالىٰ عندما أنزل بهم عذابه وأهلكهم، وإنما هم الذين تسببوا في هلاك أنفسهم بما استكبروا في الأرض وتمردوا علىٰ أنبيائهم، وسعيهم بالفساد في الأرض.

﴿مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا﴾ ثم أخبر الله سبحانه وتعالىٰ عن حال أولئك الذين يعبدون الأصنام ويتخذونها آلهة من دونه ظناً منهم أنها التي تنفعهم وتعطيهم وترزقهم وتمنع وتدفع عنهم، فحالهم كحال العنكبوت تلك الحشرة الصغيرة التي تنسج بيوتها التي هي في غاية الضعف والوهن، فمثل أصنامهم في نفعها لهم كمثل ذلك البيت الضعيف الذي لا يستطيع أن يحميهم من البرد أو الحر أو الرياح أو المطر أو يدفع عنهم أي شر أو يجلب لهم أي نفع لضعفه ووهنه، فكذلك الأصنام لا تستطيع أن تجلب لهم أي نفع، أو تدفع عنهم أي ضرر.

﴿وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ۝٤١﴾ لو كان المشركون يستعملون عقولهم، ويتفكرون في تلك الأحجار التي يعبدونها من دون الله؛ لعرفوا أنها لا تستطيع لهم أي شيء من ذلك الذي يدعونه لها.

﴿إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ فهم بعبادتهم تلك إنما يعبدون أحجاراً ينحتونها بأيديهم، ولا حظ لها ولا نصيب في شيء من صفات الإلهية، وقد عبر الله تعالى عنها بلا شيء أمام قدرته وقوته وعزته وعلمه.

﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾ والأمثال التي يضربها الله تعالى لعباده إنما ضربها لهم لأجل أن يتفكروا فيها، ولكنه لن يتفكر فيها ويعرف معانيها إلا أهل العقول الذين يستعملون عقولهم، ويستجيبون لما تدعوا إليه فطر عقولهم.

﴿خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ ثم أخبر تعالى أنه خلق السماوات والأرض وما فيهما لغرض عظيم وحكمة عظيمة، وهو ما يترتب على خلقهما من الجزاء والدار الآخرة، وإلا فما الفائدة في أن يخلقهما الله تعالى ويخلق ما فيهما من البشر وغيرهم؟ وما الفائدة في إرسال الرسل إلى الناس، ثم يميتهم وينتهي بموتهم كل شيء؟ فلو كان الأمر كذلك لكان ذلك من الله تعالى عبثاً وباطلاً، ولكان ظالماً أن يسلط بعض الخلق على بعض ثم يميتهم من دون أن نرى انتصاف بعضهم من بعض.

وأيضاً أن يخلق هذا مريضاً وذاك صحيحاً، وهذا غنياً وهذا فقيراً، فدل على أنه لا بد أن يكون هناك دار غير هذه الدار.

﴿اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ﴾ ثم أمر الله سبحانه وتعالى نبيه صلى الله عليه وآله وسلم أن يواصل تبليغ ما أوحي إليه، فلا يصدنك ما تراه من إعراض المشركين، والصد عن دعوتك عن تبليغ رسالة الله.

﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ ولأن شأن كل من لا يرى القبول لبضاعته أن ينكسر خاطره، وتفتر عزيمته، ويقل نشاطه، فشد الله تعالى من عزم نبيه صلى الله عليه وآله وسلم، وأمره بالمواصلة والاستمرار

في تبليغ دعوته ورسالة ربه، وأن يقيم صلاته غير مبال باستهزائهم وسخريتهم، وأخبره أن ذكر الله سبحانه وتعالى الذي هو الصلاة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وغير ذلك من أعمال الطاعات أكبر من كل شيء، وقد خص الصلاة بالذكر تنبيهاً على زيادة أهميتها وفضيلتها على سائر الطاعات، وسميت صلاة لما تجعل من الصلة بين العبد وربه.

﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ۝٤٥﴾ يخبر الله سبحانه وتعالى أنه مطلع على عمل كل امرئ، وسيجازي المشركين على أعمالهم من التكذيب والسخرية والاستهزاء، وسيجازيك الله تعالى يا محمد أجر تبليغك رسالة ربك وما أوحي إليك.

﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ كان اليهود حول النبي ﷺ في المدينة وكانوا كثرة؛ فنهى الله سبحانه وتعالى المسلمين عن التعنيف والقسوة في جدالهم، ونحو ذلك من الأعمال التي تتسبب في تنفيرهم عن الإسلام، وتغيير نظرتهم تجاه المسلمين.

﴿إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ﴾ واستثنى الله سبحانه وتعالى منهم أولئك الذين كانوا يكيدون للإسلام ويحاولون التخريب فيه، ويسعون في إضلال الناس وإفساد أمر الدعوة، فهؤلاء قد رخص الله سبحانه وتعالى للمسلمين في التعنيف والقسوة عليهم.

﴿وَقُولُوا ءَامَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ۝٤٦﴾ يرشد الله سبحانه وتعالى عباده كيف يجادلونهم، وأخبرهم أن القول اللين يكون أدعى إلى تأليف قلوبهم نحو الإسلام والمسلمين ولما فيه من الترغيب في الإسلام إن أرادوا الدخول فيه.

﴿وَكَذَٰلِكَ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ فَالَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ أنزلنا إليك القرآن يا محمد مثل ما أنزلنا على الأنبياء من قبل كالكتب، وهناك طوائف من أهل التوراة ومن أهل الإنجيل قد آمنوا بما أنزل إليك.

﴿وَمِنْ هَؤُلَاءِ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ﴾ وأن من قومك يا محمد ومن حولهم من العرب أناساً سيؤمنون به، وبما جاء فيه.

﴿وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الْكَافِرُونَ﴿٤٧﴾﴾ وأما أكثر الناس فقد امتلأت قلوبهم كفراً واستكباراً فلن يؤمنوا به أبداً.

﴿وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لَارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ﴿٤٨﴾﴾ ثم أخبر الله سبحانه وتعالى أن محمداً ﷺ كان أمياً لم يقرأ أي كتاب قبل نزول القرآن عليه، ولم يتعلم عند أي أحد القراءة أو الكتابة، وأنه لو كان كذلك وكان قد تعلم قبل نزول القرآن لكان ذلك مدخلاً للمشركين وغيرهم في الشك والريبة في أمره، غير أنهم عالمون أنه أمي لا يقرأ ولا يكتب، ولم يخالط أهل كتاب قط أو يتعلم منهم، لذلك سيعلم قومك أن ما تتلوه عليهم من عند الله.

﴿بَلْ هُوَ ءَايَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾ ارتسم القرآن وبيناته في صدور المؤمنين، وعلموا أنه من عند الله وآمنوا به واستنارت به قلوبهم.

﴿وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ﴿٤٩﴾﴾ ولم يبق للمشركين والمنكرين أي حجة أو عذر في حجية ما جاء به محمد ﷺ، ولم يكن إنكارهم لما جاءهم به من القرآن إلا كبراً وعناداً.

﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ ءَايَاتٌ مِنْ رَبِّهِ﴾ وهؤلاء هم المشركون يحتجون على النبي ﷺ بأنه إن أراد أن يؤمنوا له ويستجيبوا لدعوته فليأتهم بآيات يرونها كتلك التي أنزلت على موسى وعيسى وغيرهما من الأنبياء.

﴿قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ﴾ فأمره الله سبحانه وتعالى بأن يجيب عليهم بأن أمر ذلك إلى الله تعالى، وأنه وحده هو الذي يختار آياته وينزلها متى شاء.

﴿وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ﴿٥٠﴾﴾ وأن يخبرهم بأنه ليس إلا رسولاً مبلغاً ما أمره ربه بتبليغه، وأما اقتراحهم الآيات على الله تعالى فليس ذلك بيده.

﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ﴾ ثم أجاب الله سبحانه وتعالىٰ بأنه يكفيهم من الآيات أنه قد أنزل عليهم القرآن إن أرادوا الإيمان فهو آية واضحة وبينة، وأن من سمعه أيقن أن هذا الكلام ليس من كلام البشر، وأنه من عند الله تعالىٰ، ولمعرفتهم بلغة العرب وما يتمتعون به من الفصاحة والبلاغة سيعرفون عند سماع آياته أنه خارق لقوىٰ البشر عن الإتيان بمثله، وأنه لا يقدر علىٰ مثله إلا الله سبحانه وتعالىٰ.

هذا، وكان من سمع النبي ﷺ من الناس يتلوا القرآن آمن به، ولذا كانت قريش تصد الناس عن الذهاب إلىٰ النبي ﷺ والسماع إليه، وكانت تمنع من أراد ذلك بأي وسيلة استطاعت، وكانوا يقفون علىٰ أبواب مكة ومداخلها يحذرون كل من أقبل إليها من العرب عن السماع للنبي ﷺ، وينفرونهم عنه بأن من ذهب واستمع إليه فإنه يصيبه بسحره ويؤدي إلىٰ جنونه.

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ۝٥١﴾ وأنه قد أنزل عليهم القرآن رحمة منه لهم ليستنقذهم من ظلمات الشرك والجهل إلىٰ نور الحق والهدىٰ، وما فيه صلاحهم وفلاحهم في الدنيا والآخرة.

﴿قُلْ كَفَى بِاللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ وأمره أن يخبرهم بأنه يكفيه شهادة الله تعالىٰ بأنه قد بلغهم، وأنهم قد عاندوا واستكبروا، وسيجازيهم علىٰ كفرهم وعنادهم هذا.

﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْبَاطِلِ وَكَفَرُوا بِاللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ۝٥٢﴾ وأخبرهم يا محمد بأن من آمن بالأصنام وكفر بالله تعالىٰ فهذا هو الخاسر الذي خسر الدنيا والآخرة.

﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ﴾ ثم أخبر الله تعالىٰ أن المشركين كانوا يستعجلون محمداً ﷺ بإنزال العذاب عليهم، ويتحدونه بأنه إن كان صادقاً فيما يدعي فليعجل بنزول العذاب الذي يهددهم به.

﴿وَلَوْلَا أَجَلٌ مُسَمًّى لَجَاءَهُمُ الْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ۝٥٣﴾ ثم أجاب الله سبحانه وتعالى أنه لولا حكمته التي قد اقتضت أن يضرب لهم أجلاً معلوماً، ويحدد لهم وقتاً لتعذيبهم لعذبهم الآن، ولكن حكمته قد اقتضت أن يبلغوا ذلك الأجل المعلوم.

﴿وَلَيَأْتِيَنَّهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ۝٥٣﴾ وأنه سيفاجئهم بالعذاب في الدنيا فلماذا الاستعجال، وسينزله بهم في حين غفلة منهم.

وقد اقتضت حكمته تعالى أن لا يستأصل جميع المشركين كما فعل ببقية الأمم السابقة، ولم يأخذ إلا أولئك المترفين من قريش وكباراتهم، وهم الذين كانت لهم اليد العليا في الوقوف في وجه الدعوة والصد عنها، وقد أخذهم الله سبحانه وتعالى بعذابه يوم بدر فقتل جميع كبار قريش وكانوا سبعين رجلاً.

﴿يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ۝٥٤﴾ ثم أخبر الله تعالى نبيه ﷺ بأن قريشاً يستعجلونه بإنزال العذاب، فلو كانوا يعلمون ما أعد الله سبحانه وتعالى لهم من العذاب لما استعجلوا العذاب، وأن عذاب جهنم ينتظرهم.

﴿يَوْمَ يَغْشَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ۝٥٥﴾ يذكرهم الله تعالى بجهنم وعذابها عندما يغشاهم من فوقهم ومن تحتهم.

﴿يَاعِبَادِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ۝٥٦﴾ يرشد الله سبحانه وتعالى عباده المؤمنين إلى الهجرة إذا أحسوا بمضايقة المشركين ومنعهم لهم عن عبادته، وأن يهاجروا في أرضه فهي واسعة إلى مكان يستطيعون أن يعبدوه فيه من دون أن يضايقهم أحد أو يمنعهم عن ذلك، وأن ذلك واجب عليهم إذا استدعى الأمر، وبلغت الأمور إلى هذا الحد.

﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ۝٥٧﴾ وأن كل نفس منفوسة لا بد أن تموت وترجع إلى الله سبحانه وتعالى للحساب والجزاء، فليحذر كل أمرئ ذلك الموعود وليعد له ما يلزم من العدة.

﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ مِنَ الْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ﴿٥٨﴾﴾ هذا وعد من الله سبحانه وتعالى للمؤمنين الذين يعملون الأعمال الصالحة بأنه قد أعد لهم القصور العالية، وبساتين الثمار في الجنة خالدين فيها أبداً جزاءً على ما كانوا يعملونه في الدنيا من الأعمال الصالحة.

﴿الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٥٩﴾﴾ ثم وصف الله تعالى هؤلاء الذين سيجازيهم بالجنة بأنهم الذين صبروا على ما يلحقهم من الأذى في سبيل دينهم وعقيدتهم وتوكلهم على الله تعالى في ذلك.

﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ دَابَّةٍ لَا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٦٠﴾﴾ يخبر الله تعالى عباده المؤمنين ويطمئنهم بأن لا يخافوا الفقر إذا هاجروا وانتقلوا من بلد إلى بلد فكم من دابة لا تستطيع أن تحمل رزقها معها، وإنما تأكل حتى تشبع، ثم تسير في أرض الله لا تحمل معها شيئاً، فإذا جاعت أتاها رزقها وساقه الله تعالى إليها فتأكل حتى تشبع، من دون أن تدخر شيئاً للوجبة الأخرى، فكذلك أنتم فشأنكم كشأنها، ولا بد أن يرزقكم الله سبحانه وتعالى على قدر حاجتكم وحالتكم أينما كنتم.

﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ ثم أخبر الله تعالى نبيه ﷺ بأنه إن سألهم هذا السؤال فسيكون جوابهم بأنه الله سبحانه وتعالى.

﴿فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴿٦١﴾﴾ وما دام هذا هو جوابهم فكيف يصرفون عن عبادته إلى عبادة الأصنام؟ وما هو الذي صرفهم إلى ذلك؟ وهذا استنكار من الله سبحانه وتعالى عليهم على قبح صنيعهم هذا، وإلزامهم الحجة بما يعترفون به على أنفسهم.

﴿اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٦٢﴾﴾ الله وحده الذي يرزق الناس جميعاً، وقد اقتضت حكمته أن يوسع

رزقه على بعض عباده، وأن يضيق على البعض الآخر، وأنه قد فعل ذلك لأجل حكمة عظيمة لا تستقيم الحياة على الدنيا ولا يتم التكليف إلا على هذه السنة الإلهية من تضييق الرزق وتوسعته، فلو أنه جعل الناس جميعاً أغنياء لما عمرت الأرض، ولما زرعت، ولما كان هناك الأيدي العاملة التي تعمرها، ولفات الابتلاء بالفقر والصبر عليه، وفات التكليف بمدافعة الحسد، والعُجْب، ولذهب التكليف بالصدقة وإخراج الزكاة، ولذهب هم الرزق وطلبه بالدعاء والاستغفار و...إلخ.

﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ۝٦٣﴾ وأيضا لو سألتهم يا محمد من الذي ينزل المطر؟ ومن الذي ينبت به الشجر ويخرج به الثمر؟ فسيكون جوابهم بأنه الله تعالى؛ فلماذا يعترفون له بذلك ثم يذهبون إلى عبادة تلك الأصنام التي لا تصنع لهم شيئاً، أو تنفعهم بشيء، أو تدفع عنهم ضرراً؟ فكل ذلك مما يدل على شدة كفرهم وتعنتهم واستكبارهم.

﴿وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ﴾ ثم أخبر الله سبحانه وتعالى عن شأن الدنيا وحالها، فعبر عن حقارتها ودناءتها بأنها كمثل ما يفعله الصبيان من اللهو واللعب، فلا يستقر الطفل على لعبة إلا وسرعان ما يتركها وينتقل إلى غيرها.

﴿وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ۝٦٤﴾ وأن الدار الآخرة هي التي تستحق أن يعد المرء لها العدة، لأنها الحياة التي ستدوم، فالمرء فيها إما في نعيم دائم، أو عذاب دائم، وأن أولئك المشركين لو كانوا من أهل العلم ومن الذين يستعملون عقولهم لما آثروا متاع الحياة الدنيا الفانية على الآخرة الباقية.

﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ۝٦٥﴾ ثم ذكر الله سبحانه وتعالى حالة المشركين التي هم عليها من الحقارة والدناءة بأنهم إذا أصابهم سوء أو شدة وعرفوا أن لا مخرج لهم منها فعند

ذلك يخلصون في دعائهم لله تعالى وينسون تلك الأصنام التي يعبدونها؛ لأنهم أيقنوا أنها لن تستطيع أن تنفعهم أو تدفع عنهم، فما إن ينجيهم الله سبحانه وتعالى حتى يرجعوا إلى شركهم وإلى أصنامهم، وينسوا العهد الذي قطعوه على أنفسهم لله تعالى.

﴿لِيَكْفُرُوا بِمَا ءَاتَيْنَاهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ۝٦٦﴾ فهم يشركون بالله سبحانه وتعالى تمرداً عليه وكفراً بنعمته عليهم، وليتمتعوا في الدنيا ويمتعوا أنفسهم بأعمال الكفر والضلال، ولكنهم سوف يعلمون عاقبة فعلهم هذا عندما يعاينون نزول العذاب بهم، وسيندمون على ذلك أشد الندم.

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ۝٦٧﴾ يخاطب الله سبحانه وتعالى قريشاً ويوبخهم لماذا لا يشكرون الله تعالى، ويرجعون إليه؟ وقد أنعم عليهم من بين سائر العرب بهذه النعمة العظيمة، وهي ما جعل لهم من الحرمة لأنفسهم، ولبلدهم يسيرون آمنين مطمئنين في سائر البلاد من دون أي خوف، بينما بقية العرب في خوف شديد وحرب وقتل وقتال وثارات، لا يستطيع أحد أن يأمن على نفسه إن خرج من بلده، وكانت العرب تسمي قريشاً أهل الله، فلا تعتدي على أحد منهم أو تعترض طريقه لما جعل الله سبحانه وتعالى لهم من الحرمة بحرمه الآمن؛ فلماذا تذهبون إلى عبادة الأصنام وتتركون عبادة الذي أنعم عليكم بهذه النعمة وأنتم تعلمون أنه الذي يستحق العبادة والشكر؟

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِلْكَافِرِينَ۝٦٨﴾ ثم أخبر الله سبحانه وتعالى أنه لا أحد أضل وأظلم من ذلك الذي يفتري على الله الكذب ويدعي على الله أنه الذي أمره بالشرك وعبادة الأصنام، وكذلك ذلك الذي يكذب بما جاء به القرآن والنبي ﷺ، فقد بلغ هؤلاء الغاية والنهاية في الكفر والعصيان.

أراد الله تعالى بهؤلاء الذين هذه صفتهم- قريشاً لأنهم هم الذين افتروا الكذب على الله تعالى، وصدوا عن دعوة النبي ﷺ وكذبوا بها.

﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ۝٦٩﴾ ثم أثنى الله سبحانه وتعالى على أولئك الذين يُجِدُّون في عبادته وفي الدعوة إليه، ويصبرون على طاعته وعلى الأعمال الصالحة، فأخبر تعالى بأنه سيزيد هؤلاء من التنوير في قلوبهم الذي يهتدون به إلى معرفة الحق وإلى طريق الجنة، وأنه معهم بنصره وحفظه وتأييده.



سورة الروم

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿الم۝ غُلِبَتِ الرُّومُ۝ فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ۝ فِي بِضْعِ سِنِينَ﴾ يحكي الله سبحانه وتعالىٰ عن الروم وما جرىٰ عليهم بعد أن كان قد مكنهم في الأرض، فأخبر أنهم غُلبوا في أدنى الأرض وأقربها إلىٰ بلاد العرب، وأراد بها بلاد الشام، فكانت تحت سيطرتهم، وذلك أنها نشبت بينهم الحرب مع فارس، وكانت هاتان الدولتان هما أعظم دولتين في ذلك الوقت.

وأخبر تعالىٰ أنهم بعد غلبتهم هذه سيستعيدون قوتهم، وينتصرون علىٰ فارس ويغلبونهم، وأن موعد غلبهم هذا بعد بضع سنين، والبضع من الثلاثة إلىٰ التسعة.

﴿لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ﴾ فهو الذي هيأ للروم هذا النصر والغلبة لغرض ومصلحة يعلمها، وهي ما ذكره في قوله: ﴿وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ۝ بِنَصْرِ اللَّهِ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ۝﴾ وهذه المصلحة هي ما يعود علىٰ المسلمين من نصر الروم، وذلك أن فارس كانت أشد عداوة علىٰ الدين وللمسلمين، وما كانوا يسببونه من القلق الشديد للمسلمين، مما جعل انتصار الروم عليهم يسبب فرحاً شديداً في قلوب المؤمنين، وذلك لكون فارس مجوساً لا دين لهم، وأما الروم فكانوا من النصارىٰ وكانوا أهل دين وكتاب، وفيهم لين علىٰ الإسلام والمسلمين: ﴿وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ ءَامَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى﴾ [المائدة:٨٢]، وعندما أرسل النبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ كتبه إلىٰ فارس والروم؛ فأما ملك فارس فعندما وصل إليه كتاب النبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ غضب غضباً شديداً ومزق كتاب النبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، وأما هرقل ملك الروم فعندما قرأ كتاب النبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ تمعن فيه وعرف أن ما جاء به هو الدين الحق، وأنه نبي من عند الله سبحانه وتعالىٰ، وبعد قراءته لكتاب النبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ جمع أعيان دولته وأشرافها، وقرأ عليهم كتاب النبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، وشاورهم في أمره، واقترح عليهم أن يدخلوا في

دينه؛ لأنه النبي الموعود الذي بشر به عيسى عليه السلام، ولكن قومه غضبوا من اقتراحه عليهم ذلك الاقتراح، واعترضوا عليه فاعتذر إليهم بأنه إنما كان يختبر قوة إيمانهم وتمسكهم بدينهم؛ فهذا يدل على أنهم كانوا أقرب مودة للمؤمنين.

وقد قص الله سبحانه وتعالى على نبيه هذه القصة قبل حدوثها بحوالي سبع سنين مما يدل على أن القرآن من عند الله تعالى، وأنه حق وصدق.

﴿وَعْدَ اللَّهِ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ﴾ ثم أخبر الله سبحانه وتعالى أن هذا وعد منه، ولا بد أن يقع؛ وفعلاً فقد وقع ذلك كما أخبر به النبي صلى الله عليه وآله وسلم.

﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ۝٦﴾ فأكثرهم لا زالوا على الكفر، ولن يصدقوا وعد الله هذا.

﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ ۝٧﴾ يحكي الله سبحانه وتعالى عن طبيعة أكثر الناس، فأخبر تعالى أن شأنهم في الدنيا وخبرتهم فيها وفي مجالاتها عالية، وهم من أهل العلم والمعرفة بأحوالها وحاجاتها ومتطلباتها، من الصناعة والزراعة والتجارة والسياسة وغير ذلك، وأما أمور الدين والآخرة فهم بعيدون كل البعد عنها، وغافلون عن ذلك غير مبالين بها.

﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُسَمًّى﴾ يستنكر الله سبحانه وتعالى على أهل الدنيا لماذا لا يتفكرون ويجيلون عقولهم وخواطرهم في الحكمة من خلق السماوات والأرض وما فيهما، وأنهم لو نظروا في ذلك لعرفوا أنه لا بد من حياة أخرى مترتبة عليها.

﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ ۝٨﴾ غير أن أكثر الناس معرضون عن ذلك، ومنكرون للبعث والحساب.

﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ الاستفهام هنا للتقرير وهو حمل المخاطب على الاعتراف بما استقر عنده ثبوته أو نفيه، وهنا أراد الله سبحانه وتعالى حمل المشركين على أن يعترفوا بأنهم قد ساروا

في الأرض، ورأوا كيف كانت عاقبة تلك الأمم التي كذبت قبلهم، وكانوا يرون ذلك في طريق أسفارهم إلى بلاد الشام واليمن للتجارة ونحوها، ولكنهم لم يعتبروا بما رأوه من حال قراهم ومساكنهم، كيف أصبحت بسبب كفرهم وعنادهم، وأصروا على البقاء على كفرهم وتكذيبهم بالنبي ﷺ.

﴿كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا﴾ وأن أولئك القوم كانوا أكثر وأشد منهم قوة وجمعاً، وقد عمروا الأرض بالبناء والعمران والزراعة أكثر مما عمرتها قريش.

﴿وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ۝٩﴾ وقد أخذهم الله سبحانه وتعالى بسبب كفرهم وتكذيبهم بأنبيائهم؛ يحذر الله تعالى هنا المشركين أن يفعلوا مثل فعالهم فيصير عليهم مثل ما صار على أولئك القوم، وأن الأحسن لهم أن يعتبروا بهم وبما جرى عليهم.

﴿ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاءُوا السُّوأَى أَنْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِئُونَ۝١٠﴾ ثم أخبر الله سبحانه وتعالى عن عاقبة أولئك الذين يرتكبون المعاصي والسيئات، فقال إن عاقبتهم هي الكفر بالله تعالى وبما جاءتهم به رسله، وأن معاصيهم تلك هي التي جرتهم إلى ارتكاب معصية الشرك بالله تعالى والتكذيب بأنبيائه ورسله، وكانت هي السبب في دخولهم في الكفر.

﴿اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ﴾ وهذا محسوس مشاهد نراه بأعيننا، فنرى الشجرة بعد أن لم تكن، وكذلك الثمر نرى حدوثه وخروجه، ونرى كذلك ما يحصل من التوالد والتكاثر، فحتماً سنعلم من خلال ذلك أن الله على كل شيء قدير.

﴿ثُمَّ يُعِيدُهُ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ۝١١﴾ وأنه لا بد أن يعيد خلقكم يوم القيامة للحساب والجزاء، وكل من تفكر في ذلك سيعلم أن ذلك واقع لا محالة.

﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ۝١٢﴾ يخبر الله سبحانه وتعالى عن حال المجرمين ساعة بعثهم للحساب والجزاء، فأخبر سبحانه وتعالى أنه

سيصيبهم البهت والتحير حين يرون أهوال القيامة.

﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ مِنْ شُرَكَائِهِمْ شُفَعَاءُ﴾ وسيبحثون حينها عن تلك الشركاء التي كانوا يعبدونها والتي كانوا يدعون أنها سوف تشفع لهم عند الله، ولكنهم لا يجدونها.

﴿وَكَانُوا بِشُرَكَائِهِمْ كَافِرِينَ۝١٣﴾ وأن شركاءهم تلك في ذلك الحين سوف تنكر عليهم عبادتهم لها، وستنكر أنها كانت تدعوهم إلى عبادتها، أو أنها كانت تدعي شيئا مما يزعمون، وأنهم بعبادتهم لها إنما كانوا يعبدون الشيطان.

﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ۝١٤﴾ وأن الناس يوم القيامة سينقسمون إلى فريقين:

﴿فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ۝١٥﴾ فهذا هو الفريق الأول، فهم في رياض الجنة يتمتعون ويأكلون.

﴿وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ فَأُولَئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ۝١٦﴾ وهذا هو الفريق الثاني، فهم في نار جهنم يتقلبون جزاءً على ما كانوا يكذبون ويستهزئون بأنبيائهم، وبما جاؤوهم به من عند الله تعالى.

﴿فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ۝١٧﴾ ثم أمر الله سبحانه وتعالى عباده بتسبيحه وذكره في هذه الأوقات، وقد أراد بذلك أداء الصلاة في هذه الأوقات فصلاة المساء هي صلاة المغرب والعشاء، وصلاة الصبح هي صلاة الفجر.

﴿وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ وأنه وحده الذي يستحق الحمد والثناء لما أنعم به من النعم الظاهرة والخفية.

﴿وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ۝١٨﴾ ثم أمر بتسبيحه في هذه الأوقات أيضاً، فصلاة العشي هي صلاة العصر، وحين تظهرون أراد بذلك صلاة الظهر، فهذه خمس صلوات كتبها الله سبحانه وتعالى في اليوم والليلة.

﴿يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَيُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ فمن هو على هذه الصفات هو الذي يستحق التسبيح والحمد والثناء.

﴿وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ﴿١٩﴾﴾ فكما يحيي الأرض بعد موتها كذلك سيحييكم بعد موتكم، فكما ترى تلك الشجرة التي قد يبست وتفتتت عروقها تحيا بالمطر الذي ينزل عليها، فكذلك عظامكم سوف يحييها الله سبحانه وتعالى بعد أن قد نخرت وصارت رفاتاً.

﴿وَمِنْ ءَايَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ﴿٢٠﴾﴾ وأن من آياته الدالة على ربوبيته وإلاهيته وقدرته آية خلقكم، وكيفية ابتداء ذلك من التراب، ثم كيفية تكاثركم بعد ذلك من النطف التي تلقى في أرحام النساء.

﴿وَمِنْ ءَايَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ وأن من آياته الدالة عليه هو ما أنعم به عليكم من أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً وألقى المودة بينكم لتسكنوا وتستريحوا إليهن، وما جعل بينكم من الصلات والترابط والألفة.

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴿٢١﴾﴾ وأن من نظر وتفكر في آياته هذه فسيعرف قدرة الله تعالى وعظمته وإحاطة علمه بكل شيء.

﴿وَمِنْ ءَايَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ وكذلك من آياته الدالة على علمه وحكمته وقدرته خلق السماوات والأرض، ففي ذلك دليل واضح على الله تعالى لمن نظر وتفكر فيها.

﴿وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْعَالِمِينَ﴿٢٢﴾﴾ وكذلك من آياته الدالة عليه اختلاف اللغات باختلاف البلدان، فلكل أهل بلاد لغة يتخاطبون بها فيما بينهم، وكذلك لون البشرة التي تختلف باختلاف البلدان، فترى أهل هذا البلد تختلف بشرتهم عن بشرة أهل ذلك البلد الآخر، ولكل منهم صورة يتميز بها عن غيره، وعلى الرغم من كثرة الناس لا تكاد ترى اثنين

بينهم متشابهين، مما يدل ذلك على مدى قدرة الله سبحانه وتعالى الخارقة، وعلمه المحيط بكل شيء.

﴿وَمِنْ ءَايَاتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُمْ مِنْ فَضْلِهِ﴾ وكذلك النوم فهو آية من آيات الله تعالى الدالة عليه وعلى علمه وحكمته ورحمته، فانظر إذا أخذك التعب كيف يزيل النوم عنك ذلك التعب، وكيف ترى جسمك يستعيد نشاطه وكامل قواه عندما يأخذ حاجته من ذلك النوم، فيكون عنده الطاقة التي تمكنه من السعي وراء رزقه والابتغاء من فضل ربه.

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ۝٢٣ وَمِنْ ءَايَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُحْيِي بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ۝٢٤﴾ وكذلك من آياته الدالة على عظمته وقدرته ذلك البرق الذي ترونه يلمع في السماء يكاد يخطف الأبصار من قوة وهجه ولمعانه، وكيف يكون ذلك البرق سبباً في نزول المطر من السحاب، ثم يحيي الله تعالى بذلك المطر الأرض اليابسة والميتة، أليس ذلك يدل على أنه لا بد أن يكون هناك مدبر حكيم قد أوجد ذلك وسخره وهيأه على حسب ما تقتضيه الحكمة والمصلحة، وتدعوا إليه الحاجة من دون أي زيادة أو نقصان عما يحتاج إليه الخلق، فانظر لو أنه زاد على القدر المعتاد أو نقص كيف ستكون حالة الأحياء؟ وهل ستستمر الحياة أم أن أكثر المخلوقات ستموت، وتوازن الحياة سيختل؟ فسبحان من أوجده على ذلك الميزان الدقيق.

﴿وَمِنْ ءَايَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ۝٢٥﴾ وأن من آياته الدالة على عظمته وجلاله وقدرته هو ما قد أقامه من ذلك النظام الدقيق في السماوات والأرض من إنزال المطر، وجري الأنهار، وإخراج الثمار، وجري السحاب، ومسير الشمس والقمر، وما فيهما من المخلوقات العاقلة وغير العاقلة كل ذلك يسيره بأمره وإرادته وقدرته،

فهذا هو قيام السماوات والأرض بأمره، وكل ذلك سينتهي ويزول، ولكن لا بد من حياة أخرى مترتبة على هذه الحياة لتكتمل الحكمة والمصلحة وإلا لعد كل ذلك الخلق عبثاً، وذلك مستحيل على الله سبحانه وتعالى، فلا بد من البعث والحساب والجزاء.

﴿وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ﴿٢٦﴾﴾ فكل من في السماوات والأرض لله تعالى وتحت قبضته وسيطرته، وكلهم خاضعون له ومنقادون لأمره وإرادته.

﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ﴾ وهو وحده الذي ابتدأ خلق السماوات والأرض وما فيهما، واخترع كل ذلك بقدرته وعلمه وحكمته، ولا بد أن يفني جميع ما قد خلقه وأوجده.

﴿ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ وسيعيد ذلك الخلق بعد إعدامه، لا كما يزعم أولئك المنكرون لاستحالة البعث بعد الموت، بل إن إعادة الخلق أهون على الله تعالى من الابتداء في الظاهر.

﴿وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴿٢٧﴾﴾ فهو وحده الذي يستحق تلك الصفات العظيمة من القدرة والعلم والعظمة والكبرياء وكل الصفات العظيمة التي سما بها نفسه، والعزيز هو القوي الذي لا يغلبه غالب، وهو الغالب لكل شيء، والحكيم هو الذي كل أفعاله على حسب ما تقتضيه الحكمة والمصلحة، وقد تنزه أن يفعل شيئاً لغير غرض أو مصلحة.

﴿ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا مِنْ أَنْفُسِكُمْ هَلْ لَكُمْ مِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنْتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ﴾ ضرب الله سبحانه وتعالى هذا المثل للمشركين على حسب ما يتعاملون به فيما بينهم ويتعايشون معه، فسألهم الله تعالى عما يملكونه من العبيد هل يرضون أن يشاركوهم في أملاكهم أم لا؟ وهل سيتركونهم يتقاسمون معهم أملاكهم؟ فكذلك الله سبحانه وتعالى لن يرضى

لهذه المخلوقات أن تكون شركاء له في ملك السماوات والأرض، فكيف ترضون له ما لا ترضون لأنفسكم؟ إذاً أليس ظلماً أن تنسبوا إليه ما لا ترضون أن تنسبوه إلى أنفسكم؟

﴿تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴿٢٨﴾﴾ فتجعلونهم يساوونكم فيما تملكون وتجعلون لهم نصيباً في ذلك فهذا ما لا ترضونه أبداً.

﴿بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُمْ﴾ ولن يرضى أولئك المشركون بذلك على أنفسهم فلماذا يرضون لله ما لا يرضون لأنفسهم، ولكنهم إنما يتبعون أهواءهم وما تدعوا إليه شهواتهم، ولا حجة لهم ولا دليل فيما يدعونه من الشركاء مع الله جل وعلا.

﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ فَمَنْ يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ﴾ وقد حكم الله سبحانه وتعالى بضلالهم وغوايتهم فلن يستطيع أحد أن يردهم إلى الهدى، أو يحكم لهم به لا النبي صلى الله عليه وآله وسلم ولا غيره.

﴿وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ﴿٢٩﴾﴾ ولن يجدوا بعد ذلك من يدفع عنهم عذاب الله تعالى وسخطه الذي استوجبوه.

﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا﴾ ثم خاطب الله سبحانه وتعالى نبيه صلى الله عليه وآله وسلم - وأتباعه يدخلون تبعاً له صلوات الله عليه وآله - فأمرهم بأن يتوجهوا بأنفسهم إلى إقامة دين الله تعالى والعمل به مخلصين أنفسهم لله سبحانه وتعالى غير مائلين إلى عبادة شيء غيره.

﴿فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾ والله تعالى قد فطر الناس جميعاً على معرفة الدين الحق، وأولئك الذين اتبعوا غيره إنما استجابوا لما استهوتهم الشياطين إليه وما نشئوا عليه في تلك المجتمعات الكافرة حتى تربوا على طريقتهم، وإلا فكل مولود يولد على الفطرة حتى يكون أبواه هما اللذان يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه، وأنهم لو تركوا الإنسان وما تدعوا إليه فطرته وغريزته لآمن بالله تعالى وصدق بما جاءت به رسله.

﴿لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ۝٣٠﴾ فهي فطرة الله تعالىٰ ولن يستطيع أحد أن يبدل خلق الله أو يغيره.

﴿مُنِيبِينَ إِلَيْهِ﴾ حال عن المفعول به وهو قوله: ﴿وَجْهَكَ﴾ أي: أقيموا وجوهكم حال كونكم منيبين وراجعين إلىٰ الله سبحانه وتعالىٰ.

﴿وَاتَّقُوهُ﴾ فلا تعصوه فيهلككم ويعذبكم.

﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ وقد خص الله سبحانه وتعالىٰ الأمر بإقامة الصلاة؛ لأنها عمود الدين فمن أقامها وحافظ عليها فإنه سيحافظ علىٰ بقية الطاعات.

﴿وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ۝٣١﴾ ولا تسيروا بسيرة المشركين في طريق الضلال ومعصية الله تعالىٰ.

﴿مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ۝٣٢﴾ من المشركين الذين صفتهم أنهم كانوا ينقسمون إلىٰ فرق وأحزاب، وكل فريق كان يظن أنه الذي علىٰ الحق وأن غيره في ضلال؛ لأن المشركين منهم من يعبد الأصنام، ومنهم من يعبد النار، ومنهم من يعبد الشمس، ومنهم من يعبد البقر، وكل فريق منهم كان له إله يعبده، وقد زين له إبليس أنهم علىٰ الحق والهدىٰ وغيرهم في ضلال وهلاك، فنهىٰ الله سبحانه وتعالىٰ عباده أن يكونوا من هؤلاء المتفرقين قطعاً وأحزاباً.

﴿وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُمْ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا أَذَاقَهُمْ مِنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ۝٣٣﴾ أخبر الله تعالىٰ في هذه الآية عن طبيعة البشر بشكل عام، فإذا أصابهم ضر وشدة ومصيبة توجهوا إليه، وانقطعوا إليه؛ ليفك عنهم ما حل بهم من المصائب، ويخلصهم من تلك الشدائد، وينسوا عند ذلك تلك الآلهة التي يعبدونها؛ فإذا كشف الله عنهم ذلك الضر وتلك البلوىٰ رجعوا إلىٰ ما كانوا عليه من الشرك والضلال، ونسوا الله تعالىٰ.

﴿لِيَكْفُرُوا بِمَا ءَاتَيْنَاهُمْ﴾ وأنهم يرجعون إلىٰ شركهم وأصنامهم ليكفروا بنعمة الله تعالىٰ التي أنعم بها عليهم تمرداً وعناداً.

﴿فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴿٣٤﴾﴾ يهددهم الله سبحانه وتعالىٰ بسبب كفرهم ذلك وتمردهم عليه، ويخبرهم أنهم عما قريب سوف يعلمون عاقبة كفرهم وتمردهم هذا.

﴿أَمْ أَنْزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ﴿٣٥﴾﴾ يستنكر الله سبحانه وتعالىٰ عليهم عبادتهم للأصنام، ولماذا يعبدونها؟ وهل يملكون حجة ودليلاً علىٰ إلهيتها وربوبيتها؟ أم أنهم يعبدونها اتباعاً لأهوائهم وشهواتهم؟

فلا دليل لهم ولا حجة ولا سلطان لا من كتاب ولا من عقل ولا من أي شرع، وإنما يتبعون أهواءهم وما تدعوا إليه أنفسهم.

﴿وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا﴾ وأيضاً من طبيعتهم أنهم إذا أسبغ الله تعالىٰ عليهم النعم وأوسع عليهم في الأرزاق فرحوا بها فرح بطر، واستعملوها فيما يغضب الله تعالىٰ من المعاصي والشهوات.

﴿وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ﴿٣٦﴾﴾ وأنهم إن عاقبهم الله سبحانه وتعالىٰ بسبب ما أذنبوا أصابهم القنوط واليأس من رحمته، وظنوا أنهم بذلك قد انتهىٰ عليهم كل شيء، لعدم ركونهم علىٰ الله تعالىٰ، وعدم توكلهم عليه فتنقطع لذلك آمالهم في الله تعالىٰ وفضله، وأنه الذي يعطي ويمنع؛ وأما المؤمن بالله فهو متوكل عليه في جميع أموره، وإن أمده بنعمه وأوسع عليه في رزقه شكر الله تعالىٰ علىٰ ما أعطاه، واستعان بذلك علىٰ طاعته وفعل ما يرضيه، وإن سلب نعمته عنه فلا ينقطع أمله في الله تعالىٰ فهو علىٰ يقين أن ما عند الله من العوض خير مما أخذ منه، وأنه إن لم يعوضه في الدنيا فسيعوضه في الآخرة.

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴿٣٧﴾﴾ أولم يعلم أولئك المشركون وغيرهم أن الله تعالىٰ هو الذي يعطي

ويمنع ويوسع رزقه على من يشاء من عباده، ويضيق رزقه على من يشاء من عباده، وأن الناس لو أجالوا خواطرهم في هذا المجال لعرفوا أن ذلك آية من آياته الدالة على علمه وحكمته، وذلك لما جعل في ذلك من المصلحة العظيمة لعباده لكي تستمر حياتهم.

فإذا نظر المرء في ذلك علم أن الدنيا لن تستقيم ولن تعمر إلا بذلك، وكذلك التكليف لن يتم إلا بذلك التفاوت بين عباده، وذلك بما يحصل فيه من الاختبار لهم هل سيصبر هذا على فقره، والآخر هل سيشكر على غناه، ويخرج ما أوجب الله سبحانه وتعالى عليه في أمواله؟ وبما يقع من تسخير عباده بعضهم لبعض لتتم الحياة، وتستقيم المعيشة، فلو كانوا جميعاً أغنياء فكيف ستكون حالتهم؟ وهل ستعمر الأرض؟ وطبعاً لن يكون شيء من ذلك، ولما خدم بعضهم بعضاً، أو عمل بعضهم مع بعض، وكذلك العكس لو كانوا جميعاً فقراء.

ثم أخبر الله سبحانه وتعالى أنه لن يعرف آياته هذه إلا المؤمنون.

﴿فَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ﴾ أمر الله سبحانه وتعالى نبيه صلى الله عليه وآله وسلم بصلة أرحامه وقرابته لما لهم من الحقوق التي أوجبها الله تعالى، ولما في ذلك من المصلحة التي تعود على الأقارب فيما بينهم من إنشاء الروابط، وتوثيق العلاقات وغير ذلك من المصالح الكثيرة والعظيمة، وكذلك أمر بصلة المساكين وأبناء السبيل، لما في ذلك من الثواب العظيم والمصلحة العظيمة.

وقد وجه الله سبحانه وتعالى الخطاب هنا إلى نبيه صلى الله عليه وآله وسلم لكونه كبير أمته، وباقي أمته تدخل تبعاً له.

وأما صلتهم فلم يحددها الله سبحانه وتعالى بحد معلوم كالزكاة وما أشبهها فترك ذلك على حسب الظروف المحيطة، وعلى قدر التفاوت فيما بينهم من ناحية الغنى والفقر، فإذا كان محتاجاً وأنت غني فيجب عليك أن تواسيه بقدر ما يسد حاجته وجوعته، وبما يكسيه ويستر عورته، وكذلك يجب على الأغنياء في

المساكين أن يسدوا جوعتهم ويستروا عورتهم ويؤووهم، وكذلك عابر السبيل فيجب لمن أقبل وافداً عليك أن تعطيه ما يقيه الحر والبرد، وأن تشبع جوعته إن لم يكن هناك أحد يقوم مقامك في ذلك.

﴿ذَلِكَ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ۝٣٨﴾ وذلك باب من أبواب الخير التي جعلها الله سبحانه وتعالى لعباده، وفرصة هيأها الله سبحانه وتعالى لكسب الحسنات والفوز برضوانه ونعيمه فينبغي للمؤمن أن يستغل ذلك ولا يضيعه.

﴿وَمَا ءَاتَيْتُمْ مِنْ رِبًا لِيَرْبُوَ فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرْبُو عِنْدَ اللَّهِ﴾ كان الأغنياء في الجاهلية لا يعطون الفقراء أو يقرضونهم إلا على سبيل الربا، فلا يعطيه شيئاً إلا ويشرط عليه أن يرده مضاعفاً، فأخبر الله تعالى أن ما أعطاه هذا المديون للغني فلا ثواب فيه ولا أجر له على هذه الزيادة، وحذر عباده أن يتعاملوا بمثل هذه المعاملة.

﴿وَمَا ءَاتَيْتُمْ مِنْ زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ۝٣٩﴾ ثم أخبر الله سبحانه وتعالى أن الثواب إنما يكون لأولئك الذين يخرجون زكاة أموالهم التي فرضها الله سبحانه وتعالى عليهم خالصة له تعالى، وأما أولئك الذين يخرجونها إلى الأغنياء لأجل أن يربوا في أموالهم ويضاعفوها لهم فلا ثواب لهم في شيء من ذلك.

﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَفْعَلُ مِنْ ذَلِكُمْ مِنْ شَيْءٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ۝٤٠﴾ ثم وجه الله سبحانه وتعالى خطابه إلى المشركين يخبرهم بأنه وحده الذي خلقهم، وهو وحده الذي بيده رزقهم بما أنزل لهم من المطر، وأخرج لهم به الثمر، وأن بيده حياتهم ومماتهم، فهو وحده الذي بيده حياتهم وموتهم، وأما تلك الأصنام التي تعبدونها فلا تستطيع أن تفعل لكم شيئاً، فلماذا تعبدونها وتتركون عبادة الإله الذي بيده كل ذلك؟ وقد تنزه وتقدس عن أن يكون له شريك كما يزعمون.

﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴿٤١﴾﴾ ظهر الفساد في الأرض وهو ما يحصل من إخافة الطريق، ونهب الأموال، وإقلاق الأمن، وبث الرعب في قلوب الناس، وأن كل ذلك الذي يحصل إنما هو بسبب الذنوب والمعاصي التي أطبقت وانتشرت بين أوساط الناس، فلو أنهم استقاموا على طاعة الله سبحانه وتعالى لهيأ لهم أسباب الأمن والأمان ولسهل لهم أرزاقهم، ووفر لهم أسباب معايشهم، ولأصلح لهم جميع أحوالهم، وبارك لهم في تجاراتهم وثمارهم وزروعهم؛ وأن كل ما يحصل إنما هو عقاب لهم وجزاء لهم من الله سبحانه وتعالى على ما يرتكبونه من المعاصي والذنوب.

ثم أخبر الله سبحانه وتعالى أن ما يحصل إنما هو جزاء على بعض ذنوبهم، وأنه لو أخذهم بذنوبهم جميعها لأهلكهم ولدمرهم، وأخبر أيضاً أن في ذلك مصلحة لهم لعل ذلك يكون سبباً إلى رجوعهم إلى الله سبحانه وتعالى، وتنبيهاً لهم إن أرادوا أن ينتبهوا من غفلتهم، ويستيقظوا من رقدتهم.

﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلُ كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُشْرِكِينَ﴿٤٢﴾﴾ عندما دعا النبي صلى الله عليه وآله وسلم قومه رفضوا وعاندوا واستكبروا، فأنزل الله سبحانه وتعالى عليه أن يأمر المشركين بأن ينظروا كيف كانت عاقبة أولئك الذين كانوا يتمردون على أنبيائهم، وذلك عند مرورهم على قراهم ومساكنهم كيف أصبحت بسبب ذلك، وكيف استأصلهم الله سبحانه وتعالى وأهلكهم جزاءً على كفرهم وتكذيبهم؟

﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ﴾ أمر الله سبحانه وتعالى نبيه صلى الله عليه وآله وسلم بأن يتوجه بوجهه وعبادته إلى الدين القيم، وأن يستقيم عليه، وأن لا يأخذه الوهن والفتور في مواصلة دعوته وتبليغه ما أمره.

﴿مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ﴾ وهو يوم القيامة، فإذا حان موعده فقد انقطع الأمل، وأغلقت أبواب التوبة، فلا الندم ينفع ولا أحد يشفع.

﴿يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ﴿٤٣﴾﴾ وذلك يوم القيامة سينقسم الناس إلىٰ فريقين: كفار ومؤمنين؛ ثم ذكر كل فريق وما يستحق فقال:

﴿مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ﴾ فالذين كفروا يكون وبال كفرهم عليهم في نار جهنم خالدين فيها أبداً.

﴿وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِأَنْفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ﴿٤٤﴾﴾ وأما أهل الأعمال الصالحة فقد نفعوا أنفسهم بما قدموا من الأعمال الصالحة، وسيخلدون في نعيم الجنة.

﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ﴿٤٥﴾﴾ فسيبعث الله سبحانه وتعالىٰ الناس جميعاً يوم القيامة للحساب والجزاء، فيجزي المؤمنين بما استحقوه من الثواب علىٰ أعمالهم، ويعذب الكافرين جزاءً علىٰ كفرهم وتكذيبهم بالله تعالىٰ وبما جاءت به رسله؛ فهذا هو الغرض الذي سيبعث الله تعالىٰ الناس من أجله.

﴿وَمِنْ ءَايَاتِهِ أَنْ يُرْسِلَ الرِّيَاحَ مُبَشِّرَاتٍ وَلِيُذِيقَكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ﴾ ومن آياته الدالة علىٰ قدرته وإلهيته وعظمته وجلاله تلك الرياح التي يرسلها مبشرة بقدوم المطر.

﴿وَلِتَجْرِيَ الْفُلْكُ بِأَمْرِهِ﴾ وسخرها أيضاً لتسيير السفن في البحر.

﴿وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ﴾ وهذا من فوائد الرياح التي سخرها الله تعالىٰ لخلقه، وهو أنها تسير السفن التي تحمل المسافرين في البحر للتجارة وجلب البضائع وتسوق السحب وتلقحها، وبها تصلح الأشجار وتزكو الثمار، وتلطف الهواء وتخفف من حرارة الجو.

﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴿٤٦﴾﴾ ومن فوائدها أيضاً أن جعلها الله تعالىٰ من النعم العظيمة التي إذا شكرناه عليها تعرضنا لنيل ثوابه ورضوانه، وما فيها أيضاً من تلقيح الأشجار وإصلاح الثمار، وغير ذلك من الفوائد التي يكثر تعدادها.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ﴾ أخبر الله سبحانه وتعالىٰ نبيه ﷺ أنه كم من نبي أرسله قبله إلىٰ أمته ليبلغهم آياته وحججه، وكل نبي قد لاقىٰ مثل ما لاقيت من أمتك يا محمد، فلا يضق صدرك أو يفتر عزمك أو تضعف قوتك في مواصلة ما أمرك ربك.

﴿فَانْتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا﴾ فاصبر يا محمد فإن الله تعالىٰ سوف ينتقم لك من قومك كما انتقم من المكذبين بأنبيائهم قبلك.

﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ۝٤٧﴾ وعد من الله تعالىٰ لنبيه ﷺ بأنه لا بد أن ينتصر لأوليائه المؤمنين؛ وكان المؤمنون قد استبطئوا نصر الله سبحانه وتعالىٰ، وقد طالت عليهم مدة انتظارهم لذلك، فطمأن الله تعالىٰ نبيه ﷺ بذلك، وبشره بأنه لا بد أن ينزل نصره للمؤمنين حين الموعد الذي قد حدده بحكمته لنزوله.

﴿اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسَفًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ۝٤٨﴾ ثم أخبر الله تعالىٰ المشركين بأنه هو الذي يرسل الرياح التي تسوق ذلك البخار الذي يتصاعد من البحار فتجمعه حتىٰ يتكون سحاباً يحمل الماء، ثم تسوقه الرياح بأمر الله تعالىٰ إلىٰ حيث أراد أن ينزل رحمته التي يستبشر بها كل من وصلت إليه.

﴿وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمُبْلِسِينَ۝٤٩﴾ أخبر الله تعالىٰ أنه ينزل المطر عليهم بعد أن كان قد أصابهم اليأس والقنوط من رحمته، وأخبر أن هذه سنته أن ينشر رحمته بعد أن يصيبهم اليأس.

﴿فَانْظُرْ إِلَى ءَاثَارِ رَحْمَةِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ انظر وتفكر يا محمد، أو أيها السامع إلىٰ الأثر الذي يتركه المطر بعد نزوله من إحياء الأرض بالزرع والشجر والثمر بعد أن كانت قد يبست وتفتتت وقد أخذ الجفاف منها كل مأخذ.

﴿إِنَّ ذَلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ۝٥٠﴾ فالذي أحيا الأرض بعد موتها قادر على أن يحيي الموتى بعد تفتت عظامهم، وأن كل من نظر وتفكر في إحياء الأرض بعد موتها علم علماً يقيناً أن من قدر على ذلك فهو قادر على أن يبعث الأموات، ويحييهم بعد موتهم وتفتت عظامهم، وأن ذلك ليس ببعيد على قدرته.

﴿وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَظَلُّوا مِنْ بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ۝٥١﴾ وهذه هي طبيعة المشركين أن الله تعالى إذا أرسل تلك الريح التي صفتها هذه تشاءموا بها وانقطع أملهم في الله تعالى وفي رحمته، فلا تراهم يلجئون إليه أو يتوسلون، وإنما طبيعتهم القنوط واليأس من رحمة الله سبحانه وتعالى والكفر به.

﴿فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَى وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ۝٥٢ وَمَا أَنْتَ بِهَادِي الْعُمْيِ عَنْ ضَلَالَتِهِمْ﴾ يريد الله سبحانه وتعالى أن يقطع طمع النبي ﷺ في إيمان قريش، فأخبره أنهم لن يؤمنوا أبداً مهما حاول فيهم، ولذلك شبههم الله تعالى بالموتى لا يستطيعون أن يسمعوا شيئاً، وكذلك بالأصم عندما يلوي ظهره إليك فلا تستطيع أن تسمعه مهما حاولت فكذلك حال المشركين، وكذلك شبههم بالعمي فمهما وصفت لهم الطريق لن يستطيعوا أن يهتدوا إليها.

﴿إِنْ تُسْمِعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا﴾ وأنه لن يسمع منك يا محمد ويستجيب لدعوتك إلا أولئك الذين آمنوا بالله تعالى وصدقوا ما جئت به وتواضعوا لقبول الحق.

﴿فَهُمْ مُسْلِمُونَ۝٥٣ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً﴾ يكرر الله تعالى نداءه للمشركين ويذكرهم بما قد بث لهم من الآيات التي يحثهم على النظر والتفكر فيها، فأمرهم هنا أن يتفكروا في كيفية خلقهم من تلك النطفة الماء المهين، وكيفية تكوينهم درجة بعد درجة وطوراً بعد طور إلى أن يصبح إنساناً سوياً ثم كيف تبتني قوته شيئاً فشيئاً إلى أن يصبح إنساناً في أوج قوته.

﴿ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾ وكيف يصير بعد أن يستكمل قوته فيبدأ بالنقص والتدرج إلى الوراء إلى أن يرجع إنساناً ضعيفاً كما كان من قبل.

﴿وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ﴾ فالخلق خلقه وهذه مشيئته وإرادته يخلق ما يشاء بعلمه وقدرته، فمن تفكر في ذلك عرف الله سبحانه وتعالى حق معرفته.

﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ﴾ ثم أخبر الله سبحانه وتعالى عن حال المشركين والكافرين ساعة مبعثهم وقيامهم من قبورهم إلى الحساب والجزاء حيث يستقصرون مدة لبثهم في الدنيا فيحلفون أنهم لم يلبثوا إلا ساعة.

﴿كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ﴾ وهذه كانت حالتهم في الدنيا، لا يهتدون إلى الحق والصدق؛ لأنهم بقولهم ذلك القول يوم القيامة ما لبثوا إلا ساعة لم يتكلموا بالحق والصدق فقد لبثوا في الحقيقة أكثر من ذلك، فطبيعتهم الكذب في الدنيا والآخرة والعمى عن معرفة الحق والصواب.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ فَهَذَا يَوْمُ الْبَعْثِ وَلَكِنَّكُمْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ ثم أخبر الله تعالى أن المؤمنين سوف يردون على كذبتهم تلك بأنهم قد لبثوا أكثر من ساعة، وقد لبث أنبياء الله ورسله يدعونهم إلى الله سبحانه وتعالى الأعمار والسنين الطويلة.

﴿فَيَوْمَئِذٍ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَعْذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ وذلك يوم القيامة لا تنفعهم الأعذار عند الله سبحانه وتعالى، ولن يروا هناك من يلومهم أو يعاتبهم ويردهم إلى صوابهم كما في الدنيا فقد انتهى كل شيء، ولم يبق لهم إلا أن يلقوا جزاء أعمالهم.

﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْءَانِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ﴾ أخبر الله سبحانه وتعالى أنه قد صرف للمشركين آياته، ونوع لهم الأمثال في القرآن لعل شيئاً من ذلك ينفع فيهم، أو يعتبرون بشيء من ذلك فيرجعون إلى رشدهم وصوابهم، ويقلعون عن كفرهم وضلالهم، ولكنهم لا زالوا على إصرارهم على كفرهم وتكذيبهم وضلالهم.

﴿وَلَئِنْ جِئْتَهُمْ بِآيَةٍ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ۝٥٨﴾ وأنك مهما حاولت فيهم يا محمد، ومهما جئتهم به من الآيات فلن يقبلوا منك أبداً.

﴿كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ۝٥٩﴾ فقد أصبحت قلوبهم كالمطبوع عليها فلا يستطيع الإيمان أن ينفذ إليها أبداً، فلا تطمع في إيمانهم يا محمد فلن يؤمنوا أبداً.

﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾ ثم أمر الله سبحانه وتعالى نبيه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ أن يصبر على دينه وعلى مواصلة دعوته وتبليغه ما أمره ربه؛ ووعده بأنه سينتصف له منهم، وسوف يعذبهم بسبب أذيتهم واستهزائهم وتكذيبهم.

﴿وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ۝٦٠﴾ واثبت على ما أنت عليه يا محمد، ولا تترك لهم مدخلاً عليك، أو تدعهم يستخفوا عقلك بأفكارهم وضلالاتهم، أو يستهووك حتى تدخل معهم في باطلهم وأعمال كفرهم.



سورة لقمان

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿الم۝١ تِلْكَ ءَايَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ۝٢﴾ أشار الله سبحانه وتعالىٰ إلىٰ أن هذه الآيات التي سيتلوها عليهم في هذه السورة هي من آيات الكتاب الذي قد أحكمت آياته وسلمت من كل زيغ أو تحريف أو تناقض أو اختلاف.

﴿هُدًى وَرَحْمَةً لِلْمُحْسِنِينَ۝٣﴾ وهذا الكتاب الحكيم قد اشتمل علىٰ هداهم وطريق نجاتهم، غير أنه لا ينتفع بآيات الكتاب الحكيم ولا يهتدي بهداه، ولا يأخذ بأسباب الرحمة إلا المحسنون.

ثم وصف الله سبحانه وتعالىٰ المحسنين فقال: ﴿الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ۝٤﴾ فهؤلاء الذين هذه صفتهم من المحافظة علىٰ أداء ما افترض الله عليهم من الواجبات هم الذين يستضيئون بنوره، ويهتدون بهديه.

﴿أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ۝٥﴾ وهم الذين سيفوزون برضوان الله تعالىٰ، ويظفرون بثوابه في الدنيا والآخرة.

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ۝٦﴾ يحكي الله سبحانه وتعالىٰ في هذه الآية عن أحد زعماء قريش، وكان قد اشترىٰ عدة نساء ممن يحسنون الرقص والغناء، وجلبهن إلىٰ مكة ليستهوي بهن الناس، ويجمعهم حولهن ليستمعوا إلىٰ غنائهن، ويشاهدوا رقصهن، وكان يحث الناس إلىٰ الاستماع إليهن، ويقول لهم: إن ذلك أفضل من السماع لمحمد وسحره، وما يدعوكم إليه، وكل ذلك منه ليصد عن سبيل الله وعن سماع القرآن، فأخبر الله سبحانه وتعالىٰ أن لهؤلاء الذين يصدون عن سبيله منزلة سيبلغونها في نار جهنم بسبب صنيعهم هذا.

﴿وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ ءَايَاتُنَا وَلَّى مُسْتَكْبِرًا كَأَنْ لَمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْرًا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ۝﴾ هذا الذي يصد الناس عن سبيل الله أخبر الله سبحانه وتعالىٰ أن هذه صفته، وهي أنه إذا سمع آيات الله تتلىٰ عليه فإنه يأنف من الاستماع إليها مولياً لظهره استكباراً وعلواً كأنه لم يسمع شيئاً من شدة الغرور والكبر.

﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتُ النَّعِيمِ۝ خَالِدِينَ فِيهَا وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ۝﴾ وأما أهل الإيمان بالله جل وعلا وباليوم الآخر الذين يعملون الأعمال الصالحة فإن لهم البشرىٰ من الله تعالىٰ في جنات النعيم خالدين فيها أبداً، وهذا وعد منه تعالىٰ ولا بد أن يقع.

﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾ خلق السماوات، ومنعها بقدرته عن السقوط، فلا عماد يمسكها إلا قدرته.

﴿وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ﴾ وهو الذي هيأ لكم الأرض، وجعل لكم فيها الجبال الشامخة التي تمنعها من الاضطراب والتزلزل؛ لتستطيعوا العيش علىٰ ظهرها بهدوء وسلام.

﴿وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ۝﴾ وهو الذي سخر لكم جميع ما خلق وبث في الأرض من الدواب، وهو الذي أنزل لكم المطر، وأخرج لكم به طيبات الرزق وأنواع الثمر.

﴿هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ﴾ وهو تعالىٰ وحده المتفرد بخلق ذلك وإبداعه وإيجاده؛ ثم سأل المشركين ليبكتهم ويوبخهم علىٰ عبادتهم لتلك الأصنام التي ليست إلا أحجاراً ينحتونها بأيديهم: ماذا خلقت تلك الأصنام التي يعبدونها من دونه؟ ولن يجدوا جواباً علىٰ سؤاله هذا إلا ما يضطرهم إلىٰ الإقرار والاعتراف لله سبحانه وتعالىٰ.

﴿بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ۝﴾ ثم أخبر عنهم بأنهم بصنيعهم ذلك وذهابهم إلىٰ عبادة تلك الأحجار التي هم علىٰ يقين تام بأنها لا تستطيع أن تخلق أو ترزق أو تفعل لهم أي شيء، فهم بعبادتها في ضلال وضياع وهلاك.

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ﴾ ثم انتقل الله سبحانه وتعالىٰ إلىٰ ذكر لقمان وما كان من شأنه وأمره ووصاياه لابنه؛ فأخبر أنه قد رزقه العلم والحكمة، وزكاه بالعقل الذي اهتدىٰ به واستعمله فيما ينبغي أن يستعمله فيه، وهو الشكر لله تعالىٰ علىٰ نعمه.

﴿وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴿١٢﴾﴾ ومن هداه عقله إلىٰ شكر الله تعالىٰ علىٰ ما أنعم به عليه فقد نفع نفسه، وأما الله سبحانه وتعالىٰ فهو غني عن شكر الشاكرين، ولا يضره كفر الكافرين.

﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَابُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾﴾ يعظ لقمان ابنه وينصحه مخبراً له بأن من الحكمة عدم الشرك بالله تعالىٰ؛ لأن الشرك معصية كبيرة.

﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ﴾ ثم انتقل الله سبحانه وتعالىٰ إلىٰ إرشاد عباده إلىٰ طاعة الوالدين والإحسان إليهما، وأن يتعاهدهما الولد بالبر والصلة، وأن يجعلهما تحت رعايته وعنايته، وأن لا يفرط في حقهما، وفيما أوجب الله عليه في شأنهما.

ثم ذكر الله سبحانه وتعالىٰ سبب توصيته بهما فقال: ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ﴾ فما أمر به الولد في حقهما فهو رد لبعض أتعابهما عليه، ومكافأة لهما علىٰ إحسانهما إليه، حملته أمه في بطنها تسعة أشهر يتضاعف عليها في التسعة الأشهر التعب والثقل والضعف فلا تضعه إلا بعد أن تشرف علىٰ الموت.

﴿وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ﴾ وكذلك ما لاقته من أتعاب الرضاعة لمدة عامين.

﴿أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ ﴿١٤﴾﴾ قرن الله تعالىٰ شكر الوالدين بشكره ليدل علىٰ عظيم حقهما والتشديد في أمرهما، ويدل أيضاً علىٰ التشديد في حقهما تهديده ووعيده الشديد علىٰ الإخلال بحقهما.

﴿وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَىٰ أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا﴾ وأما إذا دعاك والداك إلىٰ الشرك بالله تعالىٰ أو السعي فيما يغضبه ويسخطه فلا تطعهما في ذلك.

﴿وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾ وأما المعروف والإحسان إليهما فلا تقطعه عنهما ولو كانا كافرين.

﴿وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ﴾ يرشد الله سبحانه وتعالى عباده إلى كيفية التعامل مع الوالدين الكافرين، فأمر بمصاحبتهما بالمعروف وعدم الإساءة إليهما والحرص على إرضائهما، ولكن في غير ما يغضب الله تعالى أو يوجب سخطه، وأن لا يسير بسيرتهما، ودله على اتباع الصالحين المنيبين إلى الله.

﴿ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴿١٥﴾﴾ بعد أن أرشد الله سبحانه وتعالى عباده إلى هذه التعاليم أخبرنا أنه مطلع على أعمال عباده، وسيجازي كل واحد على حسب ما عمل إن خيراً فخير وإن شراً فشر.

﴿يَابُنَيَّ إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴿١٦﴾﴾ ثم رجع الله تعالى إلى ذكر وصايا لقمان لابنه: فأوصى ابنه بأن يحذر الله تعالى ويتقي الوقوع فيما يغضبه أو يوجب سخطه، لأنه تعالى مطلع على جميع أعمال بني آدم ومحصٍ لها، ولن يضيع عنده شيء حتى وزن حبة الخردل، فالله تعالى عالم بها وبمكانها، واللطيف هو العالم بما دق وخفي، وعلمه ينفذ ويتغلغل حتى في بواطن الأشياء قبل ظواهرها.

﴿يَابُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴿١٧﴾﴾ ثم أوصى ابنه بالمحافظة على أداء الصلوات لما لها من الأهمية، وما فيها من الصلة بين العبد وربه، وكذلك يوصيه بالدعوة إلى الله سبحانه وتعالى من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأن يصبر في سبيل ذلك، ويبذل في ذلك المجال الغالي والرخيص؛ وهذه الوصايا من الأمور التي قد شدد الله تعالى في أدائها ونبه على الحرص عليها لما لها من الأهمية والدور في نشر دينه، بل لأن ذلك هو الغرض الذي بعث الأنبياء من أجله.

﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ﴾ ونصحه أيضاً بالتواضع وعدم التكبر والتعالي على الناس، وتصعير الخد هو الإعراض عنهم، وعدم السماع إليهم من شدة الكبر.

﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ١٨﴾ ونصحه أن لا يسير بسيرة الجبارين والمتكبرين؛ لأن التكبر على الناس صفة ذميمة يكرهها الله سبحانه وتعالى ويمقت صاحبها.

﴿وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ﴾ أي توسط في سيرتك، فلا تمش مشي المتكبرين، ولا مشي أهل الذلة، وكن على الوسط بين ذينك.

﴿وَاغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ ١٩﴾ وأمره بأن يتأدب في كلامه مع الناس وفي مخاطبتهم، لأن رفع الصوت صفة ذميمة تورث البغض والحقد في قلوب الناس عليك، وقد شبه الله سبحانه وتعالى ذلك الذي يرفع صوته بصوت الحمير، مما يدل على دناءة صاحب ذلك وخسته، وأيضاً لا يخفض من صوته إلى حد أن لا يسمعه أحد، وليكن على الوسط بين ذلك.

﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾ ثم رجع الله سبحانه وتعالى إلى خطاب المشركين فاستنكر عليهم عدم النظر والتفكر في الآيات التي بثها لهم في الكون، وإنهم لو نظروا لعرفوا أن كل ما خلقه الله سبحانه وتعالى في السماوات والأرض قد سخره في مصلحتهم، وأن كل ذلك يصب في مصلحتهم ومنفعتهم، فالشمس والقمر والنجوم، والمطر والشجر والنبات، والبحار وما فيها، والأرض وما عليها وما في باطنها، كل ذلك قد سخره الله تعالى في مصلحة الإنسان، وقد تفضل عليه بجميع النعم التي توفر له رغد العيش، وأن من النعم ما هو ظاهر يراها الإنسان ويعلمها.

وهناك أيضاً نعم خفية لا يعلمها الإنسان نحو ما يدفع عنك من البلاوي والأمراض وأسباب الموت والهلاك وغير ذلك كثير، فلماذا لا يرجعون إليه

ويتركون تلك الأصنام التي لا حظ لها ولا نصيب في شيء من ذلك؟

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ۝٢٠﴾ بعض الناس وهم قريش كانوا يجادلون النبي ﷺ عن غير علم أو كتاب أو حجة أو دليل، وكل ذلك تمرداً على الله، ورداً لما جاءهم به نبيهم محمد ﷺ.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَاءَنَا﴾ وأصروا على كفرهم وتكذيبهم بعد أن وضحت لهم الحجج، وتيقنوا أن ما جاءهم به نبيهم هو الحق والهدى.

﴿أَوَلَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ۝٢١﴾ وهل ستتبعون دين آبائكم ولو كان الشيطان يدعوكم بذلك إلى النار؟ ولو كانت تؤدي بكم هذه العبادة إلى جهنم؟

﴿وَمَنْ يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ۝٢٢﴾ يثني الله سبحانه وتعالى هنا على أولئك الذين توجهوا إلى الله، وانقطعوا بعبادتهم إليه ولم يلتفتوا إلى غيره من الأصنام، واستسلموا لله تعالى ممتثلين لما أمرهم به، فهؤلاء هم الذين سيسلمون من عذابه وسخطه؛ لأنهم قد أخذوا بالحبل المتين والوثيق الذي ينجو من تمسك به.

﴿وَمَنْ كَفَرَ فَلَا يَحْزُنْكَ كُفْرُهُ﴾ ومن كفر يا محمد فلا تحزن أو تأسف عليه فهو الذي اختار لنفسه طريق الكفر ورضيها لنفسه فدعه وما اختار، وما عليك إلا البلاغ.

﴿إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ۝٢٣﴾ وسيرجعون إلينا فنجازيهم على جميع أعمالهم سرها وعلانيتها.

﴿نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَى عَذَابٍ غَلِيظٍ۝٢٤﴾ وأخبر الله تعالى أنه سيمتعهم في الدنيا مدة قصيرة، ثم يضطرهم إلى الخروج من الدنيا رغماً عن أنوفهم إلى الحساب والجزاء الذي كذبوا به.

﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ يخبر الله سبحانه وتعالى نبيه ﷺ عن حال المشركين، بأنهم مقرون ومعترفون بخالق السماوات والأرض، ومع ذلك لا زالوا مصرين على كفرهم وشركهم.

﴿قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴿٢٥﴾﴾ ثم أمر الله تعالى نبيه ﷺ بأن يحمد الله تعالى أنه قد بلغهم رسالة الله، وأكمل لهم الحجة حتى أصبحوا على بصيرة من أمرهم.

﴿لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴿٢٦﴾﴾ السماوات والأرض وما فيهما لله تعالى، وهو تعالى غني عن كل ما خلق في السماوات والأرض، فليس بمحتاج إلى أن يتخذ منهم ولداً أو بنتاً أو شريكاً أو معيناً.

﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴿٢٧﴾﴾ يخبر الله تعالى هنا عن سعة علمه ومدى إحاطته بكل شيء، فعبر عن ذلك بأن جميع أشجار الأرض لو كانت أقلاماً، وبحار الأرض ومثلها سبع مرات تصير مداداً ثم يقوم الكتاب يكتبون المعلومات التي يعلمها الله تعالى بتلك الأقلام وبذلك الحبر لنفد المداد والأقلام قبل أن يحصوا ما أحاط به علم الله.

﴿مَا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴿٢٨﴾﴾ ثم تحدث الله تعالى هنا عن مدى قدرته، فأخبر سبحانه وتعالى أنه لا يكبر عليه كبير أو يتعبه شيء من المقدورات، وأن جميع ما خلق من الأنفس في قدرة الله كنفس واحدة، وكذلك إماتة جميع الأنفس كإماتة نفس واحدة، وأن الأمر سيان بالنسبة لقدرة الله عليه.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ﴾ ألم تنظر أيها السامع وتتفكر في مدى قدرة الله تعالى كيف يدخل الليل في النهار والعكس؛ وذلك أن ساعات الليل والنهار تتفاوت وتتداخل بعضها في بعض بحسب

أوقات السنة ففي بعضها يكون اليل والنهار مستويان، وفي بعضها يكون أحدهما أكثر من الآخر فتدخل بعض ساعات أحدهما في الآخر، وكل ذلك ليرينا من عجيب آياته الدالة على قدرته؛ لأن المرء إذا نظر في ذلك وتفكر علم أنه لا بد أن يكون هناك مدبر دبرها وحكيم أحكمها، ولا بد أن يكون قادراً على ذلك ومتمكناً فيه، وذلك هو الله جل وعلا.

﴿وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴿٢٩﴾﴾ وهو الذي خلق الشمس والقمر وجعل كلاً منهما يسير في بروجه ومنازله، لا يتخلف عن ذلك المسار الذي رسمه له الله جل وعلا.

﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الْبَاطِلُ﴾ من أبدع هذه الأشياء وأوجدها على هذه الدقة العظيمة والنظام العجيب، وسخرها في مصلحة عباده فهو الإله الجدير بالعبادة والذي يستحق الطاعة والخضوع والاستسلام، لا تلك الأصنام التي يعبدونها من دونه التي لا تستطيع فعل شيء من ذلك.

﴿وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴿٣٠﴾﴾ فهو وحده المتعالي عن صفات المخلوقين بقدرته وعلمه وبجميع صفاته التي لا يشاركه فيها أحد.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَةِ اللَّهِ لِيُرِيَكُمْ مِنْ ءَايَاتِهِ﴾ ثم انظر أيها السامع إلى تلك السفن وعجيب أمرها من الذي سخر البحر لحملها، والرياح لتسييرها بأمره وقدرته؟ أليس ذلك نعمة عظيمة أن سخر لكم ما تستطيعون أن تتنقلوا على ظهورها لمصالحكم وأمور معايشكم؟ أليس ذلك آية من آياته التي ينبغي أن تتحير عندها الأفكار وتعرف أن هناك قدرة خارقة هي التي جعلتها على ذلك النمط وسخرها ذلك التسخير؟

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴿٣١﴾﴾ ولكنه لن يعرف آياته الدالة على قدرته وعجيب صنعه وعلمه ونعمته إلا أولئك الذين صبروا على حمل دينهم وتأدية ما أمرهم به ربهم، وأما غير هؤلاء فلن يعتبروا بشيء من ذلك؛ لأن طبيعتهم الكفر والعناد والتمرد.

﴿وَإِذَا غَشِيَهُمْ مَوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ ثم أخبر الله سبحانه وتعالىٰ عن حال المشركين بأنهم إذا ساروا في البحر ثم غشيتهم الأمواج وأيقنوا بالهلاك فعند ذلك يحصل لهم اليقين بالله تعالىٰ، ويعرفون أنه لن يخلصهم غيره فيلجئون إليه بالدعاء والتضرع إليه ليكشف عنهم ما هم فيه، وينسون تلك الآلهة التي يعبدونها؛ لأنهم يعرفون أنها لن تجيبهم أو تسمعهم.

﴿فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ﴾ فما إن يستجيب الله سبحانه وتعالىٰ لهم ويخرجهم إلىٰ البر إذا هم يتراجعون عن الإيمان بالله والإخلاص له ويرجعون إلىٰ الشرك وعبادة الأصنام والكفر بالله.

﴿وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ ﴿٣٢﴾﴾ ولكن طبيعتهم الخيانة والغدر وكفر نعم الله سبحانه وتعالىٰ عليهم لذلك جحدوا آيات الله وكفروا بها.

﴿يَاأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ﴾ يدعوا الله سبحانه وتعالىٰ في هذه الآية الناس جميعاً إلىٰ طاعته وإخلاص العبادة له، وأن يحذروا سخطه وغضبه بفعل ما يأمرهم واجتناب ما ينهاهم عنه.

﴿وَاخْشَوْا يَوْمًا لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَنْ وَالِدِهِ شَيْئًا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ ﴿٣٣﴾﴾ وأن يحذروا يوم القيامة، ذلك اليوم الذي لا يستطيع أحد أن ينفع أحداً، أو أن يقدم له شيئاً ولو كان أقرب الناس إليه؛ وهذا وعد من الله سبحانه وتعالىٰ ولا بد أن يقع لا محالة، فلا تغتروا بالدنيا ونعيمها وزخارفها وما يمتعكم الله سبحانه وتعالىٰ فيها من الصحة والعافية، وعليهم أن يحذروا الشيطان أن يغرهم عن ذلك اليوم بما يزينه لهم من المعاصي والشهوات.

﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿٣٤﴾﴾ ثم أخبر سبحانه وتعالىٰ بالأشياء التي يختص بعلمها وحده، فالأول:

موعد قيام الساعة فلم يطلع الله أحداً من خلقه على العلم بوقت قيامها لا ملك مقرب ولا نبي مرسل.

والثاني: متى ينزل المطر.

والثالث مما يختص بعلمه: هو ما يلقيه الذكور من النطف في الأرحام هل تكون تلك النطفة ذكراً أم أنثى، وقد حاول أهل العلم الحديث اكتشاف ذلك، ولكنهم لم يتوصلوا إلى نتيجة فلا يعرفون ذلك إلا إذا اكتمل خلق الجنين في بطن أمه.

والرابع مما يختص الله سبحانه وتعالى بعلمه: الأمور المستقبلة، فعلم ذلك محجوب عن المخلوقين.

والخامس: الموت فلا يستطيع أحد أن يعرف موعد نزوله، أو يعرف مكان موته.



سورة السجدة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الم۝١ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ۝٢﴾ أخبر الله سبحانه وتعالى أن هذا القرآن كلامه، وأنه الذي أنزله بعلمه وقدرته وحكمته فلا يصح أن يدخل الشك أو الريب فيه؛ لأنه قد تعالى عن صفات المخلوقين من الغلط والتناقض والبدا، ويكفي الناظر أن يتأمل في آياته وسيعرف ذلك وسيعلم أنه كلام رب العالمين وأنه أنزله بعلمه الذي أحاط بكل شيء.

﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ﴾ ولكن المشركين يزعمون أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قد افتراه وتقوله من نفسه.

﴿بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ لِتُنْذِرَ قَوْمًا مَا أَتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ۝٣﴾ وأن الأمر ليس كما يقوله ويزعمه المشركون، فهو الكلام الحق والصدق المنزل من عند الله تعالى، وقد أنزله الله سبحانه وتعالى عليك يا محمد لتنذر به قريشاً، وذلك أن عهد الأنبياء قد طال عليهم، وقد مضت عليهم مدة طويلة لم يأت إليهم فيها نبي حتى ضاعت شريعة إبراهيم وإسماعيل صلوات الله عليهما ووقعوا في الشرك والضلال.

وقد أنزله عليك يا محمد رحمة بقومك ليدخلوا في الهدى وليعرفوا طريق نجاتهم وما فيه سعادتهم.

﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ يذكر الله سبحانه وتعالى المشركين بأنه وحده المتفرد بخلق السماوات والأرض وما بينهما، فلا شريك له في ذلك، وقد خلقهما بالتدريج شيئاً فشيئاً على حسب ما اقتضته الحكمة.

﴿ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾ بعد أن خلق السماوات والأرض وما بينهما، أخبر سبحانه وتعالى أن ذلك هو ملكه وحده، وأنه وحده المسيطر على جميع ذلك الملك بعلمه وقدرته وإحاطته وتدبيره.

﴿مَا لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ﴾ ولن ينفعكم أحد أيها المشركون غير الله سبحانه وتعالى، فخصوه وحده بالعبادة؛ لأنه الذي بيده نفعكم وبيده جميع أموركم، فلا ملك ولا نبي ولا صنم ولا أي شيء سينفعكم.

﴿أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴿٤﴾﴾ يستنكر الله سبحانه وتعالى عليهم لماذا لا يتفكرون بعقولهم ويرجعون إلى خالق السماوات والأرض ويتركون تلك الأصنام التي يعبدونها.

﴿يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ﴾ أراد الله سبحانه وتعالى أنه ينزل القرآن من السماء الدنيا إلى الأرض؛ والسماء الدنيا هي هذه التي نراها فوقنا بما فيها من الكواكب الزاهرة المتوقدة نوراً، وقد أنزله الله تعالى أولاً إلى السماء الدنيا جملة واحدة، ثم بعد ذلك أنزله الله تعالى على نبيه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ مفرقاً ومنجماً في ثلاث وعشرين سنة.

﴿ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ﴿٥﴾﴾ يخبر الله سبحانه وتعالى عن كيفية نزول القرآن، وذلك أن جبريل عَلَيْهِ السَّلَام أنزله مفرقاً على النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، وكان يقطع المسافة التي تستغرق ألف سنة للواحد من الناس في أقصر مدة زمنية بقدرة الله تعالى.

﴿ذَلِكَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴿٦﴾﴾ وأن ذلك تدبير عالم الغيب والشهادة والعالم بما تقتضيه الحكمة والمصلحة لعباده.

﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ﴾ يعني خلق كل شيء وأحسن وأبدع في خلقه.

﴿وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ﴿٧﴾﴾ مما يدل على عجيب صنعه وإبداعه في خلقه أن جعل من ذلك التراب الجماد إنساناً سوياً ناطقاً يتحرك ويمشي، وكل ذلك بعلمه وقدرته وحكمته.

﴿ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ﴿٨﴾﴾ بعد أن خلق آدم من التراب، أخرج نسله من النطفة التي وضعها في حواء، ثم سارت سنة الله سبحانه وتعالى في التوالد والتناسل على هذا المنوال.

﴿ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ﴾ عندما خلق الله آدم على صورة إنسان نفخ فيه الروح فسارت ودبت الحياة في أعضائه وبدأ يتحرك بقدرة الله تعالى.

﴿وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ ۝٩﴾ يتمنن الله سبحانه وتعالى على جميع خلقه بأنه المنعم عليهم بنعمة السمع والبصر والعقول التي يتمكنون بها من النظر والتفكر وأداء ما يجب عليهم من شكر تلك النعم، ولكن أكثرهم كفر بما أنعم الله سبحانه وتعالى عليه، ولم يشكره على ذلك.

﴿وَقَالُوا أَئِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ يستنكر المشركون على النبي ﷺ كيف يصح أن يعودوا خلقاً جديداً بعد أن قد أصبحوا تراباً وتفتت عظامهم ونخرت؟ واستبعدوا ذلك غاية الاستبعاد.

﴿بَلْ هُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ ۝١٠﴾ وسبب استنكارهم أنهم قد كفروا بالله سبحانه وتعالى وأنكروا البعث والحساب.

﴿قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ۝١١﴾ ثم أمر الله سبحانه وتعالى نبيه ﷺ أن يخبر المشركين بأن الله سبحانه وتعالى قد وكل ملكاً من ملائكته يتولى قبض أرواحهم، ولا بد أن يبعثهم الله سبحانه وتعالى بعد موتهم للحساب والجزاء، ولن ينفعهم إنكارهم وتكذيبهم.

﴿وَلَوْ تَرَى إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُو رُءُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ۝١٢﴾ يقص الله سبحانه وتعالى على نبيه ﷺ عن حالة أهل النار عند مبعثهم وقيامهم إلى الحساب والجزاء، وذلك أنه سيظهر على وجوههم عند ذلك الخوف والجزع والذل والخزي، ولو ترى يا محمد أو أيها السامع حين يستغيثون ويصرخون من شدة الخوف والجزع قائلين: يا رب الآن قد عرفنا الحق، وأيقنا بصدق وعدك ووعيدك، فهل لنا من رجعة لنتدارك ما فرط منا؟ ولكن حين لا ينفع الندم، ولا الصياح والدعاء.

﴿وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا﴾ كان النبي ﷺ حريصاً أشد الحرص على إيمان قومه ودخولهم في الهدى، وقد أجهد نفسه في ملاحقتهم خوفاً عليهم من عذاب الله وسخطه، ولكنهم لم يستجيبوا له أو يؤمنوا له، فأوحى الله سبحانه وتعالى إليه بأن لا يتعب نفسه في ملاحقتهم فلن يؤمنوا أبداً، وأخبره أنه لو أراد أن يلجئهم إلى الإيمان لفعل ذلك غير أن الحكمة اقتضت أن يكون ذلك موكولاً إلى مشيئتهم واختيارهم ليتم التكليف، ولما يبتني على ذلك من الثواب والعقاب، وذلك أن الثواب لا يستحق إلا إذا كان على ذلك الوجه من الاختيار، فأما المضطر إلى الفعل فلا يستحق شيئاً من الثواب على فعل ما اضطر إلى فعله.

﴿وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ۝١٣﴾ اقتضت حكمة الله أن يوكل الناس إلى مشيئتهم واختيارهم، فمن اختار الهدى وطريق الخير فجزاؤه الجنة، وأما من اختار الضلال وطريق الشر فقد أعد الله لهم عذاب جهنم خالدين فيها أبداً؛ لذلك استحق أهل الضلال أن يملأ الله بهم جهنم لكثرتهم.

﴿فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا إِنَّا نَسِينَاكُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ۝١٤﴾ يقال لأهل النار ذوقوا عذاب الحريق بسبب كفركم وتكذيبكم بعذاب الله في اليوم الآخر، فليس لكم في رحمة الله نصيب وذوقوا عذاب الخلد بسبب أعمالكم الخبيثة.

﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ۝١٥﴾ ثم أخبر الله سبحانه وتعالى أنه لا يصدق بآياته ويؤمن بها إلا أولئك الذين إذا ذكرهم أحد بالله تعالى خافوا وتذكروا عذابه وسخطه وأذعنوا لأوامره، وخضعوا له وتواضعوا لعظمته وجلاله.

﴿تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴿١٦﴾﴾ أراد الله تعالى أنه لا يؤمن بآياته إلا أولئك الذين هذه صفتهم، وهم الذين يهجرون أماكن نومهم لأجل إحياء الليل بعبادة الله تعالى والتضرع بين يديه لينجيهم من عذابه وسخطه، ويطمعون فيما عنده من الثواب، ويتوسلون إليه بأن يقبل منهم ما يخرجونه إلى فقرائهم من النصيب الذي أوجبه عليهم في أموالهم؛ يخبر الله تعالى نبيه محمداً ﷺ بأن هؤلاء الذين هذه صفتهم هم الذين سيستجيبون له ويقبلون ما جاء به.

﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴿١٧﴾﴾ فلا يستطيع أحد أن يصف ذلك النعيم الذي أعده الله سبحانه وتعالى لأهل هذه الصفة.

﴿أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا لَا يَسْتَوُونَ﴿١٨﴾﴾ أنكر المشركون البعث والجزاء والجنة والنار، وبإنكارهم هذا يستوي عندهم المؤمن والفاسق والظالم والمظلوم والشاكر والكافر؛ لأن الجميع يموتون وينتهي بموتهم كل شيء فاستنكر الله تعالى عليهم ظنهم هذا وعقيدتهم هذه ورد عليهم بأنه لا بد من الجزاء لكل بما يستحقه في الدار الآخرة.

﴿أَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَى نُزُلًا بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴿١٩﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ﴿٢٠﴾﴾ فلا بد أن يبعثهم الله تعالى ليجازي كلاً بما عمل، فيثيب المؤمنين على أعمالهم الصالحة، ويعذب أولئك الخارجين عن حدوده المتمردين عليه في جهنم خالدين فيها أبداً جزاءً على تكذيبهم وتمردهم، كلما حاولوا الخروج من العذاب ردتهم الزبانية وأرجعتهم إلى العذاب.

﴿وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴿٢١﴾﴾ أقسم الله سبحانه وتعالى لنبيه ﷺ أنه لا بد أن يعذب قريشاً بعض العذاب في

الدنيا لعل ذلك أن ينفع فيهم فيرجعوا إلى الهدى وإلى صوابهم ورشدهم؛ وفعلاً فقد عذبهم الله تعالى بالجدب والفقر نحواً من سبع سنين ولكنهم لم يرجعوا.

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنْتَقِمُونَ﴿٢٢﴾﴾ فلا أحد أظلم من قومك يا محمد فقد ذكرتهم بالقرآن وبآيات الله سبحانه وتعالى، ولكنهم أعرضوا وتمردوا، وسوف ننتقم منهم جزاءً على تكذيبهم وإعراضهم.

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَلَا تَكُنْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقَائِهِ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِبَنِي إِسْرَائِيلَ﴿٢٣﴾﴾ ثم أخبر الله سبحانه وتعالى نبيه ﷺ بأنه قد أنزل التوراة على موسى من قبله، وقد لاقى من قومه مثل ما لاقاه محمد ﷺ من قريش من التكذيب والاستهزاء والأذى، وقد مكث على تلك الشدائد زماناً طويلاً حتى أنزل الله تعالى عليه الفرج والنصر، فقد مكث يدعوا فرعون وقومه نحواً من أربعين سنة كما قيل، ثم إن الله تعالى أهلك فرعون ونصر موسى، واستنقذ بني إسرائيل من قبضته وسيطرته.

ثم أخبر الله سبحانه وتعالى أنه قد أنزل التوراة على موسى ليهتدي بما فيها من الأحكام والتشريعات قومه من بني إسرائيل.

﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴿٢٤﴾﴾ وجعل تعالى من بني إسرائيل أئمة يقتدي بهم الناس ويسيرون على طريقتهم ونهجهم، وكل ذلك بسبب صبرهم على دينهم؛ وأنت يا محمد فاصبر على ما تلاقيه من قومك كما صبر أولئك الصالحون.

﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴿٢٥﴾﴾ يحكي الله سبحانه وتعالى في هذه الآية عن بني إسرائيل بأنهم قد اختلفوا بعد موسى على فرق ومذاهب شتى، وقد غيروا وبدلوا وحرفوا التوراة، وسيحكم بينهم يوم القيامة، وسيميز المحق من المبطل منهم فيجازي كلاً بما يستحقه.

﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ أَفَلَا يَسْمَعُونَ﴿٢٦﴾﴾ يستنكر الله سبحانه وتعالى هنا على قريش لماذا لا يعتبرون بتلك القرون والأمم التي أهلكها بسبب تكذيبهم وتمردهم على أنبيائهم، وكفرهم بما جاءوهم به من عند الله، ولماذا يصرون على كفرهم وتكذيبهم مع أنهم قد رأوا وعلموا كيف كانت عاقبة أولئك المكذبين من تلك الأمم السابقة عندما كانوا يمرون على مساكنهم وقراهم في طريق أسفارهم وتنقلاتهم، كقرى قوم لوط وقوم صالح وقوم هود وغيرهم.

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ﴿٢٧﴾﴾ وكذلك يستنكر الله تعالى عليهم لماذا لا يتفكرون في هذه الآية التي يرونها أمام أعينهم؟ وينظرون كيف نسوق السحاب إلى تلك الأرض الجرداء التي لا أثر للحياة عليها، ثم ننزل عليها المطر فإذا بها تنبض بالحياة من جديد، وتخرج خيراتها من الزروع والثمار وأصناف النبات الذي يأكلون منه ويعيشون عليه هم وأنعامهم، أفلا يبصرون ذلك، ويعلمون أن الله قادر على إحيائهم بعد مماتهم؟

﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْفَتْحُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴿٢٨﴾﴾ كان النبي ﷺ عندما يحس بالضيق الشديد من أذية قومه واستهزائهم يقول لهم: إن الله سبحانه وتعالى سوف يحكم بيني وبينكم، وسيأتي بالفتح والفرج فيعذبكم وينتصف لي منكم عما قريب؛ فكان المشركون يسألونه عن ذلك الفتح والفرج متى سيكون؟ ومتى سيحين موعد هذا الفتح الذي تتوعدنا به؟

﴿قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيمَانُهُمْ﴾ فأمره الله سبحانه وتعالى أن يجيب عليهم بهذا الجواب، وهو أنه متى حل موعد ذلك اليوم فقد انقطع الأمل ولن ينفعكم الندم، ولم يبق إلا ما قدمتموه من الأعمال.

﴿وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ۝٢٩﴾ وأنهم لن يمهلوا لحظة واحدة كما هو حالهم الآن في الإمهال والتأني بهم.

﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَانْتَظِرْ إِنَّهُمْ مُنْتَظِرُونَ۝٣٠﴾ اتركهم يا محمد في غيهم وضلالهم واستهزائهم ولا تجارهم، ولا ترد عليهم، وانتظر هلاكهم كما هم منتظرون لهلاكك.

ثم إن الله سبحانه وتعالى أهلك كبار قريش يوم بدر، وكانوا سبعين رجلاً، وهم الذين كانوا يصدون عن دعوة النبي صلى الله عليه وآله وسلم ويقفون في وجهه، ويمنعون الناس عن الذهاب إليه والسماع لما يتلوه عليهم من رسالة ربه.

۞۞۞۞۞

سورة الأحزاب

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا۝١﴾ وجه الله سبحانه وتعالى خطابه للنبي صلى الله عليه وآله وسلم والمراد به غيره؛ لأنه صلى الله عليه وآله وسلم كان من أهل العصمة، وقد أراد الله سبحانه وتعالى لعباده أن يتقوا عذابه وسخطه ويتركوا ما يوجب ذلك من المعاصي، وتقوى الله سبحانه وتعالى تكون بفعل ما أمر به واجتناب ما نهى عنه.

وكان أهل الكفر يدارون النبي صلى الله عليه وآله وسلم ويعطونه الوعود بأن يفعل لهم بعض ما يريدون من دينهم، وأن يتساهل معهم في بعض آخر من أعمال الكفر، ويعدونه بأنه إن فعل ذلك ورضي لهم فسيؤمنون له ويصدقون ما جاء به.

وكذلك المنافقون كانوا يعرضون على النبي صلى الله عليه وآله وسلم أن يفعل معهم مثل ذلك من الأعمال التي لا ترضي الله تعالى فنهاه عن طاعتهم وعن الاستماع لهم أو الميل إلى شيء مما يقترحونه عليه، وأن يترك مشورتهم وأخذ الرأي منهم؛ لأنهم لن ينصحوه أو ينصحوا الإسلام، ولن يشوروا عليه إلا بما فيه فساد أمر الدين، وما يزرع الفرقة بين المسلمين.

وأخبره أنه عليم حكيم لا يأمر إلا بما فيه مصلحة للنبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ وللدين وللإسلام والمسلمين، وعلى الجملة فإن ما يأمرنا الله سبحانه وتعالى به من الشرائع ليس إلا لمصلحة قد علمها لنا، وأنه لم يأمر بشيء لأجل أن يشق عليهم أو يتعبهم به، ولم ينههم عن شيء لأجل أن يحرمهم أو يمنعهم، وإنما لأجل دفع الشر والفساد عنهم، وما فيه ضرر عليهم، وأما هو تعالى فلا تنفعه طاعة من أطاعه أو تضره معصية من عصاه.

فالصلاة مثلاً لم يأمر عباده بها إلا للمصلحة التي تعود عليهم منها في دينهم ودنياهم، وذلك لما فيها من القربة إلى الله سبحانه وتعالى، وكسب رضوانه وثوابه، وأيضاً ما فيها من الرياضة للجسم.

وما شَرَطَهُ من الوضوء لإقامتها لما فيه من الطهارة والنظافة للجسم، وإزالة الأوساخ والأمراض والجراثيم التي تعلق بالجسم.

وكذلك الزكاة لما فيها من النفع للفقراء، والسبب الذي تعود به من استقامة الحياة بما يحصل من التعامل بينهم، وكذلك فإن العقل يستحسن إشباع الفقراء وسد جوعتهم، وأيضاً فإن العاقل لا يقبل أن يبيت الغني شبعاناً وجاره جائع، ويمقت من فعل ذلك ويذمه، فلذلك أمر الله سبحانه وتعالى الغني بمواساة الفقير.

وكل الشرائع هكذا ليست إلا لمصالح تعود على العباد، لا غرض لله سبحانه وتعالى فيها غير ذلك؛ لأنه غني لا يحتاج.

﴿وَاتَّبِعْ مَا يُوحَى إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا۝٢﴾ بعد أن نهى الله سبحانه وتعالى نبيه صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ عن طاعة الكافرين والمنافقين أمره أن يتبع ما أوحي إليه من الشرائع والتعاليم في القرآن، وأمته تدخل تبعاً له في هذا الأمر.

ثم أخبره تعالى بأنه عالم بجميع أعمال عباده، ومطلع على ما في ضمائرهم وأسرارهم، وسيجازيهم على ظاهرها وباطنها.

﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا۝٣﴾ ثم أمر الله سبحانه وتعالىٰ نبيه صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ أن يتوكل عليه في ذلك لأجل أن يدفع عنه ضرر الكافرين والمنافقين ومؤامراتهم ومحاولاتهم لقتله وإفساد أمره، وأن لا يبالي بهم؛ لأنهم مهما حاولوا أن يضروه فلن يستطيعوا ذلك ما دام متوكلاً عليه وكفىٰ بالله حافظاً.

﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ﴾ أخبر الله سبحانه وتعالىٰ أنه لم يخلق لأحد قلبين ليرتب علىٰ هذا الخبر ما بعده من الأحكام.

﴿وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ اللَّائِي تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ذَلِكُمْ قَوْلُكُمْ بِأَفْوَاهِكُمْ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ۝٤﴾ كان الرجل يقول: زوجتي علي كظهر أمي، أو مثل أمي، فاستنكر الله سبحانه وتعالىٰ عليهم ذلك؛ لأنه لا يصح أن تكون زوجته حلالاً وحراماً في آن واحد، كما أنه لا يصح ولا يجوز أن يكون مع الرجل قلبان في جوفه.

وكذلك كانوا يتبنون الأولاد، فكان أحدهم يشتري عبداً ثم يعتقه ثم بعد ذلك يعلن بين الناس أنه ولده وأنه يرثه ويورث منه، وأنه ينسب إليه، ونحو ذلك من الأحكام التي تكون لأبناء النسب؛ وقد فعل النبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ ذلك في زيد بن حارثة قبل النبوة، فقد اشتراه وأعتقه، ثم أعلن بين الناس أنه ولده، فكان الناس ينادونه بزيد بن محمد، ثم إن الله سبحانه وتعالىٰ نهاهم أن ينسبوهم إلىٰ أدعيائهم، وأن لا يقولوا زيد بن محمد، وإنما ينسبونه إلىٰ أبيه الذي ولده فيقولون: زيد بن حارثة؛ لأنه لا يصح أن يكون ابن محمد وابن حارثة في آن واحد كما لا يصح أن يكون للرجل قلبان في جوفه، وأن قولهم: زيد بن محمد، وجعلهم للزوجة أُمًّا كل ذلك لا يصح ولا يجوز، وقد أمركم الله سبحانه وتعالىٰ أن تنسبوا زيداً إلىٰ أبيه الحقيقي، وأن تتركوا الظهار.

﴿ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ﴾ ولا تنسبوا زيداً إلىٰ محمد، وانسبوه إلىٰ أبيه الحقيقي الذي هو حارثة، وكذلك غيره من الأبناء الذين ينسبونهم إلىٰ أنفسهم بالدعوة

والتبني، وذلك لما كانوا يرتبونه على ذلك من الأحكام من التوارث والتناكح، وغير ذلك من الأحكام التي تلحق النسب.

﴿هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ﴾ يعني أنه الحق والعدل الذي يريده الله سبحانه وتعالى.

﴿فَإِنْ لَمْ تَعْلَمُوا ءَابَاءَهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ﴾ وإن لم تعلموا لهم آباءً تنسبونهم إليهم فنادوهم بـ: «يا أخي في الدين، أو يا مولاي»؛ لأن المعتَق يسمى مولى.

﴿وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ وَلَكِنْ مَا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴿٥﴾﴾ وإذا نسيتم هذه التعاليم وناديتموهم بذلك فلا حرج ولا بأس عليكم، إن كان على سبيل الخطأ والنسيان؛ لأن الله تعالى يغفر الخطأ والنسيان، ولا يؤاخذ عباده عليه.

﴿النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾ ثم أنزل الله سبحانه وتعالى فرض الطاعة للنبي صلى الله عليه وآله وسلم، وحكم على جميع أمته أن يطيعوه ويمتثلوا لما يأمرهم به، ولو كان ذلك فيما يكرهونه، أو إلى ما فيه خلاف مصلحتهم.

﴿وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ﴾ ونساء النبي صلى الله عليه وآله وسلم فهن أمهات للمؤمنين يجب عليهم توقيرهن واحترامهن احترام الولد لأمه ويحرم عليهم نكاحهن حرمة الأمهات.

﴿وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ﴾ وما كانوا يجعلونه من التوارث ونحوه لأبناء التبني لا يجوز ولا يصح، فأولو الأرحام أولى بذلك التوارث ونحوه، والقريب أولى بقريبه من دون جميع الناس، حكم حكم الله به في كتابه، وألزم به جميع عباده.

﴿إِلَّا أَنْ تَفْعَلُوا إِلَى أَوْلِيَائِكُمْ مَعْرُوفًا كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا﴿٦﴾﴾

إلا إذا أردتم أن تحسنوا إلى أولئك الذين كنتم تدعونهم بالتبني على سبيل الصلة والصدقة والوصية فذلك لكم، وأما النصيب المفروض في الميراث فليس لهم شيء منه.

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا۝٧﴾ والميثاق الذي أخذه الله سبحانه وتعالى على أنبيائه هو أن يبلغوا رسالاته إلى أممهم، فذلك عهد مؤكد قد شدد الله سبحانه وتعالى عليهم فيه، وأكده عليهم أبلغ تأكيد.

﴿لِيَسْأَلَ الصَّادِقِينَ عَنْ صِدْقِهِمْ وَأَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا۝٨﴾ وأن الله تعالى سيسأل الأنبياء يوم القيامة: هل بلغوا رسالاته وأدوا ما أمرهم به؟ وكذلك الكافرين بهم سيسألهم: كيف كان موقفهم من أنبيائهم؟ وماذا كان جوابهم عندما دعوهم؟ وكيف قابلوا دعوتهم؟

﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا۝٩﴾ نزلت هذه الآية في شأن ما حصل في يوم الخندق عندما أحاط المشركون بالنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ ومن معه في المدينة من كل مكان، وكان سلمان الفارسي قد أشار على النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ بحفر خندق حول المدينة ليمنع المشركين منهم.

وكان المشركون قد اجتمعوا من كل صوب، وتعاهدوا على أن يجتثوا الإسلام، ويستأصلوا أهله، ثم إن الله سبحانه وتعالى أنزل رحمته على المؤمنين فأرسل على المشركين ريحاً شلت حركتهم، وأخذت خيامهم، وأطفأت نيرانهم، وأقلقتهم قلقاً شديداً حتى اضطروا إلى الرجوع والعودة من حيث أتوا خائبين منكسرين.

﴿إِذْ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا۝١٠﴾ يذكر الله سبحانه وتعالى المسلمين بذلك اليوم عندما كان المشركون قد تحالفوا من جميع أطراف البلاد العربية عازمين على القضاء على النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ ومن معه، وقد أقبلت جيوشهم من كل مكان حتى أحاطوا بالمدينة، وعندما كان الرعب قد أخذ منهم كل مأخذ وأيقنوا عندها بالهلاك لما رأوا من الكثرة التي قد أقبلت عليهم، وكان الشك قد دخل في قلوب المسلمين

في ذلك الوعد بالنصر الذي كان قد وعدهم به النبي ﷺ، وساورهم الشك في صدق كلامه الذي كان يقوله لهم من أنهم سيظهرون على البلاد جميعها، وأنهم سيملكون قصور كسرى وقيصر.

﴿هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا﴿١١﴾﴾ أخبر الله سبحانه وتعالى أن ذلك كان اختباراً منه لهم وتمحيصاً لقلوبهم، وكيف سيكون موقفهم تجاه نبيهم ﷺ، وأن ما صار على المسلمين يوم الخندق هو من الفتن والاختبارات التي قد تحدث الله سبحانه وتعالى عنها في قوله: ﴿أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴿٢﴾﴾ [العنكبوت]، فقد ابتلى الله سبحانه وتعالى المسلمين هنا حتى ظهر صادق الإيمان من المختل فيه.

﴿وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا﴿١٢﴾﴾ عندما رأى المسلمون ما رأوا من إقبال أهل الشرك إلى المدينة من كل مكان خافوا خوفاً شديداً، وساورت أكثرهم الشكوك والريبة في صدق النبي ﷺ، وما وعدهم به من النصر وظهور الإسلام، وكان ذلك اختباراً من الله تعالى وامتحاناً لصادقي الإيمان والثابتين مع النبي ﷺ، وظهر عند ذلك ضعاف الإيمان من المنافقين وغيرهم، وبدأوا يصرحون بنفاقهم في ذلك الموقف، ويرمون النبي ﷺ بالكذب وخلف الوعد.

﴿وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ يَاأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا﴾ وبدأ المنافقون بالإرجاف بين أوساط المسلمين وبث الرعب والخوف في قلوبهم.

﴿وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِنْ يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا﴿١٣﴾﴾ وبعض المسلمين قام يستأذن النبي ﷺ ويختلق الأعذار كقولهم: إن اليهود ستستغل ذلك الموقف، وتدخل بيوتهم، وتنهب أموالهم، وتسبي نساءهم وذراريهم، وأنه لا بد أن يذهبوا لحماية بيوتهم، وهم بذلك إنما يريدون الفرار، وهؤلاء الذين هذه حالهم هم المنافقون، وأما المؤمنون

صادقو الإيمان الثابتون مع النبي ﷺ فقد ثبتوا مع النبي ﷺ ولم يظهر منهم أي شيء من ذلك، أو يظهر عليهم أي شيء من أمارات الخوف.

﴿وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِمْ مِنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ لَآتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا إِلَّا يَسِيرًا﴿١٤﴾﴾ فأوحى الله سبحانه وتعالى إلى نبيه ﷺ يطلعه على حقيقة أمرهم ونفاقهم، وأن المشركين لو دخلوا عليهم وظهروا على بلادهم ثم أمروهم بالردة والكفر لأجابوهم إلى ذلك من دون أي تردد.

﴿وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ الْأَدْبَارَ﴾ وهؤلاء المنافقون كانوا قد عاهدوا النبي ﷺ قبل ذلك على الثبات معه، وعدم الفرار من بين يديه مهما كان، ولكنهم نقضوا تلك العهود وظهر كذبهم.

﴿وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولًا﴿١٥﴾﴾ وسوف يسألهم الله سبحانه وتعالى عن عهودهم تلك التي قد نقضوها.

﴿قُلْ لَنْ يَنْفَعَكُمُ الْفِرَارُ إِنْ فَرَرْتُمْ مِنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذًا لَا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴿١٦﴾﴾ أوحى الله سبحانه وتعالى إلى نبيه ﷺ أن يخبر أولئك المنافقين الذين فروا من بين يديه بأن فرارهم لن ينفعهم، وأنهم لو سلموا من القتل تلك الساعة فلن يسلموا من الموت، فما هي إلا مدة يسيرة ثم يأتيهم ذلك الذي يفرون منه رغماً عن أنوفهم.

﴿قُلْ مَنْ ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُمْ مِنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴿١٧﴾﴾ وأمره أيضاً أن يسألهم هذا السؤال: من الذي سيدفع عنكم عذاب الله وعقوبته إن أراد إنزالها بكم؟ وإلى من ستفرون إن أراد اللحاق بكم؟

﴿قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنْكُمْ﴾ ثم أخبر الله سبحانه وتعالى أنه عالم بأولئك الذين يخذلون الناس عن النبي ﷺ ويثبطونهم عن القتال بين يديه.

﴿وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا وَلَا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا ۝١٨﴾ وعالم أيضاً بأولئك الذين يثبطون إخوانهم وأصدقاءهم بترك النبي ﷺ وعدم القتال بين يديه، وبأولئك الذين يختلقون الأعذار للفرار من بين يديه.

﴿أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ﴾ ثم وصف الله سبحانه وتعالى هؤلاء الذين يخذلون الناس ويثبطونهم عن النبي ﷺ بأنهم إنما يبخلون على المؤمنين بتثبيطهم ذلك ويحسدونهم كل خير من النصر والظفر والغنائم، وأن ذلك منهم ليس إلا لكرههم الشديد للنبي ﷺ والثابتين معه.

﴿فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ﴾ فإذا حصلت شدة على المسلمين ودارت رحى الحرب فإنك ترى أعينهم تدور من كثرة تلفتهم من شدة الفزع، وتنعقد ألسنتهم خوفاً على أنفسهم من الموت والقتل.

﴿فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُمْ بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ﴾ فإذا ذهبت تلك الشدة وزال الخوف فإنك تراهم يتفننون في سب المؤمنين والكيد بهم، وانتهاك أعراضهم وحرمهم.

﴿أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ أُولَئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ۝١٩﴾ ولا يحبون الخير للنبي ﷺ ولا لأحد من أصحابه، وإن كانوا قد آمنوا بألسنتهم ودخلوا في الإسلام فهم ما زالوا على الكفر في الحقيقة، ولن يقبل الله سبحانه وتعالى منهم أي قربة أو عمل، وسيعذبهم على ذلك ويخزيهم في الدنيا والآخرة.

﴿يَحْسَبُونَ الْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا﴾ عندما أرسل الله تعالى جنده على المشركين في الخندق وهزمهم و عادوا خائبين مكسورين إلى مساكنهم، كان المنافقون يظنون أنهم لا زالوا محيطين بالمدينة من شدة خوفهم وشكهم في نزول الفرج والنصر.

﴿وَإِنْ يَأْتِ الْأَحْزَابُ يَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُمْ بَادُونَ فِي الْأَعْرَابِ يَسْأَلُونَ عَنْ أَنْبَائِكُمْ﴾ وأن تلك الأحزاب المتحزبة ضد النبي ﷺ وضد الإسلام لو عادوا بعد

هزيمتهم تلك لتمنى أولئك المنافقون أنهم من أهل البوادي البعيدة عن المدينة فلا تصل إليهم أخبار النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ إلا عن طريق السؤال والتقصي للأخبار.

﴿وَلَوْ كَانُوا فِيكُمْ مَا قَاتَلُوا إِلَّا قَلِيلًا۝٢٠﴾ فلا فائدة من وجودهم بينكم أيها المؤمنون، فلا يحزنكم فرارهم، فوجودهم كعدمهم سواء.

﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا۝٢١﴾ ثم أخبر الله سبحانه وتعالى بأنه قد جعل للمؤمنين في النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ الأسوة الحسنة التي ينبغي أن يتأسوا به ويقتدوا في الثبات على القتال وعدم الفرار، وأن يقتدوا به في جميع أعماله، فلن يكتمل إيمانهم إلا بذلك، ولن يتأسى به إلا من كان يخاف الله تعالى ويخاف عقابه وسخطه، ويكثر من ذكره طمعاً فيما عنده من الثواب والجزاء.

﴿وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا۝٢٢﴾ يخبرنا الله سبحانه وتعالى كيف كان موقف أولئك المؤمنين الثابتين مع النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ عندما حاصرت جيوش المشركين المدينة بأنهم كانوا ثابتين مع النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، ولم يداخلهم أي شك أو ريبة فيما كان وعدهم به النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ من النصر والظفر، ولا وزالوا مستبشرين بنصر الله سبحانه وتعالى وأنه لا بد أن ينزل، وسلموا لأمر الله تعالى وأيقنوا أن ما هم فيه من البلاء ليس إلا تمحيصاً واختباراً من الله تعالى لإيمانهم؛ وذلك لأنهم كانوا على بصيرة من دينهم، وأن مثل تلك البلاوي لا بد أن تقع، وأن الفرج لا يكون إلا بعد شدة ومحنة، وعرفوا أن النصر لن يتم لهم إلا إذا صبروا وثبتوا على دينهم.

﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ﴾ وذلك يوم الأحزاب «الخندق» أظهر الله سبحانه وتعالى فيه أمر أولئك الذين يراءون في دينهم، وأخبر أنه لا زال هناك مؤمنون صادقون في إيمانهم لم ينقضوا عهودهم ومواثيقهم، ولم تزلزلهم تلك الفتن.

﴿فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا﴿٢٣﴾﴾ وأن من أولئك الرجال من قد استشهد في سبيل الله، ومنهم من لا يزال ينتظر الشهادة في سبيل الله وإعلاء كلمته، فلم تثن تلك الفتن عزائمهم أو يظهر منهم الضعف والوهن، ولا زالوا متمسكين بالنبي ﷺ وثابتين معه.

﴿لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِنْ شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا﴿٢٤﴾﴾ أخبر الله سبحانه وتعالى أنه اختبرهم وامتحنهم بتلك المحن والشدائد في ذلك اليوم؛ ليظهر كل واحد منهم على حقيقته، وليتميز الصادقون في إيمانهم من المتزلزلين فيه، وليجازي كل واحد من المؤمنين والمنافقين، إلا أن يتوبوا، وأما المصرون على نفاقهم فسيعذبهم.

﴿وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ﴾ فقد هزم الله سبحانه وتعالى المشركين يوم الأحزاب، ورجعوا خائبين مكسورين لم يشفوا غيظهم من النبي ﷺ والمسلمين، وخاب ما كانوا قد أجمعوا عليه من استئصال الإسلام والمسلمين، وهزمهم الله سبحانه وتعالى من دون قتل أو قتال.

﴿وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا﴿٢٥﴾﴾ فقد ردهم بقوته وإرادته، وهزم تلك الآلاف المؤلفة بريح أرسلها عليهم كسرت شوكتهم، وردتهم على أعقابهم.

﴿وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا﴿٢٦﴾﴾ كان هناك عدة قبائل من اليهود في المدينة وحولها قد تحالفت مع النبي ﷺ وتعاهدت معه على الصلح وعدم القتال بأي وجه، وعندما أقبل المشركون وحاصروا المدينة عزموا على نقض تلك العهود ظناً منهم أنه قد حان موعد استئصال الإسلام والمسلمين، وأنه لن يبق للإسلام أي ذكر بعد الآن، فأعلنوا نقضهم لما بينهم وبين النبي ﷺ، وعندما هزم الله سبحانه وتعالى المشركين نزل جبريل على النبي ﷺ يأمره

بأن لا يبيت هو وأصحابه إلا في بني قريظة، فصاح النبي ﷺ على أصحابه قائلاً: ((من كان منكم يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يصلين العصر إلا في بني قريظة))، فخرج النبي ﷺ بأصحابه ذلك اليوم، وحاصر بني قريظة حتى ألجأهم على النزول على حكم سعد بن معاذ، وكان سعد حليفاً لهم، وكان قد أصابه سهم من المشركين في الخندق فنصب له النبي ﷺ خيمة، فحكم سعد بن معاذ فيهم بأن يقتل النبي ﷺ رجالهم ويسبي ذراريهم ويسترق نساءهم، وقد ذبح المسلمون ذلك اليوم ستمائة رجل من اليهود، واسترقوا جميع نسائهم وذراريهم، وأخذوا جميع أموالهم، وأما باقي اليهود فقد حكم عليهم النبي ﷺ بأن يخرجوا من ديارهم وأموالهم، ولم يسمح لهم من الأمتعة إلا بحمل بعير لكل واحد منهم، وقد كانوا أهل ثراء وأموال طائلة، وقد عاد على المسلمين من بعدهم المال الكثير.

﴿وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ﴾ وقد جعل الله تعالى أموال اليهود غنائم للمسلمين يتقاسمونها فيما بينهم، نعمة من الله سبحانه وتعالى امتن بها على المسلمين فانقلبت أحوالهم من الفقر إلى الغنى، وأما اليهود فكان ذلك عقاباً لهم جزاءً على نقضهم للعهد الذي عاهدوا النبي ﷺ.

﴿وَأَرْضًا لَمْ تَطَئُوهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا۝٢٧﴾ وأخبرهم الله سبحانه وتعالى أنه لا زال هناك أرض قد كتبها لهم، وأنهم لن يدخلوها إلا عندما يحين موعد ذلك، وهي أرض فارس والروم استولى عليها المسلمون بعد فترة من نزول هذه الآية التي تعدهم بذلك.

﴿يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ إِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا۝٢٨ وَإِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنْكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا۝٢٩﴾ كان زوجات النبي ﷺ يكثرن المطالبة له ﷺ بتحصيل أسباب الزينة والترف مع ما هو فيه ﷺ من تبليغ رسالة ربه وما يلقى في سبيلها من الأمور العظام والأهوال الجسام،

وزوجاته بذلك يتسببن في زيادة قلقه والتشويش عليه، فأراد الله تعالىٰ أن يخفف علىٰ نبيه ﷺ مشاغل أزواجه التي تشغله وتشوش عليه وتحزنه فأمره الله تعالىٰ أن يحسم تلك المشاغل ويقطع دابرها بتخيير نسائه كل واحدة منهن بين أمرين: إما أن يخترن الحياة الدنيا وزينتها، فمن اختارت منهن الحياة الدنيا وزينتها فلتأخذ طلاقها من النبي ﷺ وما يلزم لها من المتاع.

وإما أن يخترن الله ورسوله ﷺ والدار الآخرة فإن اخترن ذلك فليصبرن مع النبي ﷺ وليطعنه ويتركن مطالبته، وليحتسبن الأجر من الله إن أحسنَّ العمل والطاعة.

﴿يَانِسَاءَ النَّبِيِّ مَنْ يَأْتِ مِنْكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا﴿٣٠﴾﴾ يخاطب الله سبحانه وتعالىٰ نساء النبي ﷺ ويرشدهن إلىٰ ما يتحتم عليهن فعله، وذلك لأنهن لسن كغيرهن من النساء، فحذرهن الله سبحانه وتعالىٰ أن تلطخ إحداهن عرض النبي ﷺ بعمل أي فاحشة سواءً كانت صغيرة أم كبيرة، وأمرهن أن يحتشمن أشد الحشمة، وهددهن بأن من فعلت ذلك منهن فسيضاعف لها العذاب ضعفين؛ لأن مسئوليتهن ليست كمسئولية بقية النساء فهي أعظم وأشد؛ لاتصالهن برسول الله ﷺ فليحافظن علىٰ كرامة النبي ﷺ أشد المحافظة، وليحرصن علىٰ صون بيت النبي ﷺ الذي هو مهبط الوحي من أن يعرضن أنفسهن لأي كلمة سوء تلحق به.

﴿يَانِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ﴾ ونهاهن الله سبحانه وتعالىٰ عن أن يصدر منهن الكلام الذي لا يصدر إلا من عديمات الحياء وقليلات العفة والمروءة.

﴿وَقُلْنَ قَوْلًا مَعْرُوفًا﴿٣٢﴾﴾ وأمرهن أن لا يتكلمن إلا بما ينبي عن العفة والطهارة والنزاهة.

﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى﴾ وأمرهن بصيانة أنفسهن في بيوتهن حفاظاً على كرامتهن ومروءتهن، وإذا اضطررن إلى الخروج فلا يلبسن ثياب الزينة أو ما يلفت أنظار الناس إليهن.

﴿وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَءَاتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ وأمرهن بالمحافظة على أداء الصلوات وعلى إخراج زكاة أموالهن، والالتزام بطاعة الله تعالى وطاعة رسوله.

﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴿٣٣﴾﴾ وكل تلك التعاليم التي أملاها الله سبحانه وتعالى على نساء النبي صلى الله عليه وآله وسلم لأنه يريد أن يطهر بيت النبي صلى الله عليه وآله وسلم، فلا تلحقه أي كلمة تنافي العفة وتسقط المروءة.

وذلك أن المرأة إذا فعلت شيئاً من ذلك فإن عارها يلحق جميع أهلها وقبيلتها، وأي شيء يصدر من زوجات النبي صلى الله عليه وآله وسلم فإن عار ذلك سيلحق بالنبي صلى الله عليه وآله وسلم وجميع أهل بيته، والله تعالى يريد أن يطهر بيت النبي صلى الله عليه وآله وسلم من كل ما يخل بالكرامة.

﴿وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَى فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ﴾ أمر الله أزواج النبي صلى الله عليه وآله وسلم بذكر ما يتلى في بيوتهن من القرآن وما يسمعن من الحكمة على لسان النبي صلى الله عليه وآله وسلم؛ لأنهن إذا ذكرن ذلك ذكرن ما فرضه الله تعالى عليهن من الفرائض وما أمرهن به رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من الأوامر وشرعه لهن من الشرائع.

﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا﴿٣٤﴾﴾ تلك المواعظ والإرشادات التي خص الله سبحانه وتعالى بها نساء النبي صلى الله عليه وآله وسلم كانت لما قد علم من الحكمة والمصلحة التي اقتضت أن يخص أزواج نبيه صلى الله عليه وآله وسلم بما خصهن به من الأحكام وفرضه عليهن من التكاليف.

﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ

﴿وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ﴾ فالمسلمون: هم الذين استسلموا لله سبحانه وتعالىٰ وانقادوا له.

والمؤمنون: هم المصدقون بالله سبحانه وتعالىٰ ووعده ووعيده وبما جاءت به أنبياؤه ورسله.

والقانتون: هم المطيعون لله تعالىٰ والمستجيبون لأوامره.

والصادقون: أراد الله سبحانه وتعالىٰ بهم المخلصون في إيمانهم وأعمالهم.

والصابرون: أراد الله تعالىٰ علىٰ طاعته وترك معاصيه وما يغضبه.

والخاشعون: هم المتواضعون لله تعالىٰ ولأوامره.

والمتصدقون: هم الذين يخرجون زكاة أموالهم.

والصائمون: هم المؤدون ما أوجب الله سبحانه وتعالىٰ عليهم في شهر رمضان من الصيام علىٰ الوجه الذي أمرهم الله تعالىٰ.

والحافظون فروجهم: هم أهل العفة والنزاهة الذين لا يضعون فروجهم إلا فيما أحل الله سبحانه وتعالىٰ لهم.

والذاكرون الله: هم الذين لا ينسون الله تعالىٰ؛ لأنه لا يعصي الله سبحانه وتعالىٰ إلا الذين نسوه، وأما من كان ذكره علىٰ قلبه فإنه لن يقدم علىٰ معصيته وفعل ما يغضبه؛ لأنه كلما أوشك علىٰ اقتراف معصية تذكر الله سبحانه وتعالىٰ وأمسك عن تلك المعصية، وليس من شرط الذكر أن يكون باللسان؛ لأن المرء ما دام ذاكرا لله تعالىٰ بقلبه مؤدياً لجميع ما أوجب الله عليه بحيث يمنعه ذلك عن فعل المعصية فهذا هو الذاكر لله سبحانه وتعالىٰ في الحقيقة، والدليل علىٰ ذلك أن من يذكر الله تعالىٰ بلسانه لا يسمىٰ ذاكراً له ما دام يفعل المعاصي.

﴿أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴿٣٥﴾﴾ هذا وعد من الله سبحانه وتعالىٰ لأهل هذه الصفات بأنه قد أعد لهم الثواب العظيم وقد غفر لهم جميع ذنوبهم.

﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ فإذا حكم الله تعالىٰ بحكم أو حتم أو ألزم بشيء فليس لأحد أن يعترض علىٰ ذلك، أو يفرض رأيه علىٰ الله سبحانه وتعالىٰ أو علىٰ رسوله، وإنما يجب الامتثال والطاعة من دون أي سؤال، والأمر الذي قد قضاه الله سبحانه وتعالىٰ في هذه الآية هو أن يتزوج النبي ﷺ بامرأة زيد بن حارثة الذي كانوا ينادونه بزيد بن محمد، وكان الله سبحانه وتعالىٰ قد ألقىٰ في قلب زيد كرهها حتىٰ عزم علىٰ تطليقها؛ لحكمة أرادها الله تعالىٰ في ذلك الأمر، وهي ما أراد من محو فكرة التبني هذه، وأن يقطع الناس عن هذه العادة، فإذا كان ذلك الفعل من النبي ﷺ فإنه سيكون له من التأثير أكثر مما لو كان من غيره؛ وأما المشركون فقد قالوا في ذلك الأقاويل، واستغلوا ذلك الموقف لذم النبي ﷺ وهتك عرضه وتنفير الناس عنه فقالوا: إن محمداً تزوج بزوجة ابنه.

﴿وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا ﴿٣٦﴾﴾ ومن لم يمتثل لما حكم الله ورسوله، واعترض علىٰ أوامر الله تعالىٰ ورسوله فقد خرج عن طريق الهدىٰ إلىٰ طريق الضلال والردىٰ.

﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ﴾ يذكر الله تعالىٰ نبيه ﷺ عندما هم زيد بن حارثة بتطليق امرأته، ثم إنه ﷺ سعىٰ إلىٰ الصلح بينهما، مع أنه كان قد عرف أمر الله سبحانه وتعالىٰ، وأنه قد حكم عليه بأن يتزوجها؛ ليقطع عادة الجاهلية وفكرة التبني واتخاذ الأبناء.

﴿وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ﴾ وما كان يخشاه ﷺ من ردة فعل الناس كيف ستكون إذا تزوج زوجة زيد، وما سيفتحه من القيل والقال في ذلك علىٰ نفسه، فقد أراد النبي ﷺ أن لا يدخل في هذا الأمر، ولكن مشيئة الله تعالىٰ فرضت عليه ذلك فرضاً، وقد تحتم عليه الامتثال مهما كان ومهما قيل فيه، فإرادة الله سبحانه وتعالىٰ فوق كل إرادة، وأمره فوق كل أمر.

﴿فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا﴿٣٧﴾﴾ حكم الله تعالى على نبيه ﷺ بذلك الحكم ليرفع عن المؤمنين ذلك الذي كانوا يتحرجون من الوقوع فيه، وليس لأحد أن يعترض عليه أو أن يطعن فيه.

﴿مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا﴿٣٨﴾﴾ ثم أخبر الله سبحانه وتعالى أنه قد رفع الحرج عن نبيه ﷺ في زواجه بطليقة ربيبه زيد بن حارثة، ولو قال الناس في ذلك الأقاويل، فهذه سنة الله تعالى ولا حرج ما دام الله سبحانه وتعالى هو الذي فرض ذلك ولو كان ذلك مستنكراً عند الناس.

ثم أخبر الله سبحانه وتعالى نبيه ﷺ بأن هذا الحكم من تزوج امرأة زيد بن حارثة بعد أن يطلقها زيد فرض واجب عليه، ولا بد أن يمتثل ذلك الأمر.

﴿الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ﴾ يخبر الله سبحانه وتعالى نبيه ﷺ بأن يتحلى بصفات الأنبياء، ولا يخشى في الله أحداً مهما كان.

﴿وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا﴿٣٩﴾﴾ وما دام أن النبي ﷺ لم يغضب الله سبحانه وتعالى ولم يفعل ما يوجب سخطه فلا يخش أحداً في طاعة الله تعالى وفعل ما يرضيه، ولو كان ذلك لا يرضي الناس فالله تعالى هو الذي سيحاسبه على ذلك.

﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ﴾ يخاطب الله سبحانه وتعالى المؤمنين ويخبرهم بأن محمداً ليس أباً لزيد بن حارثة الذي كانوا يدعونه: زيد بن محمد.

يريد الله سبحانه وتعالى أن يقطع الناس هذه العادة التي رسخت في أذهان المؤمنين، وأن يقتنعوا بأن ذلك لا يصح.

﴿وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا۝٤٠ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا۝٤١﴾ يحث الله سبحانه وتعالى المؤمنين على الإكثار من ذكره، وأن يملئوا قلوبهم بتذكر عظمته وقوته ونعمه، وأن يعترفوا بإلاهيته، وأنه الواحد في الإلهية الذي يستحق العبادة، وأن طاعته واجبة، وأن يتذكروا سخطه وعقابه، وأن يشغلوا أوقاتهم بذلك، وذلك أن من نسي الله سبحانه وتعالى فإنه سيكون قريباً من اقتراف المآثم والمعاصي.

﴿وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا۝٤٢﴾ والتسبيح لله تعالى هو تنزيهه، وقد أراد الله سبحانه وتعالى بذلك المداومة على أداء ما افترض عليهم من الصلوات الخمس.

﴿هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا۝٤٣﴾ فهو الذي يستحق منكم الذكر والتسبيح لما يشملكم من رحمته، ولما يغذيكم من نعمه، وأيضاً فإن الملائكة تستغفر لكم وتدعوا لكم، وأن ذلك من رحمته تعالى أن حنن الملائكة على عباده، وليخرجهم من ظلمات الشرك والجهل والمعاصي إلى نور الحق والهدى، ولا زال الله تعالى يتغمد عباده برحمته، ويتعاهدهم بلطفه وتسديده في كل أوقاتهم.

﴿تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا۝٤٤﴾ الضمير عائد على المؤمنين، يبشرهم الله سبحانه وتعالى بأنه سوف يحييهم يوم القيامة، وكذلك الملائكة أيضاً ستسلم عليهم وستقبل عليهم وفود الملائكة في الجنة بالتهاني والتبريكات، وأعظم بها من بشارة عندما يعرف ما سيلقاه من التكريم والتعظيم.

﴿يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا۝٤٥ وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا۝٤٦﴾ شاهداً يوم القيامة على أمته التي أرسل إليها، وذلك أن العصاة يوم القيامة ستختلق الأعذار والافتراءات بأنه لم يبلغهم أو ينذرهم أحد، وأنها لم تصل إليهم دعوة النبي صلى الله عليه وآله وسلم، فتشهد عليهم الأنبياء بكذبهم في تلك الادعاءات.

وكذلك أرسله ليبشر من آمن بالله سبحانه وتعالى وعمل الأعمال الصالحة بالثواب والأجر العظيم عند الله تعالى، ولينذر من كفر بالله أو خرج عن حدوده ولم يتب من ذلك بالعذاب الشديد في نار جهنم خالدين فيها أبداً.

وكذلك داعياً للناس إلى الله تعالى وإلى ما فيه خلاصهم ونجاتهم، وكذلك كل ما يضيء للناس طريق الهدى حتى يبصروها ويسيروا فيها.

﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا ﴿٤٧﴾﴾ أمر الله تعالى نبيه ﷺ بأن يبشر المؤمنين ويرغبهم فيما عند الله من الثواب العظيم الذي أعده لهم، ليكون ذلك دافعاً لهم إلى المزيد من اكتساب الأعمال الصالحة.

﴿وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَدَعْ أَذَاهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴿٤٨﴾﴾ واستمر في تبليغ ما أمرت بتبليغه، ولا تبال بما تلقاه من صد المشركين عنك واستهزائهم بك وأذيتهم لك، فإن الله سبحانه وتعالى سيكفيك شرهم وأذاهم.

﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٤٩﴾﴾ إذا عقد الرجل النكاح على امرأة ثم طلقها قبل أن يخلوا بها فلا يجب على هذه المرأة أن تعتد، وأما تمتيعها فإن كان قد سمى لها المهر فيجب لها نصف المهر، وإن لم يكن قد سمى لها مهراً فعلى الأقل يمتعها بكسوة مثلها من مثله.

﴿يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ اللَّاتِي ءَاتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ﴾ فمن كان قد أعطاها مهرها من النساء وقد أصبحت تحته فهي حلال له؛ أراد الله سبحانه وتعالى أن يقر نبيه ﷺ في هذه الآية على من قد أمهرهن من النساء وقد أصبحن تحته فلا ينكح غيرهن بعد نزول هذه الآية.

وأما ما أفاء الله سبحانه وتعالى عليه من الغنائم فله أن يتسرّى ما أراد منهن.

﴿وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّاتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَالَاتِكَ اللَّاتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ وَامْرَأَةً مُؤْمِنَةً إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَهَا خَالِصَةً لَكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ وأيضاً قد أحل الله سبحانه وتعالى لنبيه ﷺ نكاح من أراد من هؤلاء إن أراد ذلك.

ثم أخبر الله سبحانه وتعالى نبيه ﷺ أنه قد أحل له تلك المرأة التي وهبت نفسها له، وأن له أن يأخذها إن أراد من دون مهر أو صداق، وأن هذا حكم اختصه الله تعالى به من بين سائر المؤمنين، غير أن النبي ﷺ لم يتزوج بهذه الواهبة نفسها وزوجها لرجل آخر.

﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِي أَزْوَاجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿٥٠﴾﴾ أراد الله سبحانه وتعالى أن المؤمنين كانوا يعرفون ما يجب عليهم من مهور أزواجهم، ويعرفون ما يلزم لهن من الحقوق، وكذلك كانوا يعلمون بما أحل الله تعالى لهم من الإماء وقد أقرهم على ذلك.

ثم أخبر الله سبحانه وتعالى نبيه ﷺ أنه قد أحل له هؤلاء النسوة اللاتي كن تحته عند نزول هذه السورة؛ وقد مات النبي ﷺ وتحته تسع نساء، و قد اختص بهذا الحكم من دون الناس جميعاً.

﴿تُرْجِي مَنْ تَشَاءُ مِنْهُنَّ وَتُؤْوِي إِلَيْكَ مَنْ تَشَاءُ﴾ أراد الله سبحانه وتعالى أنه قد خصه بهذا الحكم فله أن يفضل من شاء منهن، ولا يجب عليه أن يعدل في المبيت.

﴿وَمَنِ ابْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ﴾ ومن أردت أن تنعزل عن المبيت عندها فلا حرج عليك في ذلك.

﴿ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلَا يَحْزَنَّ وَيَرْضَيْنَ بِمَا ءَاتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا ﴿٥١﴾﴾ رخص الله سبحانه وتعالى لنبيه ﷺ عدم العدل بين نسائه إن أراد، ولكنه اختار الأفضل عند الله تعالى وهو العدل والقسم بالسوية بين نسائه.

﴿لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ وَلَا أَنْ تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ رَقِيبًا﴿٥٢﴾﴾ كان تحت النبي صلى الله عليه وآله وسلم تسع نساء عندما نزلت عليه هذه الآية فحرم عليه الزيادة على ذلك، وكذلك حرم الله تعالى أن يطلق أو يستبدل مهما كان، وأما ما يملك من الإماء فلا حرج عليه في ذلك.

﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا وَلَا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ﴾ نهى الله سبحانه وتعالى المؤمنين عن الدخول على النبي صلى الله عليه وآله وسلم في بيته إذا دعاهم إلى الطعام إلا بعد أن يستأذنوا، وأمرهم أن ينتظروا خارج بيته حتى يحصل الطعام وينادي عليهم، وأمرهم أيضاً إذا أكلوا وشبعوا أن يسرعوا بالخروج، وأن لا يجلسوا بعد ذلك أو يتحدثوا ويسترسلوا في الحديث في بيته.

﴿إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ﴾ ثم ذكر الله سبحانه وتعالى السبب في تلك التعليمات وهو الحرص على عدم إلحاق الأذية بالنبي صلى الله عليه وآله وسلم لما يكون في ذلك من تعطيله عن كثير من الأعمال التي قد وزعها ورتبها على ساعات اليوم والليلة، ولم يكن يجلس مع أهله إلا في ساعات مخصوصة لكثرة مشاغله وأعماله.

﴿وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ﴾ وقد أرشدكم الله تعالى إلى هذه التعاليم والآداب، في حق نبيكم صلى الله عليه وآله وسلم.

﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ﴾ وتأدبوا عند زوجات النبي صلى الله عليه وآله وسلم وفي حضرتهن، وليكن حديثكم معهن من وراء حجاب حفاظاً على حرمتهن، وإعظاماً لحقهن وحق نبيكم صلى الله عليه وآله وسلم.

﴿ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ﴾ وأن ذلك أزكى لكم، وأبعد عن الوقوع في الفتنة.

﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ﴾ ولا ينبغي لكم ولا يجوز أن تؤذوا رسول الله بفعل خلاف هذه التعاليم.

﴿وَلَا أَنْ تَنْكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا﴾ ولا يحل لأحد بعد موته أن يتزوج من إحدى نسائه، حفاظاً على حرمة نبيهم، فشأنه ليس كشأن سائر الناس، وأيضاً لكون أزواجه أمهاتكم أيها المؤمنون.

﴿إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمًا۝٥٣﴾ وأن من فعل ذلك فقد ارتكب جريمة كبيرة عند الله سبحانه وتعالى.

﴿إِنْ تُبْدُوا شَيْئًا أَوْ تُخْفُوهُ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا۝٥٤﴾ فهو عالم بما في قلوبكم ومطلع على نياتكم، وسيجازيكم على كل ذلك، فاحذروا عذابه وسخطه وأصلحوا نياتكم.

﴿لَا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِي ءَابَائِهِنَّ وَلَا أَبْنَائِهِنَّ وَلَا إِخْوَانِهِنَّ وَلَا أَبْنَاءِ إِخْوَانِهِنَّ وَلَا أَبْنَاءِ أَخَوَاتِهِنَّ وَلَا نِسَائِهِنَّ وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ وَاتَّقِينَ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا۝٥٥﴾ ثم أخبر الله سبحانه وتعالى في هذه الآية أنه قد رفع الجناح والحرج على نساء النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأباح لهن أن يدخل عليهن آباؤهن وأبناؤهن وإخوانهن وذوو أرحامهن والنساء المؤمنات وما ملكن من الإماء.

و﴿نِسَائِهِنَّ﴾: المراد بهن نساء المؤمنين، والمراد بـ﴿مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ﴾: من الإماء لا من الرجال.

وقد شدد الله سبحانه وتعالى على نساء النبي صلى الله عليه وآله وسلم في الحفاظ على هذه التعاليم والإرشادات، وحذرهن عن مخالفة شيء من ذلك لما للنبي صلى الله عليه وآله وسلم من الحرمة والمكانة عنده.

﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا۝٥٦﴾ ينبه الله تعالى المؤمنين على المنزلة العظيمة والمكانة الرفيعة التي جعلها للنبي صلى الله عليه وآله وسلم ليحفظوا حرمته وكرامته في نسائه وأهله، وليعاملوه بما يستحق من التشريف والاحترام.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُهِينًا﴿٥٧﴾﴾ وهذا تهديد من الله تعالى لمن آذى نبيه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، وأن من آذاه فقد آذى الله سبحانه وتعالى، وسواء كانت الأذية في زوجاته أو في دينه أو في عرضه، أو في أي وجه من أوجه الأذية، وأن من فعل ذلك فقد استحق لعنة الله سبحانه وتعالى وعرض نفسه لغضبه وسخطه وعذابه في نار جهنم.

﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا﴿٥٨﴾﴾ وكذلك من آذى مؤمناً أو مؤمنة عن غير سبب أو مبرر، لا على وجه الاقتصاص فإنه سيتحمل من الإثم ما يوجب غضب الله وسخطه، ويستوجب عذابه في نار جهنم؛ لأنه قد فعل كبيرة من الكبائر.

﴿يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيبِهِنَّ﴾ كان النساء في زمان النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ يخرجن إلى الخلاء لقضاء حاجاتهن بعد المغرب بعيداً عن بيوتهن، وكان أهل الفسق والفجور وأهل الدناءة يقفون في طريقهن ويتعرضون لهن، فأمر الله سبحانه وتعالى نبيه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ أن يأمر نساءه ونساء المؤمنين بأن يضعن الجلابيب السود على وجوههن وصدورهن ليتميزن عن الإماء وليعرفهن أولئك الذين يقفون في طريقهن فلا يتعرضون لهن.

﴿ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴿٥٩﴾﴾ وكان المنافقون يعلمون أن من تعرض لحرة بأي أذى فإن أهلها وأولياء أمرها لن يسكتوا على ذلك.

﴿لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا﴿٦٠﴾﴾ هذا تهديد من الله سبحانه وتعالى لأولئك المنافقين وغيرهم من الذين يبثون الرعب وينشرون الفوضى عند حصول الحرب في قلوب الناس وبين أوساطهم؛ لأن ذلك يؤدي إلى تثبيط المقاتلين

وتشتيت عزائمهم وتخذيلهم عن النبي ﷺ، وكذلك كل من يلحق الأذى بالنبي ﷺ والمسلمين بأنهم إن لم ينتهوا عن ذلك ليسلطن عليهم النبي ﷺ والمسلمين فيبيح لهم قتلهم وطردهم من المدينة.

﴿مَلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِّلُوا تَقْتِيلًا۝٦١﴾ وأن لعنة الله سبحانه وتعالى ستطاردهم أينما حلوا، وسيسلط الله سبحانه وتعالى أهل كل بلد ينزلون فيها عليهم فلا يتركونهم يستقرون أبداً.

﴿سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ﴾ ثم أخبر الله سبحانه وتعالى أن هذه سنته في كل من يلحق الأذى بأنبيائه وبالمؤمنين في كل زمان، وذلك أنه يسلط عليهم ويبيح دماءهم مما يؤدي إلى قتلهم واستئصالهم وطردهم.

﴿وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا۝٦٢﴾ فليحذر أولئك المنافقون والمرجفون والذين يلحقون الأذى بنبيه ﷺ أن يصيبهم مثل ما أصاب الذين من قبلهم ممن آذوا أنبياءهم.

﴿يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ أخبر الله سبحانه وتعالى نبيه ﷺ أنه إذا سأله سائل عن موعد القيامة فليجب عليهم بهذا الجواب، وهو: أن موعدها مما يختص الله سبحانه وتعالى بعلمه، ولم يطلع عليه أحداً من خلقه لا من أهل السماء ولا من أهل الأرض.

﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا۝٦٣﴾ وقد يكون اقترب موعد حلولها، وأما موعدها بالتحديد فلا يعلم بذلك أحد.

﴿إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكَافِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا۝٦٤ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا۝٦٥ يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَالَيْتَنَا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَا۝٦٦﴾ وأما الكافرون فقد لعنهم الله تعالى وأخزاهم في الدنيا، وأما في الآخرة فذلك أشد وأطم في نار جهنم خالدين فيها أبداً، ولو لم يكن لهم من العذاب إلا تلك الحسرة والندامة التي تملأ قلوبهم في ذلك الموقف لكفتهم، ناهيك عن أنواع العذاب الذي سيجدونه.

﴿وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا﴿٦٧﴾﴾ يذكرهم الله تعالى بالموقف الذي سيقفونه يوم القيامة عندما يلقون اللوم على كبرائهم وسادتهم الذين اتبعوهم، ولكن ذلك لن ينفعهم عند الله سبحانه وتعالى، فقد خلق لهم العقول التي يميزون بها الحق من الباطل فلماذا لم يتبعوا عقولهم وما أرشدتهم إليه.

﴿رَبَّنَا ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا﴿٦٨﴾﴾ بسبب إضلالهم وإغوائهم لنا ضاعف لهم العذاب والعنهم في جهنم.

﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ ءَاذَوْا مُوسَى فَبَرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهًا﴿٦٩﴾﴾ يحذر الله سبحانه وتعالى المسلمين أن لا يسلكوا سبيل بني إسرائيل الذين كانوا ينسبون إلى موسى عليه السلام السوء والفحشاء ويلصقون به التهم الباطلة التي هو بريء منها، وأن يحذروا أن يفعلوا مع محمد صلى الله عليه وآله وسلم مثل ما فعل أولئك، وذلك كقذف عائشة ورميها بالفاحشة، وخيانته في تقسيم الغنائم وغير ذلك مما يلطخ عرض النبي صلى الله عليه وآله وسلم ويحط منزلته بين الناس ويسبب النفرة عنه.

﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا﴿٧٠﴾﴾ احذروا سخط الله سبحانه وتعالى وغضبه من قول مثل تلك الأكاذيب والافتراءات، وتحروا قول الحق وليكن الصدق هو الغرض الذي تسددون أقوالكم إليه.

﴿يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴿٧١﴾﴾ إذا اتقيتم الله سبحانه وتعالى وتحريتم قول الصدق فإن الله تعالى سيصلح دينكم ودنياكم وسيغفر لكم ذنوبكم وسيئاتكم، واعلموا أن طاعته تعالى ورسوله صلى الله عليه وآله وسلم هي الطريق الموصلة إلى الفوز العظيم.

﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴿٧٢﴾﴾ الأمانة هي تكاليف الإسلام وشرائعه التي أرسل الله تعالى بها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلى الناس، وقد

صور الله تعالى لنا عظمة دين الإسلام وشرائعه فقال: إنه عرض هذه الأمانة التي هي دين الإسلام وشرائعه على السماوات والأرض والجبال فامتنعت من قبولها وخافت من حملها فصورها الله تعالى لنا بهذه الصورة من أجل أن يملأ قلوبنا تعظيماً لها، ولأن نحرص غاية الحرص على القيام بها وحملها حق حملها وأن لا تفرط في صغير أحكامها ولا كبيرها.

﴿لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿٧٣﴾﴾ أخبرنا الله تعالى هنا بالحكمة التي من أجلها كلف عباده بشرائع الإسلام وأحكام الدين فقال تعالى إنه كلف عباده من أجل أن يجازي عباده على أعمالهم في الدار الآخرة فمن أطاعه أدخله الجنة، ومن عصاه أدخله النار.

❁❁❁❁❁

سورة سبأ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ ﴿١﴾﴾ لا يستحق الحمد والثناء والمدح إلا الله سبحانه وتعالى وحده، دون غيره من الآلهة التي يدعونها ويعبدونها من دون الله، فليست إلا أحجاراً ينحتونها بأيديهم، ولا تستحق شيئاً من التعظيم والتقديس.

ويستحق الله سبحانه وتعالى الحمد لأنه وحده المسيطر على السماوات والأرض وما فيهما بقدرته، وهو وحده المتفرد بجلائل النعم ودقائقها على جميع الخلق، وكذلك يستحقه في الآخرة لأنه مالك يوم الدين وجميع نعم الآخرة من الثواب والجزاء بيده وحده.

ثم وصف نفسه بالحكيم؛ لأن جميع أفعاله لا تصدر إلا على مقتضى الحكمة وما تدعوا إليه المصلحة، وكل ما في السماوات وما في الأرض قد خلقه الله

سبحانه وتعالىٰ لحكمة عظيمة، ولم يخلق شيئاً لغير فائدة أبداً، ومنافع مخلوقاته وفوائدها كلها تعود علىٰ عباده من الجن والإنس والملائكة، ثم وصف نفسه بأنه الخبير أي العالم بكل ما في السماوات وما في الأرض وكل ما يحدث فيهما، ولذا عقب ذلك بقوله:

﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ﴾ أي كل ما اختفىٰ بداخلها وتوارىٰ داخل أحشائها وبواطنها ودخل فيها.

﴿وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ﴾ وكذلك يعلم بكل ما يخرج منها من النبات والحيوان ونحو ذلك لا يخفىٰ عليه خافية، وكذلك بكل ما ينزل من السماء من الخير والشر.

﴿وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا﴾ وكذلك لا يخفىٰ عليه شيء مما يصعد إلىٰ السماء من أعمال العباد.

﴿وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ۝﴾ ثم وصف الله سبحانه وتعالىٰ نفسه بأنه الرحيم بعباده، ومن رحمته بهم أنه لا يأخذهم بذنوبهم، ويمهلهم ويتأنىٰ بهم لعلهم يرجعون إليه ويتوبون.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ﴾ كان المشركون عندما ينذرهم النبي ﷺ ويحذرهم غضب الله تعالىٰ وما أعد لهم من العذاب الشديد يوم القيامة- ينكرون البعث والنشور والحساب والجزاء، وكل ما يأتيهم به محمد ﷺ من أمر الساعة وشأنها ينكرونه ويقولون لا حقيقة له ولا أساس له من الصحة.

﴿قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ﴾ فأمره الله سبحانه وتعالىٰ أن يخبرهم بأنه لا بد من حدوثها وإتيانها، وأن يقسم لهم علىٰ ذلك، وأنهم سيبعثون وسيجازيهم الله سبحانه وتعالىٰ علىٰ أعمالهم صغيرها وكبيرها.

﴿عَالِمِ الْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ﴾ أقسم النبي لهم بربه الذي هو عالم بجميع الأمور الغيبية وبما سيكون في المستقبل، وأنه الذي لا يخفى عليه شيء في السماء ولا في الأرض حتى مثقال الذرة فهو في علمه.

﴿وَلَا أَصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ۝٣﴾ ولا أصغر من مثقال الذرة فهو محيط بعلمه ولا يخفى عليه، وفي ذلك أيضاً تحذير للمشركين بأن الله سبحانه وتعالى محص لجميع أعمالهم، وأنه سيبعثهم وسيجازيهم على جميع أعمالهم صغيرها وكبيرها.

﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ۝٤﴾ يخبرهم الله أن الساعة سوف تأتي لغرض عظيم وهو أن يجازي أولئك الذين آمنوا بالله سبحانه وتعالى وعملوا الأعمال الصالحة على أعمالهم، بالمغفرة والرزق الكريم في جنات النعيم ويجازي المشركين والمكذبين على أعمالهم، وهذه هي الحكمة من البعث والحساب، وإلا لوصف الله تعالى بالظلم والعبث لو لم يبعث المكلفين للجزاء والحساب.

﴿وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي ءَايَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِنْ رِجْزٍ أَلِيمٌ۝٥﴾ وليجزي أولئك الذين جدوا واجتهدوا في محاربة أنبيائه ورسله وسعوا في إفساد آياته وحججه، ظناً منهم أنهم سيغلبون الله تعالى بفعلهم ذلك.

﴿وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقَّ وَيَهْدِي إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ۝٦﴾ ثم أخبر الله سبحانه وتعالى نبيه ﷺ بأن المؤمنين الذين هم أولو العلم هم الذين يعتقدون بصدق ما جاء به النبي ﷺ من الدين والقرآن، وأنه الذي يدلهم على طريق الهدى والصواب، وأما أولو الجهل والضلال فهم بعيدون عن ذلك كافرون بما جاء به محمد ﷺ.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَى رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ۝٧﴾ الذين كفروا هم مشركو مكة كانوا يسخرون من

النبي ﷺ ومن الدين الذي جاء به، فكانوا يقولون لبعضهم البعض: هل تريدون أن نخبركم بالرجل الذي يدعي أن عظامكم ستعود إلى الحياة بعد أن قد صارت تراباً ورفاتاً؟ وأنكم ستبعثون بعد موتكم؟

فإن ذلك الرجل هو محمد فانظروا إلى سخافة عقله عندما يقول ذلك القول، استخفافاً بعقله، وليروا الناس أنه سخيف العقل، ولينفروا الناس عن دينه ودعوته.

﴿أَفْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَمْ بِهِ جِنَّةٌ﴾ ويسأل بعضهم بعضاً عن قول محمد ﷺ بالبعث بعد الموت، هل صدر ذلك منه افتراءً على الله الكذب أم أنه قد أصيب بالجنون؟ فرد الله سبحانه وتعالى عليهم فقال:

﴿بَلِ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ فِي الْعَذَابِ وَالضَّلَالِ الْبَعِيدِ۝٨﴾ أجاب الله سبحانه وتعالى عليهم بأن ما نسبوه إليه ﷺ بعيد عن الحق والصواب فليس بمفتر على الله وليس به جنة، وأنهم هم الذين يفترون على الكذب، وهم الذين يستحقون عذاب الله تعالى وسخطه لبعدهم عن الحق والهدى، وأنكم أيها المشركون لو نظرتم وتفكرتم في ذلك لعرفتم أنه الحق، وأنه لا بد أن يكون هناك بعث وحساب.

﴿أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنْ نَشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِنَ السَّمَاءِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ۝٩﴾ ثم استنكر الله سبحانه وتعالى عليهم استبعادهم لقدرته تعالى على إحيائهم وبعثهم بعد موتهم، فلماذا لا ينظرون إلى ما بين أيديهم من الآيات التي يرونها ويشاهدونها أمام أعينهم ناطقة بقدرة الله تعالى على ذلك.

وأنه كما خلق هذه الأشياء التي يرونها من العدم ووجدت بعد أن لم تكن- سيقدر حتماً على إعادة خلقهم مرة أخرى، وأنهم لو نظروا في ذلك وتفكروا لعرفوا صحة ذلك، وأنه ليس ببعيد على قدرة الله سبحانه وتعالى.

ثم أخبر الله سبحانه وتعالى أنه لن ينتفع بآياته هذه إلا المؤمنون المتواضعون لقبول الحق، وأما أولئك المشركون فقد ملئت قلوبهم كبراً ولن يؤمنوا ويصدقوا بالبعث والحساب أبداً مهما جاءهم من الآيات.

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُدَ مِنَّا فَضْلًا يَاجِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ﴾ ثم قص الله سبحانه وتعالى على نبيه صلى الله عليه وآله وسلم بعض أخبار نبيه داوود عليه السلام فأخبره أنه قد أنعم عليه بنعم كثيرة وعظيمة، وأنه قد جعل الجبال والطير تردد معه تسبيح الله سبحانه وتعالى وتحميده، آية منه اختص بها نبيه داوود عليه السلام وميزة فضله بها على سائر الأنبياء عليهم السلام.

﴿وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ ۝١٠ أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ﴾ وكذلك أنعم الله سبحانه وتعالى عليه بأن علمه كيف يصوغ الحديد ويلينه، وقد علمه كيفية صنع الدروع التي تلبس في الحرب لتحمي من ضرب السيوف وطعن الرماح، فكان يعملها على شكل حلقات صغيرة ويربط بعضها في بعض حتى تصير على شكل لباس، وكان داوود هو أول من صنع الدروع.

﴿وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ۝١١﴾ ثم أمر الله سبحانه وتعالى نبيه داوود وأهل بيته أن يشكروه على هذه النعم التي اختصهم بها، وأن يعملوا الأعمال الصالحة.

﴿وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ﴾ ثم أخبر الله سبحانه وتعالى نبيه صلى الله عليه وآله وسلم بأنه قد سخر لسليمان الريح تجري بأمره، وقد جعلها تحمله في الهواء مسيرة شهر ذهاباً وإياباً، مثل الطائرات في زماننا هذا.

﴿وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ﴾ وكذلك أنعم الله سبحانه وتعالى عليه بأن علمه كيف يذيب النحاس، ثم يصيغه ويصنعه كيفما أراد.

﴿وَمِنَ الْجِنِّ مَنْ يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَمَنْ يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ ۝١٢﴾ وأيضاً سخر الله تعالى له الجن لخدمته ومنفعته، وكان من خرج منهم عن طوعه وأمره فإن الله سبحانه وتعالى يحرقه ويعذبه بالنار جزاءً على ذلك.

﴿يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَحَارِيبَ وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَاسِيَاتٍ﴾ فقد سخرهم الله تعالى لخدمته، والمحاريب هي دور العبادة، والجفان هي الأواني الكبيرة، والقدور الراسيات هي أيضاً الأواني الكبيرة، وكانوا يستخدمونها لطعام الجيوش ونحوهم من الجموع الكثيرة.

﴿اعْمَلُوا ءَالَ دَاوُدَ شُكْرًا﴾ أنعم الله سبحانه وتعالى على آل داوود بهذه النعم ثم أمرهم أن يؤدوا حق شكرها بتأدية ما أمرهم الله به من طاعته وعبادته.

﴿وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ۝١٣﴾ ثم أخبر الله سبحانه وتعالى أنه لا يشكره إلا القليل من عباده، وأن العادة فيهم أن من أسبغ الله سبحانه وتعالى عليه نعمه طغى وتكبر على الله سبحانه وتعالى، وسخر تلك النعم فيما يغضب الله سبحانه وتعالى ويوجب سخطه: ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيَطْغَى۝٦ أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى۝٧﴾ [العلق].

﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَى مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنْسَأَتَهُ﴾ وعندما توفى الله سبحانه وتعالى نبيه سليمان وأخذ ملك الموت روحه وهو قائم متكئ على عصاه، لا زال على هذه الحالة واقفاً والشياطين قائمة على حراسته وخدمته لمدة عام كامل كما قيل، فلم تعرف بموته إلا عندما أكلت الأرضة العصا فسقط سليمان عليه السلام.

﴿فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَنْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ۝١٤﴾ ولو كانت الشياطين تعلم الغيب كما تدعي لما لبثت على تلك الحالة من الخدمة لسليمان عليه السلام، ولتركت سليمان وذهبت من بين يديه.

﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ﴾ يقص الله سبحانه وتعالى على نبيه صلى الله عليه وآله وسلم هذه القصص والأخبار لما فيها من الآيات والعبر للمعتبرين، وليعرف المشركون صدق نبوته عندما يخبرهم بهذه الأمور الغيبية على الرغم من أنهم يعرفون أنه لم يخالط أهل الكتاب أو يتعلم لا منهم ولا من غيرهم وأن ما جاء به من عند الله سبحانه وتعالى، وهنا أوحى الله

سبحانه وتعالىٰ لنبيه ﷺ بما جرىٰ علىٰ أهل سبأ بعد أن أنعم عليهم وأوسع عليهم في نعمه وجعل لهم البساتين والثمار المتنوعة التي لا تنقطع، وكانت أراضيهم علىٰ ضفاف واد كبير يشق بلادهم من طرفها إلىٰ طرفها، والبساتين عن يمين وشمال هذا الوادي يسقونها متىٰ أرادوا.

﴿كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ۝١٥﴾ وقد أنعم الله سبحانه وتعالىٰ عليهم بهذه النعم وقلبهم فيها وأمرهم مقابل ذلك أن يقابلوا نعمه هذه بأداء حقها من الشكر، وأن يشكروه علىٰ ما جعل لهم من الأمن والأمان، وما أنعم عليهم من خصوبة أراضيهم، وأخبرهم أنهم إن شكروه علىٰ نعمه فسيغفر لهم ذنوبهم ويزيدهم من نعمه.

﴿فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ﴾ ولكنهم بدل أن يقابلوا نعم الله سبحانه وتعالىٰ عليهم بالشكر والطاعة طغوا وتكبروا علىٰ الله سبحانه وتعالىٰ وكفروا بنعمه عليهم فأخرب عليهم السد الذي كان يحجز مياه الأمطار فأغرق بلادهم ومزارعهم ودمرها، ودمر مساكنهم وجميع أموالهم.

﴿وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ۝١٦﴾ ثم إن الله سبحانه وتعالىٰ أبدلهم بذلك النعيم وتلك البساتين وأنواع الثمار- بساتين الخمط وأشجار الأثل والسدر التي لا تحمل أي ثمر.

﴿ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ۝١٧﴾ وكان ما نزل بهم جزاءً علىٰ كفرهم بنعم الله تعالىٰ وطغيانهم وتمردهم علىٰ الله سبحانه وتعالىٰ؛ لأن الله تعالىٰ لا يسلب نعمه عن أحد إلا بسبب معاصيهم، فلو شكروا نعم الله عليهم لما سلبهم شيئاً ولزادهم من خيره ونعمه ما داموا شاكرين لها.

﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ۝١٨﴾ ثم ذكر الله سبحانه وتعالىٰ نعمة أخرىٰ أنعم بها علىٰ أهل سبأ، وذلك أنه سهل لهم طريق أسفارهم وتنقلاتهم

من اليمن إلى بلاد الشام، فقد جعل لهم خلال تنقلاتهم تلك قرى كثيرة على مراحل محدودة ليتهيأ للمسافر أن يمسي في قرية ويغدي في قرية ويعشي في قرية على طول تلك الطريق، وكل ذلك كان بتدبير منه تعالى لتسهيل طرق أسفارهم وتأمينها وتوفير ما يحتاجون إليه من الزاد والماء في سفرهم، نعمة منه تعالى أنعم بها عليهم ويجب عليهم شكره عليها.

﴿فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا﴾ ثم إنهم بطروا وكفروا هذه النعمة العظيمة، وطلبوا من الله سبحانه وتعالى أن يزيل هذه القرى التي تسهل تنقلاتهم، أرادوا بذلك أن يظهروا قوتهم وقدرتهم على قطع الفيافي والقفار من دون ما يؤمن طريقهم ليثبتوا أنهم قادرون على تأمين أنفسهم، وليعرف الناس قوتهم وقدرتهم على حماية أنفسهم وتوفير الزاد والماء حيث لا يوجد الزاد والماء.

﴿وَظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ بعصيان الله وكفر نعمته.

﴿فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ﴾ ثم إن الله سبحانه وتعالى عذبهم وفرقهم، وشتت شملهم في جميع البلدان، فناس منهم سكنوا أرض عمان، وأناس في المدينة، وبعضهم في مصر، وبعضهم في المغرب، وبعضهم في العراق، ولم تبق بلاد إلا وقد استوطنها أناس منهم، ولم يبق من أثرهم إلا ما يتحدثه الناس في مجالسهم بأنه كان هناك قوم يسكنون تلك البلاد و...و...و..

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴿١٩﴾﴾ ثم أخبر الله سبحانه وتعالى أن فيما جرى على أهل سبأ لعبرة لمن أراد أن يعتبر ويعرف كيف يكون جزاء كفر نعم الله تعالى.

ووصف الصبار بالشكور فيه دلالة على أنه لا بد من الصبر على أداء شكر الله تعالى، ومجاهدة النفس وقمع هواها.

﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴿٢٠﴾﴾ إبليس عندما أغوى آدم وأخرجه من الجنة أقسم إنه ليغوين جميع عباده إلا

المخلصين منهم؛ فأخبر الله سبحانه وتعالىٰ هنا أن إبليس قد صدق في ظنه ذلك الذي أقسم عليه، وأن من جملة من أغواهم أهل سبأ هؤلاء فقد أضلهم جميعاً وأغواهم إلا القلة القليلة من المؤمنين فلا طريق له إليهم.

﴿وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِمْ مِنْ سُلْطَانٍ﴾ وخروجهم عن شكر الله وطاعته، واتباعهم لإبليس كان باختيارهم ومشيئتهم واستجابة لهوىٰ أنفسهم، فلم يكن له أي تسلط أو قدرة علىٰ إلجائهم إلىٰ الخروج رغماً عنهم.

﴿إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يُؤْمِنُ بِالْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ وَرَبُّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ﴿٢١﴾﴾ وحكمة الله سبحانه وتعالىٰ قد اقتضت التخلية بينه وبينهم، وأن يجعل اختيارهم موكولاً إلىٰ أنفسهم يختارون ما أرادوا ويسلكون أي طريق أرادوا، وهذه التخلية امتحان واختبار منه لهم ليتميز من يؤمن بالله سبحانه وتعالىٰ من غيره.

﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ﴿٢٢﴾﴾ ثم أمر الله سبحانه وتعالىٰ نبيه صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ أن يأمر المشركين بأن يدعوا تلك الأصنام التي يزعمون أنها آلهة من دون الله تعالىٰ لينفعوهم، وأنهم مهما دعوهم فلا يملكون مثقال ذرة لا في السماء ولا في الأرض، فكل ما فيهما لله سبحانه وتعالىٰ وحده ولا نصيب لتلك الآلهة التي يعبدونها في شيء من ذلك؛ وهو وحده المسيطر علىٰ السماوات والأرض وما فيهما بقدرته، فلا ظهير له ولا شريك يحتاج إليه في تدبير أمرهما وشؤونهما، فلماذا يعبدون تلك الآلهة وهم يعلمون بضعف آلهتهم تلك وعدم قدرتها علىٰ شيء من ذلك؟

﴿وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ﴾ ثم أخبر الله سبحانه وتعالىٰ أنه لن يكون هناك شفاعة لأحد إلا لمن أذن الله سبحانه وتعالىٰ بشفاعتهم من الأنبياء ومن يقوم مقامهم، وذلك أن المشركين كانوا يقولون: ﴿هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ [يونس:١٨]، فأجاب الله سبحانه وتعالىٰ عليهم بهذا الجواب.

﴿حَتَّى إِذَا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴿٢٣﴾﴾ عندما يبعث الله سبحانه وتعالى الناس جميعاً عندها سيستولي الفزع والخوف الشديد على أولئك المشركين والمكذبين، وستصيبهم الدهشة والذهول فترة من الزمان بعد مبعثهم، فإذا انتهوا من تلك الدهشة فإنهم سيسألون هذا السؤال، فيأتيهم الجواب بأن الحق هو ما كان الله سبحانه وتعالى قد وعد به من الثواب للمؤمنين وتعذيب المشركين في نار جهنم.

﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ﴾ ثم أمر الله سبحانه وتعالى نبيه صلى الله عليه وآله وسلم أن يجادل المشركين ويسألهم من الذي ينزل عليهم المطر ويخرج لهم به الزرع والثمر؟ وهم حتماً سيجيبونه ويعترفون بأنه الله جل وعلا وحده هو الذي بيده كل ذلك.

﴿وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴿٢٤﴾﴾ هذا أمر من الله سبحانه وتعالى لنبيه أن يجادلهم بالرفق واللين، وقد أرشد نبيه صلى الله عليه وآله وسلم هنا كيف يفعل في جدالهم؛ وذلك لأن في هذا الترديد والإبهام ما يستجلبهم ويبعثهم على تجديد النظر والتفكر.

﴿قُلْ لَا تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴿٢٥﴾﴾ كان المشركون يحكمون على محمد صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه بأنهم مجرمون وأنهم قاطعون لرحمهم وخارجون عن دين آبائهم وأجدادهم، والنبي صلى الله عليه وآله وسلم أيضاً كان يحكم عليهم بالشرك والضلال والخروج عن الدين، فأمره الله تعالى أن يرد عليهم بهذا الرد، وهو أن يجيبهم بأن الله سبحانه وتعالى لن يسألكم عما أجرمنا، ولن يسألنا عما تجرمون، فكل واحد سيحمل ذنبه فوق ظهره.

﴿قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ﴿٢٦﴾﴾ وأن يخبرهم بأن مرجعهم جميعاً إلى الله سبحانه وتعالى يوم القيامة، وأنه وحده الذي سيحكم بيننا وبينكم بالحكم الحق والعدل؛ لأنه العالم والمطلع على كل شيء الذي لا تخفى عليه خافية.

﴿قُلْ أَرُونِيَ الَّذِينَ أَلْحَقْتُمْ بِهِ شُرَكَاءَ﴾ وأمر الله تعالى نبيه ﷺ أن يسأل المشركين أين تلك الآلهة التي تزعمون أنها شركاء مع الله سبحانه وتعالى.

﴿كَلَّا بَلْ هُوَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴿٢٧﴾﴾ كلا لا شريك مع الله تعالى كما يزعمون فهو وحده المتفرد بصفات الإلهية والكمال.

﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴿٢٨﴾﴾ ثم أخبر الله سبحانه وتعالى نبيه ﷺ أنه قد أرسله إلى الناس جميعاً ليبشر المؤمنين بثوابه ونعيمه الذي أعده لهم، وينذر الكافرين والمنافقين إن لم يقلعوا عما هم فيه من الكفر بالنار والعذاب الأليم.

وأخبره أيضاً أنه لم يرسله إليهم ليدخلهم في الهدى سواءً كانوا طائعين أم مكرهين، فما عليه إلا تبليغهم فقط؛ وكان قد أصاب النبي ﷺ الأسى والحزن الشديدين حين لم يستجيبوا له، وكان يخاف أن يكون ذلك بسبب تقصير منه في تبليغ رسالته، فأنزل الله سبحانه وتعالى عليه هذه الآية ليخفف من حزنه ذلك.

﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴿٢٩﴾﴾ بعدما أنذر النبي ﷺ المشركين وحذرهم عذاب الله تعالى سألوه على سبيل الهزء والسخرية هذا السؤال، فأمره الله سبحانه وتعالى أن يجيب عليهم بهذا الجواب: ﴿قُلْ لَكُمْ مِيعَادُ يَوْمٍ لَا تَسْتَأْخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ﴿٣٠﴾﴾ لكم ميعاد محدد أيها المشركون يحل فيه عذاب الله عليكم فإذا حان ذلك الموعد فلن يمهلكم الله تعالى لحظة واحدة، فلا تقديم ولا تأخير عن ذلك اليوم الموعود.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ نُؤْمِنَ بِهَذَا الْقُرْءَانِ وَلَا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ وهم مشركو قريش كانوا يقولون للنبي ﷺ هذا القول ليقنعوه في عدم إيمانهم، وأنه مهما حاول فلن يؤمنوا بما جاءهم به من القرآن أبداً، وأيضاً لن يؤمنوا بما تقدمه من الكتب فلن يؤمنوا أبداً.

﴿وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ الْقَوْلَ﴾ فلو ترى يا محمد حالة هؤلاء المشركين يوم القيامة وهم يترادون فيما بينهم التهم، ويلقي كل واحد منهم اللوم على صاحبه.

أراد الله سبحانه وتعالى أن يصور لنبيه ﷺ فظاعة ذلك الموقف الذي سيقفونه، وسوء حالهم التي يكونون عليها ذلك اليوم.

﴿يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ﴿٣١﴾﴾ وما يقع من الجدال بين التابعين والمتبوعين، وما يتبادلونه من اللوم فيما بينهم؛ فالتابعون يلقون باللوم على المتبوعين بأنهم السبب في عدم إيمانهم بما كانوا يخذلونهم ويمنعونهم عن الذهاب والسماع لأنبيائهم، وأنهم لو لم يقفوا في طريقهم لكانوا مؤمنين.

﴿قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَى بَعْدَ إِذْ جَاءَكُمْ بَلْ كُنْتُمْ مُجْرِمِينَ﴿٣٢﴾﴾ هذا هو جواب كبارهم وزعمائهم ينفون ما ألصقوه بهم من إغوائهم، وأنهم الذين تسببوا على أنفسهم بما استجابوا لهواها وشهواتها.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَنْدَادًا﴾ فيرد عليهم أتباعهم بأنهم هم الذين تسببوا في ضلالهم وكفرهم بما مكروا بهم من إعمال الحيل فيهم ليل نهار حتى استطاعوا أن يتمكنوا من إغوائهم وإضلالهم.

﴿وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الْأَغْلَالَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴿٣٣﴾﴾ فأخبر الله سبحانه وتعالى عنهم بأنهم في الأخير سيسكتون ويستسلمون والندم والحسرة تملآن قلوبهم، لم يبق إلا أن تسوقهم ملائكة العذاب على وجوههم إلى جهنم وبئس المصير.

ثم أخبر الله تعالى أن تعذيبهم لم يكن ظلماً منه لهم بل إنه من تمام العدل والحكمة، وأنه الجزاء العادل الذي يستحقونه بسبب أعمالهم.

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ﴿٣٤﴾﴾ والله سبحانه وتعالىٰ لم يرسل نبياً إلىٰ أمته إلا ويقفون في وجه دعوته، والذين يقفون في وجوه أنبيائهم هم أهل الشرف والرياسة والوجاهة وأصحاب الأموال والثروات، وهم أول من يتلقاهم بالتكذيب والرد.

﴿وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴿٣٥﴾﴾ كان هذا جوابهم جميعاً علىٰ أنبيائهم، والجدال الذي يجادلون به أنبياءهم، فيزعمون أن الله سبحانه وتعالىٰ لم ينعم عليهم بهذه النعم إلا لأنهم يستحقون ذلك، ولأنهم أهل الله، وما دام الله قد أعطاهم في الدنيا فلا بد أن يعطيهم في الآخرة، وأنهم أكرم علىٰ الله سبحانه وتعالىٰ من هؤلاء الفقراء الذين يدعون الرسالة.

﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ﴾ ثم أمر الله سبحانه وتعالىٰ نبيه ﷺ بأن يجيب علىٰ المشركين إن هم جادلوه بهذا الجواب، فيخبرهم بأن الأرزاق بيد الله سبحانه وتعالىٰ وحده، وأنه يبسط رزقه علىٰ من يشاء من عباده ويضيقه علىٰ من يشاء منهم، علىٰ ما تقضي به الحكمة.

﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴿٣٦﴾﴾ وحكمة الله تعالىٰ هي التي اقتضت ذلك ولن تستقيم الدنيا إلا بذلك، غير أن أكثر الناس غافل عن تلك الحكمة لبعدهم عن الله سبحانه وتعالىٰ وعن شرائعه.

﴿وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِنْدَنَا زُلْفَى﴾ أمر الله سبحانه وتعالىٰ نبيه ﷺ أن يخبر المشركين بأن كثرة الأموال والأولاد ليست هي التي تقرب الناس إلىٰ الله سبحانه وتعالىٰ، وليست ميزان التقوىٰ، وإنما الأعمال الصالحة والتقوىٰ هي التي تقرب العبد إلىٰ الله سبحانه وتعالىٰ، وهذا هو الذي أراد الله سبحانه وتعالىٰ بقوله:

﴿إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ ءَامِنُونَ﴿٣٧﴾﴾ فسيجازيهم الله سبحانه وتعالىٰ علىٰ أعمالهم الصالحة، وعلىٰ ما صبروا في سبيل دينهم، وما حرصوا من إرضاء ربهم أضعافاً مضاعفة.

﴿وَالَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِي ءَايَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ﴿٣٨﴾﴾ وأما الذين يسعون جهدهم في إبطال آيات الله تعالى، ومحو حججه وبيناته، ويقفون في وجه الدعوة إليه فإن جزاءهم جهنم خالدين فيها أبداً.

﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ﴾ ثم أمر الله تعالى نبيه ﷺ أن يخبر المشركين بأن الله سبحانه وتعالى هو الذي يبسط رزقه لمن يشاء من عباده، ويضيقه على من يشاء منهم لحكمة ومصلحة قد علمها لهم في ذلك.

﴿وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴿٣٩﴾﴾ وما أنفق الإنسان فيما يرضي الله سبحانه وتعالى من أعمال البر فإن ذلك لن يضيع عند الله تعالى وسيعوضه عن ذلك إما في الدنيا أو في الآخرة أو فيهما معاً.

﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهَؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ﴿٤٠﴾﴾ كان المشركون ينحتون أصناماً ويزعمون أنها على شكل ملك من الملائكة، ثم يعبدونها بزعمهم أنها بنات الله؛ فأخبر الله تعالى أنه سيحشرهم إليه يوم القيامة، ثم يحضر الملائكة أمامهم ويسألهم: هل كنتم تدعون هؤلاء إلى عبادتكم؟ فتجيب الملائكة على الله تعالى وتقول:

﴿قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِيُّنَا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ﴿٤١﴾﴾ ننزهك يا ألله فلسنا إلا عبيداً من عبيدك، وهؤلاء المشركون إنما كانوا يعبدون الجن والشياطين.

﴿فَالْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا﴾ يخاطب الله تعالى المشركين ومعبوداتهم من الجن والشياطين بأنهم قد أصبحوا في قبضته وتحت سيطرته، ولن يستطيعوا أن ينفعوا بعضهم البعض أي نفع.

﴿وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ﴿٤٢﴾﴾ وذلك بعد ما يكون من الجدال بينهم وبين معبوداتهم، وبعدما تنقطع حججهم وأعذارهم فإن الله سبحانه وتعالى سيأمر زبانية جهنم أن تسوقهم مع آلهتهم إلى

جهنم وبئس المصير.

﴿وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَنْ يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَاؤُكُمْ﴾ كان النبي ﷺ إذا قرأ القرآن على المشركين ضحكوا منه واستهزؤوا به، وأشاعوا بين الناس بأنه ليس إلا رجلاً كذاباً يريد أن يضل الناس ويغويهم عن دين آبائهم وأجدادهم، ويحذرون الناس عن الاستماع إليه.

﴿وَقَالُوا مَا هَذَا إِلَّا إِفْكٌ مُفْتَرًى﴾ ويعلنون بين الناس أن ما جاء به محمد ليس إلا كلاماً اختلقه وافتراه من عند نفسه ليضل الناس ويغويهم.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴿٤٣﴾﴾ ويقولون أيضاً: إن ما جاء به محمد في القرآن ليس إلا كلام السحرة والمشعوذين، ويحذرون الناس عن سماعه والإصغاء إليه.

﴿وَمَا ءَاتَيْنَاهُمْ مِنْ كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا وَمَا أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِنْ نَذِيرٍ ﴿٤٤﴾﴾ كان المشركون من قريش أميين ليس لهم كتاب مثل اليهود والنصارى، ولم يأتهم نبي من بعد إسماعيل عليه السلام إلى أن بعث الله تعالى إليهم خاتم المرسلين ﷺ.

﴿وَكَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ ثم أخبر الله سبحانه وتعالى نبيه ﷺ أنه قد بعث رسله وأنبياءه إلى أمم كثيرة غيرهم قبل ذلك، فكذبوهم وردوا دعوتهم وكفروا بها.

﴿وَمَا بَلَغُوا مِعْشَارَ مَا ءَاتَيْنَاهُمْ فَكَذَّبُوا رُسُلِي فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٥﴾﴾ وكانت تلك الأمم تملك من القوة والعزة ومتاع الدنيا ما لا يقدر قدره، ولكنهم عندما كذبوا رسلهم لم ينفعهم ما هم فيه من ذلك النعيم والثراء وكثرة الأموال فعذبهم الله واستأصلهم جزاءً على كفرهم وتكذيبهم فلم ينفعهم ما هم فيه من القوة والعزة والكثرة؛ فأين قريش الذين لم يبلغوا عشر ما آتينا أولئك؟ فلا يغتروا بقوتهم وكثرتهم وعددهم وعدتهم، فقد أهلك الله سبحانه وتعالى من هم أشد منهم قوة وأكثر جمعاً.

﴿قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَى وَفُرَادَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ﴾ ثم أمر الله سبحانه وتعالى نبيه ﷺ أن يعظ قريشاً بهذه الموعظة: وهي أن يتوجهوا إلى الله تعالى وحده، وأن يقوموا بين يديه جماعات وفرادى، ثم يتفكروا وينظروا في أمر محمد ﷺ وما جاء به، وسيعرفون صدق ما جاء به.

﴿إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴿٤٦﴾﴾ وستعلمون أيضاً أن الله سبحانه وتعالى لم يرسله إلا رحمة لكم لينذركم العذاب الذي قد استوجبتموه بأعمالكم، والذي قد أوشك على النزول بكم.

﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴿٤٧﴾﴾ وأن يخبرهم بأنه لم يطلب منهم أجرة تعبه في دعوتهم وتبليغهم حتى يتهربوا منه، ومما جاءهم به.

﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴿٤٨﴾﴾ والحق هو القرآن الذي أنزله الله سبحانه وتعالى ليمحوا به ظلمات الجهل والشرك والضلال.

﴿قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ﴿٤٩﴾﴾ وأن يخبر قريشاً بأن الحق قد أقبلت دولته، وأن الباطل قد أوشك على النهاية والزوال، فالأولى بهم أن يتركوا تصميمهم ذلك على الكفر ونشره، أما آن لهم أن يعلموا أنها لن تقوم له قائمة بعد الآن، وأن يعلموا أنه قد بدأ في التناقص والاضمحلال.

﴿قُلْ إِنْ ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَى نَفْسِي وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ﴿٥٠﴾﴾ كان المشركون يقولون إن محمداً ﷺ ضال وجاهل وصابئ، فأمره الله تعالى أن يخبرهم بأن ضلاله على نفسه إن كان قد ضل، وأما إن كان قد اهتدى فذلك إنما هو بما أوحى الله سبحانه وتعالى إليه.

وأن يخبرهم بأن الله سبحانه وتعالى عالم بعمله وأعمالهم ومطلع عليها، وسيجازي كلاً على عمله.

﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ فَزِعُوا فَلَا فَوْتَ وَأُخِذُوا مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ ۝٥١﴾ لو ترى يا محمد حالهم وأمرهم وما يكون عليهم من الفزع والذهول عندما يرون نزول العذاب وحلوله بهم، فحينها لن يستطيعوا أن يفروا أو يهربوا من الله سبحانه وتعالى.

وقوله: ﴿مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ﴾ كناية عن سرعة أخذ الله سبحانه وتعالى لهم، والانتقام منهم وإحاطة قدرة الله بهم.

﴿وَقَالُوا ءَامَنَّا بِهِ وَأَنَّى لَهُمُ التَّنَاوُشُ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ ۝٥٢ وَقَدْ كَفَرُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ﴾ عندما يرون نزول العذاب بهم، ويتيقنون أنه واقع بهم لا محالة فحينها يؤمنون به، ولكن حين لا ينفعهم الإيمان، وكيف يستطيعون أن يتناولوا الإيمان من ذلك المكان البعيد، وهم لم يتناولوه من ذلك المكان القريب في الدنيا.

أراد الله تعالى بالمكان البعيد الآخرة، وأما القريب فهو في الدنيا.

﴿وَيَقْذِفُونَ بِالْغَيْبِ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ ۝٥٣﴾ وكيف يصح إيمانهم الآن وكانوا في الدنيا ينكرون البعث والحساب والجنة والنار، وكانوا يقولون ذلك رجماً بالغيب من عند أنفسهم، فلا دليل من كتاب أو نبي أو عقل أو نقل على كفرهم وتكذيبهم.

﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ﴾ وذلك في الآخرة لأنهم سيتمنون الإيمان ويشتهونه، ولكن قد أصبح بينهم وبينه حائل فلن يصلوا إليه ولن يقبل منهم.

﴿كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِمْ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُرِيبٍ ۝٥٤﴾ وحالهم كحال الذين كانوا من قبلهم وعلى طريقتهم، فمن مات منهم فقد حال موته بينه وبين إيمانه، ولن يقبل الله سبحانه وتعالى إيمانهم لما كانوا عليه من الشك والريبة في دعوة أنبيائهم وما جاءتهم به من عند ربهم.

❁❁❁❁❁

□

سورة فاطر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ الله سبحانه وتعالى هو وحده المختص بالحمد والثناء؛ لأنه المتفرد بخلق السماوات والأرض وما بينهما، فهو الذي يستحق الحمد دون تلك المعبودات من دونه التي لا تستطيع أن تخلق شيئاً.

﴿جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا﴾ ثم وصف نفسه بهذا الوصف لينبه عباده على نعمة هدايتهم بما قد أرسل إليهم من الملائكة التي تنزل بوحي الله سبحانه وتعالى إلى الأنبياء الذين يبلغونهم رسالات ربهم، وما فيه نجاتهم وهدايتهم.

﴿أُولِي أَجْنِحَةٍ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ①﴾ ثم وصف الله سبحانه وتعالى هذه الملائكة بأنه قد جعل لها الأجنحة التي تحملها وتطير بها، وأنه قد جعل لبعضها جناحين اثنين وبعضها ثلاثة أجنحة وبعضها أربعة، وبعضها أكثر من ذلك وكل ذلك على حسب ما تقتضيه الحكمة.

﴿مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا﴾ ثم أخبر الله سبحانه وتعالى أن أمر عباده بيده سواءً كان ذلك خيراً أم شراً، وأن ما أراد لهم فهو كائن ولن يستطيع أحد أن يرد ما قضاه وأمضاه، وأنه إذا أراد بسط رزقه على أحد من خلقه فلن يستطيع أحد أن يحول دون ذلك أو يرفع تلك النعمة عنه.

﴿وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ②﴾ وما أمسك على أحد من خلقه من رحمته ورزقه فلن يستطيع أحد أن يفتح لهم باب الخير، وإذا أمسك المطر عن أحد فلن يستطيع أحد أن ينزله لهم غيره؛ لان ذلك بيده وحده فهو القوي الغالب على كل شيء.

وكل ما يفعله الله سبحانه وتعالى من البسط والقبض وغير ذلك فإنما يكون لحكمة ومصلحة لعباده قد علمها في ذلك.

﴿يَاأَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ يخاطب الله سبحانه وتعالىٰ عباده ويأمرهم بأن يتذكروا نعمه الكثيرة عليهم في أنفسهم وفي أموالهم وأولادهم ليؤدوا حق شكره فإن الإنسان إذا ذكر نعمة المنعم عليه أقبل علىٰ شكره.

ألا ترىٰ أن من أحسن إليك وكثر إنعامه عليك فإنك ستتوجه إليه وتتحرىٰ كل ما يرضيه وتتجنب كل ما يسخطه عليك، وتحرص أشد الحرص علىٰ ذلك؛ فكذلك الله سبحانه وتعالىٰ فالمفترض عليكم أن تتذكروا نعمه عليكم وإحسانه إليكم في كل وقت؛ لأن ذلك سيعينكم علىٰ طاعته وفعل ما يرضيه.

﴿هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ كل ما هم فيه من النعم هي من الله تعالىٰ وحده، فلا خالق غير الله سبحانه وتعالىٰ، ولا إله موجود غير الله جل وعلا.

﴿فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ﴿٣﴾﴾ فلماذا يصرفون عن عبادته؟ وما هو الذي صرفهم عن عبادته إلىٰ تلك الأصنام التي لا تملك شيئاً من صفات الإلهية؟

﴿وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴿٤﴾﴾ ثم أوحىٰ الله تعالىٰ إلىٰ نبيه ﷺ أن لا يكبر في نفسه تكذيب قومه وصدهم عن دعوته فكل الأنبياء قد لاقوا نفس التكذيب من أممهم، وأن لا يحزن علىٰ ما يلاقي من قومه فمرجعهم إليه جميعاً، وسيلقون جزاء أعمالهم وكفرهم وتكذيبهم.

﴿يَاأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾ يؤكد الله سبحانه وتعالىٰ علىٰ صدق ما وعد به من الحساب والجزاء، ولن يخلف وعده ذلك، فليحذروا أن تغرهم الدنيا وزينتها ولذاتها وشهواتها.

﴿وَلَا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ﴿٥﴾ إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾ وحذرهم من الشيطان أن يقعوا في حبائله ومصائده، أو يستجيبوا لما يزينه لهم من الشهوات، وأن يعدوا العدة لحربه وعداوته كما قد أعد العدة لحربهم وإغوائهم.

﴿إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ۝٦﴾ وأيضاً فهو لا يدعوكم إلا إلى ما فيه هلاككم وضياعكم، وإلى ما يتسبب في استحقاقكم العذاب في نار جهنم فاحذروه.

﴿الَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ تهديد من الله تعالى لمن كفر به، وصد عن دعوة أنبيائه وكذب بهم- بأنه سيجازيهم بالعذاب الشديد في نار جهنم.

﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ۝٧﴾ وهذا تبشير من الله سبحانه وتعالى لمن آمن به وعمل الأعمال الصالحة بأنه سيغفر لهم ذنوبهم، وسيثيبهم بأجزل الثواب وأحسنه في جنات النعيم.

﴿أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا﴾ فهل يستوي ذلك الذي يفعل المعاصي من الشرك والزنا ونحو ذلك، ويظن أنه بذلك في خير العمل، هو وذلك الذي آمن بالله سبحانه وتعالى وصدق بما جاءت به أنبياؤه ورسله؟

أراد الله سبحانه وتعالى أنهما لا يستويان حتماً، وأن كل عاقل سيحكم عليهما بذلك، وبما يستحقه كل واحد منهما.

﴿فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ إن الله سبحانه وتعالى هو الذي يحكم بين عباده المختلفين فالضال هو من حكم الله بضلاله، والمهتدي هو من حكم بهداه، أما أنتم أيها الناس فليس من حكمتم بضلاله يكون ضالاً وليس من حكمتم بهداه يكون مهتدياً.

﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ﴾ فلا تحزن يا محمد عندما رفضوا اتباعك والإيمان بك والتصديق بدعوتك.

﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ۝٨﴾ أراد الله سبحانه وتعالى أنه سيجازيهم على أعمالهم التي عملوها وصنعوها.

﴿وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَاهُ إِلَى بَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ هو تعالى وحده الذي يقدر على إرسال الرياح التي تجمع

البخار الذي يتصاعد من البحار وتكثفه حتى يجتمع على شكل سحاب يحمل الماء، ثم تسوقه تلك الرياح وتسيره ليصب حيث أراد الله سبحانه وتعالى من البلاد التي أصابها الجدب؛ فإذا نزل المطر على تلك البلاد أحيا أرضها بالنبات بعد أن كانت قد يبست وأجدبت.

﴿كَذَلِكَ النُّشُورُ۝٩﴾ فكما أحيا الله سبحانه وتعالى الأرض بالخضرة بعد اليباس والجدب كذلك سيحيي تلك العظام التي قد يبست وتفتتت يوم القيامة.

﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا﴾ من كان يطلب العزة والرفعة في الدنيا فليعلم أن أمر ذلك بيد الله سبحانه وتعالى وحده فهو الذي يعز ويرفع، فمن أرادها فليطلبها من مظانها، وليفعل أسبابها وما يوجبها من طاعة الله سبحانه وتعالى وعمل ما يرضيه واجتناب ما يسخطه.

﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ والكلم الطيب هو ما طاب من الكلام من ذكر الله سبحانه وتعالى والثناء عليه والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فهو الذي يتقبله الله تعالى ويثيب عليه، وكذلك الأعمال الصالحة يتقبلها الله سبحانه وتعالى ويجعلها في ميزان الحسنات.

﴿وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ وأما أولئك الذين يسعون بالفساد في الأرض ويعملون المعاصي والمنكرات، ويتحيلون لإبطال دين الله وشرائعه فهم من أهل عذاب الله تعالى وسخطه.

﴿وَمَكْرُ أُولَئِكَ هُوَ يَبُورُ۝١٠﴾ ثم أخبر الله سبحانه وتعالى أن مكرهم ذلك لن يضره، وأن ما يكيدونه لدينه ولأوليائه سيبطله، وأن ضرر ذلك لن يكون إلا على أنفسهم.

﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا﴾ يبعث الله تعالى عباده على التفكر في قدرته والتأمل في آياته، وفي نعمه عليهم، وأن ينظروا في خلقهم ليعرفوا حقارة أنفسهم، وأنهم لم يخلقوا إلا من تلك النطفة القذرة المهينة، ثم لينظروا إلى تلك النطفة كيف تحولت بقدرته تعالى إلى إنسان سوي كامل القوى.

﴿وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ وَمَا يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَلَا يُنْقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١١﴾﴾ وأيضاً يطلعهم الله سبحانه وتعالى على مدى علمه وإحاطته بكل شيء، وأن علمه محيط بكل ما في السماوات وما في الأرض من غير مشقة أو تعب أو بحث في تعلمه.

﴿وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ﴾ ومن آثار قدرته أيضاً التي تبعث على الحيرة والدهشة والقطع أن ذلك لا بد أن يكون بقدرة قادر لا تتناهى قدرته، وتدبير حكيم عليم دبره، وذلك ما أظهره تعالى من آيات قدرته في البحرين أحدهما عذب فرات سائغ شرابه والبحر الآخر ملح شديد الملوحة فإن في ذلك آية عظيمة لمن نظر وتفكر.

﴿وَمِنْ كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا﴾ ثم جعل الله سبحانه وتعالى يعدد الفوائد التي جعلها لعباده في البحار، والمنافع العظيمة التي قد جعلها فيها فمن ذلك أنه جعل فيهما جميعاً اللحم الطري الذي يأكله الناس ويتلذذون بأكله، ويستخرجون منهما الحلي التي يلبسونها ويتزينون بها، نعمة من الله سبحانه وتعالى أنعم بها عليهم.

﴿وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾﴾ وأيضاً سخر البحار لحمل السفن التي تسهل للناس تنقلهم في أسفارهم وتجاراتهم، وما تحمله لهم من البضائع، وكل ذلك من آيات قدرته وبالغ حكمته وعظيم نعمته.

﴿يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ﴾ ومن آياته العظيمة الدالة على قدرته وعظمته آية الليل والنهار، وإدخال ساعات أحدهما في الآخر، فتارة تعتدل ساعاتهما، وتارة ترى الليل يتناقص وتدخل بعض ساعاته في النهار، وتارة يكون الأمر على العكس من ذلك، وهكذا على هذا المنوال طوال السنة على ميزان دقيق لا يتخلف أو يختل إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

﴿وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى﴾ ومن آياته أيضاً منازل الشمس والقمر التي جعلها الله تعالى تسير فيها على مدار العام، فلا تتخلف عن منازلها تلك التي قدرها الله سبحانه وتعالى لها لحظة واحدة إلى يوم القيامة، وكل ذلك سخره الله سبحانه وتعالى لعباده ومنفعتهم، وإصلاح معايشهم، فإن في ذلك لآية عظيمة من آيات عظمته وقدرته وعلمه وحكمته وعظائم نعمه.

﴿ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ﴿١٣﴾﴾ فهو وحده الذي أنعم عليكم بهذه النعم، وهو الذي خلق لكم هذه الأشياء ودبرها وأحكمها بعلمه وقدرته، وأما تلك الآلهة التي تعبدونها من دونه فلا يملكون أي شيء، والقطمير: هو تلك القشرة البيضاء التي تكون فوق نواة التمر.

يستنكر الله تعالى هنا على المشركين لماذا يعبدون الأصنام وهم يعرفون أنها لا تملك شيئاً من ذلك، ولا حتى ما يساوي القطمير.

﴿إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ﴾ فلماذا تعبدونها، وتتوجهون إليهم وأنتم تعلمون أنكم إذا دعوتموهم لا يسمعون دعاءكم.

﴿وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ﴾ ولو فرض أنهم سمعوا دعاءكم فلن يستطيعوا أن يلبوا مطالبكم؛ لأنهم لا يملكون شيئاً؟

﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ﴾ وآلهتكم هذه يوم القيامة سوف تنكر عليكم عبادتكم لها، وتنفي أنها قد دعتكم إلى عبادتها، وتواجهكم بالقول بأنكم لستم إلا كذابين ومفترين على الله سبحانه وتعالى.

﴿وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴿١٤﴾﴾ يخاطب الله سبحانه وتعالى نبيه محمداً ﷺ بأنه قد جاءه بالنبأ الحق والصدق.

﴿يَاأَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴿١٥﴾﴾ ينبه الله سبحانه وتعالى عباده على غناه وسعة ملكه، وإلى حاجة الخلق إليه أشد الحاجة في جميع أمورهم، وعلى فقرهم إليه وإلى ما عنده، ويخبرهم أنه غير محتاج لهم ولا إلى طاعتهم.

﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ۝١٦ وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ۝١٧﴾ وهو قادر على أن يزيلكم ويستأصلكم، ويأتي بقوم آخرين يحلون مكانكم، فلن تستطيعوا أن تمتنعوا منه إن أراد بكم ذلك، فاحذروا غضبه وتجنبوا ما يسخطه.

﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾ فليحذر كل امرئ أن يعصي الله تعالى ويفعل ما يغضبه، فكل امرئ سيحمل وزره على ظهره، ولن يتحمل أحد ذنب أحد.

﴿وَإِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَى حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى﴾ وإذا كانت هناك نفس قد أثقلتها الذنوب والأوزار فلن يستطيع أحد أن يخفف عنها ثقلها ذلك أو يحمل عنها شيئاً من وزرها، ولو كان أقرب أقربائه فلن يحمل عن تلك النفس شيء.

﴿إِنَّمَا تُنْذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ﴾ ثم أخبر الله سبحانه وتعالى نبيه صلى الله عليه وآله وسلم أن مواعظه ونذره لن تنفع إلا أولئك الذين يخافون الله تعالى، ويخشون عذابه وسخطه، ويصدقون بوعده ووعيده، وما أخبرهم به من الأمور الغيبية، من يوم القيامة والحساب والجزاء والجنة والنار، ويحافظون على إقامة فرائض الله من الصلوات وغيرها، فهؤلاء هم الذين ستنفع فيهم مواعظه، وسيتقبلون منه ما يقرأه عليهم من القرآن.

﴿وَمَنْ تَزَكَّى فَإِنَّمَا يَتَزَكَّى لِنَفْسِهِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ۝١٨﴾ ومن قَبِل ما جاء به نبيه صلى الله عليه وآله وسلم فقد نفع نفسه، ومرجع الناس في الأخير سيكون إلى الله سبحانه وتعالى فيعاقب المسيء ويثيب المحسن.

﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ۝١٩﴾ شبه الله سبحانه وتعالى الكافر بالأعمى الذي لا يبصر شيئاً، ولا تستطيع أن تهديه أو تدله على الطريق مهما وصفت له، فكذلك الكافر لن تستطيع أن تدخل الهدى والدين إلى قلبه مهما حاولت فيه ومهما جئته به من الآيات والحجج، وشبه الله تعالى المؤمن بالبصير الذي إن تدله على الطريق فإنه يهتدي إليها ويسير فيها.

﴿وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ۝ وَلَا الظِّلُّ وَلَا الْحَرُورُ۝﴾ وكذلك شبه الله تعالى حال المؤمن والكافر بهذه الأشياء، ووجه الشبه هو التفاوت الكبير الذي بين هذين الشيئين، وما هو عليه أحدهما من الارتفاع والآخر من الانحطاط فشبه الله المؤمن بالنور والظل والكافر بالظلمات وحرارة الشمس في القيظ.

﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ﴾ شبه الله سبحانه وتعالى الكافر بالميت فكيف تستطيع أن تسمعه أو تفهمه؟ وشبه المؤمن بالحي السوي.

﴿إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَنْ يَشَاءُ وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُورِ۝﴾ ثم أخبر الله سبحانه وتعالى أنه سيهدي إلى دعوة نبيه صلى الله عليه وآله وسلم أولئك الذين تواضعوا لقبول الحق واستجابوا له؛ لأنهم هم الذين سيسمعون آياته وسيهتدون بها، وأما أولئك المشركون فهم كالأموات فكيف تستطيع أن تسمع الميت؟

﴿إِنْ أَنْتَ إِلَّا نَذِيرٌ۝﴾ ثم أخبر الله سبحانه وتعالى نبيه صلى الله عليه وآله وسلم أن الذي يلزمه هو الإنذار فقط، سواء قبلوا أم لم يقبلوا، فقد خلق الله سبحانه وتعالى لهم العقول وجعل لهم القدرة على التمييز والاختيار، فليختاروا ما أرادوا من الهدى والضلال، وما عليك ولا يلزمك أن يدخلوا في الهدى.

﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ أرسل الله تعالى نبيه صلى الله عليه وآله وسلم بالقرآن الذي جعل فيه هداهم، وما يدلهم على طريق الحق والصواب، وأيضاً أرسل الله تعالى نبيه صلى الله عليه وآله وسلم ليبشر المؤمنين بما أعد لهم من الثواب والجزاء، وينذر العصاة والمشركين بما أعد لهم من العذاب.

﴿وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ۝﴾ اقتضت الحكمة والعدل أن لا يعذب الله تعالى أمة من الأمم إلا بعد أن يعذرهم وينذرهم ويرسل إليهم رسله ينذرونهم ويحذرونهم، ويبلغون إليهم حججه وآياته.

﴿وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالزُّبُرِ وَبِالْكِتَابِ الْمُنِيرِ۝﴾ وقومك يا محمد إن هم كذبوك فاعلم أن كل تلك

الأمم السابقة قد أرسلنا إليهم الرسل وأيدناهم بالآيات والحجج الواضحة، وأنزلنا عليهم الكتب التي فيها هدايتهم وطريق نجاتهم، ولكنهم قد كذبوا بأنبيائهم، وبما جاءوهم به من الشرائع والآيات وتمردوا عليهم وكفروا بهم.

﴿ثُمَّ أَخَذْتُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴿٢٦﴾﴾ وعندما أصروا على كفرهم وتكذيبهم أخذهم الله سبحانه وتعالى بعذابه الذي أبادهم واستأصلهم، ولم يبق على أحد منهم.

والاستفهام هنا لتفخيم شأن عذابه الذي أخذهم به.

وقومك يا محمد إن لم يستجيبوا ويؤمنوا فسيصيبهم مثل ما أصاب تلك الأمم من قبلهم.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا﴾ ألم تنظر إلى أثر قدرة الله سبحانه وتعالى كيف ينزل المطر من السماء بقدرته فيحيي به الأرض، وينبت به أصناف النبات والثمار المتنوعة في ألوانها وأشكالها، فمن الذي خالف بين أشكالها وألوانها تلك، وهي تسقى بماء واحد، وتنبت في أرض واحدة؟ أليس ذلك من عجيب قدرة الله تعالى ومن الآيات الدالة عليه؟

﴿وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا﴾ وكذلك من آياته الدالة عليه وعلى قدرته تلك الطرق التي جعلها لعباده في الجبال، نعمة منه تعالى أنعم بها عليهم، وفيها لهم آية حيث خالف تعالى بين ألوان الطرق التي في الجبال.

﴿وَغَرَابِيبُ سُودٌ﴿٢٧﴾﴾ أراد الله سبحانه وتعالى بذلك الحالك في السواد، فهناك الجبال البيض والحمر والسود آية من آياته الدالة على قدرته وعلمه وعلى عجيب صنعته واقتداره.

﴿وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ﴾ وأيضاً من آياته الدالة عليه وعلى قدرته ما جعل من المخالفة بين الناس في الشكل واللون والخلقة، وكذلك المخالفة التي جعلها بين بقية الكائنات، مما يدل على أنه لا بد أن يكون

هناك مخالف خالف بينها، ومقتدر اقتدر عليها، ومدبر دبرها وأحكمها.

﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ ثم حصر الله تعالى خشيته في أهل معرفته وهم العلماء أهل العقول التي لم تغطها ظلمات الجهل والضلال فهم وحدهم الذين يخشون الله ويعظمون.

﴿إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴿٢٨﴾﴾ والعزيز هو القوي الغالب، والغفور هو الذي يتأنى بعباده ولا يعجل بمؤاخذتهم والانتقام منهم لعلهم يتوبون ويرجعون إليه.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَنْ تَبُورَ﴿٢٩﴾﴾ فأهل هذه الصفات الذين يمتثلون لما أمرهم الله تعالى ويطبقون ما أنزله في كتابه، والمحافظون على أداء ما افترض عليهم من الصلاة والزكاة، فهؤلاء هم أهل الرجاء لما عند الله سبحانه وتعالى من الثواب العظيم والنعيم الذي لا ينقطع ولا ينفد.

﴿لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ﴿٣٠﴾﴾ وقد كلفهم الله سبحانه وتعالى بهذه الأعمال ليعطيهم ما يستحقونه من الأجر والثواب، ويزيدهم على ذلك أضعافاً مضاعفة.

ثم وصف الله سبحانه وتعالى نفسه بأنه كثير المغفرة لعباده، وأنه يعطيهم أكثر مما يستحقونه.

﴿وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ إِنَّ اللَّهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ﴿٣١﴾﴾ ثم أخبر الله تعالى نبيه صلى الله عليه وآله وسلم بأن ما أوحى أليه من القرآن هو الدين الحق، وأنه قد أنزل ذلك القرآن مصدقاً لنفس الدين الذي جاءت به التوراة والإنجيل.

وأخبره أيضاً أن ما أوحى إليه من القرآن هو ما دعت إليه الحكمة والمصلحة أن ينزله في ذلك الوقت.

﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾ كان بنو إسرائيل هم أهل الكتاب وأهل العلم والحكمة، وقد جعلها الله سبحانه وتعالىٰ فيهم علىٰ مدىٰ زمان طويل، وقد اقتضت حكمته بعد ذلك أن يصطفي قوماً غيرهم لحمل نبوته وعلمه وحكمته، وذلك لما كان حصل فيهم من التمرد والتحريف، وما كثر بينهم من الكفر والفسوق والعصيان والفساد في الأرض حتىٰ فقدوا أهلية حمل العلم والكتاب والحكمة.

وقد اصطفىٰ الله سبحانه وتعالىٰ محمداً ﷺ وجعله نبياً وأنزل معه القرآن الذي حَمَلَه من اصطفاه من أمته، وقد اصطفىٰ الله سبحانه وتعالىٰ من أمة محمد ﷺ الذين آمنوا وصبروا علىٰ إيمانهم وثبتوا عليه.

﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ﴾ ثم أخبر الله سبحانه وتعالىٰ عن أمة محمد بأنهم قد انقسموا وتفرقوا إلىٰ فرق، وبدأ بذكر الذين ظلموا أنفسهم بما فعلوا من المعاصي وخالفوا أوامر الله تعالىٰ وتجاوزوا حدوده، وذلك لأنهم الكثرة من أمة محمد ﷺ.

﴿وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ﴾ أي يعمل لنفسه، ولا ينتفع أحد بعلمه.

﴿وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ﴿٣٢﴾﴾ وهم الذين يقومون بأعمال الأنبياء من الدعوة إلىٰ الله سبحانه وتعالىٰ، ونشر دينه وهداية الناس، فأخبر أن أهل هذه الصفة هم الذين فازوا بالدرجات الرفيعة والثواب الأسنىٰ في الجنة، وأنهم هم الذين اصطفاهم من أمة محمد ﷺ.

﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴿٣٣﴾ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ﴿٣٤﴾﴾ يصف الله سبحانه وتعالىٰ ما أعده من النعيم لأولئك السابقين بالخيرات في الآخرة جزاءً علىٰ ما صبروا في الدنيا، وعلىٰ ما ضحوا به في سبيل إعلاء كلمة الله تعالىٰ ونشر دينه، ويخبرهم بما يكون عليهم من الفرح والسرور عندما يرون ذلك الذي أعده الله سبحانه وتعالىٰ لهم.

﴿الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِنْ فَضْلِهِ﴾ وهي الجنة التي ستدوم إقامتهم فيها، وسيدوم نعيمهم فيها من دون أي كلل أو ملل.

﴿لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ﴿٣٥﴾﴾ عندما يرون ذلك النعيم الذي أعد لهم سيحمدون الله تعالىٰ علىٰ ما أحلهم في ذلك النعيم الدائم الذي لا حزن معه أو هم أو منغص ينغص عليهم ذلك النعيم، ويحمدون الله سبحانه وتعالىٰ أيضاً علىٰ ما صاروا إليه من الراحة الدائمة التي لا تعب معها أو نصب ينغصها.

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا﴾ ثم وصف الله سبحانه وتعالىٰ ما أعده للذين كفروا من العذاب الدائم الذي لا يموتون معه، أو يخفف عنهم من شدته.

﴿كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ﴿٣٦﴾﴾ ومثل هذا الجزاء سيجازىٰ كل من كفر بالله تعالىٰ، وكذب برسله وصد عن دعوتهم.

﴿وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ﴾ وهم خلال تلك الشدة التي هم فيها يصرخون وينادون الله تعالىٰ، ويتضرعون إليه بأن يخرجهم من تلك الشدة وذلك العذاب؛ ليعملوا الأعمال الصالحة، ويعوضوا أعمارهم تلك التي ضيعوها في المعاصي والضلال، ولكن الله سبحانه وتعالىٰ يجيب عليهم بقوله: ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ﴿٣٧﴾﴾ يجيب الله سبحانه وتعالىٰ عليهم بهذا الجواب يخبرهم بأنه قد أمدهم في الدنيا بالأعمار الطويلة وأعطاهم الفرصة التي يتمكنون فيها من الأعمال الصالحة، وقد أرسل إليهم الرسل، وأنزل لهم الآيات والحجج التي تنير لهم طريق الحق والهدىٰ وتدلهم عليه، وأمدهم بالألطاف، وأنعم عليهم بالنعم العظيمة، ولكنهم أعرضوا عن كل ذلك، واستكبروا عن الإذعان والقبول للحق، وبعد كل ذلك الإعذار والإنذار لم يبق لهم أي عذر، وقد استأهلوا ما هم فيه من العذاب ولا مخرج لهم منه.

﴿إِنَّ اللَّهَ عَالِمُ غَيْبِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٣٨﴾﴾ فهو وحده المختص بعلم الغيب وما خفي في السماوات والأرض، وكذلك عالم بما اشتملت عليه الضمائر وعقدت عليه النفوس من النيات، فليحذر كل امرئ ربه في سره وعلانيته، وليراقب نفسه؛ فالحكم الله، والموعد القيامة، وإلى الله ترجع الأمور.

﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ﴾ ثم أخبر الله سبحانه وتعالى أن حكمته اقتضت أن يجعل الناس يخلف بعضهم بعضاً، وأن يعمروا الدنيا جيلاً بعد جيل إلى يوم القيامة، وحكمته تلك هي ما يترتب عليها من غرض التكليف، وما يحملهم من الشرائع والأحكام والأديان.

﴿فَمَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا ﴿٣٩﴾﴾ فمن كفر بالله سبحانه وتعالى وبأنبيائه وما أنزله من شرائعه وأحكامه فإن وبال كفره على نفسه، ولن يضروا بكفرهم ذلك إلا أنفسهم، وأما الله تعالى فهو غير محتاج إلى طاعتهم ولن يضره كفرهم، وإنما سيزيدهم عنده مقتاً وبعداً، ويضاعف لهم العذاب كلما ازدادوا كفراً.

وكما ذكرنا لم يخلق الله سبحانه وتعالى عباده إلا لغرض وحكمة عظيمة وهي التكليف، وما يترتب عليه من الثواب والجزاء، غير أن أكثر الناس كانوا كلما أرسل الله سبحانه وتعالى إليهم نبياً كفروا به، وتمردوا عليه، فيعذبهم الله تعالى بسبب ذلك، ويستخلف قوماً غيرهم ثم يرسل إليهم رسله كذلك، وهكذا كلما كذب قوم دمرهم وأتى بقوم غيرهم.

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَكُمُ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ﴾ ثم أمر الله سبحانه وتعالى نبيه صلى الله عليه وآله وسلم أن يسأل المشركين بأن يخبروه عن أصنامهم تلك التي يعبدونها من دون الله هل خلقت شيئاً من هذه الأشياء التي يرونها في الأرض حتى يعبدوها من دون الله؟ وماذا فعلت لهم حتى قدسوها وعبدوها؟

﴿أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ﴾ وأن يسألهم مرة أخرى بأن يخبروه: هل لتلك الأصنام نصيب في ملك السماوات والأرض حتى يعبدوها من دون الله سبحانه وتعالى؟

﴿أَمْ ءَاتَيْنَاهُمْ كِتَابًا فَهُمْ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْهُ﴾ وأن يسألهم ثالثة بأن يخبروه: هل هناك كتاب أنزله الله سبحانه وتعالى عليهم أو رسولاً أرسله إليهم يأمرهم بعبادة تلك الأصنام؟ أو هل يملكون أي دليل أو حجة على شركهم وعبادتهم لها؟

ثم أجاب الله سبحانه وتعالى عن تلك التساؤلات بالنفي الذي لن يجد المشركون جواباً غيره فقال: ﴿بَلْ إِنْ يَعِدُ الظَّالِمُونَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا ۝﴾ فلن يستطيع المشركون أن يحتجوا لآلهتهم تلك، وشركهم ذلك إنما هو مبني على الأباطيل والوعود الكاذبة والأماني الباطلة التي يتمنونها فيما بينهم، ويمني بعضهم بعضاً بها من أنهم على الدين الحق ودين الآباء والأجداد وإنكار البعث والحساب، وأن ما جاء به محمد ليس إلا كلاماً مفترى من عند نفسه، وليس إلا ساحراً أو مجنوناً، وغير ذلك الذي كانوا يتواصون به فيما بينهم ويغر بعضهم بعضاً به، يقولون كل ذلك رجماً بالغيب فلا دليل ولا حجة لهم في شيء من ذلك كله.

﴿إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا﴾ ثم أخبر الله سبحانه وتعالى المشركين بأنه وحده القادر على تدبير أمر السماوات والأرض، وهو الذي أمسك السماوات، وما فيها من الأفلاك وحفظها بقدرته لا تلك الأحجار التي يعبدونها ويدعون إلهيتها.

﴿وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ﴾ ولو فرضنا واختل نظامها وتهاوت أجرامها فأي قدرة ستستطيع أن تمسكها غير قدرة الله سبحانه وتعالى؟ وماذا ستفعل تلك الأصنام لو حصل شيء من ذلك؟

﴿إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ غير أن الله تعالى قد حلم عن المشركين والعاصين وتأنى بهم فلم يعاجل بعقوبتهم وإنزال عذابه بهم.

﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَيَكُونُنَّ أَهْدَى مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ﴾ هؤلاء هم المشركون كانوا يحلفون بأبلغ الأيمان وأغلظها أن الله سبحانه وتعالى لو يرسل إليهم نبياً يدعوهم لاستجابوا له ولكانوا أهدى من اليهود أو النصارى، ولتمسكوا بدينهم أشد التمسك.

﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا﴿٤٢﴾ اسْتِكْبَارًا فِي الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ﴾ فلما أرسل الله تعالى إليهم محمداً صلى الله عليه وآله وسلم لم يزدهم ذلك إلا بعداً عن الحق ونفوراً عنه، ولم يزدهم ذلك إلا توغلاً في الشرك والضلال، وتكبراً على الله سبحانه وتعالى وأنبيائه، واستكباراً عن قبول الحق، وبدل أن يتبعوا محمداً صلى الله عليه وآله وسلم ويستجيبوا له قاموا يحيكون المؤامرات ضده، ويدبرون الحيل والمكائد لإبطال دينه ودعوته.

﴿وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾ ثم أخبر الله سبحانه وتعالى أنهم لن يضروا بمكرهم ذلك دينه أو نبيه صلى الله عليه وآله وسلم، وإنما سيضرون أنفسهم، ووباله سيعود عليهم، وسيدمرهم الله سبحانه وتعالى بسبب ذلك ويعذبهم ويهلكهم.

﴿فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّةَ الْأَوَّلِينَ فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَحْوِيلًا﴿٤٣﴾﴾ وأنه سيحيق بهم ما قد حاق بمن سبقهم من الهلاك والدمار، فلا ينتظر هؤلاء المشركون أو يفكروا في أنهم سيظهرون على النبي صلى الله عليه وآله وسلم أو سينتصرون عليه؛ لأن سنة الله سبحانه وتعالى قد جرت على إهلاك وتعذيب من قام في وجه دعوة أنبيائه وصد عنها، وأن هذه هي سنته في الأولين والآخرين فلن تتغير أو تتبدل.

وفعلاً فقد أهلك الله تعالى المشركين وانتصر نبيه صلى الله عليه وآله وسلم وظهر دينه على شركهم وباطلهم بعد أن قتل أولئك الذين وقفوا في وجه دعوته وصدوا عنها.

﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ يستنكر الله سبحانه وتعالى على المشركين غفلتهم تلك وتمردهم وعنادهم، وكأنهم لم يعرفوا كيف كانت عاقبة أولئك الذين كانوا يتمردون على أنبيائهم؟ وكيف دمرهم الله تعالى وعذبهم واستأصلهم بسبب ذلك؟

وذلك أن المشركين كانوا يمرون في طريق أسفارهم وتجارتهم على قرى تلك الأمم المهلكة ومساكنهم، كقرى قوم لوط وعلى ديار عاد، وعلى مدائن شعيب، ويرون آثارهم، وكانوا يعرفون أيضاً ما كان سبب تدميرهم وتعذيبهم بما كانوا يسمعون من أخبارهم، ويتتبعون من آثارهم، ولكنهم لم يعتبروا بهم، ولم يحذروا أن يحل بهم مثل ما قد حل بتلك الأمم من قبلهم.

﴿وَكَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ فقد أهلكهم الله تعالى ودمرهم وهم أشد قوة من قريش، وأبطش منهم، وأكثر جمعاً منهم، فلا يستبعدوا أن يحل بهم مثل ما حل بأولئك القوم.

﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَيْءٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا﴿٤٤﴾﴾ فلا يظن أولئك المشركون أنهم سيعجزون الله سبحانه وتعالى أو أنهم سيستطيعون أن يفروا من تحت قبضته.

﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى﴾ ثم أخبر الله سبحانه وتعالى عن حلمه بهم ورحمته لهم فلو أنه يؤاخذهم بذنوبهم لما ترك على وجه الأرض مخلوقاً، ولأهلكهم الله تعالى جميعاً، ولكنه قد حلم عنهم وتأنى بهم لعلهم يرجعون إليه، ويقلعون عما هم فيه، وأيضاً حكمته اقتضت أن يؤخر تعذيبهم إلى يوم القيامة.

﴿فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيرًا﴿٤٥﴾﴾ وإذا حل ذلك اليوم الذي قد جعله موعدهم فسيجازي كل امرئ على حسب استحقاقه وعمله، فهو عالم بعباده ومحص لجميع أعمالهم ولا يضيع عنده شيء.

سورة يس

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿يس۝١ وَالْقُرْءَانِ الْحَكِيمِ۝٢ إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ۝٣﴾ كان المشركون ينكرون نبوة محمد صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، وينسبونه إلى الكذب والافتراء على الله سبحانه وتعالى؛ فأقسم الله سبحانه وتعالى بـ«يس» وبالقرآن الحكيم الذي أحكمت آياته بأن محمداً صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ نبي صادق مرسل من عنده.

﴿عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ۝٤﴾ وأنه على الدين الحق وعلى الطريق القويم غير مائل عنه أو زائغ.

﴿تَنْزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ۝٥﴾ وأن ما جاء به من القرآن منزل من عند الله العزيز الرحيم، وأنه قد أنزله رحمة بعباده لينقذهم به من ظلمات الشرك والضلال والجهل إلى نور الحق والهدى.

﴿لِتُنْذِرَ قَوْمًا﴾ وقد أرسلك الله سبحانه وتعالى يا محمد، وأوحى إليك بالقرآن لتنذر قريشاً وغيرهم.

﴿مَا أُنْذِرَ ءَابَاؤُهُمْ﴾ وأخبره الله تعالى بأنه لم يكن قد أرسل نبياً قبله قط لا إليهم ولا إلى آبائهم وأجدادهم من قبلهم.

﴿فَهُمْ غَافِلُونَ۝٦﴾ فهم غافلون عن شرائع السماء وعن الكتب والأديان، وأنت أول نبي إلى قريش، فلم يروا نبياً من عهد إسماعيل وإبراهيم، وقد مضى على ذلك العهد آلاف السنين.

﴿لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَى أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ۝٧﴾ ثم أخبر الله سبحانه وتعالى نبيه صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ بأن قريشاً قد حق عليهم العذاب وقد استوجبوه، فلا يتوقع منهم الإيمان بعد الآن فلن يؤمنوا أبداً.

﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالًا فَهِيَ إِلَى الْأَذْقَانِ فَهُمْ مُقْمَحُونَ۝٨﴾ مَثَلٌ ضربه الله سبحانه وتعالى ليشبه حال المشركين في عدم نفاذ الدعوة إليهم وعدم

رغبتهم في التخلص من شركهم وضلالهم بمن غلت يداه إلى عنقه وأحكم غله، وصار وجهه مرفوعاً إلى السماء بسبب إحكام الغل، فمن كان في هذه الحالة فلا يتأتى منه السير على طريق الهدى.

ثم شبههم الله سبحانه وتعالى بصورة ثانية فقال سبحانه: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ۝٩ وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ۝١٠﴾ أراد الله سبحانه وتعالى هنا أن يقنع نبيه محمداً صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ بعدم إيمان قريش، وعدم استجابتهم لدعوته مهما حاول فيهم، وأنه مهما وعظهم وذكرهم فلن ينتفعوا أو يهتدوا بمواعظه وتذكيره لهم، وذلك أن محمداً صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ كان طامعاً في إيمانهم، وقد أجهد نفسه في ملاحقتهم ولكن من دون أي فائدة وكاد أن يهلك نفسه في سبيل ذلك.

وقد شبه الله تعالى حال أولئك القوم بحال من قد ضرب عليهم بسد وحاجز فلا يستطيع أحد أن يسمعهم الخطاب، وأيضاً شبههم في عدم اهتدائهم واستجابتهم للنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ كمثل الذي قد غطي على عينيه فهو يتخبط ولا يستطيع أن يهتدي إلى طريق أبداً، وأنهم مهما وصفوا له الطريق فلن يهتدي إليها.

﴿إِنَّمَا تُنْذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ۝١١﴾ وأنه لن ينتفع بتذكيرك ومواعظك إلا أولئك الذين اتبعوك وآمنوا بك، وصدقوا ما أخبرتهم به من الأمور الغيبية كيوم القيامة والحساب والجزاء، وهم الذين يخشون الله تعالى إذا ذكروه، ويخافون غضبه وسخطه وعقابه.

وقد أمر الله سبحانه وتعالى نبيه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ أيضاً أن يبشر هؤلاء الذين آمنوا به، وصدقوا ما جاء به بأن الله سبحانه وتعالى سيغفر لهم ذنوبهم يوم القيامة، ويجزل لهم الثواب العظيم والنعيم الدائم الذي لا ينقطع.

﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَءَاثَارَهُمْ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ۝١٢﴾ لن يقدر على إحياء الموتى إلا الله سبحانه وتعالى وحده،

فهو قادر على أن يدخلهم في الإيمان، ويلجئهم إليه لولا حكمة التكليف التي اقتضت تركهم إلى اختيارهم، وعدم إجبارهم على الهدى، وإكراههم على الدخول فيه؛ لأن الأمر لو كان كذلك لبطل الغرض من التكليف الذي هو استحقاق الثواب والعقاب، وهذا ما لا يريده الله سبحانه وتعالى.

ثم أخبر الله سبحانه وتعالى نبيه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ أن ما عملوا من الأعمال السيئة، وما ترتب عليها ولحق بها فهو في علمه، ولن يضيع عنده شيء، وسيجازيهم على كل صغيرة وكبيرة.

﴿وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ۝١٣﴾ أمر الله سبحانه وتعالى نبيه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ أن يقص على قريش قصة أهل القرية الذين أرسل إليهم رسله وكيف أهلكهم الله تعالى ودمرهم بالصيحة جميعاً عندما كذبوا وتمردوا عليهم، ليعتبروا بهم ويحذروا أن يحل بهم مثل ما قد حل بأهل تلك القرية.

﴿إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُمْ مُرْسَلُونَ۝١٤ قَالُوا مَا أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا﴾ وهؤلاء الرسل الذين أرسلهم الله تعالى كانوا من حواري عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ كان قد بعثهم ليرشدوا أهل تلك البلاد وينذروهم، وقد أرسل إليهم أولاً رسولين فكذبوهما، وأنكروا أنهما رسولان من عند الله، فعززهما الله سبحانه وتعالى برسول ثالث، ولكنهم أصروا على تكذيبهم وتمردهم، وقالوا لو كانوا رسلاً من عند الله لما كانوا بشراً مثلهم، ولكانوا جنساً غير جنسهم كالملائكة.

﴿وَمَا أَنْزَلَ الرَّحْمَنُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ۝١٥﴾ وأنكروا أن يكون الله تعالى قد أرسلهم أو أنزل وحياً أو كتاباً.

﴿قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ۝١٦ وَمَا عَلَيْنَا إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ۝١٧﴾ فبعد أن أنكروهم وكذبوهم أقسموا لهم على ذلك، وأخبروهم أنهم قد أدوا ما يجب عليهم من تبليغهم وإنذارهم فإن شاءوا قبلوا، وإن أرادوا أن يتمردوا

فحسابهم عند الله سبحانه وتعالىٰ وسيجازيهم ويعذبهم.

﴿قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴿١٨﴾﴾ ثم إن أهل هذه القرية هموا بطرد الرسل وتشاءموا بهم، وزعموا أنهم لم يروا خيرا من حين أقبلوا إليهم، وأنهم لو كانوا رسلاً من عند الله سبحانه وتعالىٰ كما يزعمون لأقبل الخير معهم، وهددوهم بأنهم إن لم ينتهوا عن دعوتهم وتبليغهم فسوف يقتلونهم شر قتلة رمياً بالحجارة حتىٰ يموتوا، وسوف يلحقون بهم أشد العذاب إن لم يقلعوا عن دعوتهم الكاذبة.

﴿قَالُوا طَائِرُكُمْ مَعَكُمْ أَئِنْ ذُكِّرْتُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ﴿١٩﴾﴾ فأجابت عليهم الرسل بهذا الجواب: وهو أن الشؤم الذي لحقهم هو بسبب أعمالهم وذنوبهم، وأن شؤمهم من عند أنفسهم؛ ولو أنكم شكرتم الله تعالىٰ وآمنتم برسله لما لحق بكم ما لحق من الجدب والغلاء وموت البهائم والأطفال وعقم النساء، وغير ذلك من المصائب، وأن سبب ما هم فيه هو تجاوزهم للحد في معصية الله تعالىٰ، وسعيهم للإفساد في الأرض.

﴿وَجَاءَ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى قَالَ يَاقَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ﴿٢٠﴾ اتَّبِعُوا مَنْ لَا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴿٢١﴾﴾ وقد أقبل عليهم رجل من أطراف هذه المدينة يقال له مؤمن آل يس، وكان الإيمان قد دخل في قلبه، فدخل علىٰ قومه ينصحهم بأن يستجيبوا لدعوة الله تعالىٰ ودعوة رسله، وأن الأولىٰ بهم أن يتبعوهم ويؤمنوا لهم؛ لأنهم إنما يدعونهم إلىٰ ما فيه نجاتهم وخلاصهم.

﴿وَمَا لِيَ لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴿٢٢﴾﴾ استنكر هذا الرجل الذي آمن علىٰ قومه فقال: لماذا نعبد الأصنام التي لا تملك شيئاً، ونترك عبادة الله سبحانه وتعالىٰ الذي بيده خلقنا، وإليه مرجعنا وإليه حسابنا؟

ووعظهم وذكرهم بالله سبحانه وتعالىٰ، وأنه الإله الذي يستحق أن يتوجهوا بالعبادة إليه.

﴿ءَأَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ ءَالِهَةً إِنْ يُرِدْنِ الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ لَا تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا وَلَا يُنْقِذُونِ۝٢٣﴾ وكيف أتخذ آلهة من دون الله سبحانه وتعالى، وهو الذي خلقني؟ ومن الذي سيدفع عني الضر والبلاء إن أراد أن ينزله بي؟ وهل تستطيع هذه الأصنام أن تدفع عني ذلك الضر والبلاء، أو تنقذني من الهلكة إن أراد الله تعالى إنزالها بي؟

﴿إِنِّي إِذًا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ۝٢٤﴾ فبعد كل هذا إن عبدت تلك الأصنام، أو اتخذت إلهاً غير الله سبحانه وتعالى فاعلموا أني خارج عن طريق الهدى والصواب.

وقد أراد هذا المؤمن بذلك كله أن يبعثهم على النظر والتفكر؛ إذ يستثيرهم بطريق غير مباشرة، وذلك من خلال توجيهه هذه التساؤلات واللوم إلى نفسه، وكذلك ما فيه من لفت أنظارهم، وجذب انتباههم إليه.

﴿إِنِّي ءَامَنْتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ۝٢٥﴾ ثم أعلن إيمانه على مسمع من قومه، وطلب منهم أن يسمعوا حجج الله وبيناته التي تدل على إلهيته وربوبيته.

﴿قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ﴾ فبعد أن أفصح لقومه عن إيمانه ووعظهم وذكرهم بالله سبحانه وتعالى قتلوه شر قتلة، وقد روي أنهم داسوه بأقدامهم إلى أن مات.

﴿قَالَ يَالَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ۝٢٦ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ۝٢٧﴾ أخبر الله تعالى عن ما صار إليه ذلك المؤمن من المنازل الرفيعة والكرامة عنده، وما تمنى بعد موته على قومه بأنهم لو كانوا يعلمون بما صار إليه من الكرامة والنعيم عند الله سبحانه وتعالى، وما غفر له من الذنوب بسبب إيمانه؛ وتمنيه ذلك كان إشفاقاً على قومه من عذاب الله سبحانه وتعالى؛ لأنهم لو عرفوا ما صار فيه لسارعوا إلى الإيمان بالله تعالى.

﴿وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى قَوْمِهِ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ جُنْدٍ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا كُنَّا مُنْزِلِينَ۝٢٨ إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ۝٢٩﴾ يخبر الله سبحانه وتعالى عن حال أهل هذه القرية عندما أرسل إليهم رسله وكذبوهم كيف عذبهم؟

وكيف يكون سرعة انتقامه؟ فلم يحتج إلى أن ينزل عليهم جنوداً من السماء ليقتلوهم وإنما بصيحة واحدة أهلكتهم جميعاً في لحظة واحدة عن بكرة أبيهم.

أمر الله سبحانه وتعالى نبيه أن يقرأ على قريش قصة أهل هذه القرية ليعتبروا بها ويعتزلوا ما هم فيه من التكذيب والاستهزاء.

﴿يَاحَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ۝٣٠﴾ إن اختيار الناس للكفر بآيات الله وتكذيب رسله عليهم السلام سيكسبهم سخط الله وغضبه ويستوجبون به عذاب جهنم خالدين فيها أبداً.

﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ۝٣١﴾ يحث الله سبحانه وتعالى قريشاً على النظر في تلك الأمم والأجيال والتتبع لأخبارهم، وما جرى عليهم؛ ليعرفوا كيف أهلكهم الله تعالى ودمرهم بسبب تمردهم وتكذيبهم واستهزائهم؛ لعلهم يعتبرون بهم وبما جرى عليهم بسبب صنيعهم.

﴿وَإِنْ كُلٌّ لَمَّا جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ۝٣٢﴾ ثم أكد الله تعالى لهم أن تلك الأمم التي أهلكها الله تعالى سيبعثهم إليه يوم القيامة ليجازيهم على جميع أعمالهم التي عملوها.

﴿وَءَايَةٌ لَهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ۝٣٣ وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ۝٣٤﴾ ثم ضرب الله سبحانه وتعالى لقريش مثلاً الأرض الميتة المجدبة كيف يحييها بعد موتها بالخضرة والنبات بعد أن كانت يباساً لا أثر للحياة عليها؛ لأنهم كانوا ينكرون البعث بعد الموت، ويستبعدون ذلك أشد الاستبعاد، فضرب الله سبحانه وتعالى لهم هذا المثل لينظروا ويتفكروا بعقولهم ليعرفوا أن شأن البعث بعد الموت كشأن الأرض التي يرونها يابسة مجدبة ثم يرون الحياة تدب على ظهرها من جديد، وتكتسي بالخضرة والنبات، ويعرفوا قدرة الله سبحانه وتعالى على إحيائهم بعد موتهم.

﴿لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴿٣٥﴾﴾ جعل الله تعالىٰ لهم ذلك ليشكروه سبحانه وتعالىٰ علىٰ ما أخرج لهم من طيبات الرزق يأكلون، ويتنعمون من خيراتها، وما أخرجت لهم من الثمار المتنوعة.

﴿سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴿٣٦﴾﴾ أراد الله سبحانه وتعالىٰ بذلك أصناف المخلوقات التي خلقها وأوجدها علىٰ وجه الأرض، وأنه تنزه وتقدس عن أن يكون له شريك فهو وحده المتفرد بالقدرة علىٰ كل ذلك.

﴿وَءَايَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ﴿٣٧﴾﴾ وأيضاً أمر الله سبحانه وتعالىٰ أولئك المكذبين بمحمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، وبما جاء به من عند الله سبحانه وتعالىٰ أن ينظروا في الآية التي جعلها لهم في الليل كيف يخرج منه النهار، ويسلخه منه سلخاً.

﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴿٣٨﴾﴾ وكذلك أرشدهم أن ينظروا في الآية التي جعلها لهم في الشمس كيف تجري في مسارها الذي رسمه الله سبحانه وتعالىٰ لها، وفي منازلها التي حددها لها لا تتخلف عن ذلك أو تتغير إلىٰ أن يهلك الله الأرض ومن عليها.

﴿وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ﴿٣٩﴾﴾ وكذلك أرشدهم أن ينظروا في الآية التي جعلها لهم في القمر، والمنازل التي رسمها له والتي تعرف بها الأيام والشهور؛ فإنك تراه علىٰ مسارات محدودة، ومنازل معلومة طول الشهر في ميزان دقيق لا تتغير منازله تلك أو تتبدل إلىٰ أن يرث الله الأرض ومن عليها.

ثم أخبر سبحانه وتعالىٰ أن القمر في كل منزلة ينقص قليلاً حتىٰ يصير في الدقة كالعرجون القديم.

وقد شبهه الله سبحانه وتعالىٰ بالعرجون القديم الذي هو عود عنقود ثمر النخل عندما ييبس.

وما جعله الله سبحانه وتعالى من المنازل للقمر فلفوائد كثيرة جعلها لعباده وأنعم بها عليهم، ويجب عليهم أداء شكرها، وأيضاً ما جعل في ذلك من الآية الدالة على قدرته وعلمه وتدبيره.

﴿لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴿٤٠﴾﴾ ثم أخبر الله سبحانه وتعالى أنه قد جعل للشمس منازل مقدرة تسير فيها، وأنه يكون لها في كل يوم منزلة تسير فيها على طول العام ثلاثمائة وستون منزلة، وكذلك القمر يسير في منازل حددها الله سبحانه وتعالى له على مدار الشهر لا يتخلف عنها، وأن كل واحد من الشمس والقمر يسير في مكانه المحدد والمقدر من دون أن يحدث بينهما أي تصادم أو تلاقي.

وكذلك الليل والنهار يتعاقبان فيما بينهما بقدرته تعالى، ولا يمكن أن يختل ذلك التعاقب أو يتغير؛ فلماذا لا ينظر هؤلاء المشركون في هذه الآيات ليعرفوا قدرة مدبرها وعلمه؟

﴿وَءَايَةٌ لَهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ﴿٤١﴾﴾ ثم ذكر الله تعالى أنه جعل لهم آية من آياته الدالة عليه وعلى قدرته وعلمه، وهي أنه تعالى برحمته سخر السفن لحمل بني آدم والمشي بهم على ظهر الماء وفوق الأمواج؛ فمن هو الذي يمسك هذه السفن ويحفظها من الغرق؟ ومن الذي سخر الريح لتسييرها؟

فكل ذلك آية من آياته الدالة عليه، وأثر من آثار رحمته بعباده، ونعمة من نعمه العظيمة عليهم التي ينبغي أن يشكروه ويعبدوه حق عبادته.

﴿وَخَلَقْنَا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ﴿٤٢﴾﴾ ثم أخبر الله سبحانه وتعالى أنه قد سخر لهم ما يركبون على ظهره في البر، وأراد بذلك الإبل والخيل والحمير التي تحملهم وتحمل أثقالهم وبضائعهم وأمتعتهم من بلد إلى بلد، ويلحق بذلك ما سخره لهم في زماننا هذا من الطائرات التي تحملهم في الجو وتسافر بهم البلاد البعيدة ومن السيارات.

﴿وَإِنْ نَشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنْقَذُونَ﴿٤٣﴾﴾ فإذا أراد الله سبحانه وتعالىٰ أن يغرقهم في البحر فمن الذي يستطيع أن ينقذهم؟

والصريخ هو المنادي بالغوث والطالب للنجدة.

﴿إِلَّا رَحْمَةً مِنَّا وَمَتَاعًا إِلَى حِينٍ﴿٤٤﴾﴾ فلن يستطيع أحد أن ينقذهم إلا إذا شملتهم رحمة الله سبحانه وتعالىٰ واقتضت حكمته أن يمتعهم في الدنيا ويمهلهم إلىٰ أن يستوفوا آجالهم المعلومة والمكتوبة.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴿٤٥﴾﴾ يخبر الله سبحانه وتعالىٰ هنا عن طبيعة المشركين وذلك أن النبي ﷺ إذا وعظهم وذكرهم بالله سبحانه وتعالىٰ وأن يحذروا غضبه وسخطه الذي قد استحقوه واستوجبوه بسبب معاصيهم وشركهم بالله تعالىٰ، وأن يتقوا عذابه الذي أوشك علىٰ النزول بهم في الدنيا؛ وقد أراد بقوله: ﴿وَمَا خَلْفَكُمْ﴾ أن يتقوا عذاب يوم القيامة، فإنهم يعرضون عنه أشد الإعراض وينكرون ما يحذرهم منه وينذرهم بوقوعه بهم إن استمروا علىٰ شركهم.

﴿وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ ءَايَةٍ مِنْ ءَايَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴿٤٦﴾﴾ أراد الله تعالىٰ بهم قريشاً، يخبر الله سبحانه وتعالىٰ عن شدة عنادهم وتمردهم واستكبارهم علىٰ الله تعالىٰ وعلىٰ نبيه ﷺ وإعراضهم عن آياته التي ينزلها عليهم، فلا ينزل لهم آية إلا وكذبوا بها وأعرضوا عنها استكبارا وعنادا عن قبول الحق.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا أَنُطْعِمُ مَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ﴾ وإذا طلب أحد منهم الإنفاق من فائض أموالهم علىٰ أرحامهم وفقرائهم فإنهم يستنكرون علىٰ من يعظهم بذلك، فكيف يعترضون علىٰ حكم الله تعالىٰ حيث ضيق عليهم في الرزق ويطعمون هؤلاء الذين لو شاء الله أن يغنيهم لأغناهم ولأنعم عليهم؟ ويزعمون أنهم لو أطعموهم وأعطوهم لاعترضوا علىٰ مشيئة الله سبحانه وتعالىٰ وإرادته.

﴿إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ۝٤٧﴾ وعندما يعظهم النبي ﷺ والمؤمنون بشيء من ذلك فإنهم ينسبونهم إلى الضلال والغواية عن طريق الحق والهدى.

﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ۝٤٨﴾ وعندما يحذرونهم سخط الله وعقابه فإنهم يستهزئون بهم، وينكرون ذلك اشد الإنكار، ويطلبون منهم أن يعجلوا بنزول هذا العذاب إن كانوا صادقين فيما يزعمون.

﴿مَا يَنْظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ ۝٤٩﴾ فأجاب الله سبحانه وتعالى عليهم بأنه قد قرب ما يستعجلونه من العذاب، ولن يلبثوا إلا يسيراً وسيرون ذلك الذي يكذبونه وينكرون نزوله.

﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَا إِلَى أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ ۝٥٠﴾ وأن ذلك العذاب إذا حل بهم موعده فلا إمهال أو فرصة لهم في الرجوع وسيأخذهم بغتة، وقد أهلك الله سبحانه وتعالى كبار المشركين وعذبهم وقتلهم يوم بدر.

﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ إِلَى رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ ۝٥١﴾ ثم أخبر الله سبحانه وتعالى أنه عند حلول القيامة سوف ينفخ في صور بني آدم فيحييهم جميعاً، ويقومون من قبورهم جميعاً في وقت واحد متجهين إلى ساحة المحشر للحساب والجزاء.

﴿قَالُوا يَاوَيْلَنَا مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا﴾ يعبر الله سبحانه وتعالى عن شدة الفزع والذهول الذي يكون على المشركين والمكذبين عند قيامهم وبعثهم، وكيف ينادون بالويل على أنفسهم عندما يرون تحقق ما كانوا يوعدون به في الدنيا.

﴿هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ ۝٥٢﴾ فيقال لهم: هذا وعد الرحمن الذي كنتم تكذبون به وتنكرونه، وهذا تصديق ما كانت رسل الله تعالى وأنبياؤه ينذرونكم هذا هو يوم القيامة الذي كنتم تكذبون به.

﴿إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ ۝٥٣﴾ يخبر الله سبحانه وتعالى عن كيفية مبعثهم إليه، وسرعة إحيائهم بعد موتهم جميعاً في لحظة واحدة ووقت واحد ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ۝٨٢﴾.

﴿فَالْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴿٥٤﴾﴾ عند حضورهم إلىٰ ساحة المحشر سيعرفون أن الله سبحانه وتعالىٰ حينها سيحكم بينهم بالحكم الحق والعدل، وأنه سيجازيهم علىٰ جميع أعمالهم التي عملوها في الدنيا صغيرها وكبيرها، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر، لا يظلم مثقال ذرة وإن تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجراً عظيماً.

﴿إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغُلٍ فَاكِهُونَ﴿٥٥﴾ هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلَالٍ عَلَى الْأَرَائِكِ مُتَّكِئُونَ﴿٥٦﴾ لَهُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَلَهُمْ مَا يَدَّعُونَ﴿٥٧﴾﴾ يخبر الله سبحانه وتعالىٰ عن حال المؤمنين يوم القيامة بأن شغلهم الشاغل سيكون في النعيم الذي يتقلبون فيه هم وأزواجهم، وأن كل ما يطلبونه أو يتمنونه علىٰ الله سبحانه وتعالىٰ سيجدونه بين أيديهم.

﴿سَلَامٌ قَوْلًا مِنْ رَبٍّ رَحِيمٍ﴿٥٨﴾﴾ ويشرفهم الله تعالىٰ بالسلام عليهم في كل وقت وحين فنعم الشرف وما أعظمه من شرف.

﴿وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ﴿٥٩﴾﴾ ثم أخبر الله سبحانه وتعالىٰ عن حال المشركين والخارجين عن حدوده وشرائعه بأنهم علىٰ العكس من حال المؤمنين.

وقوله «امْتَازُوا» أي: انحازوا في جهة وبعد انحيازهم يخاطبهم الله فيقول لهم: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَابَنِي ءَادَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴿٦٠﴾﴾ فيسألهم الله سبحانه وتعالىٰ يوم القيامة ويبكتهم ويوبخهم بأنه قد عهد إليهم بشرائعه وأحكامه علىٰ ألسنة رسله وأنبيائه ينذرونهم ويحذرونهم عن عبادة الشيطان والسير في طريقه.

﴿وَأَنِ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴿٦١﴾﴾ وأيضاً يقول لهم: ألم أكن قد دعوتكم إلىٰ الهدىٰ وإلىٰ عبادتي وشكري علىٰ ألسنة رسلي، وترك عبادة ما دونه من الأصنام فرفضتم اتباعهم والإيمان بهم؟

﴿وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ﴿٦٢﴾﴾ ونهيتكم عن اتباع الشيطان وعبادته، وأخبرتكم أيضاً بأنه قد أضل أمماً كثيرة قبلكم، وجعلت لكم العقول التي تميزون بها وتعرفون الحق من الباطل، فلماذا لم تستجيبوا لهم وتؤمنوا لهم؟ أم هل كنتم بغير عقولكم عندما أرسلوا إليكم؟

﴿هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴿٦٣﴾ اصْلَوْهَا الْيَوْمَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴿٦٤﴾﴾ فهذه جهنم التي كنتم تنكرونها، والتي حق عليكم عذابها بسبب استهزائكم وتكذيبكم بالرسل.

﴿الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴿٦٥﴾﴾ وذلك يوم القيامة عندما يبعث الله تعالى المشركين فسيقفل أفواههم فلا يستطيعون التفوه بأي كلمة، وعندها ستتكلم بدل ذلك أيديهم وأرجلهم، وستشهد عليهم بما عملوا وزاولوا بها من المعاصي والمنكرات.

﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَطَمَسْنَا عَلَى أَعْيُنِهِمْ فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ فَأَنَّى يُبْصِرُونَ﴿٦٦﴾﴾ أخبر الله سبحانه وتعالى عن هؤلاء المشركين المصرين على كفرهم وتكذيبهم بأنه الذي قد خلق لهم الأسماع والأبصار وأنه لو شاء لذهب بها ولسلبها عنهم فلا يستطيعون أن يبصروا أو يسمعوا أو يهتدوا إلى سواء الطريق فلماذا لا يشكرون الله تعالى على ما أنعم عليهم من الأسماع والأبصار والعقول؟

﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَمَسَخْنَاهُمْ عَلَى مَكَانَتِهِمْ فَمَا اسْتَطَاعُوا مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ﴿٦٧﴾﴾ ولو شاء الله تعالى أن يسلب قواهم لسلبها فلا يستطيعون حركة أو مزاولة أي عمل؛ فلماذا لا يخافون من الله تعالى الذي أنعم عليهم بالأسماع والأبصار وأعطاهم القوة والقدرة على الحركة والمشي؟ ولماذا لا يستعملون ذلك في طاعته وما يرضيه؟

﴿وَمَنْ نُعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ أَفَلَا يَعْقِلُونَ﴿٦٨﴾﴾ ثم أخبر الله سبحانه وتعالى أن مشيئته اقتضت أن تتناقص قوة الشباب التي أعطاها الله الإنسان مع

التقدم في السن شيئاً فشيئاً، وأن ذلك آية من آياته الدالة على قدرته لمن نظر وتفكر في خلق نفسه كيف خلقه الله سبحانه وتعالى ضعيفاً، ثم ينموا شيئاً فشيئاً إلى أن تكتمل قوته، ثم بعد ذلك يبدأ في التناقص شيئاً فشيئاً إلى أن تنتهي تلك القوة ويرجع ضعيفاً كما بدأه ضعيفاً.

﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُبِينٌ۝٦٩﴾ عندما قرأ محمد ﷺ على المشركين القرآن وبلغهم رسالة ربه قالوا: قد أصاب محمداً الجنون وقد أصبح يقول الشعر، فرد الله سبحانه وتعالى عليهم بأن محمداً لا يقول الشعر ولم يقله قبل أن يقرأ عليهم القرآن كما يعلمون، ولا ينبغي له أن يكون شاعراً، وأخبرهم أن ما يتلوه عليهم إنما هو كلام الله سبحانه وتعالى الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وأنه تنزيل رب العالمين.

﴿لِيُنْذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ۝٧٠﴾ وأن الله تعالى أنزله على نبيه ﷺ لينذر به الأحياء من أمته فهم الذين سيستجيبون له ويؤمنون به؛ وقد أراد الله سبحانه وتعالى بالأحياء الذين تواضعوا للحق ولم يأنفوا عن قبوله واتباعه، وجعل المشركين كالأموات الذين لا يستطيع الرسول ﷺ أن يسمعهم شيئاً مهما حاول إسماعهم.

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ۝٧١ وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ۝٧٢﴾ يستنكر الله سبحانه وتعالى على المشركين المصرين على كفرهم وضلالهم لماذا لا يتفكرون وينظرون فيما خلق لهم من الأنعام وفي تسخيرها لهم وفيما لهم فيها من المنافع من أكل لحومها، والانتفاع بصوفها والركوب على ظهورها؟ ومن الذي سخرها وذللها لهم على الرغم من كبر أجسامها وقوتها؟

﴿وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلَا يَشْكُرُونَ۝٧٣﴾ وكذلك فيما جعل لهم من المنافع الكثيرة فيها من الحرث واللبن وغير ذلك من المنافع الكثيرة.

فلماذا لا يشكرون الله تعالىٰ علىٰ ما أنعم عليهم من هذه النعم؟

﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ ءَالِهَةً لَعَلَّهُمْ يُنْصَرُونَ ۝٧٤﴾ ولكنهم بدل أن يشكروا الله سبحانه وتعالىٰ علىٰ نعمه عليهم ذهبوا إلىٰ عبادة غيره من تلك الآلهة التي يعلمون أنها لا تستطيع أن تفعل لهم شيئاً أو تنفعهم أو تنصرهم عند الحاجة.

﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُنْدٌ مُحْضَرُونَ ۝٧٥﴾ فلن تستطيع آلهتهم هذه التي يعبدونها وينتصرون بها أن تنصرهم بشيء أو تدفع عنهم شيئاً، وسوف يحضرهم الله سبحانه وتعالىٰ جميعاً هم وآلهتهم إلىٰ جهنم.

﴿فَلَا يَحْزُنْكَ قَوْلُهُمْ﴾ فلا يكبر في نفسك يا محمد تكذيبهم وصدهم عن دعوتك، وما يلحقونه بك من الأذىٰ، وما ينسبونه إليك من الافتراءات.

﴿إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ۝٧٦﴾ فنحن محصون لجميع أعمالهم ومطلعون عليها، وسنجازيهم علىٰ سرها وعلانيتها وصغيرها وكبيرها.

﴿أَوَلَمْ يَرَ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ ۝٧٧﴾ يحث الله سبحانه وتعالىٰ عباده علىٰ النظر والتفكر في كيفية ابتداء خلقهم ليعرفوا ضعفهم وحقارتهم عند الله سبحانه وتعالىٰ، وليعلموا أنهم لا يساوون شيئا، فكيف ينصبون أنفسهم لعداوة الله سبحانه وتعالىٰ وينصبون الحرب له؟ وكيف وصلت الجرأة بهم إلىٰ أن يتخذوا من دون الله آلهة، ثم يعاندون الله ويحاربونه وهو الذي خلقهم وأنعم عليهم؟

﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ۝٧٨﴾ وكيف وصلت الجرأة بهذا الإنسان الكافر أن يضرب هذا المثل الذي فيه إنكار البعث والحساب، وكيف يستبعدون قدرة الله سبحانه وتعالىٰ علىٰ ذلك؟

فلو أنه نظر في بداية خلقه لعرف صحة ما أخبرتهم به الرسل من البعث والجزاء.

﴿قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴿٧٩﴾﴾ فأمر الله سبحانه وتعالى نبيه ﷺ أن يجيب عليهم بأن من قدر على خلقهم وإيجادهم من العدم سيقدر حتماً على إحيائهم مرة ثانية بعد موتهم.

﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقِدُونَ﴿٨٠﴾﴾ وسيحييها القادر الذي قدر على أن يجعل لكم من ذلك الشجر الأخضر نارا تستنفعون بها بعد أن ييبس؛ فتفكروا في صنع من قدر على إيجاد هذه النار من الشجر الأخضر الممتلئ ماءً لتعلموا أن من فعل ذلك قادر على أن يخلق الإنسان ويعيد إليه حياته من رميم العظام.

﴿أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَى وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ﴿٨١﴾﴾ الذي قدر على خلق السماوات بأفلاكها والأرض وما فيها، وأوجدها من العدم ألا يقدر على أن يخلقهم مرة ثانية؟ بلى سيقدر على ذلك ما دام قد قدر على خلق ما هو أكبر وأعظم من ذلك.

﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴿٨٢﴾﴾ فهو قادر على كل شيء ولن يعجزه شيء، فإذا أراد شيئاً فإنه كائن لا محالة من دون مزاولة أي عمل أو حركة أو سكون.

﴿فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴿٨٣﴾﴾ فتنزه الله وتقدس عما يقوله المشركون، وعما يستبعدونه على قدرته، وعن كل ما ينسبون إليه من العجز، فهو المالك لأمر السماوات والأرض القادر على أن يتصرف في ملكه كيف يشاء وأنى يشاء، الذي بيده خلقكم وموتكم وبعثكم وإليه مرجعكم للحساب والجزاء.



سورة الصافات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالصَّافَّاتِ صَفًّا ۝١ فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا ۝٢ فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا ۝٣﴾ أقسم الله سبحانه وتعالى هنا بملائكته الصافة أجنحتها لعبادته تعالى، وبالزاجرات وهم الملائكة المكلفين بسوق الرياح والسحاب وإنزال الأمطار، وبالملائكة المكلفون بإنزال الذكر.

﴿إِنَّ إِلَٰهَكُمْ لَوَاحِدٌ ۝٤ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ الْمَشَارِقِ ۝٥﴾ أقسم الله سبحانه وتعالى بهذه الثلاثة الأصناف من الملائكة على أنه لا إله إلا إله واحد يستحق العبادة في السماوات والأرض وهو الله الذي خلقهما وخلق ما فيهما، وخلق منازل الشمس التي تشرق منها، وذلك أنها تشرق كل يوم من مكان محدود على طول أيام السنة، ولها كل يوم منزلة تشرق منها لا تتغير عنها أو تتبدل إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

﴿إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ ۝٦﴾ والله هو الذي زين هذه السماء التي ترونها بالكواكب المنيرة المتوهجة بقدرته كالزهرة والمشتري وعطارد والمريخ وما أشبهها من الكواكب شديدة التوهج، وأما تلك النجوم التي نراها خافتة فهي في غير سماء الدنيا.

﴿وَحِفْظًا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَارِدٍ ۝٧﴾ وأيضاً جعلها الله سبحانه وتعالى وهيأها لحراسة السماء من الشياطين التي تصعد إلى السماء لتسترق السمع، وما يدور بين الملائكة من الكلام، فإذا هم أحدها بالصعود قذفه الله سبحانه وتعالى بشهاب يحرقه.

﴿لَا يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلَإِ الْأَعْلَى وَيُقْذَفُونَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ ۝٨ دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ ۝٩﴾ أراد الله تعالى أن لا يتجسسوا على ما يجري في الملأ الأعلى بين الملائكة، فجعل الله سبحانه وتعالى تلك الشهب لتدحر وتحرق كل من صعد إلى السماء وهمَّ بذلك من مردة الشياطين.

﴿إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ ۝١٠﴾ ثم أخبر الله سبحانه وتعالىٰ أنه لا زال هناك شيء من الخطف من بعض مردة الشياطين الذين يستطيعون أن يصلوا إلىٰ السماء ويسترقوا السمع، ولكنه لا يستطيع أن يرجع بشيء فيطارده الله سبحانه وتعالىٰ بشهاب يحرقه ويعذبه.

﴿فَاسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمْ مَنْ خَلَقْنَا إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ طِينٍ لَازِبٍ ۝١١﴾ فاسأل المشركين يا محمد أهم أشد خلقاً من خلق الملائكة الذين خلقوا من نور، وذكرهم بضعفهم وأصل خلقهم كيف كان من التراب؛ والطين اللازب: هو الذي خلط بالماء حتىٰ اشتد تماسكه والتصقت أجزاءه.

﴿بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ ۝١٢ وَإِذَا ذُكِّرُوا لَا يَذْكُرُونَ ۝١٣﴾ ثم أخبر الله تعالىٰ عن نبيه ﷺ بأنه قد تعجب من تكذيب قومه واستهزائهم به وبما جاء به، وأنه إذا ذكرهم بآيات الله تعالىٰ فهم لا يتعظون ولا يتذكرون.

﴿وَإِذَا رَأَوْا آيَةً يَسْتَسْخِرُونَ ۝١٤ وَقَالُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ ۝١٥﴾ وأنهم إذا أنزل الله سبحانه وتعالىٰ عليهم آية من آياته، أو اطلعهم أحد علىٰ شيء من آياته فإنهم يتكلفون السخرية والتكذيب بها، وأما في الحقيقة فقد عرفوا أنها حق وصدق، وأنها آية من آيات الله سبحانه وتعالىٰ، وأيضاً يتهمون محمداً ﷺ بأن ما يتلوه ليس إلا من كلام السحرة والمشعوذين.

﴿أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ۝١٦﴾ وكانوا أيضاً ينكرون البعث والحساب، ويستبعدون علىٰ الله سبحانه وتعالىٰ أن يقدر علىٰ إعادة خلقهم وإحيائهم بعد أن صارت عظامهم تراباً ورفاتاً.

﴿أَوَآبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ ۝١٧ قُلْ نَعَمْ وَأَنْتُمْ دَاخِرُونَ ۝١٨ فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنْظُرُونَ ۝١٩ وَقَالُوا يَاوَيْلَنَا هَذَا يَوْمُ الدِّينِ ۝٢٠ هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ ۝٢١﴾ فأمر الله سبحانه وتعالىٰ نبيه ﷺ أن يجيبهم بأن الله سبحانه وتعالىٰ لا بد أن يبعثهم وسوف يعيد خلقهم وهم صاغرون، وأن ما

ينكرونه سوف يرون عما قريب تحقق وقوعه، وعند ذلك سينادون على أنفسهم بالويل والثبور.

﴿احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ۝٢٢ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ۝٢٣ وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ۝٢٤﴾ فعند ذلك سيأمر الله سبحانه وتعالى ملائكة العذاب بأن يجمعوا أولئك المكذبين بآياته مع أزواجهم ومعبوداتهم فيقفون بهم وقفة بين يدي الله سبحانه وتعالى للمحاكمة والمساءلة، ثم يسوقونهم على وجوههم إلى جهنم وبئس المصير.

﴿مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ۝٢٥﴾ يسألهم الله تعالى عن آلهتهم التي كانوا يعبدونها ويدعون أنها ستنصرهم، وستدفع عنهم إن احتاجوا إليها فيسألهم الله سبحانه وتعالى أين تلك الآلهة لكي تنصركم وتدفع عنكم؟ وهذا سؤال توبيخ يزيدهم الله به غماً إلى غمهم.

﴿بَلْ هُمُ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ۝٢٦﴾ ولكن خاب ظنهم فيها، فلم يبق لهم إلا الاستسلام لله تعالى ذليلين مقهورين صاغرين.

﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ۝٢٧ قَالُوا إِنَّكُمْ كُنْتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ۝٢٨ قَالُوا بَلْ لَمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ۝٢٩﴾ يخبر الله تعالى عن حال أهل النار عند سوقهم إليها كيف يتلاومون فيما بينهم، وكل واحد يرد اللوم على صاحبه في أنه السبب في ضلاله وخروجه بما كان يزعم أنه يبذل له النصح في الكفر بالنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ وبما جاء به، ويدعي أنه إنما يشفق عليه من الضياع والهلاك، فيجيبه صاحبه بأنه ليس السبب كما يزعم، وأنه الذي أتي من قبل نفسه، ولم يكن يريد الإيمان كما يزعم وإلا لما استجاب لداعي بالكفر.

﴿وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بَلْ كُنْتُمْ قَوْمًا طَاغِينَ۝٣٠﴾ وأنك الذي تركت الحق بمحض إرادتك واختيارك، فلم نقسرك على الضلال قسراً أو نكرهك عليه.

﴿فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَا إِنَّا لَذَائِقُونَ۝٣١﴾ وأن ما صرنا فيه من العذاب إنما هو بما جنيناه على أنفسنا وقد وقعنا فيما أنذرتنا به رسل الله من العذاب ولا مخرج لنا منه.

﴿فَأَغْوَيْنَاكُمْ إِنَّا كُنَّا غَاوِينَ۝٣٢ فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ۝٣٣﴾ وقد استجبتم لنا عندما دعوناكم إلى الضلال، فقد صرنا جميعاً سواء في الغواية والعذاب.

﴿إِنَّا كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ۝٣٤﴾ أخبر الله سبحانه وتعالى أن هذا هو حكمه في كل من ضل وخرج عن الطريق.

﴿إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ۝٣٥ وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوا ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَجْنُونٍ۝٣٦﴾ يبين الله سبحانه وتعالى السبب في استحقاقهم العذاب بأنهم كانوا إذا دعاهم أحد إلى عبادة الله سبحانه وتعالى وحده فإن الكبر يأخذهم عن قبول الحق، ويستنكرون على النبي ﷺ إذا ذكرهم بالله تعالى، فكيف يتركون آلهتهم تلك لأجل كلام شاعر قد أصابه الجنون.

﴿بَلْ جَاءَ بِالْحَقِّ وَصَدَّقَ الْمُرْسَلِينَ۝٣٧﴾ فيجيب الله سبحانه وتعالى عليهم بأنه ليس بشاعر ولا مجنون كما يقولون، وأنه إنما أتاهم بالدين الحق من عند الله سبحانه وتعالى، وقد سلك في دعوته نفس الطريق التي سار عليها المرسلون قبله، ،جاء بما جاءوا به من الحق.

﴿إِنَّكُمْ لَذَائِقُو الْعَذَابِ الْأَلِيمِ۝٣٨ وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ۝٣٩ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ۝٤٠ أُولَئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَعْلُومٌ۝٤١ فَوَاكِهُ وَهُمْ مُكْرَمُونَ۝٤٢ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ۝٤٣ عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ۝٤٤﴾ التبشير والإنذار هو الدين الذي جاء به الأنبياء والمرسلون من عند الله رب العالمين، وهو إنذار من أشرك بالله سبحانه وتعالى وعبد غيره بالعذاب الأليم في نار جهنم، وتبشير من آمن بالله تعالى وصدق رسله بالثواب العظيم في جنات النعيم، ثم وصف الله سبحانه وتعالى ذلك النعيم الذي أعده لأهل الجنة بأنه أصناف المأكولات من الفواكه المتنوعة

والأكلات الكثيرة المتعددة، مع ما يكون من اجتماعهم مع أصحابهم وندمائهم يتبادلون أطراف الحديث فيما بينهم مع ما يكون من الخدم والحشم الذين يحفون بهم وينتظرون أوامرهم، ويقدمون لهم كؤوس المشروبات التي يتلذذون بها ويستمتعون بشربها.

﴿يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ۝٤٥ بَيْضَاءَ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ۝٤٦ لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنْزَفُونَ۝٤٧﴾ ثم وصف الله سبحانه وتعالى المشروبات التي يطاف عليهم بها بأنها من الخمر التي يتلذذون بشربها من دون أن تغير عقولهم أو يصيبهم الصداع من شربها كما هو الحال في خمر الدنيا، ولن يلحقهم أي ضرر من شربها.

﴿وَعِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ عِينٌ۝٤٨ كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَكْنُونٌ۝٤٩﴾ الحور العين اللواتي خلقهن الله وسخرهن لمتعة أزواجهن، فلا يرفعن أبصارهن إلى غيرهم أبداً، وهن كاملات الحسن والجمال واسعات العيون يشبهن في صفاء أبشارهن وحسنها وجمالها اللؤلؤ الذي لم يتعرض للشمس ولا للهواء.

﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ۝٥٠﴾ ثم وصف الله تعالى اجتماعهم على الأرائك، وكيف يتبادلون الحديث فيما بينهم، وما يدور بينهم من الحوار فقال: ﴿قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ۝٥١ يَقُولُ أَئِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ۝٥٢﴾ فيخبر بعضهم عن بعض ما جرى عليه في الدنيا وما حصل له فيها من وساوس شياطين الإنس والجن، وكيف كانوا يستنكرون عليه إيمانه بالله تعالى وتصديقه برسله، وكيف كانوا يدعونه إلى التكذيب بالله تعالى وبرسوله.

﴿أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَدِينُونَ۝٥٣﴾ وما كان هذا القرين يستنكر عليه من الإيمان بالبعث والحساب.

﴿قَالَ هَلْ أَنْتُمْ مُطَّلِعُونَ۝٥٤ فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ۝٥٥﴾ ثم ما يكون منهم من دعوة بعضهم البعض إلى الخروج للاطلاع على أهل النار وهم يعذبون فيها، وكيف سيرى كل واحد قرينه الذي كان يحاول إضلاله في الدنيا.

﴿قَالَ تَاللَّهِ إِنْ كِدْتَ لَتُرْدِينِ۝٥٦ وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنْتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ۝٥٧﴾ وما سيقوله عندما يرى قرينه ذلك وهو يعذب، وأنه سيحمد الله تعالىٰ أنه قد تداركه برحمته ووفقه في عدم الاستجابة والسماع لمحاولة قرينه في إضلاله وإغوائه.

﴿أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ۝٥٨ إِلَّا مَوْتَتَنَا الْأُولَى وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ۝٥٩﴾ وما سيقوله لذلك القرين، ويذكره بما كان ينكر من البعث والحساب، وما صار إليه بسبب ما كان ينكره.

﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ۝٦٠ لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ۝٦١﴾ وأنه سيحمد الله سبحانه وتعالىٰ علىٰ سلامته من العذاب، والفوز بالجنة والنعيم الذي ينبغي أن يجد المرء جده ليصل إليه.

﴿أَذَلِكَ خَيْرٌ نُزُلًا أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ۝٦٢﴾ ومما يقوله لقرينه أيضاً: أي النُّزُلين أفضل: أَطَعَام الزقوم ذلك الذي تأكله؟ أم النعيم العظيم الذي في الجنة الذي حرمت منه بسبب كفرك وتكذيبك؟

﴿إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِلظَّالِمِينَ۝٦٣ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ۝٦٤ طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ۝٦٥﴾ ثم أخبر الله سبحانه وتعالىٰ أن أصل منبت شجرة الزقوم هذه في وسط جهنم، وأنها نبتت لأجل تعذيب الظالمين بما يأكلون من ثمارها القبيحة ومذاقها اللاسع الأليم.

﴿فَإِنَّهُمْ لَآكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ۝٦٦﴾ وسيأكلون منها وإذا أكلوا فإنها ستقطع أمعاءهم، وستشوي أجوافهم من شدة حرارتها ومرارتها.

﴿ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِنْ حَمِيمٍ۝٦٧﴾ وما سيجعل الله سبحانه وتعالىٰ لهم مع هذا الأكل من شراب الحميم الذي يقطع أمعاءهم.

﴿ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى الْجَحِيمِ۝٦٨﴾ ومع أكلهم وشربهم من الحميم فلا زالوا أيضا يتقلبون بين النار ولهيبها، ويذوقون أصناف العذاب في وسطها.

﴿إِنَّهُمْ أَلْفَوْا ءَابَاءَهُمْ ضَالِّينَ ﴿٦٩﴾ فَهُمْ عَلَى ءَاثَارِهِمْ يُهْرَعُونَ ﴿٧٠﴾﴾ ثم ذكر الله سبحانه وتعالى السبب فيما صاروا إليه من العذاب، وهو أنهم سلكوا في الدنيا طريقة آبائهم في الشرك والضلال وعبادة الأصنام.

﴿وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٧١﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِمْ مُنْذِرِينَ ﴿٧٢﴾ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ ﴿٧٣﴾ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿٧٤﴾﴾ ثم أخبر الله سبحانه وتعالى نبيه ﷺ بأن أكثر الأمم السابقة كانوا على طريقة قومه في الشرك وعبادة الأصنام على الرغم من الأنبياء الذين أرسلهم الله إليهم يدعونهم إلى عبادة الله تعالى وحده وينذرونهم لقاء ربهم، وقد أهلكهم الله تعالى وعذبهم بسبب تكذيبهم وتمردهم، لم ينج منهم أحد إلا من كان آمن بالله تعالى.

﴿وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ ﴿٧٥﴾ وَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾﴾ ثم أخبر الله سبحانه وتعالى نبيه بأنه قد استجاب لنوح عليه السلام عندما دعاه بأن يحكم بينه وبين قومه، وقد أنزل بهم عذابه فأغرقهم وأهلكهم جميعاً، ولم ينج منهم إلا من كان قد آمن من أهله.

﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ ﴿٧٧﴾﴾ وأنه لم يبق على وجه الأرض بعد ذلك العذاب المستأصل من بني آدم إلا نوح ومن آمن من أهله وأولاده، وأن كل من على وجه الأرض الآن من البشر فهم من عقبه.

﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ﴿٧٨﴾ سَلَامٌ عَلَى نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ ﴿٧٩﴾ إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٨٠﴾﴾ ثم أخبر الله سبحانه وتعالى عن نبيه نوح عليه السلام بأنه قد أعطاه ثواب الدنيا مع ثواب الآخرة جزاءً على صبره في سبيل نشر دينه والدعوة إليه، وذلك بما جعل له من الذكر الحسن والثناء الجميل بين جميع الأمم إلى يوم القيامة، وأن هذا الجزاء سيجازي به كل من أحسن إلى الله سبحانه وتعالى وامتثل لأوامره وانتهى عما نهاه عنه.

﴿إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ۝٨١ ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ۝٨٢﴾ وكل ما أعطى الله سبحانه وتعالى نبيه نوحاً عليه السلام من إجابة دعائه، وما جعل له من الثواب في الدنيا والآخرة هو لأجل إيمانه بالله تعالى، وصبره في طاعته ومرضاته.

﴿وَإِنَّ مِنْ شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ۝٨٣﴾ ثم ذكر الله تعالى أن ممن سار على طريقة نوح عليه السلام من الدعوة إلى الله تعالى والصبر على دينه إبراهيم عليه السلام، فأخبر أنه من المشايعين له على دعوته ومن المصدقين بنبوته ورسالته.

﴿إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ۝٨٤﴾ وقد أثنى الله سبحانه وتعالى عليه بأن قلبه كان نظيفاً من الشرك بالله تعالى وعبادة الأصنام قبل أن يبعثه الله تعالى للنبوة ويصطفيه للرسالة.

﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ۝٨٥ أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ۝٨٦﴾ وأثنى الله تعالى عليه أيضاً بسبب ما كان منه من الصبر والتفاني في الدعوة إلى الله تعالى، وما بذل من نفسه في سبيل نشر دعوته ودينه، وما لاقاه من قومه في سبيل ذلك، وكيف واجههم غير مبال بهم ولا بآلهتهم مع عظم الأمر الذي قام به.

﴿فَمَا ظَنُّكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ۝٨٧﴾ فلماذا تتركون عبادة رب السماوات والأرض وما فيهما الذي هو جدير بالعبادة دون تلك الأحجار التي تنحتونها بأيديكم.

﴿فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ۝٨٨ فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ۝٨٩ فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ۝٩٠﴾ قد حكى الله سبحانه وتعالى في سورة الأنعام مجادلة إبراهيم لقومه في قوله: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي.......إلى قوله.. لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ۝٧٧﴾ [الأنعام:٧٦،٧٧]، وما كان من استدراجه لهم إلى التسليم لكذب ما يدعون، فهذا هو المراد في هذه الآية؛ ولكنهم بعد أن ألزمهم الحجة وغلبهم أصروا على كفرهم وتمردهم، ونفروا من إبراهيم وما يدعوهم إليه.

﴿فَرَاغَ إِلَى ءَالِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ۝٩١ مَا لَكُمْ لَا تَنْطِقُونَ۝٩٢﴾ بعد أن حاججهم وألزمهم الحجة ولم يؤمنوا وأصروا على كفرهم، تحول بعد ذلك إلى

آلهتهم التي يعبدونها من دون الله تعالى يسألها: لماذا لا تأكلي من هذه القرابين التي يقدمونها إليك؟ ولماذا لا تجيبين على ما سألتك؟

وسؤاله لها إنما كان تهكماً بها وسخرية من قومه عندما يعبدونها.

﴿فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ﴿٩٣﴾﴾ فعزم على تكسيرها وتحطيمها، ولم يُبْقِ إلا على كبيرها لحاجة أضمرها في نفسه، وذلك أن الله سبحانه وتعالى ألهمه أن يترك كبيرها ليحاجج قومه بتوجيه اللوم عليه.

﴿فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَزِفُّونَ﴿٩٤﴾ قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ﴿٩٥﴾ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴿٩٦﴾﴾ عندما علموا بما فعل أقبلوا عليه عازمين على الانتقام لآلهتهم، فسألهم: كيف تعبدون حجراً تنحتونه بأيديكم؟ مستنكراً عليهم خفة عقولهم عندما يجعلون إلههم حجراً لا تسمع ولا تبصر، ويتركون عبادة الذي خلقهم وخلق الأحجار التي ينحتونها بأيديهم.

﴿قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُنْيَانًا فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ﴿٩٧﴾﴾ عندما غلبهم إبراهيم عليه السلام بحجته، وعندما ألزمهم فلم يحيروا جواباً، عزموا على قتله والتخلص منه فأضرموا له ناراً عظيمة، وألقوه بينها.

﴿فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ﴿٩٨﴾﴾ أرادوا أن يحرقوه ويتخلصوا منه فنجاه الله سبحانه وتعالى من تلك النار التي ألقوه فيها، وجعلها برداً وسلاماً عليه، وخابوا فيما أرادوا من الكيد به وقتله.

﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيَهْدِينِ﴿٩٩﴾﴾ وبعد أن أنجاه الله تعالى من النار عزم على الهجرة من بين قومه إلى أرض الشام بأمر من الله تعالى.

﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ﴿١٠٠﴾ فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ﴿١٠١﴾﴾ توكل إبراهيم على الله تعالى وفوض أمره إليه، ودعاه أن يرزقه بالذرية الصالحة، فاستجاب الله سبحانه وتعالى دعاءه، وأتته الملائكة تبشره بإسماعيل نبياً.

﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَابُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَاأَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ﴿١٠٢﴾﴾ وعندما بلغ إسماعيل مبالغ الرجال، وأصبح إبراهيم يعتمد عليه في كثير من أموره، ابتلى الله سبحانه وتعالى نبيه إبراهيم، وامتحنه بذبح ولده، فامتثل لأمر الله تعالى ورضي بقضائه، فشاور ولده في ذلك فاستسلم الولد لأمر الله تعالى ورضي بقضائه وقدره، وأعان والده على الامتثال والتسليم لأمر الله.

﴿فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ﴿١٠٣﴾ وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَاإِبْرَاهِيمُ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا﴾ فاستسلما لأمر الله سبحانه وتعالى، وأضجع إبراهيم ولده على جبينه، ووقف منتظراً لأمر الله له بالذبح؛ فناداه الله سبحانه وتعالى بأن قد فعلت ما أمرت به يا إبراهيم.

وذلك أن الله سبحانه وتعالى إنما كان أمره في الرؤيا بفعل مقدمات الذبح من أخذ السكين وسوق ولده إلى المنحر وإضجاعه على جبينه، وظن إبراهيم عندما رأى ذلك في المنام أن الله سيأمره بذبح ولده؛ فأخبره الله تعالى أنه لم يأمره بذلك؛ لأن قوله ﴿قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا﴾ يدل على أنه لم يؤمر إلا بمقدمات الذبح.

﴿إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴿١٠٥﴾﴾ ثم أخبر الله سبحانه وتعالى أنه قد جعل لهما ثواب الدنيا من الذكر الحسن والثناء الجميل بين جميع الأمم جزاءً على ما كان من صبرهما على امتثال أوامره، وسيجزي الله المحسنين الذين أحسنوا الطاعة لله بثواب الدنيا ثم ثواب الآخرة.

﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ﴿١٠٦﴾﴾ وأي اختبار فوق هذا الاختبار، وأي محنة أشد من هذه المحنة؟ ومن يستطيع أن يصبر على امتثال مثل هذه المحنة على عظمها وشدتها على النفس؟

فأخبر الله سبحانه وتعالى أنه بسبب ذلك استحق إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام هذا المدح والثناء.

﴿وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ﴾ بعد أن اجتاز محنته هذه وهبه الله سبحانه وتعالى كبشاً، وأمره بذبحه بدل ذبح ولده.

﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ سَلَامٌ عَلَى إِبْرَاهِيمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ﴾ ثم أخبر الله تعالى أنه قد أعطاه ثواب الدنيا، وجعل له ذكراً حسناً بين جميع الأمم التي تأتي بعده إلى يوم القيامة، والآخرين هم أمة محمد صلى الله عليه وآله وسلم فقد أمرهم الله سبحانه وتعالى أن يذكروه بالصلاة والتسليم، وهكذا جزاء الله سبحانه وتعالى في كل من أطاعه وامتثل لأوامره وتواضع للحق والهدى، ولم يعص الله تعالى فإنه يجازيه في الدنيا قبل الآخرة، ويجعل له الذكر الحسن على ألسنة الناس، وكل شخص يجزيه على قدر إحسانه وعلى قدر صبره في طاعة ربه.

﴿وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ كانت أول بشرى بشره الله سبحانه وتعالى بها كانت بإسماعيل عليه السلام، ثم بشره بعد ذلك بإسحاق، وأخبره أنه قد جعله نبياً أيضاً، ولم يرزقه الله سبحانه وتعالى بالأولاد إلا بعد أن بلغ أوان الشيخوخة، وتجاوز سن الإنجاب.

﴿وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَى إِسْحَاقَ﴾ وجعل في ذرية إسحاق بن إبراهيم البركة من النبوة والكتاب والحكمة.

﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِنَفْسِهِ مُبِينٌ﴾ ثم أخبر الله تعالى أنه قد خرج من ذرية إبراهيم وإسحاق الصالحون وغير الصالحين.

والبركة التي جعلها الله سبحانه وتعالى في ذريتهما هو ما جعل من النبوة والكتاب، وحملة العلم، والملك في ذريتهما زماناً طويلاً وقروناً عديدة إلى أن بعث الله تعالى نبيه محمداً صلى الله عليه وآله وسلم، وقد كان جميع أنبياء بني إسرائيل من ذرية إسحاق كموسى وعيسى وزكريا ويحيى ويعقوب ويوسف وغيرهم كثير، وأما إسماعيل عليه السلام فلم يكن في ذريته أي نبي إلا محمدٌ صلى الله عليه وآله وسلم.

﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَى مُوسَى وَهَارُونَ﴿١١٤﴾﴾ ثم أخبر الله سبحانه وتعالى نبيه ﷺ هنا بما أنعم به على موسى وهارون من النعم العظيمة أن اصطفاهما الله تعالى للنبوة وحمل الرسالة، وما أيدهما به من آياته العظيمة، وما جعل لهما من القوة على مقابلة فرعون الجبار، ومنن الله تعالى على موسى عليه السلام كثيرة منذ ولادته إلى أن اختاره الله تعالى لحمل رسالته.

﴿وَنَجَّيْنَاهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ﴿١١٥﴾ وَنَصَرْنَاهُمْ فَكَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ﴿١١٦﴾﴾ ومن نعم الله العظيمة على موسى وهارون عليهما السلام أن الله تعالى نجاهما وقومهما بني إسرائيل من ظلم فرعون وجبروته، وكان فرعون قد سخرهم لخدمته وللأعمال الشاقة وكان يذبح أبناءهم ويستحي نساءهم ثم إن الله تعالى نجا موسى وهارون وبني إسرائيل جميعاً من ظلم فرعون وأخرجهم على يد موسى وهارون عليهما السلام من مصر إلى الشام.

﴿وَءَاتَيْنَاهُمَا الْكِتَابَ الْمُسْتَبِينَ﴿١١٧﴾ وَهَدَيْنَاهُمَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴿١١٨﴾﴾ وآتاهما الله تعالى التوراة التي أوضح سبحانه وتعالى لهم فيها بيناته وحججه وشرائع أحكامه، وأوضح لهم فيها سبل الهدى.

﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِي الْآخِرِينَ﴿١١٩﴾ سَلَامٌ عَلَى مُوسَى وَهَارُونَ﴿١٢٠﴾ إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴿١٢١﴾﴾ وأخبره الله أيضاً بأنه قد جزاهما بثواب الدنيا قبل ثواب الآخرة فجعل لهما الذكر الحسن في أمة محمد ﷺ يذكرونهما إلى يوم القيامة، ويصلون عليهما، فقد أمر أمة محمد ﷺ بالتسليم على موسى وهارون والثناء عليهما، وأنه جعل ذلك ثواباً لهما وجزاءً على إحسانهما.

﴿إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ﴿١٢٢﴾﴾ فهذا هو السبب فيما جعل الله سبحانه وتعالى لهما من الثواب في الدنيا، على صبرهما في سبيل نشر دين الله تعالى، وحسن طاعته وما يقتضيه صدق الإيمان من الأعمال الصالحة.

﴿وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ۝١٢٣ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَلَا تَتَّقُونَ۝١٢٤﴾ ثم أخبر الله سبحانه وتعالى نبيه ﷺ بأنه أرسل إلياس إلى قومه يدعوهم إلى عبادة الله تعالى، ويحذرهم عذابه وسخطه إن استمروا على كفرهم وتكذيبهم.

﴿أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ۝١٢٥ اللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ ءَابَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ۝١٢٦﴾ وقد استنكر إلياس على قومه عندما اتخذوا صنماً يعبدونه من دون الله تعالى الذي خلقهم، وخلق كل ما في السماوات والأرض؛ وكان اسم هذا الصنم «بعلاً».

﴿فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ۝١٢٧ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ۝١٢٨﴾ وأنه عندما دعاهم إلى الله سبحانه وتعالى- رموه بالكذب والافتراء فيما يدعوهم إليه، فعذبهم الله تعالى بسبب كفرهم وتكذيبهم، وأهلكهم ودمرهم، ولم يبق على أحد منهم إلا من كان آمن معه منهم فقد نجاهم الله تعالى.

﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ۝١٢٩ سَلَامٌ عَلَى إِلْ يَاسِينَ۝١٣٠ إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ۝١٣١ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ۝١٣٢﴾ ثم أخبر الله سبحانه وتعالى أنه جعل له ذكراً حسناً في أمة محمد ﷺ وثناءً حسناً في قرآنهم الكريم، وسلاماً عليه جزاءً على إحسانه في طاعة الله والإيمان به.

﴿وَإِنَّ لُوطًا لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ۝١٣٣﴾ ثم أخبر الله سبحانه وتعالى أن لوطاً من جملة المرسلين الذين أرسلهم إلى الناس يدعوهم إلى عبادته وتوحيده وطاعته.

﴿إِذْ نَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ۝١٣٤ إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ۝١٣٥ ثُمَّ دَمَّرْنَا الْآخَرِينَ۝١٣٦﴾ ثم أوحى الله تعالى إلى نبيه محمد ﷺ أن يذكر قصة لوط لقريش، ويخبرهم بما جرى عليه من قومه، وكيف نجاه الله سبحانه وتعالى من العذاب الذي أنزله على قومه بسبب كفرهم وتكذيبهم وتمردهم، وإصرارهم على شركهم وضلالهم.

ثم خاطب الله تعالىٰ قريشاً بعد ذلك فقال: ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ۝١٣٧ وَبِاللَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ۝١٣٨﴾ بعد أن ذكر لوطاً عليه السلام وما جرى على قومه أخبر قريشاً بأنهم يمرون على قرى قوم لوط ومساكنهم في طريق تجارتهم إلى بلاد الشام، ويرون آثار ما جرى عليهم، فلماذا لا يعتبرون بما جرى عليهم، ويتركون كفرهم وباطلهم والتمرد على نبيهم محمد صلى الله عليه وآله وسلم؟

وأمرهم بأن يعتبروا بما جرى على أولئك القوم؛ لأن عادة كل عاقل إذا رأى أحداً قد وقع في سوء أو مهلكة أن يعتبر بذلك ويتجنب أن يقع في نفس الأسباب التي أوقعت ذلك الشخص في المهلكة.

﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ۝١٣٩ إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ۝١٤٠ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ۝١٤١ فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ۝١٤٢﴾ ثم أوحى الله تعالى إلى نبيه صلى الله عليه وآله وسلم قصة يونس عندما أرسله الله سبحانه وتعالى إلى قومه فدعاهم إلى الله تعالى ووعظهم وذكرهم بالله تعالى، وحذرهم عقابه وسخطه فلم يستجيبوا له، ثم إنه خرج من بينهم قبل أن يأذن الله سبحانه وتعالى له بالخروج بسبب إغضابهم له، وركب في السفينة مغاضباً لهم فلما توسطت البحر أوشكت على الغرق فاضطروا إلى القرعة ليخففوا من حمولتها، فخرج السهم على يونس عليه السلام، ثم التقمه الحوت عقاباً من الله سبحانه وتعالى له على خروجه من بين قومه.

﴿فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ۝١٤٣ لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ۝١٤٤﴾ ولولا إيمانه بالله سبحانه وتعالى، وتنزيهه وتوحيده له؛ لكان بطن ذلك الحوت قبراً له إلى يوم القيامة.

﴿فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ۝١٤٥ وَأَنْبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِنْ يَقْطِينٍ۝١٤٦﴾ وبسبب إيمانه أخرجه الله سبحانه وتعالى من بطن ذلك الحوت، بعد أن كان الهزال والمرض الشديد قد أخذ منه كل مأخذ في بطن ذلك الحوت، ثم إن الله تعالى أنبت عليه شجرة يأكل منها، ويتظلل تحتها إلى أن يستعيد عافيته رحمة منه له.

واسم الشجرة التي أنبتها عليه يقطين.

﴿وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ۝١٤٧ فَآمَنُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ۝١٤٨﴾ ثم إن الله سبحانه وتعالى أرسله بعد أن صح بدنه وتعافى إلى قومه مرة ثانية فآمنوا له، واستجابوا له جميعاً، وكانوا يزيدون على مائة ألف شخص، فمنع الله سبحانه وتعالى عنهم عذابه وسخطه بسبب إيمانهم وحَفِظَهم من اخترام آجالهم إلى أن استوفى كل واحد منهم عمره الذي كتبه له.

ويونس هو النبي الوحيد من بين جميع الأنبياء الذي آمن به قومه جميعاً.

﴿فَاسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبَنُونَ۝١٤٩﴾ ثم أمر الله سبحانه وتعالى نبيه ﷺ أن يسأل قريشاً هذا السؤال؛ لأنهم كانوا يقولون: إن الملائكة بنات الله ثم يعبدونهم، فاستنكر الله سبحانه وتعالى عليهم ذلك حتى نسبوا إليه تعالى البنات ولم يرضوا لأنفسهم إلا البنين، أما البنات فكان من ولد له بنت فإنه يدفنها حية.

﴿أَمْ خَلَقْنَا الْمَلَائِكَةَ إِنَاثًا وَهُمْ شَاهِدُونَ۝١٥٠﴾ فهل كانوا حاضرين حين خلق الله تعالى الملائكة فعرفوا أنها بنات.

﴿أَلَا إِنَّهُمْ مِنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ۝١٥١ وَلَدَ اللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ۝١٥٢﴾ بل إنما يفترون ذلك، ويختلقون هذا الكلام من عند أنفسهم، فلا مستند لهم على هذا القول لا من نبي أرسل، ولا من كتاب نزل.

﴿أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ۝١٥٣ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ۝١٥٤﴾ ثم استنكر الله سبحانه وتعالى عليهم اعتقادهم ذلك، وادعاءهم على الله سبحانه وتعالى اختيار البنات وهم لا يرضونها لأنفسهم، فكيف ينسبون الاختيار الأدنى لرب العالمين؟!

ثم استنكر الله سبحانه وتعالى عليهم أيضاً حكمهم الجائر هذا، ونسبتهم إليه ما يكرهونه لأنفسهم، فكيف يحيفون ويميلون هذا الميل؟ إذ ينزهون أنفسهم ويشرفونها، ويحطون الله تعالى في أدنى المنازل وأوضعها.

﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴿١٥٥﴾﴾ فلماذا لا تحكمون عقولكم، وترجعون عن حكمكم الجائر هذا.

﴿أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُبِينٌ﴿١٥٦﴾ فَأْتُوا بِكِتَابِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴿١٥٧﴾﴾ فهل تملكون دليلاً قاطعاً، وحجة واضحة على دعواكم اتخاذ الله تعالى للملائكة بناتاً له، فهاتوا الدليل على ذلك إن كنتم صادقين في دعواكم هذه؟

﴿وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَبًا﴾ وذلك بجعلهم الملائكة بنات الله، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً، وأراد بـ «الجنة» الملائكة.

﴿وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ﴿١٥٨﴾﴾ وقد علمت الملائكة أن المشركين الذين ادعوا أن الملائكة بنات الله من أهل جهنم خالدين في عذابها أن قريشاً قد صاروا من أهل غضب الله سبحانه وتعالى، وقد استحقوا سخطه وعذابه، وأنهم من أهل جهنم.

﴿سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴿١٥٩﴾﴾ تقدس الله وتعالى عما يقولونه على الله سبحانه وتعالى، فلم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفؤاً أحد.

﴿إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ﴿١٦٠﴾﴾ ثم استثنى الله سبحانه وتعالى من أولئك الذين سيحضرهم إلى جهنم أولئك الذين استجابوا للنبي ﷺ، وآمنوا بدعوته وما جاءهم به.

﴿فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ﴿١٦١﴾ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ بِفَاتِنِينَ﴿١٦٢﴾ إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ الْجَحِيمِ﴿١٦٣﴾﴾ ثم خاطب الله سبحانه وتعالى المشركين وأخبرهم بأنهم لن يستطيعوا أن يدخلوا أحداً في الضلال، وأنه لن يتبعهم على باطلهم إلا من أراد الضلال، واختاره لنفسه، وأما المؤمنون فلن يستطيعوا ذلك فيهم.

﴿وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَعْلُومٌ﴿١٦٤﴾﴾ هذا من كلام الملائكة، أخبر الله سبحانه وتعالى أنهم يقولون إنه لا يوجد ملك من الملائكة إلا وله مقام عظيم في عبادة الله معروف في السماء.

فكل صنف من الملائكة ثابت في مقامه الذي جعله الله سبحانه وتعالىٰ له لا يتعداه إلىٰ غيره إلىٰ يوم القيامة، فمنهم ركوع لله تعالىٰ لا يرفعون رؤوسهم إلىٰ يوم القيامة، ومنهم من يسبحون الله تعالىٰ لا ينفكون عن ذلك إلىٰ يوم القيامة، وكذلك كل صنف ثابت علىٰ عبادته التي أمره الله سبحانه وتعالىٰ أن يكون عليها إلىٰ يوم القيامة.

﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ۝١٦٥ وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ۝١٦٦﴾ أخبرت الملائكة عن أنفسهم بأنهم مصطفون لعبادة الله تعالىٰ إلىٰ يوم القيامة، تخبر الملائكة المشركين عن حالها وبما هي عليه من عبادة الله وتعظيمه وتقديسه.

﴿وَإِنْ كَانُوا لَيَقُولُونَ۝١٦٧ لَوْ أَنَّ عِنْدَنَا ذِكْرًا مِنَ الْأَوَّلِينَ۝١٦٨ لَكُنَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ۝١٦٩﴾ ثم أخبر الله سبحانه وتعالىٰ أن المشركين كانوا يقولون قبل إرسال النبي ﷺ إليهم: لو أن الله تعالىٰ أنزل علينا كتاباً مثل ما أنزل علىٰ اليهود والنصارىٰ لكنا أفضل منهم وأحسن، ولكنا متبعين لما أنزل الله سبحانه وتعالىٰ غير مخالفين لشيء من أوامره.

﴿فَكَفَرُوا بِهِ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ۝١٧٠﴾ ثم أرسل الله تعالىٰ إليهم محمداً ﷺ بالذكر المبين فكفروا به وكذبوه وسلوا سيوفهم في وجهه.

﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ۝١٧١ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ۝١٧٢ وَإِنَّ جُنْدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ۝١٧٣﴾ ثم أخبر الله سبحانه وتعالىٰ أنه قد سبق منه الوعد لأنبيائه ورسله بأنه سينصرهم علىٰ أعدائهم، وسوف يظهرهم عليهم؛ وكان قد طال انتظار النبي ﷺ والمؤمنين لنصر الله سبحانه وتعالىٰ، واستبطؤوا نزوله وأوشك البعض منهم علىٰ اليأس، فأنزل الله تعالىٰ هذه الآية ليؤكد لهم حصول وعده، وأنه ناصرهم لا محالة.

﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّى حِينٍ۝١٧٤﴾ ثم أمر الله سبحانه وتعالىٰ نبيه أن يعرض عن المشركين والمكذبين إلىٰ أن يحين موعد نصر الله تعالىٰ.

والسبب في تأخير الله سبحانه وتعالى موعد نصره ذلك هو الابتلاء والاختبار للمؤمنين، وليظهر ثابت الإيمان من المتزلزل فيه، وأيضاً للزيادة في ثواب صبرهم على أذى المشركين.

﴿وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴿١٧٥﴾﴾ ثم وعد الله سبحانه وتعالى نبيه ﷺ بأنه سوف يرى ذلك النصر، كما أن المشركين لا بد أن يشهدوا هزيمتهم وذلهم وهوانهم.

﴿أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٧٦﴾﴾ ثم استنكر الله سبحانه وتعالى على قريش استعجالهم نزول العذاب وسؤالهم للنبي ﷺ أن يأتيهم بعذاب الله، وما هو الذي يدعوهم إلى استعجاله؟ وأي راحة لهم في نزوله حتى يستعجلوه ذلك الاستعجال؟

﴿فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنْذَرِينَ ﴿١٧٧﴾﴾ فإذا نزل بهم فما أسوأ صباحهم عليهم.

﴿وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّى حِينٍ ﴿١٧٨﴾ وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴿١٧٩﴾﴾ ثم أكد الله سبحانه وتعالى لنبيه ﷺ أمره بانتظار موعد نزول عذابه بهم، فلا بد أن ينزل بهم، ووعده بأنه سوف يرى نزوله بهم، وهم كذلك سوف يرون تحقق وقوعه بهم عندما يعاينونه.

﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾﴾ تقدس الله وتعالى عما ينسبه المشركون إليه من اتخاذ البنات والشركاء والولد.

﴿وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٨٢﴾﴾ وأن السلامة والأمن من الله تعالى لن تكون إلا للمرسلين وأتباعهم، والحمد لله رب العالمين الذي أيد رسوله ﷺ والمؤمنين وأتم نعمته عليهم بهلاك المشركين وهزيمتهم وقهرهم، وإعلاء كلمته ونصر دينه.



سورة ص

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ص وَالْقُرْءَانِ ذِي الذِّكْرِ۝١﴾ أقسم الله سبحانه وتعالىٰ بالقرآن الذي فيه تذكير الناس وتحذيرهم؛ والله سبحانه وتعالىٰ لا يقسم إلا بالشيء العظيم، وقد أقسم بالقرآن لما له من المنزلة الرفيعة والمكانة العالية عنده، فكان من المفروض إذا سمع المشركون هذا القسم أن يلتفتوا إليه ويصغوا إلىٰ سماع هذا الشيء الذي أقسم الله سبحانه وتعالىٰ به، ولكنهم لم يلتفتوا إليه، ولم يلقوا له أي بال فقال الله تعالىٰ:

﴿بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ۝٢﴾ فاستكبروا ولم يلتفتوا إليه أي التفاتة، وتهاونوا به وأعرضوا عنه أشد إعراض.

﴿كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ﴾ أراد الله سبحانه وتعالىٰ أن أمماً كثيرة قبل قريش أهلكهم بسبب كفرهم وتكذيبهم وتمردهم علىٰ أنبيائهم ورسلهم، وأن حال قريش ستكون كحال من سبقهم إن استمروا علىٰ كفرهم وتمردهم وتكذيبهم.

﴿فَنَادَوْا وَلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ۝٣﴾ يخبر الله سبحانه وتعالىٰ عن حال تلك الأمم كيف كانت عندما رأوا نزول عذاب الله بهم، وكيف يصرخون ويظهرون الندم، ولكن حين لا ينفعهم، وحين فوت أوان القبول منهم.

﴿وَعَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ۝٤﴾ ثم استنكر الله سبحانه وتعالىٰ علىٰ قريش عندما استبعدوا وتعجبوا أن يرسل الله تعالىٰ إليهم نبياً منهم، وزعموا أنه لا يصح ذلك ولا يجوز أن يرسل إليهم نبياً من نفس جنسهم، وأن محمداً كاذب فيما يدعيه.

﴿أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ۝٥﴾ واستنكروا عليه عندما كان يدعوهم إلىٰ عبادة الله تعالىٰ وحده وترك آلهتهم، فكيف يكفر بها وهي شريكة لله في ربوبيته؟ وما هذا الدين الذي جاءهم به الذي لا يعرفونه لا هم ولا آباؤهم؟

﴿وَانْطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَى ءَالِهَتِكُمْ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ۝٦﴾ اجتمعت كبار قريش فيما بينهم للتشاور في شأن محمد، وما جاء به من الدين، وأجمعوا على تكذيبه والصد عن دعوته والدفاع عن دين آبائهم ودينهم، وأن ما جاءهم به ليس إلا بلوى ومصيبة حلت بهم، ولا بد أن يواجهوا ذلك بالصبر والمقاومة حتى تنجلي هذه المصيبة والشدة.

﴿مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ إِنْ هَذَا إِلَّا اخْتِلَاقٌ۝٧﴾ وقالوا بأن هذه الدعوة التي جاء بها محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ لم نسمع بها في ملة النصارى، ولم يخبرنا أحد بأن عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ جاء بشيء مما جاء به محمد؛ والدين الذي جاء به محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ إنما اختلقه وافتراه من عند نفسه.

﴿أَؤُنْزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا﴾ واستنكر المشركون أن يكون الله سبحانه وتعالى قد اختاره من بينهم، فكيف يختار يتيم أبي طالب؟ ألم يجد غيره ممن هم أكثر منه جاهاً ومالاً وعزاً حتى يختاره؟ ولماذا لم يختر لنبوته ورسالته أحد أشراف قريش وزعمائهم؟

﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْ ذِكْرِي﴾ ثم أجاب الله تعالى عليهم أن سبب اعتراضهم على إرادة الله سبحانه وتعالى ومشيئته هو كفرهم بالله تعالى وتكبرهم عليه.

﴿بَلْ لَمَّا يَذُوقُوا عَذَابِ۝٨﴾ ولن يؤمنوا به إلا عندما يعاينون نزول العذاب بهم، فعندها سيؤمنون وسيصدقون بالله تعالى، ولكن حين لا ينفعهم إيمانهم ذلك.

﴿أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ الْعَزِيزِ الْوَهَّابِ۝٩ أَمْ لَهُمْ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ فهل يملكون شيئاً من خزائن رحمة الله سبحانه وتعالى حتى تكون لهم مشيئة الاختيار؟

فليس بأيديهم شيء يملكونه من سلطان الله تعالى وملكه حتى يقترحوا عليه تعالى ويشاركوه في اختياره ومشيئته.

﴿فَلْيَرْتَقُوا فِي الْأَسْبَابِ۝١٠﴾ فإذا كانوا يملكون شيئاً من خزائن السماوات والأرض فليصعدوا إلى مكان ملكهم ذلك.

﴿جُنْدٌ مَا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِنَ الْأَحْزَابِ۝١١﴾ ثم أخبر الله سبحانه وتعالى عن واقعهم بأنهم ليسوا إلا عبيداً مجندين لإبليس وشهواتهم، وسيهزمهم الله وسيعذبهم بسبب تكذيبهم وتمردهم واعتراضهم على الله سبحانه وتعالى ومشيئته.

﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْتَادِ۝١٢﴾ وليسوا أول من كذب بأنبياء الله ورسله فقد كذبت قبلهم أمم كثيرة كقوم نوح وعاد وفرعون؛ وقد وصف الله سبحانه وتعالى فرعون بذي الأوتاد، وذلك أنه كان قد بنى لنفسه جبالاً كبيرة التي تسمى بالأهرام، وفيه إشارة إلى قوة ملكه وسلطانه.

﴿وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ أُولَئِكَ الْأَحْزَابُ۝١٣﴾ وأصحاب الأيكة هم قوم شعيب، والمراد بالأيكة البلاد التي هي كثيرة الأشجار.

﴿إِنْ كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ۝١٤﴾ وقد استحق كل هؤلاء المكذبين عقاب الله تعالى بسبب كفرهم وتكذيبهم.

﴿وَمَا يَنْظُرُ هَؤُلَاءِ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً مَا لَهَا مِنْ فَوَاقٍ۝١٥﴾ ثم أخبر الله سبحانه وتعالى نبيه ﷺ أنه لم يبق لقومه إلا أن ينتظروا أن يحل بهم مثل ما حل بتلك الأمم المكذبة، فيهلكهم الله سبحانه وتعالى بصيحة تبيدهم ولا تبق على أحد منهم.

أراد الله سبحانه وتعالى أن قريشاً قد استحقوا نزول ذلك العذاب بهم.

﴿وَقَالُوا رَبَّنَا عَجِّلْ لَنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ۝١٦﴾ ثم أخبر الله سبحانه وتعالى عن قريش بأنهم كانوا يسألون النبي ﷺ نزول العذاب الذي أخبرهم بأنهم قد استحقوه، وذلك منهم إنما هو استخفاف بالنبي ﷺ وبما جاء به.

﴿اصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ﴾ ثم أمر الله سبحانه وتعالى نبيه ﷺ أن يصبر على ما يلاقيه من قومه من التكذيب والاستهزاء والأذى، وأن يستمر على ما هو عليه من تبليغ الدعوة والرسالة.

وذلك أن من شأن كل من شرع في عمل إذا اصطدم بمن يواجهه بعرقلة عمله ويصده عنه ويقف في وجهه أن تتحطم معنوياته، وتفتر عزيمته في مواصلة ذلك العمل، كما هي الحال التي كان عليها النبي ﷺ في تبليغ رسالة ربه، فأراد الله سبحانه وتعالى بذلك أن يشد من عزم نبيه ﷺ فأمره بالصبر بعدما ذكر له المكذبين بالرسل من قبله.

﴿وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُدَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴿١٧﴾﴾ وأمره أن يتذكر قوة نبي الله داوود عليه السلام وصبره في طاعة ربه وعبادته، وكثرة رجوعه إليه.

﴿إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ﴿١٨﴾ وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ﴿١٩﴾﴾ حيث سخر له الجبال والطير تسبح معه، وتذكر الله سبحانه وتعالى كلما ذكره، كرامةً من الله سبحانه وتعالى لنبيه داود عليه السلام على ما صبر في طاعة ربه.

﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ﴾ وآتاه الله سبحانه وتعالى الملك والسلطان، وهيأ له أسباب القوة والتمكن من الجنود والعدة والعدد.

﴿وَءَاتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ الْخِطَابِ﴿٢٠﴾﴾ وأعطاه الله سبحانه وتعالى من العلم والحكمة، وآتاه علم القضاء والحكم والفصل بين الناس بالحق والعدل.

﴿وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ﴿٢١﴾ إِذْ دَخَلُوا عَلَى دَاوُدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا لَا تَخَفْ خَصْمَانِ بَغَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ﴾ ثم قص الله سبحانه وتعالى على نبيه ﷺ نبأ الرجلين اللذين دخلا على داوود عليه السلام ليفصل بينهما، وأنهما صعدا إليه من فوق السور وكان قد أغلق على نفسه الباب ليختلي إلى عبادة الله تعالى، فتفاجأ برؤيتهما، وأصابه الهلع والفزع من رؤيتهما، وتساءل كيف تمكنا من الدخول عليه على الرغم من الحرس والأبواب المقفلة، فطمأناه بأن لا يخاف فإنما هما خصمان يريدان منه أن يفصل بينهما بالحق.

﴿فَاحْكُمْ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَاهْدِنَا إِلَى سَوَاءِ الصِّرَاطِ﴿٢٢﴾﴾ وطلبا منه أن يحكم بينهما بالحكم الحق.

ثم بدأ أحدهما بالشكوى من صاحبه فقال: ﴿إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ﴿٢٣﴾﴾ فأخبره أن أخاه يملك تسعاً وتسعين نعجة، ويريد مني أن أضم نعجتي الوحيدة إلى نعاجه، وقد أخذها وغلبني عليها، ولم يقتنع بما عنده من النعاج.

﴿قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَى نِعَاجِهِ وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَا هُمْ﴾ فحكم نبي الله داوود عليه السلام على مالك النعاج أن يرد نعجة صاحبه، وأنه قد ظلمه بأخذها منه، وأن الظلم عادة الكثير من الشركاء مع شركائهم إلا من آمن بالله وخاف منه وعمل الأعمال الصالحة فلن يقع في شيء من ذلك.

﴿وَظَنَّ دَاوُدُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ﴾ وعلم داوود عليه السلام بعد خصومة الرجلين أنهما من الملائكة، وأن ذلك امتحان من الله سبحانه وتعالى له، وتنبيه منه تعالى له.

﴿فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ﴿٢٤﴾﴾ وعرف أن ذلك تنبيه من الله تعالى له، وذلك أن رجلاً من حاشيته وأعوانه كان تحته امرأة جميلة وكانت في غاية الجمال، ولم يكن معه إلا تلك الزوجة بينما كان تحت داوود تسع وتسعون امرأة، فخطر في نفسه كيف لو كانت تلك المرأة من نصيبه، فعاتبه الله سبحانه وتعالى على ذلك الخاطر الذي داخل نفسه، فلا يحق له أن يتمنى ذلك التمني، فاستغفر الله سبحانه وتعالى وندم على ما كان منه.

هذا، وأما من قال بأنه قد تحيل في أخذ تلك المرأة- فلا ينبغي لنبي من أنبياء الله تعالى أن يقع في مثل تلك المعصية؛ لأنهم معصومون من مثل ذلك فلم يقع منه صلوات الله عليه وسلامه إلا حديث نفس.

﴿فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ﴾ أخبر الله سبحانه وتعالى أنه قد غفر له ذلك الخاطر الذي جال في نفسه وقبل الله توبته.

﴿وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَآبٍ﴿٢٥﴾﴾ وأكد الله تعالى أن داود عليه السلام عنده من أهل المنازل الرفيعة والدرجات العالية وأن ذلك الخاطر الذي خطر بباله لم ينقص من منزلته عند الله.

﴿يَادَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ﴿٢٦﴾﴾ ثم أوحى الله سبحانه وتعالى إليه بالولاية على الناس، وأمره بأن يحكم بينهم بالحق والعدل، وأن يترك هوى نفسه وشهواتها فلا يميل معها فيكون داخلا تحت وعيد الله وعذابه.

ثم أخبر الله سبحانه وتعالى أنه لا يخرج عن الطريق، ويميل عن الحق إلا من نسي الله تعالى، وغفل عن الموت ولقاء الله سبحانه وتعالى، وأما الذين يخافون الله تعالى فهم يتقيدون بأوامره، ويتجنبون الوقوع فيما يغضبه ويوجب سخطه وعذابه.

﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ذَٰلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ﴿٢٧﴾﴾ كان المشركون ينكرون البعث والحساب ويزعمون أنه سينتهي كل شيء بالموت، فأجاب الله سبحانه وتعالى عليهم بما يرد اعتقادهم هذا، فأخبرهم بأنه لم يخلق السماوات والأرض وما فيهما إلا لغرض وأمر عظيم، وهو ما يترتب عليهما من البعث والحساب والجزاء.

﴿أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ﴿٢٨﴾﴾ لو لم يكن حساب ولا جزاء ولا جنة ولا نار للزم أن يكون الله تعالى قد ساوى بين المؤمن والمفسد، والمتقي والفاجر، والظالم والمظلوم، والشاكر والكافر، والتسوية بين أولئك ظلم لا يليق بعدل الله وحكمته وعظمته وجلاله؛ لذلك قضى الله سبحانه وتعالى بحتمية البعث يوم القيامة ووجوبه يحيي الله تعالى فيه الناس جميعاً الأولين والآخرين ليجزي المؤمن على إيمانه وعمله الصالح ويجزي المفسد في الأرض بما يستحقه من

الجزاء، ويجزي المتقي على تقواه والفاجر على فجوره و...إلخ.

﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ﴾ ثم أخبر الله سبحانه وتعالى نبيه ﷺ بأنه أنزل عليه القرآن لما فيه من المنافع العظيمة للناس من إرشادهم إلى مصالح دينهم ودنياهم، وما فيه من الدلالة لهم على طريق هداهم ونجاتهم، وما فيه من السعادة لهم في الدنيا والآخرة وما فيه من الآيات الدالة على عظمة الله وجلاله وعلمه وحكمته وعظيم قدرته.

﴿لِيَدَّبَّرُوا ءَايَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ۝٢٩﴾ وأنزله عليهم ليتدبروا آياته، ويتفكروا فيها، ويعملوا بأحكامه وشرائعه، ولكنه لن يتدبر في آياته إلا أهل العقول السليمة الذين يعملون بما تدعوهم إليه عقولهم وتدلهم عليه، ولا يستجيبون لهوى أنفسهم وشهواتهم.

﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُدَ سُلَيْمَانَ نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ۝٣٠﴾ ثم أخبر الله سبحانه وتعالى نبيه ﷺ بأنه قد وهب لداوود سليمان، وكان من عباد الله الصالحين.

﴿إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِنَاتُ الْجِيَادُ۝٣١﴾ يذكر الله تعالى هنا قصة سليمان بن داود عليهما السلام عندما أعطاه الله سبحانه وتعالى الملك العظيم والنفوذ والقوة عندما عرض عليه الصافنات الجياد، و هي الخيل التي ترفع إحدى قوائمها وتبقى واقفة على ثلاث قوائم، والعشي: هو آخر النهار.

﴿فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ۝٣٢﴾ المراد أنه جلس ينظر إليها حباً لها وإعجاباً بها إلى أن غابت عنه واحتجبت عن ناظريه، وكان حبه لها وإعجابه بها صادراً عن أمر الله له بارتباط الخيل لما جعل الله فيها من إرهاب العدو ومن الخير المعقود بنواصيها ولما لها من المكانة أقسم الله تعالى بصفاتها في سورة العاديات، فهذا هو المعنى الذي تحمل عليه الآية، ويليق بنبي من أنبياء الله تعالى.

﴿رُدُّوهَا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ۝٣٣﴾ ثم إنه أمرهم بعد ذلك أن يردوها إليه فأخذ يمسح على ظهورها وقوائمها من شدة إعجابه بها، وحبه الشديد لها.

﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ۝٣٤ قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ۝٣٥﴾ امتحن الله سبحانه وتعالى نبيه سليمان عليه السلام في ملكه، وذلك أنه تغلب على سرير ملكه رجل من أقربائه واستولى على مملكته، وكان ذلك عقاباً من الله سبحانه وتعالى لذنب وتقصير حصل منه عليه السلام على جهة الخطأ، وعرف سليمان عليه السلام أن ذلك عقاباً من الله سبحانه وتعالى فطلب منه المغفرة والتوبة، وسأل الله سبحانه وتعالى أن يرد له ملكه، وأن يبسط له فيه، فحارب ذلك الذي استولى على ملكه ونصره الله سبحانه وتعالى عليه ورد له ملكه وسلطانه.

﴿فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ۝٣٦ وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ۝٣٧ وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ۝٣٨﴾ أخبر الله سبحانه وتعالى بأنه استجاب لنبيه ورد له ملكه، وسخر له الريح وذللها لحمله والسير به إلى حيث أراد، وكذلك سخر له الشياطين لخدمته والقيام بجميع أعماله من البناء وغير ذلك واستخراج المعادن والجواهر النفيسة من أعماق البحار، ومن تمرد منهم عن أمره ربطه وقيده بقيد متصل مع قيود أخر يجمع فيها مردة الشياطين.

﴿هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ۝٣٩ وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَى وَحُسْنَ مَآبٍ۝٤٠﴾ ثم أخبر الله سبحانه وتعالى بأنه مع ما قد أعطاه من سعة الملك في الدنيا فلم ينقص ذلك من أجره في الآخرة شيئاً، وأنه من أهل المنازل الرفيعة، ومن المقربين لديه.

وبعد، فليكن على علم منك أن ما ذكر من معاصي أنبياء الله ورسله صلوات الله عليهم لم تصدر منهم عن تعمد للمعصية، وإنما تكون منهم على جهة الخطأ أو النسيان أو

التأويل فآدم عليه السلام إنما أقدم على أكل الشجرة لترتفع منزلته عند الله وليطول عمره في عبادة الله اغتراراً منه بوساوس الشيطان حين قال لآدم وحواء: ﴿مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ۝٢٠ وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ۝٢١﴾ [الأعراف].

﴿وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ۝٤١ ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ۝٤٢﴾ ثم أوحى الله سبحانه وتعالى إلى نبيه صلى الله عليه وآله وسلم قصة نبيه أيوب عليه السلام وما ابتلاه به من الأمراض الشديدة، وكيف قابل تلك البلوى بالصبر والرضا والشكر لله تعالى؛ وقد وصل به البلاء إلى أن أصبح يتقذر منه أقرب الناس إليه، وحتى نبذوه وتركوه لمرضه وحيداً.

وقد قيل: إنه لم يدع الله تعالى أن يكشف بلواه هذه إلا عندما وصل البلاء إلى لسانه، فخاف أن يمنعه ذلك من ذكر الله سبحانه وتعالى، فعندها دعا الله تعالى أن يكشف بلواه؛ فأمره الله سبحانه وتعالى بأن يركض برجله، فنبعت من تحتها عينان: أمره أن يغتسل من إحداهما، وأن يشرب من الأخرى، وكان ذلك سبباً لكشف بلواه.

﴿وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنَّا﴾ بعد أن شرب واغتسل رجعت إليه صحته وعافيته، ورد الله سبحانه وتعالى عليه أهله، وزاد عليهم مثلهم، وكل ذلك كان رحمة منه تعالى لنبيه جزاءً على صبره ورضائه بقضاء الله سبحانه وتعالى فيه.

﴿وَذِكْرَى لِأُولِي الْأَلْبَابِ۝٤٣﴾ وأيضاً جعل الله سبحانه وتعالى في قصة أيوب عليه السلام من العظة والعبرة لمن أراد أن يعتبر بما جرى على نبيه، وأن يكون قدوة له في الصبر والرضا بما قسم الله سبحانه وتعالى له من الصحة والبلاء والشدة والرخاء.

﴿وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاضْرِبْ بِهِ وَلَا تَحْنَثْ﴾ كان أيوب عليه السلام قد أقسم على الله سبحانه وتعالى أنه إن شفاه الله ليضربن امرأته مائة جلدة عقاباً لها على أمر أغضبه، وبعد أن شفاه الله تعالى أمره أن يأخذ حزمة من الأعواد الخفيفة فيها مائة شمراخ فيضرب به امرأته ضربة واحدة ليبر في قسمه ذلك.

﴿إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴿٤٤﴾﴾ أثنى الله سبحانه وتعالى على أيوب عليه السلام لصبره على ما ابتلاه من البلوى التي لم تثنه عن مواصلة ذكر الله تعالى وعبادته وعن الرضا والتسليم لقضاء الله فيه.

﴿وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ﴿٤٥﴾﴾ أراد الله سبحانه وتعالى بأولي الأيدي أهل القوة في طاعة الله سبحانه وتعالى وعبادته والصبر على البلوى، وأراد بأولي الأبصار أهل البصائر والعقول النافذة في التفكر في آيات الله سبحانه وتعالى وتوحيده وتقديسه.

﴿إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ﴿٤٦﴾ وَإِنَّهُمْ عِنْدَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيَارِ﴿٤٧﴾﴾ ثم ذكر الله سبحانه وتعالى السبب في قوتهم وقوة بصائرهم بأنهم قد جردوا أنفسهم لله سبحانه وتعالى والعمل لآخرتهم غير ملتفتين إلى شيء من متاع الدنيا وشهواتها ولذاتها، واصطفاهم الله سبحانه وتعالى على سائر البشر، لعلمه بما هم عليه من أهلية الاصطفاء.

﴿وَاذْكُرْ إِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَذَا الْكِفْلِ وَكُلٌّ مِنَ الْأَخْيَارِ﴿٤٨﴾ هَذَا ذِكْرٌ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ﴿٤٩﴾﴾ ثم أخبر الله سبحانه وتعالى نبيه صلى الله عليه وآله وسلم بأن ما أوحى إليه من أخبار الأنبياء، وما جرى عليهم لأجل أن يعتبر بهم، وبما جرى عليهم المعتبرون.

وتقوى الله سبحانه وتعالى هي اجتناب محارمه وما نهى عنه.

﴿جَنَّاتِ عَدْنٍ مُفَتَّحَةً لَهُمُ الْأَبْوَابُ﴿٥٠﴾﴾ ثم فسر الله سبحانه وتعالى حسن المآب بأنه جنات عدن. والعدن: هي الإقامة الدائمة في النعيم الدائم.

﴿مُتَّكِئِينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ﴿٥١﴾﴾ ثم وصف الله سبحانه وتعالى حال المتقين في الآخرة بأن الجنة قد فتحت أبوابها لاستقبالهم، وقد أعدت لهم الأرائك الكبيرة، والموائد السنية والفاخرة، المليئة بأصناف المأكولات والمشروبات، التي يجلسون عليها مع أصحابهم وندمائهم.

﴿وَعِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ أَتْرَابٌ﴿٥٢﴾﴾ وقد زوجهم الله تعالىٰ من حور العين التي لا يتعدىٰ نظر الواحدة منهن إلىٰ غير زوجها، والأتراب: هم المتساويات في السن.

﴿هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ الْحِسَابِ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُ مِنْ نَفَادٍ﴿٥٤﴾﴾ فلا ينفد نعيمهم، ولا ينقطع أو يمل، وعد من الله سبحانه وتعالىٰ قد وعدهم به.

﴿هَذَا وَإِنَّ لِلطَّاغِينَ لَشَرَّ مَآبٍ﴿٥٥﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمِهَادُ﴿٥٦﴾ هَذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ﴿٥٧﴾﴾ ثم أخبر الله سبحانه وتعالىٰ عن مصير الطاغين المتجاوزين لحدود الله تعالىٰ، فأخبر أنهم علىٰ خلاف من سبقهم من المتقين، فقد أعد لهم أشنع المنازل وشرها في جهنم التي يكون فراشهم فيها من النار، ويكون غطاؤهم فيها من النار، ومع ذلك فشرابهم من ماء الحميم الذي يغلي، ومن الغساق الذي هو قيح وصديد أجسام أهل النار، نعوذ بالله منها.

﴿وَءَاخَرُ مِنْ شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ﴿٥٨﴾﴾ ومع النار والحميم والغساق فقد أعد الله سبحانه وتعالىٰ لهم الأنواع الكثيرة من أصناف العذاب سوىٰ ذلك.

﴿هَذَا فَوْجٌ مُقْتَحِمٌ مَعَكُمْ لَا مَرْحَبًا بِهِمْ إِنَّهُمْ صَالُوا النَّارِ﴿٥٩﴾﴾ يخبر الله سبحانه وتعالىٰ عن كيفية دخولهم النار، فأخبر أنهم سيدخلون فوجاً فوجاً؛ فإذا دخل فوج لعنهم من سبقهم من الأفواج.

﴿قَالُوا بَلْ أَنْتُمْ لَا مَرْحَبًا بِكُمْ أَنْتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا فَبِئْسَ الْقَرَارُ﴿٦٠﴾﴾ أخبر الله سبحانه وتعالىٰ أن التابعين سيردون علىٰ المتبوعين الذين سبقوهم بأنهم الذين يستحقون اللعن والتعذيب؛ لأنهم الذين تسببوا في دخولهم النار.

﴿قَالُوا رَبَّنَا مَنْ قَدَّمَ لَنَا هَذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِي النَّارِ﴿٦١﴾﴾ ينادون الله تعالىٰ أن يضاعف عذاب الذي تسبب في دخولهم النار.

﴿وَقَالُوا مَا لَنَا لَا نَرَى رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُمْ مِنَ الْأَشْرَارِ﴿٦٢﴾﴾ سيسأل أهل النار بعضهم بعضاً عن الذين كانوا يحتقرونهم في الدنيا ويستخفون بهم من المؤمنين أين هم ما لنا لا نراهم معنا في النار وقد عرفناهم في الدنيا أشراراً ضالين.

﴿أَتَّخَذْنَاهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ الْأَبْصَارُ﴿٦٣﴾﴾ لماذا لا نراهم في النار؟ أكانوا من الصالحين ونحن نسخر منهم ومن إيمانهم؟ أم أنهم من الأشرار فعلاً ومن أهل النار وقد دخلوها ولكنا لم نرهم؟

﴿إِنَّ ذَلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ﴿٦٤﴾﴾ ثم أخبر الله سبحانه وتعالى أن هذا هو ما سيدور فيما بين أهل النار من الجدل والتخاصم.

﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا مُنْذِرٌ﴾ ثم أمر الله سبحانه وتعالى نبيه ﷺ أن يخبر المشركين بأن الله تعالى لم يرسله إلا لينذرهم، وليس مكلفاً بأن يدخلهم في الهدى رغماً عنهم؛ وذلك لأجل أن لا يكون لهم عذر يوم القيامة يعتذرون به عند الله سبحانه وتعالى بأنه لم يرسل لهم رسولاً ينذرهم ويحذرهم يوم البعث والحساب والجزاء.

﴿وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴿٦٥﴾﴾ وأن يخبرهم أنه لا إله في هذا الكون إلا إله واحد، كل ما في هذا الكون تحت قدرته وقبضته وسيطرته، والقاهر لكل شيء بقوته.

﴿رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ﴿٦٦﴾﴾ وهو سبحانه المالك للسماوات والأرض وما بينهما والعزيز هو القوي الغالب، والغفار هو كثير المغفرة لمن أقبل إليه مهما كانت ذنوبه وخطاياه.

﴿قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ﴿٦٧﴾ أَنْتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ﴿٦٨﴾﴾ وأخبرهم يا محمد أن ما تلوته عليهم من أمر القيامة والبعث والحساب ليس بالأمر الهين والسهل فهو من الأمور العظيمة والأخبار التي ينبغي أن يستعد المرء لمثلها غاية الاستعداد.

﴿مَا كَانَ لِيَ مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَإِ الْأَعْلَى إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴿٦٩﴾ إِنْ يُوحَى إِلَيَّ إِلَّا أَنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ﴿٧٠﴾﴾ وأخبرهم يا محمد بأنك لم تكن تعلم بما كان يجري في الملأ الأعلى بين الملائكة والشيطان من الجدال والتخاصم في خلق آدم وأمر الله سبحانه وتعالى لهم بالسجود له لولا ما كان من إخبار الله سبحانه وتعالى لك بعلمه.

وأخبرهم أيضاً بأنك نبي مرسل من عند الله تعالى لإنذارهم.

ثم أخبر الله سبحانه وتعالى بذلك الذي قد حصل في الملأ الأعلى فقال:

﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ۝٧١ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ۝٧٢﴾ وذلك أن الله سبحانه وتعالى أوحى إلى ملائكته بأنه سيخلق بشراً من الطين، وأمرهم بالسجود له عندما ينفخ فيه الروح.

﴿فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ۝٧٣ إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ۝٧٤ قَالَ يَاإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ۝٧٥﴾ فامتثل الملائكة لأمر الله سبحانه وتعالى إلا إبليس فقد استكبر على الله تعالى، وترفع عن الامتثال لأمره، واعترض على إرادة الله تعالى ومشيئته.

﴿قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ۝٧٦﴾ هذا هو جواب إبليس على الله تعالى، فاستنكر كيف يسجد لمن هو أقل شأناً منه، وهو بجوابه هذا إنما يعترض على الله سبحانه وتعالى في مشيئته وإرادته.

﴿قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ۝٧٧ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَى يَوْمِ الدِّينِ۝٧٨﴾ أخرج الله تعالى إبليس من ظل رحمته وطرده منها إلى لعنته بسبب استكباره عن الامتثال لأمر الله تعالى.

﴿قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ۝٧٩﴾ فطلب من الله سبحانه وتعالى أن يمد في عمره ويمهله إلى يوم القيامة.

﴿قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ۝٨٠ إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ۝٨١ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ۝٨٢ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ۝٨٣﴾ فأجاب الله سبحانه وتعالى له طلبه، فأقسم إبليس على الله سبحانه وتعالى أنه سيسعى جهده في إغواء الناس وإضلالهم وإخراجهم عن الحق والهدى واستثنى منهم المخلصين لله تعالى في إيمانهم وعبادتهم فقد عرف أنه لن يستطيع فيهم، وأنه لن يجد إلى إغوائهم طريقاً.

﴿قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقَّ أَقُولُ۝٨٤ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ۝٨٥﴾ فأقسم الله تعالى بالحق الذي هو قوله ولا يقول غيره بأنه سوف يعذبه وكل من أطاعه واتبعه في نار جهنم التي أعدها لمن عصاه.

﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾ ثم أمر الله سبحانه وتعالى نبيه ﷺ أن يخبر المشركين بأنه لم يطلب منهم أي أجرة على مشقة تبليغهم رسالة ربهم حتى يرفضوا الاستجابة له خوفاً من دفع الأجرة.

﴿وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ۝٨٦ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ۝٨٧﴾ وأن يخبرهم بأن ما جاءهم به من القرآن إنما هو كلام الله تعالى، وأنه لم يأت به أو يختلقه من عند نفسه.

﴿وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ۝٨٨﴾ إن لم يؤمنوا به الآن فليعلموا أنهم سيؤمنون به فيما بعد، ولكن حين لا ينفعهم إيمانهم، وذلك وقت حلول العذاب ونزوله بهم.

۞۞۞۞۞

سورة الزمر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ۝١﴾ كان المشركون يقولون: إن ما جاءهم به محمد من القرآن ليس كلام الله تعالى، وأنه إنما كان يكتتبه من عند بعض أهل العلم الأول، وكان بعضهم يقول: إنه إنما افتراه واختلقه من عند نفسه- فرد الله سبحانه وتعالى عليهم ما يدعونه على نبيه ﷺ، وينكرونه عليه بأنه كلام منزل من عند الله سبحانه وتعالى على نبيه ﷺ؛ ليبلغه المشركين وينذرهم بآياته، وأنه كلام الله العزيز الغالب، أنزله بعلمه وحكمته.

﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ﴾ وهو كلام الله تعالى أنزله متلبساً بالحق والصدق، سليماً من التناقض والاختلاف.

﴿فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ۝٢﴾ فلا يصدنك تكذيبهم عن عبادة الله سبحانه وتعالى، ومواصلة تبليغ رسالة ربك، ولا تفتر عزيمتك، واصبر على عبادة الله تعالى

وحده، وعلى تبليغ ما كلفك ربك من الدعوة إليه وإلى عبادته وحده.

﴿أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ﴾ فالله سبحانه وتعالى هو الذي يستحق العبادة وحده، وأما الذين يعبدونهم من دونه فلا يستحقون العبادة ولا يتصفون بشيء من صفات الجلال والكمال.

﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾ المشركون الذين اتخذوا أرباباً يعبدونهم من دون الله تعالى كانوا يقولون: إنهم إنما يعبدون الأرباب لتقربهم إلى الله سبحانه وتعالى وتشفع لهم عنده.

﴿إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ كان المشركون فرقاً ومذاهب كثيرة، وكان كل فريق منهم قد اتخذ له إلهاً يعبده، فأخبر الله سبحانه وتعالى أنه سيحاسبهم جميعاً، وسيحكم بينهم، وحكم الله سبحانه وتعالى أن من كان على الحق فسيثيبه بالجنة، ومن كان على الباطل فسيعاقبه في جهنم وبئس المصير.

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ ۝٣ لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا لَاصْطَفَى مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾ كان المشركون يقولون: إن الملائكة بنات الله؛ فرد الله سبحانه وتعالى عليهم اعتقادهم بأنه لو أراد أن يتخذ الأولاد كما يزعمون لاختارهم واصطفاهم من أفضل مخلوقاته وأزكاهم، ولما اختار الجنس الأدنى الذي هو الإناث.

﴿سُبْحَانَهُ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ۝٤﴾ نزه الله نفسه عما ينسبونه إليه من الولد، فقد تقدس وتنزه عن مشابهة المخلوقين، وذلك أن التوالد من طبيعة المخلوقين، والله سبحانه وتعالى ليس من جنس المخلوقات، فهو المتفرد بصفات الإلهية والكمال، والمتنزه عن اتخاذ الشركاء والأولاد، ليس كمثله شيء وهو السميع البصير، لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفؤاً أحد.

﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ﴾ ثم أخبر الله سبحانه وتعالى أنه خلق السماوات والأرض لغرض عظيم وحكمة بالغة، وذلك هو ما يترتب على خلقهما من الحياة الآخرة، والبعث بعد الموت، فليس هذا الخلق إلا مقدمة لتلك

الحياة الأخرى، وفي هذه الآية رد على المشركين من إنكار البعث بعد الموت، إذ لو كان كما يزعمون من عدم البعث لكان خلقه للسماوات والأرض وما بينهما عبثاً وباطلاً وعارياً عن الحكمة.

﴿يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى﴾ ثم ذكر الله سبحانه وتعالى بعضاً من آثار قدرته وربوبيته، فأخبر أنه الذي يدخل النهار في ظلمة الليل والعكس، وأنه الذي خلق الشمس والقمر وسخر لهما الطريق التي يسير كل منهما فيها على ميزان محدود، وجعل لهما منازل معلومة لا يتخلفان عن مسارهما الذي حدده لهما بقدرته إلى يوم القيامة.

﴿أَلَا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ﴿٥﴾﴾ ثم وصف الله سبحانه وتعالى نفسه بأنه القوي المقتدر على كل شيء، وكل شيء في قبضته وسيطرته، وأنه الغفار الذي لم يؤاخذ المشركين والعصاة بذنوبهم، بل أمهلهم وخلاهم ومتعهم في الدنيا، وأطال في أعمارهم.

﴿خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ يُذكِّر الله تعالى المشركين إن أرادوا أن يذكروا ويرجعوا إليه وإلى عبادته وحده، بأنه الذي خلقهم وأوجدهم من نفس آدم وحواء.

﴿وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ﴾ وهو وحده الذي أنعم عليكم بأن خلق لكم هذه الثمانية الأزواج من الأنعام وسخرها في مصلحتكم ومنفعتكم، فهو الذي يستحق أن تطيعوه وتشكروه على نعمه هذه العظيمة عليكم.

﴿يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ﴾ ويذكرهم الله أن ينظروا في كيفية تكوينهم في بطون أمهاتهم؟ فبدأ خلقهم من النطفة التي يلقيها الرجل في بطن المرأة، ثم إن هذه النطفة تتحول إلى قطعة دم متجمدة بقدرته، ثم إن العلقة هذه تتحول بقدرته إلى قطعة لحم، ثم إن قطعة اللحم هذه تتحول إلى عظام ومفاصل وأعضاء، ثم بعد ذلك تكتسي هذه العظام باللحم، ثم ينفخ فيه الروح بقدرته فيصير خلقاً آخر.

والظلمات الثلاث هي ظلمة الرحم، وظلمة المشيمة، وظلمة البطن، فيتكون هذا الإنسان في تلك الظلم تحت رعاية الله سبحانه وتعالىٰ وعنايته وتدبيره ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴿٨٢﴾﴾ [يس].

﴿ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ﴿٦﴾﴾ فهذا الذي قدر علىٰ خلقكم وإيجادكم هو ربكم أيها المشركون الذي يستحق أن تخصوه بالعبادة؛ لأنه المالك لكل ما في السماوات والأرض فلا شريك له في إلهيته وربوبيته.

﴿فَأَنَّى تُصْرَفُونَ﴿٦﴾﴾ فكيف تصرفون عن عبادته إلىٰ عبادة غيره؟ وما هو الذي صرفكم إلىٰ عبادة غيره من الآلهة، وترك عبادة الذي خلقكم والذي بيده أمركم؟

﴿إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ وَلَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ﴾ ثم خاطب الله سبحانه وتعالىٰ المشركين وأخبرهم بأنه لم يدعهم إلىٰ الهدىٰ والإيمان إلا لمصلحتهم والرحمة بهم، وأما هو فليس محتاجاً إليهم ولا إلىٰ طاعتهم، وإن كفروا أسخطوه وحرموا رضوانه، وسيعذبهم جزاءً علىٰ كفرهم.

﴿وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ﴾ وأما إذا آمنتم بالله تعالىٰ وشكرتم نعمه عليكم فإنه سيثيبكم، وسيجازيكم أحسن الجزاء وأجزله.

﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ ثم أخبر الله سبحانه وتعالىٰ أن كل واحد مسئول عن نفسه، وأنه وحده سيتحمل وزره علىٰ ظهره، ولن يحمل عنه أحد شيئاً.

﴿إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴿٧﴾﴾ فلا يخفىٰ عليه خافية في الأرض ولا في السماء، وهو عالم بما استكن في الصدور، ومجازيهم علىٰ كل ذلك.

﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ﴾ ثم أخبر الله سبحانه وتعالىٰ عن طبيعة الإنسان بأنه إذا اشتدت عليه الأمور ونزلت به البلاوي والمصائب فإنه يذكر الله سبحانه وتعالىٰ، ويلجأ إليه عند ذلك، وينسون آلهتهم وأصنامهم التي يعبدونها من دون الله، ويرجعون إلىٰ الله سبحانه وتعالىٰ وحده لكشف الضر عنهم.

﴿ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِنْ قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَنْدَادًا﴾ فإذا كشف الله سبحانه وتعالى ضره وبلواه، وأسبغ عليه نعمه فإنه ينسى الله تعالى، ويرجع إلى ما كان عليه من قبل من عبادة تلك الآلهة.

﴿لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ ثم ذكر الله سبحانه وتعالى السبب في رجوعه إلى عبادة الأصنام فقال إنه من أجل أن يضل الناس عن دين الله وعن الإيمان به.

﴿قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ۝٨﴾ أمر الله سبحانه وتعالى نبيه ﷺ هنا أن يخبر هؤلاء المشركين بأن الله سبحانه وتعالى سيجازيهم عما قريب، وأن أيامهم في الدنيا ليست إلا معدودة يمتعهم الله سبحانه وتعالى فيها، ثم إن مصيرهم إلى النار بعد ذلك خالدين فيها أبداً.

﴿أَمْ مَنْ هُوَ قَانِتٌ ءَانَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ثم استنكر الله سبحانه وتعالى على المشركين ما يلزم من إنكارهم للبعث من التسوية بين الذين أفنوا أعمارهم في طاعة الله تعالى عاكفين على عبادته ليلاً ونهاراً خوفاً من الله تعالى ومن عقابه، وطمعاً في ثوابه ورضاه، وبين الذين ضيعوا أعمارهم في اللهو والفساد في الأرض وعبادة الأصنام؛ فلا بد أن يكون هناك حياة أخرى يجزي الله فيها المحسنين على إحسانهم ويعاقب المسيئين على إساءتهم وتمردهم، وأن الأمر لو كان على ما يظن المشركون المنكرون للبعث والحساب لكان الله سبحانه وتعالى ظالماً، ولكان خلقه لهم عبثاً، وذلك لا يجوز على الله تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.

ثم أمره أن يخبرهم أنه لا بد أن يكون هناك فرق بين أهل العلم بالله سبحانه وتعالى وبآياته وبوعده ووعيده، وأهل الجهل بالله تعالى والكفر بآياته ورسله.

﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ۝٩﴾ ثم أخبر الله سبحانه وتعالى أنه لن يعرف آياته، ويتذكر بمواعظه إلا الذين يستعملون عقولهم، ويعملون بما تدعوهم إليه فطرهم.

﴿قُلْ يَاعِبَادِ الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ﴾ ثم وجه الله سبحانه وتعالىٰ خطابه إلىٰ الذين آمنوا بالله ورسوله بأن لا يغتروا بإيمانهم، ولا يركنوا إلىٰ أنفسهم، وأن يكونوا علىٰ حذر من الوقوع فيما يغضبه ويوجب سخطه، وأن يعلموا أنهم معرضون للوقوع في المعصية في كل وقت؛ فأمرهم بتقواه والاستقامة.

﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ﴾ ثم أخبرهم بأن جزاء من أحسن في هذه الحياة الدنيا وعمل الأعمال الصالحة فإن الله سبحانه وتعالىٰ سيجازيه بالحسنىٰ في الآخرة وهي الجنة.

والإحسان: هو أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك.

﴿وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ﴾ فإذا لم يتأت لكم أن تعبدوا الله تعالىٰ وتقيموا حدوده وفرائضه في مكان فاعلموا أن أرض الله واسعة فيجب عليكم أن تتنقلوا فيها، فليس لكم عذر في ترك الهجرة، فأنتم مأمورون بإقامة فرائضه وحدوده مهما أمكنكم ذلك.

﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ۝١٠﴾ يرغب الله سبحانه وتعالىٰ عباده هنا في الصبر علىٰ إيمانهم وتقوىٰ الله سبحانه وتعالىٰ مهما لحقهم من الأذىٰ الذي يلاقونه في سبيل ذلك، فأخبرهم أنه سيثيبهم الثواب العظيم وسيضاعف لهم الأجر أضعافاً مضاعفة، وأنه لا جزاء يساوي ذلك الجزاء.

﴿قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ۝١١﴾ ثم أمر الله سبحانه وتعالىٰ نبيه ﷺ أن يخبر المشركين بأن الله سبحانه وتعالىٰ قد أمره أن يخلص في عبادته له وحده، وأن لا يشرك في دينه وعبادته أحداً دونه.

﴿وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ۝١٢﴾ وأن يخبرهم بأنه أول من آمن واستسلم وانقاد لله سبحانه وتعالىٰ وامتثل أمره.

﴿قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ۝١٣﴾ وأن يخبرهم بأنه يخاف الله تعالىٰ ويخاف عذابه وسخطه إن هو عصاه؛ لأن المشركين كانوا يتفاوضون معه بأن يعبد آلهتهم سنة وسيعبدون إلهه سنة، وكانوا يطلبون منه أن يرخص لهم في بعض الأشياء إن هو أراد أن يؤمنوا له ويصدقوا ما جاء به.

﴿قُلِ اللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَهُ دِينِي ۝ فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُمْ مِنْ دُونِهِ﴾ فأمره الله تعالى أن لا يتساهل معهم في شيء مما يطلبونه منه أو يستدرجونه فيه، وأن يخبرهم بأنه لن يشرك مع الله أحداً، ولن يعبد من دونه إلهاً مهما كان، وهم إن شاءوا آمنوا وإن شاءوا كفروا، فلا صلح ولا مفاوضة.

﴿قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ ۝﴾ وأن يخبرهم بأنه لا خسارة تعادل خسارة المرء نفسه وأهله بتفريطه في معصية الله سبحانه وتعالى وتقصيره في أمور دينه.

﴿لَهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ النَّارِ وَمِنْ تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ﴾ ثم أخبر الله سبحانه وتعالى عن جزاء أولئك الذين خسروا أنفسهم بأنهم في نار جهنم يعذبون بين أطباقها.

﴿ذَلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ يَاعِبَادِ فَاتَّقُونِ ۝﴾ يكرر الله تعالى على المشركين الإنذار والتخويف لعلهم ينتفعون بتخويفه وتحذيره، ويرتدعون عن معصيته.

﴿وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَنْ يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَى فَبَشِّرْ عِبَادِ ۝﴾ وأما الذين اجتنبوا عبادة الآلهة التي من دون الله تعالى، ورجعوا إلى عبادة الله سبحانه وتعالى وحده فأخبرهم بأن لهم البشرى بالفوز العظيم، والحياة السعيدة الأبدية في جنات النعيم.

ثم أخبر الله سبحانه وتعالى من هم عباده الذين يستحقون البشرى في الدنيا والآخرة فقال: ﴿الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ﴾ وهم الذين تنفع فيهم المواعظ والآيات فتردعهم عن معصية الله سبحانه وتعالى، واتباع أهوائهم وشهواتهم.

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ ۝﴾ فهؤلاء هم أهل هداية الله تعالى، وهم أهل العقول الراجحة؛ لأنه لا عاقل إلا من استجاب لما يدله عليه عقله.

﴿أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ أَفَأَنْتَ تُنْقِذُ مَنْ فِي النَّارِ ۝﴾ وأن يخبرهم أن من استوجب عذاب الله سبحانه وتعالى وسخطه ومن استوجب ثوابه ليسا

سواءً عنده تعالى، فأهل الثواب لهم الدرجات الرفيعة في جنات النعيم، وأما أهل المعاصي فسيعذبهم الله تعالى بالخزي والصغار في نار جهنم.

ثم أخبره أنه لن يستطيع أن ينقذ الذي استحق عذابه وسخطه، وذلك أن النبي ﷺ كان حريصاً كل الحرص على إيمان قريش واستنقاذهم من ظلمات الشرك والجهل إلى نور الحق والهدى، وقد أتعب نفسه في ملاحقتهم حتى كاد أن يهلك نفسه في سبيل ذلك، ولكن لم يلق أي قبول أو إجابة منهم، فأخبره الله سبحانه وتعالى أن يكف عن ملاحقتهم وأن لا يتعب نفسه في ذلك فلن يؤمنوا أبداً مهما حاول فيهم.

﴿لَكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِنْ فَوْقِهَا غُرَفٌ مَبْنِيَّةٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَعْدَ اللَّهِ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ الْمِيعَادَ﴿٢٠﴾﴾ هذا وعد من الله سبحانه وتعالى بأنه أعد لمن اتقاه واجتنب ما يسخطه ويغضبه- النعيم الدائم والمنازل العالية والقصور الطويلة، وبساتين الثمار في جنات النعيم والله تعالى لا يخلف وعده.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ﴾ يحث الله سبحانه وتعالى عباده هنا أن ينظروا في آياته وآثار رحمته ونعمه عليهم، فأمرهم أن ينظروا كيف ينزل لهم المطر من السماء، ثم يجتمع في بطن الأرض بقدرته، ثم بعد ذلك يخرجه مرة أخرى من الأرض على شكل ينابيع تتفجر، ثم تسيل على وجه الأرض فينبت به أنواع الزرع والثمر، أفلا يدل كل ذلك على أنه لا بد أن يكون ذلك بقدرة قادر حكيم ومدبر عليم.

﴿ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَامًا﴾ ثم بعد أن ينمو الزرع ويكتمل نموه فإنك تراه يأخذ في النقص واليباس حتى تتفتت أجزاؤه وتطيره الريح وكأن شيئاً لم يكن.

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴿٢١﴾﴾ يحثهم الله سبحانه وتعالى على النظر في آياته تلك لما فيها من البعث لهم على معرفة قدرته وسعة علمه وتدبيره،

وليعرفوا أيضاً أن من قدر على ذلك فهو قادر على إحيائهم بعد الموت، وبعثهم بعد أن صاروا عظاماً وتراباً؛ غير أنه لن يعتبر بآياته إلا أهل العقول الراجحة.

﴿أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ﴾ ثم أخبر الله سبحانه وتعالى أنه لا يستوي عنده ذلك الذي قد امتلأ قلبه بنور الإسلام انشرح صدره بالدين والهدى بسبب استجابته لدعوة الله سبحانه وتعالى ودعوة رسله له هو ومن لا يزال يتخبط في ظلمات الجهل والشرك والضلال.

﴿فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴿٢٢﴾﴾ سيجزي الله أهل الضلال والشرك الذين لم تنفع فيهم آيات الله سبحانه وتعالى ولم تؤثر فيهم مواعظه وآياته بما يستحقون من العذاب العادل في نار جهنم.

﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا﴾ أحسن الحديث هو القرآن فقد أنزله الله سبحانه وتعالى على نمط واحد في البداعة والحسن، وقد تشابهت آياته في ذلك.

﴿مَثَانِيَ﴾ وقد اشتمل على الثناء والمدح لله سبحانه وتعالى، وتكررت فيه آيات الله وحججه وبيناته ومواعظه وقصصه وعبره.

﴿تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ﴾ الذين يخشون الله سبحانه وتعالى تصيبهم القشعريرة الشديدة خوفاً من الله تعالى ومن لقائه إذا سمعوا ذكر الله وآياته فتراهم يسارعون إلى المبادرة في طاعة الله سبحانه وتعالى، وفعل ما يرضيه حين يسمعون آيات القرآن الحكيم.

﴿ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ ثم وصف الله سبحانه وتعالى القرآن بأنه قد أنزله ليهتدي به أولئك الذين علم أنهم من أهل الهدى والاستجابة.

﴿وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴿٢٣﴾﴾ وأما أولئك المستكبرون الذين غطى الشرك والجهل قلوبهم فلن تنفع فيهم آياته وبيناته.

﴿أَفَمَنْ يَتَّقِي بِوَجْهِهِ سُوءَ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ ثم أخبر الله سبحانه وتعالىٰ أنه لا يستوي أولئك الذين غلت أيديهم إلىٰ أعناقهم يوم القيامة حتىٰ لم يبق لهم ما يتقون به عذاب الله إلا وجوههم، وأولئك الذين استقبلتهم ملائكة الله تعالىٰ بالتسليم وقد فتحت لهم أبواب الجنة، وصاروا في ضيافة الله سبحانه وتعالىٰ؛ فلماذا لا يتدبر هؤلاء المشركون ويحذروا أن يكونوا من أهل عذاب الله تعالىٰ وسخطه.

﴿وَقِيلَ لِلظَّالِمِينَ ذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ۝٢٤﴾ ثم أخبر الله سبحانه وتعالىٰ أنه سيقول يوم القيامة لأولئك الذين ظلموا أنفسهم بارتكاب ما يغضبه ويوجب سخطه: ذوقوا جزاء أعمالكم التي كنتم تعملونها في الدنيا، وجزاء تمردكم واستهزائكم وتكذيبكم بما جاءتكم به أنبياؤكم ورسلكم.

﴿كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ ثم أخبر الله سبحانه وتعالىٰ نبيه ﷺ بأن شأن أمته كشأن من سبقها من الأمم، وأن كل الأنبياء من قبله قد لاقوا مثل ما لاقىٰ من قومه من التكذيب والاستهزاء، فلا يكبر ذلك في نفسه فليس بدعاً من الرسل.

﴿فَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ۝٢٥﴾وقد عذبهم الله سبحانه وتعالىٰ جزاءً علىٰ تكذيبهم وتمردهم، ولم يشعروا إلا بحلوله ونزوله عليهم فجأة عن غير استعداد منهم لنزوله.

﴿فَأَذَاقَهُمُ اللَّهُ الْخِزْيَ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ﴾ ثم إن الله سبحانه وتعالىٰ أخزىٰ هؤلاء المكذبين وعذبهم في الدنيا، وكذلك سيعذبهم الله سبحانه وتعالىٰ يوم القيامة وسيكون ذلك أشد وأخزىٰ لهم.

﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ۝٢٦﴾ ولو أنهم كانوا يعلمون بهذا العذاب الذي سيحل بهم لحذروا الوقوع فيه، ولسعوا جهدهم في دفع نزوله بهم بعمل ما يرضي الله تعالىٰ ورسوله.

﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْءَانِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ۝٢٧﴾ أخبر الله سبحانه وتعالىٰ أنه قد ضرب للمشركين أنواع الأمثال، وصرف لهم

الآيات فيما أنزل عليهم من القرآن، لعل ذلك يؤثر فيهم فيدخلوا في الدين والهدى، ولكنهم لم يقبلوا، وأصروا على كفرهم وتكذيبهم وتمردهم.

﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ۝٢٨﴾ ثم بين الله سبحانه وتعالى هذه الآيات التي صرفها لهم فوصفها بأنها قرآن أنزله على لسانهم وبلغتهم، وضح لهم فيه آياته وبيناته وحججه، حتى لم يبق لهم أي عذر في التشكيك فيه أو التكذيب به؛ وكل ما أنزله عليهم من الآيات فإنما أنزله رحمة بهم.

﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ۝٢٩﴾ثم إن الله سبحانه وتعالى ضرب للمشركين هذا المثل الذي يبين فيه حالهم وحال المؤمنين، فشبه حالهم في عبادتهم للأصنام بحال عبد اشترك فيه مجموعة أشخاص مختلفين فيما بينهم، وكل واحد منهم له رأي غير رأي الآخر، فكيف يستطيع هذا العبد أن يطيعهم ويرضيهم جميعاً وكل واحد منهم يطلب منه ضد ما يطلب الآخر.

وشبه حال المؤمنين في عبادة الله سبحانه وتعالى وحده بعبد مملوك لمالك واحد فإنه يستطيع أن يخدمه ويطيعه ويرضيه.

فأمرهم أن ينظروا في الفرق بين هذين الصنفين، وأيهما أحسن حالاً من الآخر؟ وسيعرفون الفرق الواضح بينهما، ولكنهم تعاموا عن الحق وأعرضوا عنه أشد الإعراض.

﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ۝٣٠ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ۝٣١﴾ ثم بعد أن أدى النبي ﷺ ما أمر بتبليغه للمشركين أخبره الله تعالى أنه مهما فعل فيهم فلن يقبلوا منه أو يستجيبوا له، وأمره أن يخبرهم بأن مرجعهم جميعاً سيكون إلى الله تعالى، وسيقفون بين يديه يوم القيامة ليحكم بينه وبينهم.

﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ عَلَى اللَّهِ وَكَذَّبَ بِالصِّدْقِ إِذْ جَاءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِلْكَافِرِينَ۝٣٢﴾ ذكر الله تعالى أن المشركين نسبوا إلى الله سبحانه وتعالى ما

لا يليق به من الأمر بالشرك والمعاصي، ثم لما أنزل عليهم القرآن كذبوا به، فأخبر الله سبحانه وتعالى أنهم قد بلغوا الغاية في الظلم والكفر ومعصية الله تعالى، وأنه قد أعد لهم مكاناً في جهنم خالدين فيها أبداً.

﴿وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ۝٣٣ لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ۝٣٤﴾ فالذي جاء بالصدق هو النبي صلى الله عليه وآله وسلم، والمصدقون به هم المؤمنون، أثنى الله سبحانه وتعالى عليهم، ووصفهم بأنهم أهل التقوى وأهل ثواب الله تعالى.

وكان أول من آمن بالنبي صلى الله عليه وآله وسلم هو ابن عمه علي بن أبي طالب عليه السلام، فهو أول المصدقين بالنبي صلى الله عليه وآله وسلم.

﴿لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا﴾ ووعدهم الله بأنه سيكفر عنهم سيئاتهم التي عملوها جزاءً على حرصهم الشديد على تقوى الله تعالى والإيمان بما نزل من عنده، وذلك أن الإنسان مهما بلغ في تقوى الله تعالى فهو محل الخطأ والنسيان، ولا بد أن تقع منه الزلات والأخطاء.

﴿وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ۝٣٥﴾ ووعدهم بأنه سيثيبهم على أعمالهم بأحسن الثواب وأجزله.

﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ﴾ تولى الله تعالى حفظ نبيه صلى الله عليه وآله وسلم فهو في حصن حصين وحرز منيع منكم أيها المشركون، وسيكفيه ربه ما تريدون من قتله.

ثم أخبر الله سبحانه وتعالى نبيه صلى الله عليه وآله وسلم أن المشركين يخوفونه صلى الله عليه وآله وسلم بآلهتهم وأصنامهم ويحذرونه أنها سوف تضره وستلحق به الأذى الشديد وستهلكه وستفعل به الأفاعيل إن هو لم يترك ذمها.

﴿وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ۝٣٦﴾ فأخبر الله سبحانه وتعالى بأن هؤلاء الذين يخوفونك يا محمد بآلهتهم هم أهل الضلال الذين قد حكم عليهم به، ولن يستطيع أحد أن يهديهم ما داموا قد رفضوا الاهتداء بهدى الله تعالى الذي أنزله عليهم.

﴿وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُضِلٍّ﴾ وأما من قبل الهدى، وتمسك بأسباب الهدى التي أعطاه الله تعالى فلن يستطيع أحد أن يدخله في الضلال بعدها أبداً.

﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِي انْتِقَامٍ﴿٣٧﴾﴾ إن الله سبحانه وتعالى هو العزيز الغالب والممتنع، والقاهر لكل شيء بقدرته، وهو قادر على أخذهم وتعذيبهم والانتقام منهم، غير أن حكمته اقتضت أن يمهلهم ويخليهم، ويؤخر تعذيبهم إلى أجل مسمى كتبه لهم.

﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ ذكر الله تعالى أن المشركين مقرون ومعترفون بالله تعالى، وأنه وحده المتفرد بخلق السماوات والأرض وما فيهما، فلماذا لا يعبدون الله سبحانه وتعالى ما داموا مقرين ومعترفين بأنه الذي خلقهم، وخلق كل شيء؟

﴿قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ﴾ ثم أمر الله سبحانه وتعالى نبيه ﷺ أن يسأل المشركين أيضاً: ماذا ستفعل آلهتهم التي يعبدونها إن أراد الله سبحانه وتعالى أن ينزل الضر والبلوى بأحد؟

وهل ستستطيع هذه الآلهة أن تكشف هذه الضر والبلوى؟

وكذلك يسألهم: هل ستستطيع أن تمسك نزول رحمته إن أراد أن ينزلها بأحد من خلقه؟

فحتماً لن يجدوا جواباً مقنعاً إلا أن يعترفوا أنها لا تستطيع فعل شيء من ذلك.

﴿قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ﴿٣٨﴾﴾ ثم أمره الله سبحانه وتعالى بعد أن اعترفوا له أن يخبرهم بأنه سيعبد الله وحده لا يشرك معه غيره لأنه الذي يستحق العبادة وهو الذي بيده الضرر والنفع وعليه وحده يتوكل المتوكلون.

﴿قُلْ يَاقَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴿٣٩﴾ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ﴿٤٠﴾﴾ بعد أن بلَّغهم النبي ﷺ حجج

الله سبحانه وتعالى وبيناته، وصرَّف لهم الآيات، وحصل منهم ما حصل من التمرد والاستهزاء- أمره الله تعالى أن يتحدى المشركين بأن يعملوا جهدهم في إبطال أمره إن استطاعوا، وأن يجهدوا جهدهم في هدم الدين وأهله، وأن يحاولوا بكل ما أوتوا من القوة في ذلك، وأن يخبرهم أيضاً بأنه سيعمل كل ما يستطيع لإفساد شركهم وضلالهم وباطلهم وهدم آلهتهم ودينهم.

وذلك أن المشركين كانوا متوقعين لهلاك النبي صلى الله عليه وآله وسلم وانطماس دعوته وشريعته وهلاك جميع أتباعه جزاءً على مخالفته لدين آبائه وأجداده الذي يزعمون أنه دين إبراهيم وإسماعيل، فأمره الله سبحانه وتعالى أن يتحداهم ذلك التحدي، وأنهم مهما حاولوا فلن يستطيعوا أن يطمسوا الإسلام، وأن يخبرهم أنهم في الأخير سوف يعلمون حين يحل بهم عذاب الله من هو الذي على الضلال والباطل، ومن هو الذي استحق عذاب الله تعالى وسخطه؟

﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ فَمَنِ اهْتَدَى فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ﴿٤١﴾﴾ ثم أخبر الله سبحانه وتعالى نبيه صلى الله عليه وآله وسلم بأنه أنزل عليه القرآن الذي جعل فيه الحق والهدى لمن أراد أن يهتدي بهديه ويستضيء بنوره، وأمره أن يبلغهم ذلك، ويخبرهم أنهم مخيرون في العمل بما فيه والاهتداء بهديه، وأن يخبرهم أن هذا هو الذي يجب عليه من رسالة ربه، أما أمر دخولهم في الهدى والدين فذلك ليس موكولاً إليه، فمن قبل الهدى فقد أنقذ نفسه، ومن رفض قبوله فسيتحمل وزر ذلك على ظهره.

﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَى إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى﴾ الله وحده المختص باستيفاء آجال خلقه وأخذ أرواحهم، والله سبحانه وتعالى وحده هو الذي يأخذ روح النائم حال نومه، فإن كان ذلك النائم قد استوفى أجله وبلغ نهاية عمره فإن الله تعالى لا يرد روحه إليه، وأما إن لم يكن قد استوفى أجله فإنه يرد روحه حال استيقاظه، وهكذا إلى أن يستوفي أجله المقدر له.

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ فذلك آية من آياته الدالة عليه تعالىٰ وعلىٰ قدرته لمن نظر وتفكر في مسألة الروح.

﴿أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ﴾ ولكن المشركين معرضون عن آيات الله تعالىٰ التي يبثها لهم، ويحثهم علىٰ النظر والتفكر فيها، ويذهبون إلىٰ عبادة غيره من الآلهة التي يدعونها من دونه، ويزعمون أنها ستشفع لهم عند الله سبحانه وتعالىٰ، وتقربهم إليه.

﴿قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلَا يَعْقِلُونَ﴾ قل لهم يا محمد: كيف تعبدون هذه الآلهة وأنتم تعرفون أنها لا تملك شيئاً، ولا تعقل أي شيء، ولا تستطيع أن تنفعكم أو تضركم بشيء؟ وهل تسمح لكم عقولكم بعبادتها وهي لا تقدر علىٰ أي نفع لكم وليس لها عقول حتىٰ تعقل عبادتكم لها.

﴿قُلْ لِلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ وأن يخبرهم أن آلهتهم هذه لا تملك لهم أي نفع ولن تدفع عنهم أو تشفع لهم، فالشفاعة لله سبحانه وتعالىٰ وحده، فهو الذي يعطي ويمنع، ويعز ويذل، ويثيب ويعاقب، فالخير والشر كله بيده وحده لا شريك له في شيء من ذلك، فما دام الملك له وحده فلن تستطيع آلهتهم هذه أن تتصرف في شيء من ملكه، فالأولىٰ بهم أن يرجعوا إلىٰ عبادته وحده ويتركوا تلك الآلهة ما دام مرجعهم وحسابهم إليه.

﴿وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ يذكر الله سبحانه وتعالىٰ هنا حال المشركين وشدة كبرهم وتعاليهم عليه بأنه إذا ذكر الله سبحانه وتعالىٰ وحده عندهم فإن الكبر والأنفة يأخذهم، وتراهم يشتدون غضباً وحمية لآلهتهم، وتتغير وجوههم استنكاراً عليه، لماذا لا يذكر آلهتهم ويمدحها.

﴿قُلِ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ ثم أمر الله سبحانه وتعالىٰ نبيه ﷺ أن

يدعوه بهذا الدعاء، وذلك بعد أن دعاهم إلى الإسلام وأبلغهم الحجة ولقي منهم ما لقي من التكذيب والكفر والاستهزاء فأمره أن يقول: يا الله يا خالق السماوات والأرض يا عالم الغيب والشهادة احكم بيني وبين قومي بالحق، وحكم الله سبحانه وتعالى هو أن يثيب المؤمنين، ويعذب الكافرين والمنافقين.

﴿وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ مِنْ سُوءِ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ يحذر الله تعالى المعرضين عن قبول آياته وعن العمل بأحكامه أن لا يتهاونوا بالله سبحانه وتعالى وأوامره لهم، وأن لا يتهاونوا بفعل ما يغضبه ويسخطه، وأن يحذروا أن ينزل بهم عذابه؛ لأن أخذه سيكون شديداً، وعذابه ليس بالأمر الهين، فإذا نزل بهم فلن يستطيع أن يدفعه عنهم دافع، ولو كان يملك ملء الأرض ذهباً ومثله معه فقدمه فداءً لنفسه من ذلك العذاب فلن ينفعه ذلك أو يدفع عنه، أو يقبل منه.

﴿وَبَدَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ ﴿٤٧﴾ وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا﴾ وسيحاسبهم الله سبحانه وتعالى على كل صغيرة وكبيرة، حتى تلك الأشياء التي كانوا لا يعتدون بها لحقارتها وقلتها، كالنظرة والكلمة والنية سيحاسبهم عليها، فليحذروا ولينتبهوا ﴿وَيَقُولُونَ يَاوَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾﴾ [الكهف].

﴿وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٤٨﴾﴾ وأحاط بهم ذلك الجزاء الذي كانوا يكذبون به.

﴿فَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٩﴾﴾ أخبر الله سبحانه وتعالى عن طبيعة الكافر والمشرك بالله تعالى أنه إذا نزلت به مصيبة أو شدة أو مرض فإنه ينسى تلك الآلهة التي يعبدها، ويلجأ إلى الله تعالى حينئذ وحده بالدعاء

والاستغاثة إليه أن يكشف عنه ذلك الضر وتلك البلوى، فما إن كشف الله سبحانه وتعالى عنه ضره ذلك وأسبغ عليه نعمه حتى نسي الله تعالى، ورجع إلى ما كان عليه من الكفر بنعم الله تعالى زاعماً أنه لم يؤت تلك الأموال والنعم إلا بذكائه وخبرته الواسعة في الحياة واكتساب الأموال.

ثم أخبر الله سبحانه وتعالى أن تلك النعم التي يسبغها على عباده في الدنيا إنما جعلها فتنة لهم ليبلوا أخبارهم هل سيشكرون نعمه عليهم أم سيكفرون بها؟

وكذلك ما ينزله من الفقر والبلاء والمرض إنما هو فتنة واختبار من الله سبحانه وتعالى هل سيصبرون؟ ﴿وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ [الأنبياء:٣٥].

﴿قَدْ قَالَهَا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ۝٥٠﴾ الكلمة هي: ﴿إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ﴾ [القصص:٧٨]، أخبر الله سبحانه وتعالى أنه قد قالها من قبل هؤلاء المشركين المكذبون من أهل تلك الأمم والقرون السابقة كقارون ومن أشبهه فأهلكهم الله سبحانه وتعالى ودمرهم فلم تستطع تلك الأموال الطائلة التي اكتسبوها أن تدفع عنهم شيئاً من غضب الله تعالى وسخطه الذي أنزله بهم.

﴿فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا﴾ فأصابهم جزاء ما اكتسبوا من الذنوب والمعاصي.

﴿وَالَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ هَؤُلَاءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ۝٥١﴾ وهؤلاء الذين تمردوا وكذبوا من قومك يا محمد فإن شأنهم كشأن تلك الأمم، وسينالون جزاء ما ارتكبوا من الذنوب والمعاصي.

﴿أَوَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ﴾ ثم خاطب الله تعالى هؤلاء الذين أسبغ عليهم نعمه، وبارك في أموالهم وأولادهم في الدنيا، فقال لهم: ألم يعلموا أن الأرزاق بيد الله تعالى وحده؟ وأنه الذي يبسط رزقه على من يشاء من عباده ويمنعه عمن يشاء منهم؟ وأن أحداً لم يُعْطَ شيئاً بقدرة نفسه وشطارتها.

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ۝٥٢﴾ ثم أخبر سبحانه وتعالى أنه لن يعتبر بآياته التي أنزلها الله إلا الذين آمنوا بالله تعالى وصدقوا ما جاءت به رسله، فهم

الذين يعترفون أن الأرزاق بيد الله، وأنه وحده الذي يعطي ويمنع ويقبض ويبسط.

﴿قُلْ يَاعِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴿٥٣﴾﴾ أمر الله سبحانه وتعالى نبيه ﷺ أن يخبر الناس بأن الله تعالى -من رحمته بعباده- لا زال ينادي الذين أسرفوا في فعل المعاصي واقتراف المآثم والفساد في الأرض بالرجوع إليه والإقبال بالتوبة عليه، وأنهم مهما فعلوا من المعاصي فلا زال باب التوبة مفتوحاً، ورحمة الله تنتظرهم فلا يقنطوا وييأسوا من رحمة الله تعالى فما داموا قد تابوا فسيغفر ذنوبهم جميعاً.

﴿وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنْصَرُونَ﴿٥٤﴾﴾ ثم نصحهم بالإنابة والرجوع إليه والانقياد والاستسلام له بفعل ما يرضيه، واجتناب ما يوجب سخطه وغضبه، وهذا هو المفروض قبل أن يحل بهم عذاب الله وسخطه؛ فإنهم إذا عاينوا العذاب فلن ينفعهم توبة، ولن يدفع عنهم عذاب الله أحد.

﴿وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴿٥٥﴾﴾ وأمرهم الله أن يتبعوا القرآن الذي أنزله إليهم، وأن يعملوا بشرائعه وأحكامه ليخلصوا أنفسهم من غضب الله سبحانه وتعالى وسخطه؛ لأنهم إن تمردوا على الله تعالى فسيحل بهم عذابه الذي سيفاجئهم نزوله عن غير استعداد منهم له.

﴿أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ يَاحَسْرَتَا عَلَى مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ وَإِنْ كُنْتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ﴿٥٦﴾﴾ عندما يحل بهم عذاب الله تعالى فعندها سيأخذهم الأسى والحزن، ويصيبهم الأسف الشديد والندم على ما فرطوا في طاعة الله من فعل المعاصي والسيئات، وسينادون على أنفسهم بالحسرة والويل؛ فالأجدر بهم والأفضل أن يتنبهوا من غفلتهم، ويسارعوا إلى طاعة ربهم قبل حلول ذلك عليهم.

وجنب الله هو طاعته وعبادته.

﴿أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنْتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ۝٥٧﴾ والأجدر بهم أيضاً أن يرجعوا ما دام الرجوع مقبولاً، وما دام باب التوبة مفتوحاً، وما دامت أسباب السلامة متوفرة.

وفي الحقيقة فالله سبحانه وتعالىٰ قد هداهم في الدنيا بما أرسل إليهم من الرسل، وأنزل عليهم من الآيات والحجج التي وصلت إلىٰ بيوتهم غير أنهم لم يقبلوا ذلك الهدىٰ الذي جاءهم بل كفروا به وردوه.

﴿أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ۝٥٨﴾ والأجدر بهم أيضاً أن يرجعوا إلىٰ الله تعالىٰ قبل أن يعاينوا العذاب ويقعوا فيه، فيتمنوا عندها الرجوع إلىٰ الدنيا ليتداركوا ما فاتهم من الأعمال الصالحة، ولكن حين لا ينفعهم ذلك التمني والندم.

﴿بَلَى قَدْ جَاءَتْكَ ءَايَاتِي فَكَذَّبْتَ بِهَا وَاسْتَكْبَرْتَ وَكُنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ۝٥٩﴾ عند ذلك سيجيب الله سبحانه وتعالىٰ عليهم بأنه قد جاءهم بالهدىٰ إلىٰ بيوتهم ودواخل قلوبهم بإرسال الرسل، وإنزال القرآن، وتصريف الآيات، وأنه قد كرر لهم الآيات التي تدعوهم إلىٰ الهدىٰ، وتحذرهم وتنذرهم لقاء الله سبحانه وتعالىٰ وعذابه وسخطه، ولكنهم تكبروا علىٰ الله تعالىٰ، وجعلوا أوامره تحت أقدامهم واستهزئوا بأنبيائه ورسله عليهم السلام.

﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُمْ مُسْوَدَّةٌ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِلْمُتَكَبِّرِينَ۝٦٠﴾ ثم أخبر الله سبحانه وتعالىٰ أنه جعل لأولئك المكذبين والمتكبرين عليه علامة يعرفون بها يوم القيامة، وهي أن وجوههم ستكون حينئذ مسودة وكالحة عليها غبرة ترهقها قترة.

﴿وَيُنَجِّي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ السُّوءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ۝٦١﴾ ثم أخبر الله سبحانه وتعالىٰ أنه سينجي الذين اتقوه في الدنيا، واتقوا عذابه وسخطه بفعل ما أمرهم به، واجتناب ما نهاهم عنه، والسبب في نجاتهم هو

أخذهم بأسباب الفوز في الدنيا فهم يوم القيامة في أمن وسلامة لا يلحقهم أي سوء أو مكروه.

﴿اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴿٦٢﴾﴾ ينبه الله تعالىٰ عباده هنا بأنه هو الذي يستحق العبادة والإجلال والتعظيم؛ لأنه الذي خلق كل شيء والقيوم علىٰ كل شيء ولا يغيب عن علمه شيء.

﴿لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ ومفاتيح السماوات والأرض بيده، فهو وحده المتصرف فيهن والمتحكم في شؤونهن، وهو الذي يعطي ويمنع، ويخلق ويرزق، ويضع ويرفع، ويحيي ويميت، بيده الخير كله وهو علىٰ كل شيء قدير.

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴿٦٣﴾﴾ خسروا كل شيء، وذلك بمعاداتهم لله سبحانه وتعالىٰ وتكبرهم عليه ومحاربتهم له.

﴿قُلْ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ﴿٦٤﴾﴾ كيف ساغ لكم أيها المشركون أن تدعوني إلىٰ عبادة الأصنام التي لا تضر ولا تنفع وأترك عبادة رب السماوات والأرض الذي بيده الخير كله وهو علىٰ كل شيء قدير.

﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴿٦٥﴾﴾ أخبر الله سبحانه وتعالىٰ نبيه ﷺ بأنه أنزل عليه في القرآن أن لا يشرك بالله أحداً، وأخبره أن ذلك هو مثل ما قد أوحى إلىٰ الذين من قبله من الأنبياء، وأخبره أيضاً أن من أشرك بالله سبحانه وتعالىٰ فقد خسر الدنيا والآخرة، وقد استوجب عذاب الله تعالىٰ وسخطه.

﴿بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴿٦٦﴾﴾ وأمره أن يخص الله تعالىٰ بعبادته وحده، وأن لا يستجيب لأولئك الذين يدعونه إلىٰ عبادة غير الله تعالىٰ، وأمره أيضاً أن يداوم علىٰ الشكر لله تعالىٰ علىٰ ما أنعم عليه، وأن يعترف له بأنه المتفضل عليه بجلائل النعم ودقائقها.

﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّماوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ﴾ ثم أخبر الله سبحانه وتعالىٰ عن المشركين بأنهم لم يعطوا الله تعالىٰ ما يستحقه من التعظيم والإجلال بسبب شركهم بالله، فهو وحده الذي يستحق التعظيم والإجلال والعبادة؛ لأن كل شيء في قبضة قدرته وتحت سيطرته وسلطانه يوم القيامة لا يتكلم أحد إلا بإذنه لا الملائكة ولا عيسىٰ ولا غيرهم ممن تدعون إلهيتهم.

﴿سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٧﴾﴾ تعالىٰ الله وتقدس عما يدعيه المشركون من الأرباب والشركاء في الإلهية فليس له ولد ولا شريك ولا معين ولا نصير.

﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ ﴿٦٨﴾﴾ عندما ينتهي أمر الدنيا وينتهي أجلها فإن الله سبحانه وتعالىٰ سوف ينفخ في صور جميع ما خلق في السماوات والأرض فيميتهم جميعاً، فإذا حان موعد القيامة والبعث فسينفخ في صورهم مرة أخرىٰ فيبعثهم أحياء من جديد.

﴿وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ﴾ إذا بعث الله تعالىٰ الأموات وحشرهم علىٰ أرض المحشر فهناك يظهر وعد الله الذي كذب به الكافرون وينكشف لهم ما كانوا به يكذبون ويتحقق صدق ما جاءت به رسل الله عليهم السلام من البعث والجزاء والحساب العادل.

﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ﴾ فعندها ستعرض صحائف أعمال العباد، ويحضر الله تعالىٰ الأنبياء والقائمين مقامهم من التبليغ والدعوة والإرشاد علىٰ رؤوس الناس؛ ليشهدوا عليهم أنهم قد بلغوهم آيات الله سبحانه وتعالىٰ وأحكامه وشرائعه إن هم أنكروا وصول الدعوة إليهم؛ فإذا قامت الأنبياء والشهود، ووضعت صحائف الأعمال فعندها سيبدأ الله تعالىٰ في حسابهم، والحكم بينهم فمن أنكر كان هؤلاء شهوداً عليه، حتىٰ لا يبقىٰ لهم أي سبيل إلىٰ الإنكار أبداً.

﴿وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ۝٦٩﴾ فعندها سيحكم الله سبحانه وتعالى بينهم بالحكم الحق والعدل، وسيجازيهم على حسب أعمالهم تلك من دون أي زيادة أو نقصان.

﴿وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ۝٧٠﴾ وستستوفي كل نفس جزاء عملها من خير أو شر.

وما جعله الله سبحانه وتعالى من أمر الشهود وعرض الأعمال فإنما هو لما اقتضته حكمته في ذلك من إظهار العدل والحكم بالحق لأهل الموقف، وأن يطلع جميع الخلائق على عملهم، وليعرفوا أن الله لم يحكم عليهم بالعذاب إلا بسبب ما استحقوه وجنوه على أنفسهم، وأنهم هم الذين جنوا على أنفسهم، وتسببوا في خسارتها، وإلا فإن الله سبحانه وتعالى عالم بجميع أعمال عباده، غير محتاج إلى التسجيل وإقامة الشهود.

﴿وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ زُمَرًا﴾ بعد أن يحكم الله سبحانه وتعالى عليهم بالعذاب ستسوقهم ملائكة العذاب، وتجرهم إلى نار جهنم زمرة بعد زمرة.

﴿حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنْذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا﴾ وحين يقتربون منها تفتح لهم أبوابها وتستقبلهم خزنة جهنم باللوم والعتاب والتوبيخ على ما تسببوا على أنفسهم من الوقوع في العذاب بتكذيبهم بما أرسل الله سبحانه وتعالى إليهم من الرسل، وأنزل عليهم من الكتب التي تحذرهم وتنذرهم بأن يتقوا هذا العذاب الذي هم مقبلون عليه.

﴿قَالُوا بَلَى وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ۝٧١﴾ فيجيبونهم بالإقرار والاعتراف بأنهم قد استحقوا عذاب الله تعالى بسبب كفرهم وتكذيبهم.

﴿قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ۝٧٢﴾ فعندها يجرونهم إلى داخل جهنم التي ستكون مستقرهم ومأواهم الأخير خالدين في العذاب الدائم الذي لا ينقطع ويوبخونهم ويحسرونهم.

﴿وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا﴾ وفي الجانب الآخر ملائكة الرحمة التي تزف الذين آمنوا بالله ورسله وعملوا بأحكامه وآياته وشرائعه.

﴿حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ﴿٧٣﴾﴾ فتزفهم الملائكة إلى الجنة التي قد فتحت أبوابها لهم وخزنتها منتظرة على الأبواب لاستقبالهم بالتهاني والتبريكات.

﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ﴾ هنالك سيحمدون الله تعالى على ما وفاهم من الأجور التي وعدهم بها في الدنيا.

﴿وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴿٧٤﴾﴾ ويحمدون الله تعالى على ما أعطاهم من الفرصة في الدنيا من الأعمال التي تؤدي بهم إلى هذا الفوز العظيم.

وذلك أن من أكبر النعم أن يخلق الله تعالى الإنسان على وجه الأرض ثم يعرض عليه الأسباب التي تعطيه السعادة الأبدية والنعيم الدائم في الجنة، وأي نعمة أكبر أن يجازي الله سبحانه وتعالى على العمل القليل بذلك الثواب العظيم الأبدي.

﴿وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴿٧٥﴾﴾

ثم وصف الله سبحانه وتعالى قوة ملكه، فأخبر أن هناك أصنافاً من الملائكة كما في آية أخرى إنهم ثمانية أصناف يدبرون أمر يوم القيامة من تولي أمر الحساب وسوق الكافرين إلى النار وتعذيبهم وزف المؤمنين إلى الجنة، وهكذا فكل صنف منهم مكلف بعمل من أعمال يوم القيامة، فلا عرش هناك على الحقيقة تحمله الملائكة فوق ظهورها كما يزعمه بعض المخالفين، وإنما هو عبارة عن ملك الله تعالى وإدارته حيث تتوى الملائكة القيام به بأمر الله تعالى.



سورة غافر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿حم۝١ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ۝٢﴾ أخبر الله سبحانه وتعالى أن هذا القرآن هو الكلام المنزل من عند الله سبحانه وتعالى الذي هو العزيز الغالب لكل شيء بقدرته والعالم بما تقتضيه الحكمة والمصلحة لجميع خلقه، وليس كما يقوله المشركون من أنه ليس إلا كلاماً افتراه محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ وتقوَّله من عند نفسه، أو أنه تعلمه من الناس، أو أنه أصابه المس والجنون فصار يهذي بكلام السحر والشعوذة وكلام الشياطين: ﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ۝٢١٠ وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ۝٢١١﴾ [الشعراء].

﴿غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ﴾ ثم وصف الله تعالى نفسه بأنه غافر ذنوب التائبين وفاتح أبواب التوبة لمن أقبل إليه من التوابين، وأنه شديد العقاب لأولئك المصرين على المعاصي والفساد في الأرض.

﴿ذِي الطَّوْلِ﴾ صاحب الكرم والعطاء المتواصل الواسع.

﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ۝٣﴾ وهو الإله المتفرد بصفات الإلهية والكمال، وهو الذي سيكون مصير جميع الخلائق إليه يوم القيامة؛ فالأجدر بهم أن يأخذوا حذرهم منه ومن أخذه وعذابه، وأن يتقوه بفعل ما يرضيه والانقياد لأمره.

﴿مَا يُجَادِلُ فِي ءَايَاتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ ثم أخبر الله سبحانه وتعالى نبيه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ أنه لن يكذب بآياته ويشكك فيها إلا الذين كفروا بالله تعالى ورسوله، واستكبروا عن الإيمان بها، ورفضوا قبول آياته، وأنه لن يجادله فيها إلا هؤلاء، وجدالهم هو أنهم تارة يقولون: ليست إلا سحراً، وتارة: كلاماً مفترى، وتارة: أساطير الأولين اكتتبها، وأما المؤمنون فإنهم سيقبلون آياته ويتواضعون لأمره وينقادون لطاعته.

﴿فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي الْبِلَادِ۝٤﴾ فلا تغتر يا محمد بما تراهم فيه من النعيم والعز والجاه والثراء والكثرة، مع ما عليه المؤمنون من القلة والضعف والفقر والشدة، فلا يذهب بك الظن إلى أن ما هم فيه بسبب رضاء الله تعالى عنهم، وإنما ذلك استدراج من الله تعالى لهم وإمهال لهم إلى أن يحين موعد أخذهم وتعذيبهم وأيضاً لإكمال الحجة عليهم.

﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالْأَحْزَابُ مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ وقد كذب قبل قومك يا محمد قوم نوح وكذلك بقية الأمم التي أتت بعدهم، فكانوا كلما أرسل الله سبحانه وتعالى إليهم رسولاً كذبوه ولقي من أمته مثل ما تلاقيه من قومك من التكذيب والاستهزاء والأذى.

﴿وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ﴾ وكل أمة من الأمم المكذبة قد عقدت نيتها وعزمت على الفتك بنبيها وأجمعت على قتله والتخلص منه.

﴿وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ۝٥﴾ وكذلك كانوا يجادلون أنبياءهم، ويرمونهم بالإفك والافتراء والتشكيك في نبوته، فأخذهم الله سبحانه وتعالى بعذابه جزاءً على كفرهم وتمردهم، وقومك يا محمد سيصيبهم مثل ما أصاب تلك الأمم من قبلهم.

وقد وصف الله سبحانه وتعالى أخذه لهم بأنه في نهاية الشدة والنكال والاستئصال.

﴿وَكَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ۝٦﴾ ثم أخبر الله سبحانه وتعالى نبيه ﷺ أن قومه قد استوجبوا نزول العذاب بهم، ولا بد مع ذلك أن يعذبهم في نار جهنم وعداً من الله حتمه وأوجبه لا محيص عنه.

﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ ثم أوحى الله سبحانه وتعالى إلى نبيه ﷺ بهذه الآية ليشد من عزيمته هو وأصحابه ويربط على قلوبهم ويخفف عنهم ما هم فيه

من الشدة والضيق والضعف في مكة، وذلك أنهم كانوا أهل قلة وضعف وكان المشركون أهل سطوة وبطش وجبروت وقوة، فكأن المؤمنين احتقروا أنفسهم واستصغروها بين المشركين وداخلهم الشك في أن الله سبحانه وتعالى ليس راضياً عنهم، فأنزل الله سبحانه وتعالى هذه الآية يخبرهم أنه يكفيهم من فضل الله ورحمته أن ملائكته وحملة عرشه يسبحون الله تعالى وينزهونه ويقدسونه، ويدينون بنفس ما يدين به أولياء الله في الأرض، ويدعون الله تعالى لهم بالمغفرة والرحمة والنجاة من النار ويدعون الله تعالى أن يدخلهم جنات عدن هم ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم وأن يصرف عنهم مخاوف يوم القيامة وأهوالها.

وحملة العرش هم الذين ينفذون أوامر الله.

﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا﴾ استفتحت الملائكة عليهم السلام دعاءها بالثناء على الله سبحانه وتعالى بسعة رحمته وشمولها لكل شيء وبسعة علمه وإحاطته بكل شيء.

﴿فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ۝٧﴾ بعد أن أثنى الملائكة على الله سألوه أن يغفر لكل من رجع إليه، وندم على ما سلف منه من المعاصي والذنوب ورجع إلى الله تعالى واتبع آياته وشرائعه وأحكامه.

﴿رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ وَمَنْ صَلَحَ مِنْ ءَابَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ۝٨﴾ ثم دعوا الله سبحانه وتعالى للمؤمنين بأن يدخلهم في مستقر رحمته ودار كرامته، والعزيز هو القوي الغالب لكل شيء، والحكيم هو الذي جميع أفعاله مبنية على الحكمة، وقد أراد الله سبحانه وتعالى أنه لن يدخل الجنة إلا من استحق دخولها بما عمل من الأعمال الصالحة، ولأنه خلاف الحكمة لو أدخل الجنة أولئك العصاة المتكبرين عليه الذين ماتوا وهم مصرون على معاصي الله.

﴿وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ وَمَنْ تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ۝٩﴾ ودعوا الله سبحانه وتعالىٰ أيضاً بأن يدفع عنهم سيئات يوم القيامة، فلا يلحقهم أي سوء أو مكروه يوم القيامة من الخوف والحزن، ومن وقاه الله مخاوف يوم القيامة وأهوالها وأحزانها فهو من أهل رحمة الله.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ اللَّهِ أَكْبَرُ مِنْ مَقْتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ﴾ يلوم أهل النار نفوسهم يوم القيامة ويمقتونها علىٰ ما فرطوا في الدنيا، وعملوا من المعاصي، فتنادي عليهم الملائكة مخبرة لهم بأن مقت الله سبحانه وتعالىٰ أعظم وغضبه عليهم أشد من مقتهم لأنفسهم وغضبهم عليها.

﴿إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الْإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ۝١٠﴾ يذكرون لهم سبب مقت الله سبحانه وتعالىٰ لهم وغضبه عليهم، وذلك في الدنيا عندما كان يرسل إليهم رسله وينزل عليهم آياته فيعرضون عنها ويستكبرون عن قبولها.

﴿قَالُوا رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ مِنْ سَبِيلٍ۝١١﴾ ثم إنهم حينئذ يقدمون اعتذاراتهم لله سبحانه وتعالىٰ ويتوسلون إليه بأنهم قد أقبلوا عليه الآن مقرين ومعترفين بذنوبهم التي سلفت منهم، ويطلبون منه أن يردهم إلىٰ الدنيا ليعملوا الأعمال الصالحة ويعوضوا ما فاتهم إن أراد أن يتفضل عليهم بذلك.

والحياتان هما إحياؤهم في الدنيا أولاً، ثم بعثهم وإحياؤهم بعد الموت مرة ثانية. والموتتان: الموتة الأولىٰ هي موتة النطف، والثانية هي الموت بعد الحياة الدنيا.

﴿ذَلِكُمْ بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِنْ يُشْرَكْ بِهِ تُؤْمِنُوا﴾ ثم تخبرهم الملائكة بأن سبب ما صاروا فيه هو أنهم كانوا إذا دعاهم الأنبياء والرسل إلىٰ عبادة الله وحده وترك عبادة الأصنام فإنهم يعرضون ويتمردون، أما إذا دعاهم أحد إلىٰ الشرك بالله تعالىٰ وعبادة الأصنام فإنهم يستجيبون له، ويؤمنون بما دعاهم إليه، مستبشرين بدعوته.

﴿فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ ۝١٢﴾ وقد أصبحتم الآن بين يدي الله سبحانه وتعالى وهو الذي سيحكم بينكم ويحاسبكم.

﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ ءَايَاتِهِ﴾ بعد أن ذكر الله سبحانه وتعالى حالة المشركين في الآخرة رجع إلى تذكيرهم بآياته التي يبثها لهم في الدنيا، فأخبرهم بأنه الذي يرسل لهم آياته الدالة عليه وعلى عظمته وقدرته وعلمه وحكمته.

﴿وَيُنَزِّلُ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ رِزْقًا﴾ وهو الذي بيده رزقهم، وذلك بما ينزله عليهم من الأمطار التي يخرج لهم بها الزروع والثمار والمراعي، وكل ذلك رحمة بهم، ونعمة أنعم بها عليهم، فلا رزق لهم على الإطلاق إلا ما ينزله من السماء لهم، فجميع أسباب المعيشة أصلها ذلك المطر الذي ينزله الله سبحانه وتعالى على عباده، فلو أنه منع عنهم المطر ليبست الأرض، ولماتت الحيوانات، ولما استطاع أحد العيش على ظهر الأرض؛ فلماذا لا يشكرون الله سبحانه وتعالى ويؤدون حق شكره بطاعته والامتثال لأوامره؟

﴿وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَنْ يُنِيبُ ۝١٣﴾ ثم أخبر الله تعالى أنه لا يتفكر في آياته تلك ويعتبر بها إلا أهل الإنابة إليه والرجوع.

﴿فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ۝١٤﴾ ثم أمر الله سبحانه وتعالى عباده المؤمنين بأن يعبدوه وحده لا يشركون معه غيره في عبادتهم وأن يؤدوا حق شكره بإقامة ما افترض عليهم من الإخلاص في العبادة والطاعة له، وأن لا يبالوا بمن حولهم من المستهزئين والمكذبين.

﴿رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ﴾ ثم وصف الله تعالى نفسه بأنه المتعالي عما ينسبه إليه المبطلون من الشرك واتخاذ الولد والصاحبة، والأمر بالفحشاء، والافتراء عليه. وذو العرش: هو صاحب الملك الواسع العظيم.

﴿يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ ثم وصف الله تعالى نفسه بأنه يختار من يشاء من عباده لرسالته ووحيه، وقد اختار لذلك محمداً صلى الله عليه وآله وسلم.

وقد وصف الله سبحانه وتعالىٰ القرآن بالروح على سبيل المجاز فشبهه بالروح لما فيه من إحياء القلوب بنور الهدىٰ والإيمان.

﴿لِيُنْذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ۝١٥﴾ ثم ذكر الله سبحانه وتعالىٰ السبب في إنزال القرآن علىٰ النبي ﷺ، وذلك لينذر الناس ويحذرهم من العذاب الذي سيلاقونه يوم القيامة إن لم يؤمنوا به.

﴿يَوْمَ هُمْ بَارِزُونَ لَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ﴾ ثم وصف يوم التلاق بأنه يوم يبرز فيه الناس جميعاً ظاهرين في أرض المحشر علىٰ صعيد واحد وأرض مستوية لا يغيب أحد منهم عن نظر الناظر فلا جبل يحجبهم أو مكان منخفض يستترون فيه.

﴿لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ۝١٦﴾ والله تعالىٰ هو المسيطر في ذلك اليوم بقوته لا يتكلم أحد إلا بإذنه.

﴿الْيَوْمَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ﴾ وكل نفس في ذلك اليوم ستنال جزاء ما اكتسبت في الدنيا من الأعمال، وسيحكم الله سبحانه وتعالىٰ بين جميع عباده بالحكم الحق، ولن يظلم أحداً من عباده بزيادة علىٰ ما يستحقون أو ينقصهم شيئاً مما يستحقون.

﴿إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ۝١٧﴾ قد يكون المعنىٰ أن الله تعالىٰ سيحاسبهم جميعاً في وقت واحد ولحظة واحدة، وقد سئل أمير المؤمنين كيف يستطيع الله سبحانه وتعالىٰ أن يحاسب جميع عباده في وقت واحد؟ فأجاب عليه: (بأنه كما قدر أن يرزقهم في وقت واحد كذلك يستطيع أن يحاسبهم في وقت واحد)، وقد يكون التفسير أن الله تعالىٰ يرىٰ يوم القيامة بما فيه قريباً، وحينئذ فحساب الخلائق في يوم القيامة سريع وقريب كأنهم يوم يرونها لم يلبثوا إلا عشية أو ضحاها.

﴿وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْآزِفَةِ﴾ ثم أمر الله سبحانه وتعالىٰ نبيه ﷺ أن يحذر قريشاً يوم القيامة. والآزفة: هي القيامة التي اقترب حلولها ووقوعها.

﴿إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَاظِمِينَ﴾ ثم وصف الله تعالىٰ شدة يوم القيامة علىٰ العصاة، فأخبر أن قلوبهم سوف تصعد إلىٰ حناجرهم من شدة الهول والفزع، فتنسد حلوقهم فلا يستطيعون الكلام.

﴿مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ۝١٨﴾ ولن ينفعهم في ذلك اليوم أو يشفع لهم أحد عند الله تعالىٰ، أو يستطيع أن يدفع عنهم شيئاً من عذاب الله سبحانه وتعالىٰ.

﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ۝١٩ وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ﴾ ثم أخبر الله تعالىٰ المشركين أنه عالم بجميع أعمالهم لا يخفىٰ عليه خافية، وعالم بما في صدورهم، وما انطوت عليه ضمائرهم، وسيحكم بينهم يوم القيامة بالحكم الحق، وسيحاسبهم علىٰ جميع أعمالهم صغيرها وكبيرها ولن يضيع عنده شيء.

﴿وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَقْضُونَ بِشَيْءٍ إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ۝٢٠﴾ وأما تلك الأصنام التي يعبدونها من دون الله تعالىٰ فليس بيدها شيء من الحكم والقضاء بين العباد، ولن تستطيع أن تقدم شيئاً أو تؤخره، فالأجدر بكم أيها المشركون أن تخصوا الله سبحانه وتعالىٰ بالعبادة وحده؛ لأنه الوحيد الذي بيده أمركم وحسابكم وجزاؤكم، وهو العالم بجميع أعمالكم.

والسميع: هو العالم بجميع المسموعات، والبصير: هو العالم بجميع المبصَرات أما الأصنام فلا تسمع ولا تبصر ولا تعقل.

﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِي الْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ۝٢١﴾ بلىٰ فقد سار المشركون في الأرض، وقد رأوا وأبصروا آثار تلك الأمم المكذبة من قبلهم، وعلموا بقصصهم وأخبارهم، وكيف كانت عاقبة تكذيبهم، وهي أن دمرهم الله سبحانه وتعالىٰ واستأصلهم، فلماذا لا يعتبرون بما جرىٰ علىٰ من كان قبلهم؟ والذين كانوا أشد قوة من قريش،

وأكثر من قريش مالاً، فقد نحتوا البيوت في الجبال، وعمروا القصور المشيدة، وحفروا الأنهار، وبنوا الجسور، واستخرجوا الذهب والفضة، وتفننوا في البناء والزخرفة والنحت والتماثيل وتطوروا في الصناعات و..إلخ، وقد عمروا الدنيا بالمباني والقصور الفاخرة، وعلى الرغم من كل ذلك ومن كثرتهم وقوتهم التي كانوا عليها فقد أهلكهم الله سبحانه وتعالى ودمرهم واستأصلهم.

أراد الله تعالى أن لا يتعاظم مشركو قريش أنفسهم، أو يأخذهم الكبر والفخر، فقد أهلك من هو أشد منهم، ولم يستطيعوا أن يدفعوا عن أنفسهم أو يحموها من الله سبحانه وتعالى، أو يفروا أو يهربوا من قبضته.

﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَكَفَرُوا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ إِنَّهُ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴿٢٢﴾﴾ ثم ذكر الله سبحانه وتعالى السبب في إهلاك تلك الأمم المكذبة، وهو أنه كان يرسل إليهم الرسل وينزل عليهم الآيات والحجج الواضحة، ولكنهم كانوا يعرضون ويتمردون، وأنتم يا قريش فاحذروا عذاب الله تعالى أن ينزل بكم، فإن هو نزل بكم فاعلموا أن أخذه لكم سيكون عظيماً، وعذابه سيكون في غاية الفضاعة والشدة عليكم.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ﴿٢٣﴾ إِلَى فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ﴿٢٤﴾﴾ ثم أخبر الله سبحانه وتعالى نبيه ﷺ بأنه قد أرسل موسى إلى فرعون وهامان وقارون، وأيده بالآيات الواضحة والحجج المنيرة والمعجزات القوية الظاهرة التي تدل على صدق نبوته ورسالته، وذلك أنه لا بد لكل نبي من حجة واضحة يؤيده الله سبحانه وتعالى بها تكون شاهدة على صدقه.

والسلطان المبين: هو الحجة العظيمة الدالة على صدقه، ولكنهم أعرضوا عنه ورموه بالسحر، واتهموه بالكذب والافتراء.

﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴿٢٥﴾﴾ كان الكهنة قد أخبروا

فرعون بأنه سيولد لبني إسرائيل مولود يكون هلاكه وهلاك ملكه على يديه، فمن حينها كان من ولد له مولود ذكر من بني إسرائيل فإن فرعون يأخذه ويقتله، وأما النساء فكان يتركهن ويسخرهن في القيام بأعماله.

فلما أقبل موسى على فرعون داعياً له خاف على أهل مملكته أن يعلموا بأمره وأنه هو النبي الموعود الذي سيكون هلاك ملكه على يديه فيؤمنوا به، فأصدر أوامره بأن يستمروا في قتل أولاد بني إسرائيل ليلبس على أهل مصر أن موسى ليس ذلك النبي الموعود، وليس إلا ساحراً وكذاباً، وأنه لم يحن موعد قدوم ذلك النبي الذي أخبر به الكهنة، وقد أخبر الله سبحانه وتعالى أن هذه كانت مكيدة من فرعون لئلا يؤمنوا به ويصدقوه.

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ﴾ ثم إن فرعون خاطب الملأ من قومه، وقد أخذه الكبر والتعالي، والوثوق الشديد بنفسه، وأخبرهم بأنه سيقتل موسى متحدياً لله تعالى أن يستنقذه من تحت يده وقبضته.

﴿إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ﴿٢٦﴾﴾ أراد فرعون أن يتخلص منه خوفاً على أهل مملكته أن يؤمنوا به، ويصدقوه ويدخلوا في دينه.

﴿وَقَالَ مُوسَى إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ﴿٢٧﴾﴾ وعندما سمع موسى تهديد فرعون استعاذ بالله تعالى واستجار به، وأخبرهم بأنه سيجيره ويحفظه من بطش فرعون وملئه.

﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ وَإِنْ يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ﴾ ثم أخبر الله سبحانه وتعالى أنه كان في حاشية فرعون رجل من أهله مؤمن، وكان يكتم إيمانه، وعندما سمع كلام فرعون وعزمه على قتل موسى صاح فيهم: كيف تقتلون هذا الرجل وقد جاءكم بما يثبت صدق دعواه، وكان المفروض أن تنظروا في صدق ما يدعي،

فليس من الإنصاف أن تقتلوه، فإن كان كاذباً فيما يدعي فلن يضركم كذبه، وأما إن كان صادقاً في دعواه فسيلحقكم ذلك الذي يتوعدكم به من غضب الله سبحانه وتعالىٰ وسخطه إن أنتم أصررتم علىٰ كفركم وتكذيبكم، فمن الأجدر بكم أن تحذروا الوقوع في ذلك الذي حذركم.

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ﴿٢٨﴾﴾ ولو كان كاذباً فيما يدعي لما بلغه الله هذا المقام، ولما وصل إلىٰ هذه المنزلة، ولبطلت حججه وبيناته التي أتاكم بها، ولظهر كذبه للناس قبل أن يصل إليكم، ولما ظهر هذا الظهور، ولما راجت بضاعته للعقول هذا الرواج.

﴿يَاقَوْمِ لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ يَنْصُرُنَا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ إِنْ جَاءَنَا﴾ ثم وبخهم علىٰ تكبرهم وتعاليهم في الأرض بما مكنهم الله سبحانه وتعالىٰ فيا وآتاهم من الملك والقوة، وأخبرهم أن كل ما هم فيه إنما هو بيد الله تعالىٰ، وأنه إن أراد بهم سوءاً أو ينزل عليهم مكروهاً فلن يستطيع أحد أن يحميهم من الله سبحانه وتعالىٰ أو يمنعهم منه، وحذرهم أن يقعوا في ذلك الذي حذرهم موسىٰ إن استمروا علىٰ كفرهم وتكذيبهم وتكبرهم.

﴿قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ﴿٢٩﴾﴾ فاعترض فرعون هذا الرجل المؤمن وصاح بقومه أن لا يلتفتوا إلىٰ كلامه ونصائحه، فلا رأي إلا ما رآه هو من قتل موسىٰ والتخلص من شره، زاعماً أنه لن يدلهم إلا علىٰ ما فيه صلاحهم ورشادهم.

﴿وَقَالَ الَّذِي ءَامَنَ يَاقَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ﴿٣٠﴾ مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعِبَادِ﴿٣١﴾﴾ ثم نصحهم هذا الرجل الذي يكتم إيمانه مرة أخرىٰ بأن الأولىٰ لهم أن لا يصروا علىٰ تكذيبهم وعنادهم فيصيبهم مثل ما أصاب الأمم المكذبة من قبلهم بسبب تكذيبهم وتمردهم علىٰ أنبيائهم، فقد عذبهم الله سبحانه وتعالىٰ بسبب ذلك،

وهو غير ظالم بتعذيبه لهم فليس إلا جزاءً لهم على ما كذبوا بأنبيائه وأعرضوا عن دعوتهم لهم إلى ما فيه صلاحهم، وتكبروا على الله سبحانه وتعالى.

﴿وَيَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ۝٣٢ يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ﴾ ويوم التناد هو يوم هلاكهم وعذابهم، وذلك أنهم إذا أيقنوا بالهلاك ونزول العذاب عليهم فإنهم سيتنادون فيما بينهم وسيستغيث بعضهم ببعض، ولكن حين لا ينفعهم ذلك ولا يستطيع أحد منهم أن يدفع عن أحد؛ وأخبرهم أنه إذا حل بهم العذاب ونزل بساحتهم فإنهم سيولون هاربين ولكن حين لا ينفعهم الهرب، فلا مفر لهم ولا مهرب حينئذ من الله.

﴿وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ۝٣٣﴾ ومن حكم الله سبحانه وتعالى بضلاله وهلاكه فلن يستطيع أحد أن يهديه من بعده أبداً.

﴿وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِمَّا جَاءَكُمْ بِهِ﴾ وهذا أيضاً من كلام الرجل المؤمن يعظ قومه من آل فرعون، وينصحهم بترك التعرض لموسى عليه السلام وعدم قتله، ويذكرهم نبي الله يوسف عليه السلام وكيف كان موقفهم منه حيث كذبوه وشككوا في نبوته.

﴿حَتَّى إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُرْتَابٌ۝٣٤﴾ وأخبرهم أن هذا هو دأب المكذبين أن يبثوا الريبة والتشكيك في آيات الله سبحانه وتعالى وأنبيائه.

﴿الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي ءَايَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ﴾ ثم وصف المسرفين بأنهم الذين إذا سمعوا آيات الله سبحانه وتعالى فإنهم يقابلونها بالتكذيب والتشكيك في أحقيتها وصدقها عن غير دليل أو حجة أو برهان على ما يدعون، وإنما تأخذهم الحمية والعصبية والكبر إلى القول بالباطل.

﴿كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ الَّذِينَ ءَامَنُوا كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ۝٣٥﴾ وصنيعهم هذا ووقوفهم في وجه دعوة أنبيائهم وصدهم

عن آيات الله سبحانه وتعالىٰ من أكبر الكبائر، وأعظم المعاصي التي تستوجب غضب الله تعالىٰ وسخطه، وأخبرهم أن هذا هو دأب المتكبرين علىٰ الله تعالىٰ في كل زمان فقلوبهم قاسية كالحجارة فلا تأتيهم آية إلا وتراهم يعرضون عنها من دون نظر أو تفكر أو تروٍّ فيها، فقد عطلوا عقولهم عن كل ما يدعوهم أو يبعثهم علىٰ الإيمان بالله تعالىٰ والنظر في آياته، وقلوبهم كالمطبوع عليها التي يستحيل نفاذ أي شيء إليها.

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَاهَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ٣٦ أَسْبَابَ السَّمَوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَاذِبًا﴾ خاف فرعون من أهل مصر أن يصدقوا موسىٰ ويدخلوا في دينه، فدبر هذه المكيدة فأخبرهم أنه سيبني برجاً مرتفعاً ليتمكن من الوصول إلىٰ الله تعالىٰ فيسأله عن حقيقة موسىٰ وما جاء به؟ وينظر هل هو صادق فيما يدعي من النبوة، أم إنما أراد أن يغوي الناس ويضلل عليهم بادعائه النبوة كاذباً؟ وأمرهم أن ينتظروا وسوف يأتيهم بالخبر الحق والنبأ اليقين.

﴿وَكَذَلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ٣٧﴾ ثم أخبر الله سبحانه وتعالىٰ أن هذا الرأي وهذه المكيدة راجت عند أهل مصر، وقد استطاع أن يشكك عليهم حتىٰ صدقوه، ولكن مكيدته هذه لن تنفعه عند الله سبحانه وتعالىٰ، ولا بد أن يكشف أمره، ويفضحه بين الناس، وأن يوقع به السوء والمكروه الذي كان موسىٰ يحذره من الوقوع فيه، والذي كان ينتظره ويخاف منه، وقد أهلكه الله سبحانه وتعالىٰ علىٰ يديه.

﴿وَقَالَ الَّذِي ءَامَنَ يَاقَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ٣٨﴾ ولا زال مؤمن آل فرعون يكرر عليهم مواعظه ونصائحه بأن يسحبوا قرار قتله، ويحثهم علىٰ النظر والتمعن في صحة أمره وما جاء به، وأن يتحققوا آياته التي أتاهم بها ويتفكروا بعقولهم فيها.

﴿يَاقَوْمِ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ ۝٣٩﴾ وأرشدهم إلى حال الدنيا وزوالها وحذرهم من أن يغتروا بزينتها ودعاهم إلى أن يتوجهوا إلى الدار الآخرة التي هي دار القرار، فما فيها من الشهوات واللذات فإنما هو عرض زائل سرعان ما يزول ويفنى، وقد شبهها بما يأخذه المسافر من المتاع في سفره الذي سرعان ما ينفد وينتهي، ونصحهم أن يعملوا لآخرتهم، وأن يعدوا العدة لها؛ لأنها هي الدار التي ستدوم وتبقى دائماً وأبداً.

﴿مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ۝٤٠﴾ ولفت أنظارهم إلى ما ينتظرهم في الدار الآخرة من الجزاء على الأعمال.

﴿وَيَا قَوْمِ مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَاةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ ۝٤١﴾ يستنكر مؤمن آل فرعون شدة عناد قومه حيث يدعوهم إلى ما فيه نجاتهم وسلامتهم من عذاب الله سبحانه وتعالى فيرفضون؟ فليس من شأن العاقل أن يرفض عرضاً مثل هذا.

﴿تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ﴾ وكيف تدعونني إلى ما فيه هلاكي، وهو اتخاذ الشركاء مع الله تعالى والكفر به، والحال أني أعلم بطلان ما تدعونني إليه، وأن الله هو الإله الواحد الذي لا شريك له.

﴿وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ ۝٤٢﴾ بينما أدعوكم إلى عبادة الإله القوي الغالب لكل شيء، والمسيطر على كل شيء، الذي يغفر ذنوب التائبين إليه، فأين عقولكم عن كل هذا؟

وكلامه هذا يدل على أنه كان قد أظهر إيمانه وأعلنه على الملأ من قومه.

﴿لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ﴾ ثم أخبرهم أنه لا شك أن تلك الآلهة التي يدعونه إلى عبادتها ليس بيدها أي شيء من أمور الدنيا ولا من أمور الآخرة، ولا تملك أي صفة من صفات الإلهية.

﴿وَأَنَّ مَرَدَّنَا إِلَى اللَّهِ وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ﴿٤٣﴾﴾ ولا شك أنه لا بد أن يكون هناك حياة غير هذه الحياة، وأن الله تعالى سوف يبعث الناس جميعاً ثم يحاسبهم ويجازيهم، وإلا فما الفائدة في خلقهم على هذه الدنيا.

﴿فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴿٤٤﴾ فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ﴿٤٥﴾﴾ وأخبرهم بأنه سيأتي اليوم الذي سيتذكرون فيه نصائحه ومواعظه لهم، ولكن ذلك سيكون في وقت لا ينفعهم فيه الندم والرجوع.

وأخبرهم بأنه قد فوض أمره إلى الله سبحانه وتعالى، وأسند ظهره إليه فهو الذي يحمي عباده، ويدافع عن المؤمنين به، والمتوكلين عليه.

ثم أخبر الله تعالى أنه قد نجّى نبيه موسى عليه السلام من مكائد آل فرعون، ومما دبروه من قتله والتخلص منه، ورد كيدهم في نحورهم، وأهلكهم ودمرهم جميعاً بالغرق في البحر.

﴿النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا﴾ وهذا هو عذاب الروح، وذلك بعد أن يموت الكافر، وقبل أن يبعثه الله سبحانه وتعالى يوم القيامة فإن روحه ستعرض على النار في كل وقت، فيحصل له مثل ما يحصل للنائم من الأهوال والأفزاع في منامه غير أن عذاب روح الميت أبلغ من عذاب روح النائم.

فأخبر الله سبحانه وتعالى أن آل فرعون على هذه الحال يعرضهم الله سبحانه وتعالى على نار جهنم، ويريهم مقاعدهم التي سيصيرون إليها ويعذبون فيها يوم القيامة ويطلعهم على ما أعد لهم فيها من ألوان العذاب.

﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴿٤٦﴾﴾ فإذا كان موعد بعثهم فسيحاسبهم الله سبحانه وتعالى، ثم يأمر بسوقهم إلى نار جهنم التي ستكون مستقرهم ومصيرهم خالدين فيها أبداً.

﴿وَإِذْ يَتَحَاجُّونَ فِي النَّارِ﴾ ثم ذكر الله سبحانه وتعالى ما سيحصل من أهل النار من الجدل والمناقشة بين التابع والمتبوع؟

﴿فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِنَ النَّارِ﴿٤٧﴾﴾ فسيسأل التابعون المتبوعين ويطلبون منهم أن يأخذوا عنهم قسطاً من عذابهم مقابل ما تسببوا في إضلالهم وإغوائهم.

﴿قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ﴿٤٨﴾﴾ فيجيبهم رؤساؤهم المتبوعون، ويخبرونهم أن هذا حكم من الله تعالى قد حكم به بين عباده وأمضاه، فلا تراجع عن حكمه أو تغييره أو تبديله.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِنَ الْعَذَابِ﴿٤٩﴾﴾ ثم أخبر الله سبحانه وتعالى عن حال أهل جهنم وهم يستغيثون ويصرخون من شدة الألم والعذاب، وكيف يتوسلون إلى الملائكة الموكلين بتعذيبهم أن يسألوا الله تعالى ويتوسطوا لهم عنده أن يخفف عنهم ما هم فيه من الشدة والألم، فتجيب عليهم الخزنة بقولهم: ﴿قَالُوا أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا بَلَى قَالُوا فَادْعُوا وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴿٥٠﴾﴾ نزعت الرحمة من قلوبهم، وصاروا يتلذذون بتعذيبهم، وحين يسألهم أهل النار ذلك السؤال تجيبهم بهذا الرد، فلا يجدوا بداً من الإقرار والاعتراف بأن ما صاروا فيه من العذاب إنما هو بذنوبهم، وستقنعهم الملائكة أيضاً بأنهم مهما حاولوا وتوسلوا فلن ينفعهم ذلك عند الله سبحانه وتعالى شيئاً.

﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴿٥١﴾﴾ ثم أخبر الله سبحانه وتعالى أنه مع أنبيائه والمؤمنين بنصره وتأييده في الدنيا والآخرة، وذلك بما يرون من انتقامه لهم من أعدائهم في الدنيا، ثم ما يرونه من سوقهم إلى نار جهنم وتعذيبهم يوم القيامة.

﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾ أراد الله سبحانه وتعالى به يوم القيامة فقد انقطع الرجاء وانتهى الأمل، لم يبق لهم إلا ما أعده الله تعالى لهم من العذاب في نار جهنم خالدين فيها أبداً.

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى الْهُدَى وَأَوْرَثْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ ۝ هُدًى وَذِكْرَى لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ ثم أخبر الله سبحانه وتعالى نبيه صلى الله عليه وآله وسلم أنه قد أرسل قبله موسى نبياً، وأنزل عليه التوراة التي فيها هدى بني إسرائيل، وطريق نجاتهم، ولكنه لم يتذكر منهم ويتعظ بها ويعمل بما فيها إلا أهل العقول والبصائر النافذة، وأما البقية والكثرة فقد أعرضوا عنها وجعلوها وراء ظهورهم.

﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾ ثم بعد أن حكى الله سبحانه وتعالى لنبيه صلى الله عليه وآله وسلم ما جرى على موسى من قومه أمره أن يقتدي به ويصبر على أذى قريش وتكذيبهم به حتى يحين موعد نصره وتأييده وظهوره عليهم، والله لا يخلف وعده.

﴿وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ﴾ وأمره أيضاً أن يداوم على التوبة والاستغفار والتسبيح لله تعالى والتحميد له في جميع أوقات الليل والنهار، وأن يشغل جميع أوقاته بطاعة الله سبحانه وتعالى.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي ءَايَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَا هُمْ بِبَالِغِيهِ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ ثم خاطب الله تعالى نبيه صلى الله عليه وآله وسلم وأخبره أن هؤلاء الذين يجادلونه من قومه في آيات الله تعالى، ويشككون فيها عن غير دليل أو حجة فهم بذلك لا يطلبون الحق ولا يريدونه، وإنما ذلك كبر منهم وتعالٍ على الحق وأهله، مؤملين بذلك أن يبطلوا الدين ويدمروا الإسلام وأهله، ولكنهم لن يصلوا إلى ذلك الأمل، ولا بد أن يهلكهم الله سبحانه وتعالى، ويذل كبرهم، ويقطع رجاءهم وآمالهم، وستكون العاقبة والغلبة في الأخير للنبي صلى الله عليه وآله وسلم والمؤمنين.

﴿فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴿٥٦﴾﴾ وأرشده الله تعالى أن يستعين به ويستجير من شرهم ومكرهم وأذاهم وسينجيه منهم وينصره عليهم، فهو دائماً معه بحفظه وتأييده أينما ذهب.

﴿لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴿٥٧﴾﴾ غير أن أكثر الناس لا ينظرون في آيات الله سبحانه وتعالى، ولا يتفكرون في عجائب خلقه وآثار قدرته في السماوات والأرض.

﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ﴾ ثم ضرب الله سبحانه وتعالى هذا المثل ليعرف عباده الفرق بين أهل الحق والباطل، فأخبر أنه لا يستوي من هو أعمى لا يبصر الطريق ولا يهتدي إليها هو، وذلك البصير الذي يرى طريقه ويسير فيها، فالمؤمن يبصر الحق والهدى بما جعل الله سبحانه وتعالى له من النور، بينما الكافر لا يبصر شيئاً فهو يتخبط في ظلمات الشرك والجهل لا يهتدي إلى طريق الحق.

﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَلَا الْمُسِيءُ قَلِيلًا مَا تَتَذَكَّرُونَ﴿٥٨﴾﴾ وكذلك لا يستوي عند الله سبحانه وتعالى الرجل الذي يعمل الأعمال الصالحة هو وذلك الذي كفر بالله سبحانه وتعالى وعمل المعاصي والفواحش، فلا بد أن يقع التمييز بينهم، وأن يلقى كل واحد منهم جزاء عمله.

﴿إِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴿٥٩﴾﴾ فلا يستوي المؤمن والكافر عند الله سبحانه وتعالى، ولا بد أن يكون هناك حياة غير هذه الحياة ليجزي الله المسيء على إساءته، ويثيب المحسن على عمله وإحسانه؛ فلو لم يكن هناك بعث ولا حساب لكان خلقه لهم وتكليفهم عبثاً، ولكان ظالماً إذ مكن ذلك الظالم بما أعطاه من أسباب القوة والجبروت، فعلمنا أنه لا بد أن يكون هناك دار غير هذه الدار ينتصف فيها المظلوم من ظالمه، وينال فيها المحسن جزاء عمله وإحسانه.

﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ۝٦٠﴾ يحث الله سبحانه وتعالىٰ عباده هنا، ويرشدهم إلىٰ عبادته والالتجاء والتضرع إليه، ووعدهم بأنه سيلبي لهم مطالبهم، وسيستجيب لهم دعاءهم، وأما من استكبر وترفع عن الخضوع والاستسلام له فسوف يذله ويهينه ويعذبه في نار جهنم.

وذلك أن الدعاء تذلل لله سبحانه وتعالىٰ وإظهار للعجز والفقر والحاجة إليه؛ والله سبحانه وتعالىٰ أيضاً يحب من عبده أن يتضرع ويتذلل بين يديه، وأن يظهر الفقر والحاجة إلىٰ ربه في جميع أوقاته.

﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ۝٦١﴾ فهو وحده الذي أنعم عليكم بأن خلق لكم الليل لتسكنوا فيه وتهدأ جوارحكم من عناء العب والمشقة في النهار، وخلق لكم النهار مبصراً لتستعينوا به علىٰ الابتغاء من فضل الله والسعي وراء أسباب معايشكم وأرزاقكم، وكل ذلك رحمة بكم ونعمة عظيمة أنعم بها عليكم فالمفروض أن تخصوه وحده بالعبادة، وأن تظهروا له الخضوع والتذلل والمسكنة.

﴿ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ۝٦٢﴾ فهذا الذي أنعم عليكم بهذه النعم هو ربكم الذي ينبغي أن تخصوه بعبادتكم، لا تلك الأصنام التي لا تملك لكم شيئا، وليس بيدها لكم أي نفع أو دفع ضر؛ فكيف تصرفون عن عبادة ربكم الذي أنعم عليكم بهذه النعم إلىٰ عبادة غيره؟ وما هو الذي صرفكم؟ وهل فعلت لكم تلك الآلهة شيئاً حتىٰ تتوجهوا إليها هذا التوجه وتعبدوها هذه العبادة؟

﴿كَذَلِكَ يُؤْفَكُ الَّذِينَ كَانُوا بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ۝٦٣﴾ ثم أخبر الله سبحانه وتعالىٰ أن هذا دأب المكذبين بآيات الله تعالىٰ، وهو أنهم يصرفون عن طريق الحق،

ويسيرون على غير هدى أو بصيرة، فهم يتخبطون خبط عشواء في ظُلَم الضلال.

﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً﴾ يخاطب الله سبحانه وتعالى هنا المشركين بأنه وحده الذي مهد لهم الأرض ليعيشوا على ظهرها، وسهل لهم أسباب المعيشة وسبلها، وهيأ لهم القرار على ظهرها نعمة منه امتن بها عليهم، وكذلك هو وحده الذي خلق لهم السماء وجعلها سقفاً محفوظاً يظلهم، وسخر لهم فيها الشمس والقمر والنجوم والسحاب والمطر والرياح، وجعلها تصب في مصالحهم وتفيض بركتها عليهم.

﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾ وهو وحده الذي خلقهم وصورهم في أحسن تقويم وعلى أجمل هيئة وصورة، وفضلهم في الخلقة على سائر الخلائق، تكرمة منه تعالى كرمهم بها، ونعمة عظيمة أنعم بها عليهم.

﴿وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ وهو وحده الذي أخرج لهم طيبات الرزق وسخرها لهم من الثمار والزروع والحيوانات التي يستعينون بها على معيشتهم.

﴿ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٦٤﴾﴾ فهذا الذي تفضل عليكم بهذه النعم العظيمة هو ربكم الذي ينبغي لكم أن تتوجهوا بعبادتكم إليه وحده، لا تلك الأصنام التي لا تستحق شيئاً من التعظيم والإجلال.

وتبارك الله: يعني كثرت منافعه فيكم، ونعمه تظاهرت عليكم.

﴿هُوَ الْحَيُّ﴾ وهو الحي القيوم الدائم، وأما تلك الأصنام التي تعبدونها فليست إلا أحجاراً لا أثر للحياة عليها.

﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦٥﴾﴾ فهو وحده المتفرد بصفات الإلهية والكمال فتوجهوا إليه، وأخلصوا عبادتكم له.

ثم ختم الآية بالحمد لله رب العالمين لوضوح برهان الدين الحق.

﴿قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَمَّا جَاءَنِيَ الْبَيِّنَاتُ مِنْ رَبِّي وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦٦﴾﴾ ثم أمر الله سبحانه وتعالى نبيه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ

أن يخبر قريشاً بأن جبريل قد نزل عليه بالوحي من عند الله تعالىٰ، وأن يخبرهم أن من جملة ما نزل عليه أن الله تعالىٰ أمره بعبادته والاستسلام له والانقياد، وقد نهاه عن عبادة آلهتهم التي يعبدونها من دون الله سبحانه وتعالىٰ.

﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخًا﴾ ثم أخبر الله سبحانه وتعالىٰ المشركين أنه الإله الذي يستحق العبادة وحده دون تلك الأصنام؛ لأنه وحده الذي تفرد بخلقهم وإيجادهم من العدم؛ فقد ابتدأ خلقهم من تراب، وذلك آدم وحواء، ثم بعد ذلك تناسلوا وتكاثروا من تلك النطفة التي يلقيها الرجل في المرأة فتتحول هذه النطفة بقدرته إلىٰ العلقة التي هي قطعة دم متجمدة، فتتكون هذه العلقة بقدرة الله تعالىٰ إلىٰ أن تصير إنساناً سوياً يتحرك ويمشي بقدرة الله تعالىٰ، ثم إنه ينموا ويكبر إلىٰ أن يبلغ أشده وقوته فيعمره الله سبحانه وتعالىٰ إلىٰ أن يصل أوان الشيخوخة والضعف، وكل ذلك تحت عناية الله سبحانه وتعالىٰ ورعايته.

﴿وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّىٰ مِنْ قَبْلُ وَلِتَبْلُغُوا أَجَلًا مُسَمًّى﴾ وبعضهم يتوفاه الله تعالىٰ قبل أوان الشيخوخة والكبر، فقد جعل الله سبحانه وتعالىٰ لكل نفس أجلاً سماه لها، ولا بد أن يستوفي كل امرئ أجله الذي قد كتبه له.

﴿وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴿٦٧﴾﴾ ينزل الله سبحانه وتعالىٰ لعباده الآيات ويصرفها ويفصلها لهم ليعتبروا بها، ويتدبروا ويتفكروا فيها بعقولهم؛ ليعرفوا أن الله سبحانه وتعالىٰ هو الذي بيده خلقهم وجميع أمورهم؛ لعلهم يرجعون إليه، ويتركون عبادة غيره من الآلهة التي يدعونها، وليعرفوا قدرته ومدىٰ علمه وحكمته وعظمته.

﴿هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ فَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴿٦٨﴾﴾ وأنه وحده الذي بيده حياتكم وموتكم، وإذا أراد بعثكم فإنه سيبعثكم من غير احتياج منه إلىٰ آلة أو مزاولة عمل، فإرادته هي نفس مراده.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي ءَايَاتِ اللَّهِ أَنَّى يُصْرَفُونَ﴿٦٩﴾﴾ يُعَجِّبُ الله سبحانه وتعالىٰ نبيه ﷺ من حال المشركين عندما يجادلونه في آيات الله الواضحة والجلية، ويشككون فيها، ويكذبون بها، فكيف يصرفون عن هذه الآيات الواضحة الجلية المكشوفة؟ يردونها بالباطل الذي لا يملكون عليه أي دليل أو حجة؟ وكيف ينكرون الله تعالىٰ الذي آياته الدالة عليه واضحة مكشوفة أمام أعينهم، ويقرون ويعترفون بإلهية تلك الأصنام التي لا دليل لهم أو حجة علىٰ إلهيتها؟

﴿الَّذِينَ كَذَّبُوا بِالْكِتَابِ وَبِمَا أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلَنَا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴿٧٠﴾﴾ ثم وصف الله سبحانه وتعالىٰ هؤلاء الذين يجادلون في آياته بأنهم الذين كذبوا بالقرآن، وبكل ما أيد به رسله من الآيات، فسوف يلقون جزاء كفرهم وتكذيبهم.

﴿إِذِ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلَاسِلُ يُسْحَبُونَ﴿٧١﴾ فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ﴿٧٢﴾﴾ فعندما تغل أيديهم إلىٰ أعناقهم بسلاسل من نار، ثم يسحبون بها إلىٰ نار جهنم التي سيكونون حطباً لها ووقوداً، فعندها سيعلمون أحقية ما كانوا يكذبون به وينكرونه، وسيصيبهم الندم الشديد علىٰ ما أسلفوا ويتمنون الرجوع ليؤمنوا ويصدقوا، ولكن هيهات حين لا ينفعهم الندم.

ومعنىٰ ﴿يُسْجَرُونَ﴾: أي يكونون وقوداً لها.

﴿ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تُشْرِكُونَ﴿٧٣﴾ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا﴾ وعندما تلقيهم الملائكة في نار جهنم فستسألهم حينها: أين الآلهة التي كنتم تعبدونها من دون الله سبحانه وتعالىٰ، والتي كنتم تجادلون عنها، وتدافعون عنها في الدنيا لتنفعكم وتدفع عنكم؟ فيجيبونهم بأنهم قد ضاعوا وغابوا عنهم فلم يعودوا يرونها أو يؤملون منها شيئاً.

﴿بَلْ لَمْ نَكُنْ نَدْعُو مِنْ قَبْلُ شَيْئًا﴾ وسيعترفون أن ما كانوا يعبدونه من دون الله لا يستحق اسم الشيء فليست شيئاً في الحقيقة، ولكن هذا الاعتراف وهذه المعرفة لا تنفعهم يوم القيامة.

وقد يكون معنى الآية أن المشركين سينكرون يوم القيامة أنهم كانوا يعبدون غير الله تعالى.

﴿كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ الْكَافِرِينَ ۝ ذَلِكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ تَمْرَحُونَ ۝﴾ فتخبرهم الملائكة بأن ما هم فيه من العذاب إنما هو بسبب بطرهم بنعم الله تعالى واستعمالها في الكفر والتكذيب بآيات الله والصد عن سبيله، وإبطال دعوة أنبيائه ورسله وقتالهم.

﴿ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ ۝﴾ فادخلوا بسبب ذلك إلى نار جهنم خالدين فيها أبداً. ومعنى «بئس»: ما أسوأ مثواهم ومنزلهم الذي سيدخلونه، وما أفضعه وأبشعه.

﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾ فما عليك إلا أن تصبر يا محمد فلا بد أن يهلكهم الله سبحانه وتعالى وينصرك عليهم، وهذه السورة نزلت على النبي صلى الله عليه وآله وسلم في مكة، وهو مع أصحابه في ذلة وقلة لا زالوا مستضعفين يلقون صنوف الأذى والتعذيب من المشركين، ولم يكن مع النبي صلى الله عليه وآله وسلم إلا عمه أبو طالب يحميه، ويدفع عنه أذاهم وشرهم؛ فأنزل الله سبحانه وتعالى عليه هذه الآية يصبره ويقوي من عزيمته.

﴿فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ۝﴾ فاصبر يا محمد فلا بد أن نعذبهم سواءً رأيت تعذيبهم أم يتوفاك الله قبل رؤيته فاطمئن إلى صدق وعد الله.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾ ثم أخبر الله سبحانه وتعالى نبيه صلى الله عليه وآله وسلم بأنه قد أرسل قبله رسلاً كثيرين، فبعضهم قد ذكرهم له في القرآن، وبعض آخر لم يذكرهم الله تعالى في القرآن.

﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ ثم أخبر الله سبحانه وتعالى أنه لا ينبغي ولا يتأتى لرسول أو نبي من أنبياء الله تعالى أن يأتي لقومه بأي آية

من آيات الله تعالىٰ إلا عندما يأذن الله سبحانه وتعالىٰ له في ذلك وعلىٰ حسب ما تقتضيه الحكمة والمصلحة، وذلك أن النبي ﷺ كان يرجوا من الله سبحانه وتعالىٰ أن ينزل عليه آية تجعلهم يؤمنون بناءً علىٰ ما كانوا يطلبون منه ويَعِدُونه أنه إذا جاءهم بآية من عند الله سبحانه وتعالىٰ تدل علىٰ صدقه فإنهم سوف يؤمنون، متجاهلين لتلك الآيات التي جاءهم بها من قبل، غير معتدين بها، مما يدل علىٰ أن ذلك منهم إنما كان مراوغة واستهزاءً بالنبي ﷺ وبدينه.

وأما النبي ﷺ فلم تكن رغبته في أن يعطيه الله آية إلا لشدة حرصه علىٰ إيمانهم وشفقته عليهم من عذاب الله سبحانه وتعالىٰ.

﴿فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ قُضِيَ بِالْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ۝٧٨﴾ فإذا حان موعد تعذيبهم، وحل بهم عذاب الله تعالىٰ فعندها سيهلكهم الله تعالىٰ جميعاً ويستأصلهم، وأما المؤمنون فسينجيهم ويحفظهم.

﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَنْعَامَ لِتَرْكَبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ۝٧٩ وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ﴾ ثم أخبر الله تعالىٰ أنه وحده المنعم عليهم بأن خلق لهم الأنعام التي هي الإبل والبقر والغنم والماعز وسخرها لهم ليركبوا علىٰ ظهورها ويأكلوا من لحومها، وأيضاً جعل لهم فيها منافع أخرىٰ كثيرة غير ذلك كالصوف واللبن والزينة والجمال، وحمل الأمتعة والسفر والتنقل عليها من بلد إلىٰ آخر.

﴿وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ۝٨٠﴾ وكذلك السفن التي سخرها الله سبحانه وتعالىٰ لعباده لحملهم والسير بهم فوق الماء، وحمل بضائعهم من بلد إلىٰ بلد آخر.

يذكر الله سبحانه وتعالىٰ هنا عباده بنعمه العظيمة عليهم لعلهم يرجعون إليه، ويتركون ما هم فيه من الضلال والشرك.

﴿وَيُرِيكُمْ ءَايَاتِهِ فَأَيَّ ءَايَاتِ اللَّهِ تُنْكِرُونَ۝٨١﴾ ويبصركم آياته التي بثها لكم في الكون، التي لن تستطيعوا أن تنكروا أي آية منها، ولن تجدوا بداً من

أن تقروا وتعترفوا بأنه الذي أوجدها، وأبدعها بقدرته وعلمه وحكمته، وفصلها لكم في القرآن.

﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ ثم استنكر الله سبحانه وتعالى على المشركين لماذا لم يعتبروا بما رأوا من الآيات والعبر، وما حل بتلك الأمم من قبلهم التي يرون آثارها في طريق أسفارهم، ويعرفون أن ما حل بهم إنما كان جزاءً على تكذيبهم وتمردهم على أنبيائهم بما كانوا يسمعونه من الأخبار عنهم.

﴿كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِي الْأَرْضِ فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴿٨٢﴾﴾ فقد أهلكهم الله تعالى على الرغم من القوة التي كانوا عليها، وكثرة العدد والعدة، وما كانوا عليه من القوة في البناء والعمران ونحت البيوت في الجبال، فلم تنفعهم قوتهم تلك أو تدفع عنهم شيئاً مما أنزله الله تعالى عليهم من العذاب والسخط.

﴿فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴿٨٣﴾﴾ فعندما أرسل الله سبحانه وتعالى إليهم رسله يدعونهم ويحذرونهم وينذرونهم- اغتروا بما عندهم من الملك والقوة والكثرة فتمردوا على أنبيائهم، وكذبوا بهم، فحاق بهم عذاب الله تعالى، ونزل عليهم سخطه، ولم تغن عنهم قوتهم تلك شيئاً مما نزل بهم؛ فقريش وهم أضعف منهم وأقل جمعاً فالأجدر بهم أن يعتبروا، ولا يغتروا بأنفسهم قبل أن يحل بهم مثل ما حل بمن كان قبلهم.

﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ﴿٨٤﴾﴾ فلما رأت تلك الأمم المكذبة نزول عذاب الله بهم وحلوله عليهم أعلنوا إيمانهم بالله وحده وتبرأوا من عبادة غيره.

فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا﴾ ولكن إيمانهم ذلك لن ينفعهم فقد انقطع الأمل والرجاء، وأغلق باب التوبة؛ لأنهم أصبحوا في حكم المضطرين والملجأين إليه إذ قد رفع التكليف وحان العقاب.

﴿سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ﴿٨٥﴾﴾ سنة الله سبحانه وتعالى اقتضت أن الإيمان لا ينفع في ذلك الوقت، وباب التوبة قد أغلق والتكليف قد ارتفع، وقد أصبحوا غير مختارين في ذلك الوقت؛ فمن حين معاينة العذاب خسروا أنفسهم، وأصبحوا من أهل عذاب الله تعالى وسخطه.

❁❁❁❁❁

سورة فصلت

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿حم﴿١﴾ تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴿٢﴾﴾ أخبر الله سبحانه وتعالى نبيه صلى الله عليه وآله وسلم بأن هذا القرآن الذي أنزله عليه إنما هو تنزيل من الرحمن الرحيم، وأمره أن يخبر قومه بذلك، وأنه لم يفتره ولم يأت به من قبل نفسه، وأنه أنزله رحمة بعباده ليستنقذهم به من ظلمات الشرك والجهل والضلال إلى نور الحق والهدى والفوز بالنعيم والثواب الدائم.

﴿كِتَابٌ فُصِّلَتْ ءَايَاتُهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴿٣﴾﴾ وأن يخبرهم بأنه كتاب الله تعالى الذي قد وضح فيه آياته لهم وبينها بلسانهم ولغتهم إن أرادوا أن يتدبروا في آياته ويعقلوها، ولكن الذين أعمى الشرك أبصارهم وبصائرهم أصبحت قلوبهم مقفلة عن قبوله لا تفقه شيئاً منها أو تعقله، ولا يفهمه ويتدبره إلا أهل العقول الزاكية.

﴿بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ وأخبره أن فيه تبشير المؤمنين بالثواب العظيم والفوز والنعيم الدائم في جنات النعيم، وكذلك فيه إنذار المكذبين به والمتمردين عن آياته بالعذاب العظيم في نار جهنم خالدين فيها أبداً.

﴿فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ۝٤﴾ ولكن أعرض عن آياته والإيمان به والعمل بأحكامه وشرائعه أكثر الناس، ورفضوا أن يستجيبوا له أو يؤمنوا به، وأصروا على كفرهم وضلالهم.

﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي ءَاذَانِنَا وَقْرٌ﴾ يريد المشركون أن يقنعوا النبي ﷺ ويحسموا طمعه من إيمانهم به والتصديق بما جاء به، وأنه مهما حاول فيهم فلن يقبلوا منه أو يسمعوا إليه، وأنهم كافرون بما جاء به، وقالوا: إن قلوبهم مغلفة بأغطية محكمة لا ينفذ إليها شيء من دين النبي ﷺ الذي يدعوهم إليه.

﴿وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ﴾ وقالوا له ﷺ: إن بيننا وبينك حاجز يحول بيننا وبين ما تدعو إليه فلا تتعب نفسك في الدعوة لنا.

﴿فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ ۝٥﴾ يتحدون بذلك النبي ﷺ، بأن يعمل جهده في إزالة شركهم وباطلهم فهم لن يألوا جهداً في نسف دينه، وإبطال دعوته وحربه.

﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ﴾ ثم أمر الله سبحانه وتعالى نبيه ﷺ أن يخبرهم بأنه ليس إلا بشراً مثلهم ومن جنسهم غير أن الله سبحانه وتعالى تفضل عليه بالنبوة والوحي، وأن يخبرهم أيضاً بأن الله سبحانه وتعالى أمره أن يبلغهم أنه لا إله في السماوات والأرض إلا إله واحد الذي هو الله رب العالمين وحده لا شريك له فليخلصوا في عبادتهم له، وليتركوا تلك الآلهة التي يعبدونها من دونه.

﴿وَاسْتَغْفِرُوهُ﴾ وأن آمركم أن تستغفروا الله تعالى، وتتوبوا إليه من دنس الشرك وعبادة الأصنام ودين الجاهلية.

﴿وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ ۝٦﴾ وأن أنذركم عذاب الله تعالى الذي سيحل بكم إن أصررتم على شرككم وضلالكم.

﴿الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ۝٧﴾ ثم وصف المشركين

بأنهم الذين طبيعتهم البخل بأموالهم، فلا يخرجون نصيباً منها إلى فقرائهم.

﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ۝٨﴾ وأما الذين آمنوا بالله تعالى وصدقوا برسله وآياته وعملوا مع ذلك الأعمال الصالحة فقد أعد الله سبحانه وتعالى لهم الثواب العظيم الذي لا ينتهي ولا يزول.

﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَنْدَادًا﴾ ثم أمر الله سبحانه وتعالى نبيه ﷺ أن يخبر المشركين بأنهم بإصرارهم على كفرهم إنما يكفرون بذلك الإله الذي خلق السماوات والأرض في يومين بقدرته، فهو وحده المتفرد بخلق كل ما في السماوات والأرض لم يشاركه في ذلك أحد.

﴿ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ۝٩﴾ فهذا الإله الذي تفرد بالخلق والقدرة هو الذي يستحق الإلهية والعبادة، لا تلك الأصنام التي ينحتونها بأيديهم ثم يذهبون إلى عبادتها من دون الله.

﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا﴾ وأنه وحده الذي خلق على ظهرها هذه الجبال الراسية التي يرونها.

﴿وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلسَّائِلِينَ۝١٠﴾ وهو الذي جعل فيها للناس ما ينتفعون به من المعايش والأرزاق، وجعل لهم البركة فيما تخرجه لهم من الزروع والثمار والحيوانات، وقدر لهم ذلك على حسب حاجتهم ومصلحتهم، وكل ذلك أوجده وهيأه في أربعة أيام، وهذه الآية أمر الله سبحانه وتعالى نبيه ﷺ أن يجيب بها الذين أقبلوا سائلين له عن ابتداء خلق السماوات والأرض.

﴿ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ﴾ ثم بعد أن خلق الله سبحانه وتعالى الأرض وما فيها توجه بقدرته إلى السماء فخلق النجوم والكواكب والأقمار والمجرات من ذلك الدخان المنتشر في الفضاء.

﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ اِئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴿١١﴾﴾ فبعد أن خلق الله السموات والأرض أمرهما بالانقياد والاستسلام لإرادته ومشيئته فأجابتاه بالسمع والطاعة، وهذا تمثيل من الله تعالى، وتصوير لإحكام قبضته وقدرته وسيطرته، فكلها تجري تحت أمره، غير متخلفة عن ذلك التقدير الذي قدرها عليه، ولن تتخلف عن ذلك إلى يوم القيامة.

﴿فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا﴾ أراد الله سبحانه وتعالى أنه قد أتم خلقهن ودبر أمرهن في يومين، وجعل في كل سماء ما يصلح شؤونها وشؤون أهلها من الملائكة.

﴿وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴿١٢﴾﴾ وهي هذه النجوم الساطعة التي نراها فوقنا، سخرها لحفظ السماء وحراستها من استراق الشياطين للسمع من السماء.

﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴿١٣﴾ إِذْ جَاءَتْهُمُ الرُّسُلُ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ﴾ فإن أعرضوا عن آيات الله سبحانه وتعالى وتمردوا ورفضوا سماعها فأخبرهم يا محمد بأن الله تعالى سوف يعذبهم ويهلكهم مثل ما عذب عاداً وثموداً من قبلهم.

﴿قَالُوا لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ﴿١٤﴾﴾ فكان هذا هو رد قوم عاد وثمود على رسلهم، فقد كذبوهم زاعمين أن الله سبحانه وتعالى لو أراد أن يرسل رسولاً لأنزل إليهم ملكاً من ملائكته، ولما أرسل إليهم بشراً من جنسهم.

﴿فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ ثم أخبر الله سبحانه وتعالى عن حال قوم عاد مع نبيهم هود عليه السلام، فعندما أرسله الله سبحانه وتعالى إليهم استكبروا عليه وتمردوا عن قبول دعوته عناداً وتمرداً لا عن دليل أو حجة، وإنما تعصباً لشركهم وباطلهم.

﴿وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ وقد اغتروا بأنفسهم وبما معهم من القوة التي أعطاهم الله سبحانه وتعالىٰ، فظنوا أن شيئاً لن يستطيع أن يؤثر فيهم أو يهزمهم أو يغلبهم.

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ۝١٥﴾ ثم استنكر الله سبحانه وتعالىٰ عليهم ذلك، فكيف لم يتفكروا في أمر خالقهم؟ وأنه لا بد أن يكون أقوىٰ منهم وإلا لما استطاع خلقهم وإيجادهم؟ غير أن طبيعتهم هي الجحود والتكذيب بآيات الله سبحانه وتعالىٰ، والتكبر عليه وعلىٰ أنبيائه.

﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَحِسَاتٍ لِنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ ثم إن الله سبحانه وتعالىٰ أرسل علىٰ عاد ريحاً لها صوت وصفير من شدة سرعتها وقوتها، وقد مكثت فيهم سبع ليال وثمانية أيام حتىٰ أبادتهم ودمرت مساكنهم وما يملكون.

﴿وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَى وَهُمْ لَا يُنْصَرُونَ۝١٦﴾ ولا يزال ينتظرهم العذاب الشديد في نار جهنم خالدين فيها وبئس المصير جزاءً علىٰ كفرهم وتكذيبهم وتمردهم، فإذا نزل بهم عذاب وحل بساحتهم فلن يستطيع أحد أن يدفع عنهم أو يحميهم، وقوتهم تلك التي كانوا يعتزون بها ويفتخرون لن تغني عنهم من الله شيئاً.

﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى﴾ وأما ثمود فقد هداهم الله سبحانه وتعالىٰ بأن أرسل إليهم صالحاً عليه السلام يدعوهم إلىٰ الهدىٰ ويدلهم عليه، ولكنهم رفضوا ذلك الهدىٰ الذي جاءهم به، واختاروا الجهل والضلال علىٰ نور الحق والهدىٰ.

﴿فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ۝١٧ وَنَجَّيْنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ۝١٨﴾ فبسبب كفرهم وتكذيبهم وتمردهم علىٰ أنبيائهم أنزل الله سبحانه وتعالىٰ بهم عذابه بأن أرسل عليهم صاعقة من السماء أهلكتهم واستأصلتهم جميعاً.

والهون: هو الهوان والخزي، وقد نجّى الله سبحانه وتعالى صالحاً ومن معه من المؤمنين، وكذلك هوداً ومن آمن معه فقد نجاهم الله تعالى من الريح الصرصر.

﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ﴿١٩﴾﴾ واذكروا أيها الناس ذلك اليوم في ساحة المحشر عندما يجمع الله سبحانه وتعالى المكذبين والعصاة جميعاً ثم يأمر زبانية جهنم بأن يسوقوهم إليها سحباً على وجوههم، وهم مقيدون بالأغلال والسلاسل.

﴿حَتَّى إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴿٢٠﴾﴾ فلا يكون لهم سبيل إلى التكذيب والإنكار، فإن هم أنكروا شيئاً من سيئاتهم فستشهد عليهم حواسهم وجوارحهم وجلودهم بما عملوا من السيئات.

هذا، وقد تكون شهادة الجوارح والجلود والسمع والبصر صوراً حية يعرضها الله تعالى عند الإنكار فيرى الظالم صورته الحية وهي تعمل المعاصي.

﴿وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴿٢١﴾﴾ فعندما يرون أنفسهم وهم يمارسون أعمال المعاصي فيحتجون على حواسهم وجوارحهم، ولكنها ستجيب عليهم بأن الله تعالى هو الذي أنطقها، وأن ما شهدت به هو الحق والصدق الذي لا مفر ولا محيد عنه.

﴿وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ﴾ هذا من كلام الملائكة لهم في ذلك الموقف، فإنها ستقول لهم: إنه لم يكن في مقدورهم أن يتستروا أو يخفوا ما عملوه حال معصيتهم عن شهادة أيديهم وأرجلهم وأعينهم.

﴿وَلَكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِمَّا تَعْمَلُونَ﴿٢٢﴾﴾ فكنتم تمارسون المعاصي والمنكرات غافلين عن اطلاع الله سبحانه وتعالى عليكم، وإحصائه

لجميع أعمالكم ومعاصيكم.

﴿وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ۝٢٣﴾ فظنكم ذلك الذي كنتم تظنونه على الله تعالى هو الذي أرداكم وأوصلكم إلى ما وصلتم إليه اليوم.

﴿فَإِنْ يَصْبِرُوا فَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ وَإِنْ يَسْتَعْتِبُوا فَمَا هُمْ مِنَ الْمُعْتَبِينَ۝٢٤﴾ الإنسان لا يصبر على شيء إلا لما يكون عنده من الأمل بالفرج بعد الشدة، فأما هؤلاء فإن صبرهم ذلك لن يجديهم، ومهما صبروا فلن يكون هناك أمل بالعودة، فسواء عليهم صبروا أم لم يصبروا.

وكذلك لن تنفعهم الأعذار عند الله سبحانه وتعالى، ومهما قدموا من الأعذار فلن تقبل منهم.

﴿وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ فَزَيَّنُوا لَهُمْ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ ثم أخبر الله سبحانه وتعالى عن حالهم في الدنيا بأنه قد خلى بين عباده، ولم يمنع أحداً من أحد، فقد خلى بين المؤمن والكافر، وأعطاهم القوة والتمكين جميعاً، وقد ترك كلاً منهم يمارس ما أراد من الإضلال والإغواء والتزيين، ووكل كلاً إلى اختياره ومشيئته، وهذا هو الذي اقتضته الحكمة ليرتب على ذلك الجزاء.

والقرناء: هم شياطين الإنس والجن.

﴿وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ۝٢٥﴾ وحق على أولئك المشركين من أهل مكة أهل الضلال والكفر حق عليهم عذاب الله تعالى مع جملة أمم كثيرة من قبلهم كانوا يعملون مثل أعمالهم.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ۝٢٦﴾ كان المشركون يصدون الناس عن الهدى وعن الذهاب إلى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ والسماع إليه، ويمنعون الناس منه ويقفون في الطرق يحذرون كل من أراد الذهاب إلى مكة من الاستماع له أو القرب منه، وكانوا يتواصون بالتخليط على النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ إذا قرأ القرآن برفع أصواتهم باللغو والباطل حتى لا يسمع الناس ما يقول.

﴿فَلَنُذِيقَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ۝٢٧ ذَلِكَ جَزَاءُ أَعْدَاءِ اللَّهِ النَّارُ لَهُمْ فِيهَا دَارُ الْخُلْدِ جَزَاءً بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ۝٢٨﴾ هذا تهديد من الله تعالى للكافرين بأنه سوف يذيقهم أشد العذاب جزاءً على كفرهم وصدهم وتكذيبهم في نار جهنم خالدين فيها أبداً.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا أَرِنَا الَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ الْأَسْفَلِينَ ۝٢٩﴾ قالوا ذلك ليشفوا غليلهم بالنظر إلى الذين كانوا يغوونهم ويدعونهم إلى الضلال والشرك بالله تعالى وهم يعذبون في قعر جهنم.

﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ ۝٣٠﴾ ثم أخبر الله سبحانه وتعالى عن حال الذين آمنوا، وصدقوا بالله تعالى، وعملوا الأعمال الصالحة، وتركوا المعاصي والسيئات، واستمروا على ذلك إلى أن أتاهم الموت، فإن الملائكة ستنزل عليهم ساعة موتهم لتبشرهم بثواب الله سبحانه وتعالى، والنعيم الدائم في جنات النعيم، وتطمئنهم بأنه لن يلحقهم أي حزن أو خوف بعد ذلك الوقت أبداً.

﴿نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ۝٣١﴾ وتخبرهم بأنهم في نصرتهم وحراستهم في الدنيا والآخرة، وأنهم مأمورون بتلبية مطالبهم، وما تشتهيه أنفسهم في الآخرة.

﴿نُزُلًا مِنْ غَفُورٍ رَحِيمٍ ۝٣٢﴾ وأن هذا تكرمة من الله تعالى لكم، وقد أصبحتم في ضيافته؛ تبشرهم الملائكة بكل ذلك وهم ما زالوا في الدنيا لم تخرج أرواحهم بعد.

وتأمينهم لهم وتبشيرهم ذلك التبشير؛ لأن المؤمن يكون في خوف دائم من الله ومن لقائه لأن يلقاه وهو مقصر في أداء شيء من حقوقه، وما عليه من حقوق وواجبات لربه.

ويقال: إن ذلك اليوم الذي تنزل فيه الملائكة على المؤمن هو أفضل يوم مر عليه في الدنيا، وأسعد ساعات حياته كلها.

﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴿٣٣﴾﴾ ثم أخبر الله سبحانه وتعالى عن أفضل الأعمال وأحسن الأقوال وهو الدعوة إلى الله تعالى وإلى عبادته وتوحيده، ولكن بشرط أن يكون مع ذلك يعمل الأعمال الصالحة، ويتجنب كل ما يغضبه أو يوجب سخطه، وأن يكون مستسلماً لله تعالى وخاضعاً لأوامره.

﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴿٣٤﴾﴾ لا تستوي الكلمة الحسنة والطيبة والكلمة السيئة والخبيثة، فالذي ينبغي للمؤمن إذا وجه إليه شخص كلمة سيئة أن يقابلها بالكلمة الطيبة والحسنة، فلا يجرح أحداً أو يسوءه أو يلحق به أي مكروه. يرشد الله سبحانه وتعالى نبيه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ والمؤمنين بذلك لئلا ينفروا الناس عن الدين وعن الإسلام، فعسى أن يهتدي ذلك المسيء يوماً من الأيام.

وقوله ﴿أَحْسَنُ﴾: إرشاد إلى انتقاء أحسن الكلام وأطيبه ليقابل به الكلمة السيئة والخبيثة.

وكذلك يرشدهم إلى حسن المعاملة حتى مع أعدائهم، فيعاملونهم معاملة الصديق القريب من القلب.

﴿وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴿٣٥﴾﴾ لا يوفق لرد الكلمة الخبيثة بالكلمة الطيبة إلا أهل الصبر القوي أو أهل الحظ العظيم.

﴿وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴿٣٦﴾﴾ يرشد الله سبحانه وتعالى عباده إلى معالم دينهم، وكيفية التعامل مع الآخرين، ويؤكد عليهم في الأدب في الكلام، فينبغي للمؤمن إذا تكلم عليه أحد وأساء في الكلام حتى أثار غضبه أن يستعيذ بالله سبحانه وتعالى فتلك

من نزغات الشيطان، وليذكر الله سبحانه وتعالىٰ عند ذلك ويدعوه بأن يصرف عنه نزغات الشياطين، وسيصرف الله عنه ذلك.

﴿وَمِنْ ءَايَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ﴾ ثم ينبه الله سبحانه وتعالىٰ عباده علىٰ النظر والتفكر في آيات قدرته وعلمه وحكمته، فحثهم علىٰ النظر في آية الليل والنهار والشمس والقمر فإنها من آياته العظيمة الدالة عليه، وعلىٰ ربوبيته وعظمته وقدرته، لمن نظر فيها وتأمل.

﴿لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴿٣٧﴾﴾ ثم أوحىٰ الله سبحانه وتعالىٰ إلىٰ نبيه ﷺ أن يدعوهم إلىٰ عبادة خالق الليل والنهار والشمس والقمر، فهو الذي ينبغي أن يخصوه بعبادتهم، وهو الذي يستحق الخضوع والانقياد، وأما الشمس والقمر فليست إلا خلقاً من مخلوقاته لا تستحق شيئاً من الألوهية والعبادة.

﴿فَإِنِ اسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْأَمُونَ﴿٣٨﴾﴾ فإن تمرد قومك يا محمد واستكبروا عن عبادة الله تعالىٰ والخضوع له، فأخبرهم أن الله سبحانه وتعالىٰ غني عنهم غير محتاج إلىٰ طاعتهم وعبادتهم، وأخبرهم أن هناك غيرهم من سكان سماواته من يقطعون جميع أوقاتهم في تسبيح الله تعالىٰ وتنزيهه وعبادته لا يفترون عن ذلك لحظة واحدة، أو يصيبهم السأم والملل والتعب إلىٰ يوم القيامة.

﴿وَمِنْ ءَايَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴿٣٩﴾﴾ كان المشركون ينكرون البعث بعد الموت والحساب والجزاء، فدعاهم الله تعالىٰ إلىٰ أن ينظروا إلىٰ الأرض اليابسة الجرداء التي لا أثر لشيء من الحياة عليها فما إن ينزل عليها المطر حتىٰ تراها تنتفض وتهتز بالحياة من جديد فتخرج الخضرة والنبات والثمار، فذلك الذي بعث الحياة في هذه الأرض الموات قادر علىٰ إحياء العظام اليابسة التي تفتتت.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي ءَايَاتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا﴾ وهم أولئك المشركون الذين مالوا إلى التكذيب بآيات الله سبحانه وتعالى بعد معرفتهم بصدقها، وانحرفوا عنها مكابرة وعناداً، فالله سبحانه وتعالى عالم بهم ومطلع على جميع أعمالهم وسيجازيهم على تكذيبهم ذلك وتمردهم.

ومعنى يلحدون يميلون ومنه سمي اللحد بهذا الاسم لكونه مائلاً في جانب القبر.

﴿أَفَمَنْ يُلْقَى فِي النَّارِ خَيْرٌ أَمْ مَنْ يَأْتِي ءَامِنًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ فأيها أفضل وأحسن أذلك الذي سيكبه الله سبحانه وتعالى يوم القيامة على منخريه في نار جهنم؟ أم الذي سيؤمنه الله سبحانه وتعالى وينعم عليه في جنات النعيم؟ فما بال هؤلاء المشركين يختارون طريق الخزي والهوان والذلة بتكذيبهم وتمردهم.

﴿اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ۝٤٠﴾ بعد أن أنذرهم الله سبحانه وتعالى وحذرهم، وقطع عليهم جميع أعذارهم- هددهم بأن يختاروا ويعملوا ما شاءوا من المعاصي والمنكرات فهو عالم بجميع أعمالهم، وفي الأخير سيكون مرجعهم إليه فيحاسبهم ويجازيهم على أعمالهم.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ ۝٤١ لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ۝٤٢﴾ وهم المشركون عندما أتاهم النبي ﷺ بالقرآن وقرأ عليهم آياته التي بلغت الحد في الفصاحة والبلاغة التي كانوا يتقنون صناعتها ويتبارون فيها تيقنوا عندما سمعوه أنه كلام حق وصدق لا مدخل للشك والريبة فيه، وحاولوا جهدهم في التشكيك في شيء من آياته فلم يجدوا لهم أي مدخل عليه، فكل ذلك مما يدل على أنه كلام منزل من عند الله تعالى الذي أحكمها وفصلها ووضحها.

﴿مَا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ﴾ فلا يكبر عليك تكذيب قومك يا محمد، وما يقولونه فيك ويفترونه عليك، وما يقابلونك به من السخرية والاستهزاء، فكل رسول أرسلناه من قبلك قد لقي من قومه مثل ما تلاقيه من التكذيب والاستهزاء والطرد والجحود.

﴿إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ﴿٤٣﴾﴾ وهو سبحانه يمهل عباده ويتأنى بهم ويمتعهم في الدنيا ولا يعجل في الانتقام منهم بسبب كفرهم وتكذيبهم، وهذا من رحمته بهم لعلهم يتوبون ويرجعون إليه، ولكنه إذا أنزل عذابه فليعلموا أنه سيكون شديداً وأليماً عليهم وإن أخذه أليم شديد.

﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَاتُهُ﴾ أنزله الله تعالى بلغتهم حتى لا يبقى لهم أي عذر يعتذرون به عند ربهم بأنهم لم يفهموا آياته أو يعقلوها، أو يقولوا لو أنه نزل بلسانهم ولغتهم لآمنوا به ولصدقوه.

﴿ءَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ﴾ ولئلا يستنكروا ويقولوا: كيف ينزل الله تعالى علينا كلاماً أعجمياً ونحن قوم عرب.

﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ﴾ ثم أمر الله سبحانه وتعالى نبيه ﷺ أن يخبرهم بأن هذا القرآن فيه هدى للمؤمنين إلى طريق نجاتهم وخلاصهم، وفيه شفاء لهم من أمراض الشك والكفر والنفاق.

﴿وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى﴾ وأخبرهم بأن الذين لم يؤمنوا بالله تعالى قد صمت آذانهم عن سماع آياته، وقد عموا عن الاهتداء بهديه.

﴿أُولَئِكَ يُنَادَوْنَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ﴿٤٤﴾﴾ فشأن قومك يا محمد في عدم سماعهم للحق والهدى كشأن الذي يناديه المنادي من مكان بعيد فلا يدري ما يقول.

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتُلِفَ فِيهِ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾ ثم انتقل الله سبحانه وتعالى إلى إخبار نبيه ﷺ بما جرى لموسى من قومه، وما حصل له من تكذيب أكثرهم بما أنزل الله تعالى عليه في التوراة، وما جرى منهم من التحريف والتبديل فيها.

ثم أخبره الله سبحانه وتعالى أنه لولا حكمته التي اقتضت أن يؤخر تعذيبهم إلى يوم القيامة لحكم بين المختلفين في التوراة في الدنيا بأن يعذب الكافرين

ويثيب المؤمنين، غير أنه سبق وعده بتأخير حسابهم وجزاءهم إلى يوم القيامة لمصلحة قد علمها في ذلك.

﴿وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ﴿٤٥﴾﴾ أولئك الذين كفروا بالتوراة.

﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا﴾ فالله سبحانه وتعالى غني عن طاعة المطيعين غير محتاج إلى عبادتهم، ولن تضره معصية من عصاه، وتكليفه لعباده إنما هو رحمة بهم ليعرضهم على الثواب العظيم والنعيم الدائم، فمن عمل الأعمال الصالحة فقد نفع نفسه وأنقذها، وأما من عمل المعاصي والسيئات فهو بذلك إنما يجلب الضرر على نفسه.

﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴿٤٦﴾﴾ فتعذيبه للعصاة والكافرين إنما هو بسبب أعمالهم الخاسرة وكفرهم فهم الذين أوقعوا أنفسهم في العذاب.

﴿إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ وَمَا تَخْرُجُ مِنْ ثَمَرَاتٍ مِنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ﴾ فهو وحده المختص بعلم موعد الساعة والقيامة فلم يطلع على ذلك أحداً من خلقه، لا نبياً مرسلاً ولا ملكاً مقرباً، وهو المختص بالإحاطة بكل شيء، فلا تخرج ثمرة من خباها، ولا تضع أنثى ما في بطنها إلا وهو عالم بذلك.

﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَائِي قَالُوا آذَنَّاكَ مَا مِنَّا مِنْ شَهِيدٍ﴿٤٧﴾﴾ وذلك يوم القيامة عندما ينادي الله سبحانه وتعالى المشركين ويسألهم: أين أولئك الذين كنتم تعبدونهم في الدنيا؟ فيجيبون على ذلك بإنكار الشركاء معه، وأنهم مقرون له بأنه لا إله إلا هو.

﴿وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَدْعُونَ مِنْ قَبْلُ وَظَنُّوا مَا لَهُمْ مِنْ مَحِيصٍ﴿٤٨﴾﴾ فقد ضاعت عنهم تلك الآلهة التي كانوا يزعمون أنها ستنصرهم وتدفع عنهم، وقد أيقنوا في ذلك الوقت أن لا مفر لهم ولا مهرب من عذاب الله سبحانه وتعالى.

﴿لَا يَسْأَمُ الْإِنْسَانُ مِنْ دُعَاءِ الْخَيْرِ﴾ ثم أخبر الله سبحانه وتعالى عن طبيعة الإنسان أنه لا يمل أو يسأم من طلب الخير من المال والولد ومتاع الدنيا وشهواتها والسعي وراءها، فهو يبحث عن ذلك ويجري وراءه مدة عمره.

﴿وَإِنْ مَسَّهُ الشَّرُّ فَيَئُوسٌ قَنُوطٌ﴿٤٩﴾﴾ وأما إذا لحقه أي سوء أو مكروه فإنه يصيبه اليأس والقنوط من رحمة الله تعالى، وقد أراد الله سبحانه وتعالى بذلك الإنسان الكافر، وأما المؤمن فهو في خير وطمأنينة، وإن أصابه الشر فلا يزال في قلبه الرجاء في الله تعالى، والقناعة بأن ما أصابه إنما هو من عند الله تعالى وأن الفرج من عنده، فإن فرج عنه في الدنيا وإلا فسيعوضه في الآخرة، ولا يزال على يقين بأنه سيثيبه على الصبر إن هو صبر على ما أصابه، فلا ينقطع أمله في الله سبحانه وتعالى لا في الدنيا ولا في الآخرة.

والسبب في يأس الكافر هو كفره بالآخرة، وإنكاره لثواب الله سبحانه وتعالى، فلذلك ينقطع أمله ويصيبه اليأس والقنوط.

﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي﴾ وأما إن أنعم الله سبحانه وتعالى على الكافر بعد ضر وشدة أصابته فإنه يزعم أنه لم ينل ما أعطي من الخير والنعيم إلا لأنه يستحقه، ولأنه أهل لذلك الخير والعطاء، وأن الله سبحانه وتعالى لم يعطه ذلك إلا لكرامته عليه فيأخذه العجب بنفسه والتعظيم لها وينسى شكر الله.

﴿وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُجِعْتُ إِلَى رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْنَى﴾ أغتر بما هو فيه من النعيم، ونسي الله سبحانه وتعالى، ونسي أن هناك موتاً وحياة بعد الموت، وحساباً وعقاباً، وعلى فرض صحة القيامة فهو على ثقة ويقين من نفسه بأنه مقبول عند الله تعالى، وأنه من أهل الإحسان عنده، وأنه سيكرمه في الآخرة كما أكرمه في الدنيا.

﴿فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ۝٥٠﴾ فليعلم أهل هذه الصفة أنهم من أهل وعيد الله سبحانه وتعالى، وأن الله سبحانه وتعالى سوف يطلعهم يوم القيامة على سوء أعمالهم، ثم يجازيهم عليها.

﴿وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ۝٥١﴾ طبيعة الإنسان الكافر الجاحد لنعم الله سبحانه وتعالى هي أن الله تعالى إذا أسبغ عليه نعمه وأوسع عليه في الرزق ومتعه بالصحة والعافية- نسي الله تعالى، وأعرض عن ذكره وشكره.

ومعنى ﴿نَأَى بِجَانِبِهِ﴾: لوى جنبه وابتعد عن ذكر الله سبحانه وتعالى استخفافاً وكبراً، وأما إن أصابه سوء أو شر أو مكروه فإنه يتذكر الله تعالى ويستغيث به، ويتوسل إليه أن يرفع عنه ما هو فيه من البلاء والشدة.

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُمْ بِهِ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ۝٥٢﴾ ثم أمر الله سبحانه وتعالى نبيه ﷺ أن يقول للمشركين حين أصروا على الكفر والتكذيب: كيف لو كان ما جئتكم به من عند الله ثم إنكم كفرتم به فمن يكون أضل منكم؟ وكيف سيكون موقفكم؟ والمفروض على كل عاقل أن يأخذ الحيطة والحذر إذا حذره أحد بمثل ما حذرهم النبي ﷺ، وأن يعد العدة لذلك المكروه لئلا يقع فيه؛ فأنتم أيها المشركون من المفروض أن تعدوا عدتكم، وتأخذوا حيطتكم وحذركم من الوقوع في ذلك المكروه الذي حذركم منه نبيكم ﷺ، فمن شأن العاقل أن يحتاط من المخاوف المعلومة والمظنونة.

﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾ ثم أمر الله سبحانه وتعالى نبيه ﷺ أن يخبر المشركين بأن الله تعالى سوف يريهم آياته التي بثها لهم في السماوات والأرض ليتفكروا فيها ويعرفوا إذا نظروا فيها صدق ما جاءهم به، ويعرفوا أن ما جاءهم به هو الدين الحق، وأنه من عند الله سبحانه وتعالى، وكذلك إذا نظروا في آثار قدرته في كيفية خلقهم.

﴿أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴿٥٣﴾﴾ يكفي قومك يا رسول الله أن الله مطلع على أعمالهم صغيرها وكبيرها ظاهرها ومستورها، يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور، وسيجازيهم على ما عملوا حتى على مثقال الذرة فلا يكبر عليك يا رسول الله ما ترى عليه المشركين من الترف والغنى وكثرة المال والولد والأمن فإن مرجعهم إلى من يحصي عليهم أنفاسهم وخطرات قلوبهم وجميع حركاتهم وسكناتهم.

﴿أَلَا إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقَاءِ رَبِّهِمْ أَلَا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطٌ﴿٥٤﴾﴾ إن المشركين في شك وريب دائم من لقاء ربهم، ومن البعث بعد الموت والحساب والجزاء، ولكن الله سبحانه وتعالى مطلع على جميع أعمالهم، وسيحاسبهم ويجازيهم على كل ذلك.

❁❁❁❁❁

سورة الشورى

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿حم﴿١﴾ عسق﴿٢﴾ كَذَلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴿٣﴾﴾ ابتدأ الله سبحانه وتعالى هذه السورة بالرد على قول المشركين إن النبي ﷺ كذاب، وأن هذا القرآن الذي جاء به ليس كلام الله سبحانه وتعالى، وأنه إنما اختلقه وافتراه من عند نفسه، أو إنما تعلمه من بشر؛ فأخبرهم بأنه ليس من كلام البشر، وما ينبغي لبشر أن يأتي بمثل هذا الكلام، فهو كلام العزيز الذي لا ينال، والغالب الذي لا يقهر، والحكيم الذي أحكم آياته وأنزلها في غاية الدقة والإحكام.

﴿لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴿٤﴾﴾ فهو المتعالي عن الولد والزوجة والشريك والمعين، وهو العظيم الذي ليس كمثله شيء.

﴿تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْ فَوْقِهِنَّ﴾ ثم أخبر الله سبحانه وتعالىٰ أن المشركين بلغوا النهاية في الكفر والعناد والتكذيب حتىٰ أن السماوات كادت أن تتفطر وتتشقق من كفرهم ونسبتهم إلىٰ الله سبحانه وتعالىٰ ما لا يليق به من الشركاء والأولاد.

﴿وَالْمَلَائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الْأَرْضِ أَلَا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ۝﴾ فالمشركون ينسبون إلىٰ الله تعالىٰ الشركاء والأولاد بينما الملائكة ينزهون الله تعالىٰ ويقدسونه، ويطلبون من الله سبحانه وتعالىٰ المغفرة لمن آمن من أهل الأرض.

﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ اللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ۝﴾ فلا يظن أولئك المشركون أن الله سبحانه وتعالىٰ غافل عنهم وعن أعمالهم، فهو عالم بهم ومحص لجميع أعمالهم وأفعالهم، وسيحاسبهم ويجازيهم عليها.

أخبر الله سبحانه وتعالىٰ نبيه ﷺ بذلك ليعلمه أن ما عليه إلا التبليغ فقط، وأما أمر حسابهم فهو علىٰ الله سبحانه وتعالىٰ.

﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنْذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ﴾ ثم أخبر الله سبحانه وتعالىٰ نبيه ﷺ أنه قد أنزل عليه القرآن لينذر به أهل مكة ومن حولها من القرىٰ، وينذرهم المخاطر التي هم قادمون عليها والأهوال التي سيلاقونها يوم القيامة إن هم استمروا علىٰ ما هم فيه من الشرك والضلال.

﴿لَا رَيْبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ۝﴾ لا شك ولا ريب في يوم الجمع وحصوله ليجزي الله كل نفس ما عملت، فيدخل الله تعالىٰ أهل الأعمال الصالحة الجنة، ويدخل أهل الأعمال الخبيثة جهنم.

﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ﴾ كان النبي ﷺ يرهق نفسه ويتعبها في ملاحقة قومه ليؤمنوا حتىٰ كاد أن يهلك

نفسه من شدة حرصه وأسفه على عدم إيمانهم، فأمره الله تعالى أن يهون على نفسه ولا يتعبها فما عليه إلا أن يبلغهم قبلوا أم لم يقبلوا، وأخبره أنه لو شاء أن يدخلهم في الهدى وأن يلجئهم إليه لفعل فهو قادر أن يجمع أهل الأرض جميعاً على دين واحد وملة واحدة، غير أن مشيئته وحكمته اقتضت أن يكون الدين موكولاً إلى مشيئتهم واختيارهم؛ ليدخل الجنة من استحقها، واختار طريقها بمحض إرادته واختياره، وذلك بعمل الطاعات وما يرضي الله سبحانه وتعالى، واجتناب ما يغضبه ويوجب سخطه، ويعذب الذين اختاروا طريق الضلال، وانتصبوا لعداوة الله تعالى ورسله ﷺ، ولو لم يكن كذلك لبطل الثواب والعقاب.

﴿وَالظَّالِمُونَ مَا لَهُمْ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ۝٨﴾ لا يجد الظالمون يوم القيامة من ينصرهم ويدفع عنهم عذاب الله أو يشفع لهم عنده تعالى.

﴿أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ فَاللَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ وَهُوَ يُحْيِي الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ۝٩﴾ اتخذ المشركون لهم أرباباً يعبدونها من دون الله تعالى، وتركوا عبادة الإله الذي بيده حياتهم وموتهم، والذي كل ما في السموات وما في الأرض في قبضته وتحت سيطرته وقدرته فهو الذي يستحق العبادة وحده دون ما سواه من المعبودات.

﴿وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ۝١٠﴾ ثم بدأ الله سبحانه وتعالى في إرشاد عباده إلى الطريق لمعرفة الحق، فأخبرهم أن ما اختلفوا فيه من الأديان وتفرقت كلمتهم فيه فينبغي لهم أن يردوه إلى الله سبحانه وتعالى فهو الذي يحق الحق ويبطل الباطل.

﴿فَاطِرُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ هو الإله الذي ينبغي أن يتوكل عليه المتوكلون ويرجع إليه المنيبون، فهو وحده الذي بيده النفع والضر، وبيده مقاليد السماوات والأرض.

﴿جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا﴾ ومن صفته تعالى أيضاً أنه هو الذي خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها نعمة منه

أنعم بها عليكم، وكذلك هو الذي أنعم عليكم بهذه الأنعام وسخرها في خدمتكم ومنفعتكم.

﴿يَذْرَؤُكُمْ فِيه﴾ يخلقكم في هذه الأزواج، وهو ما يحصل من التناسل والتوالد من خلال التزاوج والتناكح.

﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ ومن صفته أنه المتفرد بصفات الإلهية والكمال فلا يشابهه أو يماثله أحد.

﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴿١١﴾﴾ وهو وحده العالم بجميع المسموعات والمبصرات لا يخفى عليه خافية لا في السماء ولا في الأرض.

﴿لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ﴾ مفاتيح خزائن السماوات والأرض فهي بيده وحده، وأرزاق الخلق جميعاً كلها بيده فيضيق على من يشاء منهم، ويوسع في رزقه على من يشاء منهم.

﴿إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴿١٢﴾﴾ فلا يبسط رزقه أو يضيقه على أحد إلا على حسب ما تقتضيه الحكمة والمصلحة.

﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ يخاطب الله سبحانه وتعالى عباده مخبراً لهم بأنه لم ينزل ما أنزل على محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ من الدين والشريعة إلا ما أنزل على من سبقه من الأنبياء السابقين، وأن ما أوصاهم به وحكم عليهم في القرآن هو نفس ما أوصى به الأنبياء السابقين وأمرهم بتبليغه، وهو أن يقيموا دين الله سبحانه وتعالى ويحيوا شرائعه، وأن يكونوا على ذلك يداً واحدة، وكلمتهم تكون واحده، وهي توحيد الله سبحانه وتعالى وعدم الإشراك به شيئاً.

﴿كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ﴾ عندما دعا النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ المشركين إلى توحيد الله تعالى وتنزيهه عن الشركاء عظم ذلك على المشركين، وكبر في نفوسهم، واستنكروا غاية الاستنكار؟

﴿اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ﴿١٣﴾﴾ والله سبحانه وتعالى هو الذي له أن يصطفي ويختار من يشاء من عباده لنبوته ورسالته، فليس لأحد أن يقترح عليه أو يعترض.

ثم أخبر الله سبحانه وتعالى أنه لا يهتدي لدينه إلا من تواضع للحق وأخلص نفسه لقبوله.

﴿وَمَا تَفَرَّقُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ﴾ وهم أهل الكتب السماوية كانوا كلمة واحدة ويداً واحدة، ثم بعد أن أرسل الله سبحانه وتعالى إليهم رسله، وأنزل عليهم شرائعه وكتبه تفرقوا واختلفوا فمنهم من آمن، ومنهم من كفر. وكفر من كفر منهم إنما كان بغياً منهم على الحق وعناداً وتمرداً عليه، لا لخفاء الحق وعدم وضوحه، فهو واضح وجلي، وآيات الله سبحانه وتعالى مكشوفة لهم، وبينة لا غبار عليها.

﴿بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾ فلولا أن حكمة الله تعالى اقتضت تأجيل عقابهم وجزائهم إلى يوم القيامة لحكم بينهم، ولعجل بعذاب المبطل في الدنيا قبل يوم القيامة.

﴿وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ﴿١٤﴾﴾ أراد الله سبحانه وتعالى بهم أمة محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ فقد أورثهم الكتاب والحكمة بعد اليهود والنصارى، ولكنهم كذبوا به وتمردوا.

﴿فَلِذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ﴾ لأجل ما شرع الله تعالى لأمة محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ من الدين الذي شرعه لمن قبلهم من الأنبياء والأمم أمر الله تعالى نبيه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ أن يدعوهم إلى ذلك الدين الذي شرعه لهم، وأمره أيضاً أن يستمر على دعوته وعلى دينه ذلك على حسب ما أمره به، غير مبال بهم أو بتكذيبهم وتمردهم عليه أو استهزائهم به.

ونهاه أيضاً عن الاستجابة لهم فيما يدعونه إليه من ترك التعرض لآلهتهم أو السب لها، وكانوا يقايضونه ويساومونه على ذلك.

﴿وَقُلْ ءَامَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ﴾ وأن يخبرهم بأنه قد آمن وصدق بما أنزل الله سبحانه وتعالى من الكتب السالفة على من سبقه من الأنبياء.

﴿وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ﴾ وأن يخبرهم بأن الله سبحانه وتعالى قد أمره بأن يقيم الحق والعدل بين أولئك المختلفين من المشركين واليهود والنصارى، وأن يدعوهم إلى الحق والهدى والقرآن.

﴿اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴿١٥﴾﴾ ثم أمر الله سبحانه وتعالى نبيه ﷺ أن يحسن جداله مع المشركين وأن يأخذ معهم بجانب الرفق واللين، وأرشده إلى كيفية الأخذ معهم والرد في الكلام لئلا ينفرهم عن الدين أو يجعلهم ينظرون له بنظرة سيئة، وفيما أرشده الله سبحانه وتعالى في هذه الآية ما لا يخفى من اللطافة واللين والرفق، وعدم الجرح أو الخدش.

﴿وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿١٦﴾﴾ ثم أخبر الله سبحانه وتعالى نبيه ﷺ عن الذين يحاجونه ويجادلونه من المشركين في آيات الله تعالى من بعد أن استوضحت لهم، وعرفوا صدقها وحجيتها- بأن حججهم واهية وجدالهم باطل، وأن جدالهم ذلك ليس إلا تعنتاً وتمرداً على الحق، وقد استوجبوا بذلك غضب الله سبحانه وتعالى وسخطه عليهم.

﴿اللَّهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ﴾ يرد الله تعالى هنا على المشركين المكذبين بآياته بأنه الذي أنزل القرآن على نبيه ﷺ، وليست الشياطين التي تنزلت به كما يزعمون، وأن ما جاءهم به نبيهم ﷺ هو الدين العدل والحق.

والقرآن هو الميزان الذي يتبين به الحق والباطل والحسن والقبيح.

﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ ۝١٧ يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا﴾ كان المشركون يستعجلون النبي ﷺ أن يأتيهم بالساعة، ويطلبون منه تعجيلها، فأخبر الله سبحانه وتعالى نبيه ﷺ بأنها قد أوشكت وقد اقترب موعدها، ولا يعلم ميعادها إلا الله وحده.

﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ﴾ وأما المؤمنون فهم مشفقون وخائفون من حلولها لما تيقنوا من حتمية وقوعها وحلولها، وماذا سيكون فيها.

﴿أَلَا إِنَّ الَّذِينَ يُمَارُونَ فِي السَّاعَةِ لَفِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ ۝١٨﴾ وأما أولئك الذين يجادلون في أمر الساعة وينكرونها، ويستعجلون حلولها استهزاءً- فهم سائرون في غير طريق الهدى، وتائهون في ظلمات الجهل والباطل.

﴿اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ﴾ ثم تمدح الله سبحانه وتعالى بأنه رحيم بعباده، ومن رحمته بهم أنه يمهلهم ولا يعجل بعذابهم مع استحقاقهم له.

﴿يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ ۝١٩﴾ وهو الذي يبسط رزقه على من يشاء من عباده، وذلك على حسب ما تقتضيه الحكمة والمصلحة.

﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ﴾ من كان يطلب ثواب الله تعالى بعمل الصالحات، واجتناب ما يوجب سخط الله تعالى وغضبه، فإن الله سبحانه وتعالى يوفقه للهدى، ويثبته ويسدده، ويضاعف له الأجر والثواب.

﴿وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ ۝٢٠﴾ وأما من كان يطلب الدنيا ويسعى وراءها، ويجعلها أكبر همه، مقصراً في أمور دينه، غير مبال بما يقع فيه من المعاصي والمحظورات- فإن الله سبحانه وتعالى سوف يعطيه حظه منها، ولكنه سيحرمه في الآخرة الأجر والثواب.

﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ﴾ يستنكر الله سبحانه وتعالى إصرار المشركين على شركهم؛ هل أوحت إليهم آلهتهم شيئاً من

الدين الذي يدعونه، أو فرضت عليهم شيئاً من التشريعات التي يعملون بها؟ أم أنهم شرعوا دينهم ذلك وجاءوا به من عند أنفسهم؟

﴿وَلَوْلَا كَلِمَةُ الْفَصْلِ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾ ثم أخبر الله سبحانه وتعالى بأنه لولا ما اقتضته الحكمة من تأخير الحكم والفصل بينهم إلى يوم القيامة لحكم بينهم ولعذبهم في الدنيا.

﴿وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢١﴾﴾ وإنه تعالى قد أعد للظالمين المتجاوزين لحدوده العذاب الأليم في نار جهنم جزاءً على كفرهم وتكذيبهم.

﴿تَرَى الظَّالِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا وَهُوَ وَاقِعٌ بِهِمْ﴾ ثم أخبر الله سبحانه وتعالى عن حالهم حين يبعثهم إليه يوم القيامة عندما يرون ذنوبهم أحاطت بهم وطوقت أعناقهم، وقد تيقنوا عندها أنهم واقعون في عواقب ذنوبهم.

﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ ﴿٢٢﴾﴾ وأما المؤمنون فإن الفرح والسرور والأمن والطمأنينة تصاحبهم من حين بعثهم إلى أن تفد بهم الملائكة إلى روضات الجنات التي أعدها الله لهم، لهم فيها ما يشاءون من أنواع الملذات وأسباب النعيم.

﴿ذَلِكَ الَّذِي يُبَشِّرُ اللَّهُ عِبَادَهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ يبشر الله عباده المؤمنين بما أعده لهم في جنات النعيم والفضل العظيم.

﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾ ثم أمر الله سبحانه وتعالى نبيه صلى الله عليه وآله وسلم أن يخبر المشركين بأنه لم يطلب منهم أن يدفعوا له أي ثمن أو أجرة على تبليغهم آيات الله تعالى وأحكامه حتى يتمردوا عليه هذا التمرد، وحتى تمنعهم هذه الأجرة عن قبول الدين والهدى الذي جاءهم به، وأنه لم يطلب منهم أن يكافئوه على ذلك إلا أن يحسنوا إلى قرابته وأهله فقط.

﴿وَمَنْ يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا﴾ وأن يخبرهم أن الله سبحانه وتعالى قد تفضل عليهم بأن ضاعف لهم الأجر والثواب إن عملوا الأعمال الصالحة، وكل ذلك ترغيبا لهم ورحمة بهم.

﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ﴿٢٣﴾﴾ والله تعالى غفور لمن عمل المعاصي ثم رجع إليه وندم منها فإنه يقبله ويمحوا عنه سيئاته، ويعطي الكثير، ويضاعف الأجر على الأعمال الصالحة، يشكر على فعل الحسنات بالثواب الكبير.

﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ كان المشركون يقولون إن النبي ﷺ افترى على الله سبحانه وتعالى الكذب والزور والبهتان بما يدعيه من النبوة، ومن القرآن الذي يدعي أنه نزل عليه من عند الله تعالى.

﴿فَإِنْ يَشَأِ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَى قَلْبِكَ﴾ يخاطب الله سبحانه وتعالى نبيه ﷺ ويخبره بأنه إن كان كما يزعم المشركون بأنه قد افترى على الله الكذب فإنه قادر على أن يمنع نبيه عن ذلك، وقادر على إزالته من قلبك.

﴿وَيَمْحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ وَيُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴿٢٤﴾﴾ سنة الله سبحانه وتعالى في الدنيا أن يمحو الباطل ويزيله، ويظهر الحق وأهله، وكلماته: هي قدرته وإرادته.

﴿وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴿٢٥﴾﴾ فهو الذي يستحق أن تتوجهوا إليه بعبادتكم وتظهروا توسلكم له لا إلى تلك الأحجار التي لا تنفع ولا تضر ولا تغني شيئاً، فبيده تعالى وتحت قدرته أن يقبل التوبة عن عباده وأن يعفو عن السيئات، وهو تعالى الذي أحاط بكل شيء علماً يحصي عليكم أعمالكم.

﴿وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ﴾ وهو الذي يستجيب للمؤمنين ويتقبل منهم أعمالهم ويثيبهم عليها، ويضاعف لهم الأجر أضعافاً مضاعفة.

﴿وَالْكَافِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴿٢٦﴾﴾ أما الكافرون فلا نصيب لهم ولا حظ في شيء من رحمة الله تعالى ولهم عذاب شديد بكفرهم وتكذيبهم وتمردهم عن قبول رسالات الله.

﴿وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَكِنْ يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ﴿٢٧﴾﴾ ولو أنه تعالى بسط رزقه على الناس جميعاً لتجاوزوا حدود الله سبحانه وتعالى، ولأظهروا الفساد في الأرض، غير أن حكمته اقتضت أن ينزل عليهم من الرزق على حسب ما تدعوا إليه حاجتهم ومصلحتهم، فهو عالم بعباده وبحاجتهم، وعالم بما يصلحهم وما يفسدهم، وقد أعطى كلاً على قدر ما علم من حالته وصلاح أمره.

﴿وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ﴿٢٨﴾﴾ فعندما يصيب الناس اليأس والقنوط من نزول المطر فإن الله سبحانه وتعالى عند ذلك ينزل عليهم المطر، ويقسمه بينهم رحمة منه لهم، ونعمة منه أنعم بها عليهم، يستحق أن يحمده عباده ويؤدوا حق شكره عليها.

﴿وَمِنْ ءَايَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِنْ دَابَّةٍ وَهُوَ عَلَى جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ﴿٢٩﴾﴾ يخبر الله سبحانه وتعالى هنا عباده أن من آياته الدالة عليه وعلى ربوبيته وعظيم قدرته ما يشاهدونه من الإبداع في خلق السماوات والأرض على ذلك النظام البديع المتوازن، وما يشاهدونه من أنواع الدواب المبثوثة على وجه الأرض وفي جو السماء فلو نظروا في ذلك بعقولهم لعلموا أن الله قادر على إحياء الناس وجمعهم في يوم القيامة للحساب والجزاء.

﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ﴿٣٠﴾﴾ ما نزل بكم أيها الناس من بلاء وشدة ومصيبة فإنما هو بسبب ذنوبكم وسيئاتكم، مع أن الله تعالى لا يجازيكم إلا على بعضها، وإلا فكم من الذنوب سترها عليكم ولم يؤاخذكم بها، وهذا من عظيم رحمته تعالى بعباده ولطفه فيهم، بل إن في مؤاخذتهم ببعض ذنوبهم رحمة من الله ومصلحة عائدة إليهم فإنهم إذا رأوا ما هم فيه من الشدة فلعلهم ينتبهون ويرجعون إليه، ويقلعون عما هم فيه من المعاصي.

﴿وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴿٣١﴾﴾ إذا رأيتم الله سبحانه وتعالىٰ يتأنىٰ بكم ويمهلكم أيها العصاة فاعلموا أنكم لن تفوتوا الله تعالىٰ أو تهربوا من قبضته، فمتىٰ أراد أن يأخذكم فلا مفر لكم ولا مهرب من قبضته وقدرته عليكم.

﴿وَمِنْ ءَايَاتِهِ الْجَوَارِي فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ﴿٣٢﴾ إِنْ يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِ﴾ ومن آياته العجيبة الدالة علىٰ عظيم قدرته السفن التي ترونها تجري في البحر بقدرته وأمره، فهو وحده الذي سخر البحر لحملها ويرسل الريح لتسوقها وتجري بها، وذلك أيضاً من عظيم نعمه علىٰ عباده، فلو أراد أن يمسك الرياح لما استطاعت تلك السفن أن تتحرك أو تسير ولظلت راكدة وساكنة في مكانها لا يستطيع أحد أن ينتفع بها أي منفعة.

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴿٣٣﴾﴾ ففيما أخبر الله سبحانه وتعالىٰ وقصه آيات عظيمة لمن أراد أن ينظر ويتفكر فيها ويشكر الله سبحانه وتعالىٰ علىٰ نعمه العظيمة تلك، وأما المشركون فهم يرون آيات الله تعالىٰ بين أيديهم ويعرفونها، ثم يعرضون عنها استكباراً وتمرداً علىٰ الله سبحانه وتعالىٰ وكفراً بنعمه عليهم.

﴿أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا وَيَعْفُ عَنْ كَثِيرٍ﴿٣٤﴾﴾ وأنه لو شاء أن يسلط البحر علىٰ تلك السفن فيغرقها بما حملت بسبب ما اكتسبوا واقترفوا من المعاصي لأغرقها، ولكن تركهم وتأنىٰ بهم رحمة منه تعالىٰ لهم.

﴿وَيَعْلَمَ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي ءَايَاتِنَا مَا لَهُمْ مِنْ مَحِيصٍ﴿٣٥﴾﴾ ثم أخبر الله سبحانه وتعالىٰ أنه لا بد أن يعلم الذين يجادلون في آيات الله ويكذبون بها ويشككون فيها صدق ما كذبوا به، ويرون جزاء كفرهم، وما أعد الله سبحانه وتعالىٰ لهم بسبب جدالهم بالباطل من العذاب، وذلك في يوم القيامة.

﴿فَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى لِلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ۝٣٦﴾ يخبر الله سبحانه وتعالىٰ عباده أن ما قد أعطاهم من النعيم في الدنيا وأسبغ عليهم من الأرزاق ليست إلا متاعاً زائلاً كمتاع المسافر سرعان ما ينتهي ويزول.

أراد الله سبحانه وتعالىٰ بذلك أن يرشد عباده أن لا يغتروا بزينة الحياة الدنيا وشهواتها ولذاتها، وأن يعمروا أعمارهم ويقطعوها في طاعة الله سبحانه وتعالىٰ وفعل ما يرضيه، واكتساب ما عنده من النعيم والثواب الذي لا ينفد ولا يزول، وأن يؤثروا النعيم الدائم الذي لا يزول علىٰ ذلك الذي سرعان ما ينتهي ويزول.

وقد اختص الله سبحانه وتعالىٰ بالنعيم الدائم عباده الذين آمنوا وعملوا الصالحات، وأما المشركون والعصاة فلا حظ لهم ولا نصيب في شيء من ثواب الله تعالىٰ والدار الآخرة.

﴿وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ﴾ من صفة المؤمنين أيضاً أنهم يتجنبون الوقوع في كبائر المعاصي، وأما الصغائر فلا يستطيع أن يتحرز منها إلا من عصم الله تعالىٰ؛ لأن الإنسان بطبيعته ضعيف لا بد أن تقع منه زلة أو فلتة أو نظرة، أو كذبة أو نحو ذلك، فينبغي للمؤمن أن يكثر من الاستغفار والرجوع إلىٰ الله تعالىٰ.

﴿وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ۝٣٧﴾ ومن صفتهم أيضاً أنهم إن أغضبهم أحد أو وجه إليهم أي إساءة فإنهم يتسامحون معه، ويغفرون له.

﴿وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ﴾ ومن صفتهم أيضاً الانقياد لله سبحانه وتعالىٰ والتواضع له، والامتثال لجميع أوامره، والانتهاء عن جميع ما نهاهم عنه.

﴿وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ﴾ ويحافظون علىٰ أداء ما افترض الله سبحانه وتعالىٰ عليهم من الصلوات وغيرها من المفروضات.

﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ﴾ وإذا حدث لهم أمر أو نزلت بهم مهمة تعود إلى مصالحهم العامة، أو تخص دينهم- فإنهم يجتمعون ويتشاورون فيما بينهم.

﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ۝٣٨﴾ ويخرجون زكاة أموالهم التي افترضها الله سبحانه وتعالى عليهم.

﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ۝٣٩﴾ ومن صفتهم أيضاً أنهم لا يصبرون على ضيم يراد بهم، أو يستسلمون لعدوهم، بل ينتصرون لأنفسهم ويدفعون عنها الظلم والهوان، فهذه هي صفات المؤمنين الذين أخبر الله سبحانه وتعالى عنهم أنه قد أعد لهم الثواب الجزيل في الآخرة.

﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾ وإذا اقتصوا من أحد فلا يظلمون أو يجورون وإنما يردون السيئة بمثلها، ثم ندبهم الله تعالى إلى العفو فهو أصلح وأفضل لهم عند الله تعالى، وسيعوضهم الله تعالى من عنده، وسيثيبهم جزاءً على عفوهم وتنازلهم عن حقهم، وإن أرادوا الاقتصاص فلهم ذلك.

﴿إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ۝٤٠﴾ الذين يتجاوزون الحد في الاقتصاص ويرد السيئة بأكبر منها فهو ظالم عند الله سبحانه وتعالى ويستحق عقابه وسخطه.

﴿وَلَمَنِ انْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ۝٤١﴾ ومن بغي عليه فلا حرج عليه أن يقتص لنفسه وينتصف من ظالمه إن أراد بمثل ما قد بغي عليه.

﴿إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ۝٤٢﴾ وإنما الحرج على الذين يبتدئون فعل الظلم والبغي على الناس عدواناً بغير حق، فهؤلاء هم الذين سيؤاخذهم الله سبحانه وتعالى وينتقم منهم، ويجب على سلطان المسلمين أن يوقفهم عند حدودهم، ويجازيهم ويعاقبهم وينكل بهم.

﴿وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ۝٤٣﴾ ثم أثنى الله سبحانه وتعالى على الذي يصبر ويعفوا عن ظالمه محتسباً للأجر عند الله تعالى؛ فالصبر

والعفو من الأمور العظيمة التي لا يفعلها إلا أهل الصبر العظيم والإيمان القوي ثقة منهم بما عند الله من الأجر العظيم للصابرين.

﴿وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ وَلِيٍّ مِنْ بَعْدِهِ﴾ من علم الله تعالىٰ أنه ضال وأخبرنا بضلاله فهو ضال لا يقدر أحد أن يغير حكم الله أو يتعقبه بالإبطال.

﴿وَتَرَى الظَّالِمِينَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَى مَرَدٍّ مِنْ سَبِيلٍ﴿٤٤﴾﴾ في يوم القيامة عندما يعاين المتجاوزون المتعدون لحدود الله سبحانه وتعالىٰ العذاب الذي سيحل بهم فعندها يصيبهم الندم الشديد، ويتمنون أن يعودوا ليستدركوا ما فاتهم، ولكن هيهات حين لا ينفع الندم.

﴿وَتَرَاهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَاشِعِينَ مِنَ الذُّلِّ يَنْظُرُونَ مِنْ طَرْفٍ خَفِيٍّ﴾ سيعرض الله تعالىٰ الكفار وأهل المعاصي علىٰ جهنم حتىٰ يعاينوها من قرب، وهنالك سيظهر عليهم الذل والهوان والانكسار الشديد، ومن شدة خوفهم وهلعهم لا يستطيعون أن يمعنوا النظر فيها، بل إنما ينظرون بطرف أعينهم.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا إِنَّ الظَّالِمِينَ فِي عَذَابٍ مُقِيمٍ﴿٤٥﴾﴾ فكل خسارة يستطيع المرء أن يتعوضها إلا خسارة الآخرة، فكل خسارة أمامها لا تسمىٰ خسارة، فهم في جهنم في العذاب الدائم الذي لا ينقطع ولا يزول.

﴿وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ أَوْلِيَاءَ يَنْصُرُونَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ ولن يجدوا من يدفع عنهم ذلك العذاب، أو ينتصر لهم من الله سبحانه وتعالىٰ، وقد ضلت عنهم الآلهة التي كانوا يستشفعون بها ويتقربون بها إلىٰ الله تعالىٰ.

﴿وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ سَبِيلٍ﴿٤٦﴾﴾ فمن كان من أهل عذاب الله تعالىٰ فلا مخرج له أو سبيل إلىٰ السلامة من ذلك العذاب أبداً.

﴿اسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ مَا لَكُمْ مِنْ مَلْجَأٍ يَوْمَئِذٍ﴾ ثم أمر الله سبحانه وتعالىٰ عباده أن يطيعوه وينقادوا له ويمتثلوا

أوامره ويتجنبوا نواهيه ما دام العمل ينفع، وما دامت التوبة مقبولة، فإذا حلت القيامة وحانت ساعتها فقد انقطع الامل، وأغلقت أبواب التوبة، ولم يبق إلا ما قد عملوا وقدموا، ولن يجدوا لهم حينها ملجأً أو مكاناً يفرون إليه من الله تعالى.

﴿وَمَا لَكُمْ مِنْ نَكِيرٍ ﴿٤٧﴾﴾ ولن تجدوا من يستنكر لتعذيبكم، أو ينفعكم، أو يدفع عنكم، أو ينتصر لكم.

﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾ ثم خاطب الله تعالى نبيه ﷺ بأن المشركين إن أعرضوا ورفضوا الاستجابة له وتمردوا عليه فليتركهم وشأنهم، وسيتولى الله سبحانه وتعالى أمرهم، وأما أنت يا محمد فقد بلغت وأديت ما عليك من التكليف، وأمر حسابهم وتعذيبهم فهو على الله سبحانه وتعالى.

﴿إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ﴾ فما عليك إلا تبليغهم استجابوا أم لم يستجيبوا.

﴿وَإِنَّا إِذَا أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا﴾ فطبيعة الإنسان أن الله سبحانه وتعالى إذا أنعم عليه بنعمة فإنه يصيبه الفرح والبطر والعجب، فلا يتذكر نعمة الله سبحانه وتعالى عليه أو يشكره على ما أعطاه، هذا بالنسبة للإنسان الكافر وأما المؤمن فإن إيمانه يردعه عن الفرح والبطر والعجب ويدفعه إلى شكر الله وطاعته.

﴿وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ الْإِنْسَانَ كَفُورٌ ﴿٤٨﴾﴾ وإذا حلت به مصيبة أو شدة من جدب أو قحط أو مرض أو موت أو نحو ذلك فإنه يصاب باليأس والقنوط من رحمة الله سبحانه وتعالى، وينقطع أمله في الله تعالى، بخلاف الإنسان المؤمن فإنك تراه مليئاً بالأمل في الله تعالى راضياً عن ربه، ولا يزال واثقاً بما عند الله سبحانه وتعالى من أنه إن منعه في الدنيا أو ابتلاه فإنه سيعوضه في الآخرة خيراً مما أخذ منه، ويكون في طمأنينة دائمة، سواء أصابه خير أم شر.

﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيمًا إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾﴾ الله وحده المسيطر على أمر السماوات والأرض، والمتصرف في

تدبير شئونهما، وهو الذي بيده أن يختار في خلقه ما أراد، فيعطي من يشاء الأولاد الذكور، وبعضهم الإناث، وبعضهم الذكور والإناث، ويجعل بعضهم عقيماً لا يولد له ولد، وكل ما يعطيه الله تعالى فإنما هو على ما قضت به الحكمة والمصلحة، وكل ما يهب من الذرية ويوزعها بين عباده مع منع بعضهم من الإنجاب فإنما هو لحكمة ومصلحة قد علمها لعباده، فينبغي أن يرضى كل امرئ بما قسم الله سبحانه وتعالى له، فلا يعترض على حكمة الله تعالى وعلى أفعاله في خلقه.

﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ﴾ وما ينبغي لبشر أن يكلمه الله تعالى مشافهة ومواجهة؛ لأنه سبحانه وتعالى ليس من جنس المخلوقات، فلا يكلم أحداً إلا عن طريق الوحي، أو بخلق الكلام في مكان يسمعه المخاطب من ذلك المكان، كما كان من تكليم الله تعالى لموسى عليه السلام من خلال الشجرة، أو يكلم الله سبحانه وتعالى عباده من خلال إرساله رسولاً إليهم يبلغهم عنه، كما هو شأن جبريل في نزوله بالوحي على الأنبياء.

﴿إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ(٥١)﴾ ثم ذكر الله سبحانه وتعالى السبب في عدم إمكان مشافهة خلقه أو مواجهتهم بالكلام وذلك أنه تعالى عن صفات المخلوقين ومشابهتهم.

﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا﴾ كان تكليم الله تعالى لنبيه محمد صلى الله عليه وآله وسلم بإرساله جبريل عليه السلام بالقرآن الذي هو كلامه لتبليغه كلام الله سبحانه وتعالى، وقد سماه الله سبحانه وتعالى روحاً لما فيه من إحياء القلوب بالنور والهدى.

﴿مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾ أوحى الله تعالى إليه بالقرآن وكان قبل ذلك غائلاً عن علم الشرائع السماوية، ولم يكن تعلم شيئاً من قبل حتى علمه الله سبحانه وتعالى، وقد جعل الله سبحانه وتعالى القرآن نوراً يهتدي به المؤمنون المتواضعون للحق، والمستسلمون لله تعالى المنقادون له.

﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ۝٥٢ صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ۝٥٣﴾ هذه شهادة من الله سبحانه وتعالىٰ لنبيه ﷺ أمام قومه بأنه إنما يدعوهم إلىٰ الحق والهدىٰ، وإلىٰ الدين القويم الذي هو دين الله سبحانه وتعالىٰ.

ثم أخبر الله سبحانه وتعالىٰ أن مرجع الناس جميعاً سيكون إليه يوم القيامة المطيعين منهم والعاصين، ثم سيحاسبهم جميعاً وينزل كل واحد منهم في المنزلة التي استحقها حسب عمله إن خيراً فخير وإن شراً فشر.

❁❁❁❁❁

سورة الزخرف

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿حم۝١ وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ۝٢﴾ أقسم الله سبحانه وتعالىٰ بالقرآن الذي هو الكتاب المبين، الواضحة حججه وبيناته، وأقسم بالقرآن ليلفت انتباه المشركين إلىٰ الاستماع والإنصات لآياته؛ لعلمهم أن المقسم لا يقسم إلا بشيء له شأن عظيم.

﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ۝٣﴾ هذا هو المقسم عليه، وهو أنه تعالىٰ قد أنزله قرآناً عربياً ليفهموا آياته ويعقلوها ويتدبروا فيها.

﴿وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ۝٤﴾ وأقسم لهم أيضاً بأن هذا الكتاب الذي أنزله عليهم محفوظ عنده في اللوح المحفوظ ليس للشياطين إليه سبيل.

و﴿أُمِّ الْكِتَابِ﴾ هو المكان الذي أعده الله سبحانه وتعالىٰ لحفظ كتبه من التوراة والإنجيل والقرآن، وغير ذلك من الكتب، ليبين أن للقرآن منزلة عظيمة ومكانة رفيعة عنده تعالىٰ.

﴿أَفَنَضْرِبُ عَنْكُمُ الذِّكْرَ صَفْحًا أَنْ كُنْتُمْ قَوْمًا مُسْرِفِينَ۝٥﴾ أتظنون أيها المشركون أنا سوف نترك إنزال الوحي عليكم ما دمتم علىٰ حالتكم هذه من الإسراف والإعراض وعدم الانتفاع به، فلا بد أن نبلغكم وننذركم لئلا يأتي يوم

القيامة فتعتذرون أمام الله سبحانه وتعالىٰ بأنه ما جاءكم من بشير ولا نذير؟ فاعلموا أنا لن نهملكم أو نترك تبليغكم حجج الله سبحانه وتعالىٰ لتتم عليكم الحجة، ولئلا تقولوا يوم القيامة ما جاءنا من بشير ولا نذير.

﴿وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِنْ نَبِيٍّ فِي الْأَوَّلِينَ۝٦﴾ فكم من الأنبياء الكثيرين الذين أرسلهم الله سبحانه وتعالىٰ إلىٰ تلك الأمم التي قبلكم.

﴿وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ۝٧﴾ وكانت كل أمة من تلك الأمم السابقة إذا أرسل الله سبحانه وتعالىٰ إليهم نبياً فإنهم يكذبون به، ويعرضون عنه، ويستهزئون به؛ فشأنهم كشأن قومك يا محمد في التكذيب والاستهزاء والتمرد.

﴿فَأَهْلَكْنَا أَشَدَّ مِنْهُمْ بَطْشًا وَمَضَى مَثَلُ الْأَوَّلِينَ۝٨﴾ فكان الله سبحانه وتعالىٰ يهلك المتمردين الواقفين في وجه دعوة أنبيائهم والصادين عنهم، وينتقم منهم ويعذبهم جزاءً علىٰ كفرهم وتكذيبهم، وفي ذلك دلالة علىٰ أنه قد يترك الذين لا حول لهم ولا قوة في ذلك من الأتباع، وقد مضت سنة الله تعالىٰ تلك في الأولين.

وأخبر قومك يا محمد بأنه سوف يحل بهم مثل ما حل بتلك الأمم إن هم استمروا علىٰ تكذيبهم وتمردهم واستهزائهم، وأن سنة الله تعالىٰ واحدة في عباده الأولين والآخرين لن تتغير أو تتبدل.

﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ۝٩﴾ يطلع الله سبحانه وتعالىٰ نبيه ﷺ علىٰ مدىٰ استكبار قومه وإعراضهم عن الحق والهدىٰ بعد أن عرفوه، فهم مقرون بخالق السماوات والأرض الذي هو الله رب العالمين، ثم بعد إقرارهم واعترافهم يعودون إلىٰ عبادة آلهتهم وأصنامهم.

﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ۝١٠﴾ وهو الذي مهد الأرض وهيأها لاستقرار الناس علىٰ ظهرها،

وسلك لهم فيها السبل والطرق التي يستطيعون من خلالها التنقل لاكتساب معايشهم والسعي وراء أرزاقهم، وذلك بما جعل فيها من الجبال والشعوب والوديان التي يجعلونها علامات لهم لتحديد النواحي والجهات والاهتداء إلى الأماكن المقصودة لهم؛ فلو كانت الأرض كلها صحراء لما اهتدوا إلى طرق أسفارهم، ولتاهوا في الأرض وضاعوا فيها.

﴿وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ﴾ وهو الذي أنزل لكم الأمطار من السماء على قدر حاجتكم، فلو أنه زاد أو نقص لاختل توازن الحياة ولتلفت الكائنات.

﴿فَأَنْشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا كَذَلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿١١﴾﴾ فيحيي الله تعالى بذلك المطر الأرض الميتة التي قد يبست وتفتت نباتها وتطاير، فتكتسي بالخضرة، وتحيا من جديد، فكما يحيي الله سبحانه وتعالى تلك الأرض الميتة فكذلك يحيي العظام التي قد يبست وتفتتت.

يريد الله سبحانه وتعالى بذلك أن ينبه المشركين ويبعثهم على الاعتراف بحقيقة ما ينكرونه ويستبعدونه من البعث بعد الموت، فلا يكون لهم أي سبيل إلى إنكار ذلك أو استبعاده بعد استيضاحهم للدليل.

﴿وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا﴾ وهو وحده الذي خلق جميع أصناف المخلوقات بقدرته وعلمه، وعلى وفق ما تدعوا إليه الحكمة والمصلحة.

﴿وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ ﴿١٢﴾ لِتَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ ﴿١٣﴾ وَإِنَّا إِلَى رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ ﴿١٤﴾﴾ وهو وحده الذي سخر لكم السفن والأنعام لتركبوا على ظهورها، وتحملوا أمتعتكم وأثقالكم، وتسافروا عليها من بلد إلى بلد.

يذكرهم الله سبحانه وتعالى بذلك ليتذكروا نعمته سبحانه وتعالى عليهم، ويؤدوا حق شكرها بأداء ما افترض عليهم، ويسبحوا الله تعالى وينزهوه

ويقدسوه عن اتخاذ الشركاء والأولاد، ويعلموا أنه وحده الذي أنعم عليهم بكل هذه النعم، ويعترفوا بأن له الفضل وحده في ذلك، وأنه لولا تسخيرها لهم وتذليلها لما تسنى لهم أن يركبوا عليها، وليعترفوا له بأن منقلبهم ومرجعهم إليه وأنه سيحاسبهم وسيسألهم عن كيفية مقابلتهم لنعمه فيهم؛ وأيضاً يرشد الله سبحانه وتعالى عباده في هذه الآية إلى أنه ينبغي لمن أراد الركوب على هذه الأنعام أن يدعوه بهذا الدعاء وهو: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ۝ وَإِنَّا إِلَى رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ۝﴾ [الزخرف].

﴿وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ مُبِينٌ۝﴾ وهؤلاء هم مشركو مكة أخبر الله سبحانه وتعالى عنهم بأنهم نسبوا إليه وأشركوا بعضاً من خلقه في صفاته، فنسبوا الملائكة إليه وقالوا إنها بنات الله تعالى عن ذلك علواً كبيراً، فقد كفروا بهذا القول أشد الكفر وأبلغه.

﴿أَمِ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَاكُمْ بِالْبَنِينَ۝﴾ يستنكر الله سبحانه وتعالى عليهم مقالتهم هذه الشنعاء فكيف ينزهون أنفسهم عن البنات ثم ينسبونها إليه تعالى؟ وكيف تبلغ بهم الجرأة إلى أن يحطوا الله تعالى إلى أدنى المراتب ويجعلوه أبخس حظاً منهم؟

وقد كانوا إذا ولد لأحدهم البنت يسود وجهه من الغيظ، ويصيبه الخجل الشديد من قومه، ويخاف من الفضيحة والعار مما يجعله يدفنها حية، فلماذا تأنفون أيها المشركون من ذلك ثم تنسبونه إلى الله؟ تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.

﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ۝﴾ خوفاً من الفضيحة والعار والخزي الذي سيلحقه إن عرف قومه بذلك هماً وضيقاً من سوء ما ولد له، فلماذا لا يستحيون من الله تعالى وينزهونه مما ينزهون منه أنفسهم؟

﴿أَوَمَنْ يُنَشَّأُ فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ۝١٨﴾ يستنكر الله سبحانه وتعالىٰ عليهم كيف يجعلون له من يربىٰ في لباس الحلية والزينة -أراد بهم البنات- الذين لا يستطيعون الإفصاح عن حججهم بالجدال والنقاش؛ لما جبلوا عليه من العي وعدم الإفصاح بالحجة.

﴿وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثًا أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ﴾ كان المشركون يدعون أن الملائكة إناث افتراءً وزوراً، وقد استنكر الله سبحانه وتعالىٰ عليهم تلك النسبة وذلك الافتراء، فهل كانوا حاضرين عندما خلقهم الله سبحانه وتعالىٰ وأوجدهم حتىٰ يقولوا فيهم هذا القول؟

﴿سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ۝١٩﴾ فمقولتهم هذه قد سجلت في صحائف أعمالهم، وسيحاسبهم الله عليها.

﴿وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ﴾ وزعموا أن الله سبحانه وتعالىٰ هو الذي أمرهم بعبادة الملائكة، وأن الله تعالىٰ لو شاء أن يمنعهم لمنعهم، فلما لم يمنعهم دل ذلك علىٰ أنه مريد لعبادتهم لهم.

﴿مَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ۝٢٠﴾ فلا دليل لهم أو حجة أو برهان علىٰ صحة دعواهم وعبادتهم للملائكة، لا من كتاب، ولا من نبي قد أرسل إليهم، وإنما تقوَّلوا ذلك افتراءً وكذباً من عند أنفسهم.

﴿أَمْ ءَاتَيْنَاهُمْ كِتَابًا مِنْ قَبْلِهِ فَهُمْ بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ۝٢١﴾ فهل أنزل الله سبحانه وتعالىٰ عليهم كتاباً يأمرهم بما يدعون حتىٰ يصروا هذا الإصرار علىٰ شركهم وباطلهم وادعاءاتهم هذه.

﴿بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا ءَابَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى ءَاثَارِهِمْ مُهْتَدُونَ۝٢٢﴾ فلا كتاب أنزل عليهم، ولا نبي أرسل إليهم، وإنما قالوا ذلك تعصباً لدين آبائهم ولما ألفوه من عاداتهم.

﴿وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا ءَابَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى ءَاثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ۝٢٣﴾ كان المكذبون بالأنبياء السابقين جميعاً يقولون مثل قول قومك يا محمد، وكانوا يتمردون على أنبيائهم، ويتعصبون لدين آبائهم وأجدادهم عن غير دليل أو حجة أو برهان.

﴿قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكُمْ بِأَهْدَى مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ ءَابَاءَكُمْ﴾ يخاطب النبيُ ﷺ قومَه ويستنكر عليهم إصرارهم على دين آبائهم على الرغم من أنه قد جاءهم بأفضل وأحسن وأهدى من دينهم ودين آبائهم.

﴿قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ۝٢٤﴾ فكان هذا هو جواب كل المكذبين بأنبيائهم من الأولين والآخرين، فكانوا يصرون على كفرهم تمرداً واستكباراً مع معرفتهم بصدق ما جاءوا به، وأن ما جاءوا به هو الحق والهدى.

﴿فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ۝٢٥﴾ فكان عاقبة تكذيبهم أن دمرهم الله سبحانه وتعالى وعذبهم واستأصلهم، فانظروا أيها الناس واعتبروا بعاقبة تلك الأمم كيف كانت عندما كذبوا بأنبيائهم وتمردوا عليهم.

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ۝٢٦ إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ۝٢٧﴾ ثم أوحى الله سبحانه وتعالى إلى نبيه ﷺ بما كان من إبراهيم عليه السلام مع قومه، لما في ذلك من العظات والعبر، وذلك أن إبراهيم عليه السلام قد وقف وحيداً في وجه أهله وقومه وآلهتهم، وأعلن بينهم كفره بدينهم وآلهتهم معتمداً على الله سبحانه وتعالى، ومتوكلاً عليه، غير مبال بهم ولا بجبروتهم، وأعلن أنه مؤمن بإله واحد هو الله سبحانه وتعالى الذي خلقه وخلق كل شيء؛ لأنه الذي خلقه ويدله على طريق الخير والهدى والسعادة.

﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ۝٢٨﴾ وقد أوصى إبراهيم ذريته من بعده، فأوصى إسحاق وإسماعيل ويعقوب بالتوحيد وإخلاص العبادة لله سبحانه وتعالى وحده لا شريك له، وكان كل نبي من ذريته يوصي من بعده بهذه الوصية، وقد جعل الله سبحانه وتعالى الأنبياء من عقبه.

﴿بَلْ مَتَّعْتُ هَؤُلَاءِ وَءَابَاءَهُمْ حَتَّى جَاءَهُمُ الْحَقُّ وَرَسُولٌ مُبِينٌ ۝٢٩﴾ ثم أخبر الله سبحانه وتعالى نبيه ﷺ بأنه قد متع المشركين من قومه وآباءهم من قبلهم، ولم يؤاخذهم ويعذبهم بذنوبهم، مع أنهم قد استحقوا نزول العذاب بهم، فتركهم يتمتعون في غيهم وشركهم وباطلهم، وتأنى بهم إلى أن أرسله إليهم ليرشدهم ويبين لهم طرق نجاتهم وهداهم، وهذا من رحمته بهم وشفقته عليهم.

﴿وَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ كَافِرُونَ ۝٣٠﴾ فلما أرسل الله سبحانه وتعالى إليهم نبيه ﷺ كفروا به وكذبوا به وتمردوا عليه.

﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْءَانُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ۝٣١﴾ وعندما أرسل الله سبحانه وتعالى إليهم محمداً ﷺ استهزءوا به واحتقروه ليتمه وفقره، وزعموا أن الله سبحانه وتعالى لو أراد أن يرسل رسولاً لاختار رجلاً لنبوته من كبار القوم وزعمائهم كالوليد بن المغيرة من قريش، أو رجلاً من كبار ثقيف وزعمائهم، وأرادوا بالقريتين مكة والطائف.

﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَةَ رَبِّكَ﴾ يوبخهم الله سبحانه وتعالى على اقتراحهم عليه، وعدم رضاهم بمن اختار من عنده؟

فالله سبحانه وتعالى وحده هو الذي يصطفي ويختار ما يشاء ومن يشاء، ما كان لهم الخيرة.

﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ﴾ فهو وحده الذي يتولى قسمة الأرزاق وتوزيعها على عباده كيفما شاء، وهو الذي يرفع من يشاء من عباده، ويضع من يشاء منهم.

﴿لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا﴾ ثم بين الله سبحانه وتعالى السبب في تفضيله لبعض الخلق على بعض في زينة الحياة الدنيا ومتاعها فقال: لتستقيم الحياة وتستمر المعيشة، فإذا خدم بعضهم بعضاً أو عمل معه استقامت الحياة وحصلت الموازنة في المعيشة؛ فلو كان الخلق جميعاً في مرتبة واحدة في الغنى والثراء، وعلى حالة واحدة

في أسباب المعيشة لما عمرت الأرض لاستغناء الناس عن العمل مع بعضهم البعض، ولكن الله تعالىٰ لعلمه وحكمته فاوت بين البشر في الغنىٰ والفقر، وجعل الفقراء أكثر ليضطروا إلىٰ العمل بالأجرة في البناء والعمران والزراعة والصناعة والتجارة والسفر والخدمة والعسكرة، وبسبب الحاجة والفقر شغل ذوو العقول عقولهم لاختراع الآلات والوسائل النافعة في الحياة الدنيا.

﴿وَرَحْمَةُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴿٣٢﴾﴾ ثم أخبر الله نبيه ﷺ بعد ذلك أن ما أعطاه من الحكمة والنبوة خير له مما عليه قومه من الثراء والجاه وسعة الأموال.

أراد الله سبحانه وتعالىٰ من نبيه ﷺ أن لا يكبر في عينه ما هم فيه أو يستعظم ذلك في نفسه، وكذلك ليعلم المؤمنون معه أن ما هم فيه من الإيمان والتقوىٰ ومعرفة القرآن خير لهم وأفضل مما يجمعه أولئك المشركون.

﴿وَلَوْلَا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِنْ فَضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ﴿٣٣﴾ وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَابًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِئُونَ﴿٣٤﴾ وَزُخْرُفًا وَإِنْ كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ يبين الله سبحانه وتعالىٰ لعباده حقارة الدنيا وأنها لا تساوي شيئاً عنده، وأنه لولا حدوث الفتنة بين المسلمين لأوسع رزقه علىٰ الكفار ومكنهم من جمع الأموال الطائلة حتىٰ يبنوا بيوتهم بالذهب والفضة، ويسقفوها بالذهب والفضة، ولكن حكمته اقتضت أن لا يمكنهم كل ذلك التمكين، وأن يمسكها عنهم بعض الإمساك، لما في ذلك من دفع المفسدة علىٰ المؤمنين والفتنة في دينهم بالذهب والفضة فهي لا تساوي عنده شيئاً.

﴿وَالْآخِرَةُ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ﴿٣٥﴾﴾ وأما الآخرة ونعيمها فهي لعباده الذين يخافونه ويتقون عذابه وسخطه.

﴿وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ﴿٣٦﴾﴾ من يعرض عن ذكر الله سبحانه وتعالىٰ ويسد أذنيه عن سماع آياته وحججه وبيناته فإن الله سبحانه وتعالىٰ سيخلي بينه وبين الشياطين فتضله وتغويه وترمي به في أودية الهلاك.

﴿وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ﴾ أخبر الله سبحانه وتعالى عن الشياطين بأنهم يسعون جهدهم في إغواء الناس وإضلالهم عن طريق الهدى، ويلبسون عليهم حتى يظنوا أنهم في خير العمل وعلى طريق الحق والهدى.

﴿حَتَّى إِذَا جَاءَنَا قَالَ يَالَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ﴾ عندما يبعث الله سبحانه وتعالى يوم القيامة التابع والمتبوع، فعندها سيتمنى التابع حين يرى قرينه أنه لم يعرفه في الدنيا، ولا كان له معه أي صلة أو صحبة، وسيأخذ في سبه وشتمه بسبب إضلاله له وتسببه في إغوائه.

﴿وَلَنْ يَنْفَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذْ ظَلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ۝ أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ أَوْ تَهْدِي الْعُمْيَ وَمَنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ شبه الله سبحانه وتعالى قريشاً بالصم والعمي الذين لا يسمعون ولا يبصرون شيئاً، فكيف يستطيع الرسول ﷺ أن يهدي الأعمى والأصم؟ ومهما حاول أن يسمعهم الهدى فلن يسمعوا، يريد الله سبحانه وتعالى بذلك أن يقنع نبيه أنه مهما حاول فيهم فلن يستطيع أن يؤثر فيهم أو يدخل الهدى إلى قلوبهم فلا يتعب نفسه في ملاحقتهم ليسمعوا الهدى أو يبصروا طريق الرشد.

﴿فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُمْ مُنْتَقِمُونَ ۝ أَوْ نُرِيَنَّكَ الَّذِي وَعَدْنَاهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِمْ مُقْتَدِرُونَ﴾ ثم أخبر الله سبحانه وتعالى نبيه ﷺ بأنه إذا توفاه إليه قبل أن يرى انتقام الله تعالى من قومه فإنه سينتقم منهم ولو بعد موته؛ لأنهم قد استوجبوا سخط الله تعالى وغضبه ونقمته، وأنه إن حان موعد تعذيبهم وأنت يا محمد على قيد الحياة فسوف ترى نزول العذاب بهم لا محالة.

﴿فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ فأحكم قبضتك يا محمد بدينك الذي أوحيناه إليك، وابق على ما أنت عليه من الدين والتوحيد والدعوة إلى الله تعالى، ولا تفتر عزيمتك في تبليغ رسالة ربك أو

تتحطم معنوياتك بسبب ما ترىٰ منهم من التكذيب والاستهزاء وعدم الاستجابة، فأنت علىٰ الحق والهدىٰ حتىٰ ولو لم يتبعك أحد، وعسىٰ أن يهتدي بهداك غيرهم.

﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ﴿٤٤﴾﴾ ثم أخبر الله سبحانه وتعالىٰ نبيه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ بأن هذا القرآن الذي أوحىٰ به إليه رفعة وشرف له ولقومه، وسوف يسأل الله سبحانه وتعالىٰ قومه عن نعمة القرآن التي جعلها الله تعالىٰ سبباً لشرف الدنيا والآخرة وعز الدنيا والآخرة لمن آمن وعمل صالحاً، وسوف يحاسب الله المشركين بسبب مقابلتهم لنعمة رسالة الله تعالىٰ بالكفران.

﴿وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ﴿٤٥﴾﴾ ثم أخبر الله سبحانه وتعالىٰ أن دين الشرك الذي يفتريه المشركون، التشريعات التي يبتدعونها لم يأت بها نبي من الأنبياء، وإنما افتروها من عند أنفسهم وعبدوها من تلقاء أنفسهم.

وقد أمر الله سبحانه وتعالىٰ نبيه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ في هذه الآية أن يسأل أهل الكتاب وأهل العلم برسالات السماء عن ذلك، والمراد تنبيه المشركين علىٰ سؤال أهل العلم من اليهود والنصارىٰ عن دين الشرك وعبادة الأصنام.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَقَالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴿٤٦﴾ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِآيَاتِنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَضْحَكُونَ﴿٤٧﴾﴾ ثم أوحىٰ الله سبحانه وتعالىٰ إلىٰ نبيه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ قصة موسىٰ عندما أرسله إلىٰ فرعون وقومه، وكيف واجهوا دعوته بالرفض والتكذيب والاستهزاء؛ أراد الله سبحانه وتعالىٰ بذلك أن يسلي نبيه محمداً صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ عما أصابه من الحزن والأسىٰ من تكذيب قومه واستهزائهم به، فإنه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ سيتسلىٰ إذا علم أن نبي الله موسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ لقي مثل ما لقي.

﴿وَمَا نُرِيهِمْ مِنْ ءَايَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا﴾ وقد أيده الله سبحانه وتعالىٰ بالآيات والمعجزات الواضحة والبينة التي تدل علىٰ صدق نبوته وأنه رسول

من عند الله تعالىٰ، آية بعد آية ومعجزة بعد معجزة، ولكنهم كانوا كلما جاءهم بآية كذبوا واستهزئوا بها وردوها استكباراً علىٰ الله تعالىٰ وتمرداً عليه.

﴿وَأَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴿٤٨﴾﴾ فكان الله تعالىٰ يعذبهم في الدنيا بالبلاء والقحط والشدة، فتارة يرسل عليهم الجراد وتارة القمل وتارة الضفادع وتارة الدم وتارة الطوفان فأفاض عليهم نهر النيل حتىٰ جرف مزارعهم ودمرها، وكل ذلك لعلهم ينتبهون من غفلتهم، ويرجعون إليه ويقلعون عما هم فيه من الكفر والتكبر علىٰ الله تعالىٰ.

﴿وَقَالُوا يَاأَيُّهَا السَّاحِرُ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ﴿٤٩﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ﴿٥٠﴾﴾ ولكنهم وعلىٰ الرغم مما نزل بهم من الآيات، ومع علمهم بأن ما نزل بهم إنما هو بسبب كفرهم وتكذيبهم ما زالوا مصرين علىٰ كفرهم وعنادهم وباطلهم، فكانوا يطلبون من موسىٰ عليه السلام وينادونه بالساحر أن يتوسل لهم عند الله سبحانه وتعالىٰ بأن يرفع عنهم ما هم فيه من البلاء والشدة، ويعدونه أنه إن فعل ذلك فسيؤمنون له ويتبعونه، فكان موسىٰ عليه السلام يستجيب لهم ويأمل أن يكون في ذلك صلاحهم فيتوسل إلىٰ الله سبحانه وتعالىٰ، فيرفع الله عنهم العذاب، ولكنهم يبادرون إلىٰ الكفر والتكذيب بعدما يرفع عنهم العذاب ناكثين ما عاهدوا الله عليه.

﴿وَنَادَى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَاقَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴿٥١﴾ أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴿٥٢﴾﴾ كان فرعون قد خاف علىٰ ملكه أن ينتزعه موسىٰ من بين يديه، فعزم علىٰ جمع قومه ونادىٰ فيهم: بأن ينظروا إلىٰ قوته وبسط نفوذه علىٰ أرض مصر، وسيطرته علىٰ جميع أرجائها، ثم يسألهم: من هو الأفضل والأجدر بالملك هل موسىٰ ذلك الرجل الوضيع الذي لا يملك أي شيء، وليس بيده شيء؟ أم هو الذي يملك كل شيء؟ وأخبرهم أن الأولىٰ بهم أن يختاروا لهم الأقوىٰ والأقدر.

﴿وَلَا يَكَادُ يُبِينُ۝٥٢﴾ يريد أن موسى عليه السلام تتتابه حبسة في لسانه عند الكلام.

﴿فَلَوْلَا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِنْ ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ۝٥٣﴾ ولا زال يلبس عليهم ويلعب على عقولهم، فزعم أنه لو كان صادقاً كما يزعم لما كان لباسه الرث والبالي من الثياب، ولكان يتحلى بالذهب والمجوهرات، ويلبس الغالي والنفيس من الثياب، ولكانت الملائكة ترافقه وتسير معه أينما سار.

﴿فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ۝٥٤﴾ فكان يستغفلهم بكلامه هذا ويغرر عليهم حتى أقبلوا على طاعته، ومالوا عن موسى مع علمهم بصدقه ونبوته.

﴿فَلَمَّا ءَاسَفُونَا انْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ۝٥٥ فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِلْآخِرِينَ۝٥٦﴾ ثم إن الله سبحانه وتعالى عذبهم بالغرق جزاءً على كفرهم بموسى عليه السلام وتمردهم عليه، وأهلكهم جميعاً، وجعلهم عبرة للمعتبرين من بعدهم.

﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ۝٥٧ وَقَالُوا أَآلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ۝٥٨﴾ توعد الله المشركين بجهنم هم ومعبوداتهم، ثم إن المشركين أقبلوا مجادلين للنبي صلى الله عليه وآله وسلم إنك تحكم على عيسى بدخول النار هو وعبدته يحتجون بذلك على بطلان دعوى الرسالة لأن دخول عيسى عليه السلام النار باطل، وهم بذلك إنما يجادلون النبي صلى الله عليه وآله وسلم على طريق الخصام والتعنت والسخرية، وإلا فهم في الحقيقة قد عرفوا الحق، وعرفوا أن الله سبحانه وتعالى لم يقصد عيسى في تلك الآية التي توعدهم فيها وهي قوله: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ۝٩٨﴾ [الأنبياء].

﴿إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ۝٥٩﴾ ثم رد الله سبحانه وتعالى على المشركين بأن عيسى عليه السلام ليس إلا عبداً مملوكاً لله تعالى قد أنعم عليه بالنبوة وجعله عبرة وآية لبني إسرائيل.

﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنْكُمْ مَلَائِكَةً فِي الْأَرْضِ يَخْلُفُونَ۝٦٠﴾ وأخبرهم الله سبحانه وتعالىٰ بأنه لو شاء أن يهلكهم لأهلكهم وأبادهم، واستخلف مكانهم ملائكة يوحدونه ويعبدونه.

﴿وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَاتَّبِعُونِ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ۝٦١﴾ ثم أخبرهم الله سبحانه وتعالىٰ أنه جعل عيسىٰ عليه السلام علماً من علامات الساعة وتحقق قيامها.

وقد فسرت هذه الآية بعدة تفاسير وأصحها عندي: أن عيسىٰ عليه السلام كان يحيي الموتىٰ بعد أن صارت عظاماً وتراباً بإذن الله، آية من الله سبحانه وتعالىٰ أيده بها، وليتيقنوا صحة القيامة وتحقق وقوعها، فقد رأىٰ الناس بأعينهم إحياء الله تعالىٰ الموتىٰ علىٰ يد نبيه عيسىٰ عليه السلام، وما داموا قد شاهدوا ذلك بأعينهم وتواترت للناس جميعاً من بعد حتىٰ صاروا يعرفونها جميعاً، وحتىٰ وصلت إلىٰ من بعدهم من الأجيال إلىٰ أن وصل علمها إلىٰ المشركين في عهد النبي صلى الله عليه وآله وسلم.

﴿وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ الشَّيْطَانُ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ۝٦٢﴾ واتركوا الركض وراء إبليس؛ لأنه إنما يجركم إلىٰ ما فيه هلاككم، فلا تغتروا بما يزينه لكم من عبادته واتباعه.

﴿وَلَمَّا جَاءَ عِيسَى بِالْبَيِّنَاتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ۝٦٣ إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ۝٦٤﴾ عندما أراهم عيسىٰ عليه السلام المعجزات التي أيده الله سبحانه وتعالىٰ بها دعاهم إلىٰ الله تعالىٰ وإلىٰ طاعته، وأخبرهم أن الله تعالىٰ أرسله إليهم أيضاً ليبين ويوضح لهم الدين الحق الذي اختلفوا فيه حتىٰ أصبحت كل فرقة تدعي أنها هي التي علىٰ الحق والهدىٰ، وأخبرهم أنه ليس إلا عبداً مربوباً ومملوكاً لله تعالىٰ، ودعاهم إلىٰ عبادة الله سبحانه وتعالىٰ وحده لا شريك له.

﴿فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ۝٦٥﴾ ثم إن بني إسرائيل اختلفوا بعد ذلك إلىٰ فرق ثلاث فناس منهم كفروا بعيسىٰ

وكذبوا به، وناس منهم قالوا عنه بأنه رب وعبدوه، وناس منهم آمنوا به واتبعوه، ثم تهدد الله سبحانه وتعالى الذين كفروا به والذين غلوا فيه حتى جعلوه إلهاً بالعذاب الشديد في نار جهنم.

﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴿٦٦﴾﴾ ليس بينهم وبين حلول الساعة إلا فترة معدودة، وسيتفاجئون بها؛ لأنها ستباغتهم عن غير انتظار منهم.

﴿الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴿٦٧﴾﴾ وذلك يوم مبعثهم سيصبح أولئك الأصدقاء في الدنيا أعداءً يوم القيامة يتخاصمون ويتبادلون السب والشتائم، إلا المؤمنين المتقين فإنها لا تنقطع مودتهم وصداقتهم يوم القيامة.

﴿يَاعِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ﴿٦٨﴾ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ﴿٦٩﴾ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنْتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ﴿٧٠﴾﴾ الذين هم عباد الله حقاً، ويستحقون أن يكونوا عباداً لله تعالى هم المؤمنون الذين آمنوا بآيات الله واستسلموا لله تعالى وانقادوا لما عملوا من الأعمال الصالحة الخالصة لوجه الله سبحانه وتعالى، فهؤلاء هم أهل الأمن يوم القيامة من الأفزاع والأهوال وأهل الكرامة على الله فيدخلهم الله في دار كرامته التي أعدها لهم خالدين فيها.

﴿يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِصِحَافٍ مِنْ ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ وَأَنْتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴿٧١﴾﴾ ثم وصف الله سبحانه وتعالى نعيم الجنة وما فيها من أنواع المأكولات والمشروبات وما فيها من الخدم والحشم الذين يغدون عليهم ويروحون بأصناف المأكولات والمشروبات التي لا يكلون ولا يملون منها أبداً.

﴿وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴿٧٢﴾ لَكُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِنْهَا تَأْكُلُونَ﴿٧٣﴾﴾ يخبرهم الله سبحانه وتعالى أن ما أعطاهم من النعيم في الجنة هو جزاء على أعمالهم الصالحة التي عملوها في الدنيا.

﴿إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ۝٧٤ لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ۝٧٥ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ۝٧٦﴾ بعد أن ذكر الله سبحانه وتعالى حال المؤمنين في الآخرة عقب ذلك بذكر حال المجرمين المتجاوزين لحدود الله تعالى؛ فأخبر أنهم في نار جهنم يعذبون دائماً وأبداً، لا ينقطع عذابهم أو يخفف عنهم؛ وأنهم هم الذين جنوا على أنفسهم وتسببوا في دخولها في عذاب جهنم بما عملوا من المعاصي والسيئات، والله سبحانه وتعالى عدل حكيم لا يعذب أحداً إلا بذنبه.

﴿وَنَادَوْا يَامَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُمْ مَاكِثُونَ۝٧٧﴾ ثم ذكر الله سبحانه وتعالى حالهم في النار وهم يصرخون فيها ويستغيثون ولكن حين لا مغيث ولا صريخ، ومالك هو مَلَكٌ من ملائكة الله جعل الله له سلطان جهنم وهو كبير خزنتها، وحين استغاث به أهل جهنم قال لهم: إنكم ماكثون في عذاب جهنم.

﴿لَقَدْ جِئْنَاكُمْ بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ۝٧٨﴾ فأنتم ماكثون في العذاب بسبب إعراضكم عن الحق والهدى الذي جاءت به أنبياؤكم ورسلكم، وتكذيبكم بآيات الله وكفركم بها وصدكم عن سبيل الله.

﴿أَمْ أَبْرَمُوا أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ۝٧٩﴾ يخبر الله سبحانه وتعالى نبيه ﷺ بأن قريشاً إن كانوا قد أبرموا في شأنه أمراً ودبروا له مكيدة فإن كيده فوق كيدهم، وسيبطل ما أبرموا ويرد كيدهم في نحورهم، ويجعل وبال مكرهم عليهم.

﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ بَلَى وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ۝٨٠﴾ أفيظن أولئك المشركون أن الله سبحانه وتعالى لا يسمع ما يتناجون به فيما بينهم، وما يبرمونه ويدبرونه من الحيل والمكائد لرسوله ﷺ ولدينه الذي جاء به وللمؤمنين؟

فليعلموا أنا نسمع نجواهم وأسرارهم وأن لدينا ملائكة يسجلون عليهم كل كلمة تخرج من أفواههم، ولن يستطيعوا أن يغلبوا الله تعالى أو يكيدوا لنبيه أو لدينه.

﴿قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ۝٨١ سُبْحَانَ رَبِّ السَّمَوَاتِ

وَالْأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴿٨٢﴾﴾ ثم أمر الله سبحانه وتعالى نبيه ﷺ أن يخبر المشركين بأنه إن صح أن للرحمن أولاداً كما يزعمون فإنه سيكون أول من يعبدهم ويؤمن بهم، ولكن الله سبحانه وتعالى قد تعالى وتقدس عن اتخاذ الأولاد فهو وحده رب السماوات والأرض وبيده وحده ملكهما وتدبير شؤونهما.

﴿فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ﴿٨٣﴾﴾ فاترك قومك يا محمد في غيهم وضلالهم يرتعون ويلعبون إلى أن يحين ذلك الموعد الذي عينه الله بعلمه لتعذيبهم وإهلاكهم، وحينئذ سيتبين لهم الحق، ويعترفون بصدق ما جاءتهم به رسل الله عليهم السلام.

﴿وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ﴿٨٤﴾﴾ فهو الإله المعبود بحق في السماوات والأرض، وهو وحده الذي تحق له العبودية والإلهية.

﴿وَتَبَارَكَ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴿٨٥﴾﴾ فقد كثرت نعم الله ومنافعه الكريمة على عباده فهو مالك السماوات والأرض ومفاتيح خزائنهما بيده وحده، وهو وحده المختص بعلم قيام الساعة والقيامة، وسيكون مرجع جميع المكلفين من الإنس والجن والملائكة إليه يوم القيامة للحساب والجزاء.

﴿وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴿٨٦﴾﴾ وهذه الأصنام التي تعبدونها من دون الله سبحانه وتعالى وتدعون أنها ستشفع لكم عنده لا تملك لكم شيئاً من الشفاعة، فلا تركنوا إليها أو تغتروا بها، فلا أحد يملك شيئاً من الشفاعة عند الله سبحانه وتعالى يوم القيامة، إلا المقربون لديه من أنبيائه ورسله وملائكته، فهم الذين سيأذن الله سبحانه وتعالى لهم في الشفاعة، ولا يشفعون إلا لمن ارتضى.

﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ﴿٨٧﴾﴾ إنك إذا سألت المشركين: من خلقهم وأوجدهم؟ فيقولون: الله هو الذي خلقهم، إذاً فما هو الذي صرفهم عن عبادته إلى عبادة الأصنام من دونه؟

﴿وَقِيلِهِ يَارَبِّ إِنَّ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ لَا يُؤْمِنُونَ۝٨٨ فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَامٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ۝٨٩﴾ هذه الجملة معطوفة على قوله: ﴿وَعِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾ والمراد: أن عنده علم هذه المقولة متى ستحصل؟ والمقولة هي: ﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ وذلك يوم القيامة، أي: إن الله سبحانه وتعالى عنده وحده علم موعد القيامة.

ثم أمر الله سبحانه وتعالى نبيه ﷺ أن يصفح عن قومه في تكذيبهم له وإلحاقهم به الأذى، وأن لا يؤاخذهم أو يجازيهم، وأن يخبرهم أنه لن يلحقهم منه أي سوء أو مكروه غير السلامة، وأن يترك أمر ذلك إلى الله سبحانه وتعالى فهو الذي سيتولى أمر حسابهم وجزاء تكذيبهم واستهزائهم، وسيعلمون عاقبة أمرهم عندما يحين موعد ذلك بهم.

❁❁❁❁❁

سورة الدخان

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿حم۝١ وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ۝٢﴾ أقسم الله سبحانه وتعالى بالكتاب المبين ليلفت أسماع المشركين وانتباههم إلى هذا الكتاب العظيم الذي أقسم به؛ لأنه لا يقسم إلا بما له شأن عظيم.

﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ۝٣﴾ أقسم الله سبحانه وتعالى إنه أنزل هذا القرآن إلى سماء الدنيا في ليلة القدر؛ لأن سنته تعالى قضت بإنذار الكافرين وتحذيرهم من العذاب العظيم الذي أعده الله تعالى للظالمين في اليوم الآخر لهذا أنزل الله تعالى القرآن الكريم في ليلة القدر وهي ليلة مباركة، ثم أنزله الله تعالى على نبيه المختار محمد ﷺ لينذر الكافرين ويبلغهم حجج الله وآياته وشرائعه وأحكامه.

﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ۝٤﴾ ثم وصف الله سبحانه وتعالىٰ هذه الليلة المباركة بأنه يدبر فيها أمور خلقه علىٰ حسب ما تقتضيه الحكمة.

﴿أَمْرًا مِنْ عِنْدِنَا إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ۝٥ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ۝٦﴾ وكان هذا القرآن مما دبره الله تعالىٰ من الأمور في تلك الليلة المباركة ليلة القدر، وقد اختار الله محمداً ﷺ رسولاً إلىٰ الناس يتلو عليهم القرآن الكريم، وكانت رسالة الله إلىٰ الناس رحمة لهم يستنقذهم بها من الضلال إلىٰ الهدىٰ ومن خزي الدنيا وعذاب الآخرة إلىٰ شرف الدنيا ونعيم الآخرة.

﴿رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ۝٧ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ۝٨﴾ والذي أنزل القرآن هو رب السماوات والأرض وما بينهما لا إله لهم سواه، الذي بيده حياتهم وموتهم فليعبدوه وليخصوه بعبادتهم.

﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ۝٩﴾ ولكنهم أعرضوا عن آيات الله تعالىٰ، ورفضوا الاستماع إليها والالتفات إلىٰ مواعظه وتذكيره لهم، ولا زالوا يشككون في القرآن، ويجادلون في آياته وحججه بالباطل.

﴿فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ۝١٠ يَغْشَى النَّاسَ هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ۝١١﴾ فانتظر يا محمد العذاب الذي سينزله الله بقومك بسبب تكذيبهم، فلا بد أن نعذبهم فقد استحقوا العذاب، وقد ابتلاهم الله سبحانه وتعالىٰ بالجدب والفقر نحواً من سبع سنين، فكانت السماء تمتلئ بالدخان فلا سحاب ولا مطر حتىٰ أصابهم القحط والجوع الشديد حتىٰ أصبحوا يأكلون جيف الكلاب من شدة الجوع.

﴿رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ۝١٢﴾ ولما طالت عليهم مدة الشدة والجوع عاهدوا الله تعالىٰ بأنه إن كشف عنهم ما هم فيه من البلاء والشدة فإنهم سيؤمنون للنبي ﷺ ويصدقونه.

﴿أَنَّى لَهُمُ الذِّكْرَى وَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مُبِينٌ ﴿١٣﴾ ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا مُعَلَّمٌ مَجْنُونٌ ﴿١٤﴾﴾ كيف يتأتى منهم الإيمان بعد أن كفروا برسول الله ﷺ وبما جاء به من الحجج الواضحة المستبينة الدالة على صحة نبوته فعرفوها وتحققوا صدقها ثم كذبوا بها واستكبروا عنها وقالوا إن محمداً مجنون يهذي بهذي المجانين، وقالوا: إنه تعلم ما يقرأه عليهم من بعض أهل العلم.

﴿إِنَّا كَاشِفُوا الْعَذَابِ قَلِيلًا إِنَّكُمْ عَائِدُونَ ﴿١٥﴾ يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَى إِنَّا مُنْتَقِمُونَ ﴿١٦﴾﴾ ولكنه كشف عنهم تلك الشدة مع علمه تعالى بعدم إيمانهم، وعلمه بأنهم سينقضون عهودهم ومواثيقهم، ولكنه سوف ينتقم منهم بعذابه، وقد كان ذلك يوم بدر فقد قتل المسلمون فيه جميع صناديدهم وكبارهم وكانوا سبعين صنديداً.

﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ ﴿١٧﴾﴾ وقبل قومك يا محمد قوم فرعون، فقد أرسل الله سبحانه وتعالى إليهم موسى، ولكنهم كفروا به وتمردوا عليه.

﴿أَنْ أَدُّوا إِلَيَّ عِبَادَ اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٨﴾﴾ ثم أخبر الله سبحانه وتعالى نبيه ﷺ أنه أرسل موسى عليه السلام إلى فرعون ليستنقذ بني إسرائيل من ظلم فرعون.

﴿وَأَنْ لَا تَعْلُوا عَلَى اللَّهِ إِنِّي ءَاتِيكُمْ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ ﴿١٩﴾﴾ وأن يأمرهم بالخضوع والاستسلام لله تعالى وامتثال أوامره، وأخبرهم بأن الله سبحانه وتعالى قد أيده بمعجزة ظاهرة تدل على صدق نبوته، وأنه رسول من عند الله تعالى.

﴿وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَنْ تَرْجُمُونِ ﴿٢٠﴾﴾ وأخبرهم بأنه قد استجار بالله تعالى واستعاذ به ليكفيه شرهم وأذاهم.

﴿وَإِنْ لَمْ تُؤْمِنُوا لِي فَاعْتَزِلُونِ ﴿٢١﴾﴾ وإن لم تؤمنوا بدعوتي وتصدقوني فاتركوني وكفوا شركم وأذاكم عني.

﴿فَدَعَا رَبَّهُ أَنَّ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ مُجْرِمُونَ۝٢٢ فَأَسْرِ بِعِبَادِي لَيْلًا إِنَّكُمْ مُتَّبَعُونَ۝٢٣﴾ عندما رأى موسى منهم ما رأى من التكذيب والتمرد والاستهزاء دعا ربه أن ينتقم منهم؛ لأنهم قد تجاوزوا الحد في الظلم والطغيان والتكبر في الأرض، فاستجاب الله سبحانه وتعالى دعاءه، وأمره بأن يجمع قومه من بني إسرائيل، ثم يخرج بهم ليلاً لئلا يراهم أحد من قوم فرعون فيفتضح أمرهم، وأخبره بأن يسرعوا في المسير؛ لأن فرعون سوف يلحقهم بجيشه.

﴿وَاتْرُكِ الْبَحْرَ رَهْوًا إِنَّهُمْ جُنْدٌ مُغْرَقُونَ۝٢٤﴾ أمر الله تعالى موسى بأن يضرب البحر بعصاه فانشق له فيه اثنا عشر طريقاً يابسة في وسط البحر، فسار موسى بمن معه في وسط البحر حتى خرج بهم جميعاً، وقد أمر الله سبحانه وتعالى موسى بعد خروجه من البحر أن يترك الطرق فيه مفتوحة؛ لأنه تعالى أراد أن يغرق فرعون وجنوده في تلك الطريق التي في البحر، فتبعهم فرعون وجنوده في تلك الطريق التي فتحها موسى بعصاه في البحر فلما توسطوا جميعاً أطبق الله تعالى عليهم الماء وأغرقهم جميعاً.

﴿كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ۝٢٥ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ۝٢٦ وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ۝٢٧ كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ۝٢٨﴾ أراد الله سبحانه وتعالى هنا أن يعتبر بهم المعتبرون إذا نظروا في حالهم وما صاروا إليه بعد تلك القصور الفاخرة وجنات البساتين والأنهار، وبعد تلك النعم العظيمة التي أسبغها عليهم، وذلك التمكين في الأرض، وما هيأ لهم من أسباب الرفاهية والتنعم في رغد العيش، ثم إن الله تعالى أهلكهم ودمرهم وأبادهم بعد كل ذلك بسبب كفرهم وتكبرهم، وكيف لم تنفعهم قوتهم وتمكنهم فقد ذهبوا وتركوا كل ذلك النعيم لقوم آخرين غيرهم بسبب كفرهم وتمردهم على الله.

﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنْظَرِينَ۝٢٩﴾ فلم يحصل بموتهم وهلاكهم أي نقص في الدنيا ولا في السماء، فقد أخذهم الله تعالى

واستأصلهم بسبب استحقاقهم لذلك العذاب الذي أنزله عليهم، واستخلف مكانهم قوماً آخرين غيرهم.

﴿وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنَ الْعَذَابِ الْمُهِينِ۝٣٠ مِنْ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ كَانَ عَالِيًا مِنَ الْمُسْرِفِينَ۝٣١﴾ يذكر الله تعالى بني إسرائيل بنعمته عليهم إذ أنجاهم من فرعون وظلمه وبطشه، وقتله لأبنائهم، واستعباده لهم، وتسخيرهم في الأعمال الشاقة.

وقد أخبر الله سبحانه وتعالى عنه بأنه كان من المسرفين في سفك الدماء والقتل ظلماً وعدواناً، فنجاهم الله سبحانه وتعالى منه، وخلصهم من قبضته وسيطرته عليهم.

﴿وَلَقَدِ اخْتَرْنَاهُمْ عَلَى عِلْمٍ عَلَى الْعَالَمِينَ۝٣٢﴾ وقد أنعم الله سبحانه وتعالى عليهم بأن اصطفاهم على جميع خلقه، وجعلهم أفضل أمة على وجه الأرض؛ فإذا كانوا على هذه الحال أفضل أهل الأرض، وعلى الرغم مما كانوا يفعلون بنبيهم موسى عليه السلام ويتمردون عليه- فكيف كانت حال بقية الأمم في الأرض؟

﴿وَءَاتَيْنَاهُمْ مِنَ الْآيَاتِ مَا فِيهِ بَلَاءٌ مُبِينٌ۝٣٣﴾ وقد أعطاهم الله سبحانه وتعالى الآيات العظيمة وأسبغ عليهم النعم الكثيرة كفلق البحر لهم، وتضليلهم بالغمام وإحيائهم مرة ثانية بعد أن كان أماتهم، وما كان من رفع الطور عليهم حتى آمنوا.

﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ لَيَقُولُونَ۝٣٤ إِنْ هِيَ إِلَّا مَوْتَتُنَا الْأُولَى وَمَا نَحْنُ بِمُنْشَرِينَ۝٣٥ فَأْتُوا بِآبَائِنَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ۝٣٦﴾ ثم انتقل الله تعالى إلى الكلام عن قريش، فأخبر تعالى عنهم بأنهم ينكرون البعث والنشور بعد الموت، وطلبوا من النبي صلى الله عليه وآله وسلم أن يحيي آباءهم وأجدادهم، وأن يخرجهم من قبورهم إن كان صادقاً فيما يدعي من صحة البعث بعد الموت.

﴿أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ۝٣٧﴾ ثم أخبر الله سبحانه وتعالى نبيه صلى الله عليه وآله وسلم بأن قومه قد تمردوا، وقد بلغوا النهاية في

التمرد والعصيان حتى استحقوا نزول العذاب بهم، ولن يستطيعوا أن يفروا من قبضته وقدرته، ولن يعزوا عليه أو يغلبوه، فقد أهلك مِنْ قبلهم مَنْ كانوا أشد منهم بطشاً وأكثر عدداً وجمعاً وقوة بسبب كفرهم وتكذيبهم وتمردهم، وقومك يا محمد قد استحقوا نزول العذاب بهم فليتوقعوا عما قريب نزوله بهم.

﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ۝٣٨ مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ۝٣٩﴾ هذا جواب من الله سبحانه وتعالى عليهم عندما أنكروا البعث والنشور والحياة بعد الموت، فأخبرهم أنه لم يخلق السماوات والأرض وما بينهما إلا لغرض عظيم وحكمة عظيمة، وهو ما يترتب على خلق ذلك من الحياة الآخرة، والحساب والجزاء والثواب والعقاب، وأنه لو كان الأمر كما يزعم المشركون لما كان لخلقهما أي فائدة، ولكان خلقه لهما عبثاً، ولو لم يكن هناك حساب ولا جزاء لوصِف الله تعالى حينئذ بالظلم واللعب والعبث.

﴿إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ مِيقَاتُهُمْ أَجْمَعِينَ۝٤٠﴾ لا بد أن يحشر الله سبحانه وتعالى الخلق إليه جميعاً يوم القيامة ليفصل بينهم، ويحكم بينهم بالحكم الحق والعدل.

﴿يَوْمَ لَا يُغْنِي مَوْلًى عَنْ مَوْلًى شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ۝٤١ إِلَّا مَنْ رَحِمَ اللَّهُ إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ۝٤٢﴾ ويوم الفصل هو ذلك اليوم الذي لا يملك أحد فيه أن ينفع أحداً أو ينصره أو يدفع عنه شيئاً من عذاب الله الذي قد استحقه، وشفاعة الشافعين يوم القيامة لن تكون إلا للمؤمنين فهم أهل رحمة الله سبحانه وتعالى، وهم الذين سينصرهم الله تعالى يوم القيامة، ويشفي غيظهم من أعدائهم، ويثيبهم ويرفع منازلهم.

﴿إِنَّ شَجَرَةَ الزَّقُّومِ۝٤٣ طَعَامُ الْأَثِيمِ۝٤٤ كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ۝٤٥ كَغَلْيِ الْحَمِيمِ۝٤٦﴾ ثم أخبر الله سبحانه وتعالى عن طعام أهل النار في جهنم بأنه قد جعل لهم شجرة الزقوم التي تغلي في بطونهم عندما يأكلونها من شدة غليانها وحرارتها.

﴿خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ إِلَى سَوَاءِ الْجَحِيمِ۝٤٧ ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ۝٤٨ ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ۝٤٩﴾ ثم إن الله سبحانه وتعالى عندها سيأمر ملائكة العذاب بأخذ أهل النار وسوقهم سوق الذلة والخزي إلى وسط نار جهنم، ثم يكبونهم فيها كباً ويصبون فوق رؤوسهم من ماء جهنم حتى تذوب جلودهم ولحومهم من شدة غليانه وحرارته، ويخبرونهم بأن ذلك العذاب والخزي الذي هم فيه إنما هو جزاءٌ على ما كانوا يتكبرون في الدنيا عن قبول الحق، ويتمردون على أنبيائهم، ليزدادوا بذلك حسرة وندماً على ما فرطوا في الدنيا.

﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ۝٤٩ إِنَّ هَذَا مَا كُنْتُمْ بِهِ تَمْتَرُونَ۝٥٠﴾ عندما يكبونهم في النار على وجوههم يقولون لهم: ذوقوا عذاب النار، وتجرعوا أليم السعير بسبب تعظمكم في الدنيا وتكبركم فيها.

﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ۝٥١ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ۝٥٢ يَلْبَسُونَ مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَقَابِلِينَ۝٥٣ كَذَلِكَ وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ۝٥٤ يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَاكِهَةٍ ءَامِنِينَ۝٥٥﴾ ثم أخبر الله سبحانه وتعالى عن الحالة التي يكون عليها أولياؤه المتقون، فقال إنهم في أمن وأمان، وقد أنزلهم الله تعالى المنازل الرفيعة في جنات النعيم، وجمعهم مع أحبابهم وأصدقائهم في الدنيا على الموائد السنية التي قد ملئت بألذ وأطيب المأكولات والمشروبات، وما جعل حولهم من الحشم والخدم، وما عليهم من الملابس الفاخرة من السندس والإستبرق الذي هو الحرير -فالسندس: هو الحرير الغليظ، والإستبرق: هو الحرير الخفيف- وهم بين أزواجهم من الحور العين يتمتعون وينكحون ويأكلون ويشربون، وكل ما يتمنونه يجدونه بين أيديهم من دون أي تعب أو مشقة أو ملل أو سأم فهم في راحة دائمة.

﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَى وَوَقَاهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ﴿٥٦﴾﴾ فهم في النعيم الدائم يتقلبون، فلا موت ينغص عليهم عيشتهم أو يقطع عنهم لذة راحتهم، ولم يبق لهم أي شيء يخافونه أو يحذرونه.

﴿فَضْلًا مِنْ رَبِّكَ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴿٥٧﴾﴾ فالثواب الذي هم فيه والنعيم في الجنة، والأمن والأمان الذي أعطاهم الله سبحانه وتعالى كل ذلك فضل من الله تعالى تفضل به عليهم، ثم أخبر الله سبحانه وتعالى أن ما صار إليه هؤلاء من النعيم هو الذي ينبغي أن يسمى فوزاً على الحقيقة، وأن كل فوز دونه لا يسمى فوزاً في الحقيقة.

﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴿٥٨﴾﴾ ثم أخبر الله سبحانه وتعالى نبيه ﷺ بأنه إنما يسر له هذا القرآن وأنزله على لغته ولغة قومه لأجل أن يفهموا معانيه، وينتفعوا به، ويعملوا بما فيه.

﴿فَارْتَقِبْ إِنَّهُمْ مُرْتَقِبُونَ﴿٥٩﴾﴾ وعندما أعرض المشركون عن النبي ﷺ وتمردوا عليه واستكبروا عن اتباعه أخبر الله سبحانه وتعالى نبيه ﷺ أن يرتقب نزول العذاب بهم، وأنه قد اقترب موعد نزوله بهم، كما أنهم مرتقبون لزوالك يا محمد ومتحينون الفرصة للقضاء عليك وعلى دعوتك ودينك.

❁❁❁❁❁

سورة الجاثية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿حم﴿١﴾ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴿٢﴾﴾ لا زال الله سبحانه وتعالى يدعو المشركين ويناديهم إليه ويكرر نداءه لهم، ويؤكد لهم مقسماً بأن هذا القرآن الذي جاءهم به نبيهم منزل من عنده تعالى، وأن محمداً لم يأت به من عند نفسه أو يتعلمه من عند أحد.

﴿إِنَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِلْمُؤْمِنِينَ۝٣﴾ ثم بعد ذلك يحثهم على النظر والتفكر في الآيات التي بثها لهم في السماوات والأرض، والتي ستسوقهم إلى معرفته، غير أنه لن ينظر ويتفكر فيها إلا المؤمنون المتواضعون لقبول الحق، فهم الذين سينتفعون بها ويعترفون بعظمة بارئها وخالقها، ويذعنون له، ويستسلمون لعظمته وينقادون لما يأمرهم به.

﴿وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِنْ دَابَّةٍ ءَايَاتٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ۝٤﴾ وخَلْقُكُم أيها الناس فهو آية من آياته الدالة على عظمته وقدرته، وكذلك كل دابة خلقها الله تعالى على وجه الأرض فهي آية ناطقة بإلهيته وقدرته وعلمه وحكمته.

﴿وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ واختلاف الليل والنهار وتعاقبهما، ودخول أحدهما في الآخر، ففي ذلك آية ناطقة ودلالة واضحة على قوة من أوجدها، وحكمته وعظمته وعلمه.

﴿وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ رِزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ وإنزال المطر من السماء وإحياء الأرض بالخضرة والنبات بعد اليباس والجفاف آية عظيمة دالة على أن هناك مدبراً دبرها وموجداً أوجدها في غاية الحكمة، فمن الذي أوجد ذلك السحاب بعد أن لم يكن؟ ومن الذي هيأه لحمل قطرات الماء وإمساكها عن السقوط إلا في حينها؟ ومن الذي هيأ الرياح لتسوقه إلى الأماكن البعيدة والمختلفة؟ إذاً فلا بد أن يكون هناك قادر أوجدها في غاية الحكمة ومنتهى الدقة والإتقان، وهو الله رب العالمين.

﴿وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ ءَايَاتٌ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ۝٥﴾ والرياح آية من آياته الدالة عليه وعلى قدرته، فلا بد أن يكون هناك مصرف يصرفها من شرقية إلى غربية ومن شمالية إلى جنوبية؛ فهي آية واضحة وبينة لمن نظر وتأمل فيها، تسوقه إلى معرفة مبدعها وبارئها ومدبرها.

﴿تِلْكَ ءَايَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَءَايَاتِهِ يُؤْمِنُونَ۝٦﴾ ثم خاطب الله سبحانه وتعالىٰ نبيه ﷺ بأن هذه الآيات التي تلاها عليه واضحة وبينة وظاهرة أمام الناس جميعاً، فإذا لم يتفكر فيها المشركون فما هو الشيء الذي سيتفكرون فيه ويعتبرون به غيرها؟ ومتىٰ سيتفكرون؟ ومتىٰ سيؤمنون؟

وذلك أن الله سبحانه وتعالىٰ لا يمكن أن يرىٰ مواجهة وعياناً أو يعرف بالأبصار، وإنما يعرف ويتوصل إلىٰ معرفته بآياته الدالة عليه؛ لأنه ليس من جنس المرئيات، ولأنه لا يمكن أن يشاهَد إلا ما كان جسماً والله سبحانه وتعالىٰ ليس بجسم.

﴿وَيْلٌ لِكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ۝٧﴾ ثم توعد الله سبحانه وتعالىٰ المكذبين بأنبيائه ورسله وآياته، وتهدد كل كذاب متقول علىٰ الله قول الزور وكل مقترف للمعاصي والكبائر بالويل والعذاب الشديد.

﴿يَسْمَعُ ءَايَاتِ اللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَنْ لَمْ يَسْمَعْهَا﴾ ثم وصف الله تعالىٰ الأفاك الأثيم بأنه الذي يسمع آيات الله تعالىٰ تتلىٰ عليه فيستكبر عن سماعها، ويعرض عنها.

﴿فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ۝٨ وَإِذَا عَلِمَ مِنْ ءَايَاتِنَا شَيْئًا اتَّخَذَهَا هُزُوًا أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ۝٩ مِنْ وَرَائِهِمْ جَهَنَّمُ وَلَا يُغْنِي عَنْهُمْ مَا كَسَبُوا شَيْئًا وَلَا مَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ۝١٠﴾ ومن صفته أيضاً أنه إذا سمع شيئاً من آيات الله تعالىٰ تتلىٰ وعرفها فإنه يجعلها محل سخريته واستهزائه، فهؤلاء هم أهل وعيد الله سبحانه وتعالىٰ بالعذاب الشديد في نار جهنم؛ ولا ينفعهم ما جمعوه من متاع الدنيا من الأموال والتجارات الواسعة، ولا تدفع عنهم شيئاً من عذاب الله تعالىٰ يوم القيامة، وأصنامهم التي يعبدونها من دون الله تعالىٰ لا تغني عنهم شيئاً يوم القيامة.

﴿هَذَا هُدًى وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِنْ رِجْزٍ أَلِيمٌ۝﴾ ثم أخبر الله سبحانه وتعالىٰ نبيه ﷺ بأن هذا القرآن الذي أوحاه إليه جعل فيه النور والهدىٰ ليهتدوا بهديه، فمن أعرض عن هدىٰ الله وكفر به فله عذاب عظيم في نار جهنم.

﴿اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ۝﴾ ثم ذكرهم الله سبحانه وتعالىٰ أيضاً بآية أخرىٰ من آياته العظيمة الدالة عليه فأمرهم أن ينظروا في البحر وما جعل فيه من المنافع لهم، وكيف هيأه وسخره لحمل السفن التي تحملهم وتحمل بضائعهم وأمتعتهم، والتنقل بهم في تجاراتهم والسعي وراء معايشهم وأرزاقهم- يذكرهم الله سبحانه وتعالىٰ بذلك ليتوجهوا إليه بالإيمان والإذعان والشكر.

﴿وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ۝﴾ وكذلك من نعمه العظيمة الدالة تفضيلهم علىٰ جميع خلقه حيث سخر جميع مخلوقاته في منافعهم وجعلها كلها مهيأة في مصالحهم، وأي نعمة أكبر من هذه النعمة فينبغي أن يؤدوا حق شكرها بطاعته وفعل ما يرضيه، واجتناب ما يغضبه ويوجب سخطه.

وأخبر أيضاً أن في كل شيء من ذلك آية ناطقة ودالة عليه وعلىٰ ربوبيته وعظمته وقدرته لمن نظر وتفكر فيها.

﴿قُلْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ لِيَجْزِيَ قَوْمًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ۝﴾ ثم أمر الله سبحانه وتعالىٰ نبيه ﷺ أن يحث المؤمنين علىٰ الصبر علىٰ كل ما يلقون من الأذىٰ من المشركين، وأن يقابلوا السيئة بالحسنة، وأن لا يؤاخذوهم بما فعلوا بهم من الأذىٰ، وأن يعفوا ويصفحوا عنهم، وكل ذلك لأجل مصلحة الدين والإسلام، وأن يخبرهم بأن الله سبحانه وتعالىٰ سوف ينتصف لهم منهم، وينتقم لهم ممن ظلمهم.

﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾ فسيثيبكم الله على صبركم أيها المؤمنون، وسيجازيهم على إساءتهم إليكم؛ لأنهم بذلك إنما يسيئون إلى أنفسهم ويجنون عليها.

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ وَءَاتَيْنَاهُمْ بَيِّنَاتٍ مِنَ الْأَمْرِ﴾ ثم أخبر الله سبحانه وتعالى نبيه ﷺ بأنه قد اصطفى بني إسرائيل واختارهم على العالمين جميعاً، وجعلهم حملة العلم والحكمة والنبوة إلى جميع الناس، وجعلهم القدوة والقبلة يهتدي بهديهم ويسير بسيرتهم كل الناس، وقد أسبغ عليهم جميع النعم، وساق إليهم جميع خيرات الدنيا، وبين لهم الدين الحق الذي جاء به خاتم المرسلين ﷺ وأمرهم باتباعه.

﴿فَمَا اخْتَلَفُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ﴾ ثم إنهم بعد ذلك تفرقوا واختلفوا فيما بينهم، وعصوا وتمردوا واستكبروا في الأرض، وكذبوا بالدين الحق الذي أمروا باتباعه ولم يؤمن به إلا القليل منهم.

﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ ولكن مرجعهم إلى الله تعالى وسيبعثهم إليه يوم القيامة ثم يحكم بينهم فيثيب من تمسك منهم بالحق وثبت عليه، ويعاقب من مال وخرج عن طريقه في نار جهنم.

﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِنَ الْأَمْرِ﴾ ثم بعد أن اختلفوا وتفرقوا فيما بينهم رفع الله سبحانه وتعالى عنهم ذلك التفضيل وأذلهم وأخزاهم، وجعل نبوته ورسالته في غيرهم، فاصطفى محمداً ﷺ لنبوته ولتبليغ رسالته.

﴿فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّهُمْ لَنْ يُغْنُوا عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾ وأمره بأن يسير على هذه الشريعة التي أنزلها عليه، وأن لا يميل مع أحد من المشركين أو أهل الكتاب، أو يسير في طريقهم ودينهم؛ لأنهم إنما يتبعون أهواءهم وما تدعوا إليه شهواتهم، وأخبره أنهم لن ينفعوه شيئاً إن هو عصى الله

سبحانه وتعالىٰ واتبعهم، ولن يدفعوا عنه شيئاً من عذاب الله تعالىٰ.

﴿وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ۝١٩﴾ فاتركهم يا محمد ولا تدخل معهم أو تخض في أحاديثهم وأباطيلهم أو تتبعهم في شيء من أمور دينهم، فهم جميعاً ظالمون عند الله سبحانه وتعالىٰ تعدوا حدوده وخالفوا شرائعه، والله ناصرك ومؤيدك عليهم فاعتصم به.

﴿هَذَا بَصَائِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ۝٢٠﴾ هذا القرآن الذي أوحيناه إليك جعلناه نوراً وهدىً للناس ليهتدوا بهديه ويستضيئوا بنوره إلىٰ طريق سعادتهم في الدنيا والآخرة.

﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ۝٢١﴾ أيظن أولئك الذين أسرفوا في اقتراف المعاصي والسيئات والمآثم أنهم سواء هم وأولئك الذين قد أفنوا أعمارهم في طاعة الله سبحانه وتعالىٰ والسعي في مرضاته، وحرموا أنفسهم ملذات الدنيا؟ وهل ظنوا أنهم سيموتون وينتهي بموتهم كل شيء، ليس الأمر كما حسبوا وظنوا فلا بد أن يبعثهم الله سبحانه وتعالىٰ يوم القيامة ثم يجازي المحسنين علىٰ إحسانهم والمسيئين علىٰ إساءتهم.

﴿وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَلِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ۝٢٢﴾ خلق الله السماوات والأرض لحكمة بالغة، ولأمر عظيم، وليرتب علىٰ خلقهما وخلق ما فيهما الجزاء يوم القيامة لكل نفس بما كسبت الجزاء العادل لا يظلم مثقال ذرة.

﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ﴾ انظر يا محمد وتعجب من ذلك الرجل الذي يستجيب لداعي شهواته وهواه إلىٰ ما دعاه، ولا يجيب داعي الله ولا داعي رسوله ولا لأي داع يدعوه إلىٰ الحق والهدىٰ، كيف يؤثر طاعة هواه علىٰ طاعة ربه؟

﴿وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً﴾

فقد حكم الله سبحانه وتعالىٰ عليه بأنه من أهل الضلال، لا يسمع داعي الهدىٰ لشدة تمرده وانهماكه في هوىٰ نفسه ولا ترىٰ عيناه طريق الرشد، ولا ينفذ إلىٰ قلبه هدىٰ لما هو فيه من الهوىٰ والكبر والتعظم، وليس هناك حائل يمنع من سماع الهدىٰ ومن رؤية طريق الهدىٰ، وليس هناك غلاف علىٰ القلب يمنع من وصول آيات الله إليه، فقد كان المشركون بما فيهم صاحب هذه الآية ذوي أسماع وأبصار وعقول يسمعون ما يقال لهم ويرون بعيونهم آيات الله المبثوثة في السماوات والأرض، ويعون بعقولهم ما يقال لهم إلا أن حبهم لمتاع الدنيا وشهواتها والتكبر فيها والترفع والظلم وأكل الحرام، و...إلخ يصرفهم عن قبول الحق والاستجابة لداعي الهدىٰ فهذا هو الحائل الذي حال بينهم وبين الهدىٰ.

ونسبة الختم والطبع والغشاوة إلىٰ الله لأنه جل وعلا هو الذي خلق في الإنسان طبيعة الرغبة والشهوة والميول إلىٰ ما تهوىٰ النفس، وهذه الطبائع هي السبب في حصول إعراض المشركين عن الاستجابة لداعي الله، فالله تعالىٰ هو فاعل السبب فصح نسبة الغشاوة والطبع إليه، والمشركون هم الذين أعرضوا عن الهدىٰ وسماعه وقبوله.

﴿فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴿٢٣﴾﴾ من الذي يستطيع أن يهديه من بعد أن أعطاه الله الآيات والبينات وأرسل إليه الرسل فرفضها وتمرد عنها، فمن سيهديه بعد كل هذا؟ ومن الذي يستطيع أن يسلكه في نظام المهدتين؟

﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴿٢٤﴾﴾ كان المشركون ينكرون البعث بعد الموت والحياة الآخرة، ويدعون أنهم إذا ماتوا فقد انقطع بموتهم كل شيء، فلا حساب ولا عقاب، وينكرون أن الله سبحانه وتعالىٰ هو الذي يميتهم ويدعون أن الدهر هو الذي يفني الإنسان، كانوا يقولون كل ذلك لا عن حجة أو دليل.

﴿وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَاتٍ مَا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا ائْتُوا بِآبَائِنَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴿٢٥﴾﴾ وإذا تلا عليهم النبي ﷺ القرآن وحذرهم وأنذرهم فإنهم يجادلونه ويطلبون منه إن كان صادقاً فيما يزعم ويدعي من البعث والحساب أن يبعث لهم آباءهم وأجدادهم، وأن يريهم ذلك أمام أعينهم حتى يصدقوه.

﴿قُلِ اللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴿٢٦﴾﴾ ثم إن الله سبحانه وتعالى أمر نبيه ﷺ أن يقول لهم إن الأمر ليس كما يظنون ويتوهمون، بل الله تعالى هو الذي يحييهم ويوجدهم من بعد العدم، وهو الذي سيميتهم ثم يحيهم بعد ذلك للحساب والجزاء في يوم القيامة، وأن يخبرهم أن ذلك اليوم لا بد أن يقع لا محالة.

﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ الْمُبْطِلُونَ﴿٢٧﴾﴾ أمر السماوات والأرض بيده تعالى، والموت والحياة إليه وحده، فإذا كان يوم القيامة فإنكم أيها المنكرون سترون ما كنتم به تكذبون من البعث والحساب وعذاب جهنم؟

﴿وَتَرَى كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَى إِلَى كِتَابِهَا الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴿٢٨﴾﴾ وذلك يوم القيامة عندما يبعث الله سبحانه وتعالى الخلق جميعاً إليه للحساب والجزاء فإن كل أمة ستجتمع جاثية على ركبها من شدة الهول والفزع، منتظرين ومترقبين لما يحل بهم؛ وأن كل أمة ستدعى إلى كتابها الذي أنزله الله سبحانه وتعالى إليها فيدعى أهل القرآن ويدعى أهل التوراة و...إلخ.

﴿هَذَا كِتَابُنَا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴿٢٩﴾﴾ ثم يخبرهم الله سبحانه وتعالى بأن صحيفة أعمال كل امرئ معروضة فيها أعمال كل مكلف من عباده مسجلة، فلا سبيل إلى الإنكار.

﴿فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ﴿٣٠﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا أَفَلَمْ تَكُنْ ءَايَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ

فَاسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنْتُمْ قَوْمًا مُجْرِمِينَ﴿٣١﴾ ثم يحكم الله سبحانه وتعالى بين عباده ويفصل بينهم، فيدخل أهل الأعمال الصالحة في ضيافته ودار كرامته يأكلون ويتمتعون، وأما الذين كفروا بالله تعالى وكذبوا بآياته ورسله وأعرضوا عن آياته استكبارا وتمردا فسيسوقهم إلى الخزي والذلة والعذاب في نار جهنم وبئس المصير.

﴿وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُمْ مَا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ إِنْ نَظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ﴿٣٢﴾﴾ يذكر الله تعالى يوم القيامة لأهل النار الأعمال التي أوجبت لهم عذاب جهنم فذكر تعالى أنهم كانوا يكذبون بآيات الله استكباراً، وكانوا قوماً مجرمين، وكانوا يكذبون بما وعد الله من الساعة والبعث والجزاء.

﴿وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴿٣٣﴾﴾ فعندها ستنكشف لهم أعمالهم السيئة تلك التي كانوا يقترفونها في الدنيا وسيقعون في سعير جهنم الذي كذبوا به.

﴿وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنْسَاكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَاصِرِينَ﴿٣٤﴾﴾ وسيصرخون ويستغيثون طلباً للعودة لتعويض ما قد فرطوا على أنفسهم في الدنيا، ولكنه سيجاب عليهم بأنه لا حظ لكم أيها المكذبون ولا نصيب في شيء من رحمة الله سبحانه وتعالى ولا مخرج لكم ولا نصير ولا شفيع.

ومعنى ﴿نَنْسَاكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا﴾: سنترككم كما تركتم العمل لهذا اليوم وكذبتم بلقاء ربكم.

﴿ذَلِكُمْ بِأَنَّكُمُ اتَّخَذْتُمْ ءَايَاتِ اللَّهِ هُزُوًا وَغَرَّتْكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾ وهذا العذاب الذي سنترككم فيه إنما هو بسبب جعلكم لآيات الله سبحانه وتعالى وحججه وأنبيائه محل هزؤكم وسخريتكم، وبسبب اغتراركم بالدنيا وسعيكم وراء شهواتها ولذاتها، وبسبب اختياركم لمتاع الدنيا الفاني على ثواب الآخرة الباقي.

﴿فَالْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴿٣٥﴾﴾ فقد انقطع الأمل والرجاء في ذلك اليوم، ولن ينفعهم فيه أي عذر أو توبة.

﴿فَلِلَّهِ الْحَمْدُ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَرَبِّ الْأَرْضِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴿٣٦﴾ وَلَهُ الْكِبْرِيَاءُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴿٣٧﴾﴾ فهو تعالى وحده المختص بأن يحمد على نعمه التي ملأت السماوات والأرض وهو المالك للسماوات والأرض وما فيهما، وهو وحده المختص بالعظمة والكبرياء والجلال في السماوات والأرض، وهو القوي الغالب على كل شيء بقدرته، لا يشاركه أحد ولا يغالبه أحد، وهو وحده الذي كل أفعاله لا تصدر إلا على حسب ما تقتضيه الحكمة وتدعوا إليه المصلحة.

*****

سورة الأحقاف



﴿حم﴿١﴾ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴿٢﴾﴾ القرآن هو كلام الله تعالى المنزل على نبيه ﷺ، أنزله الله القوي الغالب على ما تقتضيه حكمة الحكيم العليم، ولو نظرتم أيها المشركون في آيات الكتاب العظيم أنه منزل من الله العزيز الحكيم لا كما تقولون وتفترون من أنه قول شاعر أو مجنون أو أنه ﷺ تعلمه من بشر أو أنه أساطير الأولين اكتتبها.

﴿مَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُسَمًّى وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنْذِرُوا مُعْرِضُونَ﴿٣﴾﴾ كان المشركون ينكرون البعث بعد الموت والحساب والجزاء أشد الإنكار، والله سبحانه وتعالى يستنكر عليهم إنكارهم، ويحذرهم يوم القيامة، ويذكرهم به في كل وقت وحين، لشدة غفلتهم وإعراضهم عنه؛ فأمرهم هنا أن ينظروا ويتفكروا في خلق السماوات والأرض والغرض من خلقهما، وأخبرهم أنه لو كان الأمر كما يقولون إذاً لكان خلقه للسماوات والأرض وما بينهما باطلاً؛ لخلوه عن المصلحة والحكمة.

ولكان الله تعالىٰ عابثاً، ولكان خلقه لهما عبثاً وباطلاً، ولوصف الله سبحانه وتعالىٰ أيضاً بالظلم لحصول التظالم والعدوان والبغي من غير أن ينتصف الله للمظلوم من ظالمه، فيلزم لذلك علىٰ مقتضىٰ الحكمة أن يعقب حياة الدنيا حياة أخرىٰ يجازىٰ فيه الناس علىٰ أعمالهم إلا أن المشركين معرضون عما أنذروا.

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ﴾ أخبروني أيها المشركون ماذا خلقت آلهتكم التي تعبدونها من دون الله وحقاً فإنهم يعلمون أن أصنامهم لم تخلق شيئاً في الأرض ولا في السماء. أراد الله تعالىٰ أن ينبه المشركين إلىٰ أن آلهتهم لا تستحق العبادة.

﴿أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ اِئْتُونِي بِكِتَابٍ مِنْ قَبْلِ هَذَا أَوْ أَثَارَةٍ مِنْ عِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ۝٤﴾ وهل لآلهتكم أيها المشركون نصيب في ملك السماوات حتىٰ جعلتموهم شركاء لله في الإلهية وعبدتموهم فهاتوا دليلاً علىٰ شرككم من كتب الله السابقة أو عن نبي من أنبيائه السالفين.

﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ۝٥﴾ ثم أخبر الله سبحانه وتعالىٰ نبيه ﷺ أنه لا أحد أضل من هؤلاء القوم الذين يعبدون أصناماً لا تستطيع أن تسمع أو تستجيب لنداء، والتي لن تسمع لمناديها إلىٰ يوم القيامة.

﴿وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ۝٦﴾ إذا كان يوم القيامة فإن عيسىٰ والملائكة عليهم السلام سينكرون علىٰ المشركين عبادتهم لهم، وسينكرون أنهم كانوا يأمرونهم أو يدعونهم إلىٰ عبادتهم، وسينفون أي صلة لهم بهم.

﴿وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ۝٧ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ﴾ فإذا تلا النبي ﷺ علىٰ المشركين آيات الله سبحانه وتعالىٰ وحججه الواضحة فإنهم يجيبون عليه بأن ما سمعوه منه من الآيات إنما هو كلام ساحر قد تمرن علىٰ السحر وتمكن فيه، وكانوا يقولون عنه بأنه افتراه علىٰ الله سبحانه وتعالىٰ.

﴿قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾ فأمره الله سبحانه وتعالى أن يجيبهم بأنه إن كان الأمر كما يقولون ويزعمون عليه فهو الذي سيلقى جزاء كذبه وافترائه وحده، ولن يستطيعوا أن يدفعوا عنه شيئاً من عذاب الله تعالى إن كان كما يقولون.

﴿هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ﴾ وأن يخبرهم بأن الله سبحانه وتعالى عالم بما يخوضون فيه من الحديث فيما بينهم من التكذيب والاستهزاء بكلام الله تعالى والصد عن سبيله، وسيجازيهم على ذلك.

﴿كَفَى بِهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ وأنه يكفيني شهادة الله سبحانه وتعالى على تبليغي إياكم ورفضكم وتكذيبكم بدعوتي وبما جئتكم به.

﴿وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ۝٨﴾ وأن يخبرهم بأن الله سبحانه وتعالى سيجازيهم على كل ذلك؛ غير أن من صفته أنه غفور رحيم لا يعجل بأخذه وانتقامه بل من رحمته أن يمهلهم ويتأنى بهم.

﴿قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعًا مِنَ الرُّسُلِ﴾ وأمره أيضاً أن يخبرهم بأنه ليس النبي الوحيد الذي أرسله الله سبحانه وتعالى حتى يستنكروا عليه ذلك الاستنكار فكم من الأنبياء الذين يعرفونهم قد أرسلهم الله سبحانه وتعالى قبله، وكان المشركون يعرفون أسماء كثير من الأنبياء الذين أرسلهم الله سبحانه وتعالى كموسى وعيسى وإبراهيم ويوسف وغيرهم.

﴿وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ﴾ وأن يخبرهم بأن أمره وأمرهم جميعاً إلى الله تعالى، وأن مرجعهم جميعاً إليه، وأنه وحده العالم بموعد أخذهم وتعذيبهم، وأنه لا يعلم الغيب وما سيكون في الغد إلا الله سبحانه وتعالى وحده، وأن يخبرهم أيضاً بأنه ليس إلا بشراً مثلهم قد أرسله الله سبحانه وتعالى ليبلغهم ما أوحى به إليه من القرآن والهدى.

﴿وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ۝٩﴾ وأن يخبرهم أنه ليس إلا رسولاً أرسله الله تعالىٰ إليهم لينذرهم ويحذرهم من الوقوع في العذاب والهلاك؛ حتىٰ لا يحتجوا يوم القيامة فيقولون: ما جاءنا من بشير ولا نذير.

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَكَفَرْتُمْ بِهِ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى مِثْلِهِ فَآمَنَ وَاسْتَكْبَرْتُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ۝١٠﴾ ثم أمر الله سبحانه وتعالىٰ نبيه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ أن يجادل المشركين ويسألهم علىٰ سبيل الفرض والتقدير: إذا صح أن هذا القرآن حق وصدق، وأنه من عند الله تعالىٰ ثم إنكم كفرتم به، بعد أن قد أتىٰ شاهد من بني إسرائيل فآمن به، وشهد علىٰ صدقه، ثم إنكم بعد كل هذا أعرضتم واستكبرتم عن اتباعه والإيمان به؛ فمن سيكون الخاسر إذا كان من عند الله؟ أذلك الذي آمن به؟ أم من كفر به؟

فالمفترض بكل عاقل ما دامت الاحتمالات هذه واردة أن يحتاط لنفسه، وأن يأخذ لنفسه بأحوط الأمور التي تقربه إلىٰ طريق السلامة والنجاة، ولكنكم أيها المشركون قد تماديتم في المعاصي والسيئات حتىٰ أعمت الجهالات قلوبكم وأبصاركم، وأصبحتم لا تفرقون ولا تميزون بين الأشياء المعقولة ولا المحسوسة.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مَا سَبَقُونَا إِلَيْهِ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هَذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ۝١١﴾ كانوا يجادلون النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ والمؤمنين بأن هذا الدين الذي جاء به النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ لو كان حقاً وصدقاً كما يزعمون لما سبقهم إليه أولئك الضعاف والأراذل، فكفروا بما جاء به النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ وكذبوا به، وقالوا: إن القرآن كذب افتراه النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ وادعىٰ أنه من عند الله وما هو إلا حكايات قديمة.

﴿وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى إِمَامًا وَرَحْمَةً وَهَذَا كِتَابٌ مُصَدِّقٌ لِسَانًا عَرَبِيًّا لِيُنْذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَبُشْرَى لِلْمُحْسِنِينَ۝١٢﴾ ثم رد الله سبحانه وتعالىٰ عليهم بأن هذا الدين الذي جاءهم به محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ هو الدين الحق، وأن هذا القرآن الذي أنزله الله عليه هو كلام الله تعالىٰ الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه،

وقد أنزله مصدقاً لما سبقه من التوراة التي أنزلها على موسى رحمة وهدى للناس ليهتدوا بها ويستضيئوا بنورها، وأنه أنزله بلغتهم ولسانهم حتى يفهموا معانيه ويتدبروا آياته وحججه، وما فيه من التبشير والإنذار والوعد والوعيد، فلا يكون لهم أي عذر في عدم معرفته ومعرفة آياته وأحكامه.

﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ۝١٣ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ۝١٤﴾ ثم أخبر الله سبحانه وتعالى أن من شهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله بلسانه ثم استقام على السمع والطاعة لله تعالى فيما أمر ونهى فهو من أهل رحمة الله تعالى والفوز برضوانه، ولا يلحقه خوف ولا حزن في يوم الفزع الأكبر يوم القيامة وسيدخله الله تعالى جنات النعيم خالداً فيها مخلداً جزاءً على إيمانه واستقامته على طاعة الله وامتثال أمره.

﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا﴾ ثم انتقل الله سبحانه وتعالى إلى التوصية بالوالدين والإحسان لما لهما من الحق الكبير على الولد، فما أشد ما لقيت أمه من التعب والمشقة والعناء في حمله في بطنها، ثم بعد أتعاب آلام الحمل ما لاقت من أتعاب الولادة وآلامها وعنائها، ثم ما قد لاقت من التعب والعناء في إرضاعه والسهر عليه- خصها الله سبحانه وتعالى بالذكر وجعل لها مزية على الأب؛ لأن تعبها أكثر من تعب الأب.

ثم أخبر الله سبحانه وتعالى أن مدة حمله وفصاله ثلاثون شهراً من العناء والتعب والمشقة مما يوجب على الولد البر بهما والإحسان إليهما، وعدم إظهار أي شيء من علامات التأفف والتضجر منهما.

﴿حَتَّى إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي

تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴿١٥﴾ وبعد كل ذلك أخبر الله سبحانه وتعالىٰ عن الإنسان المؤمن إذا بلغ عمره أربعين سنة بأن من شأنه أن يرجع إلىٰ الله سبحانه وتعالىٰ، وأن يتوسل إليه في أن يعينه علىٰ أداء شكر نعمه عليه، وعلىٰ أداء ما افترض عليه علىٰ أكمل وجه، ويكثر من التوبة والرجوع إلىٰ الله سبحانه وتعالىٰ، وذلك لأن التوبة وكثرة الرجوع إلىٰ الله تعالىٰ من أكبر الأسباب في صلاح الأولاد والذرية، وذلك أن صلاح الذرية قد جعله الله سبحانه وتعالىٰ من الثواب العاجل للوالدين في الدنيا.

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَنَتَجاوَزُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ وَعْدَ الصِّدْقِ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ﴿١٦﴾﴾ ثم أخبر الله سبحانه وتعالىٰ بأن أولئك أهل شكره واللجوء والتوسل إليه، وأنهم هم الذين يتقبل منهم أعمالهم، وأنهم أهل رحمته الذين استحقوا الوعد الصادق بالجنة بما عملوا من الأعمال الصالحة.

﴿وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَكُمَا أَتَعِدَانِنِي أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِنْ قَبْلِي وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ اللَّهَ وَيْلَكَ ءَامِنْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴿١٧﴾﴾ ثم أوحىٰ الله سبحانه وتعالىٰ إلىٰ نبيه ﷺ قصة الذي كان أبواه يدعوانه إلىٰ الإيمان بالله سبحانه وتعالىٰ والتصديق بما جاء به النبي ﷺ، غير أنه كان يتأفف منهما ويتضجر من دعوتهما له، ويسخر مما كانا يذكرانه به من البعث بعد الموت والحساب والجزاء؛ لأنه من المكذبين بالله تعالىٰ وبرسوله وبما جاء به، وكان والداه يتلطفان له ويتوسلان إليه في ذلك شفقة عليه من النار ومن عذاب الله تعالىٰ.

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ﴿١٨﴾﴾ فهذا الرجل وأمثاله هم الذين استحقوا عذاب الله تعالىٰ وسخطه، مع من حق عليهم عذاب جهنم وسخط الله من الأمم المكذبين الذين ماتوا علىٰ كفرهم وتكذيبهم.

﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَالَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ۝١٩﴾ أخبر الله سبحانه وتعالى أن لكل صنف من المؤمنين والمكذبين الذين ذكرهم فيما سبق من الآيات درجات ومراتب على حسب أعمالهم التي عملوها في الدنيا، وأن كل واحد سيضعه الله سبحانه وتعالى في المنزلة والدرجة التي يستحقها من الثواب والعقاب، ولن ينقص من ثواب أحد من المؤمنين أو يزيد في عقاب المسيئين.

﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ تَفْسُقُونَ۝٢٠﴾ يذكر الله تعالى الكفار بيوم القيامة عندما يعرضهم على نار جهنم فيخبرهم أو تخبرهم الملائكة بأن هذا هو العذاب الذي ينتظركم بسبب ميلكم إلى الدنيا وشهواتها واغتراركم بنعيمها وزخرفها، وإعراضكم عما وراءها من الحساب والجزاء، واستكباركم عن قبول ما جاءتكم به رسل الله عليهم السلام من الحق، وفسوقكم عن أمر الله، فاليوم تجزون عذاب الحريق في نار جهنم.

﴿وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ النُّذُرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ۝٢١﴾ ثم أمر الله سبحانه وتعالى نبيه ﷺ أن يقص على قومه خبر عاد وشأنهم عندما بعث الله سبحانه وتعالى نبيه هوداً عليه السلام إليهم، وكان من نفس قبيلتهم.

والأحقاف هي أرض الكثبان الرملية؛ وكانوا قد بلغوا الغاية في الظلم وتجاوز حدود الله سبحانه وتعالى وعبادة الأصنام من دون الله تعالى، فأرسله الله سبحانه وتعالى إليهم ليحذرهم ولينذرهم ويبلغهم رسالة ربهم، ويدعوهم إلى عبادة الله سبحانه وتعالى وحده لا شريك له، وأن يخبرهم أن ما يدعوهم إليه هو ما دعت إليه الأنبياء السابقة من قبله، وأن يخبرهم أنهم إن استمروا فيما هم فيه من الظلم والطغيان فإن غضب الله وسخطه سيحل بهم.

﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴿٢٢﴾﴾ فأعرضوا عنه وتمردوا عليه، واستكبروا عن اتباعه وسخروا مما يدعوهم إليه، واستنكروا عليه كيف يمنعهم عن عبادة آلهتهم التي يدينون لها هم وآباؤهم من قبلهم، واعتبروا دعوته لهم جريمة عظيمة ومستنكرة، وكذبوا به وتمردوا عليه؛ ثم سألوه أنه إن كان صادقاً فيما يدعي ويزعم فليعجل بإنزال العذاب الذي يتهددهم به.

﴿قَالَ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ﴾ فأجاب عليهم بأن ذلك العذاب الذي قد توعدهم به ليس بيده، وأخبرهم أن أمر ذلك إلى الله سبحانه وتعالى ومتى أراد فسينزله بهم.

﴿وَأُبَلِّغُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ﴿٢٣﴾﴾ وأنه ليس مكلفاً إلا بتبليغهم رسالة ربهم إليهم ليحذرهم وينذرهم من عذاب الله تعالى وسخطه أن يحل بهم إن هم رفضوا وعاندوا وتمردوا.

﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُمْطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴿٢٤﴾ تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَى إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ﴾ ثم إن الله سبحانه وتعالى أنزل عليهم عذابه وسخطه، فأرسل عليهم الريح العقيم، وعندما رأوها مقبلة عليهم ظنوا أنها مبشرة بقدوم المطر إليهم؛ فأجاب الله سبحانه وتعالى عليهم بأن الأمر ليس كما يظنون وإنما هو عذاب الله تعالى قادم إليهم في تلك الريح، فما حل الصباح عليهم إلا وقد أبادتهم جميعاً، ودمرت مساكنهم وأموالهم.

﴿كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ﴿٢٥﴾﴾ ثم أوحى الله سبحانه وتعالى إلى نبيه صلى الله عليه وآله وسلم أن يخبر قومه بأنه سوف ينزل بهم مثل ما أنزل على أولئك القوم من العذاب إن هم استمروا وتمادوا في ظلمهم وطغيانهم.

﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيمَا إِنْ مَكَّنَّاكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ ثم أخبر الله سبحانه وتعالى قريشاً بأنه قد مكن عاداً في الدنيا مثل ما مكن قريشاً، وآتاهم القوة والسعة في الأموال والأولاد، وأنعم عليهم بالأسماع والأبصار والعقول الراجحة ولكنهم لم ينتفعوا بها، وتعاموا عن الحق والهدى لما جاءهم، فأخذهم عذاب الله.

﴿إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴿٢٦﴾﴾ وما حل بهم من عذاب الله هو بسبب كفرهم وتكذيبهم بآيات الله سبحانه وتعالى وأنبيائه ورسله، وقد كانوا يستهزئون بنبيهم هود عليه السلام حين ينذرهم عذاب الله.

﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُمْ مِنَ الْقُرَى﴾ ثم خاطب الله سبحانه وتعالى قريشاً ليعتبروا ويتعظوا، فأخبرهم بأنه قد أهلك أهل تلك القرى التي حولهم، يمرون عليها في طريق أسفارهم وتجاراتهم، ويسمعون عن أخبار أهلها وما حل بهم بسبب تكذيبهم وتمردهم على أنبيائهم واستهزائهم بهم، مثل قوم عاد وثمود وقوم لوط وشعيب.

﴿وَصَرَّفْنَا الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴿٢٧﴾﴾ صرف الله لهم الآيات ونوعها لعلهم يرجعون عن غيهم وضلالهم، ولكنهم لم يتراجعوا عن كفرهم وضلالهم.

﴿فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ قُرْبَانًا ءَالِهَةً بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ وَذَلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴿٢٨﴾﴾ أهلك الله تعالى أهل تلك القرى المكذبة فلم تنصرهم آلهتهم التي يعبدونها من دون الله، أو تدفع عنهم شيئاً مما أنزله بهم من العذاب، وضلت عنهم في وقت شدتهم لأنها لا تقدر على النفع والضر.

﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنْصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ﴿٢٩﴾ قَالُوا يَاقَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ

مُسْتَقِيمٍ۝٣٠﴾ ثم أخبر الله سبحانه وتعالىٰ نبيه ﷺ أنه قد صرف نفراً من صالحي الجن إلىٰ حضور مجلس النبي ﷺ والسماع له وهو يتلوا آيات القرآن، فأنصتوا لتلاوة النبي ﷺ، فلما أتم ﷺ التلاوة ذهبوا إلىٰ قومهم من الجن يبلغونهم ما سمعوا من آيات الله سبحانه وتعالىٰ يعظونهم ويحذرونهم وينذرونهم، وينصحونهم باتباع آياته وما فيه من الهدىٰ والنور الذي يدلهم علىٰ طريق الحق والهدىٰ.

﴿يَاقَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَءَامِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ۝٣١ وَمَنْ لَا يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ﴾ ودعوا قومهم من الجن إلىٰ اتباع النبي ﷺ لأنه مرسل إليهم من عند الله سبحانه وتعالىٰ ليبلغهم رسالات الله، وأمروهم أن يؤمنوا به ويصدقوا بما جاءهم به، ومن أعرض عنه وكذب به فقد عرض نفسه لغضب الله سبحانه وتعالىٰ وسخطه، وسيأخذه الله تعالىٰ بعذابه.

﴿وَلَيْسَ لَهُ مِنْ دُونِهِ أَولِيَاءُ أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ۝٣٢﴾ ولن يستطيع أحد أن يدفع عنه شيئا من عذاب الله وسخطه.

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى بَلَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ۝٣٣﴾ ثم توجه الله سبحانه وتعالىٰ إلىٰ خطاب المشركين مستنكراً عليهم كفرهم وتمردهم واستكبارهم عليه مع علمهم أنه وحده الذي تفرد بخلق السماوات والأرض وما بينهما من غير تعب، فمن قدر علىٰ كل ذلك أليس بقادر علىٰ خلقهم وإحيائهم وبعثهم مرة أخرىٰ، ومن أوجدهم من العدم أليس قادراً علىٰ إيجادهم وإحيائهم مرة أخرىٰ؟

فلن يجد العاقل بداً من الاعتراف والإقرار بقدرة الله سبحانه وتعالىٰ علىٰ ذلك، وأنه لا سبيل إلىٰ إنكار شيء من ذلك أبداً؛ لوضوح دلائل القدرة.

﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَى وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴿٣٤﴾﴾ ثم عقب الله سبحانه وتعالى ذلك بتذكير أولئك المكذبين والمنكرين للبعث والحساب، بأنه سوف يذكرهم بذلك الذي ينكرونه يوم القيامة عندما يعرضهم على جهنم، وأنه سوف يخاطبهم حينها ويسألهم عن هذا الذي كانوا ينكرونه: أليس حقاً وصدقاً؟ وأنهم سوف يجيبون عليه بالإقرار والاعتراف، ولكن جوابهم ذلك سيكون حين لا ينفعهم تصديقهم ذلك.

وأخبرهم بعد ذلك أنه سوف يأمر خزنة جهنم بسوقهم وسحبهم على وجوههم إلى جهنم بسبب كفرهم وتكذيبهم وتمردهم.

﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ﴾ بعد أن قص الله سبحانه وتعالى لنبيه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ حال المكذبين والمنكرين، وأخبره عن مصيرهم، أمره أن يصبر عليهم وأن يتحمل ما يلحقه منهم من التكذيب والأذى والاستهزاء، وأن لا يبالي بشيء من ذلك، وأن يواصل ما هو فيه من تبليغهم، ولا يستعجل نزول العذاب الذي استحقوه فعما قريب سوف يحل بهم، ثم أخبره كيف سيتقاصرون مدة بقائهم على الدنيا وحياتهم فيها عندما يرون نزوله بهم حتى لا تساوي مدة أعمارهم عندهم إلا ساعة من النهار فقط.

﴿بَلَاغٌ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ﴿٣٥﴾﴾ ثم أخبر الله سبحانه وتعالى أن هذا الذي قصه عليه إنذار وبلاغ للمشركين، وعذابه وسخطه لن يلحق إلا بالمتمردين الخارجين عن حدوده المتعدين لها.



سورة محمد

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ﴿١﴾﴾ ابتدأ الله سبحانه وتعالىٰ هذه السورة بالتهديد والوعيد لأولئك المشركين الذين كذبوا بالنبي ﷺ وبما جاءهم به من الحق والهدىٰ والقرآن، وجعلوه محل سخريتهم واستهزائهم، بإحباط عملوه في الدنيا من أعمال البر التي كانوا يعملونها من الكرم وحسن الجوار وإغاثة الملهوف ونصرة المظلوم وغير ذلك من الأعمال الحميدة بسبب كفرهم بالله ورسوله ﷺ وصدهم عن سبيل الله تعالىٰ فلا يجدون يوم القيامة من أعمال برهم شيئاً فيدخلهم الله تعالىٰ في عذاب جهنم لا يخفف عنهم من عذابها.

﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَءَامَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ﴿٢﴾﴾ وأما المؤمنون الذين يداومون علىٰ أداء ما افترض الله تعالىٰ عليهم ويعملون بما شرعه لهم منقادين مستسلمين له فإن الله سبحانه وتعالىٰ سوف يكفر عنهم ما بدر منهم من السيئات، وسيغفر لهم ما اقترفوا من الذنوب، وسيصلح لهم جميع أحوالهم في الدنيا والآخرة.

﴿ذَلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ﴾ ثم ذكر الله سبحانه وتعالىٰ السبب في إحباط أعمال الكافرين وتعذيبهم وإثابة المؤمنين وتكفير سيئاتهم، أما الذين كفروا فلأنهم اتبعوا الباطل والضلال ودين الشرك والجاهلية، وأما الذين آمنوا فلأنهم اتبعوا الحق وانقادوا لما جاءهم من الهدىٰ والدين علىٰ لسان نبيهم ﷺ.

﴿وَأَنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِنْ رَبِّهِمْ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ﴿٣﴾﴾ أراد الله سبحانه وتعالىٰ أن سنته جرت أن يبين لعباده أحوالهم كيف ستكون يوم القيامة، وكيف سيكون مصيرهم وتفاوت مراتبهم علىٰ حسب أعمالهم.

﴿فَإِذا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّى إِذَا أَثْخَنْتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا﴾ ثم أمر الله تعالىٰ

عباده المؤمنين وأرشدهم إلىٰ ما يفعلونه عند لقاء عدوهم، فأمرهم أن يجدوا في قتلهم وقتالهم، وليملئوا الأرض من دمائهم، ثم يأسروا بقيتهم وليربطوهم ويشدوا وثاقهم؛ ليزرعوا لأنفسهم الهيبة في نفوس عدوهم، ولتظهر للإسلام شوكة بين أوساطهم ليخافهم ويحذرهم جميع الناس، ولما يريده الله من إلحاق الخزي والذلة بالمشركين.

فإذا انتهت المعركة وافترق الفريقان فقد جعل لهم الخيار في الأسرىٰ بين المن والفداء لأنه قد حصل المقصود من ظهور هيبتهم، وإلحاق الذلة بعدوهم.

﴿ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانْتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِنْ لِيَبْلُوَ بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ﴾ يخبر الله سبحانه وتعالىٰ النبي ﷺ وأصحابه أنه قادر أن ينتصر منهم، وأنه لو شاء أن يهلكهم ويكفيهم شرهم فإن ذلك عليه يسير، ولكن حكمته اقتضت أن يبتلي عباده المؤمنين ويزيد في تكليفهم ليعرضهم علىٰ أفضل النعيم وأجزل العطاء مقابل صبرهم ومصابرتهم في لقاء عدوهم.

﴿وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ ﴿٤﴾﴾ والذين قتلوا في سبيله والدفاع عن دينه فلن يضيع تعالىٰ شيئاً من ثواب جهادهم في سبيل الله، ولا بد أن ينالوا أفضل الجزاء والثواب مقابل ما بذلوه من أرواحهم ودمائهم.

﴿سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ﴿٥﴾ وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ ﴿٦﴾﴾ هذا وعد من الله سبحانه وتعالىٰ بأنه سييسر لهم طريق الهدىٰ، وسينور قلوبهم، ويصلح أحوالهم، ويحسن أوضاعهم، وأنه سيدخلهم في مستقر رحمته ودار كرامته التي وعدهم بها.

﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴿٧﴾﴾ يحث الله سبحانه وتعالىٰ هنا عباده علىٰ الصبر علىٰ أداء ما افترض عليهم من الجهاد في سبيل دينه، ووعدهم بأنهم إذا أخلصوا نياتهم في جهادهم مع النبي ﷺ فإنه سيزيد من رباطة جأشهم وسيقوي قلوبهم وعزائمهم، وسيمنحهم الصبر والقوة التي يزول عندها الرعب والخوف عن قلوبهم، وبنصرهم علىٰ عدوهم.

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعْسًا لَهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ ۝٨ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ ۝٩﴾ وأما الذين كفروا فإن الله تعالىٰ قد أبعدهم وأهانهم، وضرب عليهم الذلة والخزي، وأعد لهم النار والعذاب الشديد جزاءً على سيئ أعمالهم، بسبب إعراضهم عما أنزل الله سبحانه وتعالىٰ إليهم، وتمردهم على نبيهم ﷺ وما جاءهم به من الهدىٰ والقرآن.

وقد أحبط تعالىٰ أعمال البر التي كانوا يعملونها في الدنيا؛ لصدهم عن سبيل الله سبحانه وتعالىٰ، والوقوف في وجه دعوة نبيه ﷺ.

﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا ۝١٠﴾ ثم استنكر الله سبحانه وتعالىٰ على المشركين إعراضهم وصدهم عن دينه على الرغم من معرفتهم بما حل بمن كذبوا قبلهم بأنبيائهم من العذاب والنكال بسبب كفرهم وتكذيبهم، وقد كان المشركون يمرون على ديارهم في طريق أسفارهم وتنقلاتهم وتجاراتهم إلى بلاد الشام واليمن، كديار ثمود التي يسمونها مدائن صالح، وقرىٰ قوم لوط وقوم هود وشعيب، وقد عرفوا أن الله سبحانه وتعالىٰ عذبهم وأهلكهم ودمرهم بسبب كفرهم وتكذيبهم وتمردهم على أنبيائهم؛ فلماذا لم يعتبروا بهم وقد عرفوا مصيرهم؟ وأين عقولهم عن كل هذا؟

ولكن فليعلم أولئك المشركون المكذبون بالنبي ﷺ أنه سيحل بهم مثل ما حل بتلك الأمم إن هم استمروا وأصروا على كفرهم وتكذيبهم بالنبي ﷺ.

﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ ۝١١﴾ ذلك الذي ذكر من وعد الله سبحانه وتعالىٰ بنصره للمؤمنين وتثبيت أقدامهم بسبب أن الله تعالىٰ هو الذي ينصرهم ويثيبهم، وأما الكافرون فلن يجدوا أحداً ينصرهم أو يدفع عنهم من الله سبحانه وتعالىٰ شيئاً، وستضيع عنهم تلك الآلهة التي كانوا يعبدونها، ولن تستطيع أن تنفعهم أو تدفع عنهم شيئاً من عذاب الله تعالىٰ النازل بهم.

﴿إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ هذا وعد من الله سبحانه وتعالىٰ بأن من آمن وصدق به ثم اجتهد بعد ذلك في أداء ما افترض الله عليه فإنه سيدخله دار كرامته في جنات النعيم.

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ ﴿١٢﴾﴾ وأما الذين كفروا فلا حظ لهم ولا نصيب في شيء من رحمة الله سبحانه وتعالىٰ، وسيمتعهم الله تعالىٰ في الدنيا أياماً معدودة يأكلون ويتلذذون فيها، ثم بعد ذلك سيكون مرجعهم ومصيرهم إلىٰ نار جهنم خالدين فيها أبداً.

﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِنْ قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَاهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ ﴿١٣﴾﴾ ثم أخبر الله سبحانه وتعالىٰ أنه لا يعز عليه إهلاك قريش وتدميرهم بسبب كفرهم وتكذيبهم بمحمد صلى الله عليه وآله وسلم، فكم من القرىٰ قد أهلكها ودمرها وأباد أهلها مع ما كانوا فيه من الكثرة والقوة والعزة والجاه والسلطان، فلم يستطيعوا أن يدفعوا عن أنفسهم شيئاً من عذاب الله تعالىٰ الذي أنزله بهم، ولم تستطع قوتهم وكثرتهم أن تدفع عنهم شيئاً؛ فلا تستبعد قريش أن يحل بها مثل ما حل عليهم من العذاب فليسوا أعز منهم ولا أقوىٰ.

﴿أَفَمَنْ كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ كَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ ﴿١٤﴾﴾ ثم أخبر الله سبحانه وتعالىٰ أنه لا يستوي الذي آمن به، وصار علىٰ يقين من دينه، والذي غرق في المعاصي والشهوات، فلا بد أن يجازي الله كلاً علىٰ عمله في الدار الأخرىٰ يوم القيامة، وأن ينال كل منهم جزاء عمله، ولا بد أن يلقىٰ المؤمن ثواب صبره علىٰ ما لقي من الأذىٰ والفقر والشدة، وأن ينال ذلك الظالم والمكذب عقاب تكذيبه وكفره بنعم الله سبحانه وتعالىٰ عليه وجزاء محاربته لله تعالىٰ ورسوله صلى الله عليه وآله وسلم.

﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى

وَلَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ﴾ صفة الجنة التي وعد المتقون صفة لا تخطر لعظمها على قلوب البشر فالعسل فيها يجري في الأنهار ولبنها أنهار والخمر فيها أنهار وفيها أنواع الثمار والفواكه، وفيها رضوان الله ومغفرته.

﴿كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ ﴿١٥﴾﴾ اقتضت حكمة الله أن لا يساوي بين المتقين، وبين من استحق عقاب الله وسخطه لكفره بالله وصده عن سبيله فالمؤمن عند الله ليس كالكافر الذي أعد لهم عذاب جهنم خالدين فيها أبداً، وشرابهم فيها الحميم الذي يقطع أمعاءهم، ويشوي وجوههم، من شدة حرارته.

﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّى إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًا أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ ﴿١٦﴾﴾ ثم تحدث الله سبحانه وتعالى عن المنافقين ووصفهم بأنهم الذين يجلسون في مجلس النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، ويستمعون لما يقرأه عليهم من القرآن غير أنهم، لا يدرون بشيء مما كان يقوله النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، لأن قلوبهم مغلقة لا ينفذ الهدى والنور إليها، بسبب أعمال الكفر التي يعملونها في الخفاء، وآذانهم لا تعي آيات الله تعالى لأن قلوبهم مليئة بالكفر والنفاق، وهؤلاء المنافقون كانوا كثرة في أوساط المسلمين، وكانوا يشكلون الخطر الأكبر على الإسلام والدين؛ لذلك أكثر الله سبحانه وتعالى من التحذير منهم في كثير من الآيات.

﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ ﴿١٧﴾﴾ ثم وصف الله سبحانه وتعالى المهتدين الذين قبلوا ما جاءهم به النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ من النور والهدى وتواضعوا لقبول ما جاءهم به، فأخبر تعالى بأنه سوف يزيدهم هدى وبصيرة ونوراً في قلوبهم، وعلماً يميزون به بين الحق والباطل، وأنهم كلما اهتدوا وازدادوا إيماناً فإنه يزيدهم من التنوير والبصيرة في قلوبهم.

﴿فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا فَأَنَّى لَهُمْ إِذَا جَاءَتْهُمْ ذِكْرَاهُمْ ﴿١٨﴾﴾ أراد الله سبحانه وتعالىٰ بذلك أن يقطع نبيه ﷺ أمله ويحسم طمعه من إيمان المنافقين وقبولهم دعوته وما جاء به، وأنه مهما حاول في هدايتهم فلن يزدادوا إلا ضلالة وجهلاً وبعداً، ولن ينفكوا عن الكفر والنفاق والتكذيب حتىٰ قيام الساعة فإذا قامت الساعة فإنهم حينئذ سيذعنون بالتصديق والإيمان ويندمون ولكنه لا ينفعهم.

﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾ يخاطب الله سبحانه وتعالىٰ هنا نبيه ﷺ ويدخل معه غيره بالتبع، أراد منهم أن يتيقنوا ويعلموا العلم اليقين الذي لا شبهة معه ولا شك ألّا إله إلا الله سبحانه وتعالىٰ وحده، لا شريك له ولا مثيل، لا في السماوات ولا في الأرض.

﴿وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ ثم بعد معرفته تعالىٰ أمرهم أن يستغفروه ويكثروا من الرجوع إليه ويتوبوا عن كل ما مضىٰ منهم من التقصير فيما سبق، وأن يظهروا الندم علىٰ ما أسلفوا من معاصي الشرك والجاهلية.

﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ ﴿١٩﴾﴾ فهو تعالىٰ عالم بما يسرونه ويضمرونه في قلوبهم من الكفر والنفاق لا تخفىٰ عليه خافية في الأرض ولا في السماء، وهو عالم بجميع حركات خلقه وسكناتهم وتنقلاتهم وتقلبهم في أعمالهم لا يخفىٰ عليه شيء من ذلك. أراد الله سبحانه وتعالىٰ أن يكونوا علىٰ حذر منه؛ لأنه مراقب لهم أينما كانوا. والمثوىٰ: هو المقعد ومكان النوم والراحة.

﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ﴾ أمر النبي ﷺ أصحابه في أول الإسلام وبداية الدعوة بالصبر وكف أيديهم عن قتال المشركين أو الرد عليهم، وأن يتحملوا أذاهم مهما كان، لأنهم كانوا قلة قليلة، والإسلام شوكته ضعيفة، فلو أنهم قاتلوا في تلك الظروف لاستأصلهم المشركون، ولقضوا علىٰ الإسلام وأهله في يوم واحد.

وكان بعضهم خلال ذلك يعترض ويقترح على الله سبحانه وتعالى أن ينزل على نبيه ﷺ سورة تأمرهم بقتال المشركين ومدافعتهم، ومكثوا على تلك الحالة نحواً من اثني عشر عاماً، ثم عندما أنزل الله سبحانه وتعالى آية القتال والإذن بمقاتلة المشركين خالط هؤلاء الذين كانوا يقترحون على النبي ﷺ الإذن بالقتال حينها الخوف والهلع الشديد حتى أصبحت أعينهم من شدة ما هم فيه من الخوف تدور في محاجرها كحال المحتظر سواء، وهم ينظرون إلى النبي ﷺ مترقبين متى سيأمرهم بالقيام والقتال.

﴿فَأَوْلَى لَهُمْ۝٢٠﴾ دعاء على المنافقين ومعناه أصابهم ما يكرهون.

﴿طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَعْرُوفٌ﴾ وكان المفروض أن يقولوا: سمعاً وطاعة لما أمرنا الله تعالى به ورسوله.

﴿فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ۝٢١﴾ فإذا نزل الأمر والإذن بالقتال فليصدقوا في قتالهم وجهادهم، فهذا أفضل لهم مما هم عليه من النفاق والاقتراح على الله سبحانه وتعالى وعلى رسوله ﷺ.

﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ۝٢٢ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَى أَبْصَارَهُمْ۝٢٣﴾ أراد الله سبحانه وتعالى أن أولئك المنافقين إن تمردوا عن الإيمان وعن القتال مع النبي ﷺ فقد أوشكوا أو قد صاروا من أهل الفساد في الأرض وتقطيع الأرحام، وذلك أن طبائعهم مجبولة على الشر والفساد في الأرض؛ فحذرهم الله سبحانه وتعالى وتهددهم وأخبرهم أنهم من أهل لعنته وغضبه حتى ولو كانوا يشهدون ألّا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، ويقيمون الشرائع مع المسلمين، لأنهم لا يتعظون بما يسمعون من القرآن، وقد غطى الكفر والنفاق قلوبهم فلا ينفذ إليها شيء من الهدى الذي جاءهم به النبي ﷺ، وأبصارهم تعامت عن رؤية الحق والصواب لسبب ما يحملونه في صدورهم من النفاق والحقد والعداوة للدين وأهله.

﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْءَانَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴿٢٤﴾﴾ لماذا لا يتدبر المنافقون القرآن ولماذا لا يتعظون بما يسمعونه من الآيات التي تتلى عليهم؟ هل السبب أن قلوبهم مسكرة بأقفال محكمة؟ نعم، هذا هو السبب في عدم تدبرهم للقرآن، وعدم انتفاعهم بمواعظه، فإن ما في صدورهم من الكفر والنفاق قد أقفل قلوبهم وحجز بينها وبين التدبر لآيات الله والانتفاع بها والاهتداء بنورها.

﴿إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَى لَهُمْ﴿٢٥﴾﴾ سمى الله سبحانه وتعالى المنافقين مرتدين، وذلك أنهم بعد أن سمعوا الهدى، وبعد أن عرفوا الإسلام ورأوا نوره- ارتدوا على أدبارهم معرضين عن كل ما سمعوا ورأوا من الآيات، واتبعوا ما زينه لهم الشيطان من أعمال الكفر والنفاق وساروا في طريقه.

﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ﴿٢٦﴾﴾ ثم ذكر الله سبحانه وتعالى السبب في استيلاء الشيطان عليهم، ودخولهم في حبائله ومصائده، فذكر أنه هو ما كانوا ينقلونه إلى الكفار من الأخبار عن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ وأصحابه، ومداهنتهم لهم وإظهار موالاتهم؛ ليسلموا شرهم فذلك هو الذي جرهم إلى الكفر والنفاق، ولكن الله سبحانه وتعالى مطلع عليهم، وعلى ما يسرونه وينقلونه وسيجازيهم بما يستحقونه.

﴿فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ﴿٢٧﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ﴿٢٨﴾﴾ ثم أخبر الله سبحانه وتعالى عن حالتهم كيف ستكون عند رؤيتهم لملائكة الموت مقبلة إليهم لنزع أرواحهم، والحسرة والندم الذي سيعتريهم ذلك الوقت بسبب ما عملوا من معاصي الله سبحانه وتعالى ورسوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، وفعل ما يغضبه ويوجب سخطه من نقل أسرار النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ للمشركين وبسبب كراهتهم ونفورهم عما يرضي الله تعالى من الأعمال الصالحة.

﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَنْ لَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ﴿٢٩﴾﴾ هل يظن هؤلاء المنافقون أن أمرهم ونفاقهم سيظل مخفياً، وأن ما في باطنهم لن ينكشف لأحد، فلا بد أن يظهر الله تعالى أمرهم ويفضحهم، ويهتك سترهم بين جميع الناس.

﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِيمَاهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ﴾ ثم أخبر الله سبحانه وتعالى نبيه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ بأنه لو شاء أن يطلعه ويخبره عن المنافقين فرداً فرداً لفعل، ولكنه سوف يعرفهم من خلال نبراتهم وفلتات ألسنتهم.

﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ﴿٣٠﴾﴾ وأخبره أنه عالم بهم فرداً فرداً، ومطلع على جميع أعمالهم وسيحاسبهم عليها.

﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ﴿٣١﴾﴾ ثم أخبر الله سبحانه وتعالى أنه لا بد أن يكشف أمر المنافقين ويظهره للناس، وذلك بما يبتليهم به من فرض الجهاد على المشركين، وقد أقسم الله تعالى على ذلك ليظهر أمرهم، وليتميزوا من أهل الإخلاص واليقين، وقد حصل ذلك في يوم أحد عندما أمر الله تعالى النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ ومن معه بالجهاد، فلما صاروا في وسط الطريق انسحب عبد الله بن أُبَيّ بثلث جيش النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، وفي يوم الخندق عندما ذهبوا من بين يدي النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ حتى لم يبق معه إلا المخلصون.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَشَاقُّوا الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا وَسَيُحْبِطُ أَعْمَالَهُمْ﴿٣٢﴾﴾ ثم أخبر الله سبحانه وتعالى أن المشركين الذين جدوا واجتهدوا في الكفر والصد عن سبيل الله تعالى وكيد النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ لن يصلوا إلى ما أملوا من إبطال ما جاء به النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ من عند الله تعالى وسوف يظهر الله دينه ويعز أولياءه وسيبطل أعمالهم وسيغلبون ويقهرون.

﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾ يا أيها الذين آمنوا لا تفعلوا كفعل المنافقين الذين يؤمنون بألسنتهم دون قلوبهم فالمؤمن حقاً يطيع الله تعالى ورسوله ﷺ ويعادي عدو الله ورسوله ويسعى جهده في إعزاز الدين وإقامته.

﴿وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ﴿٣٣﴾﴾ بعصيان الله تعالى والتمرد على رسوله ﷺ، وأخلصوا نياتكم وإيمانكم وطاعتكم لله تعالى ورسوله.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴿٣٤﴾﴾ ثم أخبر الله سبحانه وتعالى عن الكافرين الذين يمنعون الناس عن الذهاب إلى النبي ﷺ وعن السماع منه، والذين ينصبون الحرب والعداوة لكل من آمن بالله تعالى ورسوله وماتوا وهم على ذلك بأنه لا نصيب لهم ولا حظ في شيء من رحمة الله تعالى، ولا مغفرته وليس لهم إلا عذاب النار.

﴿فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَنْ يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ﴿٣٥﴾﴾ يحث الله تعالى نبيه ﷺ وأصحابه بأن لا يظهروا شيئاً من الذلة والهوان أمام المشركين، وأن لا يتضعضعوا في أنفسهم أو تضعف عزائمهم عن مواجهتهم وجهادهم، أو يطلبوا منهم الصلح في شيء من أمورهم؛ لأن في ذلك إظهار الذلة، وقد أراد الله تعالى أن يكونوا فوقهم، وأن يكونوا أعزة أقوياء، وأن يثقوا بنصر الله تعالى فهو معهم بتأييده ونصره، وأخبرهم أيضاً بأنه سيثيبهم على ذلك بأجزل الثواب وأحسنه.

﴿إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾ فلا تغتروا بزينة الحياة الدنيا وشهواتها، ولا تؤثروها على دينكم؛ وقد شبهها الله سبحانه وتعالى بلعبة الصبيان التي سرعان ما يملون منها ثم يتركونها.

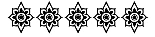
﴿وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلَا يَسْأَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ﴿٣٦﴾ إِنْ يَسْأَلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا وَيُخْرِجْ أَضْغَانَكُمْ﴿٣٧﴾﴾ وإن تخلصوا في إيمانكم

لله تعالىٰ وتتقوا عصيانه وفعل ما يوجب سخطه وغضبه فإنه سيوفيكم ثواب أعمالكم ولن ينقصكم شيئاً من أجوركم؛ وأيضاً فهو تعالىٰ لم يسألكم إنفاق جميع أموالكم في سبيل نصر دينه، ولم يطلب منكم إلا إنفاق شيء يسير منها، ولو سألكم إنفاق جميع أموالكم لبخلتم بها ولرفضتم إخراجها وإنفاقها.

﴿هَاأَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تُدْعَوْنَ لِتُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنْكُمْ مَنْ يَبْخَلُ وَمَنْ يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَنْ نَفْسِهِ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ﴾ وها هو الرسول ﷺ يدعوكم اليوم لتنفقوا شيئاً من أموالكم في سبيل الله فكيف لو طلب منكم إنفاقها جميعاً؟ فمن بخل فإنما يمنع عن نفسه الخير وعطاء الله سبحانه وتعالىٰ، ومن أنفق فإن الله تعالىٰ سيعوضه خيراً مما أنفق فضلاً عن الثواب الذي يدخره له، والله سبحانه وتعالىٰ غني عن أموالكم وليس محتاجاً إلىٰ شيء من نفقاتكم، وما أمركم به من الإنفاق فإنما هو امتحان واختبار منه لكم.

﴿وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ﴾ وهو تعالىٰ غير محتاج لنفقتكم فأنتم المحتاجون والفقراء لما عنده.

﴿وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ﴿٣٨﴾﴾ وإن أعرضتم ورفضتم الإنفاق في سبيل الله والقيام مع النبي ﷺ فاعلموا أن الله سبحانه وتعالىٰ ليس محتاجاً إليكم، وسيهلككم ويعذبكم، ثم يستبدل بكم قوماً غيركم ينصرون دينه ويقيمون شرائعه، وينصرون نبيه ﷺ، وقد قيل: إن هؤلاء القوم الذين سيجعلهم الله تعالىٰ مكانهم من أهل اليمن، ويقال: إنهم من أهل فارس.



سورة الفتح

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا۝١﴾ أخبر الله سبحانه وتعالى نبيه ﷺ مبشراً له بفتح مكة، وأنه سيفتحها له فتحاً عظيماً، وسيدخلها بنصر مؤزر، وسيظهره على أهلها ويمكنه منهم حتى يستسلموا له صاغرين ويدخلوا في الإسلام مكرهين، وبهذا الفتح العظيم دخلت بقية قبائل العرب في الإسلام أفواجاً؛ لأن قريشاً كانت لهم المنزلة العليا بين القبائل العربية، وكانت المهيمنة والمسيطرة، وكانت الكلمة كلمتهم، والأمر أمرهم، وهم الذين وقفوا في وجه دعوة النبي ﷺ، وصدوا الناس عن اتباعه أو السماع له، فلما أسلموا أسلم بإسلامهم بقية القبائل العربية.

﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا۝٢ وَيَنْصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا۝٣﴾ وذلك أن الناس كانوا قد أذنبوا إلى النبي ﷺ عندما كفروا به في بداية أمره ولم يصدقوا دعوته، فأخبر الله سبحانه وتعالى نبيه ﷺ بأنه سيغفر لهم الذنب الذي حصل منهم بإسلامهم، وأما النبي ﷺ فهو معصوم عن الذنوب والمعاصي.

ونعمة الله تعالى التي أتمها على نبيه ﷺ هي النصر والظفر، وقد وصف الله سبحانه وتعالى نصره ذلك بالعزيز؛ لأنه بذلك النصر انتهى الشرك من جزيرة العرب كلها، وقد بشر الله سبحانه وتعالى نبيه بهذا الفتح قبل أن يقع بمدة من الزمان نحواً من سنة.

﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ﴾ أنزل الله تعالى في قلوب المؤمنين السكينة والطمأنينة فسكنت قلوبهم واطمأنت نفوسهم، وزال عنهم الخوف والقلق فثبتوا مع النبي ﷺ وأطاعوه فيما أمرهم به ولم يخالفوه فاكتسبوا بذلك المزيد من الأجر والثواب ورضوان الله تعالى.

﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴿٤﴾﴾ والسكينة هي من أسباب النصر وهي جند من جنوده وجنود الله لا تعد ولا تحصى فالريح من جنوده، أهلك الله بها قوم نوح، والماء من جنوده أهلك الله به قوم نوح وفرعون وقومه والبعوض جند من جنوده لو أن الله تعالى يرسلها لاستئصال أمة لاستأصلتهم و..إلخ.

﴿لِيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَكَانَ ذَلِكَ عِنْدَ اللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا﴿٥﴾﴾ وكل ما كان من تهيئة الله سبحانه وتعالى لنصر نبيه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ والمؤمنين وتأييده بجنوده، وإنزال سكينته في قلوبهم، ورباطة جأشهم، وثباتهم في قتال المشركين حتى أزالوا الشرك، وطهروا جميع البلاد ليدخل عباده المؤمنين جنات تجري من تحتها الأنهار، ويعرضهم على الفوز بالنعيم الدائم، والسعادة الأبدية.

﴿وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ﴾ ولتتم حجته تعالى على الكافرين والمنافقين المكذبين بوعد الله وبآياته وبرسله الذين ينشرون بين المسلمين التشكيك والشبه والريبة في أمر النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، غير واثقين بنصر الله تعالى وتأييده له، ويقولون إن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ إنما يمنيهم الأماني الباطلة، ويعدهم بالوعود الكاذبة، وأنه إنما يغرر بوعوده على سفهاء الأحلام بما يعدهم من السيطرة، والاستيلاء على جميع البلاد، وفي الحقيقة أنه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ إنما يدعوهم إلى الهلاك والخزي.

﴿عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴿٦﴾﴾ الخزي والهلاك والعاقبة المخزية هي للمنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات ولهم مع ذلك غضب الله ولعنته في الدنيا وأعد لهم جهنم خالدين فيها يوم القيامة.

﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ۝٧﴾ فليثق المؤمن بنصره فجنود السماوات والأرض من الملائكة والريح وغير ذلك كلها بيده وتحت سيطرته وقبضته، ومن كان الله سبحانه وتعالىٰ معه فالنصر حليفه.

وقد نزلت هذه السورة في عام الحديبية، وكان الشرك مطبقاً علىٰ جميع بلاد الجزيرة العربية، والمشركون محيطون بالنبي ﷺ وأصحابه من كل جهة، فنزلت هذه السورة تبشر النبي ﷺ بالظهور والنصر، وكان المنافقون والذين في قلوبهم مرض يظنون بالنبي ﷺ والمؤمنين ظن السوء فقالوا: إن المشركين سوف يتكالبون عليهم من كل جهة حتىٰ يقضوا علىٰ الإسلام وأهله، وكانوا يرجفون بذلك بين أوساط المسلمين، وينشرون الرعب بينهم.

﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ۝٨﴾ ثم أوحىٰ الله تعالىٰ إلىٰ نبيه ﷺ بأنه أرسله شاهداً يشهد له يوم القيامة بأنه قد بلغ الناس رسالة ربه وتلا عليهم آياته، وكذلك كل نبي أرسله الله سبحانه وتعالىٰ سوف يشهد يوم القيامة علىٰ أمته، وذلك حين ينكر المكذبون يوم القيامة تبليغهم رسالة ربهم.

وأرسل الله سبحانه وتعالىٰ محمداً ﷺ ليبشر من أطاع الله ورسوله بالجنة والفوز بثواب الله تعالىٰ، ونذيراً للذين كفروا وكذبوا بالله ورسوله وجحدوا بآياته ورسله بعذاب شديد في جهنم خالدين فيها أبداً إن هم استمروا علىٰ ما هم عليه من الكفر والتكذيب.

﴿لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ۝٩﴾ وكذلك أرسله الله تعالىٰ ليدعوا الناس إلىٰ الإيمان والتصديق بالله ورسوله، ومعنىٰ تعزروه تنصروه، وتوقروه أي تعطوه حقه من التوقير والتعظيم، وأرسله أيضاً لأجل أن يأمرهم بتنزيه الله تعالىٰ عن الشريك والولد وتقديسه وتعظيمه.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ ثم أخبر الله سبحانه وتعالىٰ عن أولئك الذين بايعوا النبي ﷺ بيعة الرضوان تحت

الشجرة في غزوة الحديبية.

وذلك أن النبي ﷺ دعا الناس إلى الخروج معه لأداء العمرة ثم لما وصل بهم إلى ناحية الحديبية -قريباً من مسجد عائشة المعروف- أرسل عندها رسوله إلى أهل مكة ليخبرهم بقدومهم، وأنهم لم يأتوهم مقاتلين وإنما أتوا قاصدين زيارة البيت الحرام، فوصل الخبر إلى النبي ﷺ بأن أهل مكة قتلوا رسوله، فجمع عندها المسلمين وطلب منهم البيعة على السمع والطاعة والجهاد معه حتى الموت فبايعه المسلمون، وبقي قلة من المنافقين تهربوا من تلك البيعة؛ فأخبر الله سبحانه وتعالى عن هؤلاء الذين بايعوا النبي ﷺ بأنهم إنما يعاهدون الله تعالى ببيعتهم هذه، وكانت هذه البيعة قبل فتح مكة بنحو سنة.

﴿فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ۝١٠﴾ فمن نقض عهده هذا، ونكث بيعته فهو بذلك إنما جنى على نفسه، وعرض نفسه لسخط الله سبحانه وتعالى وغضبه، وأما من وفى بعهده وبيعته فسينال رضا الله تعالى وجزيل ثوابه.

﴿سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾ ثم أخبر سبحانه وتعالى نبيه ﷺ عن الذين تخلفوا عنه من المنافقين ولم يخرجوا معه في هذه العمرة بأنهم سوف يعتذرون إليه عند رجوعه إلى المدينة بأموالهم وأولادهم أنها شغلتهم ومنعتهم عن الخروج معه، وسيطلبون منه السماح وقبول العذر، وهم في الحقيقة كاذبون، وقلوبهم مليئة بالكفر والكذب والنفاق، وهم المنافقون الذين حول المدينة من الأعراب والبدو.

﴿قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ۝١١ بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَى أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ فأمر الله سبحانه وتعالى نبيه ﷺ

أن يجيب على أعذارهم تلك بأنها لن تنفعهم عند الله تعالى، ولن تدفع عنهم شيئاً من عذابه وسخطه، وأن يخبرهم بأن الله سبحانه وتعالى قد أطلعه على مكنون ما يسرونه ويضمرونه من أنه لن يرجع إلى المدينة بعد خروجه هذا، وأنها ستكون القاضية والنهاية، وأن هذا في الحقيقة هو الذي منعهم عن الخروج معه لا ما يعتذرون إليه بانشغالهم بأموالهم وأولادهم.

﴿وَظَنَنْتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ وَكُنْتُمْ قَوْمًا بُورًا﴿١٢﴾﴾ وظنكم ذلك الذي ظننتموه من هلاك النبي صلى الله عليه وآله وسلم ومن معه، وأنها ستكون النهاية ظن سوء، وظن أهل الخسارة والبوار المكذبين بوعد الله تعالى ورسوله، وقد أخبر الله سبحانه وتعالى نبيه صلى الله عليه وآله وسلم بذلك الحدث، وما سيكون من المنافقين قبل أن يرجع ويصل إليهم.

﴿وَمَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَعِيرًا﴿١٣﴾﴾ وتخلف المنافقين عن الخروج مع النبي صلى الله عليه وآله وسلم إنما هو لكونهم على الكفر، ولم يكونوا قد ترطبوا بالإيمان كما يزعمون ويدعون، وقد أعد الله سبحانه وتعالى لهم بسبب ذلك العذاب الشديد في نار جهنم خالدين فيها أبداً.

﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴿١٤﴾﴾ ملك السماوات والأرض وما بينهما لله وحده يحكم في ملكه بما شاء لا معقب لحكمه، يغفر لمن يشاء حسب ما تقضي به الحكمة، ويعذب من يشاء على حسب ما تقضي به الحكمة، وقد قضت حكمته بالمغفرة ﴿ لِمَنْ تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى﴿٨٢﴾﴾ [طه]، وبالعذاب للكافرين والمنافقين والظالمين الذين ماتوا وهم مصرون على الكفر والنفاق والظلم.

﴿سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انْطَلَقْتُمْ إِلَى مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ قُلْ لَنْ تَتَّبِعُونَا كَذَلِكُمْ قَالَ اللَّهُ مِنْ قَبْلُ﴾ إذا أراد النبي صلى الله عليه وآله وسلم أن ينطلق هو وأصحابه إلى مغانم ليأخذوها فإن المنافقين الذين تخلفوا عن الخروج معه إلى مكة يقولون للنبي صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه:

اسمحوا لنا بالمسير معكم، فيقول لهم النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ بأمر الله: لن تتبعونا ولن تصحبونا؛ لأن الله تعالى قد حظر خروجكم معي.

﴿فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا بَلْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا ۝١٥﴾ فسيقول المنافقون الذين منعهم النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ من الخروج معه: لقد حسدتنا يا محمد أنت وأصحابك من أن نشارككم في المغانم، ولولا الحسد لسمحتم لنا ولما منعتمونا من الخروج معكم، هكذا يكون جواب المنافقين لأنهم لم يفهموا السبب الذي حرموا لأجله من الخروج مع النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، أما المؤمنون فقد علموا أن الله منع المتخلفين من الخروج معهم لأجل أنهم عصوا النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ حين دعاهم إلى الخروج معه إلى مكة فعصوه وقعدوا، بالإضافة إلى أنهم أهل كيد للنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ فلو خرجوا معه لأفسدوا بين المؤمنين وأرجفوا وخذلوا ولحاولوا إفساد الغزوة.

﴿قُلْ لِلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَى قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ﴾ وأن يخبر هؤلاء المخلفين بأنه سوف يدعوهم بعد مدة من الزمان إلى قتال قوم أولي بأس وقوة وشدة، وأهل خبرة وكفاءة بفنون القتال، وقد أراد بهم أهل ثقيف والطائف، ثم إن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ دعاهم فعلاً بعد فتح مكة للخروج إلى حنين لقتال أولئك القوم.

﴿فَإِنْ تُطِيعُوا يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا وَإِنْ تَتَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُمْ مِنْ قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ۝١٦﴾ فإن تطيعوا نبيكم أيها المتخلفون عن الحديبية فإن الله سبحانه وتعالى سيكفر عنكم ما مضى من تخلفكم وتمردكم عن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، وعن الخروج معه، وسيثيبكم.

وأما إن رفضتم وتمردتم واختلقتم الأعذار كما فعلتم فيما سبق فاعلموا أن الله سبحانه وتعالى سوف ينزل بكم العذاب الشديد في الدنيا والآخرة.

﴿لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ﴾ لم يحرج الله سبحانه وتعالى في القتال إلا على الأصحاء الأقوياء ذوي القدرة على القتال دون أهل الأعذار المانعة عن الكر والفر وحسن القتال.

﴿وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَنْ يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا﴿١٧﴾﴾ يبشر الله سبحانه وتعالى الذين يستجيبون لنداء نبيهم ويهبون لنصرته ونجدته والدفاع عنه بأنه سيثيبهم على ذلك بأجزل الثواب وأحسنه في دار كرامته ومستقر رحمته، وأما من يعرض عن دعوة الله ولا يستجيب لنداء نبيه صلى الله عليه وآله وسلم فسيعذبه الله سبحانه وتعالى عذاباً أليماً في الدنيا والآخرة.

﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴿١٨﴾ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴿١٩﴾﴾ ثم أوحى الله سبحانه وتعالى إلى نبيه صلى الله عليه وآله وسلم أن يبشر أولئك الذين بايعوه بيعة الرضوان بأنه قد رضي عنهم وأحبهم، وأنه قد علم بصدق نياتهم على الثبات مع نبيهم صلى الله عليه وآله وسلم، والقتال بين يديه حتى الموت فأنزل بسبب ذلك الثقة والطمأنينة في قلوبهم حتى لا يلحقهم الخوف أو الرعب، وأيضاً بشرهم بفتح سيفتحه على أيديهم ويصيبون من ورائه الغنائم والأموال الطائلة حتى يصبحوا من بعد فقرهم أغنياء، وكان ذلك الذي بشرهم به هو فتح خيبر، وقد حصل لهم بعد رجوعهم من الحديبية فتح خيبر ثواباً منه سبحانه وتعالى عندما علم بصدق نياتهم.

وأما السبب في ترك النبي صلى الله عليه وآله وسلم لقتال المشركين من قريش فلأنه عقد معهم الصلح بعد هذه البيعة ورجعوا جميعاً سالمين غانمين، وعندما رجعوا توجه بهم النبي صلى الله عليه وآله وسلم إلى خيبر وكان ما كان من الفتح والمغانم الكثيرة.

﴿وَعَدَكُمُ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنْكُمْ﴾ ووعدهم الله تعالى أيضاً بأنه سيثيبهم بمغانم كثيرة وأموال طائلة يصيبونها فيما يستقبل من زمانهم غير ما عجله لهم من مغانم خيبر، وكذلك أثابهم بأن كف أيدي المشركين عن قتالهم ثواباً عجله لهم، وجزاءً على صدقهم مع نبيهم صلى الله عليه وآله وسلم.

﴿وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا ۝٢٠﴾ وأيضاً قد جعل الله سبحانه وتعالى ذلك الذي عجله لهم آية بينة لهم ليتيقنوا صدق وعد الله تعالى ورسوله ﷺ.

﴿وَأُخْرَى لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ۝٢١﴾ وأخبرهم أيضاً أن هناك مغانم أخرى تنتظرهم، وقد سبق في علمه أنها ستكون لهم، غير أن وقتها لم يحن بعد، وهي مغانم فارس والروم، أخبرهم الله تعالى بها ووعدهم قبل حصولها بزمان، والسبب في أنه لم يحن وقتها أنهم لم يكن لهم في ذلك الوقت من العدد والعدة والقوة والتمكن ما يكفي لغزو فارس والروم.

﴿وَلَوْ قَاتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوُا الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ۝٢٢﴾ وأخبرهم أنهم لو كانوا قاتلوا المشركين بعد بيعتهم تلك للنبي ﷺ لهزم الله سبحانه وتعالى المشركين من أهل مكة على أيديهم ولقتلوهم شر قتلة.

﴿سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ۝٢٣﴾ وأخبرهم أن هذه هي سنته في السابقين واللاحقين أن ينصر رسله والمؤمنين في آخر الأمر وأن يجعل العاقبة والظفر لهم.

﴿وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ۝٢٤﴾ نزلت هذه الآية بعد الحديبية بنحو من سنتين وذلك عندما دخل النبي ﷺ مكة فاتحاً لها، وقد ألقى الله سبحانه وتعالى عند ذلك في قلوب المشركين الخوف والرعب من النبي ﷺ ومن معه حتى استسلموا لهم من دون قتل أو قتال، وقيل إن ذلك يوم الحديبية.

﴿هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدْيَ مَعْكُوفًا أَنْ يَبْلُغَ مَحِلَّهُ﴾ أراد الله سبحانه وتعالى بهم أهل مكة، فهم الذين قاموا في وجه دعوة النبي ﷺ ومنعوه وأصحابه من زيارة البيت الحرام في يوم الحديبية،

ومنعوا الهدي الذي ساقه النبي ﷺ إلى مكة، وكان قد ساق سبعين جملاً هدايا للبيت، فمنع المشركون الهدي أن يصل مكة، فأخبر الله سبحانه وتعالى بأن المشركين قد استحقوا بذلك القتل غير أن حكمة الله تعالى قد اقتضت أن لا يقاتلهم النبي ﷺ في مكة.

﴿وَلَوْلَا رِجَالٌ مُؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُؤْمِنَاتٌ لَمْ تَعْلَمُوهُمْ أَنْ تَطَئُوهُمْ فَتُصِيبَكُمْ مِنْهُمْ مَعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ ثم أخبر الله سبحانه وتعالى نبيه ﷺ عن السبب في كف أيدي المسلمين عن قتال أهل مكة، فذكر أن بين أوساط مشركي مكة رجالاً ونساءً مؤمنات لا يعلمهم النبي ﷺ وأصحابه فكف الله تعالى أيديهم عنهم مخافة أن يطئوهم بخيلهم ورجالهم، ويقتلوهم عن طريق الخطأ فيلحقهم تبعات ذلك، والذي منع هؤلاء المؤمنين عن الخروج من بين أوساط المشركين والهجرة إلى النبي ﷺ فهو ما كانوا عليه من الضعف وقلة الحيلة، وعدم تمكنهم من التخلص من بين أيدي المشركين.

﴿لِيُدْخِلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٢٥﴾﴾ ثم أخبر الله سبحانه وتعالى نبيه ﷺ أن هؤلاء المؤمنين لو كانوا خرجوا من بين أوساط المشركين أو انحازوا منهم إلى ناحية وجانب لعذب المشركين وقتلهم بسيوف النبي ﷺ وأصحابه شر قتلة.

﴿إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ﴾ كان هؤلاء المشركون قد استكبروا وأخذتهم الحمية والعصبية الجاهلية عندما سمعوا بقدوم محمد ﷺ وأصحابه إليهم، وعزموا على منعه، ولكن إرادة الله سبحانه وتعالى كانت فوق إرادتهم، وقد أراد الله سبحانه وتعالى قهرهم وإذلالهم.

﴿فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴿٢٦﴾﴾ ولما أراد الله تعالى أن يذل المشركين وأن يقهرهم أنزل السكينة ورباطة الجأش في قلوب المؤمنين، وزرع في أنفسهم الثبات وعدم المبالاة بالمشركين، ومنحهم الحمية على الدين،

والعزم على تطهير مكة من المشركين حتى دخلوا مكة، وقهروا المشركين وأذلوهم وأخزوهم، وطهروا مكة من دنس الشرك والكفر في السنة التالية.

﴿لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا۝٢٧﴾ بعد خروج النبي صلى الله عليه وآله وسلم من المدينة قاصداً مكة لأداء العمرة بشر المؤمنين عند مبايعتهم له بالبيعة المسماة بيعة الرضوان بأنه قد أراه الله سبحانه وتعالى في المنام بأنهم سيدخلون مكة معتمرين.

وبعد بيعتهم هذه تم الصلح بين النبي صلى الله عليه وآله وسلم والمشركين على عدم دخول مكة تلك السنة فرجعوا إلى المدينة لينتظروا إلى العام القادم حسبما اتفق النبي صلى الله عليه وآله وسلم مع المشركين، فدخل من ذلك شيء في قلوب بعض المسلمين حتى سألوه عن وعده هذا لهم بدخول مكة أين هو؟ فأجاب عليهم النبي صلى الله عليه وآله وسلم بأنه لم يعدهم في نفس ذلك العام، وأنه لا زال على وعده ولا بد أن يتحقق، فأوحى الله سبحانه وتعالى إلى نبيه صلى الله عليه وآله وسلم أن يخبر المسلمين أن لا يرتابوا ولا يدخل في قلوبهم شيء من الشك أو الريبة في مصداقية ما وعدهم به، وأنهم لا بد أن يدخلوها غير أن حكمة الله سبحانه وتعالى اقتضت أن يتأخروا عن ذلك العام لمصلحة قد علمها لهم، وفعلاً فقد فتح الله تعالى على أيديهم في ذلك العام خيبر، وأصابوا منها خيراً كثيراً وغنموا الأموال الكثيرة والطائلة، وبساتين النخيل والأعناب حتى أصبحوا بعد فقرهم أغنياء، ودخل في الإسلام في فترة الصلح أفواج كثيرة.

﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا۝٢٨ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ﴾ ثم أخبر الله سبحانه وتعالى بأنه قد أنعم على عباده وامتن عليهم بأن أرسل إليهم محمداً صلى الله عليه وآله وسلم ليخرجهم من ظلمات الجهل والشرك إلى نور الحق والهدى، وقد أرسله الله تعالى بهذا الدين لأنه قد أراد أن يظهره على جميع الديانات، وأن يكون هو الدين السائد المهيمن، ثم خاطب الله سبحانه وتعالى عباده بأن هذا الرسول الذي أرسله إليهم رسول صادق مرسل من عنده.

﴿وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا﴾ وأخبر أن المؤمنين الذين أخلصوا في إيمانهم معه هم من أهل الشدة والبأس على المشركين، وفيما بينهم أهل لين وتواضع وبساطة، ومن صفتهم أيضاً أنهم يقطعون ليلهم ساجدين وراكعين، وذاكرين لله تعالى وباكين خوفاً من غضبه وسخطه.

﴿سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ﴾ وأخبر أن وجوههم تشع نوراً من كثرة ركوعهم وسجودهم لله تعالى، ثم أخبر الله تعالى أنه قد وصفهم في التوراة بهذا الوصف.

﴿وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ﴾ فوصفهم في الإنجيل وشبههم بزرع نابت قد أخرج ثمره وخرجت أوراقه واستغلظت سيقانه واستقام عليها، يعجب بنظرها أهل الزراعة لما يرون من صلاح الزرع وقوته ونضارته وكثرة حبه، فهكذا أراد الله أن يكون المؤمنون ليقهروا أهل الكفر ويخزوهم ويرهبوهم ويرعبوهم.

﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾﴾ ثم أوحى الله سبحانه وتعالى إلى نبيه صلى الله عليه وآله وسلم بأن يخبرهم بأنه قد وعد أهل الإيمان والأعمال الصالحة من أصحابه مغفرة وأجراً عظيماً على صبرهم وثباتهم على إيمانهم.

❁❁❁❁❁

سورة الحجرات

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١﴾﴾ كان الصحابة يقللون من أدبهم في مجالس النبي صلى الله عليه وآله وسلم، ويكثرون عليه في الكلام، ويفرضون آراءهم واقتراحاتهم عليه، ويطلبون منه تنفيذ ما يقترحونه عليه من دون أي مبالاة منهم به أو مراعاة لحرمته ومقامه،

فنهاهم الله سبحانه وتعالىٰ عن ذلك، وأمرهم بمراعاة مقامه، وحفظ حرمته، وعدم فرض أي رأي أو مشورة عليه، وأن يجعلوا كلمته فوق كلمتهم، وأن يكون هو الآمر والناهي بينهم، وأن عليهم فرض السمع والطاعة فيما اقترح أو أشار من دون أي جدال أو مراجعة، وأما أن يعرضوا آراءهم ومشوراتهم عليه إن طلب منهم فلا بأس، ولكن من دون أي اقتراح أو افتراض.

ثم أخبر الله سبحانه وتعالىٰ أن ذلك معصية كبيرة عنده فلا يتهاونوا بنبيهم ﷺ أو يقللوا من قدره، وذلك أن النبي ﷺ كان صاحب أخلاق عالية ومروءة وسماحة وكرم ولين، فلا يقهر أحداً أو يقلل من شأن أحد أو يستنقصه أو يجفوه بكلمة، أو يرد إساءة من أساء إليه في الكلام أو لم يتأدب في حضرته.

﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ۝٢﴾ ثم زاد الله سبحانه وتعالىٰ علىٰ ذلك بأنهم إذا تكلموا في حضرة النبي ﷺ أو سمح لهم بالكلام أو طلب منهم المشورة في شيء فينبغي أن لا يرفعوا أصواتهم فوق صوته، وأن يتكلموا وعليهم السكينة والوقار وكأن علىٰ رؤوسهم الطير من شدة الحياء، وأن يكونوا في غاية التأدب في حضرته، وأن يعظموه حق تعظيمه، وأن يكون كلامهم معه من نوع خاص، أي: كما علمهم الله سبحانه وتعالىٰ وأرشدهم، لا كما يتكلم بعضهم مع بعض، وأخبرهم أن من رفع صوته علىٰ صوت النبي ﷺ فقد اقترف معصية كبيرة وإثماً عظيماً يحبط ثواب ما عملوا من الأعمال الصالحة.

وقد نزلت هذه الآية في الشيخين أبي بكر وعمر عندما تخاصما وارتفعت أصواتهما في حضرة النبي ﷺ، كل منهما يقترح علىٰ النبي ﷺ ويدلي برأيه ومشورته، ويريد أن يكون رأيه هو الذي يمضي عند النبي ﷺ، حتىٰ علت أصواتهما وارتفعت، وكثر الشجار بينهما، وفي الحديث: (كاد الشيخان أن يهلكا).

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ۝٣﴾ ثم أثنى الله سبحانه وتعالى على أهل الأدب في الكلام في حضرة النبي صلى الله عليه وآله وسلم، وأخبر عنهم بأنهم أهل التقوى الذين يستحقون المغفرة والأجر العظيم عند الله سبحانه وتعالى.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ۝٤﴾ وهؤلاء هم وفد بني تميم حين أقبلوا إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم ونادوه بأرفع أصواتهم أن يخرج إليهم من دون أي حياء أو مراعاة لمقامه وحضرته، ونادوه أن يستعجل في الخروج فقد أقبل إليه كبارهم وشعرائهم، فذمهم الله سبحانه وتعالى على ذلك ولامهم ووبخهم ووصفهم بأنهم أهل جفاء وسوء أدب وخفة عقل.

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ۝٥﴾ ولو صبروا وانتظروا حتى يخرج إليهم النبي صلى الله عليه وآله وسلم لكان ذلك أفضل عند الله تعالى وعند خلقه.

ثم أخبر الله سبحانه وتعالى أنه قد تجاوز لهم عن ذلك ورفع عنهم المؤاخذة في ذلك؛ لأنهم أعراب ذوو جهل وجفاء، لم يكونوا قد عرفوا دين الإسلام ولا أخلاق المسلمين ولا تأدبوا بآدابه.

﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ۝٦﴾ يعلم الله سبحانه وتعالى عباده ويرشدهم إلى أن يتبينوا ويتحققوا من صحة خبر الفاسق إن نقل إليهم خبراً.

والسبب في ذلك أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم كان قد بعث الوليد بن عقبة بن أبي معيط -وكان رجلاً فاسقاً- لجمع صدقات بني المصطلق، فرجع إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأخبره بأنهم رفضوا تسليم صدقاتهم له، وهو في الحقيقة لم يسألهم ولم يصل إليهم، بينما كان بنو المصطلق في انتظار رسول النبي صلى الله عليه وآله وسلم ليكرموه ويعطوه صدقات أموالهم، فكذب هذه الكذبة عليهم، وكاد أن يشعل فتنة بسبب كذبته هذه.

والسبب في ذلك أنه عندما رآهم مجتمعين لاستقباله خاف منهم وهرب لثارات قديمة كانت بينهم، وقد هم النبي صلى الله عليه وآله وسلم بسبب كذبته أن يخرج إليهم، فنزلت هذه الآية يأمر الله سبحانه وتعالى فيها عباده أن يتثبتوا ويتبينوا في صحة ما يسمعون أو ما ينقل إليهم من الأخبار خشية أن يأخذوا أحداً أو ينالوا عرضه بسبب كذبة، وأن لا يتسرعوا في الحكم على أحد حتى يتبينوا؛ لئلا يندموا فيما بعد.

وقد وصف الله سبحانه وتعالى خبر الفاسق بأنه جهالة، وأخبر أن هذه الجهالة سوف تعقبها الندامة.

﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ﴾ واعلموا أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بين أظهركم، وأنه لو أخذ بآرائكم واقتراحاتكم لهلكتم، ولوقعتم في الشدائد والمصائب، فلا يكبر عليكم أيها المؤمنون إن كان النبي صلى الله عليه وآله وسلم لا يعمل بآرائكم أو يأخذ بنصائحكم واقتراحاتكم؛ لأن ذلك ليس منه إلا لمصلحتكم وحرصاً عليكم أن تقعوا في المهالك، أراد الله سبحانه وتعالى أن لا يقترحوا عليه في أي شيء، أو يفرضوا عليه أي رأي أو مشورة.

﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ ۝٧ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ۝٨﴾ واعلموا أن الله سبحانه وتعالى قد تفضل عليكم بأن زين لكم الإيمان وجعله محبباً إلى قلوبكم، وبغض الكفر والفسوق والمعاصي إلى قلوبكم وجعلكم تكرهونها نعمة منه تعالى وتفضلاً تفضل به عليكم.

﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا﴾ ثم ألزم الله المؤمنين إذا رأوا طائفتين أو فئتين من المسلمين يتقاتلون أو أشرفوا على القتال أن يسعوا جهدهم في الصلح بينهما، وأخبرهم أن ذلك فرض محتوم عليهم حتى يتم الصلح بينهما.

﴿فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ۝٩﴾ وذلك بعد أن سعيتم في الصلح وفصلتم بينهما، فإذا بغت إحداهما بعد ذلك واعتدت على الأخرى فإنه يجب عليكم أن تقوموا في نحر الباغي منهما، وأن تدفعوا عدوانه حتى يستجيب لحكم الله تعالى، ثم تنظروا في أمرهما وتسعوا في الصلح بينهما والانتصاف للمظلوم منهما، ويجب عليكم أن تتحروا في العدل والحكم بالقسط بينهما.

﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ۝١٠﴾ وأن الواجب على المؤمنين السعي في الصلح بين المتخاصمين منهم وإصلاح شأنهم؛ لأن الله تعالى أراد أن يكون المؤمنون إخوة متحابين، وأن لا يكون بينهم ما ينافي الأخوة.

﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يَسْخَرْ قَومٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَى أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ﴾ ثم أمر الله سبحانه وتعالى عباده مرشداً لهم ومعلماً ومؤدباً إلى أن لا يحتقروا أحداً أو يتنقصوه أو يقللوا من شأن أحد فقد يكون من تنقصوه خيراً منهم وأفضل عند الله، وكذلك النساء فلا يتنقصن أحداً منهن أو يسخرن منها، إما لأجل فقر أو ضعف أو قلة حيلة، أو دمامة، فقد تكون خيراً منهن عند الله سبحانه وتعالى.

﴿وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ ولا يعب بعضكم بعضاً، وقد أراد الله سبحانه وتعالى أن لا يعب الأخ أخاه، وقد عبر عن الأخ بالنفس لشدة رابط الأخوة بين المؤمنين.

﴿وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ﴾ ونهاهم أن ينادي أحد أخاه وصاحبه إلا بأحب الأسماء إليه، وأن لا يدعوه بما يكره من الأسماء.

﴿بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ۝١١﴾ أراد الله سبحانه وتعالى أن لا يدعوا المسلم أخاه بـ: «يا فاسق»،

أو يكون المراد أن الذي يعيب الناس ويسخر منهم يستحق اسم الفاسق، ويعد عاصياً عند الله تعالى تجب عليه التوبة من ذلك لأنه خرج من حدود الله، وظلم نفسه بما جنى عليها من استحقاق العذاب.

﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ﴾ ثم أمر الله سبحانه وتعالى عباده المؤمنين أن يحسنوا ظنهم بإخوانهم، وأن يحملوهم على السلامة في جميع أمورهم، وأن لا يصدقوا ما نقل عنهم من الكلام، وأن لا يأخذوهم بالتهمة، وقد أراد الله تعالى بالظن هنا ما لا بينة له عليه، ونهاهم عن التجسس على إخوانهم المؤمنين، وتتبع عوراتهم، ومحاولة كشف سترهم وأسرارهم، ونهاهم أيضاً أن لا يذكروا إخوانهم في ظهر الغيب بما يكرهون، وقد شبه الله سبحانه وتعالى من يغتاب أخاه بمن يأكل لحمه وهو ميت دلالة على شناعة ذلك وقبحه عند الله سبحانه وتعالى.

﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ۝١٢﴾ واجتنبوا معاصي الله تعالى من ظن السوء والتجسس والغيبة.

ثم بعد أن أرشد الله سبحانه وتعالى عباده إلى هذه الآداب أخبرهم أنه قد غفر لهم ما سلف منهم من ذلك، فليتقوه فيما بقي.

﴿يَاأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا﴾ الذكر والأنثى هما آدم وحواء، ثم بعد ذلك تكاثر نسلهما، وخرج منهما الذراري الكثيرة حتى صارت شعوباً وقبائل متفرقة، والشعب أكبر من القبيلة، ليتم التعارف فيما بينهم، لا ليتفاخر بعضهم على بعض، ويترفع بعضهم على بعض.

﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ ثم رد الله تعالى على من يدعي الفضل والشرف بنسبه ومن يفتخر لكونه من آل فلان بأن الأمر ليس كما يدعي ويظن،

وأن الكريم عند الله تعالىٰ والرفيع هو من اتقىٰ الله، ومن كانت قدمه أرسخ في تقوىٰ الله تعالىٰ فهو أفضل عنده وأشرف وأكرم عليه، فكرم الإنسان ورفعته وشرفه علىٰ قدر منزلته عند الله سبحانه وتعالىٰ.

﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾﴾ فاتركوا الترفع علىٰ الناس واستحقارهم فهو عليم بكل أعمالكم، ومطلع علىٰ كل أسراركم، وسيجازيكم علىٰ ذلك.

﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ ءَامَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٤﴾﴾ أقبل قوم من الأعراب إلىٰ النبي ﷺ رافعين أصواتهم معلنين أنهم قد دخلوا في الإيمان، وقد أصبحوا مؤمنين، فأمر الله سبحانه وتعالىٰ نبيه ﷺ أن يجيب عليهم أنهم لم يستحقوا اسم المؤمنين بعد؛ لأنهم لم يعرفوا حقيقة الإيمان ولا زالوا علىٰ مراحل من هذا الاسم، ولا بد أن يعرفوا أولاً حقيقة الإيمان وشرائطه، وليقولوا: أسلمنا واستسلمنا، وانقدنا لله ورسوله، ثم يتعلمون بعد ذلك شرائع الإسلام ويعملون بها، فإذا فعلوا ذلك فقد استحقوا اسم الإيمان، وأمره أن يخبرهم أنهم إن أسلموا ثم عملوا بشرائع الإسلام وأحكامه فإن الله تعالىٰ سيوفيهم أجور أعمالهم، وسيثيبهم عليها ولن ينقص من أجور أعمالهم شيئاً، وأن يخبرهم أنهم إن التزموا بشرائع الإسلام فإن الله تعالىٰ سوف يتجاوز عن سيئات أعمالهم، وسيغفرها لهم.

﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴿١٥﴾﴾ وأخبرهم أنه لا يسمىٰ مؤمناً، ولا يستحق هذا الاسم إلا من آمن بالله تعالىٰ، وأخلص في إيمانه وثبت عليه، واستقام ولم يترك مجالاً للشك والريبة في قلبه في صدق النبي ﷺ وصحة ما جاء به، واستقاموا علىٰ الإيمان ولم يتراجعوا عنه، ثم بعد أيمانهم بالله تعالىٰ ورسوله يبذلون أموالهم وأنفسهم في سبيل الله وإعلاء كلمته فهؤلاء هم المؤمنون الصادقون في إيمانهم عند الله تعالىٰ.

﴿قُلْ أَتُعَلِّمُونَ اللَّهَ بِدِينِكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴿١٦﴾﴾ ثم أمر الله سبحانه وتعالى نبيه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ أن يسأل الأعراب مستنكراً عليهم إقبالهم عليه، مخبرين له أنهم قد آمنوا بالله ورسوله: وكانوا بدواً أجلافاً لا أدب فيهم ولا مراعاة لحرمة النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، فأخبرهم صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ بأن الله تعالى عالم بهم وبنياتهم، وليس محتاجاً إلى أن يدوروا بين شوارع المدينة، معلنين بين الناس عن إيمانهم، ولا أن يحدثوا تلك الضجة التي صدرت منهم.

﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا﴾ ثم أخبر الله سبحانه وتعالى نبيه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ أن هؤلاء الأعراب بإقبالهم إليه أنهم يتمننون عليه بإسلامهم، وأنهم إنما يريدون بذلك أن يرتفع شأنهم ويعلوا ذكرهم بين الناس، وأن ينوه النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ بذكرهم بين المسلمين.

﴿قُلْ لَا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُمْ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴿١٧﴾﴾ فأمره الله تعالى أن يجيبهم بأن لا يأتوا إليه متمننين عليه بإسلامهم، وأن يقبلوا إلى الله تعالى فهو الذي هداهم وأنعم عليهم بنعمة الإسلام، وهو الذي يستحق أن يتوجهوا إليه ويشكروه ويطيعوه جزاء هدايته لهم، لا أن يكون الله ورسوله هو الذي يشكرهم.

﴿إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴿١٨﴾﴾ واعلموا أن الله تعالى وحده هو الذي يختص بعلم ما في السماوات وما في الأرض، وهو العالم بما في ضمائركم أيها الأعراب، والعالم بنياتكم والمطلع على حقيقة إيمانكم، فأقبلوا إليه وتوجهوا بقلوبكم له، وأدوا حق شكره بأداء ما افترض عليكم من طاعته وامتثال أوامره.



سورة ق

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ق وَالْقُرْءَانِ الْمَجِيدِ ①﴾ أقسم الله سبحانه وتعالى بالقرآن المجيد ليلفت انتباه المشركين وأسماعهم إلى النظر في حقيقة ما أقسم الله سبحانه وتعالى به؛ لأن العادة أن لا يحلف أحد إلا بشيء عظيم القدر والشأن، وذلك أن المشركين كانوا يعرضون عن النبي ﷺ أشد الإعراض، ويرفضون السماع منه أو الاستماع إليه، فكان هذا القسم مما سيشد انتباههم إلى سماع هذا الشيء العظيم الذي أقسم الله سبحانه وتعالى به، وقد ابتدأ الله تعالى هذه السورة بهذا الحرف -والله أعلم- للتنبيه على أن هذه السورة قد كثر فيها ذكره أكثر من غيرها من السور.

﴿بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ ②﴾ ولكن المشركين كفروا بهذا القرآن المجيد الذي أقسم الله سبحانه وتعالى به، وأعرضوا عنه أشد الإعراض. والمجيد: هو ذو الشرف والرفعة، أي: أن هذا الكلام الذي اشتمل عليه القرآن له شرف ومزية على سائر الكلام، وأنه فوق كل كلام في البلاغة والفصاحة والسلامة من الاختلاف والتناقض والتبديل، وكفروا بهذا النبي الذي أرسله الله سبحانه وتعالى إليهم وتعجبوا كيف يكون رسولاً وهو واحد منهم؛ وكانوا يزعمون أنه لا يصح أن يرسل الله تعالى نبيا إلا من الملائكة أو من جنس غير جنس البشر.

﴿أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ ③﴾ ثم استنكروا عليه وتعجبوا مما جاءهم به، وأخبرهم به من أمر البعث والحساب، وقالوا كيف يصح أن ترجع تلك العظام البالية إلى الحياة مرة أخرى وتحيا من جديد؟ وزعموا أن ذلك مستحيل.

﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِنْدَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ ④﴾ ثم رد الله سبحانه وتعالى عليهم بأن باطلهم وشركهم قد أوشك على الزوال والاضمحلال، وأن الأرض ستطهر منهم ومن شركهم شيئاً فشيئاً، وأن

الإسلام سيقضي عليهم ويطهر الأرض منهم.

﴿بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَرِيجٍ۝٥﴾ وطبيعتهم التكذيب والتمرد فهم قوم متمردون على الله تعالى وعلى رسوله، وقد كذبوا بما جاءهم به النبي ﷺ من القرآن، حتى اختلط عليهم الأمر، وتاهوا بسبب تكذيبهم وتمردهم.

﴿أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ۝٦ وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ۝٧﴾ ثم استنكر الله سبحانه وتعالى عليهم ما هو الذي دعاهم إلى الشك والريبة مع ما يرون أمامهم من آيات الله سبحانه وتعالى؟ فالسماء فوقهم يقلبون فيها أعينهم، وينظرون إلى ما فيها من آيات قدرة الله وعظمته وربوبيته، والأرض أمهم يتقلبون على ظهرها ويرون ما جعل الله عليها من الجبال الراسيات، وما يخرج منها من الأشجار والثمار وأصناف النبات، وما جعل الله تعالى لهم فيها من الأرزاق والأرفاق والمنافع التي لا تعد ولا تحصى.

﴿تَبْصِرَةً وَذِكْرَى لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ۝٨﴾ وكل ذلك جعله الله سبحانه وتعالى آية تبصر الناظر إليها، وتدله إلى معرفته واستحقاق إلهيته وعبادته، وإلى وحدانيته، وما فيها من التذكير لعباده المؤمنين ليزدادوا بها إيماناً وإنابة إلى الله تعالى.

﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ۝٩ وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ۝١٠ رِزْقًا لِلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا﴾ ثم ذكر الله تعالى عباده بأنه الذي أنعم عليهم بالمطر، وجعل لهم فيه البركة والمنافع الكثيرة، والباسقات أراد الله سبحانه وتعالى بها العالية المرتفعة في السماء، والطلع النضيد هو ما تخرجه النخل من التمر الكثير المرصوص في مطوه، وكل ذلك خلقه الله سبحانه وتعالى رحمة لعباده، ورزقاً لهم، ويحتمل أن يكون الرزق هو المطر الذي ينزله الله تعالى من السماء والذي يتسبب في إخراج نبات الأرض الذي يأكلونه، وهذا المعنى هو الأرجح، ولذلك قال بعده:

﴿وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا كَذَلِكَ الْخُرُوجُ ⑪﴾ لا تستبعدوا أيها المشركون أن يحيي الله تعالى الموتى يوم القيامة فقد رأيتم كيف يحيي تعالى الأرض بعد موتها بقدرته، وقد رد الله سبحانه وتعالى بذلك على المشركين المنكرين للبعث والنشور حين أمرهم أن ينظروا في الماء الذي يحيي به الأرض الميتة ويكسوها بالخضرة بعد اليباس كذلك سيحيي الموتى، وأمرهم أن يقيسوا حياتهم بعد موتهم على حياة الأرض بعد موتها.

﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ الرَّسِّ وَثَمُودُ ⑫ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَانُ لُوطٍ ⑬ وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ ⑭﴾ يخاطب الله تعالى نبيه ﷺ بأن لا يكبر عليه تكذيب قومه واستهزائهم به، فتلك الأمم الماضية قد كذبت جميعاً بأنبيائها، وقد استحقوا نزول عذاب الله وسخطه عليهم بسبب تكذيبهم وتمردهم، وقد أهلكهم الله سبحانه وتعالى ودمرهم، فكذلك قومك يا محمد، فشأنهم كشأن أولئك القوم سواء.

﴿أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ⑮﴾ ثم رجع الله تعالى إلى الاستنكار على المشركين استبعادهم للحياة والبعث بعد الموت، وسألهم هل أعياه تعالى أو أعجزه أو تعسر خلقهم وإيجادهم أول مرة؟ ولن يجدوا بداً من الاعتراف لله تعالى بالقدرة على ذلك، فما دام قد قدر على خلقهم من العدم فخلقهم مرة أخرى بعد الموت أيسر وأهون عليه في الظاهر، وأما في الحقيقة فكما قال سبحانه: ﴿مَا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ [لقمان:٢٨].

ثم أخبر الله تعالى بأنهم متمردون ومعاندون، وأن طبيعتهم التكذيب والاستهزاء والتمرد، وأنهم لا زالوا في شكهم وتشكيكهم وريبهم على الرغم من معرفتهم بآيات قدرة خالقهم.

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ⑯﴾ يؤكد الله سبحانه وتعالى هنا على عظيم قدرته وسعة علمه

وإحاطته بما ظهر وما بطن يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور، واستيلاء قدرته على كل شيء فمتى أراد أن يأخذ الإنسان أخذه وهو تعالى أقرب إليه من نفسه، وهذا أيضاً رد من الله تعالى على المشركين إنكارهم للبعث والحياة مرة أخرى بأنه قد خلق الإنسان وأوجده من العدم فهو قادر على خلقه وإيجاده مرة أخرى، وأخبرهم بأنه عالم بما يدور من الخواطر في أنفسهم، ومحص لجميع الوساوس والخواطر التي قد مرت على الإنسان في حياته لا يخفى عليهم من ذلك شيء، وأنهم في قبضته وتحت قدرته وسيطرته، وأنه متى أراد أن يأخذهم فلن يعجزوه فهم أقرب إليه من أنفسهم، وعبر عن قربهم منه بحبل الوريد كناية عن شدة قربهم إليه وتمكنه منهم.

﴿إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ ۝١٧ مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ۝١٨﴾ ثم أخبر الله سبحانه وتعالى أنه قد وكل بكل امرئ ملكين يراقبانه، ويحصيان عليه جميع أقواله وأعماله، وهما حاضران عنده لا يفارقانه، لا يتكلم بكلمة إلا كتباها ولا يعمل عملاً صغيراً كان أو كبيراً إلا سجلاه.

﴿وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ ۝١٩﴾ عندما تحضر ملائكة الموت لانتزاع أرواح الكافرين عندها سيعلمون حقيقة ما كانوا ينكرونه، وسينكشف لهم حينئذ الغطاء فحينئذ يعلمون العلم اليقين الضروري الذي لا شك عنده ولا ريبة أن ما وعدهم الله حق وصدق، وأن الله على كل شيء قدير.

﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذَلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ ۝٢٠ وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ ۝٢١ لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ ۝٢٢﴾ ثم أخبر الله تعالى عن يوم الوعيد الذي ينكرونه ويكذبون به بأنه يوم ينفخ الله في صورهم الروح فيحييهم من جديد، فعندها سيصدقون ما كانوا ينكرونه ويشككون فيه من الحق والقرآن الذي جاءهم به نبيهم صلى الله عليه وآله وسلم، وسيعلمونه العلم الضروري الذي لا ينتفي بشك ولا شبهة بعد أن كان النبي صلى الله عليه وآله وسلم يريهم إياه في الدنيا فيتعامون عنه ويعرضون عن تصديقه.

﴿وَقَالَ قَرِينُهُ هَذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ﴿٢٣﴾ أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ﴿٢٤﴾ مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُرِيبٍ﴿٢٥﴾ الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا ءَاخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ﴿٢٦﴾﴾ ثم أخبر الله تعالى عن القرين الذي يغوي صاحبه ويصده عن الهدى بأنه سيتكلم يوم القيامة عند الله تعالى بأن هذا يا رب قريني الذي كنت أغويه في الدنيا وأضله، فعندها سيأمر الله سبحانه وتعالى ملائكة العذاب بسوقهم جميعاً إلى جهنم جزاء على كفرهم وتمردهم.

وقوله: «ألقيا» بلفظ التثنية فإن المراد به الواحد إذ تستعمل العرب ذلك كثيراً. والمناع: هو الذي يبخل بما أعطاه الله سبحانه وتعالى من النعم ولا يخرج زكاة أمواله. ومعتد: صفة للكفار أيضاً يعني أن طبيعته العدوان على الناس. والمريب: هو الذي يكثر التشكيك في آيات الله تعالى، ومن صفته أيضاً أنه اتخذ له إلهاً يعبده من دون الله تعالى.

﴿قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ وَلَكِنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ﴿٢٧﴾﴾ وذلك عندما يلقي التابع اللوم على متبوعه، والقرين على قرينه، فعند ذلك سيجيب ذلك القرين والمتبوع بأنه الذي استجاب لهوى نفسه، وأنه الذي تسبب في ضلال نفسه وإغوائها عن الحق، وأن نفسه هي التي مالت به، وجرته إلى الضلال.

﴿قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُمْ بِالْوَعِيدِ﴿٢٨﴾ مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴿٢٩﴾﴾ فيرد الله سبحانه وتعالى عليهم بأنه لا ينفعهم الجدال والتخاصم عنده، فقد سبق أن حذرهم وأنذرهم على ألسنة رسله وأنبيائه، وقد أبلغهم الحجة، ولم يبق لهم مجال اليوم إلا دخول جهنم؛ لأن هذا هو ما كان قد وعدهم به ولا خلف لوعده وقوله ولا تبديل.

﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ﴿٣٠﴾﴾ ويذكرهم الله سبحانه وتعالى أيضاً يوم القيامة حين تلقي بهم زبانية العذاب في نار جهنم، عظم جهنم وسعتها وسعيرها وشدة حنقها على المجرمين وطلبها للمزيد.

﴿وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ۝٣١ هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ۝٣٢ مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ۝٣٣﴾ في ذلك اليوم سوف تقرب الجنة للمتقين حتى يروها ماثلة أمام أعينهم، فيخبرهم الله سبحانه وتعالى عندما يرونها بأن هذه هي الجنة التي كان يعدهم الله بها في الدنيا، ويخبرهم أنها دار المتقين الذين كانوا يكثرون من الإنابة والرجوع إليه الذين يتحفظون من الوقوع في معاصي الله سبحانه وتعالى وما يوجب غضبه وسخطه، والذين كانوا يخافونه ويخافون عذابه، ويؤمنون بلقاء الله تعالى وباليوم الآخر على الرغم من عدم رؤيتهم ومشاهدتهم له، وآمنوا تصديقاً منهم لأنبيائه ورسله ؑ.

﴿ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ۝٣٤ لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ۝٣٥﴾ تقول لهم الملائكة: ادخلوا الجنة سالمين آمنين من كل شر وسوء ومكروه، وستسلم عليهم الملائكة وتبشرهم بالخلود في النعيم الدائم، وستخبرهم بأن ما يتمنونه سوف يجدونه ماثلاً بين أيديهم من دون أي تعب أو مشقة، وتخبرهم بأن الله سبحانه وتعالى سوف يزيدهم على ما يشتهونه نعماً أخرى يمتعهم بها ليست في حسبانهم.

﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُمْ بَطْشًا فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ هَلْ مِنْ مَحِيصٍ۝٣٦ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ۝٣٧﴾ ثم أخبر الله سبحانه وتعالى نبيه ﷺ أنه لن يتعسر أو يصعب عليه إهلاك قومه من قريش، وأنهم لن يعزوا عليه فكم من القرون والأمم قبلهم أهلكهم وعذبهم على الرغم من أنهم كانوا أكثر منهم عدداً وأشد بطشاً وأكثر قوة وعدة فلم تنفعهم قوتهم من الله سبحانه وتعالى شيئاً، ولم يجدوا لهم أي مفر أو مهرب منه عندما أنزل بهم عذابه؛ وقريش فلا تستبعد نزول عذاب الله تعالى بهم جزاء تكذيبهم وتمردهم على نبيهم.

يحذرهم الله سبحانه وتعالىٰ بذلك ويتأنىٰ بهم عسىٰ أن يؤثر فيهم فيعتبروا ويرجعوا عن تكذيبهم وتمردهم.

ثم أخبر الله سبحانه وتعالىٰ أنه لا يتذكر بذلك إلا أهل العقول، الذين يصغون إلىٰ الذكرىٰ بأسماعهم، ويفتحون لها آذان قلوبهم ولا يغفلون عنها.

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ﴿٣٨﴾﴾ يطلع الله سبحانه وتعالىٰ المشركين علىٰ عظيم قدرته وخلقه، فأمرهم أن ينظروا كيف خلق السماوات والأرض وما بينهما في ستة أيام من دون أن يلحقه أي تعب أو نصب أو مشقة في ذلك، إذاً فهو قادر علىٰ خلقهم وإحيائهم مرة أخرىٰ، وقادر علىٰ أخذهم وتعذيبهم من دون أن يعجزوه أو يستطيعوا أن يهربوا أو يفروا من قبضته وقدرته.

﴿فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ﴾ بعد أن أخبر الله تعالىٰ نبيه ﷺ بما جرىٰ علىٰ تلك الأمم المكذبة، وما لاقىٰ الأنبياء قبله منهم من التكذيب والاستهزاء أمره أن يصبر علىٰ ما يلاقيه من قومه من التكذيب والاستهزاء، وأن يمضي في تبليغ دعوته وما أمر به، غير مبال بشركهم وباطلهم.

﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ﴿٣٩﴾ وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَارَ السُّجُودِ﴿٤٠﴾﴾ وأمره أن يستمر علىٰ المداومة علىٰ ذكر الله تعالىٰ وعلىٰ حمده وتنزيهه عن الشريك، وأن يداوم علىٰ أداء ما افترض عليه من الصلوات في هذه الأوقات المذكورة. وقبل طلوع الشمس: أراد به صلاة الفجر، وقبل الغروب: هي صلاة الظهر والعصر، ومن الليل: أراد بها صلاة المغرب والعشاء، وإدبار السجود: فقد قيل إن المراد بها ركعتي المغرب كما قد ورد في الحديث عن النبي ﷺ.

﴿وَاسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادِ مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ﴿٤١﴾ يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ﴿٤٢﴾﴾ وانتظر يا محمد بقومك يوم القيامة عندما ينادي بهم

منادي الرحمن للبعث والحساب الذي كانوا ينكرونه، وذلك عندما يخلق الله سبحانه وتعالىٰ صيحة تخرجهم أحياءً من قبورهم.

﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا الْمَصِيرُ۝٤٣ يَوْمَ تَشَقَّقُ الْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ۝٤٤﴾ ثم أكد الله سبحانه وتعالىٰ للمشركين بأنه هو الذي بيده حياتهم وموتهم، ثم بعد ذلك بعثهم ونشورهم، وذلك يوم تتشقق الأرض فيخرجوا من جوفها مسرعين إلىٰ إجابة داعي الرحمن للحساب.

﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ﴾ ثم أخبر الله سبحانه وتعالىٰ نبيه ﷺ بأنه أعلم بكل ما يقولون من التكذيب والهزء والسخرية بدعوته، وسيجازيهم علىٰ ذلك، وذلك أن النبي ﷺ كان قد أمتلأ غيظاً من قومه عندما لم ير منهم أي استجابة له أو قبول، وإنما كانوا يقابلونه بالسب والسخط والأذىٰ والاستهزاء والاحتقار، فأنزل الله تعالىٰ عليه هذه الآية ليخفف من غيظه ذلك، ويخبره أنه سينتصف لدينه ولنبيه منهم.

﴿وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِالْقُرْءَانِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ۝٤٥﴾ وأخبره أنه ليس مسلطاً علىٰ إدخالهم في الهدىٰ رغماً عنهم وأنه ليس مكلفاً بهدايتهم، فما عليه إلا تبليغهم وتذكيرهم بآيات الله تعالىٰ قبلوا أم لم يقبلوا، ولكنه لن ينفع تذكيرك يا محمد إلا فيمن يخاف الله تعالىٰ ويخاف غضبه وسخطه.

❁❁❁❁❁

سورة الذاريات



﴿وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا۝١ فَالْحَامِلَاتِ وِقْرًا۝٢ فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا۝٣ فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْرًا۝٤ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ۝٥ وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ۝٦﴾ أقسم الله سبحانه وتعالىٰ بالرياح التي تذروا الرمال والتراب وتلقح به الأشجار، وهي آية من عظيم آياته الدالة علىٰ قدرته وعلىٰ ربوبيته، وقد أقسم الله سبحانه وتعالىٰ بها ليلفت انتباههم إلىٰ آيته العظيمة هذه وينظروا ويتفكروا فيها.

«الحاملات وقرا»: الرياح التي تحمل السحاب المحمل بالماء ثم تجري به في السماء وتسوقه بقدرته تعالىٰ إلىٰ مختلف البلاد التي أراد الله سبحانه وتعالىٰ أن يسقيها.

وقد أقسم الله تعالىٰ بذلك للمشركين ليؤكد لهم صدق ما وعدهم من البعث والحساب والجزاء.

﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ۝٧ إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُخْتَلِفٍ۝٨﴾ ثم أقسم الله تعالىٰ للمشركين مرة أخرىٰ بالسماء ذات الحبك أي المحكمة في بنائها إنهم مكذبون بأمر البعث والحساب، وأن كلاً منهم يقول فيه بقول من التكذيب كقولهم: كيف يحيي العظام وهي رميم؟ وقولهم: ذلك رجع بعيد، ونحو ذلك مما يفترونه ويختلقونه من الأقاويل، ولو نظروا وتفكروا في السماء وما فيها من آيات قدرة الله وقوته لعلموا أن الله قادر علىٰ بعث الناس بعد موتهم ولما استبعدوا ذلك.

﴿يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ۝٩﴾ يعني يصرف عن أمر البعث والحساب من صرف ويعرض عنه من أعرض فالله سبحانه وتعالىٰ غير مبال بتكذيبهم، ولا محتاج إلىٰ تصديقهم، وإنما هم الذين سيتحملون إثم تكذيبهم علىٰ ظهورهم.

﴿قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ۝١٠ الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ سَاهُونَ۝١١﴾ والخراصون هم الكذابون، وقد شبه الله سبحانه وتعالىٰ حالهم في غفلتهم عما جاءهم به نبيهم ﷺ من التحذير والإنذار بمن هو مغمور في وسط الماء فلا يسمع ما يدور حوله من الكلام.

﴿يَسْأَلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ الدِّينِ۝١٢ يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ۝١٣﴾ وأنهم يسألون النبي ﷺ سؤال تهكم واستهزاء وسخرية عن موعد يوم الدين والبعث والحساب، فأمر الله سبحانه وتعالىٰ نبيه ﷺ أن يجيبهم بأن يوم الدين الذي يكذبون به هو ذلك اليوم الذي سيعرضهم الله سبحانه وتعالىٰ علىٰ نار جهنم ثم يعذبهم فيها. ومعنىٰ «يفتنون»: يعذبون.

﴿ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ۝١٤﴾ وسيقول لهم في ذلك اليوم: ذوقوا العذاب الذي كنتم تكذبون به، وتستعجلون نزوله وحلوله في الدنيا.

﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ۝١٥ ءَاخِذِينَ مَا ءَاتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ۝١٦ كَانُوا قَلِيلًا مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ۝١٧ وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ۝١٨ وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ۝١٩﴾ ثم أخبر الله سبحانه وتعالى عن حال عباده المتقين في ذلك اليوم بأنهم يتنعمون في بساتين الثمار والأنهار ويتلذذون بما أعطاهم ربهم من النعيم.

ثم وصفهم الله تعالى بأنهم الذين كانوا يقطعون أوقاتهم ولياليهم في ذكر الله تعالى وتسبيحه والتضرع إليه، يستغفرونه ويتوسلون إليه أن يغفر لهم ذنوبهم وما مضى من سيئاتهم، وقد جعلوا نصيباً من أموالهم للسائل والمحروم، والسائل: هو من يسأل الناس، والمحروم: أراد به الذي يتعفف عن سؤال الناس.

﴿وَفِي الْأَرْضِ ءَايَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ۝٢٠﴾ ثم أخبر الله سبحانه وتعالى أنه قد جعل للناس آيات وعلامات في الأرض تهديهم إلى معرفته حق معرفته وإلى توحيده.

﴿وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ۝٢١﴾ يحثهم الله تعالى أن ينظروا في الآيات التي جعلها لهم في أنفسهم التي توصلهم إلى معرفته والعلم به إن هم نظروا وتفكروا فيها.

﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ۝٢٢﴾ ثم أخبر الله تعالى عباده بأنه جعل رزقهم فيما ينزل من المطر، فلو أنه انقطع عنهم الماء الذي ينزله الله لهم من السماء لماتوا جوعاً.

وقد أراد الله تعالى بقوله: ﴿وَمَا تُوعَدُونَ﴾ أن عذابه أيضاً الذي ينزله على المكذبين كالصيحات والصواعق والحجارة ونحو ذلك يكون من السماء.

﴿فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنْطِقُونَ۝٢٣﴾ ثم أقسم الله سبحانه وتعالى بأن ما أخبرهم به من أمر الرزق والعذاب حق وصدق لا شك فيه ولا ريب.

﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ۝٢٤ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ۝٢٥﴾ ثم خاطب الله سبحانه وتعالىٰ نبيه ﷺ أن يذكر لقومه قصة إبراهيم عليه السلام مع ضيوفه عندما أقبلوا عليه من السماء بالسلام، وكانوا من الملائكة، فسلم عليهم واستنكر في نفسه من هيئتهم التي رآهم عليها.

﴿فَرَاغَ إِلَى أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ۝٢٦ فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ۝٢٧ فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ۝٢٨ فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ۝٢٩ قَالُوا كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكِ إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ۝٣٠﴾ يعني مال بخفية وخلسة إلىٰ أهله -وهذه عادة الكرام مع ضيوفهم- فأقبل عليهم بعجل قد ذبحه وطبخه، فلما رآهم لا يأكلون استنكر وداخله الخوف فقد عرف أنهم من الملائكة، وأنهم لا ينزلون إلا لأمر عظيم، ولكنهم طمأنوه وأخبروه أنهم أتوا مبشرين بغلام سيولد له ويكون من أهل العلم والحكمة والنبوة، فتعجبت امرأته عندما سمعت بذلك الخبر واستنكرت كيف تلد بعد هذا العمر وهذا السن؟ فأخبروها بأن هذا حكم من الله سبحانه وتعالىٰ القادر علىٰ كل شيء، وأن حكمته اقتضت أن تحمل وتأتي بالولد.

﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ۝٣١ قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُجْرِمِينَ۝٣٢ لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ طِينٍ۝٣٣ مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ۝٣٤ فَأَخْرَجْنَا مَنْ كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ۝٣٥ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ۝٣٦﴾ ثم سألهم مرة أخرىٰ لأنه قد علم أن لهم غرضاً وشأناً غير تلك البشارة، فأخبروه بأن الله سبحانه وتعالىٰ أرسلهم إلىٰ تعذيب قوم لوط، والمسومة: هي علامة قد وسمها الله تعالىٰ بها، وخصصها لتعذيب أولئك القوم، وأخبروه بأن الله سبحانه وتعالىٰ قد أمرهم أن يخرجوا المؤمنين من تلك القرية ليدمروا القرية بمن فيها، ولكنه لم يكن هناك من بين جميع القوم إلا لوطٌ وأهل بيته فقط إلا امرأة لوط عليه السلام فكانت كافرة مثلهم، عذبها الله تعالىٰ معهم.

﴿وَتَرَكْنَا فِيهَا ءَايَةً لِلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ۝٣٧﴾ ثم أخبر الله سبحانه وتعالىٰ أنه قد ترك آثار تلك القرية المعذبة باقية، ولم يطمسها لأجل أن تكون عبرة لمن يراها بعدهم.

﴿وَفِي مُوسَى إِذْ أَرْسَلْنَاهُ إِلَى فِرْعَوْنَ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ۝٣٨﴾ ثم أمر الله سبحانه وتعالىٰ نبيه ﷺ أن ينظر في قصة موسىٰ ويقصها علىٰ قومه؛ لعلهم يعتبرون بما جرىٰ بهم وما حل عليهم من عذاب الله جزاءً علىٰ كفرهم وتكذيبهم وتمردهم، فأخبره أنه أرسل موسىٰ عليه السلام إلىٰ فرعون وقومه بالآيات والحجج الواضحة القاطعة التي تدل علىٰ صدق رسالته.

﴿فَتَوَلَّى بِرُكْنِهِ وَقَالَ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ۝٣٩﴾ ولكنه أعرض مستكبراً عن قبول ما جاءهم به، ورموه بالسحر واتهموه بالجنون.

﴿فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ۝٤٠﴾ ولكن الله سبحانه وتعالىٰ أخذه وقومه وعذبهم بأن أطبق عليهم البحر وأغرقهم جزاءً علىٰ تكذيبهم وتمردهم. والمليم: هو المذموم عند الله تعالىٰ.

﴿وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ۝٤١ مَا تَذَرُ مِنْ شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ۝٤٢﴾ وجعل الله تعالىٰ للناس في عادٍ عبرة وعظة فلعل المكذبين يرعوون عن غيهم إذا عرفوا ما جرىٰ علىٰ عاد حين أصروا علىٰ الكفر بنبيهم هود عليه السلام وتكذيبه فيما جاءهم به من عند ربه، فقد عذبهم الله تعالىٰ بأن أرسل عليهم ريحاً مدمرة، فلا تمر هذه الريح علىٰ شيء إلا طحنته ودمرته وأهلكته.

﴿وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا حَتَّى حِينٍ۝٤٣ فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ وَهُمْ يَنْظُرُونَ۝٤٤ فَمَا اسْتَطَاعُوا مِنْ قِيَامٍ وَمَا كَانُوا مُنْتَصِرِينَ۝٤٥﴾ وكذلك لتنظر قريش في قصة ثمود ففيها آية وعبرة لعلهم يعتبرون بما جرىٰ عليهم، ويقلعوا عن تمردهم وتكذيبهم، وذلك أن الله سبحانه وتعالىٰ أرسل إليهم صالحاً يبلغهم ويحذرهم وينذرهم ويدعوهم إلىٰ الإيمان بالله تعالىٰ وإخلاص العبادة له وحده، ولكنهم أعرضوا وتمردوا عليه، فأنزل الله تعالىٰ

عليهم صاعقة من السماء صعقتهم وأهلكتهم ودمرتهم، ولم يستطيعوا حراكاً بعدها، ولم يقدروا أن يدفعوا عن أنفسهم شيئاً من ذلك العذاب النازل بهم.

وقوله: ﴿وَهُمْ يَنْظُرُونَ﴾ يعني: أنها نزلت عليهم في وضح النهار وهم يرونها ويشاهدونها نازلة بهم.

﴿وَقَوْمَ نُوحٍ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ۝٤٦﴾ وذكر الله تعالى ما جرى على قوم نوح قبل أولئك القوم من العذاب والهلاك بسبب كفرهم وتكذيبهم بنبيهم.

﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ۝٤٧﴾ ذكر الله تعالى عظيم آيته في السماء حيث بناها سبحانه وتعالى وأحكم بناءها بقوته وقدرته، والأيدي: كناية عن القوة والقدرة. ومعنى «موسعون» يعني: أن ملكه واسع ولا نهاية له.

﴿وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ۝٤٨﴾ والأرض مهدها لهم وأصلحها لمعيشتهم وسكنهم، فانظروا في عجيب حكمة الله فيما خلق لكم من سمائه وأرضه.

﴿وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ۝٤٩﴾ وانظروا فيما خلق الله سبحانه وتعالى من أصناف المخلوقات، ففي ذلك آية دالة ناطقة لله سبحانه وتعالى بالوحدانية والقدرة.

﴿فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ۝٥٠ وَلَا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَهًا ءَاخَرَ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ۝٥١﴾ ثم أوحى الله سبحانه وتعالى إلى نبيه ﷺ بعد أن قص على قومه ما جرى على قوم لوط عليه السلام وعلى عاد وثمود وفرعون وقومه من عذاب الله تعالى- أن يحذرهم من أن يصيبهم من عذاب الله مثل ما أصاب هؤلاء المكذبين الذين أصروا على تكذيب أنبيائهم، فإن أحبوا السلامة والنجاة من عذاب الله فليفروا إلى الله مستسلمين منقادين له وحده، تاركين لعبادة غيره، فلا مفر لهم ولا مهرب من الله تعالى ومن عذابه إلا إليه، وأنهم إن لم يطيعوه ويعملوا بما يرضيه فإنه سيحل بهم عذابه وسخطه الذي أوشك أن ينزله بهم.

﴿كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ۝٥٢﴾ دأب كل أمة من الأمم قبل قومك يا محمد أنهم إذا أرسل الله تعالى إليهم رسولاً

فإنهم يكذبونه ويستهزئون به ويتمردون عليه، وقد لاقت الأنبياء قبلك مثل ما لقيت من قومك من الرمي بالسحر والجنون والتكذيب والاستهزاء.

﴿أَتَوَاصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ۝٥٣﴾ إن رسل الله جميعاً لقوا من أممهم من التكذيب والاستهزاء والاتهام بالسحر والجنون فلا يكبر عليك يا رسول الله ما لقيت من قومك فكل رسول من قبلك قد لقي مثل ما لقيت، واتهمه قومه بمثل ما اتهمك قومك من السحر والجنون، والسبب الذي دعى الأمم السابقة واللاحقة إلى التكذيب والاستهزاء بأنبيائهم ورسلهم واتهامهم بالسحر والجنون هو أنهم توغلوا في الكفر واسترسلوا في طاعة الشيطان واتباع الأهواء.

﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَا أَنْتَ بِمَلُومٍ۝٥٤ وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ۝٥٥﴾ فأعرض عنهم يا محمد، فقد أديت ما عليك من التبليغ، ولم يبق عليك أي لوم بعد أن قد بلغتهم، وتذكيرك لن ينتفع به إلا أولئك الذين آمنوا بك فهم الذين سيستمعون إليك، وينتفعون بمواعظك.

﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ۝٥٦ مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعِمُونِ۝٥٧ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ۝٥٨﴾ ثم أخبر الله سبحانه وتعالى أنه لم يخلق المكلفين من الإنس والجن إلا لعبادته والإخلاص له وحده، وأنه لم يطلب منهم شيئاً غير ذلك، فهو غير محتاج إليهم في شيء، وهم المحتاجون إليه والفقراء إلى ما عنده؛ فهو الذي يرزقهم ويعطيهم.

﴿فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذَنُوبًا مِثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَابِهِمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ۝٥٩﴾ ثم أوحى الله سبحانه وتعالى نبيه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ أن يخبر قومه أن لا يستعجلوا ما قد وعدهم من العذاب، فإن لهم نصيباً من العذاب مثل نصيب من سبقهم من مكذبي الأمم السابقة.

﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ يَوْمِهِمُ الَّذِي يُوعَدُونَ۝٦٠﴾ ولهم بعد عذاب الدنيا عذاب عظيم يوم القيامة جزاءً على كفرهم بآيات الله وتكذيبهم لرسوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ.

۞۞۞۞

سورة الطور

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالطُّورِ۝١ وَكِتَابٍ مَسْطُورٍ۝٢ فِي رَقٍّ مَنْشُورٍ۝٣ وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ۝٤ وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ۝٥ وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ۝٦﴾ الطور اسم جبل، وقد أقسم الله سبحانه وتعالى به لما جعل فيه من البركة والحرمة، ثم ثنى قسمه بكتابه العزيز المكتوب في الأوراق وهو هذا الذي نقرأه بين أيدينا، ويقال: إنه الكتاب الذي في السماء، الذي سماه الله تعالى اللوح المحفوظ في قوله تعالى: ﴿ فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ۝٢٢﴾ [البروج]، وسماه في آية أخرى بأم الكتاب فقال تعالى: ﴿وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ۝٤﴾ [الزخرف]، وقال تعالى في آية: ﴿فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ۝٧٨ لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ۝٧٩﴾ [الواقعة].

ثم أقسم الله سبحانه وتعالى بالبيت المعمور، وقد قيل: إنه بيت في السماء تطوف حوله الملائكة كما يطوف المؤمنون بالبيت الحرام في مكة، وقد يكون المراد به الكعبة نفسها، والسقف المرفوع هو السماء، والمسجور هو المملوء ماءً.

﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ۝٧ مَا لَهُ مِنْ دَافِعٍ۝٨﴾ وهذا هو جواب القسم، أقسم الله سبحانه وتعالى أنه لا بد أن يقع عذابه بالمكذبين من الكفار والمنافقين والمشركين يوم القيامة، وأنهم لن يجدوا من يدفعه عنهم أو يصرفه.

﴿يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا۝٩ وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْرًا۝١٠ فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ۝١١ الَّذِينَ هُمْ فِي خَوْضٍ يَلْعَبُونَ۝١٢﴾ وذلك العذاب واقع بهم في يوم القيامة الذي سيختل فيه نظام هذا الكون وتتهاوى أجرامه، وتتفتت فيه الجبال حتى تصير كالغبار المتطاير، فعندها سيحل عذاب الله تعالى وسخطه.

ثم وصف الله سبحانه وتعالى المكذبين الذين حق عليهم العذاب بأنهم الذين لا شغل لهم إلا الخوض في الباطل واللهو واللعب والزور والبهتان، والاستهزاء بالحق وأهله.

﴿يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا۝ هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ۝﴾ ستسوقهم ملائكة العذاب يوم القيامة إلى نار جهنم سوقاً عنيفاً، وتزج بهم فيها، وتقول لهم ملائكة العذاب عند ذلك: هذه النار التي كنتم بها تكذبون.

﴿أَفَسِحْرٌ هَذَا أَمْ أَنْتُمْ لَا تُبْصِرُونَ۝﴾ وستسأل الملائكة أهل النار سؤال سخرية: هل هذا العذاب الذي ترونه سحر، كما كنتم تقولون في الدنيا؟ أم أنكم عمي لا تبصرونه كما كنتم عمياً في الدنيا؟

﴿اصْلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ۝﴾ فادخلوا بين أطباقها الآن، وسواء عليكم صبرتم أم لم تصبروا فلا فرج لكم ولا مخرج، وأنتم الذين أوقعتم أنفسكم في هذا العذاب بكفركم وتكذيبكم وتمردكم.

﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ۝ فَاكِهِينَ بِمَا ءَاتَاهُمْ رَبُّهُمْ وَوَقَاهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ۝ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ۝﴾ وأما المتقون في ذلك اليوم فهم في روضات الجنات يتلذذون ويتفكهون بما أعد الله تعالى لهم من النعيم في الجنة، وقد فازوا بالسلامة من عذاب الجحيم وتقول لهم الملائكة: كلوا واشربوا هنيئاً بما كنتم تعملون.

﴿مُتَّكِئِينَ عَلَى سُرُرٍ مَصْفُوفَةٍ وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ۝﴾ متكئين على الكراسي المصفوفة مع ندمائهم وأصحابهم، ولهم في الجنة أزواج من حور العين.

﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ من تمام فضل الله سبحانه وتعالى على عبده المؤمن أنه إذا كان من أهل المنازل الرفيعة وله ذرية صالحة فإنه تعالى سوف يجعل الذرية مع أبيهم في منزلته، ويرفعهم في درجته، وهذا من ثواب الله سبحانه وتعالى للأب أن يجمعه مع أولاده في الجنة، ويجعلهم في درجة واحدة، من دون أن ينقص شيئاً من ثواب الأب مقابل رفعه لولده.

﴿كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴿٢١﴾﴾ ثم أخبر الله سبحانه وتعالىٰ أن كل إنسان مرهون بعمله، وأنه وحده الذي سيتحمل وزر نفسه علىٰ ظهره.

﴿وَأَمْدَدْنَاهُمْ بِفَاكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ﴿٢٢﴾ يَتَنَازَعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ﴿٢٣﴾ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَكْنُونٌ﴿٢٤﴾﴾ يصف الله سبحانه وتعالىٰ نعيم أهل الجنة بأنهم يتلذذون بأنواع الفواكه وأصناف المأكولات التي يشتهونها، ويشربون من خمر الجنة الذي لا ضرر فيه أو إخلال بالعقل كما هو شأن خمر الدنيا، ويطوف عليهم بهذه المأكولات والمشروبات غلمان سخرهم الله تعالىٰ في القيام علىٰ خدمتهم، وشبههم الله سبحانه وتعالىٰ باللؤلؤ الصافي الذي لم تلمسه الأيدي من شدة صفائه.

﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ﴿٢٥﴾ قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ﴿٢٦﴾ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ﴿٢٧﴾﴾ ثم وصف الله سبحانه وتعالىٰ حالتهم وما يدور بينهم من الكلام في مجالسهم بأنهم يتساءلون فيما بينهم عما كانوا عليه في الدنيا من شدة الخوف من الله تعالىٰ ومن عذابه، ثم يحمدون الله سبحانه وتعالىٰ علىٰ أن نجاهم من العذاب وخلصهم منه، وعلىٰ ما أوصلهم فيه من النعيم.

ومن شأن المؤمن في الدنيا أن يكون في خوف دائم من عذاب الله تعالىٰ، وأن لا يأمن علىٰ نفسه أو يعتقد أنه من أهل رضوان الله سبحانه وتعالىٰ ومن الفائزين لديه، وعن أمير المؤمنين عليه السلام: (لا يمسي المؤمن ولا يصبح إلا ونفسه عنده ضنون) أي أن المؤمن لا ينفك عن اتهام نفسه بالتفريط في طاعة الله والتقصير في تقواه، وبالغفلة عن ذكره تعالىٰ وتعظيمه.

﴿إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ﴿٢٨﴾﴾ ويحمدون الله تعالىٰ علىٰ ما من به عليهم في الدنيا من الاستجابة لدعائهم.

﴿فَذَكِّرْ فَمَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ﴿٢٩﴾ أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ﴿٣٠﴾﴾ ثم أمر الله سبحانه وتعالىٰ نبيه صلى الله عليه وآله وسلم أن يذكر قومه

بمواعظ الله تعالىٰ ويواصل تبليغ رسالة ربه إليهم، ولا يفتر عزمه ويقل نشاطه بسبب ما يلقىٰ من قومه من الرد والتكذيب والأذىٰ وبسبب قولهم له: إنه كاهن ومجنون وشاعر، عما قريب يموت ويموت معه شعره وكهانته وما جاءنا به، فلست يا محمد كاهناً ولا مجنوناً بسبب نعمة الله عليك بالنبوة والرسالة.

﴿قُلْ تَرَبَّصُوا فَإِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُتَرَبِّصِينَ۝٣١﴾ وأمره الله بأن يجيبهم بأنه منتظر لهلاكهم كما أنهم منتظرون لهلاكه، وسوف يعلم ويعلمون من ستكون العاقبة في النهاية له أم لهم.

﴿أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَامُهُمْ بِهَذَا أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ۝٣٢﴾ ثم سألهم الله سبحانه وتعالىٰ مستنكراً عليهم أهي عقولهم التي أمرتهم بأن يقولوا عن نبيهم تلك الأقوال ويرمونه بتلك الافتراءات؟ فبئس الأحلام والعقول التي أمرتهم ودعتهم إلىٰ ذلك؟

أم أن أحلامهم قد عرفت الحق وتيقنته عقولهم، وإنما هو طغيانهم وشدة تمردهم وتكبرهم وعنادهم هو الذي منعهم عن اتباع الحق وقبوله.

﴿أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ بَلْ لَا يُؤْمِنُونَ۝٣٣﴾ وكن بعضهم يقول: إن النبي ﷺ تقوَّل القرآن واختلقه من عند نفسه، وأما في الحقيقة فقد عرفوا النبي ﷺ وصدق ما جاء به ولكن طبيعتهم الكفر والجحود.

﴿فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ۝٣٤﴾ ثم تحداهم الله سبحانه وتعالىٰ أن يأتوا بمثل ما جاء به وتقوَّله، فإن جاءوا بمثله فهم صادقون فيما نسبوه إلىٰ النبي ﷺ من أنه مفتر وكذاب.

﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ۝٣٥﴾ ما هو السبب الذي جعلهم يصرون علىٰ الكفر والجحود بالله تعالىٰ وآياته ورسوله ﷺ، هل هو لأنهم خلقوا من غير خالق خلقهم، أم أنهم هم الذين خلقوا أنفسهم؟ فلماذا لا يتفكرون في خلق أنفسهم ويؤمنوا ويصدقوا بالإله الذي خلقهم وأوجدهم

ويتركون شركهم وباطلهم؟ وهذا السؤال سيحجهم ويحجرهم وسيكون جوابهم حتماً بالنفي ولا بد أن يعترفوا ويقروا بأن خالقاً خلقهم بقدرته.

﴿أَمْ خَلَقُوا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بَل لَا يُوقِنُونَ ﴿٣٦﴾﴾ أم أنهم هم الذين خلقوا السماوات والأرض حتى جعلوا لأنفسهم هذه المنزلة من العناد لله تعالى والتكبر عن الإقرار بربوبيته ووحدانيته.

﴿أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمُسَيْطِرُونَ ﴿٣٧﴾﴾ أم أن ملك السماوات والأرض بأيديهم حتى يتحكموا على الله تعالى ويختاروا ويقترحوا للنبوة من أرادوا، ويعترضوا على الله سبحانه وتعالى فيما اختار وأراد، أم أن ولاية الكون وسلطانه لهم فيقولوا ما أرادوا وعلى الناس السمع والطاعة.

﴿أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُمْ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ ﴿٣٨﴾﴾

أم أن لهم سلماً يصعدون فيها إلى السماء فأخذوا دين الشرك وشرائع الجاهلية منها ونزلوا به إلى الأرض، فليأتوا بدليل على ذلك.

﴿أَمْ لَهُ الْبَنَاتُ وَلَكُمُ الْبَنُونَ ﴿٣٩﴾﴾ واستنكر عليهم أيضاً ما ينسبونه إلى الله سبحانه وتعالى من البنات مع أنهم ينزهون أنفسهم عنها، وذلك أنهم كانوا يقولون: الملائكة بنات الله، تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً.

﴿أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ ﴿٤٠﴾﴾ أم أنهم قد امتنعوا وأعرضوا عن دينك لأنك سألتهم أن يدفعوا أجرة تبليغك لهم فاستثقلوا دفعها ولم يستطيعوا.

﴿أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴿٤١﴾﴾ أم أن أحداً غيرك يا محمد قد أطلعهم على ما أراد الله سبحانه وتعالى منهم وأخبرهم أنهم على الدين الحق وأن ما جئت به كذب وباطل وبهتان.

﴿أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ ﴿٤٢﴾﴾ أم أنهم لا يريدون بعنادهم وشركهم إلا الكيد للإسلام وأهله، فليعلموا أن كيدهم في نحورهم، وأن الله تعالى سوف يهلكهم ويدمرهم.

﴿أَمْ لَهُمْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴿٤٣﴾﴾ أم أن سبب إصرارهم على شركهم أن لهم إلهاً غير الله تعالى يدعوهم إليه وإلى عبادته، تعالى الله وتقدس وتنزه عن الشريك في الإلهية والربوبية.

﴿وَإِنْ يَرَوْا كِسْفًا مِنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا يَقُولُوا سَحَابٌ مَرْكُومٌ﴿٤٤﴾﴾ ومن شدة عنادهم وتمردهم أنهم ينكرون حتى الأمور الضرورية، وقد بلغ بهم عنادهم أنهم لو رأوا قطعة من السماء نازلة بالعذاب عليهم لما ارتدعوا عن كفرهم وشركهم ولأنكروا ذلك الذي يرونه نازلاً بهم، ولقالوا: إنما هو سحاب مركوم.

﴿فَذَرْهُمْ حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ﴿٤٥﴾﴾ فاتركهم يا محمد يخوضوا في باطلهم وشركهم وضلالهم فقد علم الله تعالى أنهم لن يتعظوا ولن يتذكروا بما تأتيهم به من الآيات حتى يأتيهم الله تعالى بعذابه.

﴿يَوْمَ لَا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا﴾ فإذا نزل بهم عذاب الله فلا محيص لهم عنه ولا مخرج لهم منه، ولا يجدون من يدفعه عنهم.

﴿وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ﴿٤٦﴾ وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ ذَلِكَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴿٤٧﴾﴾ لا بد أن يعذبهم الله تعالى بشيء من العذاب قبل ذلك العذاب الذي سيستأصلهم.

﴿وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ وأمره الله أن يصبر على تبليغ دعوته، وأن لا يكبر عليه ما يواجهه من العناء الشديد وما يلقاه منهم من الأذى والتكذيب، وطمأنه بأنهم لن يستطيعوا أن ينالوه بسوء أو أي مكروه، وأنه تحت حراسته وحفظه.

﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ﴿٤٨﴾ وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَارَ النُّجُومِ﴿٤٩﴾﴾ وداوم على ملازمة ذكر الله سبحانه وتعالى وتسبيحه، في النهار والليل.

❁❁❁❁

سورة النجم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى۝١ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى۝٢ وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى۝٤ عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى۝٥ ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَى۝٦ وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَى۝٧ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى۝٨ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى۝٩﴾ أقسم الله سبحانه وتعالىٰ بالنجم حال هويه وسقوطه، وقد أقسم الله سبحانه وتعالىٰ به ليلفت الانتباه إلىٰ التفكر والنظر فيه ليعلموا أنه آية من آياته الدالة علىٰ عظمته وربوبيته وقدرته، وذلك أن المشركين كانوا يرمون النبي ﷺ ويتهمونه بالضلال والسحر والجنون، وأنه قد غير وبدل في دين آبائه وأجداده وسار في غير طريقهم، فأقسم الله سبحانه وتعالىٰ لهم بالنجم أن صاحبهم هذا ليس بضال ولا غاو، وأن ما جاءهم به من القرآن والدين هو الحق والهدىٰ، وأنهم هم الذين هم علىٰ الباطل والضلال، وأما محمد ﷺ فهو رسول من عند الله يأتيهم بما يوحىٰ إليه من الهدىٰ والبينات، وأن ما يتلوه عليهم من القرآن منزل من عنده بالوحي من ملائكته، وشديد القوىٰ هو جبريل عليه السلام، وكان ينزل عليه بالقرآن من عند الله تعالىٰ.

ثم أخبرهم أن النبي ﷺ قد رأىٰ جبريل عليه السلام علىٰ صورته الحقيقية في أفق السماء ثم دنا منه واقترب إليه حتىٰ لم يبق بينه وبينه إلا مقدار ذراعين.

﴿فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى۝١٠﴾ أخبر الله سبحانه وتعالىٰ المشركين أن محمداً ﷺ نبي مرسل من عنده بالوحي الذي ينزل به جبريل عليه السلام عليه ﷺ من السماء، وأن جبريل عليه السلام قد نزل علىٰ النبي ﷺ في هذه الحالة علىٰ هيئته وصورته الحقيقية، وكان ينزل عليه في غيرها في صورة رجل من العرب اسمه دحية بن خليفة الكلبي.

﴿مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى ﴿١١﴾ أَفَتُمَارُونَهُ عَلَى مَا يَرَى ﴿١٢﴾﴾ ثم أخبر الله تعالى المشركين أن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ قد رآه على صورته الحقيقية، فما بالهم يكذبونه ويمارونه ويجادلونه في ذلك، وهو لم يكذب عليهم، وهم يعرفون أن الكذب ليس من طبيعته، وأنه لم يكذب كذبة قط منذ أن عرفوه.

﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى ﴿١٣﴾ عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى ﴿١٤﴾ عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى ﴿١٥﴾﴾ وأخبرهم أن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ قد رآه على صورته الحقيقية مرة أخرى غير هذه، وذلك فوق السماء السابعة عند شجرة اسمها سدرة المنتهى، والسبب في تسميتها بهذا الاسم أن علم الخلائق ينتهي عندها.

ثم أخبر الله تعالى أن جنة المأوى عند هذه الشجرة، وهي التي تأوي إليها أرواح عباده المؤمنين عندما يتوفاهم الله سبحانه وتعالى في الدنيا.

﴿إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى ﴿١٦﴾ مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى ﴿١٧﴾﴾ وذلك عندما أعرج بالنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ إلى السماء السابعة رأى جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ على صورته الحقيقية عند سدرة المنتهى، ورأى عليها جلالاً وهيبة وعظمة.

﴿لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى ﴿١٨﴾﴾ وقد رأى صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ بعض آيات الله الكبرى.

﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى ﴿١٩﴾ وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَى ﴿٢٠﴾﴾ ثم أمر الله سبحانه وتعالى نبيه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ أن يسأل المشركين عن آلهتهم التي يعبدونها من دون الله تعالى التي هي اللات والعزى ومناة: ما هي الآيات التي جاءتهم بها حتى عظموها هذا التعظيم وقدسوها هذا التقديس؟ وأن يروه آثارها الدالة على إلهيتها ويروه خلقها وملكها؟

﴿أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنْثَى ﴿٢١﴾ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَى ﴿٢٢﴾﴾ ثم استنكر عليهم كيف ينسبون البنات إلى الله سبحانه وتعالى وينزهون أنفسهم عن اتخاذها، ويستنكفون منها أشد الاستنكاف حتى أن من ولدت له بنت فإنه يدفنها حية خوفاً من الفضيحة بين قومه، فهذا ليس من الإنصاف والعدل في شيء بل هو عين الجور والباطل إذ ينسبون إلى الله سبحانه وتعالى ما يستنكفون من نسبته إليهم.

﴿إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَءَابَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ﴾ وهذه الآلهة التي تعبدونها لا تملك من صفات الإلهية شيئاً إلا الاسم الذي تسمونها به لا غير، ولم ينزل الله سبحانه وتعالى أي دليل به على إلهيتها، وإنما وسوس لكم الشيطان وزينها في أعينكم حتى توهمتم إلهيتها وعبدتموها من دون الله، وصادف ذلك أهواءكم وما تميل إليه شهواتكم.

﴿وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ الْهُدَى﴿٢٣﴾﴾ على لسان نبيه محمد ﷺ حتى عرفوا الحق والهدى، وعرفوا أن ما جاءهم به هو الدين الحق حتى لم يبق لهم أي عذر في جهالتهم وشركهم وباطلهم.

﴿أَمْ لِلْإِنْسَانِ مَا تَمَنَّى﴿٢٤﴾ فَلِلَّهِ الْآخِرَةُ وَالْأُولَى﴿٢٥﴾﴾ ثم أخبرهم الله سبحانه وتعالى أنه هو المالك المسيطر على ما في السماوات والأرض يتصرف في ملكه كيفما شاء، وليس لهم أن يقترحوا عليه شيئاً أو يفرضوا عليه رأياً أو يختاروا للنبوة من أرادوا، فهو وحده الذي له أن يختار لنبوته ولدينه من أراد.

﴿وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى﴿٢٦﴾﴾ وهو تعالى المالك والمسيطر والمتصرف في ملك السماوات والأرض، والعظمة والجلال له وحده فلا ينبغي لأحد أن يقترح عليه أو يفرض عليه رأياً، أو يشفع لأحد عنده لا من الملائكة ولا من البشر، إلا من أذن تعالى بشفاعتهم من ملائكته ورسله، وهو وحده الذي له أن يحكم ما يشاء ويختار.

﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ لَيُسَمُّونَ الْمَلَائِكَةَ تَسْمِيَةَ الْأُنْثَى﴿٢٧﴾ وَمَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ﴾ وهؤلاء هم المشركون من قريش كانوا يقولون: إن الملائكة بنات الله -تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً- رجماً بالغيب عن غير دليل معهم أو حجة في ذلك، وإنما يتبعون في ذلك أهوائهم وأوهامهم التي أوحاها لهم الشيطان وزينها في قلوبهم.

﴿وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا﴿٢٨﴾﴾ لا قيمة للأوهام والظنون إذا تصادمت مع الحق المعلوم، فالحق أحق أن يتبع، ومن اتبع الظن فقد اتبع الباطل.

﴿فَأَعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴿٢٩﴾ ذَلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اهْتَدَى﴿٣٠﴾ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى﴿٣١﴾﴾ بعد أن أطلع الله سبحانه وتعالى نبيه ﷺ على معتقدات المشركين، وبعد أن بلغهم الحجة فأعرضوا عنه وتمردوا عليه أمره أن يعرض عنهم وعن باطلهم وشركهم ومعتقداتهم، وأن يتركهم في خوضهم وباطلهم يلعبون؛ لأنهم كفروا بلقاء الله تعالى وأنكروا البعث والحساب والجزاء، وتوجهوا بقلوبهم إلى الدنيا وشهواتها وقصروا علمهم على ذلك، وأخبر نبيه ﷺ أنه عالم بهم وبأعمالهم، وعالم بالضال والمهتدي من عباده وسيجازي كلاً منهم بما يستحقه، فهم في قبضته وقدرته وتحت سيطرته، ولم يخلق السماوات والأرض وما بينهما إلا لغرض عظيم، وهو ما يترتب على خلقهما من البعث والحساب والجزاء للمسيئين والمحسنين.

﴿الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ﴾ ثم وصف الله سبحانه وتعالى عباده الذين أحسنوا وأخبر عنهم بأنهم الذين يتقون الوقوع في معاصيه، ويتجنبون ما يغضبه ويوجب سخطه من كبائر المعاصي والفواحش، وقد أخرج من ذلك اللمم وهي صغائر المعاصي التي لا يخلوا منها أي إنسان كالنظرة أو فلتات اللسان أو كذبة عن غير عمد أو إلحاق ضرر بأحد عن غير قصد أو شعور فإن الله سبحانه وتعالى سيتجاوز عنها ويغفرها، فهو ذو رحمة واسعة لا يؤاخذ المؤمن الذي حبس نفسه عن اقتراف المآثم ولم يصر على ارتكاب المعاصي وقد وطن نفسه على طاعة الله تعالى وفعل ما يرضيه، فما دام محافظاً كذلك فإن الله تعالى سوف يتجاوز عنه ويغفر له.

﴿هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنْتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ﴾ فهو عالم بخلقه من بني آدم وعالم بضعفهم وبنيتهم التي بناهم عليها، وأنهم لا يستطيعون أن يتحرزوا عن الوقوع في مثل تلك الهفوات والزلات.

﴿فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى ﴿٣٢﴾﴾ فلا تحكموا لأنفسكم أيها الناس بالصلاح والتقوى، أيها الناس فأنتم محل الخطأ والزلل والهفوات والنسيان والتقصير والتفريط، ولن يخلوا أحدكم من الوقوع في مثل ذلك، فليحذر كل امرئ أن يظن بنفسه خيراً، وأنه قد بلغ رتبة الكمال عند الله تعالى، وقد حاز وسام الرضا والرضوان، واستحق الجنة فإن ذلك من المهلكات.

﴿أَفَرَأَيْتَ الَّذِي تَوَلَّى ﴿٣٣﴾ وَأَعْطَى قَلِيلًا وَأَكْدَى ﴿٣٤﴾ أَعِنْدَهُ عِلْمُ الْغَيْبِ فَهُوَ يَرَى ﴿٣٥﴾ أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَى ﴿٣٦﴾ وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى ﴿٣٧﴾ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ﴿٣٨﴾ وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى ﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَى ﴿٤١﴾﴾ وذلك أن رجلاً من المسلمين يقال: إنه عثمان بن عفان كان يخرج صدقة أمواله وينفقها على الفقراء والمساكين والمحتاجين فرآه رجل من المشركين، ثم عرض عليه أن يترك إخراج صدقته مقابل أن يتحمل عنه وزره وذنبه، فاستساغ عثمان ذلك ووافق هوى نفسه، وقَبِلَ عَرْضَهُ، وتولى عما كان يعمله من الخير، فاستنكر الله تعالى عليه قبوله عرض ذلك المشرك، وسأله من أين علم صحة ما قاله المشرك حتى يصدقه؟ هل وجد ذلك مكتوباً فيما أنزل الله تعالى من الكتب على رسله؟ وهل رأى مكتوباً في صحفهم أنه يصح أن تتحمل نفس وزر نفس أخرى؟ أما علم أن كل امرئ سوف يتحمل وزر نفسه على ظهره وحده؟ وأن الله تعالى لا يكتب لأحد إلا سعيه وعمله الذي عمله ثم إنه سيراه يوم القيامة، ثم أخبر الله تعالى: بلى قد علم كل ذلك، ولكن عرض ذلك المشرك قد وافق هوى نفسه.

﴿وَأَنَّ إِلَى رَبِّكَ الْمُنْتَهَى ﴿٤٢﴾﴾ ألم يعلم أن أمر الخلائق ستنتهي يوم القيامة إلى الله فيجازي كلاً بما عمل.

﴿وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى۝٤٣ وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا۝٤٤﴾ أولم يعلم أيضاً أن ما يصيب الإنسان من الفرح والسرور والحزن والنفع والضر بيد الله سبحانه وتعالى وحده، وكذلك الموت والحياة بيده تعالى وحده، فالخليق به أن يحذر ربه وأن يرجع عن غيه وما تدعوا إليه نفسه، وأن يجعل أكبر همه في طاعة ربه وفعل ما يرضيه.

﴿وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى۝٤٥ مِنْ نُطْفَةٍ إِذَا تُمْنَى۝٤٦ وَأَنَّ عَلَيْهِ النَّشْأَةَ الْأُخْرَى۝٤٧﴾ لا زال الله سبحانه وتعالى يعاتب ذلك الذي منع صدقة ماله تصديقاً لما عرضه عليه ذلك المشرك، ألم يعلم أن أمر البعث والحساب أمر معلوم وحتم محتوم، ولا بد أن يبعث تعالى جميع الخلائق إليه يوم القيامة؟

﴿وَأَنَّهُ هُوَ أَغْنَى وَأَقْنَى۝٤٨﴾ أولم يعلم أيضاً أن الأرزاق بيد الله تعالى؟ وأنه الذي يفتح أبواب الرزق على عباده؟ وأنه الذي يعطيهم الأموال؟ وأنه الذي سهل لهم سبيل ادخارها واقتنائها لوقت حاجتهم وفاقتهم؟

﴿وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشِّعْرَى۝٤٩﴾ أولم يعلم أولئك المشركون أن الله تعالى هو الذي خلق تلك الأصنام التي يعبدونها من دونه، فلماذا لا يرجعون إلى عبادته ويتركون تلك التي لا تنفعهم ولا تضرهم؟

﴿وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَى۝٥٠ وَثَمُودَ فَمَا أَبْقَى۝٥١ وَقَوْمَ نُوحٍ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَى۝٥٢ وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَى۝٥٣ فَغَشَّاهَا مَا غَشَّى۝٥٤﴾ وأيضاً ألم يعلموا أن الله تعالى قد أهلك من كان قبلهم من المكذبين بأنبيائهم جزاء كفرهم وتكذيبهم؟ كقوم عاد وثمود، وقوم نوح وأصحاب المؤتفكة الذين هم قوم شعيب، والمؤتفكة: اسم بلادهم، ومعنى «أهوى»: أراد بذلك أهلكهم بعذابه واستأصلهم، ومعنى «أطغى»: يعني تجاوزوا الحد في الطغيان والتمرد.

﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكَ تَتَمَارَى۝٥٥﴾ بعد أن عدد الله تعالى آياته ونعمه سألهم هل يستطيعون أن ينكروا واحدة منها أو يشككوا في أنها ليست من عنده أو يكذبوا بها؟ فلن يستطيعوا أن يجدوا سبيلاً إلى الإنكار أو التكذيب، ولن يجدوا بداً من الاعتراف والإقرار بأنها من آياته ونعمه، وأنها منه وحده.

﴿هَذَا نَذِيرٌ مِنَ النُّذُرِ الْأُولَى﴿٥٦﴾﴾ أراد الله تعالى به محمداً ﷺ فقد أرسله بمثل ما أرسل به الأنبياء قبله، لينذر قومه عذاب الله تعالى وسخطه إن هم كذبوا به وتمردوا عليه وأصروا على كفرهم وتكذيبهم، كما كان أولئك الأنبياء ينذرون أقوامهم، وأنه سيهلكهم إن كذبوا كما أهلك من كان قبلهم.

﴿أَزِفَتِ الْآزِفَةُ﴿٥٧﴾ لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ﴿٥٨﴾﴾ ثم أخبر الله سبحانه وتعالى أن موعد القيامة والساعة قد اقترب، وأمرهم أن يستعدوا للقائه، وأن موعدها لا يعلمه إلا هو.

﴿أَفَمِنْ هَذَا الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ﴿٥٩﴾﴾ ثم استنكر الله سبحانه وتعالى على المشركين تعجبهم مما يقرأه عليهم النبي ﷺ من القرآن، فكيف يتعجبون منه وقد أنزله الله سبحانه وتعالى آيات واضحات بينات ظاهر صدقها وحجيتها؟ ولماذا التعجب مما هذا شأنه؟ ولأنه لا يدعوا للعجب إلا ما كان غريباً لا تستسيغه العقول ولا تصدقه.

﴿وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ﴿٦٠﴾﴾ واستنكر عليهم استهزاءهم به وضحكهم منه، وليس فيه ما يدعوا إلى ذلك لوضوح آياته وحججه وبيناته.

﴿وَأَنْتُمْ سَامِدُونَ﴿٦١﴾﴾ لماذا تضحكون وتتعجبون مع ما ينتظركم من لقاء الله تعالى وعذابه وسخطه وانتقامه.

﴿فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَاعْبُدُوا﴿٦٢﴾﴾ فاتركوا ما أنتم فيه من الغفلة وتوجهوا بعبادتكم إلى الله سبحانه وتعالى وحده، واتركوا عبادة غيره من الآلهة التي لا تستطيع أن تدفع عنكم شيئاً أو تنفعكم بشيء وقت حاجتكم إليها.



سورة القمر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ ۝١﴾ اقتربت الساعة وأوشكت على الحلول ومن أماراتها أن تنشق القمر فانتبهوا من غفلتكم أيها الناس.

﴿وَإِنْ يَرَوْا ءَايَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ ۝٢ وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ وَكُلُّ أَمْرٍ مُسْتَقِرٌّ ۝٣﴾ ثم أخبر الله سبحانه وتعالى عن المشركين بأن النبي ﷺ كلما أطلعهم على آية من آيات الله الدالة على وحدانية الله وعلى قدرته وعظمته فإنهم يعرضون عنها أشد الإعراض، ويستكبرون عن التصديق والإذعان بعد أن يعرفوا صحتها، ثم يرمون النبي ﷺ بالسحر والافتراء والجنون، وكلما جاءهم بآية من آيات الله كذبوا بها وركضوا وراء شهواتهم وأهوائهم وشركهم وباطلهم، ولكن فليعلم أولئك المكذبون أن كل ما توعدهم به ربهم قد حق عليهم، ولا بد أن يقع بهم.

﴿وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنَ الْأَنْبَاءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ۝٤ حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ﴾ وقد أعذر الله إليهم وأنذرهم بما أنزل لهم من آياته ومواعظه، وأعطاهم من الآيات ما ينزجروا عندها عن شركهم وباطلهم، والحكمة البالغة: هي آيات القرآن التي تزجرهم وتردعهم.

﴿فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ ۝٥﴾ ولكنهم لم ينزجروا ولم ينتفعوا بها ولم يتعظوا بشيء من تلك المواعظ والعبر والآيات، وأصروا على إعراضهم وتكذيبهم.

﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ﴾ بعد أن بلغهم النبي ﷺ آيات الله سبحانه وتعالى وحججه وأعذر إليهم وأنذرهم- أمره الله تعالى أن يتركهم ويتولى عنهم ويذرهم في شركهم وباطلهم يرتعون ويلعبون، فقد علم الله سبحانه وتعالى أنهم لن يؤمنوا أبداً، وأنهم لن ينتفعوا بشيء من آياته ومواعظه.

﴿يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَى شَيْءٍ نُكُرٍ ۝٦ خُشَّعًا أَبْصَارُهُمْ﴾ سيلقون جزاءهم الشديد فيجيبون الداعي وهم في ذلة وخزي ورعب من هول الموقف،

يوم يبعثهم الله سبحانه وتعالىٰ من قبورهم، ثم يدعوهم إلىٰ الحساب، ثم يأمر بهم بعدها إلىٰ جهنم.

﴿يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنْتَشِرٌ ۝٧﴾ يخرجون وعليهم الذلة والخزي والهوان؛ وقد شبههم الله سبحانه وتعالىٰ بالجراد في الكثرة والانتشار.

﴿مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ۝٨﴾ والمهطع: المترقب لسماع شيء، فسيكونون في ذلك اليوم فاتحين لآذانهم مترقبين لداعي الرحمن، ومقبلين إليه.

﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ ۝٩ فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ ۝١٠ فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ ۝١١ وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ۝١٢ وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ ۝١٣ تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِمَنْ كَانَ كُفِرَ ۝١٤﴾ فليست أمتك هي الوحيدة يا محمد من بين الأمم، فقد لقي الأنبياء قبلك من أممهم مثل ما لقيته من قومك من التكذيب والأذىٰ، فلا يكبر عليك تكذيبهم وإعراضهم، فقد رمي نوح عليه السلام بالجنون حين جاء قومه برسالة الله، وزجروه وطردوه من بينهم، ثم دعا الله سبحانه وتعالىٰ أن ينتصر له وينتقم منهم بعد أن مكث يدعوهم إلىٰ الله مئات السنين، فاستجاب الله سبحانه وتعالىٰ دعاءه فأمر السماء بأن تنزل ماءها، والأرض بأن تفجر عيونها حتىٰ اجتمع ذلك الماء وتكاثر إلىٰ أن غطىٰ الأرض والجبال إلا نوحاً ومن آمن معه فإن الله تعالىٰ أمره أن يصنع سفينة ويركب فيها هو ومن آمن معه. والدسر: هي المسامير التي تثبت الألواح بعضها في بعض.

وقد نزل جبريل عليه السلام بأمر من الله تعالىٰ ليعلمه كيفية صنع هذه السفينة.

وقد أراد الله تعالىٰ بقوله ﴿تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا﴾: في حراستنا وحفظنا من الغرق في تلك الأمواج العظيمة بين السماء والأرض، ثم أخبر الله سبحانه وتعالىٰ نبيه صلى الله عليه وآله وسلم أن ذلك العذاب الذي أنزله بقومه كان جزاءً لهم علىٰ كفرهم وتكذيبهم بنبيهم نوح عليه السلام.

﴿وَلَقَد تَّرَكْنَاهَا ءَايَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ ثم أخبر الله سبحانه وتعالىٰ أنه قد ترك هذه السفينة آية لمن يأتي بعدهم من الأمم ليعتبروا بها ويتعظوا بما جرىٰ علىٰ أهلها، وكيف كانت عاقبة المكذبين، وقد حفظها الله سبحانه وتعالىٰ قرناً بعد قرن إلىٰ عهد نبينا محمد ﷺ، ويقال: إن آثارها باقية حتىٰ يومنا هذا.

﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ﴾ تعظيم لشدة العذاب الذي أنزله الله تعالىٰ بقوم نوح، فقد كان عذاب استئصال للحرث والنسل ولكل دابة علىٰ وجه الأرض بسبب شؤم أولئك المكذبين إلا من حمله نوح عليه السلام علىٰ السفينة، وقد أمره الله سبحانه وتعالىٰ أن يحمل فيها من كل زوج اثنين من جميع أصناف حيوانات الأرض حتىٰ لا تنقرض.

﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ ثم أوحىٰ الله سبحانه وتعالىٰ إلىٰ نبيه ﷺ أن يخبرهم بأنه قد يسر لهم القرآن وسهل فهم معانيه، واستيضاح حججه وبيناته، إلا أن قريشاً لم تتعظ ولم تتذكر، وأصرت علىٰ الكفر والتكذيب.

﴿كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ۝ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِى يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ ۝ تَنزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ ۝ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ۝ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ أرسل الله سبحانه وتعالىٰ نبيه هوداً عليه السلام إلىٰ قومه عاد فكذبوا به وتمردوا عليه فأنزل الله تعالىٰ عليهم عذابه وسخطه فأهلكهم ودمرهم بريح شديدة، والصرصر: هو الصوت الشديد، فكان لهذه الريح صوت شديد وصفير من شدة سرعتها وقوتها، فأهلكتهم عن بكرة أبيهم، وأتت علىٰ آخرهم حتىٰ الذين كانوا في بيوتهم، وكانت تنتزعهم منها وتهلكهم، ولم يرفعها الله تعالىٰ إلا بعد أن أهلكتهم.

﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ ۝ فَقَالُوا أَبَشَرًا مِّنَّا وَاحِدًا نَّتَّبِعُهُ إِنَّا إِذًا لَّفِى ضَلَالٍ وَسُعُرٍ﴾ وكذلك قبيلة ثمود فقد أرسل الله سبحانه وتعالىٰ إليهم صالحاً عليه السلام فكذبوا به وتمردوا عليه، وأعرضوا عما حذرهم وأنذرهم، واستنكروا عليه كيف

يتبعونه ويستجيبون له وليس إلا واحداً من أقلهم؟ وزعموا أنهم إن اتبعوه وكفروا بآلهتهم فقد خسروا دينهم وضلوا عن طريق الهدى والصواب.

﴿أَؤُلْقِيَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ﴿٢٥﴾﴾ واستنكروا على الله سبحانه وتعالى حين اختاره للنبوة واصطفاه لرسالته من بينهم، واعترضوا على الله تعالى ورموا نبيه بالسحر والكذب، والأشر يعني أنه جاء بكذبة كبيرة وفظيعة.

﴿سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَنِ الْكَذَّابُ الْأَشِرُ﴿٢٦﴾﴾ فأجاب الله سبحانه وتعالى عنهم بأنهم سيعلمون من هو الكذاب عندما يحل بهم عذابه، ويروا نزوله بهم.

﴿إِنَّا مُرْسِلُو النَّاقَةِ فِتْنَةً لَهُمْ فَارْتَقِبْهُمْ وَاصْطَبِرْ﴿٢٧﴾﴾ ثم أوحى الله سبحانه وتعالى إلى نبيه صالح عليه السلام بأنه قد اقترب موعد نزول عذابه بهم، وأنه سيبتليهم بناقة ويمتحنهم بها، فلينظر ويترقب ليرى كيف يكون موقفهم مع الناقة.

﴿وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُحْتَضَرٌ﴿٢٨﴾﴾ وأمره أن يخبرهم بأنه يجب عليهم أن يجعلوا لهذه الناقة نصيباً في مائهم، وأن يقتسموه معها بالسوية فيكون لها شرب يوم، ولهم شرب يوم معلوم، وفي ذلك دلالة على كبر هذه الناقة.

﴿فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَى فَعَقَرَ﴿٢٩﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ﴿٣٠﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ﴿٣١﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ﴿٣٢﴾﴾ فلم يصبروا على هذه الناقة وعلى ما أمرهم الله سبحانه وتعالى فيها فتشاوروا فيما بينهم وعزموا على قتلها فقتلوها؛ فعندها أنزل الله سبحانه وتعالى عليهم عذابه وسخطه، وأهلكهم بصيحة لم تحتملها قواهم وأجسامهم من شدتها وقوتها فصعقتهم وأهلكتهم جميعاً، ولم يصبح عليهم الصباح إلا وهم صرعى مشتتون في كل مكان، وقد شبههم الله سبحانه وتعالى في ذلك بكسارة القصب المبعثرة المتناثرة التي داستها الأنعام وأكلت أعاليها وفروعها.

﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالنُّذُرِ﴿٣٣﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّا ءَالَ لُوطٍ نَجَّيْنَاهُمْ بِسَحَرٍ﴿٣٤﴾ نِعْمَةً مِنْ عِنْدِنَا كَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ شَكَرَ﴿٣٥﴾﴾ ثم أتبع ذلك بقصة قوم

لوط وما جرى عليهم من العذاب والهلاك جزاء تكذيبهم وتمردهم على نبي الله لوط عليه السلام، وقد عذبهم الله سبحانه وتعالى بأن أرسل عليهم حجارة من السماء فأهلكهم ودمرهم وأبادهم جميعاً، ولم يُبْقِ على أحد منهم، بعد أن أمر لوطاً وأهله أن يخرجوا من تلك القرية التي أنزل بها عذابه، وكانت نجاة لوط عليه السلام وأهله نعمة عظيمة عليه.

﴿وَلَقَدْ أَنْذَرَهُمْ بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا بِالنُّذُرِ﴿٣٦﴾﴾ وكان لوط عليه السلام قد أنذرهم وحذرهم غضب الله سبحانه وتعالى وسخطه إن هم أصروا على كفرهم وتكذيبهم، وسوء أعمالهم، ولكنهم أصروا على كفرهم وتكذيبهم فأخذهم الله سبحانه وتعالى بعذابه.

﴿وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَنْ ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ﴿٣٧﴾ وَلَقَدْ صَبَّحَهُمْ بُكْرَةً عَذَابٌ مُسْتَقِرٌّ﴿٣٨﴾ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ﴿٣٩﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ﴿٤٠﴾﴾ وكانوا قد بلغوا النهاية في الكفر وارتكاب المعاصي وقد اشتهروا من بين الناس جميعاً بفعل فاحشة اللواط وانتشاره فيهم، وقد استرسلوا فيه إلى أن صار لهم خلقاً وعادة، وكان من أقبل إليهم فلا بد أن يمارسوا معه هذه الرذيلة.

وعندما علموا بقدوم الضيوف على لوط عليه السلام أقبلوا إليه يريدون الفاحشة بهم، ولكن الله سبحانه وتعالى أعمى أبصارهم عنهم وطمسها حتى لا يرونهم، وكان ذلك بداية نزول غضب الله سبحانه وتعالى عليهم وعذابه، ولم يصبح عليهم الصباح إلا وقد أنزل بهم ذلك العذاب الذي كان يحذرهم من نزوله وينذرهم من حلوله.

﴿وَلَقَدْ جَاءَ ءَالَ فِرْعَوْنَ النُّذُرُ﴿٤١﴾ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَاهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُقْتَدِرٍ﴿٤٢﴾﴾ وقد أرسل الله تعالى إلى فرعون وأتباعه موسى وأخاه هارون عليهما السلام وأيدهما بالمعجزات الظاهرة، والآيات المتتالية آية بعد آية، ولكنهم كذبوا بها

جميعاً واستكبروا وتمردوا بعد أن عرفوا صدقها وحجيتها، فأنزل الله سبحانه وتعالىٰ بهم عذابه وسخطه، وأهلكهم ودمرهم جميعاً، وقد وصف الله تعالىٰ أخذه بالقوة، وأراد به قوة العذاب الذي أنزله بهم وشدته.

وقد قص الله سبحانه وتعالىٰ علىٰ قريش أخبار هذه الأمم لعلهم ينتفعون بها ويعتبرون بما جرىٰ علىٰ تلك الأمم من العذاب والدمار، وأخبرهم أنه قد يسر لهم الذكر ليتذكروا بآياته وينتفعوا بعبره ومواعظه.

﴿أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِنْ أُولَٰئِكُمْ﴾ ثم سأل قريشاً بعد أن قص عليهم ما جرىٰ علىٰ مكذبي تلك الأمم أن لا يظنوا أنهم أفضل عنده من كفار تلك الأمم أو أنهم أعز عليه منهم، فلا يأمنوا مكر الله تعالىٰ بهم ونزول عذابه بهم، فسوف يحل بهم كما حل بمن كان قبلهم.

﴿أَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ ۝٤٣﴾ أم أنكم واثقون بعدم نزول عذابه بكم، أو أنكم قد أخذتم صكاً مصكوكاً فيما أنزله من الكتب ينص علىٰ براءتكم، وحصانتكم، يقول فيه: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم.

﴿أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُنْتَصِرٌ ۝٤٤﴾ أم أنكم اغتررتم بكثرتكم وقوتكم فظننتم أنكم ستغلبون أي قوة تواجهكم.

﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ۝٤٥﴾ فرد الله سبحانه وتعالىٰ عليهم بأن كثرتهم وجموعهم لن تغني عنهم شيئاً ولا تستطيع أن تقف في وجه دعوة النبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ ودينه، فسيهزمهم ويقهرهم ويولون أدبارهم فارين من قوة النبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ وجيشه.

﴿بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ ۝٤٦﴾ وسيلقون في الآخرة بعد خزي الدنيا وذل الهزيمة الذي لحقهم من رسول الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ سيلقون ما هو أدهىٰ وأمر وذلك ألوان العذاب في جهنم خالدين فيها أبداً.

﴿إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ ۝٤٧ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ ۝٤٨﴾ أعد الله سبحانه وتعالىٰ للمجرمين العذاب الشديد بين

أطباق جهنم، وتسحبهم الملائكة على وجوههم في النار وتقول لهم الملائكة: ذوقوا أليم العذاب.

﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴿٤٩﴾﴾ خلق الله كل شيء على حسب ما تقتضيه الحكمة والمصلحة وعلى حسب ما تدعو إليه الحاجة، فخلق الله تعالى الشمس على قدر من الكبر مناسب للحكمة والحاجة، وقدر ضياءها وحرارتها على قدر معلوم متناسب مع الحكمة وحاجة المخلوقات، وقدر منازلها على حسب الحكمة والمصلحة، وخلق الهواء على حسب ما تدعو إليه حاجة المخلوقات الحيوانية والنباتية التي لا تعيش إلا على نسيم الهواء.

وخلق الرياح وصرفها على حسب الحكمة والحاجة من غير زيادة ولا نقصان، وينزل الله الأمطار على حسب الحكمة والحاجة.

وخلق الله تعالى الإنسان، وخلق له أعضاء وحواس على حسب ما تدعو إليه الحكمة والمصلحة، فعدد الأسنان لحكمة، وعدد الأصابع، وعدد مفاصلها وأظافرها وطولها وقصرها وكبرها وصغرها ونعومتها وغلظها وظاهرها وباطنها و...إلخ كل ذلك خلقه الله تعالى بقدر على حسب مقتضى الحكمة والحاجة.

وكل شيء خلقه الله تعالى في الكون فهو على حسب مقتضى الحكمة والمصلحة.

﴿وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ﴿٥٠﴾ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ﴿٥١﴾﴾ فإذا أراد الله سبحانه وتعالى شيئاً فإنه كائن كلمح البصر أو هو أهون وأسرع، لا يعسر عليه شيء أو يعجزه، وما أراده فهو كائن لا محالة، وإذا أراد إهلاك قوم أو إحياء أحد أو إنزال أمر بأحد أو إحداث رزق فإن ذلك كائن في لمح البصر، وكل ذلك يذكر به المشركين ليحذروا أخذه وانتقامه، ويقلعوا عن شركهم وضلالهم، وإلا فإنه سيهلكهم كما أهلك من كان قبلهم من المكذبين.

﴿وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ﴿٥٢﴾ وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُسْتَطَرٌ﴿٥٣﴾﴾ وأخبرهم أن كل ما عملوه من الأعمال صغيرها وكبيرها مسجل عنده ومسطور في صحائف أعمالهم، وسيبرزها لهم يوم القيامة حتى يرونها بأعينهم، ثم يحاسبهم عليها ويعذبهم.

﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ۝ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ۝﴾ وأما المتقون فهم في أمن وأمان من كل خوف وفزع، وحسابهم عند الله تعالى سيكون يسيراً، وقد أعد لهم مقعد صدق عنده لا انتقال لهم عنه ولا ارتحال، ولا يزول عنهم النعيم الذي أعده لهم في ذلك المقعد والمقام الكريم في جنات النعيم، بخلاف المشركين فسيحاسبهم الله تعالى حساباً عسيراً على كل صغيرة وكبيرة من أعمالهم السيئة.

❁❁❁❁❁

سورة الرحمن

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الرَّحْمَنُ۝ عَلَّمَ الْقُرْآنَ۝ خَلَقَ الْإِنْسَانَ۝ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ۝﴾ الرحمن: اسم من أسماء الله تعالى معناه أن الله عظيم الرحمة بعباده المسبغ عليهم النعم الظاهرة المكشوفة.

وقوله ﴿عَلَّمَ الْقُرْآنَ﴾: القرآن من أعظم النعم الجلية والظاهرة التي لا خفاء فيها.

ومن نعمه الظاهرة الجلية خلقه للإنسان فهو من النعم العظيمة المكشوفة، ومنها نعمة الكلام الذي يبين به الإنسان ما في ضميره.

﴿الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ۝ وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ۝﴾ سخر الله تعالى لمصالح عباده الشمس والقمر في نعمة منه عليهم، وما جعل اللهم فيهما من الحساب المبني على منازل الشمس والقمر.

النجم: هو الشجرة الصغيرة ، فأخبر الله تعالى أن الأشجار الصغيرة والكبيرة كلها منقادة لإرادته ومشيئته لا تتخلف عن ذلك من بداية نشأتها إلى أن تستوفي مدتها، فهذا هو معنى سجودها.

﴿وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ۝ أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ۝﴾ والله تعالى هو

الذي بنى هذه السماء التي فوقنا ورفعها، وهو الذي وضع لعباده العدل بما أنزل لهم من الشرائع السماوية، لئلا يقع بينهم التظالم والفساد، والقرآن هو ميزان يفرق بين الحق والباطل والهدى والضلال.

﴿وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ۝٩﴾ أراد بالوزن والميزان هنا: هو ذلك الوزن المعروف في البيع والشراء، فأمر الله تعالى بإيفاء الوزن ونهى عن نقصه عند المعاملة.

﴿وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ۝١٠ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَالنَّخْلُ ذَاتُ الْأَكْمَامِ۝١١﴾ وهو تعالى الذي وضع الأرض ومهدها لعباده ليعيشوا فيها ويسعوا على ظهرها، وهو الذي أخرج لهم منها الفواكه والثمار الكثيرة التي يتنعمون بها ويتلذذون بأكلها، وقد خص النخل لما له من المزية على سائر الفواكه. والكُمّ: هو الغلاف الذي تكون ثمار النخل فيه.

﴿وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحَانُ۝١٢﴾ وهو الذي أخرج لهم منها أنواع الحبوب التي يقتاتون بها ويعيشون عليها، والعصف: هو قوت البهائم، والريحان: هو قوت الناس، وهذا على أحد التفاسير؛ إذ قد فسرت بتفاسير عدة.

﴿فَبِأَيِّ ءَالَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ۝١٣﴾ فأخبروني عن نعمة من هذه النعم هل تستطيعون أن تنكروها أو تكذبوا بها؟ وضمير التثنية للإنس والجن، فلن يستطيعوا أن يكذبوا أو ينكروا أي نعمة من هذه النعم التي عددها.

﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ۝١٤ وَخَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مَارِجٍ مِنْ نَارٍ۝١٥ فَبِأَيِّ ءَالَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ۝١٦﴾ خلق الله آدم عليه السلام من الطين اليابس المتحجر، وخلق تعالى الجن من لهب النار، فتناسل الإنس والجن وتكاثروا، وتلك نعمة على الإنس والجن لا ينكرونها، ونعمة عظيمة لا تخفى.

﴿رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ۝١٧ فَبِأَيِّ ءَالَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ۝١٨﴾ للشمس مشرقان في الشتاء والصيف، وكذلك لها مغربان، ويتسبب ذلك

في اختلاف المواسم الزراعية ومواعيد الأمطار وصلاح الثمار، إذاً فذلك نعمة عظيمة ظاهرة لا تخفى ينبغي أن يشكروا الله سبحانه وتعالى عليها ويتوجهوا إلى موليها بالشكر.

﴿مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ۝١٩ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ۝٢٠ فَبِأَيِّ ءَالَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ۝٢١ يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ۝٢٢ فَبِأَيِّ ءَالَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ۝٢٣﴾ وأيضاً هو الذي خلط البحرين بقدرته وجعل بينهما حاجزاً خفياً بقدرته حتى لا يمتزج ماؤهما أو يختلط أحدهما بالآخر، بينما كل واحد منهما قد انفرد بطبيعة مختلفة عن الآخر لكل بحر منهما حيواناته التي لا تعيش إلا فيه، ولم يكتشف أحد ذلك الفرق الذي بينهما والحاجز الذي يمنعهما من الاختلاط إلا بعد عدة قرون من نزول هذه الآية.

فمثلاً البحر الأحمر والمحيط الهندي لكل واحد منهما شخصيته وطبيعته وحيواناته و..إلخ، وعلى الرغم من اختلافهما فإنه يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان، وكل ذلك من آياته العظيمة الدالة على عظمته وقدرته وربوبيته، والبحار نعمة من نعمه العظيمة على عباده فيحمل السفن العظيمة على ظهره فيحملون عليها التجارات والأثقال الثقيلة، ويستخرجون منه اللؤلؤ والمرجان، ويأكلون منه لحماً طرياً، و...إلخ، لا يستطيعون أن ينكروا ذلك، والآلاء هي النعم.

﴿وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنْشَآتُ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ۝٢٤ فَبِأَيِّ ءَالَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ۝٢٥﴾ يذكرهم الله تعالى بنعمته عليهم بالسفن التي يرونها جارية في البحار أمامهم كأنها الجبال ويحثهم على النظر والتفكر فيها وفي كيفية جريها وسيرها على ظهر الماء، فمن الذي يسيرها لهم ويسخرها لحمل أثقالهم وبضائعهم والسفر بها إلى البلاد البعيدة؟

فلو نظروا فيها وتفكروا لعرفوا أنها من نعمه العظيمة التي لا يستطيعون أن ينكروها أو يكذبوا بها لجلائها وظهورها.

﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ۝٢٦ وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ۝٢٧ فَبِأَيِّ ءَالَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ۝٢٨﴾ كل ما خلق الله سبحانه وتعالى في السماوات والأرض لا بد أن يفنى ويموت وينتهي، ولن يبقى إلا الله تعالى وحده.

وفي إهلاكهم ثم بعثهم للبعث والحساب نعمة عظيمة عليهم إذ بذلك يحصل التناصف فيما بينهم، وينال المحسنون جزاء أعمالهم وإحسانهم، وينال الظالمون جزاء أعمالهم الإجرامية.

﴿يَسْأَلُهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ۝٢٩ فَبِأَيِّ ءَالَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ۝٣٠﴾ يرزق الله تعالى كل من في السماوات والأرض يرزقهم ويعطيهم من خزائنه من دون أن تنقص أو تنفد، وكلهم يسألونه إما بلسان المقال كأهل العقول من الإنس والجن والملائكة أو بلسان الحال كبقية الحيوانات.

وله تعالى في كل يوم شأن معهم وأمر من القضاء والخلق والرزق والموت والحياة والأخذ والعطاء والصحة والسقم و...إلخ.

﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَا الثَّقَلَانِ۝٣١ فَبِأَيِّ ءَالَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ۝٣٢﴾ يتهدد الله سبحانه وتعالى المكلفين من الإنس والجن بأنه لا بد أن يفرغ لهم يوماً يحاسبهم فيه ويحكم بينهم، وقد عبر بها يعبرون في تخاطبهم، وإلا فهو ليس بحاجة إلى أن يفرغ له وقتاً، ﴿وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ۝٥٠﴾ [القمر]، ويوم الحساب والجزاء هو من نعم الله العظيمة فيوفي الله تعالى العاملين المحسنين أجورهم، وينتصف فيه للمظلوم من ظالمه، وذلك نعمة عظيمة.

﴿يَامَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ۝٣٣ فَبِأَيِّ ءَالَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ۝٣٤﴾ ثم تحدى الله سبحانه وتعالى الإنس والجن أن يهربوا من مملكته وسلطانه، وأنهم إن استطاعوا أن يفعلوا ذلك فليفعلوا وليهربوا من عذابه وسخطه، ولكن هيهات أن يستطيعوا ذلك، ولن يخرجوا إلا بقوة تمكنهم من ذلك الخروج، وأين هي القوة التي تمكنهم؟

﴿يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِنْ نَارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنْتَصِرَانِ۝٣٥ فَبِأَيِّ ءَالَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ۝٣٦﴾ يرسل الله تعالىٰ على الجن والإنس -علىٰ فرض أنهم حاولوا أن ينفذوا من أقطار السماوات والأرض- لهب نار شديد ونحاس مذاب لا يقدرون علىٰ دفعه عن أنفسهم.

﴿فَإِذَا انْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ۝٣٧ فَبِأَيِّ ءَالَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ۝٣٨ فَيَوْمَئِذٍ لَا يُسْأَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌّ۝٣٩ فَبِأَيِّ ءَالَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ۝٤٠﴾ ثم يذكر الله سبحانه وتعالىٰ عباده من الجن والإنس بيوم القيامة عندما تنشق السماء وتتهاوىٰ أجرامها وكواكبها حتىٰ ينقلب لونها إلىٰ الوردي بعد الزرقة، فكيف يكون موقفهم حينها؟

ففي ذلك اليوم سوف يختم الله تعالىٰ علىٰ أفواههم جميعاً فلا يتكلمون بكلمة واحدة منتظرين لحكم الله تعالىٰ فيهم، ﴿فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا۝١٠٨﴾ [طه]، وقد خيم عليهم السكون جميعاً فلا تسمع إلا وقع أقدامهم فقط، ولا يتكلم حينها أحد إلا من أذن له الرحمن ورضي له قولاً.

﴿يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالْأَقْدَامِ۝٤١ فَبِأَيِّ ءَالَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ۝٤٢ هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ۝٤٣ يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ۝٤٤ فَبِأَيِّ ءَالَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ۝٤٥﴾ وفي ذلك اليوم سيكون للمجرمين هيئة وصورة تميزهم، وستكون وجوههم كقطع الليل المظلم من شدة سوادها والخزي الذي يعلوها، فعندها تأخذهم ملائكة العذاب بنواصيهم وأقدامهم ثم تقذف بهم إلىٰ جهنم، وستقول لهم حينها موبخة: هذه جهنم التي كنتم تنكرونها وتكذبون بها في الدنيا، ثم تطوف بهم بين أرجائها وأطباقها ساحبة لهم علىٰ وجوههم، ثم يغمسونهم بين ماء الحميم، وسيكونون علىٰ هذه الحال دائماً وأبداً.

﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ۝٤٦ فَبِأَيِّ ءَالَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ۝٤٧ ذَوَاتَا أَفْنَانٍ۝٤٨ فَبِأَيِّ ءَالَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ۝٤٩ فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ۝٥٠ فَبِأَيِّ ءَالَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ۝٥١ فِيهِمَا مِنْ كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَانِ۝٥٢ فَبِأَيِّ ءَالَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ۝٥٣ مُتَّكِئِينَ عَلَى فُرُشٍ بَطَائِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ وَجَنَى الْجَنَّتَيْنِ دَانٍ۝٥٤ فَبِأَيِّ ءَالَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ۝٥٥ فِيهِنَّ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ۝٥٦ فَبِأَيِّ ءَالَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ۝٥٧ كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ۝٥٨ فَبِأَيِّ ءَالَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ۝٥٩﴾ ثم أخبر الله سبحانه وتعالى عما أعد من النعيم لمن خافه واتقاه، فأخبر أنه أعد لمن خافه جنتين فيهما أنواع البساتين والثمار. والأفنان: هي الأغصان، وقد أراد الله سبحانه وتعالى بها هنا كثرة أشجارها وما تحمله من الثمار، وفيهما عيون الماء تجري من خلال هذه البساتين التي اشتملت على أصناف الفواكه والثمار، مع ما أعد لهم من الفرش التي يجلسون عليها بطائنها من الحرير الفاخر فناهيك عن ظاهر هذه الفرش كيف سيكون؟

ثم وصف ثمارها بأنها ستكون سهلة المنال قريبة من أيديهم، وحولهم قاصرات الطرف من حور العين جالسات بين أيديهم لا ترفع إحداهن نظرها إلا إلى زوجها لا تتعداه، لم يمسها أحد قبله لا من الإنس ولا من الجن، وهن في غاية الحسن والجمال ونهايته، لم تقع أعينهم على مثل ذلك الجمال قط، وقد شبههن الله سبحانه وتعالى باللؤلؤ والمرجان دلالة على ذلك الجمال الصافي المتناهي في الحسن.

﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ۝٦٠ فَبِأَيِّ ءَالَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ۝٦١﴾ ثم أخبرهم الله سبحانه وتعالى أن هذا النعيم الذي هم فيه جزاء على إحسانهم في الدنيا بفعل ما يرضي الله، واجتنابهم لما يسخطه.

وَمِنْ دُونِهِمَا جَنَّتَانِ﴿٦٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴿٦٣﴾ مُدْهَامَّتَانِ﴿٦٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴿٦٥﴾ فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ﴿٦٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴿٦٧﴾ فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ﴿٦٨﴾ فَبِأَيِّ ءَالَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴿٦٩﴾ فِيهِنَّ خَيْرَاتٌ حِسَانٌ﴿٧٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴿٧١﴾ حُورٌ مَقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ﴿٧٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴿٧٣﴾ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ﴿٧٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴿٧٥﴾ مُتَّكِئِينَ عَلَى رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ﴿٧٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴿٧٧﴾﴾ الجنة درجات ومنازل، فأخبر تعالى أنه قد أعد للذين هم دون الذين يخافون مقام ربهم والذين هم أقل فضلاً وعملاً منهم- جنتان كذلك، ولكن أدون من نعيم أهل المرتبة السابقة؛ فأخبر عن هاتين الجنتين بأنها قد اسودتا من شدة خضرة أشجارهما وكثرتها وجمالها، وأن في كل جنة عين تضخ الماء ضخاً، وفيهما من أنواع الفواكه والثمار، وقد خص النخل والرمان لما لهما من المزية والفضل على سائر الفواكه، مع ما أعد لهم من الحور العين التي لا تبرح إحداهن خيمتها ولا تنظر إلى غير زوجها، لم يمسهن أحد من الإنس ولا من الجن وهن جالسات على الفراش الذي خلقه الله سبحانه وتعالى لهم من الحرير الخالص ومن أفخر أنواعه. والعبقري: أجود أنواع الحرير المنسوج.

﴿تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴿٧٨﴾﴾ يعني كثر خيره وإحسانه، وتكاثر فضله وثوابه في الآخرة لأهل طاعته والإحسان إليه في الدنيا، وقد وصف نفسه بالجلال والعظمة والإكرام ليدل بذلك على عظم ذلك النعيم الذي أعده لعباده المتقين بأنه النعيم الذي لا نعيم يساويه أو يدانيه؛ لأنه كلما عظم المنعم وكبر شأنه كان نعيمه أفضل وأحسن.

۞۞۞۞۞

سورة الواقعة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ ① لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ ②﴾ الواقعة هي القيامة، فإذا حلت ووقعت على المكذبين المنكرين لها فعندها سيحصل لهم العلم الضروري الذي لا يستطيعون أن ينكروا معه أو يشككوا في أمرها كما كانوا عليه في الدنيا من التكذيب بها.

﴿خَافِضَةٌ رَافِعَةٌ ③﴾ ثم وصفها الله سبحانه وتعالى بأنها تخفض قوماً في جهنم ويخزيهم في عذابها، وسترفع قوماً آخرين إلى أعلى عليين في المنازل الرفيعة والدرجات العالية في جنات النعيم.

﴿إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًّا ④ وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًّا ⑤ فَكَانَتْ هَبَاءً مُنْبَثًّا ⑥﴾ ثم ذكر الله سبحانه وتعالى بأن الأرض حين تقع الواقعة سترتج والجبال ستهتز حتى يصيران فتاتاً وغباراً متطايراً، ثم بعد ذلك ستتساقط ذرات الغبار تلك حتى تتكاثف وتجتمع وتصير أرضاً مستوية وقاعاً واحداً، ثم يحشر الله سبحانه وتعالى الخلائق عليها للحساب.

﴿وَكُنْتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً ⑦ فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ ⑧ وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ ⑨ وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ ⑩ أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ ⑪ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ⑫﴾ ثم أخبر الله سبحانه وتعالى عن بني آدم في ذلك اليوم بأنهم سينقسمون إلى ثلاثة أصناف: فالصنف الأول هم أصحاب الميمنة، والاستفهام عنهم يوحي بأن لهم شأناً عظيماً عند الله تعالى ومنازل رفيعة عنده، والصنف الثاني هم أصحاب المشأمة الذين هم أهل الشؤم والعذاب، والصنف الثالث والأفضل عند الله سبحانه وتعالى هم السباقون إلى طاعة الله تعالى المبادرون إلى فعل الخيرات الذين استجابوا لداعي الله وآمنوا برسله، وكانوا أسبق الناس إيماناً وأسرعهم إلى فعل الطاعات، فهؤلاء قد خصهم الله تعالى بالمنازل الرفيعة، وجعل لهم مزية وفضلاً على من ذكر قبلهم من أصحاب اليمين.

﴿ثُلَّةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ ۝١٣ وَقَلِيلٌ مِنَ الْآخِرِينَ ۝١٤﴾ ثم أخبر الله سبحانه وتعالى عنهم بأنهم ليسوا إلا قلة من الأولين وقلة من الآخرين، والثلة: معناها الجماعة القليلة، وقد غاير الله سبحانه وتعالى بين العبارتين، ومؤداهما واحد.

﴿عَلَى سُرُرٍ مَوْضُونَةٍ ۝١٥ مُتَّكِئِينَ عَلَيْهَا مُتَقَابِلِينَ ۝١٦ يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ ۝١٧ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ ۝١٨ لَا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنْزِفُونَ ۝١٩ وَفَاكِهَةٍ مِمَّا يَتَخَيَّرُونَ ۝٢٠ وَلَحْمِ طَيْرٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ ۝٢١ وَحُورٌ عِينٌ ۝٢٢ كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ ۝٢٣ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ۝٢٤﴾ هم من النعيم الذي أعده الله لهم في الجنة أنهم يقعدون على سرر محبوكة ومزخرفة بأنواع الجواهر والحلي، متقابلين يتبادلون الأحاديث، يطوف عليهم ولدان بما يشتهون من النعيم فيوزعون عليهم أنواع المشروبات في أكواب من زجاج ومن فضة، وفي أباريق، وفي كأس من خمر لذيذ لا يصدع الرأس ولا يغير العقل، ويدورون عليهم بأنواع الفواكه التي طلبوها وتمنوها، ويقبلون إليهم بما يحبون من لحم الطير، ولهم حور عين كأمثال اللؤلؤ الذي لم يتعرض للشمس ولا للهواء، وكل ذلك استحقوه بأعمالهم الصالحة في الحياة الدنيا.

﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا ۝٢٥ إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا ۝٢٦﴾ فلا شيء يسمعونه فيها من لغو الكلام وباطله وفاحشه، ولا يسمعون فيها إلا التكريم والتسليم من الملائكة ومن أولياء الله تعالى وإخوانهم من المؤمنين.

﴿وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ ۝٢٧ فِي سِدْرٍ مَخْضُودٍ ۝٢٨ وَطَلْحٍ مَنْضُودٍ ۝٢٩ وَظِلٍّ مَمْدُودٍ ۝٣٠ وَمَاءٍ مَسْكُوبٍ ۝٣١ وَفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ ۝٣٢ لَا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ ۝٣٣ وَفُرُشٍ مَرْفُوعَةٍ ۝٣٤ إِنَّا أَنْشَأْنَاهُنَّ إِنْشَاءً ۝٣٥ فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَارًا ۝٣٦ عُرُبًا أَتْرَابًا ۝٣٧ لِأَصْحَابِ الْيَمِينِ ۝٣٨ ثُلَّةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ ۝٣٩ وَثُلَّةٌ مِنَ الْآخِرِينَ ۝٤٠﴾ ثم بعد أن ذكر الله تعالى السابقين وما يلقونه من النعيم والكرامة عند الله، أعقبهم بمن هم دونهم في الفضل من أصحاب اليمين وما يلقونه مما أعد لهم من النعيم؛ فأخبر بأنهم في بساتين من السدر الذي لا شوك فيه والموز المثمرة.

وقد أشار بقوله ﴿وَظِلٍّ مَمْدُودٍ﴾: إلى كبر تلك البساتين وكثرة أشجارها وكثافتها وثمارها التي لا تنقطع ولا تزول أبداً، والأنهار التي تجري خلال هذه البساتين، وليست ممنوعة كما في بساتين الدنيا، وكذلك ما أعد الله سبحانه وتعالى لهم من أنواع الفرش التي تنتظرهم فوقها أزواجهم من الحور العين اللواتي خلقهن الله وابتدعهن لأهل الجنة أبكاراً متدللات لأزواجهن في سن واحدة.

والعُرب: هن اللواتي يتوددن إلى أزواجهن ويتلطفن لهم. والأتراب: هن المستويات في السن، فهذا هو نعيم أصحاب اليمين الذين ليسوا إلا قلة من الأولين وقلة من الآخرين بالنسبة لكثرة أهل النار.

﴿وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ۝٤١ فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ۝٤٢ وَظِلٍّ مِنْ يَحْمُومٍ۝٤٣ لَا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ۝٤٤ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُتْرَفِينَ۝٤٥ وَكَانُوا يُصِرُّونَ عَلَى الْحِنْثِ الْعَظِيمِ۝٤٦ وَكَانُوا يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ۝٤٧ أَوَآبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ۝٤٨﴾ ثم ذكر تعالى أصحاب الشمال، وما أعد لهم من العذاب الذي ينتظرهم، فأخبر الله سبحانه وتعالى عنهم بأنهم يوم القيامة بين لهيب جهنم وسعيرها يتقلبون، ولا يشربون إلا من قيح جهنم وصديد أهلها الذي يغلي في بطونهم ويقطع أمعاءهم.

ثم ذكر الله سبحانه وتعالى أن السبب الذي أوجب لهم العذاب هو الترف والإصرار على الشرك والكفر والتكذيب باليوم الآخر، واستبعادهم أن يقدر الله سبحانه وتعالى على خلقهم وبعثهم مرة أخرى بعد موتهم، وأن يجمعهم مع آبائهم وأجدادهم يوم القيامة.

﴿قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ۝٤٩ لَمَجْمُوعُونَ إِلَى مِيقَاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ۝٥٠﴾ قل لهم يا محمد: لا بد أن يبعث الله تعالى جميع الأولين والآخرين ويجمعهم للحساب والجزاء في يوم القيامة.

﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ۝٥١ لَآكِلُونَ مِنْ شَجَرٍ مِنْ زَقُّومٍ۝٥٢ فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ۝٥٣ فَشَارِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ۝٥٤ فَشَارِبُونَ شُرْبَ الْهِيمِ۝٥٥ هَذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ الدِّينِ۝٥٦﴾ وأن يخبرهم بأن الملائكة الموكلون بتعذيبهم منتظرة لبعثهم وحسابهم لتسوق بهم إلى النار التي لا يكون طعامهم فيها إلا الزقوم الذي يملؤون منه بطونهم على مرارته وحرارته ثم يشربون عليه من الحميم الذي يشوي وجوههم، ويغلي في بطونهم من شدة حرارته، يشربونه كشرب الإبل العاطشة، هذا هو نزلهم في تلك الدار الآخرة.

﴿نَحْنُ خَلَقْنَاكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ۝٥٧ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ۝٥٨ ءَأَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ۝٥٩﴾ ولا خفاء أيها المشركون في أن الله تعالى هو الذي خلقكم لقيام الحجة ووضوحها فأخبروني عن المني الذي تلقونه في أرحام نسائكم من الذي يخلقه ويكونه؟ هل أنتم الذين تخلقونه، أم هو الله تعالى الذي يخلقه؟

﴿نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ۝٦٠﴾ وهو تعالى وحده الذي يستوفي آجالهم وأعمارهم، ولن يستطيعوا أن يفروا من الموت ومن قدرته عليهم.

﴿عَلَى أَنْ نُبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ وَنُنْشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ۝٦١﴾ وهو قادر على أن يميتكم أيها المشركون ويأتي بغيركم يخلفونكم ويحلون مكانكم، وهو قادر على إنشائكم خلقاً آخر، ويبعثكم من جديد يوم القيامة.

﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَى فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ۝٦٢﴾ فما بالكم تنكرون البعث بعد الموت، وتنكرون قدرة الله سبحانه وتعالى على إحيائكم بعد موتكم، فلو أنكم تفكرتم في بداية خلقكم كيف قدر على ذلك؟ لعلمتم أنه قادر على إنشائكم وإحيائكم مرة أخرى.

﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ۝٦٣ ءَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ۝٦٤ لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ۝٦٥ إِنَّا لَمُغْرَمُونَ۝٦٦ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ۝٦٧﴾ ثم

سألهم الله سبحانه وتعالىٰ عما يبذرونه في الأرض من الذي يخرجه وينبته من الأرض؟ ومن الذي يخرج لهم ثمره؟ واستنكر عليهم لماذا لا يتفكرون وينظرون في هذه الآية العظيمة الدالة علىٰ أنه لا بد من قادر متمكن في ذلك؟ ولن يجدوا إلا الله سبحانه وتعالىٰ وحده القادر علىٰ ذلك.

ثم أخبرهم أنه لو شاء أن يحرق هذا الزرع ويصيبه بآفة تفسده لفعل من غير أن يقدروا علىٰ دفع ذلك عن زروعهم ثم يتحسرون ويبكي بعضهم إلىٰ بعض.

أولا يعلمون أن الله سبحانه وتعالىٰ قادر علىٰ أن يذهب برزقهم وعلىٰ أن يحبس رزقه عنهم فلا يستطيعون أن يجلبوا لأنفسهم بعد ذلك خيراً أو يجلبوا لأنفسهم رزقاً، فلماذا لا يشكرون الله تعالىٰ ويعترفون بنعمه عليهم؟ ولماذا لا يعترفون بأنه لا حول لهم ولا قوة إلا به؟

﴿أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِى تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ ءَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنْزِلُونَ ﴿٦٩﴾﴾ أخبرونا عن الماء الذي تشربونه أأنتم أيها المشركون أنزلتموه من السحب أم أن الله هو الذي أنزله؟ وكيف إذا حبسه عنهم هل يستطيعون أن يجلبوه لأنفسهم؟ فلماذا لا يشكرون الله سبحانه وتعالىٰ علىٰ نعمه العظيمة عليهم ويتواضعون لعظمته ويعترفون بمننه عليهم؟

﴿لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ﴿٧٠﴾﴾ أولا يعلمون أن الله سبحانه وتعالىٰ لو شاء أن يجعله ملحاً أجاجاً كماء البحر لما وجدوا ما يشربونه أو يروون به عطشهم وظمأ نفوسهم، فلماذا لا يشكرون الله تعالىٰ علىٰ نعمته العظيمة عليهم؟

﴿أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ ﴿٧١﴾ ءَأَنْتُمْ أَنْشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنْشِئُونَ ﴿٧٢﴾ نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً وَمَتَاعًا لِلْمُقْوِينَ ﴿٧٣﴾﴾ أخبرونا أيها المشركون عن النار التي توقدونها أنتم خلقتم شجرتها، أم هو الله الذي خلقها؟

ثم أخبرهم الله سبحانه وتعالىٰ أنه خلق لهم النار لحكمة عظيمة وغرض عظيم ومنافع كثيرة جعلها لهم فيها في الدنيا، وليتعظوا بها ويعتبروا إذا رأوها

فإن فيها تذكرة بنار الآخرة التي أعدها الله تعالىٰ للمجرمين، وجعلها تعالىٰ نعمة للمسافرين يستدفئون بها في أسفارهم، ويصلحون بها طعامهم، وتجعل منارة في طرق المسافرين تعرف بها الطرق، ويهتدي بها الضلال عن الطريق، وتنفر عنها السباع، فيوقدها المسافرون إذا ناموا لتطرد عنهم السباع.

﴿فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴿٧٤﴾﴾ بعد أن عدد الله سبحانه وتعالىٰ لعباده تلك النعم العظيمة أمرهم أن ينزهوه تعالىٰ عن الشريك وأن يخصوه بعبادتهم ويتوجهوا إليه وحده لا يشركون به شيئا؛ لأنه الذي يستحق ذلك لما أعطاهم من نعمه وأوسع عليهم من رزقه.

﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ﴿٧٦﴾﴾ أقسم الله تعالىٰ بالنجوم في أماكنها من السماء وقال: إنه قسم عظيم لو كنتم تعلمون عظمة خلق النجوم ولا خفاء في أن علم البشر بما خلق الله في السماء من النجوم مقصور علىٰ ما يرون من وميضها في السماء وسيرها فيها، وقد أعلن علماء النجوم في هذا العصر علىٰ أن علم ما وراء الشمس وكواكبها مجهول لبعد المسافة حيث أن أقرب نجم إلىٰ الشمس يبعد عنها مسافة ثلاثمائة سنة ضوئية.

﴿إِنَّهُ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ﴿٧٧﴾ فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ﴿٧٨﴾ لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ﴿٧٩﴾ تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴿٨٠﴾﴾ أقسم الله سبحانه وتعالىٰ لهم بالنجوم أن ما يتلوه عليهم النبي ﷺ من القرآن هو كلامه الذي أنزله علىٰ نبيه ﷺ وجعل لهم فيه المنافع والخير الكثير في دنياهم وآخرتهم.

ثم أخبر عنه بأنه قبل أن ينزله إليهم كان مكنوناً ومحفوظاً في السماء لا يمسه أحد إلا ملائكته المطهرون.

﴿أَفَبِهَذَا الْحَدِيثِ أَنْتُمْ مُدْهِنُونَ﴿٨١﴾﴾ يستنكر الله سبحانه وتعالىٰ علىٰ المشركين تكذيبهم بهذا القرآن الذي أنزله من كتابه المكنون حيث أن الحق فيه واضح وحجته فيه قائمة وليس فيه ما يستدعي الشك والتكذيب.

﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴿٨٢﴾﴾ ويستنكر عليهم عدم اعترافهم بنعمة الله عليهم، وجحدهم لما ينزل عليهم من الأرزاق ونسبتهم لها إلى النجوم والأفلاك، فلا يقرون لله تعالى بنعمه أو يعترفون له بفضل استكباراً وعناداً وجحوداً.

﴿فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ﴿٨٣﴾ وَأَنْتُمْ حِينَئِذٍ تَنْظُرُونَ﴿٨٤﴾ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَلَكِنْ لَا تُبْصِرُونَ﴿٨٥﴾﴾ فأوحى الله سبحانه وتعالى إلى نبيه صلى الله عليه وآله وسلم أن يذكرهم وقت نزول الموت عليهم، عندما يكون أحدهم مسجى على فراش الموت يعالج خروج روحه وقد بلغت الحلقوم، والناس حوله ينتظرون ويترقبون خروجها وانتزاعها لا يستطيعون إمساك روحه، ولا يملكون قوة ردها عن الخروج، وقد أصبح ملائكة الموت في تلك اللحظة يعالجون خروج روحه من دون أن يشعر بهم من حوله؛ فأي حيلة لهم في تلك اللحظة؟ وكيف سيكون حالة المحتضر في ذلك الوقت؟

﴿فَلَوْلَا إِنْ كُنْتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ﴿٨٦﴾ تَرْجِعُونَهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴿٨٧﴾﴾ فلو كان الأمر على ما تقولون أيها المنكرون للبعث والحساب والجزاء فلماذا لا تردون هذه الروح وتمنعونها عن الخروج؟ وقد كانوا ينكرون أن يكون الله تعالى هو الذي ينتزع أرواحهم، وينكرون أنه تعالى سوف يبعثهم ويجازيهم بعد ذلك؛ يستنكر الله سبحانه وتعالى عليهم لماذا لا يتفكرون في أمر أرواحهم وانتزاعها؟ وفي عدم قدرتهم على التحكم فيها ساعة خروجها، ولو أنهم تفكروا ونظروا لعرفوا أنه لا بد أن يكون هناك قدرة خفية محيطة بهم، وإرادة تتصرف فيهم لا يملكون معها أي حول أو قوة.

﴿فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴿٨٨﴾ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّةُ نَعِيمٍ﴿٨٩﴾﴾ ثم أخبر الله سبحانه وتعالى عن ذلك الذي أوشكت روحه على الخروج بأنه إن كان من المقربين عند الله تعالى ومن أهل الزلفى لديه فإن الملائكة ستبشره بالراحة والأمن والسلامة من عذاب الله تعالى وسخطه، وستريه منزله الذي أعده الله سبحانه وتعالى له في جنات النعيم.

وأراد تعالى بالمقربين أهل المنازل العالية والدرجات الرفيعة من الأنبياء والصديقين والأئمة والشهداء ومن أشبههم، وهم السابقون المذكورون في أول السورة.

﴿وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ ﴿٩٠﴾ فَسَلَامٌ لَكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ ﴿٩١﴾﴾ وإن كان دون أولئك المقربين رتبة في الإيمان، يعني في المرتبة الثانية فستتلقاه الملائكة بالبشرى أيضاً من الله سبحانه وتعالى بالأمن والسلامة من عذابه وسخطه والنعيم الدائم في جنات النعيم، وسيقابل بالتسليم من أصحاب اليمين الذين تقدموه.

﴿وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ ﴿٩٢﴾ فَنُزُلٌ مِنْ حَمِيمٍ ﴿٩٣﴾ وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ ﴿٩٤﴾﴾ وأما إن كان هذا الميت من المكذبين بالله ورسوله وآياته والصادين عن سبيله، فستتلقاه الملائكة بأهوال ما أعد الله سبحانه وتعالى له من العذاب، ويرونه منزله الذي يصير إليه في جهنم نعوذ بالله منها.

﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ ﴿٩٥﴾﴾ ثم أقسم الله سبحانه وتعالى لهم أن ما أخبرهم به من أمر البعث والحساب والثواب والعقاب حق وصدق، ولا بد أن يقعوا فيه.

﴿فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴿٩٦﴾﴾ فداوم يا محمد على تنزيه الله تعالى وتوحيده، ولا يصدنك عن ذلك إصرار قومك على الشرك بالله والكفر به وبآياته ورسله وباليوم الآخر.

❁❁❁❁❁

سورة الحديد



﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١﴾﴾ ابتدأ الله سبحانه وتعالى هذه السورة بالحث على تسبيحه وتقديسه إذ كل ما في السماوات والأرض ناطق بتنزيهه وتقديسه وشاهد بوحدانيته بلا شريك أو مثيل أو مكافئ، فكل آية في السماوات والأرض آية ناطقة دالة على أن مدبراً دبره،

وخالقاً خلقه وابتدعه، لا كفؤ له ولا مثيل في القدرة والعظمة والحكمة، وهذا هو المراد بتسبيح هذه المخلوقات.

ولو نظر العاقل وتفكر في كل ما يراه أمامه في هذا الكون لعلم أنه جميعاً لحكمة بالغة وغرض واحد، مما يدل على أنه لا يصح أن يكون هناك إلا إله واحد، وأنه لو كان هناك خالق مع الله تعالى لانفرد كل إله بخلقه، ولحصل بينهما التنازع والتخاصم والتشاجر؛ إذاً فترابط هذه الأشياء التي نراها ونرى إحكامها واشتراكها في مصلحة واحدة دلالة قاطعة على إله ومدبر واحد في غاية الحكمة والقدرة والعلم وهو الله رب العالمين.

﴿لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ ثم أخبر الله سبحانه وتعالى عن صفات الإله الذي تشهد له كل المخلوقات بالربوبية، بأنه يختص بملك السماوات والأرض لا يشاركه في ملكها أحد.

﴿يُحْيِي وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝٢﴾ وبيده وحده حياة الكائنات وموتهم؛ لأنه المالك لأمرهم والمتصرف فيهم لا يعجزه شيء وكل شيء تحت قدرته وفي قبضته.

﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ﴾ وهو الأول الذي لا شيء قبله، والآخر الذي لا يبقى شيء معه، وسيفنى كل شيء ويزول ولن يبقى إلا هو وحده.

﴿وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ﴾ هو الظاهر لأهل العقول بما بثه من الآيات التي من نظر فيها عرف وتيقن أنه لا بد من إله خالق ومدبر حكيم، وآثار قدرته التي نراها تدل عليه وتشهد بوجوده، وتنادي بظهوره وما دام هناك أثر فلا بد له من مؤثر أثر فيه، ومدبر دبره.

وهو الباطن عن رؤية الأبصار له، فلا تستطيع أن تدركه أو تراه؛ لأنه ليس مما يرى أو يدرك، ولن يعرف إلا بآياته، وآثار قدرته ومظاهر رحمته وآيات علمه وحكمته.

﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ۝٣﴾ وعلمه محيط بكل شيء فلا تخفى عليه خافية، أو يغيب عن علمه شيء، لا في السماء ولا في الأرض.

﴿هُوَ الَّذِى خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ وهو وحده المتفرد بخلق السماوات والأرض، وقد أراد بخلقه لهما في ستة أيام- أنه خلقهما على مراحل عدة على حسب مقتضى الحكمة، وإلا فهو قادر على خلقهما وإيجادهما في لحظة واحدة.

﴿ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾ يعني سيطر على خلقه وملكه ذلك بقدرته؛ إذ لم يخلق ذلك ثم يتركه هملاً، وقد استولى عليه بعلمه وقدرته، ولذا قال بعد ذلك: ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ۝٤﴾ فهو عالم بكل ما اختفى وتوارى في باطن الأرض، وكذلك عالم بما يخرج من باطنها من الأشجار والأثمار، وكذلك عالم بكل ما ينزل من السماء من قطر الأمطار قطرة قطرة، وأين تنزل؟ وكذلك عالم بكل ما يصعد إلى السماء ويعرج فيها، وما يدور في أرجائها، وكذلك أنتم أيها الخلق فهو عالم بكل واحد منكم أينما كان في ظاهر الأرض أم في باطنها، وهو مطلع على أعمالكم، وما في ضمائركم لا تخفى عليه منكم خافية وسيجازيكم على كل صغيرة وكبيرة من أعمالكم.

﴿لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ۝٥﴾ ومرجع الخلائق جميعاً سيكون إليه يوم القيامة، ولا بد أن يبعثكم أيها الناس ويحاسبكم ويجازيكم.

﴿يُولِجُ اللَّيْلَ فِى النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِى اللَّيْلِ وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ۝٦﴾ وهو الذي يدخل بقدرته الليل في النهار، يدخل ساعات منه في النهار في بعض فصول السنة، ثم تبدأ ساعات الليل في التناقص حتى تدخل بعض أجزائه في النهار في بعض الفصول الأخرى.

ثم بعد أن أطلعهم على عظيم ملكه وآياته الدالة على علمه وقدرته- أمرهم فقال: ﴿ءَامِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾ يخاطب

الله سبحانه وتعالى بذلك المؤمنين، وهذه السورة نزلت بخطابهم وعتابهم وذلك أن الكثرة منهم كانوا ضعاف الإيمان لم يكتمل الإيمان في قلوبهم، فأمرهم الله سبحانه وتعالى بأن يصدقوا في إيمانهم ويخلصوا فيه، وأن يؤمنوا حق الإيمان، وأن يخرجوا صدقة أموالهم وما يجب عليهم فيها حيث أمرهم، وأنهم ليسوا إلا مستخلفين عليها، فالمال ماله وقد استخلفهم عليها كما استخلف الذين من قبلهم.

﴿فَالَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَأَنْفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ۝٧﴾ ثم أثنى الله سبحانه وتعالى على من أخلص في إيمانه وأنفق شيئاً من ماله فيما أوجب الله سبحانه وتعالى عليه، ووعدهم بأنه سوف يجزل لهم في ثوابه وعطائه وسيعوضهم خيراً مما أنفقوا ويزيدهم من فضله.

﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ۝٨﴾ ثم استنكر الله سبحانه وتعالى عليهم لماذا لا يخلصون في إيمانهم، والرسول بين أيديهم يدعوهم إلى ذلك؟ وقد أخذ عليهم البيعة على السمع والطاعة لله وللرسول؛ فأين ذلك العهد والميثاق الذي واثقتموه في منشطكم ومكرهكم ويسركم وعسركم؟

ووبخهم على تقصيرهم في إيمانهم وتكاسلهم وتباطئهم في الاستجابة لله وللرسول، وعن سرعة المبادرة إلى ما يدعوهم إليه الله تعالى ورسوله، وعدم إخلاصهم في الوفاء بما بايعوا عليه.

﴿هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَى عَبْدِهِ ءَايَاتٍ بَيِّنَاتٍ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ۝٩﴾ ويعاتبهم على عدم وفائهم بما بايعوا عليه الله تعالى ورسوله وهم يعلمون أنه الذي ينزل القرآن على محمد صلى الله عليه وآله وسلم ليدعوهم إلى ما فيه صلاحهم وخير دينهم ودنياهم، لم يرسل إليهم محمداً صلى الله عليه وآله وسلم إلا رحمة منه لهم ليستنقذهم من ظلمات الجهل والشرك إلى نور الحق والهدى.

﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ وكذلك يوبخهم على تقصيرهم وبخلهم بإنفاق شيء مما أعطاهم الله تعالى في سبيل نشر دينه وإعلاء كلمته وهم يعلمون أن الملك ملك الله والمال ماله، ويعلمون أنهم لن يأخذوا شيئاً منها إلى قبورهم.

﴿لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٠﴾﴾ ثم أوحى الله سبحانه وتعالى إلى نبيه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ أن يخبر أصحابه أنه لا يستوي عنده الذين أسلموا قبل فتح مكة وقاتلوا مع النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ هم والذين لم يدخلوا في الإسلام إلا بعد فتح مكة، فالسابقون أعظم درجة عند الله وأفضل عنده من أولئك اللاحقين، ولو كان الله تعالى راضياً عنهم جميعاً، لكن درجات السابقين أرفع وأعظم عنده.

﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿١١﴾ يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٢﴾﴾ بعد أن حث الله تعالى المؤمنين على البذل والعطاء والإنفاق في سبيله زاد على ذلك أن رغبهم في الإنفاق، وجعله على سبيل القرض عنده، ووعدهم بأنه سوف يقضيهم وسيزيدهم على ما بذلوا وأنفقوا أضعافاً مضاعفة، وسيعطيهم على الحسنة عشر أمثالها، ويضاعف ذلك إلى سبعمائة ضعف، ووعدهم أنه سوف يوفيهم أجر قرضهم ذلك يوم القيامة بالأجر الكريم النافع لهم في ذلك اليوم ولضاعفه لهم الأضعاف الكثيرة.

وقد رغبهم الله سبحانه وتعالى هذا الترغيب لأنهم كانوا قد وصلوا إلى غاية الوهن والضعف والتكاسل عن نصرة النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، وقد أصابهم الفتور الشديد وابتعدوا عن فعل الخير والإنفاق في سبيل الله، فأنزل الله سبحانه وتعالى على نبيه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ هذا العرض المغري ليجدد به من نشاطهم ويزيد من عزمهم

وسرعة مبادرتهم إلى البذل والعطاء في سبيل الله تعالى خالصاً لوجهه لا يريدون على ذلك جزاءً ولا شكوراً من أحد.

ثم أخبر الله سبحانه وتعالى أنه سوف يجعل لأهل هذه الصفة نوراً يوم القيامة يسعى بين أيديهم وبأيمانهم، وأن ملائكة الرحمة سوف تزف إليهم البشرى من الله سبحانه وتعالى بما أعد لهم من النعيم الذي ينتظرهم في الجنة.

﴿يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا انْظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ﴿١٣﴾﴾ ثم أخبر الله سبحانه وتعالى عن سوء حال المنافقين والمنافقات يوم القيامة وما سيكون عليهم من الخزي والذلة وهم يصيحون بالمؤمنين الذين كانوا معهم في الدنيا ويطلبون منهم أن يشركوهم في نورهم، وأن ينتظروهم ليسيروا معهم ويستضيئوا بنورهم، لما أحاط بهم من الظلمة الشديدة التي أطبقت عليهم، ولكن المؤمنين سيجيبون عليهم بأنه لا حظ لكم ولا نصيب في شيء من هذا النور، وأنه مختص بالصادقين في إيمانهم الباذلين أنفسهم وأموالهم في سبيل الله تعالى، ثم يضرب الله سبحانه وتعالى بينهم بحاجز وسور يفصل بينهم وبين المنافقين. وقوله ﴿بَاطِنُهُ﴾: يعني ما يلي المؤمنين، ﴿وَظَاهِرُهُ﴾: يعني به ما يلي المنافقين.

﴿يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ قَالُوا بَلَى وَلَكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ حَتَّى جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ﴿١٤﴾﴾ وعندما يناديهم المنافقون ويسألونهم ألم نكن بينكم مع النبي ﷺ؟ وقد صدقناه معكم وآمنا به فلماذا تمنعوننا أن ندخل معكم في نوركم؟ فيرد عليهم المؤمنون الصادقون: بلى قد كنتم معنا، غير أنكم استجبتم لهوى أنفسكم، ودخلتم في الفتنة والضلال، وانتظرتم هلاك النبي ﷺ، وارتبتم في صدقه وفيما جاء به من عند الله، وغرتكم الأماني الباطلة، ولم ترعووا حتى جاء أمر الله وأنتم في الفتنة والضلال، وغركم الشيطان وأبعدكم عن الإيمان بالله.

﴿فَالْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنْكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مَأْوَاكُمُ النَّارُ هِيَ مَوْلَاكُمْ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ۝١٥﴾ فقد انقطع الأمل والرجاء يوم القيامة، فلا فدية تنفعهم أو تدفع عنهم شيئاً من عذاب الله الذي وجب عليهم، ولم يبق لهم إلا دخول جهنم، وقد صاروا من أهلها والأولى بها.

﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ۝١٦﴾ أما آن لقلوبكم أيها المؤمنون بعد كل ما قد جاءكم من البينات ورأيتم من الآيات، وبعدما أنزل الله عليكم من القرآن أن تلين لما نزل إليها من البينات والهدى، وألم يأن لهم أن لا يفعلوا كفعل أهل الكتاب من تحريف توراتهم وإنجيلهم، ونسيانهم لما جاءت به أنبياؤهم ورسلهم.

﴿اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ۝١٧﴾ ثم يخاطب الله سبحانه وتعالى المؤمنين الذين لا زالت قلوبهم قاسية، واستنكر عليهم لماذا لا تلين قلوبهم لتلك الآيات التي جاءتهم؟ وأخبرهم أن من شأنها أن تحيا بما أنزل لهم من الآيات، وأنزل عليهم من البينات كما أن الماء يحيي الأرض بعد موتها وجفافها.

﴿إِنَّ الْمُصَّدِّقِينَ وَالْمُصَّدِّقَاتِ وَأَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ۝١٨﴾ بعد أن حثهم الله سبحانه وتعالى في الآية السابقة على الإنفاق في سبيله أكد على ذلك هنا وزاد في الحث على ذلك بـ«إن» التي تفيد زيادة التأكيد على أنه لا بد أن يضاعف لهم أجر قرضهم بالثواب العظيم والنافع لهم يوم القيامة.

﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ وَالشُّهَدَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ۝١٩﴾ الذين صدقوا في إيمانهم بالله تعالى ورسوله وأخلصوا في إيمانهم ذلك فقد جعل الله سبحانه وتعالى لهم المنازل الرفيعة مع الصديقين والشهداء،

وأما الذين كفروا بآيات الله تعالىٰ واستكبروا عنها فليس لهم إلا النار مثوىٰ لهم خالدين فيها وبئس المصير، ولا حظ لهم أو نصيب في شيء من رحمة الله تعالىٰ.

﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ ﴿٢٠﴾﴾ يكرر الله سبحانه وتعالىٰ خطابه لضعاف الإيمان الذين هم المنافقون الذين لم يدخل الإيمان في قلوبهم، فأوحىٰ الله سبحانه وتعالىٰ إلىٰ نبيه ﷺ أن يعظهم ويحذرهم الدنيا فلا يغتروا بزينتها وشهواتها فليست إلا كلعبة أطفال يتركونها بين أيديهم ساعة ثم يملون منها وينبذونها، وأن حالهم في الدنيا كحال أولي اللهو واللعب سرعان ما سيرحلون عنها تاركين وراءهم ما قد جمعوا من حطامها ومتاعها، وأن طبيعة الدنيا أن تجر الإنسان إلىٰ زينتها وشهواتها ولذاتها والتفاخر علىٰ الناس بحطامها ومتاعها، ثم سرعان ما تزول وتنتهي وكأن شيئاً لم يكن.

وقد شبهها الله سبحانه وتعالىٰ بزرع سقاه الله تعالىٰ حتىٰ ارتوىٰ واستكمل نموه وأخرج ثمره يعجب الزراع منظره ولكن ما إن يكتمل نموه ذلك حتىٰ يبدأ في الاصفرار والذبول إلىٰ أن تفتته الريح وتطيره، فهذه حال الدنيا، فلا تغتروا بها، ولتكن همتكم في الجمع والادخار لآخرتكم لتسلموا مما أعد الله سبحانه وتعالىٰ من العذاب الشديد لمن عصاه واتبع شهوات الدنيا ولذاتها.

﴿سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿٢١﴾﴾ سارعوا وبادروا إلىٰ فعل أسباب المغفرة من ربكم بتقوىٰ الله سبحانه وتعالىٰ وفعل ما يرضيه لتظفروا بما أعد من النعيم، وتفوزوا بثوابه الذي لا ينقطع ولا يزول، وأخلصوا إيمانكم بالله تعالىٰ ورسوله بفعل ما أمركم واجتناب ما نهاكم عنه، والمخلص في إيمانه: هو المصدق بلسانه وقلبه مع العمل بجوارحه وأركانه، وما سوىٰ ذلك فليس بإيمان علىٰ الحقيقة، ولا ينطبق عليه اسم الإيمان.

﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾ لِكَيْ لَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ﴾ لا تكبر في أنفسكم المصائب التي تنزل بكم أيها المؤمنون من نقص الأموال والأولاد والأمراض وغيرها فما من مصيبة تنزل على أحد إلا والله تعالى يعلمها، وقد كتبها وقدرها في علمه من قبل خلقكم وقبل أن يخلق السماوات والأرض، فإذا علم المؤمن ذلك وعلم أن ما فاته أو نقص عليه فإنه مكتوب عند الله تعالى مقدر من عند الله فإن ذلك سيهون عليه مصيبته وسيخفف ذلك عنه وقع المصيبة ويحمله على الرضا والصبر.

﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿٢٣﴾ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَمَنْ يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴿٢٤﴾﴾ ثم ذم الله سبحانه وتعالى الذين إذا أنعم عليهم بنعمة أو أسبغ عليهم رزقه أصابهم العجب الشديد وافتخروا بأنفسهم وتكبروا على الناس، وبطروا بنعم الله تعالى عليهم غافلين عن شكر الله تعالى وعن أداء ما افترض عليهم، فهؤلاء لا يحبهم الله وليس لهم نصيب من رحمة الله وثوابه فينبغي إذا أنعم الله تعالى على عبده بنعمة أن لا يفرح فرح بطر وعجب، وأن يشكر الله تعالى على ما أعطاه، وأن يضع ما أعطاه في مواضعه وحيث أمره ربه، وأن يتواضع ويخشع ويستكين.

وأما فرح السرور مع أداء شكر نعم الله تعالى عليه فذلك محمود عند الله تعالى، ثم وصف الله تعالى المختالين بأنهم الذين يبخلون بإخراج ما يجب عليهم في أموالهم ويمنعون غيرهم عن إنفاقها فيما يجب، وأخبر أن من كان كذلك فإنه تعالى غني عنه غير محتاج إليه ولا إلى ماله، فالملك ملكه وخزائن السماوات والأرض بيده، وإذا أنفقوا أموالهم فنفعها عائد لهم.

وقوله ﴿الْحَمِيدُ﴾: يعني أنه غير محتاج إلى شكرهم ولا إلى حمدهم فهو محمود من دونهم، وله الفضل على أهل السماوات والأرض غير محتاج إلى شيء مما عندهم.

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ قد أبلغ الله سبحانه وتعالى حججه الواضحة إلى عباده بما أرسل إليهم من الرسل وأنزل إليهم من الكتب، وبما شرع لهم من الشرائع والأحكام التي بها يقام الحق والعدل فيما بينهم.

﴿وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ﴾ وأنعم تعالى على عباده بأن خلق لهم الحديد الذي يصنعون منه السيوف الفتاكة والرماح القتالة والدروع وآلات الحراثة والصناعة و..إلخ، ومنافع الحديد كثيرة ولا سيما في عصرنا هذا الذي تطورت فيه الصناعة.

﴿وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٢٥﴾﴾ كلف الله سبحانه وتعالى عباده بالجهاد والقتال في سبيله، وأنزل لهم الحديد ليقاتلوا به بين أيدي أنبيائهم وأئمتهم، وبذلك التكليف يظهر المخلص من المنافق.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ﴾ ثم أخبر الله سبحانه وتعالى بأنه أرسل نوحاً وإبراهيم، واصطفاهما وجعل في ذريتهما النبوة والكتاب، فلا يبعث الله نبياً إلا من ذريتهما.

﴿فَمِنْهُمْ مُهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴿٢٦﴾﴾ فقليل من ذريتهما ثبتوا على الهدى، وأما الكثرة فهم فاسقون خارجون عن حدود الله تعالى ومواثيقه.

﴿ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَى ءَاثَارِهِمْ بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَءَاتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَآتَيْنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴿٢٧﴾﴾ ثم إن الله سبحانه وتعالى أرسل رسلاً كثيرة بعدهما وكان آخرهم عيسى عليه السلام، وقد أنزل الله سبحانه وتعالى عليه الإنجيل وجعل أتباعه أهل رحمة ولين ولطافة، ولا زال طبعهم ذلك إلى يومنا هذا.

ثم إنهم تعبدوا لله تعالى وأوجبوا على أنفسهم أشياء لم يكتبها الله سبحانه وتعالى أو يوجبها عليهم، وابتدعوا ذلك من عند أنفسهم ابتداعاً، ولكن الله

تعالىٰ أوجبها عليهم وكتبها فيما بعد عقوبة لهم، فكان أحدهم يوجب على نفسه أن لا يتزوج وأن لا يظله سقف أو يفترش تحته فراشاً وغير ذلك من الأشياء التي يتنسكون بها ابتداعاً من عند أنفسهم، ثم بعد أن أوجبها الله سبحانه وتعالىٰ عليهم أخل بها الكثير منهم، وقصروا في أدائها وتركوها، ثم أخبر الله سبحانه وتعالىٰ أن الذين ثبتوا على إيمانهم منهم، واستقاموا على دينهم وما أمرهم ربهم فإنه سيوفيهم أجورهم يوم القيامة وهم قلة، وأكثرهم خرجوا عن الدين وفسقوا عن أمر الله.

﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَءَامِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴿٢٨﴾﴾ ثم وجه الله سبحانه وتعالىٰ خطابه للمؤمنين من أتباع النبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ فأمرهم أن يتقوا الله تعالىٰ حق تقاته، وأن يؤمنوا بما جاءهم به نبيهم صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ ووعدهم بأنه سيضاعف لهم أجرهم على ذلك مرتين، ويجعل لهم تنويراً في قلوبهم، وعلماً يفرقون به بين الحق والباطل، ويكفر عنهم سيئاتهم ويغفر لهم ذنوبهم.

﴿لِئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴿٢٩﴾﴾ كان أهل الكتاب يزعمون أنه لا يصح أن يرسل الله سبحانه وتعالىٰ نبياً إلا منهم، وأنه لا يصح أن يجعلها في غير بني إسرائيل، وأن مغفرة الله وفضله حكر عليهم، فرد الله سبحانه وتعالىٰ عليهم أن الأمر ليس كما يزعمون فقد أخرج النبوة منهم وجعلها في العرب، وتفضل بها عليهم، وقد اصطفاكم أيها المؤمنون وفضلكم عليهم بمحمد صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، وأجزل لكم المثوبة والعطاء، واختصكم بفضله ورحمته، ليعلم أهل الكتاب أن الملك بيد الله وحده، وأن له أن يختار لنبوته ويصطفي لها من أراد من خلقه، وليعلم أهل الكتاب أنه لا يصح لهم أن يعترضوا على الله سبحانه وتعالىٰ أو يقترحوا عليه أو يتحكموا في ملكه.

سورة المجادلة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ۝١﴾ المجادلة هي زوجة أوس بن الصامت وكان اسمها خولة بنت ثعلبة أقبلت إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم تشكو إليه زوجها أوساً بأنه قد ظاهر منها وهجرها بعد كل السنين الطويلة التي عاشرته؛ وكان الظهار نوعاً من أنواع الطلاق، وطلبت من النبي صلى الله عليه وآله وسلم أن ينتصف لها منه؛ فأوحى الله سبحانه وتعالى إلى نبيه صلى الله عليه وآله وسلم بأنه قد سمع جدال هذه المرأة في زوجها، وما دار بينها وبين النبي صلى الله عليه وآله وسلم، وأنزل في أحكام الظهار آيات بينات.

﴿الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْكُمْ مِنْ نِسَائِهِمْ مَا هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلَّا اللَّائِي وَلَدْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنْكَرًا مِنَ الْقَوْلِ وَزُورًا وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ۝٢﴾ كانوا يقولون في ظهارهم: أنت علي كأمي، أو: أنت علي كظهر أمي؛ فأوحى الله سبحانه وتعالى إلى نبيه صلى الله عليه وآله وسلم بأن الأمر ليس كما يقولون، وليست الزوجة أماً، وإنما أمه هي من ولدته دون زوجته، وما يلفظون به من الظهار مِنْ أنكر الأقوال وأقبحها، وكلام زور وبهتان لا يجوز.

ثم أوحى الله سبحانه وتعالى إلى نبيه صلى الله عليه وآله وسلم أن يمسكوا ألسنتهم عن الظهار وينتبهوا فيما يستقبل من زمانهم، وأنه عفا عنهم فيما مضى فلا يعودوا للظهار.

﴿وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّا ذَلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ۝٣﴾ ثم بين الله تعالى كفارة من عاد إلى الظهار بعد أن نهى الله تعالى عنه، وأحب الرجوع إلى زوجته فقال: إن كفارة ذلك إعتاق رقبة من العبيد من قبل أن يمس زوجته، ولا يصح له الرجوع والمسيس إلا بعد الإعتاق، وقد شدد الله سبحانه وتعالى عليهم في ذلك لينزجروا ويرتدعوا عن الوقوع في ذلك الإثم، فإذا عرف ما يلزمه من

الغرامة فإنه سيمسك لسانه ويكف عن ظهار زوجته؛ إذ قد علم الله سبحانه وتعالىٰ أنه لن يصلح عباده ويزجرهم عن ذلك إلا هذا الإلزام.

﴿فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّا فَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا ذَلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤﴾﴾ فإذا لم يجد المظاهر رقبة يعتقها فيجب عليه صيام شهرين متتابعين لا يتخللهما إفطار، ولا يمسها إلا بعد إتمام الصيام، فإن تعذر عليه الصوم لضعف أو عجز أو نحو ذلك فيجب عليه إطعام ستين مسكيناً نصف صاع لكل مسكين، وقد فرض الله سبحانه وتعالىٰ ذلك عليكم وأدبكم بذلك لتطيعوا الله ورسوله وتلتزموا حدوده وما أمركم به.

ثم أخبرهم أن ذلك التكفير حد من الله تعالىٰ حده لهم وفرضه عليهم لئلا يعودوا في ذلك الإثم، وأن من تجاوز حدود الله تعالىٰ هذه فقد خرج عن طاعة الله تعالىٰ ورسوله واستحق نار جهنم.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ كُبِتُوا كَمَا كُبِتَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَقَدْ أَنْزَلْنَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴿٥﴾ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٦﴾﴾ ثم أخبر الله سبحانه وتعالىٰ أن من تجاوز حدوده بعد ما جاءته حجج الله وبيناته وعرف شرائعه وأحكامه فهو محارب لله تعالىٰ ورسوله، وقد استحق اللعن والطرد من رحمته والعذاب الأليم يوم القيامة، ثم أمرهم الله تعالىٰ أن يتذكروا يوم القيامة ذلك اليوم عندما يبعثهم الله تعالىٰ للحساب والجزاء علىٰ كل ما عملوا من الأعمال صغيرها وكبيرها، وأنهم سيجدون كل شيء مكتوباً في صحائف أعمالهم، وسيحصيها الله سبحانه وتعالىٰ عليهم حتىٰ ما نسوه منها فيذكرهم الله تعالىٰ بها في ذلك اليوم، ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ﴿٦٤﴾﴾ [مريم].

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ

إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴿٧﴾﴾ فهو تعالى حاضر معهم بعلمه وشاهد على كل شيء من أعمال عباده وغيرها لا تخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء، ثم إنه تعالى سيحاسبهم عليها يوم القيامة ويعرضها عليهم صغيرها وكبيرها وظاهرها وخفيها لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوَى ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَيَتَنَاجَوْنَ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ﴾ كان في المدينة أناس ممن يسمون أنفسهم بالمؤمنين وما هم بمؤمنين يتحينون الفرص ليزرعوا الخوف في قلوب المؤمنين، ويبثوا الرعب بين صفوفهم، فكانوا ينعزلون أمام المؤمنين ويتهامسون فيما بينهم ليوهموا من يراهم ممن حولهم أنهم يدبرون أمراً، ويضمرون فيما بينهم مكروهاً أو مكيدة يحيكونها ضدهم، فنهاهم الله سبحانه وتعالى عن هذا الصنيع وزجرهم، ولكنهم لم ينتهوا عن ذلك، واستمروا في نجواهم.

وقد فضحهم الله سبحانه وتعالى لنبيه صلى الله عليه وآله وسلم، وأخبره أنهم لا يتناجون ويتهامسون إلا على شر أو عدوان على الله وعلى رسوله أو على أحد المؤمنين.

﴿وَإِذَا جَاءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ وَيَقُولُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴿٨﴾﴾ ومن صفتهم أنهم كانوا إذا أقبلوا إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم فإنهم يحيونه بعبارات موهمة غير تحية الدين والإسلام التي أمرهم الله سبحانه وتعالى ورسوله بها، وقد فضحهم الله سبحانه وتعالى لنبيه صلى الله عليه وآله وسلم بأنهم يضمرون في أنفسهم الكفر، ويحدثون أنفسهم بأن النبي صلى الله عليه وآله وسلم لو كان صادقاً فلماذا لا ينزل الله تعالى بهم عذابه، ويجازيهم على ما يبرمونه ويدبرونه، وما يتكلمون به على النبي صلى الله عليه وآله وسلم؛ فرد الله سبحانه وتعالى عليهم بأن لا يستعجلوا نزول عذاب الله تعالى فقد وجب عليهم، وقد أعد لهم جهنم وبئس المصير.

﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا تَنَاجَيْتُمْ فَلَا تَتَنَاجَوْا بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ وَتَنَاجَوْا بِالْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِى إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴿٩﴾﴾ ثم أوحى الله سبحانه وتعالى إلى نبيه ﷺ أن يلقن أصحابه ويرشدهم ويؤدبهم بأن لا يتناجوا فيما بينهم أو يبرز بعضهم ببعض إلا بالخير، وأن لا يتساررروا فيما بينهم إلا بما فيه البر والتقوى وصلاح الشأن، وأن يخافوا الله تعالى ويحذروه ويراقبوه في سرهم وعلانيتهم فهو مراقب لهم وهو معهم أينما كانوا فمرجعهم إليه وسيجازي كلاً على عمله.

﴿إِنَّمَا النَّجْوَى مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزُنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَيْسَ بِضَارِّهِمْ شَيْئًا إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴿١٠﴾﴾ يخبر الله سبحانه وتعالى أن ما يتناجى به المنافقون فيما بينهم ضد النبي ﷺ وأصحابه إنما هو من عمل الشيطان، وما يدبرونه إنما هو مكائد شيطانية، وليسوا إلا مدسوسين على الإسلام والمسلمين ليبثوا الرعب بين أوساط المسلمين، وينشروا الفزع والخوف في قلوبهم، وليفرقوا بين صفوفهم، وليعلم المؤمنون أن ما يدبره ويحيكه المنافقون ضدهم لن يضرهم شيئاً ما داموا متوكلين على الله سبحانه وتعالى، ومفوضين أمورهم إليه، وأن من توكل على الله تعالى كفاه شر الكائدين، ودفع عنه ضر المنافقين.

وقد كان المنافقون في زمان النبي ﷺ كثرة في المدينة، وقد عانى منهم النبي ﷺ أعظم مما لقي من المشركين، ولذلك أكثر الله سبحانه وتعالى من ذكرهم والتحذير منهم في القرآن الكريم.

﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِى الْمَجَالِسِ فَافْسَحُوا يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ﴾ كان أصحاب النبي ﷺ يزدحمون على مجلسه ليستمعوا إلى حديثه، ويستفيدوا منه؛ فكان إذا أقبل أحد من خارج المدينة يريد الاستماع للنبي ﷺ لا يجد له مكاناً يجلس فيه من شدة الزحام، فأرشدهم الله تعالى إلى أن يفسحوا في مجالسهم لمن أقبل إليهم، ويوسعوا فيها لهم.

﴿وَإِذَا قِيلَ انْشُزُوا فَانْشُزُوا يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١١﴾﴾ وإذا دعاكم النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ إلى الخروج معه في غزوة فانفروا معه وسارعوا في إجابته.

ثم أثنى الله تعالى على المؤمنين الذين يستجيبون لله تعالى ورسوله وأخبرهم بأنه سوف يرفع منازلهم عنده، ثم أخبر عن أهل العلم منهم بأنهم أرفع عنده من غيرهم وأعلى رتبة لديه.

﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةً ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ وَأَطْهَرُ﴾ كان المؤمنون يكثرون على النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ من الأسئلة، ويتزاحمون عليه حتى يتسببوا في إلحاق الأذى والضيق عليه، فأراد الله سبحانه وتعالى أن يخفف على نبيه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ هذا الزحام؛ فأوجب على من أراد أن يناجيه أو يسأله أن لا يفعل ذلك إلا بعد أن يخرج صدقة من ماله، ويتصدق بها في سبيل الله تعالى أو على الفقراء والمساكين، وليس المراد أن يعطيها النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، وأخبرهم أن ذلك أفضل لهم عند الله تعالى وأسلم من اقتراف المآثم، وتسبيب الأذى للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ.

﴿فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٢﴾﴾ وأما من لم يجد شيئاً يخرجه فلا حرج عليه أن يسأل النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، وبعد أن فرض الله تعالى عليهم ذلك وأوجبه- امتنعوا عن الازدحام على نبيهم، وتركوا مساءلته، ولم يسأله في هذه الفترة إلا أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ فقد قدم ديناراً وقسمه أرباعاً فكان يخرج عند كل سؤال يسأله ربعاً.

﴿ءَأَشْفَقْتُمْ أَنْ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَاتٍ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَءَاتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٣﴾﴾ ثم حين امتنعوا استنكر الله تعالى عليهم بخلهم بأموالهم أن يتصدقوا بها وينفقوها في سبيل الله، ثم إن الله سبحانه وتعالى نسخ هذا الحكم

وتاب عليهم، وسمح لهم أن يسألوا النبي ﷺ، ولكن ليتأدبوا في حضرته ويحترموا مجلسه، وأمرهم الله تعالى أن يقيموا الصلوات ويؤدوا فرائض الزكاة ويطيعوا أمر الله تعالى وأمر رسوله ﷺ، وليحرصوا على تقوى الله في سرهم وجهرهم، فإن الله تعالى مطلع على جميع أعمالهم ظاهرها وخفيها وسيجازيهم عليها.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مَا هُمْ مِنْكُمْ وَلَا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ۝١٤ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ۝١٥ اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ ۝١٦﴾ يعجب الله سبحانه وتعالى هنا نبيه ﷺ من بعض أصحابه الذين يتولون المشركين ويوادونهم ويناصحونهم مع أنهم في الحقيقة غير مسلمين، ثم يأتون إليه منكرين لما فعلوا، ويحلفون على ذلك الأيمان الغليظة والفاجرة، أعد الله تعالى لهم العذاب الشديد جزاء صنيعهم ذلك، ولهم عذاب مهين على الأيمان الفاجرة التي أقدموا عليها ليتخلصوا بها من عقوبة النبي ﷺ.

﴿لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ۝١٧﴾ لن تفيدهم أموالهم ولا أولادهم بأي فائدة من عذاب الله تعالى، ولا مخلص لهم منه، وهم أصحاب النار خالدين فيها أبداً.

﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَى شَيْءٍ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ ۝١٨﴾ ثم أخبر الله سبحانه وتعالى عن هؤلاء المنافقين الذين كانوا يعتذرون للنبي ﷺ بالأيمان الفاجرة بأنهم يوم القيامة سيحلفون لله تعالى، وسينكرون أعمالهم الخبيثة ظناً منهم أن أيمانهم هذه ستنفعهم عند الله تعالى، وأنها ستخلصهم من عقابه.

﴿اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنْسَاهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ أُولَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ ۝١٩﴾ سيطر عليهم الشيطان واستولى عليهم بوساوسه، وما يزينه لهم حتى أنساهم الخوف من الله تعالى، ثم أخبر الله سبحانه

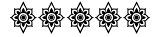
وتعالىٰ عنهم بأنهم حزب الشيطان وجنوده.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَٰئِكَ فِي الْأَذَلِّينَ﴿٢٠﴾﴾ الذين يحاربون الله تعالىٰ ورسوله، وينصبون العداء لله ورسوله فهم أهل الذلة والخزي في الدنيا والآخرة، كتب الله ذلك عليهم، وأوجب لهم العذاب الشديد في نار جهنم.

﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴿٢١﴾﴾ ثم أخبر الله سبحانه وتعالىٰ نبيه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ بأنه قد كتب وقضىٰ وقدر بأن الغلبة تكون لله تعالىٰ ورسوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ والمؤمنين، وأن العاقبة سوف تكون لهم.

﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾ الذين يذيعون أسرار النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ وأصحابه وينقلونها إلىٰ الكفار ليسوا مؤمنين بالله تعالىٰ ولا باليوم الآخر، والإسلام منهم بريئ، نهىٰ الله تعالىٰ المسلمين عن مناصحة المشركين ونقل أسرار المسلمين من أمور الحرب وخطط الغزو ونحو ذلك مما يعود ضرره علىٰ الإسلام والمسلمين ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو من أقرب أقربائهم.

﴿أُولَٰئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَٰئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴿٢٢﴾﴾ ثم أخبر الله سبحانه وتعالىٰ عن المسلمين الذين لا يوادون المشركين ولا يناصحونهم بأنه قد ملأ قلوبهم إيماناً، وزادهم تنويراً وهدىٰ في قلوبهم، وأنهم حزب الله تعالىٰ وجنده الذين سيظفرون ويفوزون بثواب الدنيا والآخرة.



سورة الحشر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ۝١﴾ وكل ما خلقه الله سبحانه وتعالى في السماوات والأرض فهو يشهد له بالربوبية والعلم والحكمة والقدرة، وتنزهه عن الشريك والمثيل، وما فيهما من الإتقان والإبداع آية ناطقة بذلك.

والله تعالى هو العزيز الغالب الحكيم الذي لا يظلم ولا يفعل الفساد وأفعاله كلها حسنة مبنية على الحكمة.

﴿هُوَ الَّذِى أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِى الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَاأُولِى الْأَبْصَارِ۝٢﴾ ثم أخبر الله سبحانه وتعالى أنه هو الذي أخرج بقوته وقدرته بني النضير من ديارهم، وألقى في قلوبهم الرعب حتى خرجوا وتركوا أموالهم وديارهم.

وكان سبب خروجهم أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ حاصرهم بعد غزوة الخندق عندما نقضوا العهد والصلح الذي كان بينهم وبين النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، وكانوا قد اتخذوا لهم حصوناً منيعة حول قراهم ليدافعوا عن أنفسهم من ورائها، ولكن بعد أن اشتد عليهم حصار المسلمين وضيقوا عليهم اتفقوا مع النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ أن يخرجوا من ديارهم وأموالهم ويتركوها للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ والمسلمين مقابل سلامة أرواحهم، وقد شرط عليهم النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ أن لا يحمل أحد من أمواله إلا ما يحمله بعيره، ثم خرجوا إلى بلاد الشام، وقد كانوا أهل ثراء وغنى وأموال طائلة فتركوا بعدهم كل أموالهم وثرواتهم؛ فأخبر الله سبحانه وتعالى أنه هو الذي قذف في قلوبهم الرعب، وقد كانوا أهل شدة وبأس وقتل وقتال، ولا يتصور أحد أو يكون في حسبانه أنهم سيخرجون بكل تلك السهولة مخلفين وراءهم كل ما يملكون.

وقد أراد الله سبحانه وتعالىٰ بأول الحشر: هو حشرهم ونفيرهم إلىٰ بلاد الشام، وأما الحشر الثاني: فهو عندما يحشرهم الله سبحانه وتعالىٰ يوم القيامة.

وقد خربوا بيوتهم وقطعوا أشجارهم قبل خروجهم لئلا ينتفع بها المسلمون بعدهم، وكان المسلمون كذلك يخربون بيوت اليهود ويقطعون نخيلهم وأشجارهم من شدة ما يجدون من الكراهية لهم والحقد عليهم.

ثم أمر الله سبحانه وتعالىٰ عباده أهل العقول أن يعتبروا بما جرىٰ عليهم، وأن ينظروا كيف كانت عاقبة المكذبين بأنبياء الله تعالىٰ ورسله.

﴿وَلَوْلَا أَنْ كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَلَاءَ لَعَذَّبَهُمْ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابُ النَّارِ۝٣﴾ ثم أخبر الله سبحانه وتعالىٰ أنه لولا ما سبق من قضائه وكتب في علمه من إجلائهم من المدينة -ولم يقض الله تعالىٰ الجلاء إلا لحكمة ومصلحة- لعذبهم في الدنيا بالقتل كما عذب إخوانهم من بني قريظة.

﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقِّ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ۝٤﴾ وسبب خروجهم وإجلائهم إلىٰ بلاد الشام هو أنهم عاندوا الله سبحانه وتعالىٰ ورسوله، ونصبوا الحرب والعداء لله تعالىٰ ولرسوله ﷺ وللإسلام والمسلمين، ومن يعاد الله فإن الله شديد العقاب.

﴿مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لِينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَى أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيُخْزِيَ الْفَاسِقِينَ۝٥﴾ في حال حصار بني النضير كان ناس من المسلمين يقطعون أشجار نخيلهم واعترض عليهم أناس آخرون ونهوهم عن ذلك، وأمروهم أن يتركوها لينتفع بها المسلمون بعدهم؛ فنزلت هذه الآية تخبرهم أنهم قد أحسنوا جميعاً، وأن كلاً من الفريقين مصيب فيما رأىٰ، وأن القطع والترك كلاً بإذن الله تعالىٰ وإرادته، أما الذين قطعوا فلما في ذلك من الإغاظة لليهود وإخزائهم، وأما من ترك فلما سيحصل في بقائها من الفائدة والنفع فيما بعد للمسلمين.

﴿وَمَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَكِنَّ اللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦﴾﴾ لا تطمعوا أيها المسلمون في غنائم بني النضير فهي لله تعالى ولرسوله ولا نصيب لكم ولا حظ في شيء منها؛ لأنكم لم تغيروا عليها بخيلكم ورجالكم حتى تستحقوا شيئاً منها، وأمرهم أن يتركوها للنبي ﷺ فهي فيء من الله تعالى لنبيه ﷺ.

﴿مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ﴾ ما أفاء الله سبحانه وتعالى على رسوله من أموال بني النضير فهو مختص به وحده لا نصيب لأحد فيه، وأما ما أفاءه الله تعالى على رسوله من بقية قرى اليهود ومساكنهم فهو لهؤلاء الأصناف الذين قد أراد الله تعالى أن يجعلها فيهم وأن لا يملكها أحد غيرهم.

وذوو القربى: هم قرابة النبي ﷺ، واليتامى والمساكين: هم من الذين هاجروا مع النبي ﷺ، وابن السبيل: هم المسافرون المنقطعون عن أهلهم وأموالهم وديارهم.

﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٧﴾﴾ فإن أعطاكم النبي ﷺ شيئاً فخذوه فهو حلال لكم، وما نهاكم عنه فانتهوا.

ثم أمرهم الله سبحانه وتعالى أن يتقوه، وألا يخالفوا تعاليمه أو يطمعوا فيما ليس لهم فيه حق من المغانم وغيرها.

﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴿٨﴾﴾ هذا تفسير للفقراء الذين ذكرهم في الآية السابقة، فأخبر أنهم من الذين هاجروا مع النبي ﷺ من

مكة، وطردهم المشركون من ديارهم وجردوهم من جميع أموالهم حتى أصبحوا لا يملكون شيئاً من متاع الدنيا، وقد اتخذوا لهم ناحية في المسجد يسكنونها لا يجدون لهم مسكناً غيرها فسموا أهل الصُّفَّة، فأمر الله سبحانه وتعالى بقية المسلمين أن يتركوها لهؤلاء الفقراء المهاجرين الذين طردهم المشركون، والذين ضحوا بديارهم وأموالهم من أجل الحفاظ على دينهم، وآثروا طاعة الله تعالى ونصر نبيه صلى الله عليه وآله وسلم.

﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ ثم أثنى الله سبحانه وتعالى على أهل المدينة لما آووا النبي صلى الله عليه وآله وسلم هو ومن هاجر معه وفتحوا لهم بيوتهم، ولما تحملوا في سبيل إيوائهم وسد فاقتهم المشاق، ولما آثروهم على أنفسهم وأموالهم من دون أن يحملوا في أنفسهم أي ضغينة عليهم أو يظهر عليهم شيء من علامات الكراهية أو التثاقل لهم، وأيضاً لما لم تظهر عليهم أي أمارة من أمارات الحسد عندما آثرهم النبي صلى الله عليه وآله وسلم عليهم بالغنائم التي غنمها من اليهود، ولم يظهر منهم أي اعتراض على النبي صلى الله عليه وآله وسلم، ولما ضحوا بأنفسهم وأموالهم من أجل من هاجر إليهم فكانوا يمسون جائعين ليشبعوا جوعتهم.

﴿وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ۝٩﴾ وكان أهل المدينة أهل كرم وسخاء وإيثار، فأثنى الله سبحانه وتعالى عليهم ومدحهم على ذلك، ومن تحلى بهذه الصفة فهو الذي سوف يظفر بثواب الله تعالى والفوز بالنعيم الدائم.

﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ۝١٠﴾ وأثنى الله سبحانه وتعالى أيضاً على الذين أسلموا متأخرين وكانوا يدعون لمن سبقهم بالإيمان بالمغفرة، وأن يذهب ما في قلوبهم من الغل والحقد عليهم.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١١﴾ لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِنْ قُوتِلُوا لَا يَنْصُرُونَهُمْ وَلَئِنْ نَصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنْصَرُونَ ﴿١٢﴾﴾ يعجب الله سبحانه وتعالىٰ نبيه ﷺ من أمر المنافقين وما كانوا يعملونه مع اليهود من تشجيعهم علىٰ عقائدهم والدفع بهم علىٰ النبي ﷺ، وأن يتمسكوا علىٰ دينهم، وأن لا يتضعضعوا للنبي ﷺ أو يضعفوا أمامه، وكيف كانوا يعدونهم بأنهم سوف ينصرونهم عليه، وسيقفون معهم ضد النبي ﷺ، وأن لا يتفاوضوا مع النبي ﷺ بالموافقة علىٰ الخروج من المدينة، وإن خرجوا ليخرجن معهم، وأن كل ما يمنون به اليهود ويعدونهم به كذب وأماني كاذبة، ولن يفعلوا مع اليهود أي شيء من ذلك الذي يعدونهم به فطبيعتهم الجبن والخوف.

﴿لَأَنْتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِمْ مِنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ ﴿١٣﴾ لَا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرًى مُحَصَّنَةٍ أَوْ مِنْ وَرَاءِ جُدُرٍ﴾ ثم أخبر الله سبحانه وتعالىٰ المسلمين أن طبيعة اليهود الخوف والجبن وأنهم لن يجرؤوا علىٰ مواجهتهم ومقاتلتهم، وأنهم إن قاتلوهم فلن يقاتلوهم إلا من وراء حصونهم.

﴿بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٤﴾﴾ وأما قتالهم فيما بينهم فهم أهل قتال وبأس شديد، وإذا رآهم الرائي حسبهم علىٰ كلمة واحدة والحال أنهم مختلفون فيما بينهم لا يجتمعون علىٰ رأي.

﴿كَمَثَلِ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَرِيبًا ذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٥﴾﴾ ثم أخبر الله تعالىٰ عن هؤلاء اليهود بأن صفتهم في عنادهم وحربهم للنبي ﷺ كصفة قريش، وقد أذاقهم الله وبال تكذيبهم، وسلط عليهم نبيه ﷺ فقتل صناديدهم وكبارهم جميعاً يوم بدر، وسيذوق اليهود وبال أمرهم وعاقبة كفرهم.

﴿كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ۝١٦﴾ مثل المنافقين في تشجيعهم لليهود وتحريضهم على النبي صلى الله عليه وآله وسلم كمثل الشيطان مع ابن آدم عندما ينصب حبائله وشباكه لإغواء الخلق حتى يتمكن منهم، ثم يتركهم يلقون جزاء غيهم وضلالهم، فالمنافقون كذلك تركوا اليهود للنبي صلى الله عليه وآله وسلم من دون أن يحركوا معهم ساكناً أو ينصروهم أو يدفعوا عنهم كما وعدوهم.

﴿فَكَانَ عَاقِبَتَهُمَا أَنَّهُمَا فِي النَّارِ خَالِدَيْنِ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ۝١٧﴾ ثم أخبر الله سبحانه وتعالى أن مصير المنافقين واليهود والشيطان ومن استجاب له واتبعه نار جهنم خالدين فيها.

﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ۝١٨﴾ ثم بعد أن أخبر الله سبحانه وتعالى عن المنافقين بما أخبر- وجه خطابه إلى المؤمنين فأمرهم أن يعملوا لأنفسهم الأعمال الصالحة، ويحرسوها من الوقوع في الزلل، وأن لا يظنوا أنهم في مأمن من عذاب الله تعالى، فليحذروا أن يقعوا في مصائد الشيطان، وليحافظوا على تقوى الله، وأن يحاسبوا أنفسهم ولينظروا ما قد قدموا لآخرتهم من أعمال البر والإحسان، وقد كرر الله سبحانه وتعالى الأمر لهم بتقواه لينبههم ويشدد عليهم في الحرص والمحافظة على تقواه، وأن لا يتساهلوا في شيء من المعاصي مطلقاً أو يقصروا في شيء من الطاعات.

﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ أُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ۝١٩﴾ ونهاهم أن يكونوا كمن سبقهم من أهل الكتاب الذين استرسلوا في أهوائهم وشهواتهم ناسين وغافلين عن طاعة الله تعالى.

ثم أخبر الله تعالى أنه بسبب نسيانهم وغفلتهم أنساهم أنفسهم، وسلبهم ألطافه وتركهم في غيهم وضلالهم دون أن ينبههم أو يذكرهم بألطافه.

﴿لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ۝٢٠﴾ لا يظن المنكرون للبعث والحساب أن الأمر كما يظنون من أنه لا بعث ولا حساب، فلا بد من أن يبعث الله سبحانه وتعالى الناس جميعاً ليثيب المحسنين على إحسانهم، ويعذب الكافرين والمنافقين على إساءتهم.

﴿لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْءَانَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ۝٢١﴾ لكم أيها الناس في هذا القرآن عظة وعبرة بالغة تلين لها القلوب القاسية لو أنكم تدبرتم آياته وتفكرتم فيها، ولو أنزل الله هذا القرآن على جبل لهبط وخشع لعظمة الله، ولتأثر بما نزل عليه من آياته العظيمة على الرغم من قساوته وصلابته، وهذا مثل ضربه الله سبحانه وتعالى ليصور لعباده عظمة القرآن وقوة تأثير آياته ومواعظه.

﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ۝٢٢﴾ ثم يذكرهم الله سبحانه وتعالى بأنه الله المتفرد بصفات العظمة والجلال الذي لا إله في السماوات والأرض إلا هو، الذي لا يغيب عن علمه شيء أو تخفى عليه خافية، والغيب هو ما سيكون من الأمور المستقبلية، وما اختفى وراء الحجب والأستار، وما سلف ومضى في غابر الأزمان. والشهادة: هي المعلومات المدركة بالحواس.

ومن صفاته أيضاً أنه عظيم الرحمة بعباده، والرحمن: الواهب لهم جلائل النعم، والرحيم: الواهب لهم دقائق النعم وخفيها.

﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ﴾ وهو وحده المسيطر على ملك السماوات والأرض. والقدوس: هو المنزه عن الشريك والمثيل الذي لا تحيط به الاوهام أو تتصوره. والسلام: هو السالم من كل نقص ونقيصة.

والمؤمن: قال في تفسير أهل البيت عليهم السلام: إنه المؤمن أولياءه من عذابه وسخطه. والمهيمن: هو المسيطر بسلطانه وعلمه وقدرته. والعزيز: هو الممتنع

الذي لا يستطيع أحد أن يناله أو يلحق به أي سوء أو مضرة أو مكروه، والغالب لكل شيء بقدرته. والجبار: هو الذي قهر خلقه وأجبرهم وفطرهم على ما يريد، والعرب تسمي النخلة الطويلة جبار، وهي: التي بعدت ثمارها فلا يستطيع أحد أن ينالها، وعندي أن التفسير الأول أظهر والله أعلم. والمتكبر: هو الذي كل شيء دونه صغير.

﴿سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ۝٢٣﴾ تعالى الله وتقدس عما ينسبه إليه المشركون من الشركاء وينسبون إليه من الباطل، فهو وحده المتفرد بصفات الإلهية والكمال.

﴿هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾ وهو وحده الذي خلق الخلائق وبرأهم وصورهم فأحسن صورهم، وقد اختص تعالى بالأسماء الحسنى ليس لما يعبد من دون الله تعالى منها شيء، فكلها له، وأسماؤه الحسنى مذكورة في كتابه الكريم، ذكر الله تعالى بعضها في هذه الآيات وسائر أسمائه تعالى منشورة في القرآن الكريم.

﴿يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۝٢٤﴾ فكل ما خلق الله في السماوات والأرض يشهد له بأنه منزه عن صفات خلقه، وكل ما في السماوات والأرض آية ناطقة ودالة على أن مدبرها خالق عظيم قادر حكيم وأنه على كل شيء قدير، متعال عن صفات النقص والعجز التي اتصف بها كل ما في السماوات والأرض دونه، وهو القوي الغالب وأفعاله كلها مبنية على الحكمة والرحمة.

۞۞۞۞۞

سورة الممتحنة



﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُم مِّنَ الْحَقِّ﴾ نزلت هذه السورة والنبي صلى الله عليه وآله وسلم سائر بمن جمع معه من المسلمين لغزو مكة وفتحها، فعندما كان في بعض طريقه قام أحد

جنوده ممن معه وهو حاطب بن أبي بلتعة بكتاب إلى قريش يخبرهم فيه بقدوم محمد لغزوهم ويحذرهم بأنه قد أوشك على الوصول إليهم، وأرسل كتابه هذا مع امرأة دفع لها أجراً على إيصاله، فلفته في غرز رأسها وسارت به، فنزل جبريل على النبي ﷺ يخبره بأمر ذلك الكتاب، ويأمره بالإرسال في طلبها، ودله على مكانها؛ فأرسل النبي ﷺ في أثرها وعندما ظفروا بها فتشوها ولم يجدوا شيئاً، فبعث النبي ﷺ برسل غيرهم وفتشوها كذلك ولم يجدوا شيئاً وعادوا إلى النبي ﷺ خائبين، فأرسل الثالثة أمير المؤمنين ففتشها، وعندما لم يجد معها شيئاً تهددها وشهر سيفه في وجهها وهددها بالقتل إن لم تخرج الكتاب فخافت حينها وأخرجته من بين غرزها؛ فأنزل الله سبحانه وتعالى هذه الآية تنهى المؤمنين عن مناصحة أعدائهم أو إطلاعهم على شيء من أسرارهم وأخبارهم.

﴿يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنْتُمْ﴾ لماذا أيها المؤمنون تناصحون المشركين وتنصرونهم وقد أخرجوكم من مكة وطردوكم مع النبي ﷺ لأجل إيمانكم بالله تعالى ورسوله ﷺ، فإن كنتم خرجتم مع النبي ﷺ تريدون وجه الله سبحانه وتعالى والدار الآخرة فاتركوا موادتهم، واتركوا النصح لهم؛ فالله سبحانه وتعالى مراقب لكم ومطلع على أعمالكم، وعالم بأسراركم وما في ضمائركم، وسيحاسبكم على كل صغيرة وكبيرة.

﴿وَمَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ۝١﴾ فمن ناصحهم أو أفشى إليهم بسر من أسرار المسلمين فقد خرج عن الحق والهدى وقد استحق العذاب الشديد.

﴿إِنْ يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُمْ بِالسُّوءِ وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ۝٢﴾ فاحذروا مناصحتهم وموادتهم فلو أنهم تمكنوا منكم وأحكموا قبضتهم عليكم لما رأيتم منهم إلا كل سوء ومكروه، ولفعلوا

بكم الأفاعيل من دون أن يراعوا فيكم أي عهد أو حرمة، ولا زالوا حريصين على إغوائكم وإضلالكم عن هذا الدين الذي جاءكم به نبيكم ﷺ.

﴿لَنْ تَنْفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ۝٣﴾ اعتذر حاطب عند النبي ﷺ حين كشف الله ستره بأنه ليس من قريش، وأنه ليس إلا دخيلاً بينهم، وقد أراد أن يكون له يد عندهم يحفظ بها أهله الذين هم بين ظهراني المشركين في مكة، فأخبر تعالى أنها لن تنفعهم أرحامهم ولا أولادهم يوم القيامة، وأن الله تعالى سوف يفصل بينهم يوم القيامة، ولن يجمع الله في ذلك اليوم إلا بين أوليائه المؤمنين، ﴿الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ ۝٦٧﴾ [الزخرف].

﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ﴾ وأخبرهم أن لهم أسوة حسنة في إبراهيم عليه السلام فقد جعله الله سبحانه وتعالى قدوة للمسلمين يقتدون به ويهتدون بهديه، وقد تبرأ إلى الله سبحانه وتعالى من قومه وأقاربه حين أصروا على عبادة الأصنام والكفر بالله، ونصب نفسه لعداوتهم وسعى جهده في إبطال دينهم، فاقتدوا به في ذلك واقطعوا أي صلة تربطكم بالمشركين، واتركوا موادتهم ومناصحتهم.

﴿إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ ثم استثنى الله سبحانه وتعالى هذه الخصلة فلا يقتدوا به فيها أو يتأسوا به عندما استغفر لأبيه، وذلك أنه إنما استغفر له عن موعدة وعده إياه فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه.

﴿رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ۝٤﴾ فاسعوا جهدكم أيها المؤمنون في عداوة الكافرين ومقاطعتهم ولا تخافوهم وتوكلوا على الله

واعتمدوا عليه فإنه سيكفيكم شرهم، وينصركم عليهم، وتوجهوا إلى الله وقولوا: ﴿رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴿٤﴾ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَاغْفِرْ لَنَا رَبَّنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٥﴾﴾.

﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَمَنْ يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴿٦﴾﴾ ثم أخبر الله سبحانه وتعالى أنه لن يتأسى بإبراهيم والذين معه إلا من كان صادق الإيمان بالله تعالى وبرسوله ومصدقاً باليوم الآخر، وأما من أعرض وتولى عن ذلك فإن الله سبحانه وتعالى غير محتاج له ولا إلى إيمانه وطاعته، ولن يضر بذلك إلا نفسه.

﴿عَسَى اللَّهُ أَنْ يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُمْ مِنْهُمْ مَوَدَّةً وَاللَّهُ قَدِيرٌ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٧﴾﴾ ثم أخبر الله سبحانه وتعالى نبيه صلى الله عليه وآله وسلم عن أهل مكة الذين هو خارج لغزوهم بأنهم في يوم من الأيام عسى أن يدخلوا في الإسلام، ويصبحوا بعد العداوة إخوانا، وأخبره أنه قادر على أن يظهره عليهم ويمكنه منهم حتى يسلموا مكرهين خوفاً من حر السيوف، وفعلاً كان كما بشر الله تعالى نبيه صلى الله عليه وآله وسلم فقد فتح مكة ودخلها عليهم عنوة، وقهرهم وأذلهم حتى ألجأهم إلى الإسلام مكرهين بعد أن تهددهم إن لم يسلموا بالقتل.

﴿لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾ إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوْهُمْ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٩﴾﴾ ثم أخبر الله سبحانه وتعالى نبيه صلى الله عليه وآله وسلم أنه لا محذور في الإحسان إلى الذين لم يشهروا عليه سيفاً ولم يقاتلوه، وفي صلتهم والبر بهم، وإنما ينهاه عن بر الذين ناصبوا العداء للإسلام وحاربوا النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه وأظهروا العداوة لهم وطردوهم وشردوهم عن أوطانهم كقريش ومن عاونهم.

﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لَا هُنَّ حِلٌّ لَهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ وَءَاتُوهُمْ مَا أَنْفَقُوا﴾ ثم أمر الله سبحانه وتعالى نبيه صلى الله عليه وآله وسلم والمؤمنين أن يمتحنوا إيمان من أقبل إليه من نساء الكفار، وكان النبي صلى الله عليه وآله وسلم قد عقد مع أهل مكة صلحاً وهو المسمى بصلح الحديبية، وكان من بنود الصلح أن من أقبل من أهل مكة إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم مسلماً فإنه لا يقبله ويرده إلى مكة، فنزلت هذه الآية تأمره بأن لا يرد من أقبل إليه من نساء الكفار ولكن بعد أن يختبر إيمانهن؛ وقد شرط الله تعالى على النبي صلى الله عليه وآله وسلم أن يرد إلى أزواجهن إن كن ذوات أزواج ما دفعوا من مهورهن.

﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ إِذَا ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَلَا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ وَاسْأَلُوا مَا أَنْفَقْتُمْ وَلْيَسْأَلُوا مَا أَنْفَقُوا ذَلِكُمْ حُكْمُ اللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾﴾ ومن أراد أن يتزوج منهن فلا جناح عليه فقد انفسخ نكاحهن بإسلامهن. ومعنى ﴿وَلَا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ﴾: فلا يحل لكم نكاحهن.

وإذا هربت امرأة منكم أيها المسلمون إلى الكفار أو العكس فلكل واحد منكم ومنهم أن يسترجع مهر امرأته من الطرف الآخر وهذا هو الحل الوسط بينكم والذي سيكون فيه صلاح شأنكم وحقن دمائكم.

﴿وَإِنْ فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ فَعَاقَبْتُمْ فَآتُوا الَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَاجُهُمْ مِثْلَ مَا أَنْفَقُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾﴾ ثم أخرج الله تعالى هذه الحالة من ذلك الحكم الذي تقدم وهو أنه إذا هربت امرأة منكم أيها المسلمون إلى أهل مكة وفي المقابل هربت امرأة من المشركين إلى المدينة فادفعوا مهر هذه المرأة إذا تزوجها أحد منكم لذلك الذي هربت امرأته إلى مكة بدل أن تدفعوه إلى الكفار.

﴿يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَى أَنْ لَا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَاسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴿١٢﴾﴾ ثم خاطب الله تعالى نبيه ﷺ بأنه إذا أقبلت إليه امرأة تبايعه وتعاهده على الوفاء بهذه الشروط فيجب عليه أن يقبل بيعتهن، وأن يسأل الله سبحانه وتعالى لهن المغفرة فيما سلف ومضى من ذنوبهن.

وقوله ﴿وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ﴾: وذلك أنه كان من ولدت له بنت من المشركين فإنه يدفنها حية.

وقوله ﴿وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ﴾ يعني: لا تنسب ولداً من أولادها إلى رجل ليس أباه في الحقيقة.

﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُوا مِنَ الْآخِرَةِ كَمَا يَئِسَ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ﴿١٣﴾﴾ ثم أكد الله تعالى نهيه للمؤمنين وكرر عليهم النهي عن موالاة الذين استحقوا غضب الله وسخطه المنكرين للآخرة والبعث والحساب، والقوم الذين غضب الله عليهم هم أهل مكة.

❁❁❁❁❁

سورة الصف

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴿١﴾ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴿٢﴾ كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ﴿٣﴾﴾ يستنكر الله سبحانه وتعالى على الذين بايعوا النبي ﷺ على السمع والطاعة وعاهدوه على نصرته في المنشط والمكره، ثم تخاذلوا عن الوفاء بعهدهم وبيعتهم، وأخبرهم أن هذه معصية كبيرة عنده تعالى، وأنه يمقت ذلك أشد المقت، ويغضبه أشد الغضب.

﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُوصٌ﴾ ثم أثنى الله سبحانه وتعالى على الذين أوفوا بما عاهدوا عليه النبي صلى الله عليه وآله وسلم من نصره بأموالهم وأنفسهم، وجاهدوا بين يديه، وثبتوا في مواطن القتال ولم يتزحزحوا ولم يغيروا ولم يبدلوا.

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَاقَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِي وَقَدْ تَعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ ثم يذكر الله سبحانه وتعالى المسلمين بما جرى لموسى عليه السلام من قومه من الأذية، وما لاقاه منهم من التمرد والتكذيب والعصيان مع أنهم كانوا يعلمون أنه رسول إليهم من عند الله تعالى، ولكنهم عندما زاغوا وخرجوا عن طريق الحق والهدى خذلهم الله سبحانه وتعالى وأعمى قلوبهم، وسلبهم ألطافه وعنايته وتركهم في ضلالهم يتخبطون، أراد الله سبحانه وتعالى بذلك أن يعتبر المسلمون فيحذروا أن يقعوا في مثل ما وقع فيه قوم موسى عليه السلام.

﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَابَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ ثم ذكر الله تعالى ما قاله نبيه عيسى بن مريم عليه وعلى أمه السلام لبني إسرائيل حيث قال لهم: إنه رسول من عند الله إليهم برسالة مصدقة للتوراة، ومؤيدة لها، وإنه مبشر لهم برسول يرسله الله تعالى إليهم وإلى غيرهم يأتي بعده، اسمه أحمد، فلما بعث الله أحمد صلوات الله عليه وآله كفروا به وقالوا إنه ساحر، وما جاء به من عند الله سحر، وقد أراد الله تعالى من المسلمين أن يعتبروا فلا يفعلوا مثل ما فعله بنو إسرائيل من الكفر والتمرد.

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَى إِلَى الْإِسْلَامِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ لا أحد أظلم ممن نسب إلى الله سبحانه وتعالى من القول ما لم يقل، وذلك أن المشركين كانوا يقولون: إن الله تعالى هو الذي

يأمرهم بالشرك وعبادة الأصنام والاستقسام بالأزلام، وأنه الذي أمرهم بدين الجاهلية وكان النبي ﷺ يدعوهم إلى الله تعالى وإلى الحق والهدى، فكانوا يتهمونه بالكذب والزور والبهتان، ويرمونه بالسحر والجنون؛ فأخبر الله سبحانه وتعالى أن هؤلاء قد بلغوا النهاية في الظلم والفساد، وأنهم قد استحقوا أشد العذاب.

﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ﴾ ثم أخبر الله تعالى عن سبب استحقاقهم أشد العذاب، وذلك أنهم يسعون جهدهم للقضاء على دين الإسلام وإنهاء دعوة النبي ﷺ.

﴿وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ۝٨﴾ ولكن الله تعالى لن يمكنهم، وسيرد كيدهم في نحورهم، وسيظهر دينه على رغم أنوفهم.

﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ۝٩﴾ أرسل الله تعالى محمداً ﷺ بالهدى ودين الحق، وأراد أن يظهر دينه على جميع الأديان، وأن يكون دين الإسلام هو السائد على كل الأديان ولو كره المشركون، فإرادة الله فوق إرادتهم، وقوته فوق قوتهم.

﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ۝١٠ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ۝١١﴾ ثم خاطب الله سبحانه وتعالى المؤمنين مرشداً لهم إلى الطريق التي ستنقذهم من عذاب جهنم وهي أن يخلصوا إيمانهم بالله تعالى، ويصدقوا بنبيهم وبما جاءهم به من الدين والهدى، وأن يبذلوا أموالهم وأنفسهم ويهبوها في سبيل الله تعالى ونصر دينه، فهذه هي التجارة التي ستنجيهم من عذاب الله تعالى (الإيمان بالله ورسوله والجهاد في سبيله).

﴿يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ۝١٢ وَأُخْرَى تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ﴾ وسيجازيكم على ذلك الجزاء الأوفى: سيغفر لكم جميع

ذنوبكم، وسيدخلكم في رحمته ورضوانه، وستفوزون بجنته ونعيمه الأبدي، وأخبرهم أنه لا يزال هناك ثواب آخر ينتظرهم في الدنيا غير ذلك الثواب، وهو أنه سينصرهم على عدوهم، وسيفتح لهم البلدان، وسيظفرون بالغنائم الكثيرة والأموال الطائلة، وسيبدلهم غنى يغنيهم بعد فقرهم وفاقتهم.

﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ۝١٣ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا أَنْصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنْصَارِى إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ فَآمَنَتْ طَايِفَةٌ مِنْ بَنِى إِسْرَايِيلَ وَكَفَرَتْ طَايِفَةٌ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا عَلَى عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ۝١٤﴾ ثم حث الله سبحانه وتعالى عباده المؤمنين على المبادرة والجد في نصر دينه، وأن يبذلوا كل غال في سبيل ذلك، وأن يكونوا كأولئك الذين باعوا أنفسهم لعيسى عليه السلام وعاهدوه على نصره وعلى السمع والطاعة له، فنصرهم الله تعالى عندما علم صدق نيتهم، وأيدهم على من كفر من اليهود ونصرهم عليهم.

۞۞۞۞۞

سورة الجمعة

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِى السَّمَوَاتِ وَمَا فِى الْأَرْضِ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ۝١﴾ كل ما في السماوات والأرض دائم التسبيح والتنزيه والتقديس لله تعالى؛ لكونه المالك لكل ما في الكون، والمتصرف فيه كيفما شاء، والدال بآثار رحمته ودلائل قدرته على قدسيته وتعاليه عن الشرك والشبيه.

﴿هُوَ الَّذِى بَعَثَ فِى الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ ءَايَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِى ضَلَالٍ مُبِينٍ۝٢﴾ ثم يذكر الله سبحانه وتعالى قريشاً ومن حولهم من العرب بأنه أنعم عليهم بأن أرسل إليهم رسولاً من أنفسهم يتلوا عليهم آيات قدرته وعظمته ورحمته، لينتزعهم ويرفعهم من بين أدناس الشرك وأقذار الجاهلية، ويطهرهم ويشرفهم بتعاليم الإسلام وآدابه وشرائعه.

﴿وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ۝٣﴾ وهو رسول أيضاً إلى قوم آخرين ستأتي بهم القرون.

﴿ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ۝٤﴾ وأخبرهم أن هذا فضل كبير تفضل به عليهم واختصهم به من بين سائر الناس، وفي هذا رد على اليهود والنصارى عندما اعترضوا على الله سبحانه وتعالى عندما حول النبوة عنهم واختار نبياً من العرب، وأخبرهم أن الملك ملكه، وله أن يختار لنبوته من أراد، ويتصرف في ملكه كيفما شاء، وليس لهم أن يعترضوا على الله تعالى.

﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا﴾ ثم أخبر الله تعالى نبيه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ عن صفة اليهود وحالهم عندما حملهم التوراة وجعلهم أهلاً لحملها وتبليغها، ثم تركوها ولم يحملوها كما ينبغي وكما يجب عليهم من العمل فقال: إن صفتهم كصفة الحمار الذي يحمل الكتب على ظهره، ويثقله حملها من دون أن يستفيد منها شيئاً.

﴿بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ۝٥﴾ بئست الصفة التي اتصف بها اليهود عندما شبههم الله تعالى بالحمار في حمل كتب العلم.

﴿قُلْ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِنْ زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ۝٦ وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ۝٧﴾ يقول اليهود: إنهم شعب الله المختار، وصفوة الله في الأرض، والجنة لهم وحدهم، وهم أهل العلم والحكمة، وقد اختصهم الله تعالى بالنبوة وجعلها فيهم وحدهم، ولا يصح أن يحولها الله تعالى عنهم، فليس للعرب فيها أي نصيب، ولا حظ لهم في شيء من رحمة الله تعالى أو فضله؛ فأمر الله سبحانه وتعالى نبيه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ أن يقول لهم: إن كنتم صادقين فتمنوا الموت، ولكنهم لن يتمنونه أبداً؛ لأنهم يعلمون أن محمداً نبي صادق، ويعلمون أنهم

عاصون لله تعالى متمردون عليه وعلى نبيه ﷺ، وأنهم إن تمنوا الموت ماتوا، وهذا ما يهربون منه ولا يريدونه؛ لعلمهم بما يقدمون عليه من العذاب والنار وسخط الملك الجبار.

﴿قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ۝٨﴾ قل لهم يا محمد: إن الموت الذي يفرون منه لا بد أن يلاقيهم، ولا بد أن يبعثهم الله سبحانه وتعالى بعد موتهم، ثم يحاسبهم ويجازيهم على كفرهم وتكذيبهم وتمردهم.

﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ۝٩﴾ ثم رجع الله سبحانه وتعالى إلى خطاب المؤمنين يحثهم على الجد والاجتهاد في أداء ما افترض عليهم، وعلى سرعة المبادرة والإجابة لنداء الله تعالى لهم يوم الجمعة؛ وقد كانوا متهاونين ومقصرين في أداء الجمعات؛ لانشغالهم وحرصهم الشديد على الدنيا وعلى السعي وراءها، وانهماكهم في أعمال التجارة والبيع والشراء، وأخبرهم أن ثواب سعيهم في أداء الجمعة خير لهم من الأرباح الدنيوية التي تشغلهم عن المبادرة إلى حضور الجمعة.

﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ﴾ ولن يضركم حضور الصلاة، ولا ينقص من أرزاقكم، فإذا قضيتم الصلاة فعودوا إلى تجارتكم وبيعكم وشرائكم؛ ولا ينبغي ولا يليق بكم أيها المؤمنون أن تتركوا نبيكم ﷺ، وتعرضوا عن ندائه لكم.

﴿وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ۝١٠﴾ وينبغي أن يكون ذكر الله دائماً على قلوبكم، وأن يكون ذكره شغلكم الشاغل، وأن تؤثروا طاعة الله تعالى على دنياكم، وأن لا تكونوا من الغافلين عن ذكر الله تعالى، فاذكروا الله كثيراً لتفوزوا برضوان الله وثوابه.

﴿وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انْفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا قُلْ مَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ مِنَ اللَّهْوِ وَمِنَ التِّجَارَةِ وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ۝١١﴾ ثم ذمهم الله تعالى مرة أخرى بأنهم إذا حضروا الصلاة مع النبي ﷺ ثم سمعوا خلالها بوصول قافلة تجارة إلى السوق أو سمعوا أصوات الطبول خرجوا من صلاتهم غير مبالين بتركهم لنبيهم ﷺ وحده في الصلاة أو في الخطبة.

والسبب في نزول هذه الآية أن النبي ﷺ كان يخطب في إحدى الجمع فوصلت قافلة تجارية فانفض إليها العدد الكثير من المسلمين، ولم يبق معه كما قيل إلا أربعون رجلاً من بين ذلك العدد الكبير من المسلمين فذمهم الله سبحانه وتعالى على ذلك وأمر نبيه ﷺ أن يخبرهم بأن ما عند الله تعالى من ثواب سماعهم للخطبة وصلاتهم خير لهم من السعي وراء اللهو واللعب والتجارة، وأن الرزق بيد الله تعالى لا ينقصه أداء فرائضه أو شيء من طاعاته، بل إن الطاعة من أكبر أسباب الرزق. وقوله ﴿اللَّهْوِ﴾: هو ما كان المسلمون يجتمعون حوله من الغناء، وضرب الطبول غافلين عن الصلاة، وعن ذكر الله تعالى.

۞۞۞۞۞

سورة المنافقون

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ۝١﴾ يطلع الله سبحانه وتعالى نبيه ﷺ على كذب المنافقين ومراوغتهم، وكيف يشهدون في وجهه بالنبوة، وقلوبهم كافرة بنبوته ﷺ.

﴿اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً﴾ وكيف يقسمون له بالأيمان المغلظة والفاجرة ليعتذروا بها عند النبي ﷺ، مما اتهموا به من الكفر، وليتحصنوا بها من سيوف المسلمين، غير مبالين بكذبهم على الله تعالى وعلى رسوله.

﴿فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ يخذلون الناس عن الدين وعن نصرة النبي ﷺ، ويرجفون بين صفوف المسلمين، ويبثون الرعب والفزع بينهم بما يهولون عليهم به من الأخبار الكاذبة.

﴿إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ۝٢﴾ بلغوا الغاية في الفساد وفي مساوئ الأعمال.

﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ۝٣﴾ ساءت أعمال المنافقين بسبب أنهم آمنوا ودخلوا في الإسلام ثم إنهم بعد ذلك تشككوا وكفروا بالنبي ﷺ وبدينه وبما جاء به من رسالة ربه تعالى فقسيت قلوبهم وعميت بصائرهم.

﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُسَنَّدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ ۝٤﴾ ثم وصف الله سبحانه وتعالى لنبيه ﷺ هؤلاء المنافقين بأن عليهم هيئة حسنة ومظهراً جميلاً يعجب من رآهم، ويعجبه كلامهم وحديثهم ومنطقهم الحسن والفصيح، يكادون يأخذون اللب بفصاحتهم وحسن كلامهم.

وإذا قرأ عليهم النبي ﷺ القرآن فلا يعون منه شيئاً ولا يفقهونه، ولا ينفذ إلى قلوبهم شيء مما يسمعونه من القرآن الذي يتلى عليهم، ومن صفتهم أنهم كانوا إذا سمعوا داعي النبي ﷺ للجهاد فإنه يصيبهم الخوف الشديد وتأخذهم القشعريرة ظناً منهم أن النبي ﷺ يقصدهم، ويؤلب الناس عليهم وعلى جهادهم، ويخافون أن يكون أمرهم قد افتضح عند النبي ﷺ.

ثم أخبر الله سبحانه وتعالى نبيه ﷺ بأنهم هم العدو الحقيقي للإسلام والمسلمين، وأنهم الأشد خطراً على الإسلام وأهله، من المشركين ومن اليهود.

ومعنى ﴿قَاتَلَهُمُ اللَّهُ﴾: لعنهم الله، و﴿أَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾: كيف يصرفون عن الحق والهدى بعد أن عرفوه؟ وكيف يختارون طريق الغي والضلال ويتركون طريق الحق والهدى؟

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ۝٥﴾ وإذا دعاهم أحد إلى النبي ﷺ أو نصحهم للذهاب إليه لالتماس الدعاء بالمغفرة والرحمة من عنده فإنهم يعرضون عنه، ويأبون الذهاب إليه، ظاهرة عليهم أمارات الكفر والتعالي والتعاظم الذي يملأ قلوبهم.

﴿سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ۝٦﴾ ثم أخبر الله سبحانه وتعالى نبيه ﷺ بأنه قد أوجب عليهم عذابه وسخطه، وسلبهم توفيقه وتنويره، ولم يبق إلى هدايتهم سبيل، وقد حرموا من مغفرة الله لفسوقهم عن أمره وخروجهم من ولايته.

فلا تستغفر لهم يا محمد فسواء استغفرت لهم أم لم تستغفر لهم لن يغفر الله لهم.

﴿هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنْفِقُوا عَلَى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنْفَضُّوا وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ۝٧﴾ عندما آوى أهل المدينة النبي ﷺ وأصحابه، وفتحوا لهم مساكنهم، وأطعموهم وكسوهم كان المنافقون ينهونهم عن ذلك، ينهونهم أن ينفقوا عليهم أي نفقة أو يؤثروهم بشيء حتى لا يرغبوهم في البقاء حول النبي ﷺ؛ ظناً منهم أنهم إن تركوهم من النفقة والإيواء فسيتفرقون عن النبي ﷺ ويضمحل أمره، فأجاب الله تعالى عليهم بأن خزائن السماوات والأرض بيده، وأنهم لن يستطيعوا أن يمنعوا عنهم شيئاً قد كتبه الله تعالى لهم سواء من الأنصار أو من غيرهم، وأنهم مهما حاولوا في منعهم وقطع أرزاقهم فلن يستطيعوا ذلك أبداً.

﴿يَقُولُونَ لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ۝٨﴾ حصل أن اعتدى في بعض الغزوات أحد عبيد المهاجرين على عبد لرجل من أهل المدينة، فأخذت المنافقين الحمية الشديدة وأخذتهم الأنفة واستنكروا كيف أنهم يؤوون المهاجرين ثم في الأخير يريدون أن يسيطروا عليهم ويتحكموا فيهم ويذلوهم،

فتوعدوهم بأنهم سوف يخرجونهم من بلادهم أذلاء، وأن العزة والشرف لهم لكونهم أهل البلاد والمهاجرون ليسوا إلا دخلاء بينهم؛ فأجاب الله سبحانه وتعالىٰ عليهم بأن العزة كل العزة لله تعالىٰ ولرسوله ولأوليائه المؤمنين، لا نصيب لأحد غيرهم في شيء منها.

﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ۝٩﴾ ينادي الله سبحانه وتعالىٰ عباده المؤمنين ويحثهم علىٰ سرعة المبادرة إلىٰ طاعته وطاعة رسوله، وأن لا يشتغلوا بشيء سواها من أمور الدنيا؛ وأخبرهم أن من شغله عن طاعة الله تعالىٰ ورسوله شواغل من أمور الدنيا حتىٰ ضيع فرائض الله تعالىٰ وما أوجب عليه فقد خسر الدنيا والآخرة.

﴿وَأَنْفِقُوا مِنْ مَا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ۝١٠﴾ وأمرهم أن يخرجوا ما افترض الله سبحانه وتعالىٰ عليهم في أموالهم من الصدقات، وأن يعطوها النبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ ليستعين بها علىٰ الجهاد والدفاع عن الإسلام وعن المسلمين، وأن يستغلوا الفرصة في ذلك حتىٰ لا يندموا حين لا ينفعهم الندم.

﴿وَلَنْ يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ۝١١﴾ وأن لا يتساهلوا في الإنفاق ولا يؤخروا الإخراج لما أوجب الله سبحانه وتعالىٰ عليهم، وأن يسارعوا ما داموا في الفسحة والمهلة.



سورة التغابن

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ①﴾ ومعنى تسبيح ما في السماوات وما في الأرض هو تنزيهها وتقديسها وشهادتها بإلهية إله واحد، خلقها ودبرها وأحكم صنعها، لا ثاني معه ولا شريك ولا مثيل أو مكافئ في الربوبية والقدرة والعظمة، وأنه المالك والمسيطر على كل ما في السماوات والأرض، وأنه وحده الذي يستحق الحمد على ما أولى من النعم.

﴿هُوَ الَّذِى خَلَقَكُمْ﴾ ثم يذكر الله سبحانه وتعالى المشركين وغيرهم بأنه الذي خلقهم وأوجدهم، فما بالهم يتوجهون إلى عبادة الأصنام من دونه؟ وما هو الذي دعاهم إلى عبادتها وهم يعلمون أنها لا تستطيع أن تخلق شيئاً أو تنزل لهم رزقاً؟

﴿فَمِنْكُمْ كَافِرٌ وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ②﴾ ثم أخبرهم الله تعالى أنه بعد أن خلقهم انقسموا قسمين بمحض إرادتهم واختيارهم: فمنهم من اختار طريق الضلال والكفر، ومنهم من اختار طريق الحق والهدى؛ وسيجازي كل فريق منهم على ما عمل، فهو مطلع على جميع أعمال عباده خفيها وظاهرها.

﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ﴾ ثم أخبرهم أنه لم يخلق لهم السماوات والأرض إلا لغرض عظيم وحكمة بالغة وهو ما يترتب على خلقهما من البعث بعد الموت للحياة الآخرة الأبدية والحساب والجزاء، وهذا معنى قوله: ﴿بِالْحَقِّ﴾، لا كما يزعم المنكرون للبعث من أن الموت نهاية حياة الإنسان، ولا بعث بعد ذلك ولا حساب ولا جزاء، ولو كان الأمر كذلك لكان خلق السماوات والأرض باطلاً.

﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾ وهو الذي خلقكم أيها الناس وأكرمكم بأن أحسن صوركم وميزكم عن بقية مخلوقاته بجمال الخلقة وحسن الطلعة، نعمة منه عليكم وفضلاً خصكم به.

﴿وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴿٣﴾﴾ ومصيركم سيكون إليه يوم القيامة للحساب والجزاء، فاحذروا الله سبحانه وتعالى، وأدوا حق شكره، ولا تكفروا نعمه عليكم.

﴿يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴿٤﴾﴾ فلا تخفى عليه خافية لا في السماء ولا في الأرض، وعالم بضمائركم وأسراركم، فاحذروا أن تقعوا فيما يغضبه ويوجب سخطه، وسيجازيكم على كل صغير وكبير وعلى ما أخفيتم وما أعلنتم.

﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ فَذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴿٥﴾﴾ يخاطب الله سبحانه وتعالى المشركين من أهل مكة الذين تمردوا على النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ وأعرضوا عنه وكذبوا به وبما جاء به بعد أن عرفوا صدقه وتحققوا أنه رسول من عند الله تعالى أرسله إليهم بالحق والهدى، واستنكر عليهم عدم اتباعه على الرغم من كل ذلك، ومن معرفتهم بما جرى على الذين من قبلهم ممن كذبوا وتمردوا على أنبيائهم، وكيف عذبهم الله سبحانه وتعالى جزاءً على كفرهم وتكذيبهم وتمردهم، وقد بلغهم الله سبحانه وتعالى وقص عليهم أخبارهم ليعتبروا بهم فلا يقعوا فيما وقع فيه أولئك القوم، وعليهم أن يتداركوا أنفسهم قبل أن ينزل بهم العذاب الذي سيستأصلهم كما استأصل الذين من قبلهم فضلاً عما ينتظرهم من العذاب الأليم في نار جهنم.

﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالُوا أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا فَكَفَرُوا وَتَوَلَّوْا وَاسْتَغْنَى اللَّهُ وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴿٦﴾﴾ ثم ذكر الله سبحانه وتعالى لهم السبب في إنزال عذابه بتلك الأمم، وذلك أنه كانت تأتيهم رسل الله تعالى بالآيات والحجج الواضحة والمعجزات الدالة على صدقهم فيعرضون عنهم أشد الأعراض،

ويستكبرون عن اتباعهم بعد أن عرفوا صدقهم، ويستنكرون على الله سبحانه وتعالى ويتعجبون كيف يصح أن يبعث إليهم رسولاً من البشر، ويكفرون بهم ويتولون عن اتباعهم، ثم أخبرهم الله سبحانه وتعالى أنه غني عنهم غير محتاج إلى شيء من طاعتهم، وأنهم لن يضروا بتكذيبهم ذلك إلا أنفسهم.

﴿زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٧﴾﴾ كان أهل مكة ينكرون على النبي ﷺ حين أنذرهم عذاب الله يوم البعث والحساب وكذبوه وكذبوا بالبعث والحساب، فأمره الله سبحانه وتعالى أن يقسم لهم أنه لا بد أن يبعثهم الله سبحانه وتعالى للحساب والجزاء على جميع أعمالهم التي عملوها من الكفر والتكذيب والاستهزاء بالله تعالى وبرسوله، وأن أمر بعثهم ليس بالأمر المستحيل كما يزعمون لأن من قدر على خلقهم وإيجادهم من العدم قادر على إعادة خلقهم مرة أخرى، بل إن ذلك أيسر في الظاهر وأهون، وأن الله سبحانه وتعالى لا بد أن يحاسبهم ويجازيهم على جميع أعمالهم صغيرها وكبيرها لا يضيع عنده مثقال ذرة من أعمالهم.

﴿فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِي أَنْزَلْنَا وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٨﴾﴾ آمنوا أيها المشركون بالله ورسوله وبالقرآن الذي أنزله الله إليكم لتسلموا من عذاب الله تعالى، فقد أحصى الله تعالى أعمالكم وعلم أسراركم وسيجازيكم عليها، ولا محيص لكم من عذاب الله إلا إذا آمنتم بالله ورسوله ﷺ وبالقرآن الذي أنزله إليكم.

﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ذَلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾ سيبعثكم الله أيها المشركون في ذلك اليوم الذي سيجمع فيه الخلائق من الأولين والآخرين، والذي سيحصل فيه الغبن الحقيقي للذين خسروا أنفسهم بما جنوا عليها في الدنيا من ارتكاب المعاصي والسيئات.

وأما من كان من أهل الإيمان بالله سبحانه وتعالى ومن أهل الأعمال الصالحة في الدنيا فإن الله تعالى سيريه صحيفته يوم القيامة بيضاء ناصعة من الذنوب والمعاصي التي قد كفرها سبحانه وتعالى عنهم بسبب إيمانهم، ثم يدخلهم الله تعالى الجنة مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً.

﴿ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ۝٩﴾ ثم أخبر الله سبحانه وتعالى أن ذلك هو الفوز العظيم الذين ينبغي للإنسان أن يسعى إليه ويطلبه.

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا وَبِئْسَ الْمَصِيرُ۝١٠﴾ وأما الذين كفروا وكذبوا بالله تعالى ولقائه فسيريهم الله سبحانه وتعالى صحائف أعمالهم مليئة بالمعاصي والسيئات التي عملوها في الدنيا قد أحصاها عليهم جميعاً صغيرها وكبيرها لا يفوت منها مثقال ذرة أعمالهم، وقد أعد الله سبحانه وتعالى لهم نار جهنم، وجعلها دارهم ومسكنهم، خالدين فيها وبئس المصير.

﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ ثم أخبر الله سبحانه وتعالى أنه ما من مصيبة تصيب الإنسان في نفسه أو في أهله أو في ماله إلا بإذن الله تعالى، وهو الذي قضاها وقدرها، وقد يكون بعض ما يصيبه بسبب اقتراف معصية أو نحو ذلك فهو من الله سبحانه وتعالى أيضاً عقوبة وجزاء على معصيته.

﴿وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ۝١١﴾ ومن يؤمن بالله سبحانه وتعالى ويعمل الأعمال الصالحة فإن الله تعالى يمده بعونه ويزيده من أنواره وهدايته ويغمره بألطافه، ويبصره سبل الهداية والتوفيق.

﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ۝١٢﴾ ثم حث الله سبحانه وتعالى على طاعته وطاعة رسوله، وأخبرهم أن من تولى عن طاعة الله تعالى ورسوله فإن الله سبحانه وتعالى سيحاسبه وسيجازيه على ذلك، فقد أرسل إليهم رسله ليرشدوهم ويبصروهم طرق نجاتهم وهدايتهم، وليبلغوهم شرائع ربهم، وليعذروا إليهم وينذروهم، ثم وكلهم إلى اختيارهم ومشيئتهم ليختاروا أي الطريقين أرادوا.

﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴿١٣﴾﴾ وأخبرهم أنه لا إله في هذا الكون إلا الله الواحد الأحد الذي ينبغي أن يتوكل عليه المؤمنون ويسندوا إليه ظهورهم، ولا يعتمدوا على أحد سواه، وذلك أن المؤمنين في أول الإسلام كانوا في ضعف وقلة، والمشركون محيطون بهم من كل جانب، وقد اضطهدوهم واستذلوهم وامتلأت قلوبهم منهم رعباً وخوفاً مترقبين شرهم؛ فأمرهم الله سبحانه وتعالى أن يتوكلوا عليه، ويسندوا ظهورهم إليه وهو سيكفيهم شرهم وأذاهم.

﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ وَإِنْ تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴿١٤﴾﴾ في أول الإسلام كان الرجل يسلم، وأولاده وزوجته على الكفر، فكان يلقى منهم كثرة التوبيخ والاستنكار، ويكثرون عليه من الإلحاح على ترك الإسلام والعودة إليهم، ويكثرون من التودد إليه بشتى الوسائل رجاء أن يردوه إليهم؛ فأمرهم الله تعالى بالحذر منهم، ونهاهم أن يستمعوا إليهم؛ لأنهم من أهل العداوة لله تعالى ولرسوله، وقد صاروا له أعداءً ما داموا يريدون أن يفتنوه عن دينه، وأرشدهم تعالى أن لا يؤاخذوهم على ما يصدر منهم من الأذى والمضايقات، وأن يغفروا لهم ذلك فإن ذلك من أسباب مغفرة الله ورحمته.

﴿إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴿١٥﴾﴾ ثم أخبرهم الله سبحانه وتعالى أنه ما رزقهم وأعطاهم الأموال والأولاد إلا فتنة واختباراً، هل سيحسنون تربية أولادهم؟ وهل سيضعون أموالهم في مواضعها التي أمرهم الله تعالى؟ أم سيكونون سبباً في ضياعهم وافتتانهم عن دينهم، وليعلموا أنهم إن أنفقوا أموالهم ووضعوها في مواضعها فإن الله تعالى سيعوضهم في الدنيا خيراً منها فضلاً عما يدخر لهم من الثواب العظيم في الآخرة.

﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ ثم أمرهم الله تعالى أن يجهدوا جهدهم، ويعملوا ما في وسعهم في تقوى الله تعالى والحرص على طاعته، فهذا هو الذي أمرهم به

وكلفهم به، فلم يكلف أحداً إلا على قدر طاقته واستطاعته، ولكن ليبالغ المرء في طاعة ربه، وليجهد جهده في كسب رضاه.

﴿وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا﴾ وليتحروا في السؤال عن مراشد دينهم فما عصي الله تعالى بأعظم من الجهل، وليمتثلوا ما أمرهم ربهم، ولا يقصروا في شيء من طاعته.

﴿وَأَنْفِقُوا خَيْرًا لِأَنْفُسِكُمْ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ۝١٦﴾ ولينفقوا من أموالهم في سبيل نصر دينهم والدفاع عنه، ولم يرد بذلك إلا ما يجب عليهم من الزكاة في أموالهم، ثم أثنى الله تعالى على المنفقين عندما لم يبخلوا بإخراج ما يجب عليهم، وتغلبوا على غريزة البخل، ووصفهم بأنهم من أهل الفلاح والفوز بنعيمه ورضوانه.

﴿إِنْ تُقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ۝١٧﴾ والقرض هو: ما يخرجه العبد من ماله يريد به وجه الله تعالى والدار الآخرة لا يشوبه شيء من مصالح الدنيا، فإن الله سبحانه وتعالى سيقضيه أضعافاً مضاعفة، وسيثيبه عليه الثواب العظيم، ويجعل الحسنة بعشر أمثالها ثم يضاعف ذلك إلى سبعمائة ضعف، وزيادة على ذلك ما سيكفره عنه من الذنوب والسيئات.

وإذا كان المعطي والمكافئ هو الله سبحانه وتعالى فكيف سيكون عطاؤه؟

ثم وصف نفسه بأنه شكور وأن عادته وسنته قد جرت على أن يشكر سعي من أطاعه بمضاعفته الأضعاف المضاعفة، والحليم فلا يعجل بعقوبة من عصاه بل يتأنى بهم ويمهلهم فعسى أن يندموا ويرجعوا إلى هداهم وصوابهم.

﴿عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ۝١٨﴾ ومن صفاته العليا أيضاً أنه وحده المختص بعلم ما خفي ودق وغاب، وما سيكون وسيحدث في الزمان المستقبل، وما كان في الزمان الماضي. والشهادة: هو ما كان في الوقت الحاضر.

وهو الغالب بعزته والقاهر بقدرته، والذي أفعاله أفعال رحمة ومصلحة، لا يظلم مثقال ذرة وإن تك حسنة يضاعفها، ويؤت من لدنه أجراً عظيماً.

سورة الطلاق

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ﴾ أمر الله سبحانه وتعالىٰ نبيه ﷺ وتلحقه بقية أمته بالتبع في مثل هذه الخطابات، وقد خص الله تعالىٰ خطابه بالنبي ﷺ تشريفاً له لكونه كبير الأمة وقائدها؛ فإذا أراد أحدكم أن يطلق امرأته فليطلقها مستقبلة لعدتها، وذلك في طهر لم يطأها فيه، ثم تعتد بعده بثلاث حيض؛ لأنه إذا طلقها وهي في حيضها فسيتسبب ذلك في تطويل عدتها بأن تحتاج إلىٰ ثلاث حيض بعد هذه الحيضة التي وقع فيها الطلاق فتطول عدتها، فمن خالف تعليم الله وطلق زوجته وهي حائض فإنه يقع طلاقه، ويأثم لمخالفته لأمر الله تعالىٰ.

والمراد بقوله: ﴿وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ﴾: احسبوا لها ثلاث حيض تعتد بها.

﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ﴾ ولا تخالفوا تعاليمه في الطلاق، ولا تقعوا في بدعي الطلاق وهو أن يطلقها في طهر قد جامعها فيه، أو يطلقها وهي حائض، أو يطلقها أكثر من واحدة.

﴿لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّا أَنْ يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ﴾ وإذا طلقتموهن فلا تخرجوهن من بيوتهن، وأنفقوا عليهن حتىٰ تنتهي عدتهن، وهن فلا يخرجن من بيوتهن حتىٰ تنتهي عدتهن إلا إذا كانت تؤذي أهل زوجها أو ترميهم بالكلام الفاحش والبذيء فإنها تخرج في هذه الحالة من بيت زوجها.

﴿وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ﴾ فهذه حدود الله سبحانه وتعالىٰ وتعاليمه فالتزموا بها ولا تتجاوزوها، ومن خرج عن هذه الحدود وتعداها فقد ارتكب معصية الله تعالىٰ واستوجب سخطه.

﴿لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا①﴾ فالتزموا بهذه الحدود من السكنىٰ والنفقة والتربص هذه المدة لعل الله تعالىٰ أن يحدث في هذه المدة ما

يوجب المودة ويرد المحبة والألفة فيتصالحا ويتراجعا.

﴿فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ﴾ فإذا أوشكت عدة المطلقة على الانقضاء فإن كان للزوج رغبة في مراجعتها وظن حسن العشرة معها والقيام بحقوقها الزوجية فليراجعها وإلا فليتركها وليفارقها من دون أي إضرار بها كأن يتركها إلى أن توشك عدتها على الانتهاء، ثم يراجعها لأجل أن يطول عليها، فهذا لا ينبغي ولا يجوز.

﴿وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِنْكُمْ وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ﴾ أشهدوا عدلين على الطلاق وعلى المراجعة، والإشهاد واجب إذا خيف التناكر.

﴿ذَلِكُمْ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ لن يمتثل لأوامره تعالى وتعاليمه إلا من كان يؤمن بالله تعالى، ويصدق باليوم الآخر.

﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ۝٢ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا ۝٣﴾ ومن اتقى الله سبحانه وتعالى وامتثل أوامره فإنه تعالى سيجعل له مخرجاً من كل ضيق وشدة في الدنيا، ومن الوقوع في المصائب والفتن، ويسهل أرزاقه، ويكفيه ما أهمه من أمور دنياه من حيث لا يدري ولا يحتسب، وسيصلح له جميع أموره، ومن اعتمد على الله سبحانه وتعالى ووكل جميع أموره إليه فإن الله تعالى حسيبه وكافيه، وهذا وعد من الله سبحانه وتعالى، وإذا وعد الله تعالى بوعد فلا بد أن ينفذ وعده، غير أن حكمته تعالى اقتضت أن يجعل لمواعيده مواقيت محددة على حسب الحاجة والمصلحة.

﴿وَاللَّائِي يَئِسْنَ مِنَ الْمَحِيضِ مِنْ نِسَائِكُمْ إِنِ ارْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ وَاللَّائِي لَمْ يَحِضْنَ﴾ ثم ذكر الله سبحانه وتعالى لعباده عدة المرأة التي قد بلغت سن اليأس وأمنت عود الحيض عليها، وعدة التي لم يأتها الحيض بعدُ كالصغيرة، فعدة هاتين الصغيرة والآيسة ثلاثة أشهر.

﴿وَأُولَاتُ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ وتعتد المطلقة الحامل بوضع حملها، فمتى ما وضعت حملها فقد انقضت عدتها ولو كان انقضاؤه بعد طلاقها بساعة.

﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا﴿٤﴾﴾ ومن يحافظ على تقوى الله تعالى ويقف عند حدوده ويمتثل ما أمره- فإنه سيسر له جميع أمور دينه ودنياه.

﴿ذَلِكَ أَمْرُ اللَّهِ أَنْزَلَهُ إِلَيْكُمْ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْرًا﴿٥﴾﴾ ثم أخبر الله سبحانه وتعالى عباده بأن هذه تعاليمه وشرائعه التي يجب العمل بها والالتزام بها، ومن التزم بها فإنه سيكفر عنه سيئاته وسيجزل له الثواب ويضاعف له الأجر.

﴿أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنْتُمْ مِنْ وُجْدِكُمْ﴾ أراد الله سبحانه وتعالى بهن الزوجات والمطلقات اللاتي في العدة فيجب لهن على الأزواج السكنى والنفقة على حسب ظروف الزوج في اليسر والعسر.

﴿وَلَا تُضَارُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا عَلَيْهِنَّ﴾ ونهاهم أن يلحقوا بهن أي ضرر أو أذى يتسبب في خروجهن من سكناهن.

﴿وَإِنْ كُنَّ أُولَاتِ حَمْلٍ فَأَنْفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّى يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ وإن كانت الزوجة ذات حمل فالواجب على الزوج إن طلقها أن ينفق عليها حتى تضع ما في بطنها من الحمل.

﴿فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَأْتَمِرُوا بَيْنَكُمْ بِمَعْرُوفٍ﴾ وإن أخذت ولدها لترضعه فيجب عليه أن يسلم لها أجرة الرضاع إن طلبت ذلك، وتكون الأجرة بالمعروف والوسط فلا تجحف به بأن تطلب فوق المعتاد، ولا يجحف بها بأن يعطيها أقل من المعتاد.

﴿وَإِنْ تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُ أُخْرَى﴿٦﴾﴾ وإن طلبت هذه الأم ما يعسر على الزوج دفعه من أجرة الرضاع فليبحث لولده عن مرضعة غيرها.

﴿لِيُنْفِقْ ذُو سَعَةٍ مِنْ سَعَتِهِ وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا ءَاتَاهُ اللَّهُ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَا ءَاتَاهَا﴾ لا يجب على الزوج أن يعطي إلا على قدر حالته وظروفه المعيشية، ومن لا يملك شيئاً فلا يجب عليه أن ينفق إلا مما يسره الله تعالى وسهله له، وإن لم يجد شيئاً ينفقه فلا حرج عليه، ولا يلزمه أن يقترض للنفقة فلا يكلف الله نفساً إلا ما آتاها.

﴿سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا۝٧﴾ هذا وعد من الله سبحانه وتعالى لمن تضيق عليه رزقه بأنه لا بد أن يفرج عليه، وأن ييسر له أموره؛ فلتصبر هذه الزوجة والمعتدة حتى يفرج الله تعالى عن هذا الزوج المعسر.

﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ فَحَاسَبْنَاهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَاهَا عَذَابًا نُكْرًا۝٨ فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا۝٩﴾ ثم أخبر الله سبحانه وتعالى أنه كم من القرى والأمم التي كذبت أنبياء الله تعالى ورسله، وكفرت بآياته وباليوم الآخر، فعذبهم ودمرهم في الدنيا جزاءً على تكذيبهم وتمردهم؛ فانظروا كيف كانت عاقبة هذه الأمم عندما كذبت وتمردت، واعتبروا بما جرى عليهم، واحذروا أن تفعلوا كفعلهم فتقعوا فيما وقعوا فيه من عذاب الله وسخطه.

﴿أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فَاتَّقُوا اللَّهَ يَاأُولِي الْأَلْبَابِ الَّذِينَ ءَامَنُوا قَدْ أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا۝١٠ رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْكُمْ ءَايَاتِ اللَّهِ مُبَيِّنَاتٍ لِيُخْرِجَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ وقد أعد الله سبحانه وتعالى لهم العذاب الشديد في الآخرة، فاحذروا أن تفعلوا أفعالهم وقد أنعم الله سبحانه وتعالى عليكم بأن أرسل إليكم رسولاً من أنفسكم، وأنزل معه القرآن ليقرأه عليكم، ويذكركم بآياته وبيناته الواضحة التي يخرجكم بها من ظلمات الشرك والجهل إلى نور الحق والهدى.

﴿وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا قَدْ أَحْسَنَ اللَّهُ لَهُ رِزْقًا﴿١١﴾﴾ ثم أخبرهم أن من آمن بالله تعالى، وعمل الأعمال الصالحة- فإنه سيثيبه بالنعيم الدائم في جنات النعيم وبساتين الثمار التي تجري الأنهار من تحتها.

﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴿١٢﴾﴾ ثم أخبر الله سبحانه وتعالى عباده بأنه وحده الذي يستحق الإلهية، وأن يخصوه بعبادتهم؛ لأنه الذي خلق هذه السماوات السبع والأرضين السبع، ثم أخبرهم بأنه ينزل القرآن من السماء إلى الأرض؛ ليطلعهم على عظيم قدرته وإحاطة علمه.

❁❁❁❁❁

سورة التحريم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاةَ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴿١﴾ قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ﴾ كان للنبي صلى الله عليه وآله وسلم جارية وكان اسمها مارية القبطية، ثم إنه حرم أن يقربها، وكان ذلك التحريم بسبب غيرة عائشة وحفصة واعتراضهما على ذهابه إليها.

وذلك أنه صلى الله عليه وآله وسلم دخل على مارية وهي في بيت إحداهما فحصل ما حصل من حفصة وعائشة من الأذى للنبي صلى الله عليه وآله وسلم، فحرم صلى الله عليه وآله وسلم مارية على نفسه ليرضيهما، وكانتا قد أكثرتا الأذى للنبي صلى الله عليه وآله وسلم؛ فاستنكر الله سبحانه وتعالى على نبيه صلى الله عليه وآله وسلم أن يحرم شيئاً قد أحله الله تعالى له لأجل أن يرضي عائشة وحفصة بذلك التحريم، وأخبره أنه قد عفا عنه وأرشده إلى أن يُكَفِّر عن يمينه هذه بإطعام عشرة مساكين أو كسوتهم أو تحرير رقبة.

﴿وَاللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ۝٢﴾ ثم أخبره الله سبحانه وتعالى بأنه ناصره ومؤيده على مؤامرة حفصة وعائشة وعلى كل من يريد أن يؤذيه.

﴿وَإِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلَى بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِ وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُ وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ﴾ وأخبره أيضاً أنه استكتمهما على بعض أسراره، وأمرهما أن لا يطلعا عليه أحداً فخالفا أمره وأذاعا سره، فاستنكر النبي ﷺ على زوجتيه عائشة وحفصة إذاعتهما لسره هذا، وعاتبهما وأطلعهما على بعض ما أفشتاه وتغاضى وسكت عن بعضه مراعاة لهما.

﴿فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِ قَالَتْ مَنْ أَنْبَأَكَ هَذَا قَالَ نَبَّأَنِيَ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ۝٣﴾ وذلك أنهما استغربتا وتعجبتا عندما أطلعهما النبي ﷺ على ما أذاعتاه من سره، فسألتاه من الذي أخبرك بكل ذلك؟ فأجابهما بأنه الله العليم الخبير الذي لا تخفى عليه خافية.

وأما الذي استكتمهما النبي ﷺ عليه من السر فهو أنه أخبرهما أن أبا بكر وعمر سوف يأخذان الخلافة من بعده؛ فذهبت كل واحدة منهما لتخبر أباها بذلك، وروي غير ذلك.

﴿إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾ ثم أوحى الله تعالى إلى نبيه ﷺ أن يخبرهما بأنهما قد زاغتا عن الحق، وقد خرجتا عن طريق الصواب، وأنه يجب عليهما التوبة من ذلك.

﴿وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ۝٤﴾ وأن يخبرهما بأنهما إن أقامتا في عداوته وتعاونتا على أذيته وإلحاق الضرر به فإن الله تعالى لن يمكنهما منه وسيظهره عليهما، وسيؤيده بجبريل والملائكة تحرسه، وسيجعل حوله من ينصره ويدافعون عنه من عباده المؤمنين، أراد الله سبحانه وتعالى أن يعلم أزواجه أنهن لن يستطعن أن ينلن من نبيه ﷺ، أو يلحقن به أي ضرر أو مكروه مهما حاولن.

﴿عَسَى رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُبْدِلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِنْكُنَّ مُسْلِمَاتٍ مُؤْمِنَاتٍ قَانِتَاتٍ تَائِبَاتٍ عَابِدَاتٍ سَائِحَاتٍ ثَيِّبَاتٍ وَأَبْكَارًا﴿٥﴾﴾ والمعني بذلك هما عائشة وحفصة، وقد أراد الله سبحانه وتعالى أن تعلما أن النبي ﷺ في غنى عنهما، وأنهما إن لم تقلعا عما هما عليه من أذية نبيه ﷺ وإلحاق الضرر به فإنه سيبدله بأزواج خير منهما بعد أن يطلقهما. والقانتات: هن المطيعات. وتائبات: إلى الله تعالى، لا مثلكن يتجرأن على الله تعالى وعلى نبيه ﷺ، والسائحات: يعني مداومات على الصيام.

وفي ذلك تعريض بعائشة وحفصة أنهما ليستا على هذه الصفة.

وبعد، فالمرأة وإن تنسكت وتعبدت فطبيعتها لا تتغير، وتماماً كما روي عن النبي ﷺ إنهن خلقن من ضلع أعوج، فإن ذهبت تقيمه كسرته..إلخ.

﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴿٦﴾﴾ ثم أمر الله سبحانه وتعالى عباده المؤمنين بأن يتخذوا لأنفسهم وأهاليهم وأولادهم وقاية من النار التي أعدها للمجرمين، وأن كل واحد مسؤول عن أهل بيته فعليه أن يعرفهم ما يقيهم من عذاب جهنم التي سيكون وقودها الناس والحجارة، ثم وصفها الله تعالى أيضاً بأن القائمين عليها والموكلين بتعذيب أهلها ملائكة جبلهم الله تعالى على الشدة والقسوة والغلظة لا تعرف الرحمة واللين طريقاً إلى قلوبهم.

﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَعْتَذِرُوا الْيَوْمَ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴿٧﴾﴾ سوف يقطع الله تعالى طمع الكفار والمجرمين عن الاعتذار يوم القيامة وليس إلا الجزاء على الأعمال.

﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحًا عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يَوْمَ لَا يُخْزِي

اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ﴾ ثم دعا الله سبحانه وتعالى عباده المؤمنين إلى إخلاص توبتهم، والإكثار من الرجوع إليه، وأن لا يظنوا بأنفسهم خيراً أبداً، وأن يكونوا متهمين لأنفسهم بالتقصير لديه، وأن يعلموا أنه لا بد لكل امرئ من الوقوع في الزلات والهفوات والأخطاء مهما حاول، فمهما حرص المؤمن على تقوى الله والمحافظة على طاعته فإن غاية ما يصل إليه هو الرجاء لمغفرة ربه دون القطع واليقين.

وحثهم على المحافظة على التوبة في كل أوقاتهم ليكفر عنهم الزلات والأخطاء والهفوات، وليسلموا من أليم عذابه في اليوم الذي سيؤمن فيه أولياءه من كل خوف وفزع وحزن، والذي سيجعل لهم فيه نوراً يستضيئون به في أرض المحشر، وليحرصوا أشد الحرص على أن يكونوا منهم.

﴿يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ۝٨﴾ ثم وصف الله سبحانه وتعالى أهل ذلك النور والنعيم الذي سيلقونه يوم القيامة بأنهم الذين كانوا يتوسلون إليه في الدنيا ويدعونه بأن يزيدهم من توفيقه وتسديده وهداه، ويكثرون من الرجوع والتوبة إليه، ويطلبون منه أن يغفر لهم ما بدر منهم من التقصير والخطأ في جنب طاعته.

﴿يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ۝٩﴾ ثم أمر الله سبحانه وتعالى نبيه ﷺ أن يستمر في جهاد الكفار وتطهير الأرض منهم، وفي المنافقين الذين أسلموا وصاروا في أوساط المسلمين يكيدون الإسلام والمسلمين ويخذلونهم عن نصرة النبي ﷺ ويرجفون بينهم ويفرقون بين صفوفهم وينفرونهم عن النبي ﷺ، وقد لاقى النبي ﷺ منهم أعظم مما لاقاه من المشركين، وأما جهادهم فلم يحمل النبي ﷺ عليهم سيفاً، ولم يجيش عليهم جيشاً، وإنما جاهدهم بالحجة والموعظة، وحذر الناس منهم، وفضحهم وبين للناس أعمالهم، وكان إذا قيل له: اقتل فلاناً المنافق؛ فإنه يجيب عليه: ((لا يتحدث الناس بأن محمداً يقتل أصحابه)).

﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ﴿١٠﴾﴾ ضرب الله سبحانه وتعالىٰ هذا المثل لعائشة وحفصة ليعلمهما أنه لن ينفعهما كونهما من أزواج النبي ﷺ، فتلك امرأة نوح وامرأة لوط أوجب الله تعالىٰ لهما دخول نار جهنم مع الكافرين، ولم ينفعهما كونهما زوجتي نوح ولوط عليهما السلام، ولم يشفع لهما ذلك، ولم يغن عنهما شيئاً من عذاب الله.

﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴿١١﴾﴾ وضرب الله سبحانه وتعالىٰ هذا المثل للمرأة المؤمنة تكون تحت زوج كافر بأن كفره لن يضرها أو يجرح في إيمانها ما دامت متمسكة بإيمانها.

﴿وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ﴿١٢﴾﴾ ثم ضرب الله سبحانه وتعالىٰ مريم بنت عمران مثلاً وقدوة للنساء لأجل أن يقتدوا بها في إيمانها وانقطاعها إلىٰ الله تعالىٰ، ويقتدوا بها أيضاً في عفتها وطهارتها، وأن ينظروا كيف نفخ الله سبحانه وتعالىٰ الروح في بطنها من غير زوج ليطلع الناس علىٰ عظيم قدرته؛ وقوله: ﴿وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا﴾ يعني صدقت برسالة عيسى عليه السلام وآمنت به وبما نزل عليه من عند الله تعالىٰ.

❁❁❁❁❁

سورة الملك



﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴿١﴾﴾ تكاثر خير الله وتظاهرت نعمه علىٰ عباده، وكثرت منافعه ومواهبه عليهم التي لا تعد ولا تحصىٰ، وهو الذي بيده ملك خزائن السماوات والأرض ومفاتيحها بيده وحده وهو المتصرف فيها كيف يشاء، ولا يعجزه شيء أو يفوته لإحاطة قدرته.

﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ ۝٢﴾ ثم تحدث الله سبحانه وتعالى لعباده عن الحكمة في خلقهم وخلق السماوات والأرض فذكر تعالى أنها ليختبرهم بما ينزله عليهم من التكاليف على ألسنة أنبيائه وكتبه من هو الذي يطيع ومن هو الذي يتمرد ويعصي.

﴿الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ﴾ خلق الله تعالى السماوات متطابقة بعضها فوق بعض، ثم أخبرهم أنه لم يخلق شيئاً يتصف بالنقص وعدم الإحكام، فكل ما خلق الله سبحانه وتعالى فهو في غاية الإتقان والإحكام من أصغر مخلوق إلى أكبر مخلوق في السماوات والأرض.

﴿فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ ۝٣﴾ ثم أمر الله سبحانه وتعالى نبيه ﷺ -أو يكون المأمور أنت أيها المكلف- بأن يردد بصره وينظر في السماء هل سيجد فيها أي فطور أو تشقق، أم أنها في غاية الإحكام والإبداع؟

﴿ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ۝٤﴾ وأمر تعالى بتكرير النظر في السماوات هل يجد فيها نقصاً أو عيباً؟ ولكن مهما كرر الناظر نظره فلن يجد عيباً أو نقصاً.

﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ﴾ ثم أخبر الله سبحانه وتعالى عباده بأنه الذي زين لهم السماء بتلك الكواكب والنجوم المزهرة والمضيئة كالقمر والشمس والزهرة والمشتري وعطارد، وأخبرهم أنه خلقها في السماء الدنيا زينة لها، ولحراسة السماء من الشياطين التي تصعد لاستراق السمع، وما يدور بين الملائكة في الملكوت الأعلى، فإذا هم شيطان بذلك قذفه الله تعالى بقطعة نار من تلك النجوم حتى تدحره وتطرده.

﴿وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ ۝٥﴾ ثم أخبر الله سبحانه وتعالى بأنه قد أعد لهؤلاء الشياطين العذاب الشديد في نار جهنم لتمردهم عليه وخروجهم عن طاعته وأوامره، وجزاءً على ما يسترقونه من السمع.

﴿وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ۝٦ إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهِيقًا وَهِيَ تَفُورُ۝٧ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ۝٨ قَالُوا بَلَى قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ۝٩ وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ۝١٠ فَاعْتَرَفُوا بِذَنْبِهِمْ فَسُحْقًا لِأَصْحَابِ السَّعِيرِ۝١١﴾

أعد الله تعالى للذين كفروا العذاب الشديد في نار جهنم؛ فإذا ألقاهم الله تعالى يوم القيامة في النار سمعوا لها صوتاً شديداً تكاد أن تتقطع من شدته، وكلما وصل مجموعة من أهل النار إليها فإن خزنتها سيسألونهم: ألم يرسل الله سبحانه وتعالى إليكم رسولاً يحذركم وينذركم لقاء يومكم هذا؟ فلا يجدون بداً من الجواب بالإقرار، والاعتراف بتكذيبهم وتمردهم، ورميهم لأنبيائهم بالضلال والجهالة، والندم يكاد أن يقطع أوصالهم لو أنهم سمعوا واستجابوا لدعوة أنبيائهم لما وصلوا إلى ما وصلوا إليه، ويعترفون حينها بسيئاتهم وأعمالهم المعاصي والفساد. ومعنى «سحقاً» يعني: بعداً شديداً.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ۝١٢﴾ ثم أثنى الله سبحانه وتعالى على الذين يؤمنون بالغيب، ويخافون ربهم من دون أن يروه، ويؤمنون بالجنة وأنها حق وصدق ولم يشاهدوها، ويخشون عذاب النار من دون أن يكونوا قد رأوا شيئاً من ذلك، وإنما تصديقاً بما أخبرتهم به أنبياؤهم من عند الله سبحانه وتعالى، وأخبر بأنه قد أعد لهم الثواب الكبير على ذلك، وقد كفر عنهم سيئاتهم وذنوبهم.

﴿وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ۝١٣﴾ ثم خاطب الله سبحانه وتعالى جميع المكلفين بأنه سواء عنده جهروا بأقوالهم وأعمالهم، أم أسروا بها، فهو عالم بجميعها، ومطلع على خفيها وظاهرها، وعالم بما في صدورهم وضمائرهم، لا تخفى عليه خافية.

﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴿١٤﴾﴾ كيف لا يعلم الله ما أسروا وما جهروا وما تخفيه الصدور وهو الذي خلق كل شيء وأوجده؟ وهو اللطيف الخبير الذي هو عالم بدقائق الأمور وخفيها، وعالم بما في بواطن الأشياء وظواهرها، أفلا يستحق اسم اللطيف، وهو الذي علمه يتغلغل في باطن كل شيء، حتى ما في داخل الذرة التي تكاد لا ترى بالعين؟

وأيضاً ألا يستحق اسم الخبير وهو الذي يتحكم بعلمه وقدرته وتدبيره في جميع أجهزتها تلك الداخلية، من المخ والأعصاب والدورة الدموية والجهاز الهضمي والجهاز التنفسي والتناسلي، وغير ذلك من الأجهزة والأعضاء التي بداخلها على الرغم من صغرها؟ وقد نفذ علمه إليها، وقدر على تشغيل جميع تلك الأجهزة بعلمه وقدرته، وناهيك عما تحمله في بطنها من صغارها التي تحمل مثل ما تحمل أمهاتها من الصفات؛ فانظر إلى أين وصل علم الله سبحانه وتعالى، وانظر إلى عجيب خلقه وعظيم قدرته التي يتوقف عندها العقل، وتتحير عندها الفطرة، ولو غاب علم الله وقدرته وتدبيره عما في بواطن مخلوقاته لماتت، ولو غاب علمه وقدرته وتدبيره عن السماوات لتهاوت أجرامها واختل نظامها وتصادمت نجومها وفسد الكون كله.

﴿هُوَ الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ﴿١٥﴾﴾ ثم يذكر الله سبحانه وتعالى عباده بنعمه عليهم إذ ذلل لهم الأرض وسخرها في خدمتهم ومنفعتهم، ومهدها لسكناهم والحياة عليها.

﴿فَامْشُوا فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ﴾ وحثهم وأذن لهم أن يمشوا على ظهرها، ويسعوا وراء أرزاقهم ومصالحهم التي أباحها لهم.

﴿وَإِلَيْهِ النُّشُورُ﴿١٥﴾﴾ فاحذروا الفساد في الأرض، وأحسنوا كما علمكم ربكم؛ لأن مرجعكم سيكون إليه، ولا بد أن يحاسبكم ثم يجازيكم على جميع أعمالكم.

﴿ءَأَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمُ الْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ ١٦﴾ ثم استنكر الله سبحانه وتعالى على العاصين والمتمردين استمرارهم في فسادهم وإصرارهم على كفرهم وضلالهم كيف أمنوا مكر الله تعالى وعذابه أن ينزل بهم؟ وكيف لو أنه خسف بهم الأرض وهم في غيهم وضلالهم؟ فأين عقولكم أيها الكافرون فمن شأن العاقل أن يأخذ حذره من المخاوف المعلومة والمظنونة، وقد أرسل الله إليكم رسولاً كريماً، وأنزل إليكم كتاباً مبيناً، حججه واضحة وآياته نيرة لو كان لكم عقول.

﴿أَمْ أَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ ١٧﴾ أم أنكم في مأمن من الله سبحانه وتعالى أن ينزل عليكم ريحاً عاصفة تهلككم وتبيد خضراءكم، فعندها ستعلمون صدق ما ينذركم به نبيكم صلى الله عليه وآله وسلم.

﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ١٨﴾ ثم أوحى الله سبحانه وتعالى إلى نبيه صلى الله عليه وآله وسلم أن لا يكبر في نفسه تكذيب قومه وتمردهم عليه، فالأمم السالفة قبله قد كذبوا أنبياءهم كذلك، فعذبهم وأهلكهم ودمرهم جزاء تكذيبهم وتمردهم، وأخبره أن قومه ليسوا ببعيد منهم، وقد أوشك أن ينزل عليهم عذاباً يدمرهم ويبيدهم ويهلكهم، كما أهلك من كان قبلهم.

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَنُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ ١٩﴾ ثم استنكر الله سبحانه وتعالى على قريش تكذيبهم وتمردهم مع أنهم يرون آثار قدرة الله سبحانه وتعالى حولهم، وكيف لم ينظروا إلى آية الطير العجيبة فوقهم من الذي يمسكها عن السقوط مع أنها صافات لأجنحتها أو قابضات لها لا تحركها؟

﴿أَمَّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ جُنْدٌ لَكُمْ يَنْصُرُكُمْ مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ إِنِ الْكَافِرُونَ إِلَّا فِي غُرُورٍ ٢٠﴾ واستنكر عليهم أيضاً إصرارهم على كفرهم وتكذيبهم، وكيف يأمنون مكر الله تعالى بهم، فهل معهم من القوة ما يدفعون به عنهم عذاب الله تعالى؟ أو يملكون ما يحميهم من بأس الله إن نزل بهم؟

ثم أجاب الله سبحانه وتعالىٰ عن ذلك بأنهم لا يملكون أي شيء من ذلك وإنما أخذهم الكبر والغرور بأنفسهم، وقد غطىٰ الباطل علىٰ قلوبهم حتىٰ أعماهم عن الخوف من الله تعالىٰ وأمنوا مكره وعذابه.

﴿أَمَّنْ هَذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ بَلْ لَجُّوا فِي عُتُوٍّ وَنُفُورٍ ﴿٢١﴾﴾ من الذي سيرزقهم إن حبس الله تعالىٰ عنهم رزقه، ومنعهم بركات السماء وخيرات الأرض؟ فما بالهم يعدلون عن عبادته إلىٰ عبادة غيره من الآلهة التي لا تنفع ولا تضر؟

ولكنهم غرقوا في الباطل والكبر وتوغلوا في الضلال والشرك والاستهزاء بآيات الله تعالىٰ، والنفور عن الهدىٰ وعن سماع نبيهم صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ.

﴿أَفَمَنْ يَمْشِي مُكِبًّا عَلَى وَجْهِهِ أَهْدَى أَمَّنْ يَمْشِي سَوِيًّا عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٢٢﴾﴾ من هو الأهدىٰ؟ أذلك الذي يمشي علىٰ وجهه لا ينظر أمامه ولا يمشي في طريق، أم الذي يمشي علىٰ رجلين في سواء الطريق رافعاً رأسه وفاتحاً عينيه ينظر أمامه؟

شبه الله سبحانه وتعالىٰ المشركين في تخبطهم في ظلمات الجهل والضلال بمن يمشي مكباً علىٰ وجهه، لا يبصر ما الذي أمامه، ولا يهتدي إلىٰ طريق.

﴿قُلْ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ ﴿٢٣﴾﴾ ثم أمر الله سبحانه وتعالىٰ نبيه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ أن يخبر المشركين بأن الله سبحانه وتعالىٰ هو الذي خلقهم في أحسن الصور وجعل لهم السمع والأبصار والعقول التي يميزون بها الحسن من القبيح، والحق من الباطل، فكان من المفروض أن يشكروا الله سبحانه وتعالىٰ علىٰ نعمه العظيمة، وأن يتوجهوا بعبادتهم إليه، ويتركوا تلك الأصنام التي لم تفعل لهم أي شيء من ذلك.

﴿قُلْ هُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾﴾ هو تعالىٰ الذي بيده موتهم، وهو الذي سيحييهم ويبعثهم من جديد للحساب والجزاء، والله سبحانه وتعالىٰ ذرأهم في الأرض في قبورهم، وسينبتهم يوم القيامة كما ينبت الحب الذي يذرأ في الأرض.

﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ۝٢٥ قُلْ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ۝٢٦﴾ ثم أخبر الله سبحانه وتعالىٰ نبيه ﷺ أن المشركين سوف يستنكرون عليه أمر البعث والحساب والجزاء، وأنهم لن يصدقوا ذلك أبداً، ومعرفة الوقت الذي يحشر الله تعالىٰ فيه الأموات ويجمعهم فيه للحساب لا يعلمه إلا الله تعالىٰ وحده ولم يرسل الله تعالىٰ نبيه محمداً ﷺ إلا ليبلغهم ولينذرهم عذاب الله تعالىٰ وسخطه الذي أوشك علىٰ أن ينزل بهم إن أصروا علىٰ كفرهم وشركهم.

﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيئَتْ وُجُوهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَقِيلَ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَدَّعُونَ۝٢٧﴾ عندما يرىٰ المشركون العذاب يوم القيامة ستظهر علىٰ وجوههم أمارات الفزع والهلع الشديد، ثم تخبرهم الملائكة وتبكتهم بأن هذا العذاب الذي ترونه أمامكم هو العذاب الذي كنتم تنكرونه في الدنيا وتكذبون به.

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِيَ اللَّهُ وَمَنْ مَعِيَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَنْ يُجِيرُ الْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ۝٢٨﴾ هلاك النبي ﷺ والمؤمنين الذي تتوقعونه أيها المشركون إن حصل علىٰ سبيل الفرض فمن هو الذي سيدفع عنكم عذاب الله الشديد حين ينزل بكم، فلا مجال لكم ولا منجا ولا مهرب من عذاب الله تعالىٰ حتىٰ ولو توفاه الله تعالىٰ إليه، ولا بد أن يلحقهم ذلك العذاب.

﴿قُلْ هُوَ الرَّحْمَنُ آمَنَّا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا﴾ النبي ﷺ ومن معه من المؤمنين لن يعبدوا غير الله تعالىٰ، ولن يسندوا ظهورهم إلا إليه، ولن يتوكلوا إلا عليه؛ لأنه وحده المختص بالرحمة الواسعة بعباده.

﴿فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ۝٢٩﴾ كانوا يقولون بأن محمداً قد ضل وخرج عن الهدىٰ؛ فأمره الله سبحانه وتعالىٰ أن يخبرهم بأن ينتظروا ويتمهلوا، وسيعلمون عما قريب من الذي ضل عن الحق، وخرج عن سواء الطريق.

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَعِينٍ۝٣٠﴾ كيف لو أن ذلك الماء الذي يشربونه غار عليهم وذهب في باطن الأرض فمن الذي سيخرجه لهم؟ فما بالهم معرضون عن الله تعالى أشد الإعراض وهم يعلمون أنه وحده الذي بيده أرزاقهم، وأنه الذي يسبغ عليهم النعم؟

۞۞۞۞۞

سورة القلم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ۝١﴾ أقسم الله سبحانه وتعالى بالقلم الذي يكتبون به، وذلك أنه آية من آيات الله تعالى، ونعمة من نعمه العظيمة عليهم؛ إذ علمهم كيف يكتبون، وكيف يبينون مكنون نفوسهم بالكتابة.

ولم يقسم الله تعالى بالقلم إلا ليتفكروا ويتدبروا في هذه النعمة العظيمة، وليبعثهم على أداء شكرها، ولأجل أن يبحثوا عن السر العظيم وراء هذا القسم، وهكذا كل ما أقسم الله تعالى به في كتابه.

﴿مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ۝٢﴾ هذا هو المقسم عليه. أقسم الله سبحانه وتعالى للمشركين بأن محمداً صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ ليس بمجنون بسبب إنعام الله عليه بالنبوة واصطفائه للرسالة.

﴿وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ۝٣﴾ وأقسم لنبيه أيضاً أن ثواب تبليغه رسالة ربه مستمر، ولن ينقطع ما دام التكليف.

﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ۝٤﴾ وصف الله تعالى نبيه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ بالخلق العظيم لما كان يتحلى به من الصبر وقوة التحمل وكظم الغيظ، وما يتحلى به من الخلق العظيم والحلم عمن أساء إليه أو آذاه، من دون أن ينهره أو يرد عليه، أو حتى يقطب وجهه فيه، ولما كان عليه من التواضع والرفق والرحمة بعموم الناس، ولما كان عليه من حسن المعاملة ومداراة الناس والإحسان إلى الخاصة والعامة.

﴿فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ۝٥﴾ فستبصر يا محمد نصر الله تعالىٰ وتأييده لك، وإظهار دينك علىٰ جميع أديانهم، وهم سيبصرون جزاء كفرهم وتكذيبهم وتمردهم، وسيرون عاقبة أمرهم، وسيشهدون نصر الله يقهرهم ويذلهم.

﴿بِأَيِّيكُمُ الْمَفْتُونُ۝٦﴾ وستعلم يا محمد وسيعلم أولئك المشركون من الذي دخل في الفتنة وافتتن عن دينه، أنت أم هم؟

﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ۝٧ فَلَا تُطِعِ الْمُكَذِّبِينَ۝٨ وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ۝٩﴾ كانت قريش تدعي أنهم الذين علىٰ الهدىٰ وفي سواء الصراط، وأن محمداً وأصحابه ضالون وخارجون عن طريق الحق والهدىٰ، وأنهم قد صبئوا عن دين آبائهم وأجدادهم؛ فأوحىٰ الله سبحانه وتعالىٰ إلىٰ نبيه ﷺ أن لا يبالي بهم ولا بما يقولون، وأن يستمر علىٰ ما هو عليه، فهو عالم بمن هو علىٰ الهدىٰ ودين الحق، ومن هو من أهل الضلال والغواية، وأن لا يطيعهم أو يميل إليهم في شيء من اعتقاداتهم، أو يجاملهم ولو في بعض شيء من ذلك.

وأنهم يتمنون لو أنه جاملهم وداهنهم لداهنوه واتبعوه، ولكن الله سبحانه وتعالىٰ يريد أن يكون الدين خالصاً له لا يشوبه شيء من اعتقاداتهم وضلالات الشرك والجاهلية، وأن لا يكون فيه شيء من المجاملات أو التغاضي آمن من آمن وكفر من كفر.

﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَهِينٍ۝١٠ هَمَّازٍ مَشَّاءٍ بِنَمِيمٍ۝١١ مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ۝١٢ عُتُلٍّ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٍ۝١٣ أَنْ كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ۝١٤﴾ يقال إن الحلاف المهين هو الوليد بن المغيرة المخزومي، وسمي بذلك لكثرة أيمانه الفاجرة، وسمي أيضاً همازاً لما كان يكثر من التنقيص في الناس والوخز في أعراضهم، وسماه نماماً لما كان يعتاده من المشي بالنميمة بين الناس، وسماه الله تعالىٰ أيضاً مناعاً للخير لبخله بالأموال وحرصه الشديد علىٰ جمعها، وسمي معتدياً لأن

عادته كانت التعدي على الناس وارتكاب المآثم، والعتل لأن طبيعته كانت القسوة والغلظة والشدة، وكان قلبه لا يعرف الرحمة للأيتام والفقراء والمساكين، والزنيم هو ولد الزنا؛ فنهى الله سبحانه وتعالى نبيه ﷺ عن طاعته لكونه من أصحاب الأموال الطائلة والأولاد الكثيرين. ويقال: كان له من الأولاد سبعة عشر ولداً.

﴿إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ ءَايَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴿١٥﴾﴾ ومن صفته أيضاً أنه كان إذا سمع آيات الله تعالى تتلى عليه أعرض عنها واستكبر عن سماعها ويقول ليست إلا خرافات الأولين.

﴿سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرْطُومِ﴿١٦﴾﴾ ثم أخبر الله سبحانه وتعالى نبيه ﷺ بأنه سيسمه بعلامة على أنفه بضربة سيف فلما تواجه المسلمون وقريش في بدر ضرب الوليد على أنفه ولم يقتل كما قتلت الصناديد من قريش.

﴿إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ﴿١٧﴾ وَلَا يَسْتَثْنُونَ﴿١٨﴾ فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِنْ رَبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ﴿١٩﴾ فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ﴿٢٠﴾ فَتَنَادَوْا مُصْبِحِينَ﴿٢١﴾ أَنِ اغْدُوا عَلَى حَرْثِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَارِمِينَ﴿٢٢﴾ فَانْطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخَافَتُونَ﴿٢٣﴾ أَنْ لَا يَدْخُلَنَّهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُمْ مِسْكِينٌ﴿٢٤﴾﴾ ابتلى الله سبحانه وتعالى المشركين يوم بدر وذلك أنهم جمعوا صناديدهم وكبارهم لاستنقاذ تجارتهم في طريقها من الشام إلى مكة، وكانوا قد خافوا عليها من محمد ﷺ فنهض منهم للخروج ما يقارب ألف رجل، وكان قد بلغهم أن النبي ﷺ خرج لاعتراض القافلة التي تحمل تجارتهم، وفي حسبانهم أن الفرصة قد حانت لهم للقضاء على النبي ﷺ ومن معه من المسلمين، ولكن الدائرة كانت عليهم فانكسرت شوكتهم، وقتلهم المسلمون شر قتلة، وقتلوا صناديدهم وكبارهم، وألحقوا بهم شر هزيمة.

وقد شبههم الله سبحانه وتعالىٰ بأصحاب الجنة الذين رزقهم الله سبحانه وتعالىٰ البساتين الواسعة التي جعل لهم فيها ما لذ وطاب من الفواكه والثمار، وعندما حان وقت قطافها وجني ثمرها تعاهدوا فيما بينهم وأقسموا علىٰ أن يبكروا إليها ويقطفوها جميعاً، ولا يبقوا علىٰ شيء منها، وأن يحرموا الفقراء والمساكين.

ومعنىٰ ﴿وَلَا يَسْتَثْنُونَ﴾: لم يقولوا: إن شاء الله؛ فأرسل الله سبحانه وتعالىٰ عليها ضربة ثلج ليلاً أتلفتها وأحرقتها، فلما طلع عليهم الصبح اجتمعوا وانطلقوا وهم يتهامسون فيما بينهم؛ لئلا يسمعهم أحد من المساكين أو غيرهم.

﴿وَغَدَوْا عَلَى حَرْدٍ قَادِرِينَ ۝٢٥﴾ انطلقوا وفي عزمهم الإصرار علىٰ منع العطاء والصدقة.

﴿فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَضَالُّونَ ۝٢٦ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ۝٢٧﴾ ولكنهم عندما وصلوا اندهشوا لما رأوا وأصابتهم الحيرة، وظنوا أنهم ضلوا عن طريقها، ولكنهم عندما تحققوا وتأكدوا أنهم في الطريق الصحيح عرفوا أن الله سبحانه وتعالىٰ قد حرمهم بساتينهم وثمارهم لسوء نياتهم.

﴿قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ ۝٢٨﴾ وكان واحد منهم وهو أفضلهم قد نصحهم وأمرهم بترك ما عزموا عليه وذكرهم بالله فلم يلتفتوا إليه.

﴿قَالُوا سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ۝٢٩ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَلَاوَمُونَ ۝٣٠ قَالُوا يَاوَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا طَاغِينَ ۝٣١ عَسَى رَبُّنَا أَنْ يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِنْهَا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا رَاغِبُونَ ۝٣٢﴾ ولكن بعد أن فات الأوان، ولم يبق لهم إلا إلقاء المسؤولية واللوم علىٰ بعضهم البعض، ثم عرفوا بعد ذلك سوء أفعالهم، وأنهم قد طغوا وتكبروا حتىٰ تسببوا في زوال نعيمهم وحرمان أنفسهم، وندموا علىٰ ما فرط منهم، واستغفروا الله تعالىٰ علىٰ ذلك.

وهكذا كان المشركون يوم بدر ظنوا أنهم قادرون علىٰ استئصال محمد ﷺ والمسلمين، ولكن الله تعالىٰ خيب ظنهم كما خيب ظن أصحاب الجنة.

﴿كَذَٰلِكَ الْعَذَابُ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴿٣٣﴾﴾ ثم أخبر الله سبحانه وتعالى المشركين أن عذابه في الدنيا يأتي المرء من حيث لا يدري ولا يتوقع كما فعل بأصحاب الجنة، وأنهم لو كانوا يعتبرون ويتفكرون بعقولهم لاعتبروا بما جاءهم به النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ من العبر، ولارتدعوا عن غيهم وضلالهم، ولاتقوا عذاب الآخرة الذي ينتظرهم.

﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴿٣٤﴾﴾ ثم أخبر الله سبحانه وتعالى أن الذين يتقونه ويحذرون الوقوع فيما يغضبه ويوجب سخطه بأن لهم جنات النعيم يأكلون ويتمتعون فيما تشتهيه أنفسهم وتلذ أعينهم.

﴿أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ﴿٣٥﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴿٣٦﴾﴾ يخاطب الله تعالى المشركين الذين أنكروا البعث والحساب والجزاء في يوم القيامة، ويستنكر عليهم الإصرار على إنكار ذلك، وكيف ساغ لهم الجحود للبعث مع ما يلزم منه من اتهام الله تعالى بالظلم ونسبته للعبث والباطل تعالى الله عن ذلك.

﴿أَمْ لَكُمْ كِتَابٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ﴿٣٧﴾ إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ﴿٣٨﴾﴾ ومن أين لكم حتى تنكروا ذلك الإنكار؟ هل أتاكم به رسول من عند الله تعالى وأخبركم أن لكم أن تختاروا ما شئتم وأردتم من الأديان؟

﴿أَمْ لَكُمْ أَيْمَانٌ عَلَيْنَا بَالِغَةٌ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ﴿٣٩﴾﴾ أم أن معكم عهوداً ومواثيق أخذتموها على الله تعالى حتى تنكروا هذا الإنكار، وتتمسكوا بعقائدكم هذا التمسك، وتأمنوا عذاب الله تعالى هذا الأمان؟

﴿سَلْهُمْ أَيُّهُمْ بِذَٰلِكَ زَعِيمٌ﴿٤٠﴾﴾ ثم أمر الله سبحانه وتعالى نبيه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ أن يسألهم من المسؤول عن ذلك العهد، إن كان ثَمَّ عهد؟ ومن هو الزعيم به؟

﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ فَلْيَأْتُوا بِشُرَكَائِهِمْ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ﴿٤١﴾﴾ أم أن لهم آلهة غير الله تعالى قد أتتهم بذلك؟ فإن كان كذلك فقل لهم يا محمد: أن يأتوا بآلهتهم، وأن يروه آثار قدرتها وخلقها، وأن يأتوه بدلائل إلهيتها وشرائعها.

﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ۝٤٢ خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ وَهُمْ سَالِمُونَ۝٤٣﴾ ثم أمره الله سبحانه وتعالى أن يذكرهم بيوم القيامة يوم يشتد عليهم الأمر ويحين وقت الجد والعذاب، فعندها سيدعوهم الله تعالى إلى السجود له تهكماً بهم، ولكن حين لا ينفعهم السجود، وقد كانت رسل الله تعالى تدعوهم إلى عبادة الله وحده والسجود له جل وعلا فتمردوا وأعرضوا.

ومعنى ﴿يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ﴾ يعني: يشتد الأمر، فعندها ستكون آثار الذلة والخزي والصغار ظاهرة على وجوههم بعد أن كانوا في الدنيا من أهل التعالي والمقامات الرفيعة وذوي الشرف والرياسة.

﴿فَذَرْنِي وَمَنْ يُكَذِّبُ بِهَذَا الْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ۝٤٤ وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ۝٤٥﴾ هذا تهديد من الله سبحانه وتعالى لأولئك المشركين عندما أعرضوا عن دعوة نبيهم ﷺ، يعني: فاتركهم يا محمد، وخل بيني وبينهم فسأنتقم لك منهم شر انتقام، وسنجرهم إلى ما فيه هلاكهم ودمارهم من حيث لا يعلمون، وسأمهلهم في الدنيا وأتأنى بهم إلى أن يحين موعد عذابهم فنأخذهم بغتة وهم لا يشعرون.

﴿أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ۝٤٦﴾ فهل تسألهم الأجرة على تبليغهم حتى يعجزوا عن اتباعك لتعذر دفعها ومشقتها عليهم.

﴿أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ۝٤٧﴾ أم قد أنزل الله تعالى عليهم كتاباً يدينون به حتى يتمسكوا بشركهم هذا التمسك، ويصروا على ضلالهم هذا الإصرار.

﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾ ثم أمر الله سبحانه وتعالى نبيه ﷺ أن يصبر على أذى قومه وتكذيبهم له، وأن يستمر على مواصلة تبليغهم رسالة ربه، وأن لا يستعجل نزول العذاب بهم فهم في قبضته ولا بد أن يحكم فيهم بحكمه.

﴿وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَى وَهُوَ مَكْظُومٌ۝٤٨ لَوْلَا أَنْ تَدَارَكَهُ

نِعْمَةٌ مِنْ رَبِّهِ لَنُبِذَ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ۝٤٩ فَاجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ۝٥٠﴾ وذلك أن نبي الله يونس عليه السلام كان يدعوا قومه إلى عبادة الله والرجوع إليه وعندما لم ير منهم أي استجابة أو قبول أصابه الكلل والملل، وغضب عليهم، وخرج من بينهم وتركهم، فعاتبه الله تعالى على ذلك وعاقبه بالسجن في بطن الحوت مدة من الزمان، وتداركه برحمته وشمله بلطفه، فحفظه حياً ثم أخرجه وبعثه إليهم مرة أخرى، فنهى الله سبحانه وتعالى نبيه صلى الله عليه وآله وسلم وحذره أن يفعل كفعله، وأن يمل من تبليغ رسالة ربه وإنذار قومه.

﴿وَإِنْ يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ۝٥١ وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ۝٥٢﴾ ثم أخبر الله سبحانه وتعالى عن قريش، وعن شدة تمردهم وعنادهم حتى أن أبصارهم تكاد أن تقذف بمحمد صلى الله عليه وآله وسلم من مكانه وترمي به منه، من شدة نفرتهم وحقدهم وغضبهم عليه، وكانوا إذا سمعوه يتلو عليهم آيات القرآن رموه بالجنون، ويزعمون أنه لا يقول مثل ذلك الكلام إلا من قد أصابه المس والجنون، وأنه لا ينبغي لعاقل أن يقول مثل ذلك القول.

❁❁❁❁❁

سورة الحاقة



﴿الْحَاقَّةُ۝١ مَا الْحَاقَّةُ۝٢ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ۝٣﴾ الحاقة: هي القيامة لأنها حق واقع لا محالة كما وعد الله، وسيحق فيها الحق من الحساب والجزاء، وفي الاستفهام عنها من التفخيم والتعظيم ما ينبئ أنها أمر هائل عظيم سيحل بأهل السماوات والأرض.

﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌ بِالْقَارِعَةِ۝٤ فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ۝٥ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ۝٦ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ۝٧ فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ۝٨﴾

ثم أخبر الله تعالى أن قوم صالح وقوم هود قد كذبوا بها وأنكروا البعث والحساب والجزاء، فأهلكهم الله وعذبهم جزاء تكذيبهم وتمردهم على أنبيائهم؛ وقد أهلك الله سبحانه وتعالى ثموداً بصيحة من السماء لم تتحملها أجسامهم فصعقتهم جميعاً، وأما عاد فقد أهلكهم الله سبحانه وتعالى بريح عظيمة لها صوت وصرير من شدتها وقوتها، وقد استمرت تعصف بهم سبع ليال وثمانية أيام حتى حسمتهم وأبادتهم، ونثرت أجسادهم كأعجاز النخل في كل مكان، ولم تبق على أحد منهم، وقد شبههم الله سبحانه وتعالى بأعجاز النخل؛ لما كانوا عليه من القوة والأجسام الكبيرة.

﴿وَجَاءَ فِرْعَوْنُ وَمَنْ قَبْلَهُ وَالْمُؤْتَفِكَاتُ بِالْخَاطِئَةِ۝٩ فَعَصَوْا رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَابِيَةً۝١٠﴾ وكذلك فرعون وجنوده، وأيضاً من كان قبله من الأمم عندما كذبوا برسلهم وتمردوا عليهم، وأصروا على كفرهم وضلالهم، وأنكروا البعث والحساب- أخذهم الله سبحانه وتعالى بالعذاب الشديد، ودمرهم وأهلكهم، والرابية: التي لا قدرة لأحد على تحمل شدتها؛ لأن أخذ الله ليس كأخذ غيره.

﴿إِنَّا لَمَّا طَغَى الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ۝١١ لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ۝١٢﴾ ثم تمنن الله سبحانه وتعالى على بني آدم حين حفظ لهم أباهم نوحاً عليه السلام وأولاده عندما حملهم في السفينة، ونجاهم من الغرق الذي غطى جميع الأرض بالماء، وجعل لهم أيضاً فيما جرى على قوم نوح عظة وعبرة ليعتبروا ويتعظوا بها، ويحذروا أن يفعلوا كفعلهم، ثم أخبر الله تعالى أنه لن يعي ذلك ويعتبر به إلا من كان ذا عقل راجح يعي ما سمع.

﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ۝١٣﴾ ثم أمر الله سبحانه وتعالى عباده بأن يتذكروا يوم القيامة، وأنه عندما يحين موعدها فسيرسل عليهم صيحة واحدة تقضي على كل من في الأرض والسماء من الأحياء، والصور أراد به صور المخلوقات.

﴿وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً﴿١٤﴾ فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ﴿١٥﴾﴾ وفي ذلك اليوم ستنفجر الأرض والجبال فتدك جميعاً في لحظة واحدة، وتصير هباءً متطايراً في وقت واحد فعند ذلك قامت القيامة وحان موعدها.

﴿وَانْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ﴿١٦﴾﴾ وفي ذلك اليوم ستنشق السماء أيضاً، وتتهاوى أجرامها بعد أن كانت متماسكة.

﴿وَالْمَلَكُ عَلَى أَرْجَائِهَا وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ﴿١٧﴾﴾ وسيتولى أمر الخلائق من الحساب والعقاب وحشر الناس وإحصاء أعمالهم وتعذيب أهل النار وتنعيم أهل الجنة ثمانية أصناف من الملائكة.

و﴿عَرْشَ رَبِّكَ﴾: سلطانه وملكه.

﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ﴿١٨﴾﴾ وفي ذلك اليوم ستعرض جميع أعمال المكلفين من بني آدم صغيرها وكبيرها لا يضيع منها شيء.

﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ﴿١٩﴾ إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَهْ﴿٢٠﴾ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ﴿٢١﴾ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ﴿٢٢﴾ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ﴿٢٣﴾﴾ وهؤلاء هم المؤمنون أهل الأعمال الصالحة فعندما يرون ما كتب في صحائفهم من الحسنات فسيتملكهم الفرح الشديد، وستملأ البهجة وجوههم، ومن شدة ما سيكون عليهم من الفرح سيبادرون بعرض كتبهم على من حولهم، مخبرين لهم بفوزهم وبما كانوا عليه في الدنيا من اليقين والإيمان بالله تعالى والتصديق برسله.

ثم أخبر الله سبحانه وتعالى بأن هؤلاء هم أهل العيشة المرضية ومن أهل النعيم الدائم في الجنة. ومعنى ﴿دَانِيَةٌ﴾: يعني ثمارها سهلة المنال لا يلحقهم تعب ولا مشقة في تناولها.

﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ﴿٢٤﴾﴾ ويخبرهم الله سبحانه وتعالى بأن هذا النعيم الذي وصلوا إليه هو جزاء أعمالهم الصالحة في الدنيا.

﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَالَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ۝٢٥ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ۝٢٦ يَالَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ۝٢٧ مَا أَغْنَى عَنِّي مَالِيَهْ۝٢٨ هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ۝٢٩﴾ وهؤلاء هم أهل المعاصي والمنكرات فعندما يأخذون صحائف أعمالهم ويرون ما كتب فيها فسيصيبهم الندم الشديد، وسيتمنون لو أنهم لم يخلقوا أو أنهم لم يبعثوا، ومالهم الذي كانوا قد جمعوه في الدنيا لم ينفعهم ولم يغن عنهم شيئاً، وآلهتهم التي كانوا يعبدونها من دون الله تعالىٰ ضلت وضاعت عنهم، وقوتهم وتسلطهم في الدنيا ذهب، وقد أبدلهم الله سبحانه وتعالىٰ مكان العز والشرف الذلة والمهانة والخزي الدائم.

﴿خُذُوهُ فَغُلُّوهُ۝٣٠ ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ۝٣١ ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ۝٣٢﴾ وعند ذلك سيأمر الله سبحانه وتعالىٰ ملائكة العذاب بأن يغلوا أيديهم إلىٰ أعناقهم بالسلاسل، ثم يسحبونهم علىٰ وجوههم إلىٰ جهنم فيسلكونهم في سلسلة من نار طولها سبعون ذراعاً، ويشكونهم فيها كما تسلك الجراد في الفتيل.

﴿إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ۝٣٣ وَلَا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ۝٣٤﴾ ثم ذكر الله سبحانه وتعالىٰ السبب فيما صار إليه ذلك العاصي من العذاب أنه كان لا يؤمن بالله تعالىٰ، وبما أنزله من الآيات الواضحة والحجج المنيرة، ولا يحث علىٰ عمل الخير والبر، ويمنع طعام اليتامىٰ والمساكين، وإعطاءهم.

﴿فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هَاهُنَا حَمِيمٌ۝٣٥ وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ۝٣٦ لَا يَأْكُلُهُ إِلَّا الْخَاطِئُونَ۝٣٧﴾ فلم يعد له في ذلك اليوم صديق ينفعه أو طعام يقتاته، ولا طعام له إلا ما يخرج من الصديد وقيح أهل النار الذي جعله الله تعالىٰ لإطعام أهل جهنم.

﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ۝٣٨ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ۝٣٩ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ۝٤٠ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَا تُؤْمِنُونَ۝٤١ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ۝٤٢ تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ۝٤٣﴾ أقسم الله للمشركين بكل ما يبصرونه ويشاهدونه

في الدنيا من الآيات، وبما لا يبصرونه مما غاب عنهم من خلقه وآياته بأن هذا القرآن الذي يتلوه عليهم محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ كلام جاء به رسول كريم من عند الله تعالى وهو جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ، لا كما تقولون أيها المشركون إنه كلام شاعر وكلام ساحر، فلو أنكم تفكرتم بعقولكم وتدبرتم لعرفتم أنه على خلاف ما تقولون وتدعون، فحجته قائمة فيه ملازمة له.

﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ۝٤٤ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ۝٤٥ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ۝٤٦ فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ۝٤٧﴾ ثم أخبرهم الله سبحانه وتعالى أن محمداً لو افترى ولو شيئاً يسيراً من القرآن لأخذه الله أخذ قوي مقتدر ولعذبه عذاباً شديداً. والوتين: هو الودج، يعني: لَقَطَع رقبه وعذبه، ولما قدر أحد على منعه عنه أو الدفع عنه.

﴿وَإِنَّهُ لَتَذْكِرَةٌ لِلْمُتَّقِينَ۝٤٨﴾ وأخبرهم أن ما جاءهم به من القرآن إنما هو لمصلحتهم ومنفعتهم؛ ليتذكروا بمواعظه، ويعتبروا بقصصه وأخباره، ويتدبروا آياته، ولكنه لا ينتفع به إلا المتقون.

﴿وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنْكُمْ مُكَذِّبِينَ۝٤٩ وَإِنَّهُ لَحَسْرَةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ۝٥٠﴾ ثم أخبر الله سبحانه وتعالى قريشاً بأنهم لن يؤمنوا بالقرآن ولن يصدقوا آياته، وأنه يكون حسرة عليهم يوم القيامة على ما فاتهم من الإيمان به.

﴿وَإِنَّهُ لَحَقُّ الْيَقِينِ۝٥١﴾ وإن آياته كلها حق وصدق لا كذب فيها أو افتراء، ولا تغيير فيها أو تبديل.

﴿فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ۝٥٢﴾ فنزه الله سبحانه وتعالى يا محمد عن الشريك وما ينسبه إليه المشركون من الباطل، واستمر في تبليغ دعوتك وما أمرت به، ولا تبال بتكذيبهم وإعراضهم عنك.

۞۞۞۞۞

سورة المعارج

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ۝١ لِلْكَافِرِينَ لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ ۝٢ مِنَ اللَّهِ ذِي الْمَعَارِجِ ۝٣ تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ۝٤﴾ كان المشركون يستعجلون النبي ﷺ إنزال عذاب الله تعالى بهم الذي يتوعدهم به، وأنه إن كان صادقاً فليأتهم به، وكل ذلك سخرية منهم واستهزاء بمحمد ﷺ، فتحدث الله سبحانه وتعالى عنهم بأنهم يسألون شراً واقعاً بهم لا محالة، ويطلبون عذاباً لا راحة لهم فيه وسينزله الله بهم ولا يملك أحد دفعه عنهم.

ثم وصف نفسه بأنه مالك الأمر يوم القيامة الذي تعرج الملائكة وعلى رأسهم جبريل عليه السلام لتنفيذ أحكام الله في عباده من الحساب والجزاء وغير ذلك، في يوم القيامة الذي سيكون طوله خمسون ألف سنة من سني الدنيا.

﴿فَاصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا ۝٥﴾ فاصبر يا محمد ولا تستعجل نزول العذاب بهم؛ لأنه ﷺ كان يتمنى أن يعجل الله سبحانه وتعالى إنزال عذابه بهم حين طالت مدة أذيتهم وتكذيبهم واستهزائهم به مع ما هم عليه من النعمة والترف والثراء وسعة الأموال، والصبر الجميل أن لا يتشكى منهم أو يبدي التضجر من أذيتهم.

﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا ۝٦ وَنَرَاهُ قَرِيبًا ۝٧﴾ كانوا يستبعدون يوم القيامة، وينكرونه أشد الإنكار بينما هو قريب عند الله سبحانه وتعالى، وكل آت قريب مهما طال الزمن.

﴿يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْمُهْلِ ۝٨ وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ ۝٩ وَلَا يَسْأَلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا ۝١٠﴾ وسيحل موعد القيامة الذي أنكروه حين يختل نظام الكون وتتهاوى أجرام السماء، وترى السماء إذا نظرت إليها كالزيت الذي يغلي، وتكون الجبال كالصوف المتطاير في الهواء، وإذا حلت القيامة انشغل كل واحد بنفسه فلا يلتفت إلى صديقه ولا يكلمه.

﴿يُبَصَّرُونَهُمْ﴾ من شدة الهول فإن الملائكة ستبصر المجرم أخاه وصاحبه، ولكنه لا يلتفت إليه أو ينتبه له من الدهشة التي امتلأ بها، والفزع الذي يعتريه.

﴿يَوَدُّ الْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ۝ وَصَاحِبَتِهِ وَأَخِيهِ۝ وَفَصِيلَتِهِ الَّتِي تُؤْوِيهِ۝ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنْجِيهِ۝﴾ ثم وصف الله سبحانه وتعالى حال المجرمين والعصاة بأنهم سيتمنون ذلك اليوم لو أن الفدية تنفعهم لافتدوا بما عز عليهم من الأموال والأولاد والزوجات، ولو بأهل الأرض لو استطاع أن يفتدي بهم نفسه لما تردد في ذلك من هول ما يرى مما هو مقبل عليه من العذاب.

﴿كَلَّا إِنَّهَا لَظَى۝﴾ يزجر الله تعالى يومئذ المجرمين، ويخبرهم أنه لن ينفعهم فدية يفتدون بها، ولم يبق لهم إلا النار يعذبون فيها.

﴿نَزَّاعَةً لِلشَّوَى۝﴾ والشوى: هي فروة الرأس، يعني تنزع فروة الرأس من شدة لهيبها.

﴿تَدْعُوا مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّى۝﴾ تطلب وتنادي إليها الذين قد أعرضوا في الدنيا عن الله سبحانه وتعالى، وكفروا بأنبيائه ورسله وكذبوا بهم.

﴿وَجَمَعَ فَأَوْعَى۝﴾ وجمع المال في أوعية وكنزها دون أن يخرج ما يجب عليه فيها من الزكاة.

﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا۝ إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا۝ وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا۝ إِلَّا الْمُصَلِّينَ۝ الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ۝ وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ۝ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ۝ وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ۝ وَالَّذِينَ هُمْ مِنْ عَذَابِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ۝ إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ۝﴾ ثم أخبر الله سبحانه وتعالى عن طبيعة الإنسان الكافر بأنه هلوع، ثم فسر الهلوع بأنه الذي إن مسه شر أو نزل به مكروه أصابه اليأس من رحمة الله تعالى، وإن نزل به خير وأسبغ الله سبحانه وتعالى عليه رزقه بخل بما عنده، ومنع الفقراء حقوقهم.

ثم استثنى الله سبحانه وتعالى منهم أولئك الذين يحافظون على أداء ما افترض الله عليهم من الواجبات، ويؤدون زكاة أموالهم، ويصرفونها حيث أمرهم الله سبحانه وتعالى.

والسائل: هو الذي يسأل الناس الصدقة، والمحروم: هو الذي يتعفف عن السؤال.

ومن صفتهم أيضاً أنهم يؤمنون بالغيب، ويصدقون باليوم الآخر، ويخافون عذاب الله تعالى، ولا يزالون متهمين لأنفسهم بالتقصير في حق الله تعالى إلى أن يأتيهم الموت.

﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ﴿٢٩﴾ إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ﴿٣٠﴾ فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ﴿٣١﴾﴾ ومن صفتهم أيضاً أنهم يحفظون فروجهم ولا يضعونها في الحرام، ثم وصف الله سبحانه وتعالى من وضع فرجه في غير ما أباحه له بأنه من المعتدين على حرمه والمتجاوزين لحدوده.

﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ﴿٣٢﴾﴾ والذين يحفظون الأمانة ويصونونها ويوفون بعهودهم ولا ينقضونها بأي وجه.

﴿وَالَّذِينَ هُمْ بِشَهَادَاتِهِمْ قَائِمُونَ﴿٣٣﴾﴾ ويؤدون ما يجب عليهم من الشهادة بالحق.

﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴿٣٤﴾﴾ بدأ الله سبحانه وتعالى في وصفهم بذكر الصلاة وختم أوصافهم بها دلالة على أن لها مزيد أهمية وفضل عنده تعالى.

﴿أُولَئِكَ فِي جَنَّاتٍ مُكْرَمُونَ﴿٣٥﴾﴾ فمن كان على تلك الصفات فقد فاز برضوان الله وثوابه في جنات النعيم.

﴿فَمَالِ الَّذِينَ كَفَرُوا قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ﴿٣٦﴾ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ عِزِينَ﴿٣٧﴾ أَيَطْمَعُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ﴿٣٨﴾﴾ كان المشركون إذا قرأ النبي ﷺ القرآن يسرعون إليه ليستمعوا إلى قراءته ويقفون عن يمينه وشماله جماعات جماعات يستهزئون به ويسخرون منه ومن قراءته، ويظنون في أنفسهم أنهم أهل

الكرامة عند الله وأهل الزلفى لديه، فاستنكر الله تعالى عليهم طمعهم ذلك لكفرهم بالله تعالى ورسوله ﷺ وتكذيبهم بآياته.

﴿كَلَّا إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِمَّا يَعْلَمُونَ﴿٣٩﴾﴾ ثم أجاب الله تعالى عنهم بأن الأمر ليس كما يعتقدون، وأخبرهم أن الناس سواسية عنده قد خلقوا من النطفة، ولا كرامة لأحد على أحد عنده إلا بالتقوى والعمل الصالح.

﴿فَلَا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ إِنَّا لَقَادِرُونَ﴿٤٠﴾ عَلَى أَنْ نُبَدِّلَ خَيْرًا مِنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ﴿٤١﴾﴾ ثم أقسم الله سبحانه وتعالى لأولئك المشركين بأنه قادر على أن يعذبهم ويهلكهم ويأتي بقوم غيرهم، وأخبرهم أنهم لن يستطيعوا أن يفوتوه أو يهربوا من قبضته وقدرته، وأنه سيناهم ويلحق بهم أينما كانوا.

﴿فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ﴿٤٢﴾ يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَى نُصُبٍ يُوفِضُونَ﴿٤٣﴾﴾ فاتركهم يا محمد يخوضوا في غيهم وضلالهم حتى يحين موعد أخذهم وتعذيبهم، وهو يوم يبعثهم الله تعالى من قبورهم مسرعين إلى إجابة داعي الرحمن للحساب والجزاء، لا يلوون على شيء أو يلتفتون إليه، وقد شبه الله تعالى سرعة إجابتهم بحال جماعة قد نصبوا لهم نصباً وتسابقوا على الجري إليه، كل منهم يريد أن يكون هو الأول.

﴿خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ذَلِكَ الْيَوْمُ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ﴿٤٤﴾﴾ ثم وصف الله سبحانه وتعالى حالهم وقت مبعثهم إلى الحساب والجزاء بأنهم يبعثون وعليهم الذلة والخزي، وعليهم الخوف والجزع، ويستولي عليهم الذهول والحيرة.



سورة نوح

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ۝١﴾ أوحى الله سبحانه وتعالى إلى نبيه ﷺ قصة نوح عليه السلام مع قومه لما فيها من العظة والعبرة لقومه من قريش لعلهم يعتبرون بما جرى عليهم فيرتدعوا عن كفرهم وضلالهم، وليتسلى النبي ﷺ عما هو فيه من تكذيب قومه وأذاهم؛ فأخبره أنه قد أرسل إليهم نوحاً عليه السلام، وأمره أن ينذرهم وأن يحذرهم من تماديهم في الكفر والطغيان والفساد، ويخبرهم أنه قد أوشك أن يحل بهم عذاب الله تعالى وسخطه عليهم إن لم يقلعوا عما هم عليه.

﴿قَالَ يَاقَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ۝٢ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ۝٣ يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ۝٤﴾ فدعا قومه إلى الإيمان بالله تعالى وإلى عبادته، وترك عبادة ما دونه من الآلهة التي ينحتونها بأيديهم، وأمرهم أن يتقوا الله تعالى ويتقوا عذابه وسخطه أن يحل بهم.

وأخبرهم أنهم إن أطاعوه واتقوه فإنه سيغفر لهم ما قد سلف من شركهم وسيئاتهم، وسيرفع عنهم العذاب الذي قد استحقوه وقد أوشك أن يحل بهم ويقطع آجالهم، وأنه سيؤخرهم إلى أن يستوفي كل منهم أجله الذي كتبه الله تعالى له، وأخبرهم بأن يحذروا نزول عذاب الله تعالى بهم؛ لأنه إن نزل بهم فلا راد له ولا مفر لهم منه.

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا۝٥ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَارًا۝٦ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي ءَاذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا۝٧ ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا۝٨ ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا۝٩﴾ وقد حاول نوح عليه السلام فيهم وتحيل في إدخال الإيمان إلى

قلوبهم، ودخل عليهم من كل الطرق، وجرب فيهم كل الوسائل فدعاهم جماعات وأفراداً، وسراً وعلانية، ولكنهم لم يزدادوا مع ذلك إلا طغياناً وتمرداً وابتعاداً عن الله تعالىٰ، ثم في الأخير شكاهم إلىٰ الله تعالىٰ، وشكا إليه إصرارهم الشديد وتمردهم عليه.

﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا۝١٠ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا۝١١ وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا۝١٢﴾ وشكا إلىٰ الله سبحانه وتعالىٰ حالهم، وأنه كان يدعوهم إلىٰ الله سبحانه وتعالىٰ ويرغبهم بأنهم إن استغفروه ورجعوا إليه فإنه سيغفر لهم ويقبلهم، وسيسبغ عليهم نعمه، وسينزل عليهم بركات السماء، وسيخرج لهم خيرات الأرض، وسيمدهم بالأموال من الذهب والفضة، وسيرزقهم الأولاد الصالحين، وسيصلح أراضيهم وبلادهم.

﴿مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا۝١٣ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا۝١٤﴾ وكان يستنكر عليهم عدم مبالاتهم بالله تعالىٰ، وعدم إعطائه ما يستحقه من الإجلال والتعظيم وهم يعرفون أنه الذي خلقهم أطواراً، يعني: علىٰ مراحل متعددة من النطفة، ثم من العلقة، ثم من المضغة، وهكذا إلىٰ أن يصير بشراً سوياً.

﴿أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا۝١٥ وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا۝١٦﴾ ويستنكر عليهم لماذا لا ينظرون ويتفكرون فيما حولهم من السماوات؟ ومن الذي قدر علىٰ ذلك الخلق العظيم وأحكمها علىٰ ذلك الإحكام؟ ومن الذي زينها بالشمس الوهاجة والأقمار المنيرة؟ ألا يدل ذلك علىٰ إله واحد، ومدبر حكيم وقادر؟ وأليس يستحق من كان كذلك أن يخص بالعبادة وحده؟

﴿وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا۝١٧ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا۝١٨﴾ وأخبرهم بأن الله سبحانه وتعالىٰ هو الذي خلقهم وجعل أصلهم من التراب بقدرته، وأنه الذي سيميتهم ثم يبعثهم بعد ذلك للحساب والجزاء.

﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِسَاطًا۝١٩ لِتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا۝٢٠﴾ وأن الله سبحانه وتعالىٰ هو الذي مهد لهم هذه الأرض، وجعلها صالحة لسكناهم ومعيشتهم علىٰ ظهرها، وهو الذي شق لهم الطرق بين جبالها ليسهل لهم التنقل في أرجائها.

يذكرهم نوح عليه السلام بنعم الله تعالىٰ عليهم، ويطلعهم علىٰ آثار رحمته بهم لعلهم يرجعون إليه ويتركون ما هم عليه من الشرك وعبادة الأصنام.

﴿قَالَ نُوحٌ رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَنْ لَمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا۝٢١﴾ ولكنهم علىٰ الرغم من كل ذلك لا زالوا علىٰ عصيانهم وتمردهم لا ينفكون عنه، ولا زالوا معرضين عنه واختاروا اتباع كبارهم ومشائخهم أهل الأموال الطائلة والأولاد.

﴿وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا۝٢٢ وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا۝٢٣﴾ وشكا إلىٰ الله سبحانه وتعالىٰ مكرهم به وتدبيرهم الحيل والمكائد للتخلص منه، وطمس ما جاءهم به من الدين والهدىٰ، وعكوفهم علىٰ آلهتهم وتظاهرهم عليها، وكانت أسماؤها: وداً وسواعاً ويغوث ويعوق ونسراً.

﴿وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا﴾ أراد نوح عليه السلام أن أشراف قومه وكبراءهم قد أضلوا بقية القوم وأغووهم عن اتباعه، وعن الإيمان به.

﴿وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا۝٢٤﴾ ثم دعا نوح عليه السلام ربه أن يحكم بينه وبينهم، وأن ينتقم له منهم، وأن يسلب عنهم توفيقه ولطفه.

﴿مِمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْصَارًا۝٢٥﴾ ثم ذكر الله سبحانه وتعالىٰ قريشاً بأنه قد عذب قوم نوح وأغرقهم بسبب كفرهم وتكذيبهم وتمردهم، وأنه سيعذبهم بعد ذلك في نار جهنم خالدين فيها أبداً.

﴿وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا۝٢٦ إِنَّكَ إِنْ تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا۝٢٧﴾ ودعا الله سبحانه وتعالى أن يهلكهم ويستأصلهم عن بكرة أبيهم، وأن لا يترك على الأرض منهم أحداً؛ لأنهم أهل ضلال وإضلال، وأن أولادهم سيكونون على دينهم وباطلهم وضلالهم، ولا يلد لهم ولد إلا كان مثلهم في الكفر والفجور.

﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا تَبَارًا۝٢٨﴾ ثم دعا الله سبحانه وتعالى له ولوالديه ولمن اتبعه وآمن به أن يشملهم برحمته ومغفرته، وأن يهلك الظالمين ويدمرهم ويزيدهم خساراً وخذلاناً.

وقد أراد بقوله: ﴿وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا﴾ من اتبعه وآمن به.

❁❁❁❁❁

سورة الجن

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا۝١ يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا۝٢﴾ حضر نف من الجن مجلساً للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ فسمعوه يقرأ القرآن، فتعجبوا مما سمعوا، وعرفوا أن هذا الكلام ليس من كلام البشر، وآمنوا به وصدقوه، فأوحى الله سبحانه وتعالى إلى نبيه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ يخبره بأمرهم وما كان منهم، وأنهم عادوا إلى قومهم بعد سماع القرآن يحذرونهم، ويخبرونهم بما رأوه وما سمعوه من القرآن، وأنهم قد آمنوا به وصدقوه.

﴿وَأَنَّهُ تَعَالَى جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا۝٣ وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى اللَّهِ شَطَطًا۝٤﴾ وأخبروهم أنه تعالى مقام ربنا وعظمته، وتنزه عن اتخاذ الصاحبة والأولاد وتعالى عن كل ما ينسبونه إليه من النقص وصفات المخلوقين.

﴿وَأَنَّا ظَنَنَّا أَنْ لَنْ تَقُولَ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا۝٥﴾ وأخبروهم أنهم كانوا يظنون أن أحداً لن يجرؤ أن يكذب على الله سبحانه وتعالىٰ، وينسب إليه ما لا يليق به، حتىٰ سمعوا ما سمعوا من القرآن فإذا الجن والإنس يفترون على الله تعالىٰ الكذب، وينسبون إليه ما لا يليق به من صفات النقص.

﴿وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الْإِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا۝٦﴾ ثم أخبروا قومهم عن سبب زيادة طغيان الجن وتكبرهم وتعاظمهم في أنفسهم أنه كان رجال من الإنس يستعيذون ويستجيرون بهم، ويقال: إن المشركين كانوا إذا مروا علىٰ وادٍ قالوا: نستجير برب هذا الوادي من شر صغاره، يريدون برب الوادي كبير الجن وزعيمهم في ذلك الوادي.

﴿وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا كَمَا ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ أَحَدًا۝٧﴾ وهذا من كلام الجن الذين أسلموا ، فقالوا: إن مشركي الجن يظنون مثل ما يظن مشركو الإنس أن لا بعث ولا حساب، ويستبعدون ذلك أشد الاستبعاد.

﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا۝٨ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَنْ يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَصَدًا۝٩﴾ وأخبروا أنهم صعدوا إلىٰ السماء فلم يستطيعوا أن يصلوا إلىٰ الملأ الأعلىٰ ليستمعوا إليهم لما جعل الله سبحانه وتعالىٰ عليها من الحراسة المشددة بالشهب والملائكة، وتعجبوا من ذلك الحدث؛ إذ كانوا من قبل لا يجدون شيئاً من ذلك عندما يصعدون إلىٰ السماء ليستمعوا ما يدور بين الملائكة في الملأ الأعلىٰ.

﴿وَأَنَّا لَا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَنْ فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا۝١٠﴾

وأخبروا أنهم تعجبوا من ذلك وتساءلوا عن السبب وراء ذلك، هل أراد الله سبحانه وتعالىٰ بذلك الخير لأهل الأرض، أم أراد بهم الشر؟

ولكنهم عندما سمعوا النبي ﷺ يتلوا القرآن عرفوا السر وراء ذلك، وأن الله سبحانه وتعالىٰ قد أراد بذلك الخير لأهل الأرض.

ولم يمنعهم الله سبحانه وتعالى من استراق السمع إلا حين بعث محمداً ﷺ.

﴿وَأَنَّا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَلِكَ كُنَّا طَرَائِقَ قِدَدًا۝١١﴾ وأخبروا أنهم مثل الإنس فيهم الصالحون وفيهم الطالحون، وأنهم قد افترقوا واختلفوا إلى مذاهب متعددة وفرق شتى.

﴿وَأَنَّا ظَنَنَّا أَنْ لَنْ نُعجِزَ اللَّهَ فِي الْأَرْضِ وَلَنْ نُعْجِزَهُ هَرَبًا۝١٢﴾ وأخبروا أنهم قد تيقنوا وعرفوا أنهم لن يستطيعوا أن يفروا من قدرة الله سبحانه وتعالى عليهم وقبضته، وأنه لا بد أن يلحقهم مهما حاولوا الفرار والهروب.

﴿وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا الْهُدَى ءَامَنَّا بِهِ فَمَنْ يُؤْمِنْ بِرَبِّهِ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا۝١٣﴾ وأنهم قد آمنوا بالله سبحانه وتعالى وصدقوا بما سمعوه من القرآن على لسان نبيه ﷺ، وأن من آمن بالله تعالى وصدق بأنبيائه وكتبه وعمل الأعمال الصالحة فلا بد أن يوفيه أجره وثوابه، ولن ينقصه أو يهضمه من أجره شيئاً.

﴿وَأَنَّا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولَئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا۝١٤ وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا۝١٥﴾ وأخبروا أنهم مثل البشر فيهم المسلمون المنقادون لله تعالى، وفيهم الكافرون الجائرون عن طريق الحق والهدى، وأن من انقاد لله تعالى واستسلم له فقد أحسن لنفسه الاختيار وأصاب طريق الحق والهدى، وأما من لم ينقد لله تعالى، ولم يستسلم له فسوف يجعلهم الله تعالى وقوداً لجهنم وحطباً.

﴿وَأَنْ لَوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُمْ مَاءً غَدَقًا۝١٦ لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَمَنْ يُعْرِضْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا۝١٧﴾ ثم أخبر الله سبحانه وتعالى عباده فقال: لو أن عباده استقاموا على الدين الحق وساروا على الطريق المستقيم لأسبغ عليهم رزقه، ولأنزل عليهم بركات السماء، ولأغناهم ومتعهم من فضله وإحسانه.

ثم أخبرهم أنه قد جعل ما ينزله من الخير على عباده فتنة لهم واختباراً لينظر من سيؤدي حق شكر نعمته ومن سيكفرها، ثم تهدد من كفر بنعمه عليه بالعذاب الشديد في نار جهنم.

وفيها جبل من نار يعذب الله سبحانه وتعالىٰ بصعوده المعرضين عن ذكره، كلما وضع قدمه عليه ذابت من شدة حرارته، وهكذا كلما أوشك علىٰ مشارفته رده الله تعالىٰ من حيث بدأ.

﴿وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴿١٨﴾﴾ ثم أخبر الله سبحانه وتعالىٰ أن المساجد له وحده، لا يعبد فيها سواه، ويحتمل أن يكون المعنىٰ أن السجود لا ينبغي أن يكون إلا له وحده خالصاً، ولا يشركوا في عبادتهم غيره.

﴿وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا﴿١٩﴾ قُلْ إِنَّمَا أَدْعُو رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِهِ أَحَدًا﴿٢٠﴾ قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا﴿٢١﴾ قُلْ إِنِّي لَنْ يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا﴿٢٢﴾ إِلَّا بَلَاغًا مِنَ اللَّهِ وَرِسَالَاتِهِ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴿٢٣﴾﴾ استنكر المشركون علىٰ النبي ﷺ عندما قام يدعوهم إلىٰ عبادة الله سبحانه وتعالىٰ وحده، وعدم الشرك به، واجتمعوا عنده وتزاحموا عليه.

ومعنىٰ ﴿لِبَدًا﴾: تراكموا وتزاحموا علىٰ النبي ﷺ متعجبين مما يدعوهم إليه، وتجمعهم ذلك حوله إنما هو تجمع استنكار واستهزاء وكفر وتكذيب، فأمر الله سبحانه وتعالىٰ نبيه ﷺ أن يقول لهم: إني لم آتكم بمنكر إنما أعبد ربي الذي خلقني ورزقني وحده لا أشرك معه في العبادة أحداً، وليس بقدرتي أن أدخلكم في الهدىٰ أو في الضلال، وقد كلفني ربي بإبلاغ رسالاته إليكم وأوجب ذلك علي وحتمه ولن يدفع عني عذاب الله أحد إن أنا عصيته، ولن أجد لي ملجأً أهرب إليه وأختفي فيه من عذاب الله، وسلامتي من عذاب الله هي في تبليغي لرسالات الله وتنفيذ أمره، فأنا رسول الله إليكم، ومن يعص الله ورسوله فإن له نار جهنم خالدين فيها أبداً.

﴿حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضْعَفُ نَاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا﴿٢٤﴾﴾ استكبر المشركون عن الإيمان برسالة محمد ﷺ واستنكفوا من اتباعه،

واستنكروا كيف يتبعونه وهم أهل الكثرة والمال والجاه والقوة، فأخبرهم الله سبحانه وتعالى أنهم سيعلمون من الضعيف، ومن هو القوي عندما يرون عذاب الله سبحانه وتعالى نازلاً بهم، فسيعلمون حينئذ أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم هو الأقوى منهم، وأنهم أذلاء قليلون مستضعفون.

﴿قُلْ إِنْ أَدْرِي أَقَرِيبٌ مَا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُ رَبِّي أَمَدًا۝٢٥ عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا۝٢٦ إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا۝٢٧ لِيَعْلَمَ أَنْ قَدْ أَبْلَغُوا رِسَالَاتِ رَبِّهِمْ﴾ وكانوا يستنكرون على النبي صلى الله عليه وآله وسلم عندما كان يتوعدهم بنزول عذاب الله تعالى بهم، ويستبعدون ذلك أشد الاستبعاد، ويطلبون منه أن يأتيهم به إن كان صادقاً وأن يعجل نزوله بهم، فأمره الله سبحانه وتعالى أن يجيبهم بأنه لا يعلم موعد نزوله بهم، وأن علم ذلك عند الله تعالى، وأنه من الأمور الغيبية التي استأثر الله تعالى بعلمها وحده لا يخبر أحداً بها إلا من أراد أن يطلعه على شيء منها من نبي مرسل فإنه يوحي إليه برسالة يبلغها إلى الناس، وأنه تعالى يوكل بهذا المبلغ حفظة يحفظونه -من ملائكته- ويحرسونه حتى يبلغ رسالته هذه عن الله سبحانه وتعالى.

﴿وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَى كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا۝٢٨﴾ وأن الله سبحانه وتعالى قد أحاط علمه بكل شيء، وأحصى عدد كل شيء ومقداره صغيراً كان أم كبيراً، فرسالات الله تعالى محفوظة من الجن والإنس حتى يبلغها رسل الله عليهم السلام إلى الناس.



سورة المزمل

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿يَاأَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ ۝١ قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ۝٢﴾ كان النبي ﷺ مشتملاً بثوبه ونائماً فنزل عليه جبريل عليه السلام يأمره بأن يترك النوم، وأن يقوم لعبادة ربه.

﴿نِصْفَهُ أَوِ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ۝٣ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا ۝٤﴾ وخير الله نبيه ﷺ بين أن يقوم ثلث الليل أو ثلثيه أو نصفه بتعبد الله تعالى بالصلاة يرتل فيها القرآن ترتيلاً، وكان هذا في مكة قبل أن يهاجر النبي ﷺ إلى المدينة وقد رفع الله تعالى هذا التكليف ونسخه.

﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ۝٥﴾ ثم أوحى الله سبحانه وتعالى إليه بأنه سيوحي إليه آيات القرآن، وكون القرآن ثقيلاً لما فيه من التكاليف على العباد، وعلى النبي ﷺ من حيث أن الله كلفه أن يبلغ القرآن قريشاً وهم أهل جبروت وقسوة وتكبر.

﴿إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلًا ۝٦ إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا ۝٧﴾ وأخبره بأنه قد كلفه الصلاة في ذلك الوقت من الليل لما لها من التأثير والوقع في النفس مما يجعل المصلي أقرب إلى الله سبحانه وتعالى، ولما يلحق النبي ﷺ في النهار من المشاغل والنظر في شؤونه وشؤون المسلمين.

﴿وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا ۝٨ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا ۝٩﴾ وانقطع إلى الله سبحانه وتعالى وأكثر من ذكره في ساعات الليل.

ومعنى «تَبَتَّلْ»: انقطعْ إلى الله تعالى بالدعاء والتضرع والتقرب والذكر والصلاة.

﴿وَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ﴾ وأمره الله سبحانه وتعالى أن يصبر على ما يلحقه من قومه من الأذى والتكذيب والسخرية والاستهزاء، وأن لا يؤاخذهم أو يرد عليهم؛ لئلا يتسبب في تنفيرهم عنه وليجلبهم إلى الإسلام.

﴿وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا ۝١٠﴾ وابتعد عنهم من دون أن يحسوا بذلك، أو يلمسوا أي عداوة منك لهم.

﴿وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا ۝١١﴾ واترك لي أولئك المكذبين وخل بيني وبينهم فما هي إلا مدة قصيرة يتنعمون ويتمتعون في الدنيا ثم آخذهم وأعاقبهم وأنتقم لك منهم شر انتقام.

وأولو النعمة: هم المترفون الذين أنعم الله سبحانه وتعالى عليهم ومتعهم بالغنى والأموال، والصحة والعافية، والقوة والأمن في الدنيا ثم كفروا نعمة الله وكذبوا بآرائه ورسله.

﴿إِنَّ لَدَيْنَا أَنْكَالًا وَجَحِيمًا ۝١٢ وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا ۝١٣﴾ وأخبر الله سبحانه وتعالى نبيه ﷺ بأنه قد أعد لهم قيوداً من نار في جهنم يسحبون وهم مقيدون على وجوههم في وسط جهنم وناراً غليظة، ولا طعام لهم فيها إلا من شجر الزقوم الذي يغلي في البطون كغلي الحميم وعذاباً أليماً.

﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَثِيبًا مَهِيلًا ۝١٤﴾ وميعاد تعذيبهم ذلك سيكون في يوم القيامة عندما تصير الجبال رمياً.

﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَاهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَى فِرْعَوْنَ رَسُولًا ۝١٥ فَعَصَى فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ فَأَخَذْنَاهُ أَخْذًا وَبِيلًا ۝١٦﴾ ثم وجه الله سبحانه وتعالى خطابه إلى المكلفين من عباده يخبرهم بأنه قد أعذرهم وأنذرهم وبلغهم الحجة على لسان نبيهم محمد ﷺ الذي أرسله إليهم بالهدى ودين الحق، وليكون شاهداً على من كذب منهم، وأعرض عن دعوته فلا يكون له أي عذر عند الله تعالى يوم القيامة، و سيعاقبه ويعذبه في الدنيا جزاءً على كفره وتكذيبه كما عذب فرعون بالغرق عندما أعرض عن دعوة موسى وكذب به.

﴿فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِنْ كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا ۝١٧﴾ أخبروني إن كفرتم كيف تقدرون أن تدفعوا عن أنفسكم عذاب الله تعالى يوم القيامة، فالأولى بكم أن تأخذوا بأسباب النجاة ما دمتم في المهلة، وما دامت الفرصة سانحة.

وقوله: ﴿يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا﴾ كناية عن شدة هول ذلك اليوم، وما يكون فيه من الأفزاع.

﴿السَّمَاءُ مُنْفَطِرٌ بِهِ كَانَ وَعْدُهُ مَفْعُولًا ﴿١٨﴾﴾ وأخبرهم أن السماء ستلد بذلك اليوم المهول وستنشق عنه، ثم يخرج عليكم يوم الفزع من خلالها، من حيث لا تشعرون ولا تحتسبون، ووعد الله كائن لا محالة لا مفر منه.

﴿إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ﴾ أن هذه الآيات التي أنزلها الله تعالىٰ في هذه السورة تذكرة إن أرادوا أن يتذكروا ويتعظوا، ويتركوا ما هم عليه من الكفر والطغيان والتكبر.

﴿فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلًا ﴿١٩﴾﴾ فمن أراد أن ينجي نفسه ويختار لها طريق النجاة بمحض إرادته واختياره فقد أحسن الاختيار لنفسه.

﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَى مِنْ ثُلُثَيِ اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ وَطَائِفَةٌ مِنَ الَّذِينَ مَعَكَ وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ عَلِمَ أَنْ لَنْ تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْءَانِ عَلِمَ أَنْ سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَرْضَى وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَءَاخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَءَاتُوا الزَّكَاةَ وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ ثم رجع الله سبحانه وتعالىٰ إلىٰ خطاب نبيه ﷺ فأخبره أنه قد علم بامتثاله لأمره فيما شرعه من قيام الليل هو والطائفة المؤمنة معه، وعلم أنهم أدوا ذلك كما أمرهم من الثلثين إلىٰ النصف إلىٰ الثلث.

وأخبرهم أنه يتعسر عليهم أداء هذه العبادة التي افترضها عليهم، فخفف عنهم ونسخ هذه الفريضة إلىٰ ما استطاعوا فعله من الصلوات الخمس لما علم من ضعف عباده وانشغالهم عن أدائها بالسعي وراء أرزاقهم، وانشغالهم بالجهاد في سبيله.

ثم أمرهم أن يحافظوا علىٰ تلك الصلوات التي افترضها عليهم، وأن يخرجوا ما يجب عليهم من الزكاة في أموالهم حيث أمرهم، وأن ينفقوا شيئاً منها في سبيل الله تعالىٰ ونشر دينه.

﴿وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ۝٢٠﴾ ثم أخبرهم أن كل ما يقدمونه من خير أو عمل بر فإنهم لا بد أن يجدوا ثوابه، ولا بد أن يجازيهم عليه أضعافاً مضاعفة، ثم بعد ذلك أمرهم أن يداوموا على الاستغفار لما جبلوا عليه من الخطأ والغفلة والنسيان، فلا بد أن تقع منهم الزلات والهفوات، وأن يقع منهم تقصير وتفريط، فأمرهم بذلك ليتداركوا بالاستغفار ما فرط منهم من التقصير والغفلة.

❁❁❁❁❁

سورة المدثر

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿يَاأَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ۝١ قُمْ فَأَنْذِرْ۝٢﴾ قيل: إن أول سورة نزلت في القرآن هي سورة المدثر، وفي رواية إنها سورة العلق، وفي رواية أنها سورة الفاتحة.

وقد نزل جبريل عليه السلام على النبي صلى الله عليه وآله وسلم وهو حينها مشتمل بثيابه فأمره بأمر من الله سبحانه وتعالى بالقيام والنهوض لإنذار قومه فقد حان وقت ذلك، وأن يبلغهم رسالة ربهم، ويحذرهم نزول عذابه بهم إن لم يقلعوا عن شركهم وضلالهم.

﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ۝٣﴾ وأمره أيضاً أن يخص الله سبحانه وتعالى وحده بالتعظيم والتكبير، لأنه وحده الذي يستحق ذلك الإجلال والتعظيم.

﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ۝٤ وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ۝٥﴾ نزه نفسك عن أقذار الشرك والجاهلية؛ أراد بذلك الطهارة المعنوية من الذنوب وأوساخ الجاهلية. والرجز هو أرجاس الجاهلية التي هم عليها من عبادة الأصنام والاستقسام بالأزلام و..إلخ.

﴿وَلَا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ۝٦﴾ ونهاه أيضاً عن المن عند إخراج شيء من ماله، وأن لا يعطي شيئاً يبتغي به الكثرة والعوض عليه.

﴿وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ۝٧﴾ وأنذر قومك وبلغهم واصبر على ما أصابك في سبيل ذلك، وأحتسب أجرك عند الله تعالى.

﴿فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ۝٨ فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ۝٩ عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ۝١٠﴾ وأخبره أيضاً أن الله سبحانه وتعالىٰ إذا أذن بقيام القيامة فإن ذلك سيشتد علىٰ الكافرين لما ينتظرهم في ذلك اليوم من الأهوال والأفزاع.

والناقور: مثل ضربه الله سبحانه وتعالىٰ لأوان ذلك الموعد، وأما في الحقيقة فهو غير محتاج إلىٰ بوق ليؤذن الناس بالحشر والاجتماع، فهو قادر علىٰ أن يجمعهم من غير أن يؤذنهم بتطبيل أو تنقيس بناقوس، ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ۝٨٢﴾ [يس]، ﴿وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ۝٥٠﴾ [القمر].

﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا۝١١ وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَمْدُودًا۝١٢ وَبَنِينَ شُهُودًا۝١٣ وَمَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيدًا۝١٤﴾ يطمئن الله سبحانه وتعالىٰ نبيه ﷺ ويسليه بأنه سيتولىٰ عقاب ذلك الرجل الذي وقف في وجه دعوته، وكذب به وتمرد عليه، وحاول إلحاق الأذىٰ به، وذلك الرجل هو الوليد بن المغيرة المخزومي، فقد خلقه الله سبحانه وتعالىٰ وحيداً لا يملك شيئاً من المال ولا الجاه ولا السلطان، ثم أمده بالمال والغنىٰ والثروة، ورزقه بالأولاد، وجمع شملهم حوله، وهو الذي مهد له وأعطاه الجاه والسلطة وجعله من أشراف مكة وعظمائها حتىٰ رشحه أهل مكة للنبوة، وذلك عندما اعترضوا علىٰ الله سبحانه وتعالىٰ وضعها في محمد ﷺ، واقترحوا علىٰ الله تعالىٰ أن يضعها في رجل من القريتين إن أراد أن يؤمنوا ويصدقوا إما الوليد بن المغيرة هذا، وإما رجل آخر من كبار ثقيف.

﴿ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ۝١٥ كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدًا۝١٦﴾ ولا زال بعد كل ذلك طامعاً في زيادة المال والثراء والأولاد، فرد الله سبحانه وتعالىٰ عليه بالزجر وأنه لن يزيده علىٰ ما معه شيئاً لعناده وتمرده علىٰ الله تعالىٰ.

﴿سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا۝١٧﴾ ثم أخبر الله سبحانه وتعالىٰ أنه سيعذبه بالصعود في جبل من نار في جهنم خالداً في ذلك العذاب مخلداً.

﴿إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ۝١٨ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ۝١٩ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ۝٢٠ ثُمَّ نَظَرَ۝٢١ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ۝٢٢ ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ۝٢٣ فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ۝٢٤ إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ۝٢٥﴾ اجتمع زعماء قريش ووجهاءهم في شأن محمد صلى الله عليه وآله وسلم كيف يبطلون دعوته، ويخذلون الناس عنه، وكان الوليد هذا كبيرهم وزعيمهم، فقال ناس منهم: سنتحدث للناس بأنه ساحر، فأشار عليهم الوليد بأنهم قد عرفوا السحر وتمتمة السحرة ولن يصدق الناس مثل ذلك فيه، فأشار أناس منهم بأن يتحدثوا لهم بأنه شاعر: فأجابهم بأنهم قد عرفوا الشعر وأنواعه ولن يصدقوا فيه ذلك، فأشار ناس منهم بأن يقولون عنه بأنه مجنون، فرد عليهم بأن الجنون معروف، والناس يعرفون المجانين وحديثهم ولن يصدق في ذلك أحد، فطلبوا منه أن يشير عليهم فيه، فأخبر الله سبحانه وتعالى أن الوليد فكر في نفسه وأمعن في التفكير، فلعنه الله على ذلك التفكير، وأخبر أنه نظر في الأمر وأمعن في النظر حتى ظهر العبوس والتغير على وجهه عندما عرف أنه لن يجد مدخلاً على محمد صلى الله عليه وآله وسلم وإبطال دعوته، واستكبر أن يعترف له بالحق والصدق، فأشار عليهم بعد طول التفكير والتقدير بأن أمثل وأحسن ما يمكن أن يقولوا عما جاء به النبي صلى الله عليه وآله وسلم من القرآن: إنه سحر رواه عن قدماء السحرة وعلمائهم السابقين، وأن ما جاء به سحر قديم.

وكان قد قال لهم في بداية الأمر عن وصف ما سمعه من كلام محمد صلى الله عليه وآله وسلم: إن له لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإن أسفله لمغدق، وإن أعلاه لمورق، وإنه يعلو ولا يعلا عليه، وأنه ليس من قول البشر، وأنه كلام خالق القوى والقدر.

ثم أخبرهم بعد ذلك أن أمثل ما يمكن أن يقال عنه: إنه سحر يؤثر، وأن ما جاء به سحر قديم رواه وتعلمه عن علماء السحرة، وكل ذلك بعد أن اعترف لهم بأنه ليس من كلام البشر، وأنه من كلام خالق القوى والقُدَر.

﴿سَأُصْلِيهِ سَقَرَ۝٢٦ وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ۝٢٧ لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ۝٢٨ لَوَّاحَةٌ لِلْبَشَرِ۝٢٩﴾ فتوعده الله سبحانه وتعالى بأنه سيحرقه في نار جهنم، وفي الاستفهام عنها معنى التفخيم والتهويل، نارٌ لا تتصور شدتها وأليم حرارتها.

ومعنى ﴿لَوَّاحَةٌ لِلْبَشَرِ﴾: تشوي اللحم وينضجه.

﴿عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ۝٣٠﴾ ثم أخبر الله سبحانه وتعالى أنه قد وكل على القيام بأعمال جهنم وتعذيب أهلها تسعة عشر صنفاً من الملائكة، ويحتمل تسعة عشر ملكاً.

﴿وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ ثم أخبر الله سبحانه وتعالى أن في تصريحه بهذا العدد فتنة للكافرين واختباراً لهم، وفعلاً فحين سمع الوليد بن المغيرة هذا الكلام وهذا العدد ضحك منه استهزاءً وسخرية وقال لزعماء قريش: اكفوني اثنين وأنا سأكفيكم سبعة عشر، وكان للوليد من الولد سبعة عشر ولداً ذكراً.

﴿لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَيَزْدَادَ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِيمَانًا وَلَا يَرْتَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾ وأيضاً ذكر الله سبحانه وتعالى عددهم ليزداد يقين اليهود والنصارى، وليعرفوا أن القرآن الذي جاء به محمد صلى الله عليه وآله وسلم حق وصدق؛ لأنه مطابق لما جاء في كتبهم، وكذلك المؤمنون سيزدادون يقيناً إلى يقينهم، وسيزيدهم الله سبحانه وتعالى ثواباً على إيمانهم وتصديقهم بما أخبرهم به ربهم.

﴿وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا﴾ وأما أولئك الذين ملأ النفاق قلوبهم والكافرون فسيزيد ذلك من حقدهم وغيظهم على النبي صلى الله عليه وآله وسلم، ويزيد من كفرهم وتكذيبهم.

﴿كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ ثم أخبر الله سبحانه وتعالى أنه بسبب هذه الآية وهذا المثل قد ضل ناسٌ وازدادوا بذلك ضلالا إلى ضلالهم، وقد اهتدى بسببها أناسٌ آخرون وازدادوا إيماناً إلى إيمانهم.

﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ فهو وحده المحيط بهم، والعالم بعددهم.

﴿وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرَى لِلْبَشَرِ۝٣١﴾ وهذه السورة إنما جعلها الله تعالى عظة وعبرة ليتذكر بآياتها من أراد أن يتذكر من البشر.

﴿كَلَّا وَالْقَمَرِ۝٣٢ وَاللَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ۝٣٣ وَالصُّبْحِ إِذَا أَسْفَرَ۝٣٤﴾ ثم أقسم الله سبحانه وتعالىٰ بآياته هذه ليبعث عباده علىٰ النظر والتفكر فيها، ولينظروا في آية الليل كيف يدبر ويحل مكانه ضوء النهار، ولينظروا كيف يسطع نور الفجر ويبرز من بين ظلمة الليل.

﴿إِنَّهَا لَإِحْدَى الْكُبَرِ۝٣٥ نَذِيرًا لِلْبَشَرِ۝٣٦ لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ۝٣٧ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ۝٣٨﴾ أقسم الله سبحانه وتعالىٰ أن آيات هذه السورة من أعظم آياته ومواعظه لعباده، وبعد أن أنذرهم الله سبحانه وتعالىٰ بهذه الآيات أخبرهم أنهم موكولون إلىٰ اختيارهم ومشيئتهم في اختيار أي الطريقين أرادوا، وفي هذا ما ينبئ عن التهديد كقولك لشخص بعد إعذاره وإنذاره: أنت حر فافعل ما شئت فقد أعذرتك وأنذرتك، وستتحمل وزرك علىٰ ظهرك.

﴿إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ۝٣٩ فِي جَنَّاتٍ يَتَسَاءَلُونَ۝٤٠ عَنِ الْمُجْرِمِينَ۝٤١ مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ۝٤٢ قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ۝٤٣ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ۝٤٤ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ۝٤٥ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ۝٤٦ حَتَّى أَتَانَا الْيَقِينُ۝٤٧﴾ ثم استثنىٰ الله سبحانه وتعالىٰ عباده المتقين، فليسوا مرهونين بأعمالهم السيئة بل قد أعد الله سبحانه وتعالىٰ لهم جنات النعيم، ثم أخبر عن حالهم في الجنة بأنهم سيجتمعون فيها مع أصدقائهم وإخوانهم يتساءلون فيما بينهم عما صار إليه المجرمون من العذاب في جهنم، وأنهم سيسألون المجرمين عن سبب دخولهم جهنم؟ فيجيبونهم بأنهم كانوا لا يؤدون ما افترض الله تعالىٰ عليهم من الصلاة والزكاة، وكانوا يخوضون في الباطل والاستهزاء والتكذيب بالنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ وبآيات الله تعالىٰ، وإذا رأوا لغواً وباطلاً فإنهم لا ينكرون ذلك بل يخوضون معهم في باطلهم وغيهم، وكانوا ينكرون البعث والحساب حتىٰ ماتوا علىٰ طريقتهم هذه.

﴿فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ﴿٤٨﴾﴾ ثم أخبر الله سبحانه وتعالىٰ أن من مات مصراً علىٰ الضلال والباطل فقد استحق العذاب ودخول النار، ولن ينفعه أي صديق أو شفيع، أو يدفع عنه.

﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ﴿٤٩﴾ كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُسْتَنْفِرَةٌ﴿٥٠﴾ فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ﴿٥١﴾﴾ ثم استنكر الله سبحانه وتعالىٰ علىٰ قريش إعراضهم عن كل ما يذكرهم به النبي ﷺ من آيات الله تعالىٰ ويهربون منه وينفرون عنه كما تهرب الحمير وتنفر عندما ترىٰ الأسد.

﴿بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُؤْتَى صُحُفًا مُنَشَّرَةً﴿٥٢﴾﴾ ثم أخبر الله سبحانه وتعالىٰ عن قريش بأنهم أهل كبر وعناد شديد، وأهل استعلاء وترفع علىٰ الناس حتىٰ أن كل شخص منهم يريد أن يأتيه الله تعالىٰ بوحي ورسالة.

﴿كَلَّا بَلْ لَا يَخَافُونَ الْآخِرَةَ﴿٥٣﴾ كَلَّا إِنَّهُ تَذْكِرَةٌ﴿٥٤﴾ فَمَنْ شَاءَ ذَكَرَهُ﴿٥٥﴾﴾ ثم زجرهم الله تعالىٰ عما يريدون، وذكر السبب الذي حملهم علىٰ الكبر ودعاهم إلىٰ الإصرار علىٰ الكفر والتكذيب بآيات الله ورسوله ﷺ فذكر أنه هو كفرهم باليوم الآخر.

﴿وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ هُوَ أَهْلُ التَّقْوَى وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ﴿٥٦﴾﴾ ثم أخبر الله سبحانه وتعالىٰ أنه لا يستطيع أحد أن يتذكر إلا بمشيئته وإرادته، وقد شاء ذلك عندما أرسل إليهم رسولاً يذكرهم ويرشدهم.

ثم أخبر الله سبحانه وتعالىٰ أنه أهلٌ لأن يتقيه العباد ويحذروه، ويخافوا عذابه، وأنه أهْلٌ لغفران ذنوبهم إن أرادوا التوبة والرجوع إليه.



سورة القيامة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ ۝١﴾ أكد الله سبحانه وتعالى قسمه بـ «لا» كما ذكر ذلك الهادي عليه السلام أن «لا» تفيد زيادة التأكيد هنا.

وقد أقسم الله سبحانه وتعالى بيوم القيامة لعظم شأنه، وما له من الخطر العظيم الذي ينبغي أن ينظر المكلفون في شأنه وعظمته؛ ليستعدوا له.

﴿وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ ۝٢﴾ وكذلك أقسم الله سبحانه وتعالى بالنفس التي تلوم صاحبها على التقصير في حق الله تعالى، وما يلزم له من التقوى والطاعة، ولما فيها من الآية الدالة على عظيم قدرة الله وعلمه وحكمته من جهة كونها تلوم صاحبها عند ارتكابه لمعصية أو اقترافه لخطيئة.

﴿أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَلَّنْ نَجْمَعَ عِظَامَهُ ۝٣ بَلَى قَادِرِينَ عَلَى أَنْ نُسَوِّيَ بَنَانَهُ ۝٤﴾ ثم استنكر الله سبحانه وتعالى على الإنسان الكافر كيف يظن أن الله تعالى لن يبعثه بعد الموت؟ وكيف يستبعد أن يحيي الله عظامه بعد أن صارت رميماً، وهم يعلمون أنه قد خلقهم وأوجدهم من العدم؟ أليس من قدر على الخلق الأول يقدر على أن يخلقهم مرة أخرى؟

والبنان: هي رؤوس الأنامل التي ترتسم فيها البصمات الدقيقة في الأصبع التي تميز كل شخص عن الآخر، فلا يكاد يوجد بصمتان مستويتان على الإطلاق، وفي ذلك دلالة على زيادة الإمكان في القدرة، فإذا قدر الله سبحانه وتعالى على خلق الإنسان مع إعادة خلق بصماته التي كانت في الدنيا فإن ذلك أدل على القدرة لو أنهم نظروا وتفكروا.

﴿بَلْ يُرِيدُ الْإِنْسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ ۝٥﴾ ثم أخبر الله سبحانه وتعالى أن هؤلاء المشركين قد عرفوا الحق وتيقنوا صحة البعث والحساب ولكن طبيعتهم التمرد والعناد والاستكبار والإعراض عن آيات الله تعالى فكفروا وجحدوا بيوم القيامة.

﴿يَسْأَلُ أَيَّانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ ۝٦﴾ ثم يسألون عن موعد حصوله، ولكن سؤالهم ذلك إنما هو سؤال استخفاف واستهزاء واستبعاد.

﴿فَإِذَا بَرِقَ الْبَصَرُ ۝٧ وَخَسَفَ الْقَمَرُ ۝٨ وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ ۝٩ يَقُولُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفَرُّ ۝١٠ كَلَّا لَا وَزَرَ ۝١١ إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ ۝١٢﴾ يوم القيامة هو اليوم الذي يبعثهم الله فيه من الموت فتلمع أبصارهم مما يرون من الأهوال والأفزاع التي أمامهم وهم مقبلون عليها، وذلك عندما يذهب ضوء القمر، ويختل نظام الكون، وتتهاوى أجرام السماوات، فعند ذلك سيبحث ذلك المنكر عن المفر والمهرب من هول ما يرى من الأهوال والأفزاع؛ فيزجرون عن طلب المفر والسؤال عن المخرج ويقال لهم: إنه لا ملجأ لهم ولا مفر ولا مهرب، وهذا هو يوم الرجوع إلى الله للجزاء والحساب.

﴿يُنَبَّأُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ۝١٣﴾ وعند ذلك ستكون صحيفته منتظرة له ليستلمها ويحاسب على ما كتب فيها من أعماله صغيرها وكبيرها.

﴿بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ ۝١٤ وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ ۝١٥﴾ أراد الله سبحانه وتعالى بذلك في يوم القيامة فإن الإنسان سيحكم على نفسه بنفسه عندما يرى صحيفة أعماله ماثلة أمامه، ويعلم أن لا سبيل له إلى الإنكار أو الاعتذار: ﴿اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ۝١٤﴾ [الإسراء].

﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ ۝١٦ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ ۝١٧ فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ ۝١٨ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ ۝١٩﴾ كان جبريل عليه السلام ينزل بالوحي على النبي صلى الله عليه وآله وسلم فيقرأ عليه القرآن فيردد بعده النبي صلى الله عليه وآله وسلم خوفاً من أن ينساه، فنهاه الله تعالى أن يحرك لسانه ويقرأ مع جبريل، وأمره أن يتأنى حتى يكمل جبريل قراءته، وأخبره أنه الذي سيعينه على جمعه في قلبه وحفظه.

واستعجال النبي صلى الله عليه وآله وسلم في الترديد مع جبريل عليه السلام إنما هو من حرصه الشديد على حفظه وعدم نسيانه.

﴿كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ۝٢٠ وَتَذَرُونَ الْآخِرَةَ۝٢١﴾ ثم رجع الله سبحانه وتعالىٰ إلىٰ خطاب المشركين فأخبرهم بأن ما هم فيه من متاع الدنيا إنما هو لحرصهم الشديد علىٰ الدنيا وحبهم لها، وميلهم إلىٰ شهواتها ولذاتها، مما جعلهم يتركون أمر الآخرة وراء ظهورهم، غير ملتفتين إلىٰ ما ينتظرهم من الثواب والعقاب فيها.

﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ۝٢٢ إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ۝٢٣ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ۝٢٤ تَظُنُّ أَنْ يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ۝٢٥﴾ ثم أخبر الله سبحانه وتعالىٰ عن حال عباده يوم القيامة في أرض المحشر بأنهم سينقسمون قسمين فقسم منهم سيكونون منتظرين لرحمة الله تعالىٰ وثوابه، ووجوههم في غاية الإشراق والنضارة، وقسم منهم سيكونون في غاية البؤس ووجوههم كالحة مكسفة؛ لما ينتظرهم من العقاب وما سيحل بهم من العذاب.

﴿كَلَّا إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ۝٢٦ وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ۝٢٧ وَظَنَّ أَنَّهُ الْفِرَاقُ۝٢٨ وَالْتَفَّتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ۝٢٩ إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ۝٣٠﴾ كان المشركون ينكرون البعث والحساب أشد الإنكار، فأجاب الله سبحانه وتعالىٰ عليهم بأن ينتظروا حتىٰ تحين ساعة الموت وانتزاع الروح؛ كيف سيكون حال أحدهم حينها وهو يسمع من بجنبه يتشاورون في البحث عن طبيب يطبه ويعالجه، ولكنه قد أيقن أن الطبيب لن ينفعه، وأن ساعته قد حانت، ونهايته قد أوشكت، وحان فراق الأهل والأحباب، فيلفون رجليه ويربطونه من ساقيه، وحان موعد رحيله إلىٰ ربه، فإما إلىٰ رحمته وإما إلىٰ عذابه.

﴿فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّى۝٣١ وَلَكِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى۝٣٢ ثُمَّ ذَهَبَ إِلَى أَهْلِهِ يَتَمَطَّى۝٣٣﴾ ثم أخبر الله سبحانه وتعالىٰ عن حال ذلك المنكر للبعث والحساب كيف ستكون في ذلك الوقت؟ ومعنىٰ يتمطىٰ: يستكبر ويتعالىٰ علىٰ الله سبحانه وتعالىٰ، ولا يستجيب لأمره.

﴿أَوْلَى لَكَ فَأَوْلَى ﴿٣٤﴾ ثُمَّ أَوْلَى لَكَ فَأَوْلَى ﴿٣٥﴾﴾ حقيق بالكافر الذي لا آمن ولا صلى ولكن كذب وتولى أن يدعى عليه بأن يليه من المكروه ما يسوؤه.

﴿أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾﴾ يستنكر الله سبحانه وتعالى على المنكر للبعث والحساب كيف يظن أن الله سبحانه وتعالى سيتركه بعد موته وينتهي كل شيء، فبئس هذا الظن الذي يظنه، فلا حياة على الحقيقة إلا ما بعد الموت.

﴿أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُمْنَى ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى ﴿٣٨﴾ فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى ﴿٣٩﴾ أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى ﴿٤٠﴾﴾ فلماذا لا ينظر هذا المنكر ويتفكر في بداية خلقه كيف خلقه الله تعالى من النطفة، ذلك الماء المهين، ثم تحولت تلك النطفة بقدرته إلى بشر سوي؟ فلماذا يستبعد قدرة الله تعالى على بعث الموتى، وقد قدر على خلق الإنسان وإحيائه؟

❁❁❁❁❁

سورة الإنسان

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَذْكُورًا ﴿١﴾﴾ قد أتى على الإنسان وقت طويل، ومضى عليه دهر وزمان لم يكن فيه شيئاً يذكر ثم كان بعد أن لم يكن، ووجد من بعد العدم.

﴿إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴿٢﴾﴾ خلق الله سبحانه وتعالى الإنسان وأوجده بعد العدم من النطفة المختلطة من ماء الرجل وماء المرأة، ثم أخبر الله سبحانه وتعالى أنه قد خلق الإنسان في الدنيا ليختبره بالتكاليف والشرائع هل سيطيع ربه أم يتمرد عليه؟ وذلك بعد أن أعطاه القدرة على ذلك، وجعل له من السمع والبصر والعقل ليؤدي ما كلف به من طاعة الله.

﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا۝٣﴾ وقد كلفه الله سبحانه وتعالىٰ ودله علىٰ طريق الهدىٰ والصواب، فانقسم الناس قسمين فمنهم من أدىٰ حق شكره بما افترض عليه من الطاعات، ومنهم من كفر بالله تعالىٰ وجحد بآياته وأعرض عنها.

﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَلَاسِلَ وَأَغْلَالًا وَسَعِيرًا۝٤﴾ ثم أخبر الله سبحانه وتعالىٰ بأنه قد أعد لأولئك الذين كفروا وجحدوا -بعد أن هداهم ودلهم علىٰ الطريق المستقيم- العذاب الشديد في نار جهنم يقيدون فيها بسلاسل من نار، ثم يسحبون فيها علىٰ وجوههم.

﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا۝٥ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا۝٦﴾ وأما الذين شكروا الله سبحانه وتعالىٰ وانقادوا لما أمرهم به واستجابوا لأنبيائهم ورسلهم فقد أعد الله سبحانه وتعالىٰ لهم النعيم الدائم في جنات النعيم يأكلون ويشربون ويتمتعون، وقد خص الله تعالىٰ الكافور هنا لما كان العرب يستطيبونه ويتلذذون برائحته بين شرابهم، وإلا ففيها غير ذلك من أنواع الملذات والمشروبات التي لا تخطر ببال، وقد أعطاهم الله سبحانه وتعالىٰ عيناً في الجنة يفجرونها بأيديهم، ويتنعمون بالشرب منها.

﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا۝٧ وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا۝٨ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا۝٩ إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا۝١٠﴾ ثم ذكر الله سبحانه وتعالىٰ السبب فيما أعد لهم من النعيم: وهو أنهم كانوا يوفون بنذورهم خوفاً من لقاء الله تعالىٰ، وقد روي أنها نزلت في علي وفاطمة والحسن والحسين عليهم السلام وجارية لهم كان اسمها فضة نذروا لله بصيام فوفوا بنذرهم ذلك علىٰ الرغم مما نزل بهم من البلوىٰ في طعامهم، وكان قد جاءهم مسكين يطرق بابهم في اليوم الأول فأعطوه عشاءهم تلك الليلة، وتركوا أنفسهم من دون زاد، وفي اليوم الثاني

أتاهم يتيم كذلك فتصدقوا عليه بعشاء تلك الليلة وباتوا صياماً من دون زاد، وفي اليوم الثالث طرق بابهم أسير جائع فآثروه بعشاء تلك الليلة فباتوا الليلة الثالثة من دون زاد، فمضى عليهم ثلاث ليال وصاموا ثلاثة أيام من دون زاد فأثنى الله سبحانه وتعالى عليهم ومدحهم إذ آثروا على أنفسهم وتصدقوا بطعامهم خالصاً لوجه ربهم، متقربين إليه ليدفع عنهم شر يوم القيامة وأهواله. والعبوس: هو الشديد، والقمطرير: مبالغة في الشدة.

﴿فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ۝١١ وَجَزَاهُمْ بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا ۝١٢﴾ فأخبر الله سبحانه وتعالى أنه قد قبل منهم صدقتهم وقربتهم، وأخبرهم أنه قد وقاهم شر ذلك اليوم، وسيجعل لهم نوراً يستضيئون به يوم القيامة، وسروراً وجمالاً في وجوههم، وأنه سيجازيهم على صبرهم ذلك بالنعيم الدائم في الجنة.

﴿مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا ۝١٣ وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَالُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا ۝١٤ وَيُطَافُ عَلَيْهِمْ بِآنِيَةٍ مِنْ فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَ ۝١٥ قَوَارِيرَ مِنْ فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا ۝١٦﴾ ثم وصف الله سبحانه وتعالى ذلك النعيم الذي سيعطيهم في الجنة بأنهم سيتلذذون بأطيب المآكل والمشارب، وسيأكلون من أطيب الفواكه والثمار التي قد تدلت ودنت إليهم يتناولونها بأيديهم، ويقطفونها وهم جالسون على أرائكهم ومقاعدهم من دون تعب أو مشقة تلحقهم، وقد سخر الله سبحانه وتعالى لهم الغلمان الذين يقومون على خدمتهم، ويغدون ويروحون عليهم بأنواع المأكولات والمشروبات التي يقدمونها لهم في آنية الفضة، ويسقونهم أنواع الشراب في كؤوس من فضة قد قدرها الله سبحانه وتعالى لهم على مقادير.

﴿وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنْجَبِيلًا ۝١٧ عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّى سَلْسَبِيلًا ۝١٨﴾ ذكر الله سبحانه وتعالى الزنجبيل؛ لأن العرب كانت تستطيبه

وتتلذذ به، يخلط به شرابهم الذي أعد لهم من عين في الجنة تسمى سلسبيلا.

﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَنْثُورًا﴿١٩﴾﴾ ويدور على خدمتهم غلمان كأنهم اللؤلؤ المنثور بين أوساطهم من شدة جمالهم وصفاء خلقتهم.

﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا﴿٢٠﴾﴾ وإذا جلت بنظرك هنا وهناك في أرجاء الجنة فإن عينك لن تقع إلا على الملك الواسع والنعيم الذي أعده الله تعالى لأهل الجنة.

﴿عَالِيَهُمْ ثِيَابُ سُنْدُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِنْ فِضَّةٍ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا﴿٢١﴾ إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُمْ مَشْكُورًا﴿٢٢﴾﴾ وقد ألبسهم الله سبحانه وتعالى فيها أفخر الثياب من الحرير السندس والإستبرق، الخفيف والغليظ، وقد حلاهم بأساور الفضة جزاءً على سعيهم في الدنيا بالأعمال الصالحة وجدهم في طاعة الله.

﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْءَانَ تَنْزِيلًا﴿٢٣﴾ فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ ءَاثِمًا أَوْ كَفُورًا﴿٢٤﴾﴾ ثم خاطب الله سبحانه وتعالى نبيه ﷺ وأخبره أن حكمته اقتضت أن ينزل عليه القرآن شيئاً فشيئاً، وأن لا ينزله عليه دفعة واحدة؛ وأمره أن يصبر على تبليغ الرسالة والوحي الذي ينزل عليه، وأن يصبر على أذى قومه واستهزائهم، وأن لا يبالي بهم ولا بتهديداتهم ولا يترك ما أمر به من تبليغ رسالة الله إليهم.

﴿وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴿٢٥﴾ وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا﴿٢٦﴾﴾ وداوم على ذكر ربك وأداء ما افترض عليك من الصلوات، والبكرة هي صلاة الفجر، والأصيل هي صلاة الظهر والعصر، ومن الليل أراد الله سبحانه وتعالى بها صلاة المغرب والعشاء.

وأراد بقوله «سَبِّحْهُ»: داوم على أداء النوافل التي أمرك الله سبحانه وتعالى بها في الليل، وقد أمر الله سبحانه وتعالى نبيه ﷺ بذلك ليستعين به على أمره.

﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا۝٢٧ نَحْنُ خَلَقْنَاهُمْ وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَا أَمْثَالَهُمْ تَبْدِيلًا۝٢٨﴾ وأخبره أن قومه هؤلاء قد آثروا الحياة الدنيا، وانجروا وراء شهواتها وزينتها معرضين عما ينتظرهم من الموت، وعما وراءهم من البعث والحساب والجزاء، ولكنهم لن يستطيعوا أن يفروا من قبضة الله تعالى، ومرجعهم سيكون إليه، ومتى أراد أن يأخذهم فلن يفوتوه، ولو أراد أن يؤاخذهم بذنوبهم لأخذهم واستبدل بهم قوماً غيرهم أفضل منهم؛ أراد الله سبحانه وتعالى بكل ذلك من نبيه ﷺ أن لا يستعجل نزول العذاب عل قومه فهم في قبضته وتحت سيطرته.

﴿إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلًا۝٢٩ وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا۝٣٠﴾ ثم أخبر الله سبحانه وتعالى أنه قد أنزل هذه السورة تذكرة لمن أراد أن يتذكر بآياتها ويطلب سبيل الهدى، وأخبرهم أنهم مهما حاولوا في طلب الهدى ومهما بحثوا عنه فلن يستطيعوا أن يهدوا أنفسهم لولا مشيئته الهدى لهم، وما اقتضت حكمته أن يبعث لهم الأنبياء الذين يدلونهم على مراشد دينهم، ويبصرونهم طريق الحق والهدى.

﴿يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا۝٣١﴾ ومن مقتضى علمه وحكمته أن أرسل إليكم رسولاً يدلكم على الهدى، ويدلكم على طريق الصواب، ويحذركم وينذركم عذابه وسخطه، فمن قبل أدخله في رحمته، ومن أعرض فقد ظلم نفسه وعرضها لغضبه وسخطه.



سورة المرسلات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا۝١ فَالْعَاصِفَاتِ عَصْفًا۝٢ وَالنَّاشِرَاتِ نَشْرًا۝٣﴾ المرسلات هي الملائكة، أقسم الله سبحانه وتعالى بالملائكة التي يرسلها لتنفيذ أمره مصفوفة كهيئة عرف الفرس، ثم أقسم بالرياح التي تعصف بالسحاب وتقلبها وتسيرها، والناشرات هي الرياح أيضاً التي تنشر السحاب وتفرقه على البلدان، وقد تكون العاصفات والناشرات هي الملائكة التي تعصف السحاب وتنشره وتفرقه على العباد.

﴿فَالْفَارِقَاتِ فَرْقًا۝٤ فَالْمُلْقِيَاتِ ذِكْرًا۝٥ عُذْرًا أَوْ نُذْرًا۝٦﴾ والفارقات هي الملائكة التي تفرق بين الحق والباطل بما تحمله من الذكر، والملقيات ذكراً هي الملائكة التي تنزل بالوحي وتلقيه على الأنبياء لتبليغ الناس وتحذيرهم عقاب الله تعالى وغضبه وسخطه.

﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَاقِعٌ۝٧﴾ أقسم الله سبحانه وتعالى لعباده بما ذكر أن ما يعدهم من البعث والحساب حق وصدق ولا بد أن يقع، وأن أولئك المنكرين للبعث والجزاء لا بد أن يبعثوا بعد الموت للحساب والجزاء.

﴿فَإِذَا النُّجُومُ طُمِسَتْ۝٨ وَإِذَا السَّمَاءُ فُرِجَتْ۝٩ وَإِذَا الْجِبَالُ نُسِفَتْ۝١٠ وَإِذَا الرُّسُلُ أُقِّتَتْ۝١١ لِأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ۝١٢ لِيَوْمِ الْفَصْلِ۝١٣ وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الْفَصْلِ۝١٤﴾ وموعد وقوع البعث هو عندما يطمس الله تعالى النجوم ويمحو ضوءها، وعندما تتشقق السماء وتتهاوى أجرامها، وتتفجر الجبال حتى تصير كالهباء، فحينها سيجمع الله سبحانه وتعالى أنبياءه ورسله عليهم السلام في عرصات أرض المحشر ليشهدوا على أممهم.

وفي الاستفهام عن ذلك اليوم معنى التفخيم لشأنه وتهويل أمره إذ سيجمع الله تعالى فيه الأولين والآخرين، وسيعرض أعمال جميع المكلفين، ثم يحكم بينهم

فيما كانوا قد اختلفوا فيه من الشرائع والأحكام والديانات، ثم ينجي المتقين من بينهم، ويدخلهم في رحمته ورضوانه، ويعذب المبطلين في نار جهنم.

﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴿١٥﴾﴾ والويل كل الويل سيكون في ذلك اليوم للمكذبين بيوم الحساب والجزاء، المنكرين له، والويل: معناه العذاب الشديد.

﴿أَلَمْ نُهْلِكِ الْأَوَّلِينَ﴿١٦﴾ ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ الْآخِرِينَ﴿١٧﴾ كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ﴿١٨﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴿١٩﴾﴾ يهدد الله سبحانه وتعالى قريشاً عندما كذبوا بالنبي ﷺ وبما جاءهم به من القرآن، وإنكارهم ليوم البعث والحساب، وقد استنكر عليهم تكذيبهم ذلك، وعدم اعتبارهم بمن سبقهم من الأمم السابقين وكأنهم آمنون أن يلحقهم مثل ما لحق أولئك المكذبين ممن سبقهم، وخاصة أنهم قد عرفوا ما جرى عليهم من العذاب جزاءً على تكذيبهم.

﴿أَلَمْ نَخْلُقْكُمْ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ﴿٢٠﴾ فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَكِينٍ﴿٢١﴾ إِلَى قَدَرٍ مَعْلُومٍ﴿٢٢﴾ فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ﴿٢٣﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴿٢٤﴾﴾ ثم استنكر الله سبحانه وتعالى على المشركين إنكارهم للبعث بعد الموت، واستبعادهم ذلك، فقال لهم: أليس من قدر على خلقكم من ذلك الماء المهين قادر على خلقكم وإيجادكم مرة أخرى؟ ثم أخبر الله سبحانه وتعالى عن كيفية خلقهم من النطفة التي يضعها الرجل في رحم المرأة، ثم يحفظها في ذلك المكان تسعة أشهر حتى تتكون إنساناً سوياً بقدرته وعلمه، فكيف ينكر من هذا أصله قدرة الله تعالى على إعادته وبعثه؟

﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفَاتًا﴿٢٥﴾ أَحْيَاءً وَأَمْوَاتًا﴿٢٦﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ شَامِخَاتٍ وَأَسْقَيْنَاكُمْ مَاءً فُرَاتًا﴿٢٧﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴿٢٨﴾﴾ ثم يستنكر الله سبحانه عليهم عدم النظر في آثار قدرته ولماذا لا يتفكرون كيف مهد لهم الأرض، وجعلها صالحة لسكناهم على ظهرها، ومستودعاً تحفظ موتاهم في بطنها، وكيف خلق لهم عليها تلك الجبال الراسيات الشامخات الطوال بقدرته، وكيف ينزل إليهم الماء العذب الفرات الذي يستسيغونه ويشربونه، ويسقون به أرضهم

ودوابهم بقدرته نعمة منه أنعمها عليهم، فلماذا لا يؤدون حق شكرها؟ ولكن الويل كل الويل لمن عرف كل ذلك ثم كذب وأعرض واستكبر.

﴿انْطَلِقُوا إِلَى مَا كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ۝٢٩ انْطَلِقُوا إِلَى ظِلٍّ ذِي ثَلَاثِ شُعَبٍ۝٣٠ لَا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِي مِنَ اللَّهَبِ۝٣١﴾ ثم أخبر الله سبحانه وتعالى المشركين بأنه سيأمرهم يوم القيامة بالانطلاق إلى عذاب جهنم التي كانوا ينكرونها ويكذبون بها، فينطلقون إلى ظل في نار جهنم متشعب إلى ثلاثة أقسام لا يظلل من استظل به ولا يدفع عنهم شيئاً من لهيب نار جهنم، ولا يجدون فيه إلا زيادة العذاب.

﴿إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ۝٣٢ كَأَنَّهُ جِمَالَةٌ صُفْرٌ۝٣٣ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ۝٣٤﴾ ثم وصف الله سبحانه وتعالى قوة النار وشدة لهيبها وقوة اشتعالها فقال: إنها تقذف بشرر عظام كل شرة منها كالبيت العظيم، والجمالات الصفر هي الجبال الصغيرة.

﴿هَذَا يَوْمُ لَا يَنْطِقُونَ۝٣٥ وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ۝٣٦ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ۝٣٧﴾ وفي ذلك اليوم ستخرس ألسنة المكذبين، ويحال بينهم وبين الاعتذار فلا يؤذن لهم بتقديم أي عذر حينها.

﴿هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ جَمَعْنَاكُمْ وَالْأَوَّلِينَ۝٣٨﴾ ثم يخبرهم الله سبحانه وتعالى أن ذلك اليوم الذي اجتمعوا فيه عنده هو يوم الفصل والقضاء فيما بينهم بالحكم الحق والعدل جمع الله تعالى فيه الأولين والآخرين من الجن والإنس.

﴿فَإِنْ كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ۝٣٩ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ۝٤٠﴾ يتهكم الله سبحانه وتعالى بأولئك المكذبين يوم القيامة ويسألهم إن استطاعوا أن يكيدوه ويتحيلوا عليه ليصرفوا عن أنفسهم العذاب فليفعلوا، ولكن هيهات فليس الأمر كما كان عليه في الدنيا من استهزائهم وكيدهم بأنبيائهم ورسلهم.

﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي ظِلَالٍ وَعُيُونٍ۝٤١ وَفَوَاكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ۝٤٢ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ۝٤٣ إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ۝٤٤ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ۝٤٥﴾

وأما المتقون فهم في ذلك اليوم في ظلال رحمته يتمتعون ويأكلون ويشربون مما لذ وطاب لهم من الطعام والشراب جزاءً من الله تعالى على إحسانهم في الدنيا وما قدموا من الأعمال الصالحة.

﴿كُلُوا وَتَمَتَّعُوا قَلِيلًا إِنَّكُمْ مُجْرِمُونَ۝٤٦ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ۝٤٧﴾ ثم يتهدد الله سبحانه وتعالى الكافرين بأن يأكلوا ويتمتعوا في الدنيا فما هي إلا أيام قلائل وسينتهي كل شيء ويصير كأن لم يكن وسيعودون إليه للجزاء على إجرامهم.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ارْكَعُوا لَا يَرْكَعُونَ۝٤٨ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ۝٤٩﴾ كانوا في الدنيا إذا أمرهم النبي صلى الله عليه وآله وسلم بأمر، أو دعاهم إلى طاعة الله تعالى وعبادته- استكبروا وأعرضوا عنه وتمردوا عليه.

﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ۝٥٠﴾ فإذا لم يهتد هؤلاء المكذبون والمنكرون بما جاءهم به محمد صلى الله عليه وآله وسلم من الهدى والدين والقرآن فبماذا سيهتدون، وأي وسيلة بعد آيات الله تعالى ودعوة رسوله يمكن أن تؤثر فيهم ويهتدوا بها وينقادوا، وإذا لم يهتدوا بما جاءهم النبي صلى الله عليه وآله وسلم به فلا مطمع بعده في هدايتهم.

❁❁❁❁❁

سورة النبأ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ۝١ عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ۝٢ الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ۝٣﴾ بعث الله سبحانه وتعالى نبيه صلى الله عليه وآله وسلم ليدعوا الناس من قريش وغيرهم، ولينذرهم وليحذرهم بأنهم مقبلون على حياة أخرى غير هذه الحياة، وأن الله سبحانه وتعالى لا بد أن يبعثهم بعد موتهم، ثم يحاسبهم ويجازيهم على أعمالهم التي عملوها في الدنيا، وأنه قد أعد لمن عصاه ناراً عظيمة سيعذبه فيها خالداً مخلداً.

وحين كان النبي صلى الله عليه وآله وسلم يدعوهم ويعظهم كان المشركون يتساءلون فيما بينهم عن يوم القيامة.

والنبأ العظيم: هو يوم القيامة الذي هم في شأنه بين منكر ومتشكك ومستهزئ ومكذب.

﴿كَلَّا سَيَعْلَمُونَ۝٤ ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ۝٥﴾ «كلا»: هي ردع وزجر لأولئك المنكرين للبعث والحساب عن تكذيبهم فلا بد أن يأتي يوم القيامة فيؤمنون به ويرون ما كانوا يكذبون به، ولكن لا ينفعهم ذلك الإيمان ولا يقبل منهم، وقد كرر الله سبحانه وتعالى ذلك ليؤكد لهم أنه لا بد أن يعلموا به، ويتيقنوا حصوله.

﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا۝٦ وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا۝٧ وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا۝٨ وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا۝٩ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا۝١٠ وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا۝١١ وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا۝١٢ وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا۝١٣ وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا۝١٤ لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا۝١٥ وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا۝١٦﴾ يستنكر الله سبحانه وتعالى عليهم استبعادهم لقدرته تعالى على إحيائهم بعد مماتهم، فكيف يستبعدون ذلك على قدرة الله تعالى، ألم ينظروا إلى آثار قدرته فمهد لهم الأرض وجعلها صالحة لسكناهم بقدرته؟ وكيف ثبتها عن أن تتمايد بهم بالجبال الرواسي؟ وكيف خلقهم بقدرته ذكراناً وإناثاً ليتناسلوا ويتكاثروا؟ وكيف أنعم عليهم بالليل وهيأه لراحة أجسامهم من تعب النهار ونصبه؟ وكيف هيأ لهم النهار وسهل لهم فيه سبل معايشهم والسعي وراء أرزاقهم؟

وكذلك استنكر عليهم لماذا لا ينظرون إلى آثار قدرته في السماوات؟ وكيف زينها بالنجوم والكواكب المضيئة والمتوهجة؟ وكيف أنزل لهم بقدرته الماء الكثير المبارك من السحاب؟

والثجاج: هو الكثير المبارك.

وكذلك لماذا لا ينظرون كيف أخرج لهم بالماء المبارك الحب والنبات الذي يأكلونه هم وأنعامهم؟

فما بالكم أيها المشركون تستبعدون بعد كل ذلك قدرة الله سبحانه وتعالى على إحياء عظامكم وبعثكم وخلقكم من جديد؟

﴿إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَاتًا۝١٧﴾ ثم بعد أن عرضهم على آثار قدرته حتى عرفوا وتيقنوا عندها أنه على كل شيء قدير فأصروا على كفرهم وعنادهم أكد لهم أن يوم القيامة الذي يفصل الله فيه بين العباد لا بد أن يقع حتماً، وأخبرهم أنه ميقات اجتماعهم عنده، والحكم بينهم فيه بحكمه.

﴿يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا۝١٨﴾ وذلك اليوم هو يوم سينفخ الله سبحانه وتعالى في صوركم فتجيبونه جميعاً وتأتونه أفواجاً، فوجاً بعد فوج.

﴿وَفُتِحَتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَابًا۝١٩﴾ وفي ذلك اليوم ستفتح السماء وتتكسر حتى تصير أبواباً وفجوات، وستتهاوى أجرامها ويختل نظام الكون جميعاً.

﴿وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا۝٢٠﴾ وسيفجر الله سبحانه وتعالى الجبال في ذلك اليوم حتى تصير غباراً متطايراً.

﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا۝٢١ لِلطَّاغِينَ مَآبًا۝٢٢ لَابِثِينَ فِيهَا أَحْقَابًا۝٢٣ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا۝٢٤ إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا۝٢٥﴾ وفي ذلك اليوم سيكون مأوى أولئك المتجاوزين للحق إلى الباطل إلى جهنم التي وعدهم أنها ستكون منزلهم ومأواهم الدهور والأزمان التي لا نهاية ولا انقطاع لها، لا شراب لهم فيها إلا ماء الحميم الذي يقطع أمعاءهم. والغساق: هو صديد أهل جهنم، وقيح جلودهم.

﴿جَزَاءً وِفَاقًا۝٢٦﴾ وأن ذلك العذاب ليس إلا جزاءً من الله سبحانه وتعالى على قدر أعمالهم.

﴿إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ حِسَابًا۝٢٧ وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذَّابًا۝٢٨﴾ ثم أخبر الله سبحانه وتعالى عن سبب ذلك العذاب إنه إنكارهم للبعث والحساب، وتكذيبهم وجحودهم بآيات الله تعالى.

﴿وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَابًا۝٢٩ فَذُوقُوا فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا۝٣٠﴾ وقد

أحصى الله سبحانه وتعالى عليهم جميع أعمالهم صغيرها وكبيرها وسيجازيهم عليها جميعاً، وسيذيقهم العذاب الشديد على أعمالهم التي عملوها، لا يخفف الله عنهم العذاب في نار جهنم ولا يزيدهم إلا عذاباً فوق العذاب.

﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا۝٣١ حَدَائِقَ وَأَعْنَابًا۝٣٢ وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا۝٣٣ وَكَأْسًا دِهَاقًا۝٣٤﴾ وأما أهل تقوى الله سبحانه وتعالى الحافظون لحدوده والموفون بعهوده ومواثيقه فهم من أهل الفوز والظفر برضوانه وثوابه، يتنعمون بين البساتين والحدائق المثمرة التي أعدها الله تعالى لهم، وسيزوجهم من حور الجنة.

والكواعب: هن اللاتي في أول شبابهن، والأتراب: هن المستويات في السن، وسيسخر الله سبحانه وتعالى لخدمتهم غلماناً يغدون عليهم ويروحون بأطيب المشروبات وألذ المأكولات، ودهاقاً: يعني ممتلئة.

﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّابًا۝٣٥﴾ ولن يسمع أهل الجنة فيها أي كلام لغو أو باطل فقد جمع الله تعالى أهل ذلك في جهنم.

﴿جَزَاءً مِنْ رَبِّكَ عَطَاءً حِسَابًا۝٣٦ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الرَّحْمَنِ﴾ وأن ذلك النعيم جزاءً من الله سبحانه وتعالى على أعمالهم الصالحة.

وقوله ﴿عَطَاءً﴾: فيه دلالة على أنه تفضل عليهم بالأضعاف المضاعفة من عنده، والمتفضل عليهم هو رب السماوات والأرض والمالك لما فيهما ذو الرحمة الواسعة والعطاء الواسع فنعم المتفضل ونعم الفضل.

﴿لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا۝٣٧﴾ وهو صاحب الهيبة والجلال فلن يجرؤ أحد على مخاطبته والتكلم إليه في ذلك اليوم لعظمته وجلاله وهيبته.

﴿يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا۝٣٨﴾ وفي ذلك اليوم سيمثل جبريل عليه السلام ومن معه من الملائكة بين يدي الله تعالى مصطفين خاضعين لله تعالى لا يجرؤون على التكلم بكلمة واحدة، عليهم الخضوع والسكينة لما يجدون من هيبة الله تعالى وعظمته وجلاله فلا يتكلم أحد إلا إن أذن له بالقول الحق.

﴿ذَلِكَ الْيَوْمُ الْحَقُّ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ مَآبًا﴿٣٩﴾﴾ ثم أخبر الله سبحانه وتعالىٰ أن ذلك اليوم الذي يكفرون به وينكرونه هو اليوم الحق الذي لا بد أن يقع، فمن أراد أن يستعد للقاء الله تعالىٰ في ذلك اليوم ويتخذ له طريقاً إليه وإلىٰ السلامة من عذابه وسخطه فقد أنقذ نفسه وأعتقها.

﴿إِنَّا أَنْذَرْنَاكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَالَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا﴿٤٠﴾﴾ يخاطب الله تعالىٰ المشركين بأن يحذروا فقد قرب موعد نزول عذابه وسخطه، فكل آت قريب.

ويخبرهم أن الأولىٰ بهم أن يقدموا لأنفسهم العمل الصالح وطاعة الله تعالىٰ حتىٰ يأتوا يوم القيامة وصحائفهم بيضاء ناصعة البياض، وحتىٰ لا يندموا عندما يرون صحائف أعمالهم وقد أحصي عليهم فيها ما عملوه من الأعمال القبيحة فيندمون عند ذلك أشد الندم، ويتمنون من شدة ما يرون من الحساب الدقيق، وما سيكون عليهم من الجزاء- أنهم لو لم يخلقوا ولم يبعثهم الله تعالىٰ من جديد.

❁❁❁❁❁

سورة النازعات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا﴿١﴾ وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا﴿٢﴾ وَالسَّابِحَاتِ سَبْحًا﴿٣﴾ فَالسَّابِقَاتِ سَبْقًا﴿٤﴾ فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا﴿٥﴾﴾ النازعات: هي الرياح الشديدة التي تنزع المياه من البحر، وتحملها وتجمعها في السماء تتكثف وتتجمع علىٰ شكل سحاب. ومعنىٰ «غرقاً»: أنها تنزع الماء بشدة وقوة.

والناشطات: هي الرياح التي تأخذ الماء العذب من بين المالح.

والسابحات: الريح تسبح بذلك الماء في السماء وتسوقه إلىٰ البلدان.

والسابقات: هي الملائكة السباقة إلىٰ طاعة الله سبحانه وتعالىٰ وامتثال أوامره من تبليغ الوحي وإنزال الرحمة والعذاب إلىٰ أهل الدنيا.

والمدبرات: هي الملائكة القائمة على تدبير أمور الخلائق وشؤونهم.

﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ۝٦ تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ۝٧ قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ۝٨ أَبْصَارُهَا خَاشِعَةٌ۝٩ يَقُولُونَ أَئِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ۝١٠ أَئِذَا كُنَّا عِظَامًا نَخِرَةً۝١١ قَالُوا تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ۝١٢﴾ ثم أمر الله سبحانه وتعالى عباده أن يتذكروا يوم القيامة عندما ترجف الأرض والسماء وتتزلزل بأهلها ثم يتبع ذلك رجفة أخرى فيبعث أهل القبور أحياءً على أرض المحشر، هنالك يفزع المجرمون الذين كانوا ينكرون البعث والحساب، وترجف قلوبهم ويستولي عليهم الخوف العظيم والحسرة وتخشع أبصارهم من هول ما يرون ومما هم مقبلون عليه من عذاب الله، وكان المجرمون ينكرون البعث والحساب ويستبعدون أن تعود العظام البالية إلى الحياة مرة أخرى.

﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ۝١٣ فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ۝١٤﴾ وأخبرهم الله تعالى أن ذلك ليس بمستبعد في قدرته فليس الأمر إلا صيحة واحدة يبعث بها جميع الأولين والآخرين على أرض المحشر.

﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى۝١٥ إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى۝١٦ اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى۝١٧ فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلَى أَنْ تَزَكَّى۝١٨ وَأَهْدِيَكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخْشَى۝١٩﴾ ثم ينبه الله سبحانه وتعالى نبيه صلى الله عليه وآله وسلم أن يذكر قصة موسى عليه السلام، وما كان من شأنه إذ ناداه ربه في الواد المقدس وأمره بالخروج إلى فرعون ليدعوه إلى الإيمان والتصديق بالله تعالى، وأن يزكي نفسه ويطهرها من أدناس الشرك وأرجاس الجاهلية وأعمال الكفر والضلال، وأنه قد أتاه بأسباب التزكية من عند الله تعالى إن أراد أن يأخذ بها، وهي الإيمان بالله تعالى وإخلاص العبادة له وحده وترك الظلم والفساد والطغيان.

﴿فَأَرَاهُ الْآيَةَ الْكُبْرَى۝٢٠ فَكَذَّبَ وَعَصَى۝٢١ ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَى۝٢٢ فَحَشَرَ فَنَادَى۝٢٣ فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى۝٢٤ فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَى۝٢٥ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِمَنْ يَخْشَى۝٢٦﴾ وقد جاءه بالمعجزة الدالة على صدق نبوته،

ولكنه كذب وتمرد واستكبر عن اتباع موسىٰ وتصديقه، وأخذ يسعىٰ في إبطال دعوته جهده، إذ جمع قومه وأهل مملكته وجنوده فنادىٰ فيهم بأنه ربهم، وأنه يجب عليهم طاعته ونصرته علىٰ من عاداه، وأن يعينوه علىٰ القضاء علىٰ موسىٰ وقومه إذ قد شقوا عصا الطاعة، ولكن الله سبحانه وتعالىٰ أخذه قبل أن يتمكن من النيل من نبيه، فأنزل عليه العذاب في الدنيا قبل عذاب الآخرة، وأغرقه وجعله عبرة لمن بعده؛ ليعتبروا به، ويعرفوا كيف يكون جزاء المكذبين بأنبيائهم، وأخبر قريشاً أن فيما جرىٰ علىٰ فرعون وجنوده عبرة لهم إن أرادوا أن يعتبروا به، ويرتدعوا عن كفرهم وتكذيبهم.

﴿ءَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا۝٢٧ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا۝٢٨ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا۝٢٩ وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا۝٣٠ أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا۝٣١ وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا۝٣٢ مَتَاعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ۝٣٣﴾ وعندما أنكر المشركون أمر البعث والحساب، واستبعدوا قدرة الله سبحانه وتعالىٰ علىٰ ذلك، سألهم الله تعالىٰ عن أمر خلقهم وخلق السماء أيهما أشد خلقاً وأعظم؟ فلا بد أن يجيبوه بأنها السماء حتماً، ولو أجابوا بخلاف ذلك لكانوا منكرين للضرورة، ولحكم عليهم السامع بسخافة عقولهم وتفاهتهم.

ثم أخبر الله سبحانه وتعالىٰ بأنه الذي خلقها ورفعها بغير عمد، وأنه الذي غطىٰ الليل بالظلمة الساترة، وجعل النهار مبصراً بقدرته، وأنه الذي دحا الأرض بالتراب، وجعلها صالحة لنباتهم ومستقراً لماء شربهم الذي به قوام حياتهم، وقد أرسىٰ الجبال ليحفظ توازنها عن أن تتمايد بهم، وأن كل ذلك رحمة منه تعالىٰ بعباده ليتمتعوا ويتنعموا ويأكلوا ويشربوا منها هم وأنعامهم، وأن من قدر علىٰ كل ذلك لا بد أن يقدر علىٰ أمر إحيائهم وبعثهم بعد موتهم.

﴿فَإِذَا جَاءَتِ الطَّامَّةُ الْكُبْرَى۝٣٤﴾ وقد جعل الله سبحانه وتعالىٰ لكم ما جعل وأنعم عليكم بكل هذه النعم إلىٰ أن يحين موعد الحياة الأخرىٰ.

والطامة: المدمرة للكون كله، التي تقضي على كل ما فيه، وتنهي أمر السماء والأرض وما بينهما.

﴿يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ مَا سَعَى۝٣٥ وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِمَنْ يَرَى۝٣٦﴾ وذلك اليوم هو اليوم الذي سيتذكر الإنسان فيه كل ما عمله في الدنيا من صغير الأعمال وكبيرها.

﴿فَأَمَّا مَنْ طَغَى۝٣٧ وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا۝٣٨ فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى۝٣٩ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى۝٤٠ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى۝٤١﴾ والطاغي: هو الذي يتجاوز الحق إلى الباطل؛ أخبر الله سبحانه وتعالى أن من تجاوز حدوده وآثر شهواته ولذات الدنيا على طاعة ربه فإن الجحيم سيكون مأواه، وأن من اتقاه وخاف لقاءه وحفظ ما استحفظه الله عليه والتزم بحدوده وعهوده، واستعد للقائه وترك الانقياد لهوى نفسه، وآثر طاعة الله تعالى على هواه فإن الجنة ستكون مسكنه ومأواه.

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا۝٤٢ فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْرَاهَا۝٤٣ إِلَى رَبِّكَ مُنْتَهَاهَا۝٤٤ إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرُ مَنْ يَخْشَاهَا۝٤٥ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا۝٤٦﴾ ثم أخبر الله سبحانه وتعالى أن قريشاً سيسألون النبي صلى الله عليه وآله وسلم عن الساعة متى سيحين موعدها ومستقرها؟ فاستنكر الله سبحانه وتعالى عليهم ذلك السؤال، فكيف يسألون محمداً صلى الله عليه وآله وسلم عن موعدها وهو لا يعلم عنه شيئاً، وأخبرهم أن علم موعدها عند الله وحده لم يطلع أحداً من خلقه على ذلك، وأن محمداً صلى الله عليه وآله وسلم ليس إلا منذراً لهم ومحذراً من حلولها، وما سيكون فيها.

ثم أخبر الله سبحانه وتعالى عنهم بأنهم عندما يرونها وعندما يحين موعد بعثهم ونشورهم ويرون ما يرون من الأهوال والشدائد في ذلك اليوم سيخيل إليهم من شدة ذلك اليوم وطوله أنهم لم يلبثوا إلا ساعة من نهار في الدنيا، ولم يعيشوا على ظهرها إلا مقدار يوم أو ليلة.

سورة عبس

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى۝١ أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى۝٢ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى۝٣ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعَهُ الذِّكْرَى۝٤ أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَى۝٥ فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى۝٦﴾ كان النبي صلى الله عليه وآله وسلم ذات يوم يعظ رجالاً من كبار قريش، ويدعوهم إلى الإسلام وإلى الله سبحانه وتعالى، وكأنه لمس منهم الإنصات والاستماع.

فأقبل عليه في تلك الحال ابن أم مكتوم وكان رجلاً أعمى، فقطع على النبي صلى الله عليه وآله وسلم حديثه مع أولئك القوم، وسأله مستفسراً عن شيء من أمور دينه، ولكن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أعرض عنه ولم يلتفت إليه، فكرر عليه السؤال مرة ثانية وثالثة والنبي صلى الله عليه وآله وسلم يعرض عنه، ليستكمل حديثه مع القوم ولم ينتبه ابن أم مكتوم لما هو فيه صلى الله عليه وآله وسلم مع كبار قريش، فما زال يكرر السؤال حتى ضجر النبي صلى الله عليه وآله وسلم وظهر على وجهه العبوس؛ فاستنكر الله سبحانه وتعالى على نبيه صلى الله عليه وآله وسلم فعلته تلك، وتقطيبه وجهه صلى الله عليه وآله وسلم في وجه الأعمى، وأخبره أن ذلك الأعمى أحق من أولئك القوم، وأنه سيتذكر ويستفيد أكثر مما يتذكر أولئك القوم.

﴿وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّى۝٧﴾ واترك أولئك القوم فليسوا من أهل التزكية والقبول، وأقبل بوجهك إلى الذين ينتفعون بالذكرى.

﴿وَأَمَّا مَنْ جَاءَكَ يَسْعَى۝٨ وَهُوَ يَخْشَى۝٩ فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّى۝١٠﴾ ما كان ينبغي لك يا رسول الله أن تعرض عمن أقبل إليك وهو يجري رغبةً في سماع الذكرى وهو من أهل الإيمان بالله ومن أهل الخشية له.

﴿كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ۝١١﴾ ثم أخبر الله سبحانه وتعالى نبيه صلى الله عليه وآله وسلم بأن هذه تذكرة له لئلا يعود إلى مثلها مرة أخرى.

وما كان من النبي ﷺ من الإعراض عن ابن أم مكتوم لم يكن إلا لحرصه الشديد على دخول القوم في الإسلام؛ لأنهم إذا استجابوا له وأسلموا فسيسلم بإسلامهم أناس كثيرون.

﴿فَمَنْ شَاءَ ذَكَرَهُ۝١٢ فِي صُحُفٍ مُكَرَّمَةٍ۝١٣ مَرْفُوعَةٍ مُطَهَّرَةٍ۝١٤﴾ وتذكرة لمن أراد أن يتذكر، وقد أنزل الله تعالى القرآن الكريم تذكرة لمن أراد أن يتذكر بآياته؛ وقد حفظه الله تعالى في صحف مرفوعة عنده في السماء ومنزهة لا يلمسها ويقربها إلا الملائكة المطهرون، وقد حفظها من الشياطين.

﴿بِأَيْدِي سَفَرَةٍ۝١٥ كِرَامٍ بَرَرَةٍ۝١٦﴾ ثم يرسله الله تعالى إلى أنبيائه مع ملائكة قد جعلهم الله سبحانه وتعالى سفرائه إلى نبيه محمد ﷺ ومن قبل إلى سائر رسله وأنبيائه، وملائكة الله تعالى لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون.

﴿قُتِلَ الْإِنْسَانُ مَا أَكْفَرَهُ۝١٧ مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ۝١٨ مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ۝١٩﴾ لعن الإنسان ما أشد كفره بالله تعالى وتكذيبه بآياته ورسله.

ثم استنكر الله سبحانه وتعالى عليه كفره وإنكاره للبعث بعد الموت، فلماذا لم ينظر إلى أصل خلقه كيف خلقه من النطفة خلقاً بعد خلق حتى جعله بشراً سوياً؟ ألا يكون من قدر على ابتداء خلقه قادراً على إعادته وخلقه مرة أخرى.

﴿ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ۝٢٠ ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ۝٢١ ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنْشَرَهُ۝٢٢﴾ ولماذا يكفر بالله تعالى وينكر نعمه العظيمة عليه وهو يرى أن الله تعالى سهل له سبل معايشه، وقد يكون المعنى سهل له سبيل خروجه من بطن أمه، وحفظه ورعاه وسهل له سبل معيشته حتى موته، وأنه تعالى قد كرمه بأن جعل بطن الأرض مستودعاً يحفظه ويستره بعد موته، وأنه بعد ذلك لا بد أن يبعثه ويحييه من جديد.

﴿كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَا أَمَرَهُ۝٢٣﴾ ثم أخبر الله سبحانه وتعالى أنهم يموتون قبل أن يؤدوا حق الله تعالى ويفعلوا ما أمرهم به وأراده منهم، وقد أنزل الله سبحانه وتعالى هذه الآيات ليحث بني آدم على أن ينظروا في آياته وآثار قدرته فيهم لعلهم يرجعون إليه ويعرفون عظمته وقدرته على خلقهم وإحيائهم مرة أخرى.

﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ ﴿٢٤﴾ أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾ وَحَدَائِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾ وَفَاكِهَةً وَأَبًّا ﴿٣١﴾ مَتَاعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ ﴿٣٢﴾﴾ يحث الله سبحانه وتعالىٰ الإنسان أن ينظر ويتأمل في آية طعامه هذا الذي يأكله كيف أوصله الله سبحانه وتعالىٰ إليه، فأخبر الله سبحانه وتعالىٰ أن أول مرحلة في ذلك هي أنه ينزل المطر الذي يسقي به أرضهم ويرويها حتىٰ تتشقق بأنواع النبات من الحبوب وأنواع الفواكه والثمار والبساتين الكثيفة والمتنوعة بأصناف الشجر.

والأب: أراد الله سبحانه وتعالىٰ به مراعي أنعامهم، كل ذلك من نعمه العظيمة عليهم التي ينبغي عليهم أن يؤدوا حق شكرها بأداء ما افترض عليهم.

﴿فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاخَّةُ ﴿٣٣﴾ يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴿٣٧﴾﴾ ثم يذكرهم الله سبحانه وتعالىٰ بيوم القيامة لعلهم يرتدعون عن كفرهم وغيهم وضلالهم.

والصاخة: هي القيامة التي تصخ أسماعهم بأصواتها الهائلة والمرعبة فيموتون من شدتها وقوتها؛ ففي ذلك اليوم يبعثون ويكون كل امرئ مشغولاً بنفسه لا يلتفت إلىٰ أحد حتىٰ أقرب أقربائه.

﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُسْفِرَةٌ ﴿٣٨﴾ ضَاحِكَةٌ مُسْتَبْشِرَةٌ ﴿٣٩﴾ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ﴿٤٠﴾ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ﴿٤١﴾ أُولَئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ ﴿٤٢﴾﴾ والناس في ذلك اليوم سينقسمون قسمين: فقسم منهم سيكون السرور والفرح ظاهراً علىٰ وجوههم، وآثار الاستبشار بائنة عليهم، وقسم منهم ستكون وجوههم مغبرة كالحة وآثار الكآبة والذلة ظاهرة عليها، والسواد يغشاها من شدة الخوف والفزع مما هم مقبلون عليه.



سورة التكوير

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ۝١ وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ۝٢ وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ۝٣ وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ۝٤ وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ۝٥ وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ۝٦ وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ۝٧﴾ أخبر الله سبحانه وتعالى هنا عباده عن علامات الساعة وأماراتها فذكر تعالى أنه سيلف نور الشمس ويمحو ضوءها ونورها حتى تصير سوداء مظلمة، وكذلك النجوم سينطفئ نورها وضوءها، والجبال سيفجرها الله سبحانه وتعالى وينسفها حتى تصير كالغبار المتطاير.

وسينشغل الناس عما يقتنونه من المركوبات وغيرها، وسيهملونها ويتركونها من هول وشدة ما هم مقبلون عليه، والوحوش في ذلك اليوم ستخرج من مخابئها فزعة مرعوبة وهاربة مما تسمعه من أصوات القيامة وأهوالها، والبحار ستتفجر بدل الماء ناراً تتطاير في الهواء، وسيرد الله تعالى أرواح الخلق إلى أجسادها ويبعثهم إليه.

﴿وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ۝٨ بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ۝٩﴾ كان من ولد له بنت من المشركين يدفنها حية خوفاً من العار والفضيحة اللذان سيلحقان به، فأخبرهم الله سبحانه وتعالى أنه سيسألهم يوم القيامة عن سبب قتلهم لبناتهم، وما هو الذي دعاهم إلى ذلك؛ فلا يجدون مبرراً بين يدي الله يوم القيامة، ولا عذراً ينفعهم، وسيسأل الموءودة عن الذنب الذي قتلت به والغرض من سؤالها هو إظهار جريمة قاتليها وتبكيتهم.

﴿وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ۝١٠﴾ وأن الله تعالى في ذلك اليوم سينشر صحائف أعمالهم ويعرضها عليهم ليرى كل امرئ سعيه وعمله في الدنيا.

﴿وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ۝١١﴾ يعني أن السماء ستتهاوى أجرامها ويختل نظامها وتوازنها حتى يزيلها الله تعالى ويفنيها.

﴿وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِّرَتْ۝١٢ وَإِذَا الْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ۝١٣﴾ وجهنم سيشتد سعيرها لاستقبال أهلها والوافدين عليها، والجنة سيقربها الله تعالى لاستقبال عباده المتقين.

﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَا أَحْضَرَتْ۝١٤﴾ وهنالك ستعلم كل نفس بما عملت في الدنيا، وسترى أعمالها ماثلة ومكتوبة في صحيفتها التي قد سجل فيها كل صغير وكبير من أعمالها.

﴿فَلَا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ۝١٥ الْجَوَارِ الْكُنَّسِ۝١٦ وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ۝١٧ وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ۝١٨﴾ والخنس: هي النجوم التي تظهر وتختفي، والجوار: يعني التي تجري وتسبح في السماء، والكنس: كذلك التي تظهر وتختفي، وعسعس: يعني بدأ في ظلمته، وتنفس: يعني بدأ ضوءه وظهر؛ وقد أقسم الله تعالى بهذه الأشياء ليبعث عباده على النظر والتفكر في هذه الآيات الدالة على قدرة مبتدعها، وسعة علمه وحكمته.

﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ۝١٩ ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ۝٢٠ مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ۝٢١﴾ أقسم الله سبحانه وتعالى بهذه الأشياء ليؤكد لأولئك المشركين المكذبين أن هذا القرآن قد نزل به جبريل عليه السلام على محمد صلى الله عليه وآله وسلم، ثم وصف الله سبحانه وتعالى جبريل عليه السلام بأنه ذو منزلة رفيعة ومكانة عظيمة عنده تعالى، وأنه مطاع عند بقية الملائكة لكونه أفضلهم وأرفعهم منزلة عنده تعالى.

﴿وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ۝٢٢ وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ۝٢٣ وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ۝٢٤ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ۝٢٥﴾ وأيضاً أقسم الله سبحانه وتعالى لهم أن محمداً صلى الله عليه وآله وسلم قد أرسله من بينهم ليبلغهم رسالته، وأخبرهم أن رسولهم هذا قد رأى جبريل عليه السلام في السماء، وأنه ليس بمتهم فيما حذرهم وأنذرهم من أمر البعث والحساب والجنة والنار، وأن ما يسمعونه منه ليس من كلام السحرة والشياطين.

﴿فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ۝٢٦ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ۝٢٧ لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ۝٢٨﴾ فأين تذهب بكم ظنونكم حتى تقولوا عنه ما تقولون وتنسبون

إليه ما ليس فيه من الشعر والجنون والسحر، وأن ما تسمعونه يقرأه من القرآن ليس إلا كلام رب العالمين أنزله ليذكركم ويعظكم بآياته، وأنه لن يتذكر بآياته إلا من أراد الاستقامة على طريق الحق والصواب.

﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ۝٢٩﴾ ومهما طلبتم الهداية وبحثتم عنها فلن تجدوها ولن تصلوا إليها إلا بمشيئة الله تعالى وتسهيله سبيلها وطرقها لكم، وقد يسرها لكم فبعث إليكم من يهديكم ويدلكم على سبل السلامة ورضوان الله.

❁❁❁❁❁

سورة الانفطار

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ۝١ وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انْتَثَرَتْ۝٢ وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ۝٣ وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ۝٤ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ۝٥﴾ يذكر الله سبحانه وتعالى عباده هنا بيوم القيامة وأخبرهم أن بداية ذلك أن السماء ستنفطر وتتشقق وتتهاوى أجرامها، وأن البحار ستتفجر انفجاراً هائلاً ستنقلب مياهها نيراناً مشتعلة، والقبور ستخرج من بداخلها إلى ساحة الحشر والحساب فعند ذلك الموقف سيطلع كل امرئ على صحيفته التي ستنشر أمام عينيه ليرى فيها جميع ما قدم وأخر من الأعمال صغيرها وكبيرها.

﴿يَاأَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ۝٦ الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ۝٧ فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ۝٨﴾ ثم يتلطف الله سبحانه وتعالى إلى عباده ويدعوهم إليه، ويُعَجِّب من حالهم ما هو الذي صرفهم عنه وعن التوجه إليه وإلى عبادته مع ما أولاهم من النعم التي لا تعد ولا تحصى، وحثهم أن ينظروا في نعمة خلقهم في أحسن تقويم وأجمل صورة من بين جميع مخلوقاته، وتشريفهم على سائر الخلق، فما هو الذي صرفهم إلى عبادة تلك الآلهة التي لا تضر ولا تنفع ولا تغنيهم شيئاً؟

﴿كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالدِّينِ۝٩ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ۝١٠ كِرَامًا كَاتِبِينَ۝١١ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ۝١٢﴾ ثم أخبر الله سبحانه وتعالى بأنه لم يصرفهم شيء وإنما طبيعتهم التمرد والتكذيب والعناد ولكن لا بد من بعثهم وحسابهم وجزائهم، وقد وكل على كل واحد منهم حفظة من ملائكته يحصون عليه جميع أعماله.

﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ۝١٣ وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ۝١٤ يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ الدِّينِ۝١٥ وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَائِبِينَ۝١٦﴾ فسيبعثهم الله تعالى ثم يجازيهم، فالأبرار الأتقياء سيدخلهم في دار كرامته ومستقر رحمته يأكلون ويتنعمون، والعصاة المتمردون سيدخلهم نار جهنم خالدين فيها أبداً.

﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ۝١٧ ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ۝١٨ يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ۝١٩﴾ وفي الاستفهام عنه وتكريره مبالغة في عظمته وتفخيم لشأنه، وما سيكون فيه من الأهوال والشدائد، ومهما وصف ذلك الواصفون فلن يستطيع أحد أن يقدر قدره أو يتصور مدى كبره وعظمته، فهو أعظم مما يتصوره المرء ويتخيله، ولن يستطيع أحد أن ينفع أحداً في ذلك اليوم أو يشفع له إلا ما قدمه من العمل الصالح في الدنيا، والحكم سيكون لله تعالى وحده في ذلك اليوم، وسيحكم بين عباده بالحق والعدل، ولا يظلم ربك أحداً أو ينقصه أو يهضمه.



سورة المطففين

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ۝١ الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ۝٢ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ۝٣﴾ الويل هو الوعيد من الله سبحانه وتعالى بالعذاب الشديد للمطففين وهم الذين يستوفون حقوقهم من الناس كيلاً ووزناً ولا يوفون الناس حقوقهم في كيلهم ووزنهم.

﴿أَلَا يَظُنُّ أُولَٰئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ۝٤ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ۝٥ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ۝٦﴾ ألم يعلم هؤلاء المطففون أن الله سبحانه وتعالى سيبعثهم بعد موتهم للجزاء والحساب على أعمالهم الصغير منها والكبير، والاستفهام هنا للاستنكار، فإن من صدق بالبعث والجزاء يبتعد عن الظلم للناس وأكل أموالهم.

ومبعثهم ذلك يكون في يوم عظيم يجمع الله سبحانه وتعالى فيه الأولين والآخرين فيدخل أهل طاعته جنته ونعيمه، ويعذب الظالمين في نار جهنم.

﴿كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ۝٧ وَمَا أَدْرَاكَ مَا سِجِّينٌ۝٨ كِتَابٌ مَرْقُومٌ۝٩ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ۝١٠ الَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ۝١١﴾ ارتدعوا أيها المكذبون عن تكذيبكم بيوم الدين فإن أعمالكم محصية مسجله في صحف لا تغادر صغيرة ولا كبيرة.

وسجين: يعني في حبس، وذلك أنها لم تصادف قبولاً من الله سبحانه وتعالى.
والويل: هو العذاب الشديد للذين يكذبون بيوم الدين.

﴿وَمَا يُكَذِّبُ بِهِ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ۝١٢ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ۝١٣﴾ فلا يكذب به إلا الذين يتجاوزون حدود الله تعالى بمعاصيهم وفسوقهم، ويرتكبون المآثم ولم يتحرجوا عنها، والذين من صفتهم التكبر عن سماع الحق وقبوله.

﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ۝١٤﴾ والذي صدهم عن قبول الحق والإيمان به هو إجرامهم وتوغلهم في فعل المعاصي حتى استولت على قلوبهم وغطت عقولهم.

﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ۝١٥ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُو الْجَحِيمِ۝١٦ ثُمَّ يُقَالُ هَٰذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ۝١٧﴾ ليس للمكذبين أي حظ يوم القيامة أو نصيب في رحمة الله سبحانه وتعالى وثوابه الذي يعطيه أهل طاعته، وليس لهم إلا عذاب الجحيم يصلون سعيرها ويقال لهم حينئذ: هذا ما كنتم تكذبون به حين دعتكم أنبياؤكم إلى الإيمان به، وحذرتكم من الوقوع فيه.

﴿كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ۝١٨ وَمَا أَدْرَاكَ مَا عِلِّيُّونَ۝١٩ كِتَابٌ مَرْقُومٌ۝٢٠ يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ۝٢١﴾ وأما عباد الله تعالىٰ الذين يعملون أعمال البر التي تقربهم إلىٰ الله سبحانه وتعالىٰ فأعمالهم قد أحصاها الله تعالىٰ في كتب مرقومة، ولها عنده تعالىٰ منزلة عالية ودرجة رفيعة تقرأها الملائكة وتتطلع عليها.

﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ۝٢٢ عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ۝٢٣ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ۝٢٤ يُسْقَوْنَ مِنْ رَحِيقٍ مَخْتُومٍ۝٢٥ خِتَامُهُ مِسْكٌ وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ۝٢٦ وَمِزَاجُهُ مِنْ تَسْنِيمٍ۝٢٧ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ۝٢٨﴾ يتحدث الله سبحانه وتعالىٰ في هذه الآيات عما أعده للأبرار من النعيم المقيم والثواب العظيم في جنات النعيم، يظهر النعيم في وجوههم وفي ملابسهم وفي مطاعمهم ومشاربهم وفي مجالسهم الرفيعة؛ ويشربون الرحيق في آنية مختومة بالمسك؛ فهذا ما ينبغي التنافس فيه لا في حطام الدنيا الفانية، وشرابهم هذا مخلوط بتسنيم وهي عين أعدها الله سبحانه وتعالىٰ يشرب منها عباده المقربون.

﴿إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا يَضْحَكُونَ۝٢٩ وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ۝٣٠ وَإِذَا انْقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمُ انْقَلَبُوا فَكِهِينَ۝٣١ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَؤُلَاءِ لَضَالُّونَ۝٣٢ وَمَا أُرْسِلُوا عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ۝٣٣﴾ وأما المجرمون فليس لهم إلا عذاب جهنم خالدين فيها؛ لأنهم كانوا يستهزئون بالدين وبالمؤمنين، ويكذبون بالأنبياء والمرسلين، ويسخرون منهم، ويضحكون عند رؤيتهم احتقاراً لهم واستهزاءً بهم، وليس لهم سلطان علىٰ أعمال المؤمنين أو محاسبتهم عليها فذلك إلىٰ الله سبحانه وتعالىٰ وحده.

﴿فَالْيَوْمَ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ۝٣٤ عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ۝٣٥﴾ أما يوم القيامة فستنعكس الحال فالكافرون في خزي ومهانة يضحك منهم المؤمنون، ويستهزئون بهم ويوبخونهم، وهم علىٰ أرائكهم ينظرون إليهم.

﴿هَلْ ثُوِّبَ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ۝٣٦﴾ حقاً قد لقي الكفار جزاء أعمالهم.

سورة الانشقاق

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿إِذَا السَّمَاءُ انْشَقَّتْ ۝١﴾ يتحدث الله سبحانه وتعالىٰ عن أحوال يوم القيامة وأهوالها وحوادثها، فالسماء تتشقق وتتهاوىٰ أجرامها.

﴿وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ۝٢﴾ يعني أطاعت واستجابت لأمر ربها، ولم تتأبَّ عن إرادته ومشيئته، وحق لها أن تستجيب ولا تتأبىٰ.

﴿وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ ۝٣ وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ ۝٤ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ۝٥﴾ والأرض والجبال تدك دكاً في ذلك اليوم، وتصير هباءً منبثاً، وتصير أرضاً مستوية لا بحار فيها ولا جبال: ﴿لَا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا ۝١٠٧﴾ [طه]، وستخرج الأرض ما في بطنها من الأموات للجزاء والحساب مستجيبة لأمر ربها.

﴿يَاأَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ ۝٦﴾ إنك أيها الإنسان قادم علىٰ أمر عظيم وهول جسيم، وذلك هو الموافاة ليوم القيامة للحساب والجزاء.

﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ ۝٧ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ۝٨ وَيَنْقَلِبُ إِلَى أَهْلِهِ مَسْرُورًا ۝٩﴾ فإن كنت أيها الإنسان من أهل طاعة الله تعالىٰ فستأخذ كتابك بيمينك، وسيحاسبك الله تعالىٰ حساباً يسيراً، ويعلوك البهجة والسرور والفرح والحبور بما كتب الله سبحانه وتعالىٰ لك من الفوز برضوانه والسلامة من نيرانه.

﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ ۝١٠ فَسَوْفَ يَدْعُو ثُبُورًا ۝١١ وَيَصْلَى سَعِيرًا ۝١٢ إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُورًا ۝١٣ إِنَّهُ ظَنَّ أَنْ لَنْ يَحُورَ ۝١٤ بَلَى إِنَّ رَبَّهُ كَانَ بِهِ بَصِيرًا ۝١٥﴾ وأما أهل المعاصي والسيئات فسيأخذون صحف أعمالهم بشمائلهم المربوطة خلف ظهورهم وهنالك سينادون بالويل والثبور لما رأوا من سخط الله تعالىٰ وشدة غضبه عليهم، وما أعده لهم من عذاب النار، ثم يسحبون علىٰ وجوههم إلىٰ جهنم ليتذوقوا عذابها، وذلك بسبب إعراضهم الشديد عن ذكر الله سبحانه وتعالىٰ، وميلهم إلىٰ متاع الدنيا وغرورها وتقلبهم في نعيمها

مسرورين بما هم فيه من ذلك النعيم بين أهليهم وذويهم مكذبين باليوم الآخر غافلين عنه، وظنوا أنهم لن يرجعوا ولن يلقوا جزاءً ولا حسابا على ذلك، ولكن بلى سيلقون الجزاء والحساب وذلك أن الله سبحانه وتعالى عليم حكيم، وقد اقتضت حكمته أن يرتب جزاء الآخرة على أعمال الدنيا.

﴿فَلَا أُقْسِمُ بِالشَّفَقِ۝١٦ وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ۝١٧ وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ۝١٨ لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ۝١٩﴾ أقسم الله سبحانه وتعالى بالشفق وهو الحمرة التي تعقب غروب الشمس، وهي آية عظيمة دالة على قدرته؛ ليتفكر عباده في هذه الآية العظيمة، وكذلك أقسم بالليل وما حواه من المخلوقات من الحيوانات والبحار والأشجار وغيرها؛ ليلفت عقول عباده في آية الليل هذه وما فيها.

وكذلك أقسم بالقمر إذا استتم نوره في ليلة النصف؛ ليلفت أنظار عباده إلى التفكر في هذه الآية العظيمة، أقسم الله تعالى لعباده بتلك الآيات؛ لأن من نظر فيها عرف قدرة الله تعالى على بعث الموتى وإحياء العظام.

ومعنى ﴿لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ﴾: لتلاقن حالة بعد حالة، من الموت، ورؤية الملائكة، والسؤال والحساب والجزاء.

﴿فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ۝٢٠ وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْءَانُ لَا يَسْجُدُونَ۝٢١ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُكَذِّبُونَ۝٢٢ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ۝٢٣ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ۝٢٤ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ۝٢٥﴾ فما لهم لا يؤمنون بعد معرفتهم لهذه الآيات الدالة على قدرته تعالى، وأي شيء يمنعهم من الإيمان باليوم الآخر بعدما بصرهم الله سبحانه وتعالى آيات قدرته على لسان نبيه ﷺ وفي كتابه، وما لهم لا يتواضعون لله تعالى عند سماعهم لآيات القرآن الدالة على عظمة الله تعالى وقدرته.

والذي منعهم من الإيمان هو عنادهم وشدة تكبرهم بعد معرفتهم واستيقانهم لآيات الله سبحانه وتعالى، ولا يظنون أنه غافل عنهم بل قد أحصى

أعمالهم صغيرها وكبيرها، فأخبرهم يا محمد بما قد أعد الله سبحانه وتعالى لهم من العذاب الأليم جزاءً على تكذيبهم وكفرهم.

أما المؤمنون الذين يعملون الصالحات فلهم عند الله تعالى ثواب وأجر عظيم لا ينقطع أو يزول.

❁❁❁❁❁

سورة البروج

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ۝١ وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ۝٢ وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ۝٣﴾ أقسم الله سبحانه وتعالى بالسماء ذات الكواكب والنجوم ليلفت أنظارنا بهذا القسم إلى النظر والتفكر في السماء وما فيها من الآيات العظيمة الدالة على عظمته وقدرته.

والبروج: هي الكواكب وطرقها التي تسير فيها. واليوم الموعود: هو يوم القيامة أقسم الله سبحانه وتعالى به ليلفت أفكارنا وأنظارنا إلى التفكر فيه. والشاهد: هم الأنبياء، والمشهود: هم أممهم المبعوثون إليهم.

﴿قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ۝٤ النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ۝٥ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ۝٦ وَهُمْ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ۝٧﴾ يعني: لعن أصحاب الأخدود وهم الذين عذبوا المؤمنين بأن أضرموا النار في أخدود كبير، ثم ألقوا بهم في ذلك الأخدود فاحترقوا، وهم ينظرون إليهم، متلذذين بما يرونه من تحريقهم.

﴿وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ۝٨ الَّذِى لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ۝٩﴾ وليس لأولئك المؤمنين ذنب يستحقون به ذلك التحريق بالنار إلا أنهم آمنوا بالله تعالى القوي الغالب الذي يستحق الحمد، المستولي بسلطانه على ملك السماوات والأرض، ولا تخفى عليه خافية، وسيجازي كل عامل بما عمل.

﴿إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ﴿١٠﴾﴾ هذا وعيد من الله سبحانه وتعالىٰ بعذاب جهنم وعذاب الحريق للذين عذبوا المؤمنين والمؤمنات بغير حق، ولم يتوبوا إلىٰ الله تعالىٰ من ذلك.

﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ﴿١١﴾﴾ وهذا وعد من الله سبحانه وتعالىٰ للمؤمنين الذين يعملون الأعمال الصالحة بجنات تجري من تحتها الأنهار.

﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ﴿١٢﴾ إِنَّهُ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ﴿١٣﴾ وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ﴿١٤﴾ ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ﴿١٥﴾ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ﴿١٦﴾﴾ إن عذاب ربك وأخذه للظالمين إذا أخذهم بذنوبهم لأخذ شديد لعظيم قدرته، وتلك هي آيات قدرته فهو يبدئ الخلائق ويخلقها علىٰ غير مثال، ويعيد خلقهم مرة ثانية بعد الموت، وهو الذي يغفر زلات عباده، ولا يستعجلهم بعذابه، بل يتودد إليهم بحلمه وبسوابغ نعمه، وهو ذو السلطان المستولي علىٰ ملك السماوات والأرض المتعالي عن النقائص الذي يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد.

﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْجُنُودِ﴿١٧﴾ فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ﴿١٨﴾ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيبٍ﴿١٩﴾ وَاللَّهُ مِنْ وَرَائِهِمْ مُحِيطٌ﴿٢٠﴾ بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَجِيدٌ﴿٢١﴾ فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ﴿٢٢﴾﴾ هل أتاك يا محمد ما صنع الله بفرعون وجنوده، وقوم صالح عندما كذبوا رسلهم، فقد أخذهم بذنوبهم، وسيلقىٰ قومك يا محمد ما لقي هؤلاء فقدرة الله سبحانه وتعالىٰ محيطة بهم فلا تستعجل نزول العذاب علىٰ قومك يا محمد، فقد استحقوا العذاب بكفرهم وتكذيبهم.

وما نوحيه إليك يا محمد هو قرآن شريف في لوح محفوظ من الشياطين، وليس كما يقول قومك إنه أساطير الأولين، فاصبر علىٰ تبليغ رسالة ربك حتىٰ يأتي وعد الله بعذاب قومك.

سورة الطارق

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ ﴿١﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ ﴿٢﴾ النَّجْمُ الثَّاقِبُ ﴿٣﴾﴾ أقسم الله سبحانه وتعالى بالسماء وبالطارق؛ ليلفت أنظارنا للتفكر في آياتها، وفي النجم الطارق وهو: النجم الذي يثقب بنوره الظلام.

﴿إِنْ كُلُّ نَفْسٍ لَمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ ﴿٤﴾﴾ هذا جواب القسم، وهو أن على كل نفس حافظاً يحصي عليها أعمالها صغيرها وكبيرها.

﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ ﴿٥﴾ خُلِقَ مِنْ مَاءٍ دَافِقٍ ﴿٦﴾ يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ ﴿٧﴾ إِنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ لَقَادِرٌ ﴿٨﴾﴾ يأمر الله سبحانه وتعالى الإنسان هنا بالنظر في بداية خلقه وتكوينه، ومم خلقه؟ ليعرف عظمة الله سبحانه وتعالى ومدى قدرته، وأنه قادر على إحياء الموتى وبعثهم.

﴿يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ ﴿٩﴾ فَمَا لَهُ مِنْ قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ ﴿١٠﴾﴾ إذا نظر الإنسان وتفكر في آثار قدرة الله تعالى فسيعلم أنه قادر على بعث الناس من قبورهم للحساب والجزاء، وإذا بعث الله تعالى الناس من قبورهم للجزاء في يوم القيامة الذي تتكشف فيه أسرار القلوب وما أضمر فيها فهنالك لا يستطيع الإنسان أن يدفع عن نفسه عذاب الله تعالى، ولا يجد له ناصراً ينصره من بأس الله تعالى وعذابه.

﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ ﴿١١﴾ وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ ﴿١٢﴾ إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ ﴿١٣﴾ وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ ﴿١٤﴾﴾ أقسم الله سبحانه وتعالى بالسماء التي ينزل منها الخير والمطر، وبالأرض التي تتشقق بالنبات إن هذا القرآن قول حق يفصل بين الحق والباطل، وما هو بالباطل كما يزعم أولئك المشركون.

﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ﴿١٥﴾ وَأَكِيدُ كَيْدًا ﴿١٦﴾ فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا ﴿١٧﴾﴾ إن المشركين يدبرون الحيل والمكائد ليكيدوا بها الإسلام ونبي الإسلام، وكيد الله تعالى فوق كيدهم، وقوته فوق قوتهم، ولن يفلتوا من قبضته، فانتظر يا محمد واصبر فسينتقم الله تعالى من المشركين وينزل بهم عذابه وغضبه.

سورة الأعلى

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى۝١ الَّذِى خَلَقَ فَسَوَّى۝٢ وَالَّذِى قَدَّرَ فَهَدَى۝٣ وَالَّذِى أَخْرَجَ الْمَرْعَى۝٤ فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَى۝٥﴾ نزه ربك يا محمد عن الشريك والولد والشبيه والمثيل الذي خلق المخلوقات فأحسن بحكمته خلقها، والذي قدر خلقها فهداها إلى مصالحها ومراشدها، وأخرج بقدرته المرعى والنبات، فبعد خضرته جعله يابساً متفتتاً أسود.

﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنْسَى۝٦ إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَى۝٧﴾ طمأن الله تعالى نبيه ﷺ من عدم تفلت القرآن من صدره، وأنه لن ينسا ه إلا ما محاه الله تعالى بالنسخ من صدره على حسب ما تقتضيه حكمته وعلمه فإنه العليم الحكيم لا تخفى عليه خافيه.

﴿وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَى۝٨﴾ وسنسلك بك يا محمد سبل الهدى المتيسرة.

﴿فَذَكِّرْ إِنْ نَفَعَتِ الذِّكْرَى۝٩﴾ فاستمر على تبليغ القرآن ولا تفتر.

﴿سَيَذَّكَّرُ مَنْ يَخْشَى۝١٠﴾ فسيتفع بتذكيرك الذين يخشون الله تعالى واليوم الآخر.

﴿وَيَتَجَنَّبُهَا الْأَشْقَى۝١١ الَّذِى يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرَى۝١٢ ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَا۝١٣﴾ وسيعرض عن تذكيرك الذي توغل في الشقاء والكفر، واستحق بشقاوته وكفره النار الكبرى التي لا ينقطع عذابها، ولا يموت أهلها.

﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى۝١٤ وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى۝١٥ بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا۝١٦ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى۝١٧ إِنَّ هَذَا لَفِى الصُّحُفِ الْأُولَى۝١٨ صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى۝١٩﴾ قد فاز وظفر من زكى نفسه وطهرها بالإيمان والهدى وآمن بالله تعالى، وتوجه إلى عبادته ولكن الإنسان لشقاوته يميل إلى شهوات الدنيا ويترك الآخرة وهي خير وأفضل؛ لأنها باقية لا تفنى ولا تنقطع.

وهذه العظة والعبرة مسطورة في صحف نبي الله إبراهيم عليه السلام وفي توراة موسى عليه السلام.

سورة الغاشية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ۝١ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ۝٢ عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ۝٣ تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً۝٤ تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ آنِيَةٍ۝٥ لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِنْ ضَرِيعٍ۝٦ لَا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِنْ جُوعٍ۝٧﴾ يعظم الله سبحانه وتعالى لنبيه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ وللناس جميعاً أمر يوم القيامة، ويعظم أهوالها وحوادثها، وأنها تغشى الخلائق وتعمهم بأهوالها وشدائدها، ثم ينقسمون إلى فريقين: فريق في الجنة، وفريق في السعير.

فأما أهل السعير فوجوههم في يوم القيامة كاسفة ومنكسرة يعلوها الخزي والذل؛ لما ترى من أهوال الجحيم وعذابها، ولما تعاني من أليمها وأهوالها، وتقاسي من أصناف عذابها، وستسقى في الجحيم من شراب في غاية الحرارة، وطعامهم فيها الضريع، وهو: نبات شديد المرارة لا يسمن ولا يغني من جوع.

﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاعِمَةٌ۝٨ لِسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ۝٩ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ۝١٠ لَا تَسْمَعُ فِيهَا لَاغِيَةً۝١١ فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ۝١٢ فِيهَا سُرُرٌ مَرْفُوعَةٌ۝١٣ وَأَكْوَابٌ مَوْضُوعَةٌ۝١٤ وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ۝١٥ وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ۝١٦﴾ ثم تحدث الله سبحانه وتعالى عن أهل الجنة فذكر أن وجوههم يوم القيامة مشرقة يظهر عليها السرور والنعيم قد رضيت سعيها في الدنيا من الأعمال الصالحة التي قدموها، فهم في جنة عالية الصفة، لا ينقطع نعيمها، ولا تنتهي لذاتها، ولا يسمعون فيها كذباً ولا زوراً ولا باطلاً؛ لأن أهل الباطل والزور قد حبسوا في جهنم، وأوصدت عليهم أبوابها.

فهم في نعيم خالص من المنغصات، وفي الجنة العالية أنهار تجري من تحتهم، ويجلسون على سرر مرفوعة، وعندهم أكواب موضوعة فيها أصناف الشراب، ولهم في مجالسهم العالية وسائد مصفوفة وفرش مفروشة. والزرابي: هي الفرش، والنمارق: هي الوسائد.

﴿أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ۝١٧ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ۝١٨

وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ﴿١٩﴾ وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴿٢٠﴾﴾ استنكر الله سبحانه وتعالىٰ علىٰ منكري البعث والحساب غفلتهم عن النظر في آثار قدرة الله سبحانه وتعالىٰ فلو نظروا وتفكروا لأيقنوا أن الله علىٰ كل شيء قدير، وأنه قادر علىٰ أن يحيي الموتىٰ، ولما استبعدوا علىٰ قدرة الله تعالىٰ أن يبعث الموتىٰ، فأمرهم الله سبحانه وتعالىٰ أن ينظروا إلىٰ الإبل التي تعيش بينهم وتصحبهم في ليلهم ونهارهم كيف خلقها الله تعالىٰ وأعطاها من القوة والتركيب في أجسامها ما تقدر معه علىٰ حمل الأحمال الثقيلة وتسافر بها من بلد إلىٰ بلد.

ثم أمرهم بالنظر إلىٰ ما جعل الله في السماء من آيات قدرته وعظمته، وإلىٰ الجبال كيف خلقها الله تعالىٰ ذاهبة في السماء طولاً، وما جعل فيها من آيات رحمته وحكمته، وإلىٰ الأرض كيف خلقها الله تعالىٰ صالحة للحياة علىٰ ظهرها، وما جعل فيها من أسباب الأرزاق والأرفاق، فلو نظروا حق النظر في هذه الآيات لأيقنوا أن الله قادر علىٰ إحياء الموتىٰ، ولما استبعدوا ذلك.

﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ﴿٢١﴾ لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُسَيْطِرٍ﴿٢٢﴾ إِلَّا مَنْ تَوَلَّى وَكَفَرَ﴿٢٣﴾ فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ﴿٢٤﴾ إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ﴿٢٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ﴿٢٦﴾﴾ فواصل تذكيرك يا محمد للمشركين، ولا يصدنك إعراضهم وتكذيبهم عن تذكيرهم بل داوم علىٰ ذلك، وليس عليك إلا التذكير، وليس عليك أن يدخلوا في الهدىٰ فإنما أنت مذكر فإذا ذكرتهم فقد أديت ما عليك فمن قبل التذكير والهدىٰ فلنفسه، ومن أعرض وكفر فسيتولىٰ الله تعالىٰ جزاءهم ويعذبهم بذنوبهم في نار جهنم، ولا مفر لهم من ذلك فمرجعهم إلينا وسنتولىٰ حسابهم، و«ما عليك من حسابهم من شيء».



سورة الفجر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالْفَجْرِ ۝١ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ۝٢ وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ ۝٣ وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ ۝٤ هَلْ فِي ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِذِي حِجْرٍ ۝٥﴾ أقسم الله سبحانه وتعالى بالفجر وهو النور الساطع الذي يسبق نور الشمس من جهة المشرق لما فيه من الآية الدالة على قدرته، فلفت أنظارهم بهذا القسم ليتفكروا في هذه الآية.

والليالي العشر: أراد بها العشر الأول من شهر ذي الحجة، وكانت الجاهلية تعظمها.

والشفع والوتر: أراد الله سبحانه وتعالى بهما المخلوقات جميعاً؛ لأن ذلك إما شفع وإما وتر، والشفع: هو العدد الزوجي، والوتر: هو العدد الفردي.

ثم أقسم الله سبحانه وتعالى بالليل عند طلوع الفجر لما فيه من الآية الدالة على قدرته لمن نظر وتفكر، وفي جميع ما أقسم الله تعالى به من الفجر وما بعده آيات دالة لأهل العقول على قدرة الله تعالى وعظمته وإلهيته ورحمته.

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝٦ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ۝٧ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ ۝٨ وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ ۝٩ وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ ۝١٠ الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ ۝١١ فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ ۝١٢ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ۝١٣ إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ ۝١٤﴾ لا تستبعد يا محمد أن ينزل بقومك من العذاب مثل ما نزل بقوم عاد، وبما حل بقوم صالح وبفرعون فقد استحقوا العذاب واستحكم عليهم غضب الله تعالى، فعذاب الله تعالى نازل بهم لا محالة كما نزل بهؤلاء.

وإرم ذات العماد: هي مدينة محكمة البناء كانت لقوم عاد، وكانوا قد تأنقوا في عمارتها وتفننوا في ذلك، ولم يكن على وجه الأرض مثلها في ذلك العصر، فدمرها الله سبحانه وتعالى بشؤم كفرهم وتكذيبهم بنبيهم هود عليه السلام، وأهلك الله تعالى ثمود حين كذبوا بنبيهم وتمردوا عليه، وقد كانوا أهل قوة شديدة، وكانوا ينحتون من الجبال بيوتاً، ولا تزال بيوتهم المنحوتة في الجبال قائمة إلى اليوم، وهي ما بين المدينة وتبوك وتسمى مدائن صالح.

وأهلك الله سبحانه وتعالىٰ فرعون وجنوده لما كذبوا وتمردوا علىٰ نبي الله موسىٰ عليه السلام، وكان فرعون وقومه أهل قوة شديدة، والأوتاد: هي الأهرام، وهي ماثلة أمام الناس إلىٰ يومنا هذا، وكانوا قد طغوا في البلاد وتجاوزوا الحد في الفساد وسفك الدماء والظلم فأهلكهم الله تعالىٰ وصب عليهم غضبه، وسيصيب قومك يا محمد من العذاب مثل ما قد أصاب هؤلاء المكذبين بأنبيائهم، فاصبر حتىٰ يحين موعد عذابهم.

﴿فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ ۝١٥ وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ ۝١٦﴾ يذكر الله سبحانه وتعالىٰ هنا طبيعة الإنسان الكافر إذا أنعم الله تعالىٰ عليه فإنه يقول إن الله تعالىٰ أكرمه لأنه يستحق الكرامة، ولا يقابل نعمة الله تعالىٰ عليه بالشكر، وإذا ابتلاه وضيق عليه في رزقه فإنه يقول: إن الله تعالىٰ أهانه ولا يقابل ذلك بالصبر والرضا بما قسم الله سبحانه وتعالىٰ له، وهذا بخلاف الإنسان المؤمن فإنه يقابل نعم الله تعالىٰ عليه بالشكر، وإذا ضيق الله تعالىٰ عليه في رزقه قابل ذلك بالصبر والرضا عن الله تعالىٰ بما قسم له.

﴿كَلَّا بَل لَا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ ۝١٧ وَلَا تَحَاضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ ۝١٨ وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلًا لَمًّا ۝١٩ وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا ۝٢٠﴾ ثم تابع الله سبحانه وتعالىٰ صفة الإنسان الكافر بقساوة القلب فلا يعطف قلبه علىٰ يتيم، ولا يلتفت إلىٰ حاجة مسكين لشدة طمعه وحرصه علىٰ جمع المال وحبه.

﴿كَلَّا إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ۝٢١ وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ۝٢٢ وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ وَأَنَّىٰ لَهُ الذِّكْرَىٰ ۝٢٣ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي ۝٢٤ فَيَوْمَئِذٍ لَا يُعَذِّبُ عَذَابَهُ أَحَدٌ ۝٢٥ وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُ أَحَدٌ ۝٢٦﴾ سيندم الإنسان الكافر علىٰ ما أسلف في الدنيا حين يدك الله الأرض دكاً، وحين يقف بين يدي ربه للحساب والجزاء، وحين يرىٰ جهنم ماثلة أمامه، فحينئذ سيذوق

وبال أعماله في عذاب جهنم ويقيد بأغلال من نار جهنم.

﴿يَاأَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ۝٢٧ ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً ۝٢٨ فَادْخُلِي فِي عِبَادِي ۝٢٩ وَادْخُلِي جَنَّتِي ۝٣٠﴾ أما النفس المطمئنة بالإيمان بالله تعالى وباليوم الآخر، والتي قد عملت الأعمال الصالحة فإنها ستلقى من ثواب الله تعالى ما يرضيها في ظل رضوان الله تعالى، وستناديها الملائكة نداء تكريم بالدخول مع عباد الله الصالحين في جنات النعيم.

❁❁❁❁❁

سورة البلد

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ ۝١ وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ ۝٢ وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ ۝٣ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ ۝٤﴾ أقسم الله سبحانه وتعالى بالبلد الحرام وهي مكة التي يأمن فيها كل خائف حتى الطير والوحش، وأما أنت يا محمد فقد استحل المشركون حرمتك في هذا البلد، ثم أقسم الله سبحانه وتعالى بآدم وذريته.

وقد أقسم الله سبحانه وتعالى بذلك ليذكر قريشاً بنعمته عليهم بالبلد الحرام، وما جعل الله تعالى لهم بسببه من الأمن فيه وفي سائر البلاد، بخلاف غيرهم من العرب فقد كانوا خائفين، بينما لا يتعرض لقريش أحد حيثما كانوا وحيثما ساروا.

وأقسم الله تعالى أيضاً بآدم وذريته ليجر أفكارهم إلى النظر في بدء خلق الإنسان وتناسله، فإنهم إذا نظروا فسيعلمون أن الله سبحانه وتعالى قادر على إعادتهم بعد الموت وبعثهم للجزاء والحساب. ومعنى ﴿فِي كَبَدٍ﴾، أي: أن الإنسان يكابد منذ خروجه إلى الأرض وإلى أن يموت مصائب الدنيا، وقد فسر ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ ۝٤﴾ بمعنى: ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ۝٤﴾ [التين].

﴿أَيَحْسَبُ أَنْ لَنْ يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ ۝٥ يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُبَدًا ۝٦ أَيَحْسَبُ أَنْ لَمْ يَرَهُ أَحَدٌ ۝٧﴾ من طبيعة الإنسان الكافر الغرور بسبب ما هو فيه من

الترف والأمن والصحة فيظن بسبب ذلك أنه في مأمن من بأس الله تعالى وعذابه، وأنه لن يقدر أحد أن يلحقه بمكروه، ويقول فخراً وغروراً: أهلكت مالاً كثيراً، أيظن أن الله سبحانه وتعالى لا يراه؟ بلى فإن الله سبحانه وتعالى يحصي عليه جميع أعماله، وسيحاسبه عليها يوم القيامة.

﴿أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ۝ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ۝ وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ۝﴾ يحتج الله سبحانه وتعالى على المشركين المنكرين للبعث والحساب بعد الموت فيذكر لهم هنا آيات قدرته التي جعلها في أنفسهم، فلو تفكروا ونظروا في أنفسهم لعلموا أن الله سبحانه وتعالى قادر على بعثهم بعد موتهم، ولما استبعدوا ذلك.

﴿فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ۝ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ۝ فَكُّ رَقَبَةٍ۝ أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ۝ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ۝ أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ۝ ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ۝ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ۝ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا هُمْ أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ۝ عَلَيْهِمْ نَارٌ مُؤْصَدَةٌ۝﴾ أهل الشرك والكفر غير مؤمنين بالآخرة فلا يعملون الأعمال التي تقربهم إلى الله سبحانه وتعالى، فلم يسعوا في فك رقبة من أسر الرق والعبودية، ولم يتقربوا إلى الله سبحانه وتعالى بإطعام مسكين أو يتيم أو ذي رحم في يوم شدة ومجاعة كما هو الحال عند المؤمنين فإنهم يتقربون إلى الله سبحانه وتعالى بأنواع القربات من العتق والإطعام وغير ذلك، فإن ذلك من القربات المقربة إلى الله سبحانه وتعالى إذا كان فاعلها من أهل الإيمان بالله واليوم الآخر الذين يتواصون فيما بينهم بالصبر على طاعة الله تعالى وبالتراحم فيما بينهم وبالعطف على المسكين واليتيم، فأهل هذه الصفة هم أصحاب الميمنة الذين يحضون يوم القيامة برضوان الله تعالى وجزيل ثوابه، وأما الذين كفروا وكذبوا بالله تعالى وباليوم الآخر فلا نصيب لهم في رحمة الله تعالى وليس لهم عنده يوم القيامة إلا نار جهنم يحبسون فيها، وتوصد عليهم أبوابها فهم فيها مخلدون.

سورة الشمس

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا۝١ وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا۝٢ وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا۝٣ وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا۝٤ وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا۝٥ وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا۝٦ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا۝٨﴾ أقسم الله سبحانه وتعالىٰ بالشمس وبنورها الوهاج، وبالقمر ليلة النصف وذلك عندما تطلع القمر بعد مغيب الشمس مباشرة، وأقسم بالنهار، وأقسم بالليل حين يغطي الشمس، وذلك عندما يقبل الليل، وأقسم بالسماء وببنايتها المحكمة، وبالأرض وبتسويتها، وبالنفس وما فيها من إحكام الخلقة من الأعضاء والجوارح والسمع والبصر والعقل الذي جبله الله سبحانه وتعالىٰ علىٰ معرفة الحسن والقبيح والهدىٰ والضلال والتمييز بين الحق والباطل- أقسم الله سبحانه وتعالىٰ بكل ذلك لما فيها للناظرين من الآيات العظيمة الدالة علىٰ قدرة الله تعالىٰ وعلىٰ علمه وعظمته.

﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا۝٩ وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا۝١٠﴾ يؤكد الله سبحانه وتعالىٰ علىٰ فوز من طهر نفسه وزكاها من الخبائث والفواحش والكفر والضلال، وعلىٰ ظفره برضوان الله تعالىٰ وثوابه، وقد خاب وخسر من دنس نفسه بالخبائث، وخاض بها في معاصي الله تعالىٰ.

﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا۝١١ إِذِ انْبَعَثَ أَشْقَاهَا۝١٢ فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا۝١٣ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذَنْبِهِمْ فَسَوَّاهَا۝١٤ وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا۝١٥﴾ كفرت ثمود بنبيها المبعوث إليها وهو صالح عليه السلام، وكذبته فيما جاءهم به من عند الله تعالىٰ بسبب كبرهم وتجاوزهم للحدود في التمرد علىٰ الله تعالىٰ وفي الفسوق والعصيان، وأجمعوا علىٰ مخالفته فيما أمرهم به فبعثوا أشقاهم لعقر الناقة التي جعلها الله تعالىٰ لهم آية بعدما حذرهم نبيهم صالح عليه السلام من عاقبة التعرض لهذه الناقة ولسقياها، وأخبرهم أنه سينزل بهم غضب الله تعالىٰ إن هم تعرضوا لها،

ولكنهم كذبوه فيما أخبرهم وحذرهم فجاءهم الله سبحانه وتعالى بعذابه، واستأصلهم بنكاله بسبب ذنوبهم فدمدم عليهم بيوتهم فسواها بالأرض، وقد فعل الله سبحانه وتعالى بهم ذلك من غير أن يخاف أن يلحقه تبعة ما فعل بهم من العذاب.

❁❁❁❁❁

سورة الليل

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى۝١ وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى۝٢ وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى۝٣ إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى۝٤﴾ أقسم الله سبحانه وتعالى بالليل عند غشيانه وبالنهار عند دخوله، وبعظيم فطرته في خلق الذكر والأنثى ليلفت الأنظار إلى التفكر في هذه الآيات العظيمة الواضحة المكشوفة، وقد أقسم الله سبحانه وتعالى بهذه الأشياء على أنه لا يسوي بين عباده، فلا يسوي بين الظالم والمظلوم، ولا بين الفاسق والمؤمن ولا بين الضال والمهتدي.

﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى۝٥ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى۝٧﴾ فأما من أدى ما افترض الله سبحانه وتعالى عليه في ماله، وصدق برسالاته وبما جاءهم به محمد صلى الله عليه وآله وسلم وباليوم الآخر فسيسلك الله تعالى به سبل الهدى الموصلة إلى الجنة.

﴿وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى۝٨ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى۝٩ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى۝١٠﴾ وأما من بخل بماله ولم يؤد ما افترض الله سبحانه وتعالى عليه فيه، واسترسل في معاصي الله تعالى، وكذب بدينه وباليوم الآخر فلا يهديه الله تعالى لسبل الخير والرضوان، وأن مصيره إلى عذاب جهنم خالداً فيها أبداً.

﴿وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّى۝١١﴾ ولن يستنقذه ماله من عذاب الله تعالى إذا نزل به.

﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى۝١٢﴾ اقتضت حكمة الله سبحانه وتعالىٰ أن لا يترك الناس هملاً، فأرسل إليهم الرسل، وأنزل عليهم الكتب ليدلهم علىٰ طريق الهدىٰ، ويحذرهم من سبل الردىٰ.

﴿وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَى۝١٣﴾ يختص الله سبحانه وتعالىٰ بالملك والسلطان في الدنيا وفي الآخرة لا يشاركه في ذلك شريك.

﴿فَأَنْذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّى۝١٤ لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى۝١٥ الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّى۝١٦ وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى۝١٧ الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى۝١٨ وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى۝١٩ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى۝٢٠ وَلَسَوْفَ يَرْضَى۝٢١﴾ هذا تحذير وإنذار للكافرين وللناس جميعاً مما هم قادمون عليه لا محالة من العذاب الذي قد أعده الله تعالىٰ لأهل الشقاء الذين كذبوا برسالات الله تعالىٰ وأعرضوا عنها، وسينجي الله سبحانه وتعالىٰ من هذا العذاب الذي قد أعده للكافرين المؤمنين الذين يتقون معاصيه ويطيعونه، ولا يبخلون بما افترضه الله تعالىٰ عليهم في أموالهم ليتطهروا بها، ويعطونها لوجه الله تعالىٰ ولا يعطونها مكافأة علىٰ من قد أحسن إليهم، ولكن يعطونها ابتغاء وجه ربهم العظيم، يطلبون بذلك رضوانه وسوف يرضىٰ عنهم.

❁❁❁❁❁

سورة الضحى



﴿وَالضُّحَى۝١ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى۝٢ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى۝٣ وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الْأُولَى۝٤ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى۝٥ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى۝٦ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى۝٧ وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى۝٨ فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ۝٩ وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ۝١٠ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ۝١١﴾ أبطأ نزول الوحي علىٰ رسول الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ فخاف صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ أن يكون ذلك لغضب من الله تعالىٰ عليه

صادر عن تقصير من النبي ﷺ في تبليغ الرسالة، فنزلت هذه السورة لتطمئن رسول الله ﷺ، وتزيل خوفه وهواجس نفسه، فأقسم الله تعالى بالضحى وهو أول اليوم حين ترتفع الشمس وتنتشر على الأرض، وبالليل إذا غطى بظلامه الأرض- أن ربك يا محمد لم يتركك لتقصير منك في تبليغ الرسالة وحمل الأمانة، ولم يغضب عليك ولم يكرهك، بل إنه راضٍ عنك وعن سعيك في تبليغ الرسالة وأداء الأمانة، وثواب الآخرة يا محمد الذي أعده الله تعالى لك خير لك من أن يثيبك الله في الدنيا، فما يلحقك في الدنيا من فقر وخوف وشدائد ومضائق ليس لهوانك على الله تعالى فإنك عنده بالمنزلة الرفيعة والدرجة العالية، وثواب الآخرة خير لك من ثواب الدنيا.

وأنت يا محمد بعين الله تعالى ورعايته من أول عمرك إلى اليوم، فقد كنت يتيماً بلا أب ولا أم فآواك الله تعالى إلى حجر عمك، وعطَّفه عليك، وملأ قلبه شفقة بك، فحاطك بشفقته، ورعاك بعطفه ورحمته.

وكنت يا محمد جاهلاً للهدى وطرق الرشاد فأوحى الله تعالى إليك برسالة الهدى ودين الإسلام، واصطفاك واختارك على العالمين.

وكنت فقيراً في أول الأمر فأغناك الله تعالى من فضله بأموال زوجتك خديجة؛ فاشكر نعمة الله تعالى عليك فتعطَّف على اليتيم وأَوْلِهِ شفقة منك ورحمة، وارحم المسكين، ولا تنهر السائل الفقير، وبلغ رسالة ربك، ولا تتوان في تبليغها للناس.

❁❁❁❁❁

سورة الشرح



﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۝١ وَوَضَعْنَا عَنْكَ وِزْرَكَ ۝٢ الَّذِى أَنْقَضَ ظَهْرَكَ ۝٣ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ۝٤ فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ۝٥ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ۝٦ فَإِذَا فَرَغْتَ

فَانْصَبْ۝٧ وَإِلَى رَبِّكَ فَارْغَبْ۝٨﴾ اشتد البلاء على النبي ﷺ والمؤمنين والفقر والخوف، وتمردت قريش عن الإيمان، وطال ذلك على النبي ﷺ والمسلمين فخاف النبي ﷺ أن يكون السبب هو تقصيره في تبليغ الرسالة وهوانه على الله تعالى فنزلت هذه السورة لتمسح ذلك من صدره فقال الله تعالى له: إن نعمنا عليك يا محمد كثيرة متواصلة، فقد شرحنا لك صدرك، أي: وسعناه للإيمان وتحمل المتاعب، وقد وضعنا عنك وزر تبليغ الرسالة، فقد بلغت المشركين وأديت ما عليك، وقد كان حملاً ثقيلاً كاد أن يقصم ظهرك لشدته وثقله، وبنعمة الله تعالى عليك ارتفع عنك هذا التكليف، وبنعمة الله تعالى أيضاً نشرنا ذكرك في الآفاق، وشهرنا أمرك والثناء عليك في البلدان، فاصبر يا محمد على ما أنت فيه وأصحابك من البلاء والشدائد فسيعقب ذلك البلاء وتلك الشدائد اليسر والفرج والرخاء والأمن والسلطان والغلبة، فاصبر حتى يأتي الله تعالى بالفرج، والجأ إلى الله تعالى بالدعاء والرغبة إليه بالعبادة والطاعة فيما أمرك به.

❁❁❁❁❁

سورة التين



﴿وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ۝١ وَطُورِ سِينِينَ۝٢ وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ۝٣ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ۝٤ ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ۝٥ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ۝٦﴾ أقسم الله سبحانه وتعالى بالتين والزيتون، والتين: فهو ما يعرف بـ«البلس» عندنا، والزيتون: فهو الشجرة المباركة التي تنبت في أرض الشام؛ أقسم الله سبحانه وتعالى بهما لما للناس فيهما من المنافع العظيمة، وليلفت أنظارهم إلى نعمة الله تعالى عليهم بهاتين الثمرتين، وأقسم الله سبحانه وتعالى بجبل الطور الواقع بسيناء وهو الجبل الذي كلم الله

سبحانه وتعالىٰ عنده موسىٰ عليه السلام، وهو جبل مبارك، وأقسم بمكة وهي البلد الآمن، وذلك ليذكر الناس بنعمته عليهم بالحرم المحرم الآمن.

أقسم الله سبحانه وتعالىٰ بكل ذلك علىٰ أنه أكرم الإنسان في خلقه حين خلقه منتصب القامة ومرتفع الهامة وبادي البشرة يأكل بيديه، ويتكلم بما يريد بلسانه ويفصح عما في ضميره بحسن بيانه، وأختصه بالعقل الذي يميز به بين حقائق الأمور، ويتبين به الحق من الباطل والهدىٰ من الضلال، وبه يسيطر الإنسان عل سائر المخلوقات، ولكن الإنسان لسوء اختياره ضل عن الهدىٰ وسار في طرق الضلال التي أوردته جهنم وبئس القرار، وأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم يوم القيامة أجر عظيم في جنات النعيم لا ينقطع أبداً.

﴿فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ۝٧ أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ۝٨﴾ بعدما ظهرت حجتك يا محمد وانتشر الحق لا يكذبك أحد بيوم الجزاء؛ لأن الحق قد قهرهم ودلائل الحجة قد ظهرت بينهم، وربك يا محمد هو أحكم الحاكمين فقد أظهر الدين الحق علىٰ الدين كله ولو كره المشركون.

۞۞۞۞۞

سورة العلق

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَقَ۝١ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ۝٢ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ۝٣ الَّذِى عَلَّمَ بِالْقَلَمِ۝٤ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ۝٥﴾ هذه الآيات – كما يقال– أول ما نزل من الوحي علىٰ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وفيها دلالة واضحة علىٰ فضل تعلم العلم عند الله تعالىٰ.

ومعنىٰ ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ﴾: استعن علىٰ قراءتك بذكر اسم الله تعالىٰ القادر علىٰ إعانتك، الذي خلق الخلائق وفطرها وخلق الإنسان بقدرته من قطعة دم متجمدة، ثم أكد الأمر بالقراءة مرة ثانية لما لها من الأهمية عند الله سبحانه

وتعالىٰ فعن طريقها يكتسب الإنسان العلم ومعرفة الله تعالىٰ ومعرفة شرائعه وأحكامه، وبنعمة الله تعالىٰ وكرمه وفضله علىٰ الناس علمهم القراءة والكتابة بالقلم، وعلم الإنسان ما لم يعلم.

﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيَطْغَى۝٦ أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى۝٧﴾ إن الإنسان مع كثرة نعم الله تعالىٰ عليه وسبوغها يتجاوز الحدود بكفر النعم وعصيان المنعم.

﴿إِنَّ إِلَى رَبِّكَ الرُّجْعَى۝٨﴾ إن الله سبحانه وتعالىٰ يمهل العصاة ولا يهمل، ومرجعهم إليه للجزاء علىٰ أعمالهم التي قدموها.

﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى۝٩ عَبْدًا إِذَا صَلَّى۝١٠ أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ عَلَى الْهُدَى۝١١ أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَى۝١٢ أَرَأَيْتَ إِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى۝١٣ أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى۝١٤﴾ أخبرني يا محمد عن ذلك الإنسان العاتي الكافر الذي ينهىٰ المصلين لله تعالىٰ عن الصلاة والمتعبدين له؟ وأخبرني كيف يكون حال هذا العاتي إذا انكشف الأمر أن ذلك المصلي علىٰ الهدىٰ، وأنه كان يأمر بتقوىٰ الله تعالىٰ؟ وأخبرني كيف يكون حال هذا المكذب العاتي الذي تولىٰ عن الهدىٰ، ونهىٰ عن عبادة الله تعالىٰ عند الله يوم القيامة؟ ألم يعلم هذا العاتي أن الله سبحانه وتعالىٰ يراه، ويحصي عليه أعماله صغيرها وكبيرها، وأنه سيجازيه عليها؟

﴿كَلَّا لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ لَنَسْفَعَنْ بِالنَّاصِيَةِ۝١٥ نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ۝١٦ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ۝١٧ سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ۝١٨ كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ۝١٩﴾ أقسم الله تعالىٰ قسماً يهدد فيه ذلك الجبار العاتي الذي يمنع المصلين عن الصلاة، ويصد عن تقوىٰ الله تعالىٰ بأنه سيأخذه أخذاً عنيفاً، ويجره بناصيته إلىٰ وبال عذابه فإنه أهل للعذاب لكثرة كذبه علىٰ الله تعالىٰ ولتجاوزه لحدوده، فعند ذلك الأخذ العنيف فليدع قريشاً لتنقذه من الهلاك وأنىٰ لها ذلك، هنالك ستأخذ الزبانية الجبابرة الصادين عن الهدىٰ، وتقلبهم في عذاب جهنم، وتتولىٰ تحريقهم بلهيبها وبئس المصير.

ولا يصدنك يا محمد ما يقوله جبابرة قريش عن تبليغ الرسالة وعبادة ربك، وأكثر من الصلاة والتقرب إلى الله سبحانه وتعالى وإن رغمت أنوفهم ولو لحقك من الأذى ما لحقك فاصبر فإن العاقبة لك وللمؤمنين.

❁❁❁❁❁

سورة القدر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ۝١ وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ ۝٢ لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ ۝٣ تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ ۝٤ سَلَامٌ هِيَ حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ ۝٥﴾ أنزل الله تعالى القرآن الكريم من اللوح المحفوظ إلى سماء الدنيا في شهر رمضان في ليلة القدر، ثم نزل بعد ذلك على النبي ﷺ مفرقاً في ثلاث وعشرين سنة على حسب الحوادث والحاجة.

ومعنى ﴿لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾: أن لها منزلة وفضل عند الله سبحانه وتعالى وليست كسائر الليالي، وقد عظمها الله سبحانه وتعالى في هذه السورة وفخم أمرها، وذكر أنها أفضل من ألف شهر، وأخبر أن الملائكة يتقدمهم جبريل عليه السلام تتنزل إلى الأرض في هذه الليلة المباركة بأمر الله تعالى لتقرير الآجال والأرزاق، وما يقضيه الله سبحانه وتعالى ويحكم به في عباده في تلك السنة، وهي ليلة جعلها الله سبحانه وتعالى كلها سلاماً، وهي من غروب الشمس إلى طلوع الفجر.

❁❁❁❁❁

سورة البينة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفَكِّينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ ۝١ رَسُولٌ مِنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُطَهَّرَةً ۝٢ فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ ۝٣﴾ كان أهل الكتاب والمشركون يقولون: لا نزال على ما نحن عليه من الدين حتى

يأتينا رسول من عند الله تعالىٰ يبين لنا الدين الحق، ويتلو علينا كتباً مسطورة من عند الله تعالىٰ لم تمسها الشياطين ولا أهل الباطل، ولا يمسها إلا الملائكة المطهرون، وقد كتبت فيها شرائع الله تعالىٰ وأحكامه الحقة التي استوضح فيها الحق وبان.

﴿وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَةُ۝٤﴾ اختلف أهل الكتاب عند مبعث النبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ الذي جاءهم بالهدىٰ والحق الواضح فمنهم من آمن به، ومنهم من كفر بعدما استوضحوا الحق، وبان لهم الصدق.

﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ۝٥﴾ جاءهم الرسول صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ بعبادة الله تعالىٰ وحده وإخلاصها له، وأمرهم بأن يميلوا عن كل دين إلا دين الإسلام، وبإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة، وذلك هو الدين الحق الذي ابتعث الله سبحانه وتعالىٰ رسله من أجل تبليغه للناس.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ۝٦﴾ حكم الله تعالىٰ بنار جهنم لكفرة أهل الكتاب وكفرة المشركين خالدين فيها أبداً لردهم لدعوة الله تعالىٰ وتمردهم علىٰ رسله، ووصفهم بأنهم شر الخلق والخليقة.

﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ۝٧ جَزَاؤُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ۝٨﴾ وحكم الله جل جلاله للمؤمنين الذين يعملون الأعمال الصالحة بأنهم خير البرية وأعد لهم الجزاء الجزيل والثواب العظيم في جنات النعيم التي تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً، وقد فازوا برضوان الله تعالىٰ عنهم، ورضوا بما قد أعطاهم من الثواب.

ثم إن الله سبحانه وتعالىٰ يعطي مثل هذا الثواب لكل من خشي الله تعالىٰ بفعل طاعاته واجتناب معاصيه.

سورة الزلزلة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا① وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا② وَقَالَ الْإِنْسَانُ مَا لَهَا③ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا④ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا⑤ يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ⑥ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ⑦ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ⑧﴾ يذكر الله سبحانه وتعالىٰ أحوال يوم القيامة وحوادثها، وما سوف يلاقيه الإنسان في ذلك اليوم فذكر سبحانه وتعالىٰ أن الأرض تتزلزل وترتجف وتنسف نسفاً فتصير هباءً منبثاً، وأن الأرض ستخرج ما في بطنها من الأموات، وتلقيهم علىٰ ظهرها أحياءً بإذن الله تعالىٰ، فهنالك يعلم الإنسان الكافر حقيقة ما وعدت به أنبياء الله ورسله عليهم السلام وصدق ما جاءوا به من الإنذار والتحذير من ملاقاة هذا اليوم، وما فيه من الحساب والجزاء، وعند ذلك ينقسم الناس قسمين فمن كان من أهل طاعة الله تعالىٰ وخشيته فسيجازيه الله أحسن الجزاء ولا ينقصه مثقال ذرة، ومن كان من أهل الكفر بالله تعالىٰ وباليوم الآخر فسيلقىٰ جزاء كفره وعمله حتىٰ جزاء مثقال الذرة من أعماله.

❁❁❁❁❁

سورة العاديات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا① فَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا② فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحًا③ فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعًا④ فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعًا⑤﴾ أقسم الله سبحانه وتعالىٰ بالخيل التي تجري وهي تضبح، أي: تصوِّت، ولسرعة جريها تقدح النار بأخفافها، وهي مغيرة في الصباح فتثير الغبار في جريها فتتوسط جموع العدو.

أقسم الله تعالىٰ بذلك ليذكر عباده بما لهم من المنافع العظيمة في الخيل في الحروب وغزو العدو.

﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ۝٦ وَإِنَّهُ عَلَى ذَلِكَ لَشَهِيدٌ۝٧ وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ۝٨﴾ يذكر الله تعالى هنا طبيعة الإنسان الكافر وهي أنه كفور بنعمة ربه غير شاكر لها، ومع ذلك فهو يشهد على نفسه بالكفر بنعمة ربه، ومن صفته أنه شديد الحرص على جمع المال وتكديسه.

﴿أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ۝٩ وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ۝١٠ إِنَّ رَبَّهُمْ بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَخَبِيرٌ۝١١﴾ أفلا يعلم الإنسان الكافر أن الله تعالى سيحاسبه على كل صغير من أعماله وكبير في يوم القيامة عندما تبعثر القبور ويخرج الله تعالى الموتى من بطونها، وحين تتكشف خبايا الصدور وأعمال القلوب، وحقاً إن الله سبحانه وتعالى عالم بهم، ومطلع على أسرارهم وظواهرهم وبواطنهم لا تخفى عليه خافية، وسيجازي كلاً بعمله.

❁❁❁❁❁

سورة القارعة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الْقَارِعَةُ۝١ مَا الْقَارِعَةُ۝٢ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ۝٣ يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ۝٤ وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ۝٥ فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ۝٦ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ۝٧ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ۝٨ فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ۝٩ وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَهْ۝١٠ نَارٌ حَامِيَةٌ۝١١﴾:

يهول الله سبحانه وتعالى القيامة، وسماها هنا القارعة؛ لأنها تقرع الناس بأهوالها، وتصدمهم بحوادثها العظيمة، وفي ذلك اليوم يخرج الله تعالى الموتى من بطن الأرض فينتشرون على أرض المحشر كالفراش المنتشر.

وأما الجبال في يوم القيامة فستتفجر وتصير هباءً منبثاً، وهنالك وفي ذلك اليوم ينقسم أهل المحشر قسمين فقسم تثقل موازينهم بالطاعات وبالأعمال الصالحات، ولهم من الله سبحانه وتعالى الجزاء العظيم في جنات النعيم وفي عيشة مرضية فيها أنواع النعيم.

وقسم تخف موازينهم من الحسنات، وتثقل من السيئات فليس لهم عند الله تعالىٰ في ذلك اليوم إلا نار جهنم يلقون فيها علىٰ أم رؤوسهم بين حريق جهنم ولهيبها العظيم خالدين فيها أبداً.

۞۞۞۞۞

سورة التكاثر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ ① حَتَّىٰ زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ ② كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ③ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ④ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ ⑤ لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ ⑥ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ ⑦ ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ ⑧﴾ اشتغل أهل الكفر والشرك بالمكاثرة في الأموال والأولاد، وألهتهم زينة الحياة الدنيا عن اليوم الآخر وما فيه من الحساب والجزاء والجنة والنار حتىٰ ماتوا وهم كافرون به، فإن كفرتم أيها المشركون باليوم الآخر اليوم فستعلمون غداً حين يأتي الله تعالىٰ باليوم الآخر، وسترونه بأعينكم وترون ما فيه من الأهوال وما أعد الله سبحانه وتعالىٰ فيه من العذاب العظيم للكافرين، ومن النعيم المقيم للمؤمنين، ولسوف يحاسبكم الله تعالىٰ حساباً شديداً ويسألكم عن كل صغير وكبير من أعمالكم.

۞۞۞۞۞

سورة العصر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالْعَصْرِ ① إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ ② إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ③﴾ أقسم الله سبحانه وتعالىٰ بالعصر وهو الزمان الممتد منذ أن خلق الله سبحانه وتعالىٰ الزمان إلىٰ يوم القيامة ليؤكد لعباده بهذا القسم علىٰ أن كل إنسان مكلف صائر إلىٰ الهلاك والخسران والعذاب

العظيم إلا من جمع من عباده بين الإيمان والأعمال الصالحة، ودعا إلى طاعة الله سبحانه وتعالى ونهى عن معاصيه، وحث على الصبر على الإيمان والهدى ودعا إلى الاستقامة على الهدى.

❁❁❁❁❁

سورة الهمزة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ۝١ الَّذِى جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ۝٢ يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ۝٣ كَلَّا لَيُنْبَذَنَّ فِى الْحُطَمَةِ۝٤ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحُطَمَةُ۝٥ نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ۝٦ الَّتِى تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ۝٧ إِنَّهَا عَلَيْهِمْ مُؤْصَدَةٌ۝٨ فِى عَمَدٍ مُمَدَّدَةٍ۝٩﴾:

في هذه السورة الوعيد العظيم من الله سبحانه وتعالى بنار جهنم لكل من ينتقص الناس، ويهتك أعراضهم، ويسخر منهم، ويستهزئ بهم، وقد نزلت في رجل من كبار قريش، وكان من أثريائهم وأغنيائهم، له مال مكدس، ويظن أنه لن يلحقه بسبب كثرة ماله ما يكدر عليه حياته، فزجره الله سبحانه وتعالى عن هذا الحسبان وأقسم أنه سيلقيه في نار جهنم التي تحطم ما وقع فيها وهو مهين، وهي نار أعدها الله سبحانه وتعالى بقدرته ليعذب بها المجرمين، يصل حريقها إلى الأفئدة، وسيسجنهم فيها ويغلق عليهم أبوابها المقفلة بالعمد الممدة.

❁❁❁❁❁

سورة الفيل

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ۝١ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِى تَضْلِيلٍ۝٢ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ۝٣ تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِنْ سِجِّيلٍ۝٤ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ۝٥﴾ يطمئن الله سبحانه وتعالى نبيه ﷺ بأنه معه بنصره وتأييده، وأنه

سيظهر أمره ويظهر دينه، ويدحر المشركين ويظهره عليهم، وأنه لن يتركه فقال له ربه: ألم تنظر يا محمد كيف دحر الله تعالى أصحاب الفيل، وردهم عن بيته الحرام، وأبطل كيدهم، وما أجلبوا به من القوة والعدد، وأرسل أسراباً من الطير عليهم تحمل حجارة من طين مستحجر فرمتهم بتلك الحجارة فقتلتهم عن بكرة أبيهم، وتركتهم كأعواد الذرة التي أكلتها الحيوانات وداستها بأقدامها.



سورة قريش

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ ۝١ إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ ۝٢ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَٰذَا الْبَيْتِ ۝٣ الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ ۝٤﴾ دعا الله سبحانه وتعالى قريشاً إلى الإيمان به وإلى عبادته وإلى شكر نعمته التي اختصهم بها من دون الناس جميعاً، وذلك حيث آمنهم في أسفارهم إلى الشام وإلى اليمن وإلى حيثما شاءوا لا يتعرض لهم أحد بسوء أو مكروه؛ لأنهم أهل الله وأهل البيت الحرام، فهم من دون الناس أهل غنى وثراء بسبب أمنهم وأسفارهم وتجاراتهم.

❁❁❁❁❁

سورة الماعون

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ ۝١ فَذَٰلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ ۝٢ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ ۝٣ فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ ۝٤ الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ۝٥ الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ ۝٦ وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ ۝٧﴾:

هل وقع بصرك يا محمد على الذي يكذب بالدين؟ وهل عرفته حق معرفته؟ إن لم تكن تعرفه فإنه هو الذي يكذب بالجزاء والحساب، ويجحد

البعث والنشور يوم القيامة، ومن صفاته الظاهرة قسوة القلب وعدم الرحمة، فلا يرحم اليتيم، ولا يحث على إطعام المسكين وسد جوعته، ويعنف أشد العنف باليتامى، ويدفعهم دفعاً شديداً إن قربوا منه لالتماس خيره، فهذه صفاته الظاهرة، ولو كان مؤمناً ببعث الناس للجزاء والحساب لرحم اليتيم والمسكين، وواساهم من ماله، ودعا الناس إلى سد خلتهم، وإشباع جوعتهم.

ثم ذكر الله تعالى بعد ذلك صفات الذين دخلوا في الإسلام على غير بصيرة وعلى غير يقين، فتوعدهم الله تعالى بالعذاب الشديد؛ لأنهم يفرطون في إقامة الصلوات ويضيعونها، ويمنعون الزكاة ولا يؤدونها إلى مستحقيها، ولو أن الإيمان دخل في قلوبهم لما ضيعوا صلواتهم، ولما فرطوا في أداء زكواتهم، وإن صلوا وأدوا شيئاً من الزكاة فإنما يؤدونها رياءً.



سورة الكوثر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ۝١ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ۝٢ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ۝٣﴾

قال بعض رجال قريش وهو العاص بن وائل لقريش: لا يهمكم أمر محمد فهو رجل أبتر لا ولد له فإذا مات مات دينه معه، فاغتم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لهذه المقالة فنزلت هذه السورة لتزيل غم النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقال الله تعالى له: قد أعطيناك يا محمد الخير الكثير والنسل الكثير والذرية المباركة والذكر الحسن، ورفعنا لك ذكرك وشهرنا أمرك، وأعطيناك أجرك في الدنيا والآخرة، ولن ينقطع ذكرك ودينك إلى يوم القيامة، فاستمر على عبادة الله تعالى وتوحيده وخصه بالصلاة والذبح، ولا يصدنك قول ذلك الكافر، ولا تغتم من قيله فهو الأبتر لا أنت.

سورة الكافرون

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿قُلْ يَاأَيُّهَا الْكَافِرُونَ۝١ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ۝٢ وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ۝٣ وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ۝٤ وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ۝٥ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ۝٦﴾ دعت قريش رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلى المصالحة فنزلت هذه السورة ليرد بها النبي صلى الله عليه وآله وسلم على المشركين بأنه لا مجال للصلح وحل الوسط، لا أنا داخل في عبادتكم وشرككم، ولا أنتم داخلون في الإسلام ودينه، فلكم دينكم ولي ديني.

سورة النصر

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ۝١ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا۝٢ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا۝٣﴾ إذا نصر الله سبحانه وتعالى دينك يا محمد وانتشر في الآفاق وفتحت مكة وأسلم أهلها طوعاً أو كرهاً، وأقبل الناس إليك بالإسلام والتسليم فاعلم أن أجلك قد قرب وحان حلوله، فأقبل إلى ربك بالعبادة والاستغفار.



سورة المسد

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ۝١ مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ۝٢ سَيَصْلَى نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ۝٣ وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ۝٤ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِنْ مَسَدٍ۝٥﴾ كان أبو لهب عم النبي صلى الله عليه وآله وسلم يسعى مع قريش في إبطال أمر النبي صلى الله عليه وآله وسلم وإبطال دينه

ورد دعوته فقال الله سبحانه وتعالى: إن صنيع أبي لهب وكيده للإسلام ونبي الإسلام كيد باطل وسعي خاسر فسينصر الله سبحانه وتعالى نبيه صلى الله عليه وآله وسلم ودينه، وسيلقى أبو لهب جزاءه، ولن يغني عنه كثرة ماله وكثرة كسبه، وسيصلى ناراً شديدة اللهب فقد خاب وخاب سعيه، وكانت امرأته شريكته في كيد الإسلام وأذية النبي صلى الله عليه وآله وسلم فأعد الله سبحانه وتعالى لها عذاباً في جهنم، وجعل لها حبلاً في عنقها من نار تحمل على ظهرها حطباً من نار جهنم جزاءً على ما كانت تصنع من الأذية لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بحمل الشوك على ظهرها لتضعه في طريقه صلى الله عليه وآله وسلم.

❁❁❁❁❁

سورة الصمد

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ۝١ اللَّهُ الصَّمَدُ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ۝٣ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ۝٤﴾ أعلن يا محمد في الناس أن الله سبحانه وتعالى واحد أحد لا شريك له في الإلهية والربوبية، وأنه الإله المقصود الذي تقصده الخلائق وتتوجه إليه في عبادتها وحوائجها، وأنه ليس من جنس المخلوقات فلم يلد ولم يولد، وليس له كفو ولا مماثل في العظمة والجلالة تعالى الله عما يقول المشركون علواً كبيراً.

❁❁❁❁❁

سورة الفلق

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ۝١ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ۝٢ وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ۝٣ وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ۝٤ وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ۝٥﴾ لذ بربك يا محمد واستجر به فهو القادر على حفظك وإجارتك، ومن لاذ به كفاه ومن استجار به أجاره فهو رب الفلق، والفلق هو نور الفجر، وهو آية واضحة على عظيم

قدرته، وأنه قادر على كل شيء وعلى حفظ من استجار به، وعلى كف شر كل ما خلقه الله تعالى، وعلى حفظك يا محمد من شر ظلام الليل إذا دخل، ومن شر السحر والسحرة، ومن شر الحاسدين إذا حسدوك.

❁❁❁❁❁

سورة الناس

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ۝١ مَلِكِ النَّاسِ ۝٢ إِلَٰهِ النَّاسِ ۝٣ مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ ۝٤ الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ ۝٥ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ ۝٦﴾ لذ يا محمد واستجر برب الناس المالك لهم المحيطة قدرته بهم الذي هو على كل شيء قدير من شر الشيطان الذي يخنس بخفية إلى صدور الناس فيوسوس لهم فيها بوساوسه الخبيثة، والوسواس صنفان: صنف من الجن الذي لا نراه ويرانا، وصنف من الناس وهم أشرارهم وشياطينهم.

صدق الله العلي العظيم

❁❁❁❁❁

كان الفراغ من صف هذا التفسير عشية يوم السبت الحادي عشر من شهر شعبان سنة ألف وأربعمائة وستة وثلاثين في عشيشة ضواحي الجلة ذو صميم سفيان محل النزوح. علي محمد عبد الله عوض.





الفهرس